جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم التاريخ

إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام
من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري
12-15م

مذكرة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

من إعداد الطالب:
الحاج عيفة

تحت إشراف:
أ.د.عبد الحميد حاجيات

السنة الجامعية
2010-2009

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم التاريخ

إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري 12-15م

مذكرة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

من إعداد الطالب:
الحاج عيفة

تحت إشراف:
أ.د.عبد الحميد حاجيات

أعضاء لجنة المناقشة

1 -د/ محمد بن عميرة ....رئيسا
2 -أ.د/ عبد الحميد حاجيات ....مقررا
3 -د/ خالد كبير علال ....عضوا
4 -د/ قويدر بشار ....عضوا
5 -د/ سامية بوعمران ....عضوا
6 -د/ عبد الحميد خالدي ....عضوا

السنة الجامعية

2010-2009



رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ١٨

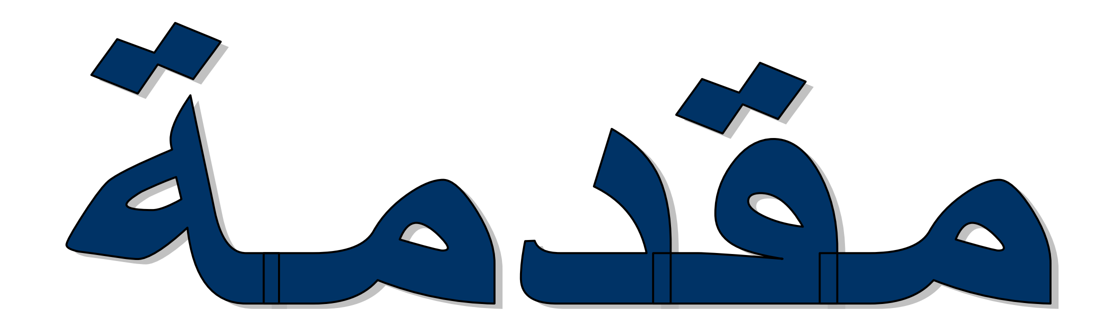
صدق الله العظيم

الإهداء

إلى زوجتي وأولادي الذين تحملوا وصبروا انشغالي وبعدي عنهم.

إلى المؤمنين بوحدة الوطن العربي الإسلامي من المحيط إلى الخليج.

أقدم هذا البحث راجيا ألا أحيد عن جادة الصواب.


مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدى ووفق وأعان ويسر وبعد:

إن بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، امتداد طبيعي وعضوي، الصلة بينهم ممتدة منذ أقدم العصور، وبقيت حتى يومنا هذا، ومن هنا كان الوجود المغربي والأندلسي في مصر وبلاد الشام.

وقد لقي هذا الوجود الترحيب، وإفساح المجال أمامه ليمارس حياته ونشاطه بحرية تامة، والارتباط بمجتمعهما كيفما شاء له الارتباط.

وقد فضل كثير من المغاربة والأندلسيين الذين أموا مصر والشام، البقاء فيها، والانتماء إليهما انتماء أبديا، وأصبحت مصر أو الشام وطنا ثانيا لهم.

وليس التدليل على قوة الرابطة بين المشرق العربي والمغرب الإسلامي وأصالتها بحاجة إلى إثبات، فعملية الأخذ والعطاء والتأثير بينهما واضحة براهينها في تراثنا المشترك الديني والثقافي والاجتماعي.

إن الجالية المغربية والأندلسية، التي كانت منتشرة في المدن والقرى المصرية والشامية، كان لها أثر كبير على مختلف مناحي حياة المجتمع المصري والشامي، في الفترة الممتدة من بداية القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري (12ـ15م)، لأنها لم تكن جالية مغلقة تعيش في عزلة عن المجتمع الذي وجدت فيه بل لأنها قوت رابطتها بأشقائها من أبناء مصر والشام والجاليات الأخرى، مما أعطى لدور هذه الجالية فاعلية وحيوية، وجعل ارتباطها بالمجتمع المصري والشامي، ارتباطا عضويا شاملا، اقتصاديا، وثقافيا، واجتماعيا، ودينيا...الخ.

وهذه الدراسة تتقصى، إسهامات هذه الجالية في مختلف جوانب حياة المجتمع المصري والشامي، من خلال المصادر المعاصرة للفترة، موضوع الدراسة.

ولقد حرصت على أن لا نجعل من هذه الدراسة مجرد سرد للحوادث التاريخية السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحتى العسكرية...الخ.

وإنما ركزت جهدي على تحليل الأحداث والبحث عن أسبابها و وسعت نظرتي على دور المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام في معظم المجالات، وحاولت أن أبرز

شخصية المغاربة والأندلسيين أمام إخوانهم المشارقة خلال فترة البحث في مختلف الميادين، وهذا ما سيتأكد بصورة أكثر وضوحا عند دراستنا للوجود المغربي والأندلسي في مصر وبلاد الشام عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية إن شاء الله.

ويرجع سبب اختياري لهذا الموضوع هو تعرض الوطن العربي هذه الأيام لإثارة الأحقاد السياسية، وتمتين عوامل الفرقة، ومحاولة إظهار أن المغرب العربي له كيانه الحضاري المستقل عن المشرق العربي، ولحفر هوة عميقة بينهما تكون فاصلا أبديا، ليبقى الوطن العربي كله تحت السيطرة الأجنبية، ضعيفا اقتصاديا، وعسكريا، وثقافيا، التي هي ثقافة عربية شرقية المنبع، انتقلت إلى المغرب والأندلس مع الفاتحين، وتطورت إلى أن استطاع أهلها أن يتعمقوا في كل ميدان من ميادينها، ويتفوقوا إلى أقصى الحدود، وقصدوا المشرق العربي لينهالوا من ثقافته وينزلوا حيث استطاب لهم النزول.

وأصبحت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق العربي عامة، ومصر وبلاد الشام خاصة، في بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، رحلات استقرار دائم لكثير منهم، خاصة بعد ضياع ملكهم في الأندلس، وانقسام الدولة الموحدية في المغرب الإسلامي، وأصبح المشرق العربي الملاذ الوحيد لهم، لا يقف في وجههم مانع ولا يعوقهم عائق، و وجدوا فيه أرضا خصبة عوضتهم عما فقدوه في بلدهم وانخرطوا في بوتقة حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية بسرعة فائقة، وتجسد مفهوم الأمة الواحدة، لأن تراثها واحد، وحضارتها واحدة.

والذي شدني إلى هذا الموضوع هو اهتمامي به منذ دراستي الجامعية، حيث لاحظت جهل إخواننا المشارقة تاريخ المغرب العربي ماعدا بعض الكتابات الخجولة التي تتسم بالأخطاء التاريخية، والجغرافية، بينما نجد المغاربة يعرفون كل شيء عن المشرق العربي ربما أكثر من أهله، رجاله، وتاريخه، وأدبه، وفنه...الخ، لأنهم لا يعنون بالمغرب وشؤونه تاريخيا وحضاريا وفكرا ...الخ.

وصحت كلمة أبو يعلى الزواوي حيث قال: «اشتغالنا بالمشرق أنسانا أنفسنا».

لقد أسرفنا في الإقبال على كل ما يرد علينا من المشرق حتى أفقدنا الثقة بأنفسنا، فكل ما يلفظه بريد المشرق ينال كل الإعجاب والتقدير، والبعض يحمل إلينا شرورا ومفاسدا وسموما.

يجب أن نصحح خطأ وقع فيه المشرق العربي هو إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، لأننا نكاد نقف في قراءة التاريخ عند العصر العباسي الثاني، بعد أن نبدأ بالعصر الراشدي، ثم الأموي، وأن التاريخ الإسلامي هو تاريخ المشرق العربي وحده، و هذا غيب عن العقل العربي صفحات كثيرة من تاريخ المغرب العربي الكبير، فالكثير من خريجي الجامعات المشرقية يقفون بمعارفهم عند الحدود التي ذكرناها، وأنهم لا يعرفون شيئا عن الأدارسة، والأغالبة، والحماديين، والمرابطين، والموحدين،...الخ في منطقة المغرب العربي.

لقد عاد المغرب العربي من الإهمال بسبب عقدة تفوق المشارقة اتجاه الثقافة المغربية وحضارتها.

إننا نعاتب المشارقة على لامبالاتهم بسبب بقاء ثقافتنا وحضارتنا في حكم الإغفال، لأنهم منشغلين بنفسهم ونسوا دافع العروبة والإسلام اللذان يربطان المشرق بالمغرب لأنهما يعتبران جسم واحد لا يمكن فصلهما لأن المغرب العربي جزءا من الوطن العربي الكبير.

ويجب على المشارقة (مصريين، وشاميين على الخصوص)، أن يعرفوا بأن لهم نظراء سطع نجمهم في جميع أنحاء العالم، وفي المشرق العربي خاصة، رغم أن هناك تواصل ثقافي و فكري وشعوري على مر العصور.

لكن الظاهرة العامة تبقى كما أشرنا من حيث الإغفال العام لشؤون المغرب العربي من جانب الأوساط الفكرية بالمشرق العربي.

هكذا نرى عقدة التفوق المصرية والشامية على حساب إخوانهم المغاربة، هذه حقيقة لابد أن نأخذها بعين الاعتبار لدى معاتبتنا لإخواننا المصريين والشاميين لأنهم مبتعدين عنا ومنجذبين لأضوائهم على حساب أعلامنا ورموزنا، وهذا نعتبره حصار حول مغربنا حتى لا يظهر تراثنا الحضاري والفكري في جميع المجالات على مر الحقب التاريخية لأن ظهور هذه الشموع تطفئ نجومهم ويصبح مكانهم ضيق في مجال الفكر وغيره.

والعجيب في الأمر نجد الشهرة التي افتعلوها على مفكريهم وأدبائهم سيطرت على مناهج مدارسنا وجامعاتنا ونسينا مفكرينا وأدبائنا، والغريب مستوى أعلامنا في هذا المضمار فرق شاسع بينهم وبين المصريين والشاميين، بل هؤلاء كانوا يأخذون عليهم الإجازات في شتى مجالات المعرفة والعلوم وكانوا أساتذتهم، وقضاتهم، وقادتهم...الخ.

وهذا مما أدى إلى طمس أعلامنا حتى في مناهجنا التعليمية تذكر أعلام المشرق، وأعلام الغرب، دون ذكر أعلام المغرب العربي الذين ذاع صيتهم في جميع الآفاق عبر المراحل التاريخية.

لهذا يجب فتح الجسور في هذا المجال بين المشرق العربي والمغرب العربي، وفتح دور النشر لتراثنا الحضاري والفكري هناك في المشرق العربي، أو يجب أن يبرمج صانعوا حضارتنا العربية الإسلامية ورجال الفكر في مغربنا العربي في جميع المجالات، في البرامج الدراسية في جميع المراحل في المشرق العربي كله حتى يتعرف إخواننا هناك على حضارة إخوانهم في المغرب العربي ويكون هذا بالمثل الذي نقوم به نحن في برامجنا.

وهذا ليس من باب التفرقة بين المشرق العربي والمغرب العربي، وإنما من باب الإنصاف وإغلاق باب التهميش، وفتح باب الترابط والتكامل والتواصل بين المنطقتين حتى يصير الوطن العربي جسما واحدا لا يمكن تجزئته أبدا.

قد يعتقد لأول وهلة أن الكتابة في هذا الموضوع أمر سهل ميسور، لتوافر بعض المصادر والوثائق الأصلية، إلا أنه لا يزال في حاجة ماسة إلى المزيد من الدراسة الموضوعية المتأنية المتخصصة، لإجلاء ما خفي منها، أو سد إحدى فجواته، اعتمادا على ما جاء في المصادر و الأصول بعد مقارنة روايتها المختلفة ببعضها البعض، وصولا إلى الحقيقة التاريخية المجردة، أما دراسة ما تحويه المصادر من معلومات تتعلق بالمغاربة والأندلسيين، وإسهاماتهم المختلفة في المشرق العربي عامة، ومصر وبلاد الشام خاصة، منذ مطلع القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري (12ــ15م) يصبح أمرا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه عند دراسة تاريخ المغرب والأندلس في تلك الفترة، حيث أن هذه المعلومات تثير أمام الباحث كثير من القضايا والتساؤلات التي تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس من ناحية وبعلاقته بتاريخ المشرق من ناحية أخرى، وأولى هذه القضايا والتساؤلات التي تثيرها هذه المصادر هي:

ــ كيف انتشر المغاربة والأندلسيون بهذه الصورة الواسعة في المشرق العربي عامة، وفي مصر وبلاد الشام خاصة ؟

ــ ما الدوافع وراء هذا المد المغربي والأندلسي إلى هذه الديار المشرقية ؟

ــ و ما هي إسهامات المغاربة والأندلسيين في كل من مصر وبلاد الشام ؟

ـ ما هو الأثر الذي تركه المغاربة والأندلسيين في كل من مصر وبلاد الشام ؟

لقد أصبح المغاربة والأندلسيين يشكلون قوة لا يمكن الاستهانة بها داخل المجتمع المصري والشامي، حتى أن كثير من الشوارع والحارات، والدروب، داخل المدن المصرية والشامية تحمل أسماء مغاربة وأندلسيين، أو اسم عالم أو رجل دين حاز على مكانة اجتماعية لها وزنها، مثل **السيد أبو العباس المرسي** بالإسكندرية، و**السيد أحمد البدوي** بطنطا، وحارة المغاربة بالقدس الشريف...الخ.

لم يكن لهذا الانتشار عوامل ضغط سياسي فقط بل هناك عوامل وأسباب أخرى ساهمت في هذه الانتشار تتعلق بطبيعة الشعب المغربي، وحبه للرحلة والاستكشاف، وتعلقه بالأماكن المقدسة، وسعيه في سبيل العلم من ناحية أخرى.

و رغم أهمية الموضوع الذي اخترته لم يدرس دراسة وافيه شاملة، حيث لم يظهر لحد الآن حسب علمي مؤلف متكامل عن هذا الموضوع ومن كتبوا عن بعض جوانبه لم يهتموا أساسا بالدور الذي لعبه المغاربة والأندلسيين في حياة المجتمع المصري والشامي، بل يميلون أكثر إلى المشارقة، حيث يظهر ذلك جليا من خلال حرص معظم المؤرخين على إبراز دور المشارقة في تطور الحضارة العربية الإسلامية مع تجاهل دور المغاربة والأندلسيين في ذلك.

و هذا ما جعلني أتتبع آثار ونشاط المغاربة والأندلسيون في مصر وبلاد الشام في بطون المصادر والمراجع، ومناقشة مختلف الروايات والنصوص المتضاربة، وبعد المناقشة إن شاء الله تتلاقح وتنمو الأفكار ويتحقق القصد وبالتالي تتضح المفاهيم وتتجلى المعالم وتعم الفائدة وتلك إحدى الأهداف البارزة التي نريدها من كتابة هذا البحث الذي أعتبره بداية لمثل هذه الموضوعات التي تحتاج إلى بحث طويل وعميق حتى نوفيه حقه ويكتمل بنيانه.

و إذا أشرت إلى العقبات فإنها كانت عديدة، أهمها:

ـ أن المصادر العربية التي رجعت إليها أغلبها لم تكتب بطريقة علمية منظمة مما استدعى قراءة وبحثا استنفذا مني كثيرا من الجهد والوقت، كما أن هذه المصادر لم تعطي أهمية لإسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام.

ــ والنوع الثاني من المصادر أجنبية كتبت أكثرها لغاية سياسية تسميمية تقصد تشويه العلاقات بين المشرق العربي والمغرب الإسلامي، وبتر ارتباط المغرب الإسلامي بالمشرق العربي وقتل عبقرية المغاربة والأندلسيين العلمية والحضارية.

ــ وكتب تنقصهم النظرة الأصلية لطبيعة المغاربة، فلم يهتدوا إلى تفسير الكثير منها تفسيرا صحيحا سليما، فكان لابد من غربلتها جميعا وأخذ الحيطة من الأخطاء التي وقعت فيها الفئة الثانية.

لذلك رأيت من المناسب فعلا أن أكمل الموضوع وأطرحه بأسلوب ميسر موثق حتى نكون على بينة بما كان من دور المغاربة والأندلسيين في تاريخ مصر والشام وفي جميع مجالات الحياة.

و بصورة عامة فإن هذا البحث يشكل في فصوله حجة داحضة لكل الذي قيل وابتكر من أباطيل كان القصد منها الإساءة إلى قدسية وعمق الروابط العربية الإسلامية المشتركة وهو من ناحية أخرى مثال مفيد وايجابي على إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام في المجال الثقافي والعلمي، والإداري والسياسي والقضاء والتدريس، وفي المجال العسكري، وفي المجالين الاقتصادي والاجتماعي من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري (12ــ15م)، وحتى لا يكون العمل عشوائيا، فقد جعلت الموضوع تحت عنوان «**إسهامات المغاربة و الأندلسيين في مصر و الشام من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري/الثاني عشر إلى الخامس عشر الميلادي**»

ففي الفصل الأول نبرز العلاقات بين المغرب الإسلامي ومصر وبلاد الشام التي ظلت مستمرة لم تنقطع لحظة واحدة على الرغم من حالة التوتر السياسي التي ظلت مسيطرة على الأجواء حتى نهاية القرن (الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)، الأمر الذي ساعد المغاربة والأندلسيين على الاستفادة من المؤثرات المشرقية في مختلف الميادين، الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية...الخ بصورة مباشرة.

ويظهر من خلال فقرات الفصل الثاني إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر والشام في الحركة العلمية والثقافية، فكان منهم الأطباء والصيادلة، والمهندسين، واللغويون، والأدباء، والمؤرخون، والفلاسفة، والفقهاء، والمتكلمون، والمحدثون، والقراء، كما اعتمد المشارقة على المصادر المغربية والأندلسية في هذا المجال.

وقد برهن الفصل الثالث على أنهم (المغربة والأندلسيين) شغلوا حيزا مهما في الميدان السياسي والإداري، والقضائي، والعسكري، والتدريس...الخ.

ومثل هذا الفصل كان الفص الرابع الذي اقتصر على تبيان إسهامات المغاربة والأندلسيين في الميدان الاقتصادي، والاجتماعي، والزهد، والتصوف...الخ.

وقد خلص البحث في النهاية إلى عدة نتائج لعل في مقدمتها أته لم يعثر على إشارة تدل على أن مغربيا أو أندلسيا من بين الذين استقروا في مصر أو بلاد الشام، واشتغلوا في ميادين الفكر والثقافة، كان قد ظهر منهم شيئا يوحي إلى أنه كان يرمي إلى تطوير أو تشجيع ثقافة غير الثقافة العربية، فبرهنوا بذلك على مدى وشدة ظلم وافتراء الحاقدين على وحدة العرب من الخليج إلى المحيط التي بدونها لا يمكن أن يولد المستقبل العربي الإسلامي المنتظر.

وفي الأخير لقد بذلت في إعداد هذا البحث من الجهد الشاق المضني ما الله وحده يعلمه، الذي قصدت به وجهه الكريم، فأرجو أن يكون التوفيق قد صاحبني فيما قصدت إليه، وفيما توصلت إلى توضيحه وتجليته من أمور تتعلق بموضوع «إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام خلال فترة البحث».

هذا البحث ساهم في ظهوره الكثير وأنا مدين لهم جميعا بالشكر والتقدير لما أبدوه من اقتراحات مفيدة ومثمرة، وما بذلوه من مساعدات علمية مشكورة، فجزى الله الجميع وأثابهم على مساهماتهم بما يستحقون، وجعل الله البركة والسداد والتوفيق والنجاح حليفهم في خدمة تاريخ وطنهم العربي الإسلامي.

وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور المشرف **عبد الحميد حاجيات** الذي كان تشجيعه الأدبي أكبر عون لي على انجاز هذه الدراسة، ومراعاته خطوات هذا البحث في جميع مراحله.

ولا يفوتني هنا أن أنوه بفضل الأستاذ الدكتور **علي أحمد** من جامعة دمشق الذي منحني من علمه وكتبه وإمكاناته ما يعجز مثلي عن مكافأته عندما زرته بجامعة دمشق مرتين فكان مشرفا ثانيا لي، والدكتور **نذير وهاب** مسؤول بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ومدير الإدارة العامة للمكتبات والمعلومات الدكتور **صالح بن ناصر الخريجي** بنفس المركز، عن المساعدات القيمة التي وجدتها منهما التي أسهمت كثيرا في تقويم البحث وتهذيبه، و لا أنسى الكثير من الأساتذة

والمشايخ الذين أسهموا بتوجيهاتهم وآرائهم القيمة، عندما زرت مصر، والشام، والمملكة العربية السعودية، والأردن، والمغرب، وتونس.

وكذلك لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل الزملاء الأساتذة الذين قدموا لي يد المساعدة، مثل الأستاذ **بوسعد الطيب**، والأستاذة **عيفة زينب**، والأستاذ **رضا قفاز**.

فإن الروح العلمية العالية التي لمستها من هؤلاء وأولئك فتحت أمامي آفاقا سطرت آثارها على هذا العمل شكلا ومضمونا، وهو بحق ثمرة التجاوب، والتعاون العلمي، كما هو رمز لما يمكن أن يحققه التعاون العلمي في تحقيق طموحات أمتنا العربية الإسلامية، سدد الله الخطى ومن على الجميع بالتوفيق، والله أسأل أن يكون في هذا البحث ما يعين على كشف ستر التعتيم الذي أسدله المستشرقون على حقيقة إسهامات المغاربة والأندلسيين في المشرق العربي، التي عملت على تمتين صلة أبناء الأمة الواحدة مغربها بمشرقها ويعرضها واضحة جلية.

والله أدعو أن تجد هذه الدراسة القبول لدى أعضاء لجنة المناقشة، وأن تحفز الأساتذة والطلبة على الإقبال على دراسة مثل هذه الموضوعات خدمة لوطننا العربي الإسلامي.

كما أتقدم بالشكر سلفا لكل من يتقدم لي بالملاحظات البناءة، وتصويب ما يرى تصويبه من طرف أعضاء اللجنة الموقرة حتى أتحاشاه، فالكمال لله وحده وأنا لا أدعيه، وإنني مستعد على تسديد ثغراته، معتمدا في ذلك على ملاحظات، وتنبيه على هذا الخطأ أو ذاك، أو هذه الفكرة أو تلك من أعضاء المناقشة.

وأرجو مخلصا أن تلمس اللجنة الجهد الذي بذلته في هذا الموضوع، هذا هو مقدار جهدي المتواضع، فان أصبت لي أجران، وإن كان غير ذلك فلي أجر الاجتهاد، وعلى الله قصد السبيل.

هذا وقد اعتمدت في عرضي لهذه الدراسة على عدد من المصادر الأساسية والمراجع العربية والأجنبية والدوريات المتخصصة في موضوع البحث، وفيما يلي عرض لأهم هذه المصادر والمراجع.

1. المصادر

تشكل العمود الفقري في هذا البحث، وقد تفاوتت فيما بينها، فمنها ما هو في التراجم ومنها ما هو في الطبقات وبعضها الآخر على طريقة الموضوعات أو على طريقة التاريخ العام، بالإضافة إلى مؤلفات الجغرافيين والمعجم، وهي كما يلي:

✓ كتاب **الصلة** لابن الشكوال (ت578هـ/1183م)، وهو كتاب تراجم جعله ذيلا على تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، ورتبه على حروف المعجم، ويساعد هذا الكتاب على استنتاج بعض المعلومات التي تخص العلاقة التجارية بين المشرق والمغرب والأندلس في فترة ما قبل القرن (6هـ/12م)، ومن ناحية أخرى فإن هذا الكتاب يغطي العلاقات الفكرية بين القطرين في القرن (5هـ/11م).

✓ كتاب **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** لعلي بن يوسف القفطي (ت646هـ/1249م)، وقد جمع القفطي تراجم الأطباء والفلاسفة من العرب منذ أقدم العصور حتى زمانه وهو مرتب على حروف المعجم، ويعتبر من الكتب الهامة جدا، حيث غطى جميع ما يتعلق بحلب من أسماء مغاربة عاشوا أو مروا فيها وينفرد بمزية أنه ذكر تراجم لم يذكرها غيره[1].

✓ كتاب **التكملة لكتاب الصلة** لمحمد بن عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن الآبار (ت659هـ/1261م)، وقد غطى هذا الكتاب تراجم رجال القرن السادس وثلث القرن السابع للهجرة، فهو مكمل لابن الفرضي و ابن الشكوال، ومرتب على حروف المعجم، ويعطي فكرة ذات قيمة كبيرة حول الأوضاع السياسية في الأندلس خلال القرنين السادس والسابع بالإضافة إلى أنه يعطي بعض المعلومات التي تتعلق بالطرق التجارية[2]، وكتابه الثاني من حيث أهميته للبحث هو:

✓ كتاب **المعجم** في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي، وهو كتاب تراجم رتبه على حروف المعجم، وتجسدت قيمته، بأنه يعكس المكانة الدينية لبيت المقدس من خلال الأحاديث والقصص التي ذكرها، والتي نقلت إلى الأندلس والمغرب عبر زوارها من المغاربة والأندلسيين في فترة ما بعد تحريرها من الصليبيين.

---

[1] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه وتصحيحه ونشره الخانجي، مصر 1326هـ، ص1.

[2] ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مصر، ص637-638.

✓ كتاب **وفيات الأعيان** لأحمد بن محمد الأربلي المعروف بابن خلكان (ت681هـ/1282م)، وهو من الكتب الكبيرة وصاحبه من الشخصيات الإسلامية المرموقة، شغل عدة أعمال علمية وقضائية وإدارية بمدينة دمشق خلال القرن (7هـ/13م)، وقد رتب كتابه هذا على حسب حروف المعجم وهو يركز على المشاهير من الحكام والوزراء والعلماء من المشرق والأندلس، ويعطي بعض المعلومات التي تهم مدينة حلب على الصعيد العلمي، إضافة إلى أنه يذكر معلومات متفرقة عن شخصيات مغربية وأندلسية في المشرق العربي.

✓ كتاب **فوات الوفيات** لابن شاكر الكتبي، الذي استدرك ما اعتبره نواقص في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، يقول ابن شاكر الكتبي: "... لم يذكر أحدا من الخلفاء ورأيته قد اخل بتراجم فضلاء زمانه، فأحببت أن أجمع كتابا يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء والسادة الفضلاء من وفاته إلى الآن..."[1]، وهو مرتب على حروف المعجم ويحتوي على فوائد كبيرة حيث يذكر على سبيل المثال ابن مالك النحوي، و ابن عربي وغيرهما من نزلاء المشرق العربي من الأندلسيين والمغاربة.

✓ كتاب **الوافي بالوفيات** لصلاح بن أبيك الصفدي (ت764هـ/1363م)، من أهم كتب التراجم المشرقية ويتساوى مع أفضلها، إقتصر الصفدي فيه على ترجمة الأعيان من حكام وعلماء وإداريين بارزين، ومنهم المغاربة والأندلسيون ورتبه على حروف المعجم بادئا بحرف الميم تيمنا على ما يبدو باسم الرسول العربي الكريم. ويعتبر من المصادر الغنية في شتى حقول المعرفة التي أسهم بها المغاربة والأندلسيون في المشرق العربي[2].

✓ كتاب **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** لابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م) الذي يعتبر أهم كتاب دون رجال القرن (8هـ/14م)، وقد رتبه على حروف المعجم ويعتبر بلا جدال من مصادر البحث الرئيسية كونه احتوى على تراجم لأندلسيين ومغاربة سكنوا المشرق العربي خلال القرن المذكور ويمتاز أنه يركز على تلاميذ الأساتذة الذي يترجم لهم.

---

[1] ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، 1951م، ص2.

[2] أنظر: على سبيل المثال قوله عن ابن عربي، الوافي بالوفيات، ج1، تحقيق: محمد ابن عبد الله و محمد بن محمود بإعتناء س.ديدرينغ، دمشق 1959م، ص174-175.

✓ كتاب **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** لمحمد عبد الرحمن السخاوي (ت902هـ/1498م)، وهو على غرار الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ويعتبر من أضخم الكتب التي درست حياة علماء القرن (9هـ/15م)، وأرخت لهم حسب حروف المعجم وترجم للعلماء من رواة وأدباء وشعراء ومؤرخين وأطباء إلى غير ذلك ولغناه يشكل أحد المصادر الرئيسية لكثير من فقرات هذا البحث.

✓ كتاب **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** لموفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي المعروف بإبن أبي أصبيعة (ت668هـ/1270م)، وهو أكمل مؤلف عن الأطباء في التاريخ الإسلامي، أرخ لهم منذ فترة ما قبل الإسلام حتى فترة قريبة من تاريخ وفاته، ويتبع ابن أبي أصبيعة في هذا الكتاب التسلسل الزمني وتأتي أهمية هذا المصدر من أن غالبية الأطباء المغاربة والأندلسيين نزلاء المشرق العربي، أتى على ذكرهم فيه سواء عاشوا في الشام أو في مصر، وهو بالإضافة معاصر لبعضهم وتتلمذ على أحد مشاهيرهم وهو ابن البيطار[1].

✓ كتاب **أنباء الرواة على أنباء النحاة** لابن علي بن يوسف القفطي (ت646هـ/1249م)، وقد اشتمل هذا الكتاب على ترجمة علماء النحو واللغة من عصر أبي الأسود الدؤلي، حتى عصر المؤلف في القرن (7هـ/13م)، وهو يحتوي على بعض تراجم النحاة الذين احتواهم هذا البحث وبعض النواحي الأخرى.

✓ كتاب **غاية النهاية في طبقات القراء** لمحمد بن محمد الجزري (ت833هـ/1430م)، يذكر الجزري في هذا الكتاب القراء سواء الذين كانت لهم معرفة بعلوم القرآن وتجويده، أو الذين درسوا مواد أخرى مثل النحو وغيره، وقد رتبه بحسب حروف المعجم بادئا بحرف الميم تيمنا بالرسول العربي الكريم وحاز المغاربة والأندلسيون نزلاء المشرق العربي قسطا كبيرا من اهتمام الجزري مما جعله أفضل مصدر من مصادر الطبقات على الإطلاق فيما يخص مسألة الإقراء وتأثير المغاربة والأندلسيين فيها.

✓ كتاب **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ/1505م)، ويعتبر كتابه هذا من أهم المصادر التي اعتمدها هذا البحث و لاسيما مسألة دور المغاربة والأندلسيين في ميدان النحو والأدب.

---

[1] ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ط1، 1882م، ص133.

✓ كتاب **المفســرين** لشــمس الــدين محمــد بــن علــي بــن أحمــد الــداودي (ت945هـ/1539م)، وقد ترجم فيه للعلماء الذين اهتموا بتفسير القرآن في كل الأقطــار الإسلامية في المشرق والمغرب منذ ظهور الإسلام حتى منتصف القرن العاشر الهجــري تقريبا، وتأتي أهميته في أنه احتوى على عدد من تراجم المغاربة والأندلسيين الذين قطنوا العراق ومصر وكان لهم اهتمام ملحوظ في ميدان علم التفسير خلال فترة هذا البحث.

✓ كتاب **طبقات الشافعية** لعبد الوهاب تاج الدين السبكي وهو كما يدل اسمه يقتصر على تراجم مهمة جدا، مثل ترجمة علم الدين البرزالي وكتاب **طبقــات الشــافعية** لابــن قاضي شهبة الذي يحتوي أيضا على بعض المعلومات عن أندلسيين ومغاربة كــانوا قــد اعتنقوا الشافعية في المشرق العربي.

✓ كتاب **ترتيب المدارك** للقاضي عياض اليحصبي (ت544هـــ/1150م)، وذلــك لأنه يتحدث عن العديد من فقهاء الأندلس والمغرب، ومثل هذين الكتابين كتــاب الــديباج المذهب في معرفة أعيان المــذهب لإبــراهيم بــن علــي المعــروف بــابن فرحــون (ت799هـ/1397م)، أتى على ترجمة العلماء المشاهير مــن المالكيــة فــي المشــرق والمغرب على حد سواء.

✓ كتاب **تذكرة الحفاظ للذهبي**، وطبقات الحفاظ للسيوطي حيــث تضــمن هــذان الكتابان بعض المعلومات عن حفاظ كبار من المغاربة والأندلسيين نزلاء المشرق العربي، مثل علم الدين البرزالي وغيره.

✓ وألفت أيضا كتب **في طبقات الصوفية**، ويستفاد منها بصورة خاصة معلومــات رائعة حول كثير من رجال الصوفية الذين أصبحوا مــن أصــحاب المــذاهب والطــرق المعروفة، الذين مازال تأثيرهم قائما في المشرق العربي حتى يومنا هذا، مثل ابن عربي و أبو العباس المرسي، و أبو الحسن الشاذلي و أحمد البدوي وغيرهم.

✓ كتاب **صاعد بن أحمد الأندلسي** (ت462هـ/1070م)، و اسمه طبقات الأمــم، يشير فيه إلى أن الحركة العلمية في الأندلس، اتــجهت نحو التطور والتبلور منــذ نهايــة الثلث الأول من القرن (3هـ/9م).

✓ كتاب **العبر في خبر من غبر** للحافظ الذهبي (ت748هـ/1343م)، بدأ في السنة الأولى للهجرة إلى سنة (700هـ/1301م)، ويمكن اعتبار هذا الكتاب خلاصة التــاريخ

الإسلامي في هذه الفترة، وبالنسبة لأهميته هنا فليس أجدر من القول أنه معتمد في معظم فقرات هذا البحث.

- ✓ كتاب **البداية و النهاية** لإسماعيل بن عمر المعـروف بـابن كثيـر الدمشـقي (ت774هـ/1373م)، ويعتبر ابن كثير مـن المـؤرخين الثقـاة حيـث تتسـم كتاباتـه بالموضوعية وشدة الدقة والإتقان وهو يفيد في كثير من النواحي، وخاصة العلمية منهـا بمدينة دمشق فكتابه يعتبر ملخصا عن كتاب علم الدين البرزالي الذي سيدرس بإسهاب في فقرة المصادر التاريخية.
- ✓ كتاب **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لعبـد الحـي بـن العمـاد الحنبلـي (ت1089هـ/1678م)، وهو من الكتب المتأخرة جدا التي دونت حول هذه الفترة ومـع ذلك فقد احتوى على معلومات قيمة لم ترد عند غيره، و لاسيما في ميدان التصوف حيث أتى على ذكر عدد من تلامذة المتصوفين الكبار مثل ابن عربي.
- ✓ كتاب **ذيل تـاريخ دمشـق** لحمـزة بـن أسـد المعـروف بـابن القلانسـي (ت555هـ/1160م)، وهو مرتب على نظام الحوليات ويؤرخ لمدينة دمشـق بالدرجـة الأولى، لكنه يحتوي على معلومات عن مصر والعراق وغيرهما، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه يعكس الحياة السياسية خلال القرن (6هـ/12م)، التي كانـت ملائمـة للمغاربـة والأندلسيين ومساعدة لهم على الاستقرار في المشرق وفي بلاد الشام بصـور خاصـة، ويعكس من جهة ثانية تأثير الحرب بين المرابطين والموحدين على الشعب في الأنـدلس والمغرب.
- ✓ كتاب **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)** لابن شـداد (ت632هـ/1235م)، ويفيد في التعريف على اهتمام صلاح الـدين بالناحيـة العلميـة وموقفه من الفلسفة، ويعتبر كتـاب الـذيل علـى الروضـتين لأبـي شـامة المقدسـي (ت665هـ/1367م)، من أهم المصادر التي احتوت على تراجم أندلسية ومغربية عاصر **أبو شامة** عددا كبيرا منهم.
- ✓ كتاب **معجم البلدان** لياقوت الحموي (ت626هـــ/1229م)، فيفيـد فـي عـدة مواضيع من هذا البحث كونه يتحدث عن البلد أو المدينة التي يختارها ويختم حديثه عنها بذكر أهم العلماء الذين اشتهروا بها ومن أهم الكتب **كتاب ذيل مرآة الزمان** لموسـى بـن محمد اليونيني (ت726هـ/1326م)، فقد أظهر اليونيني في هذا الكتاب براعة متميـزة،

فاق بها جميع من تقدمه بالتركيز على جميع النواحي التي تتعلق بالمترجم له، لذلك فقد شكل أحد المصادر الغنية بالمعلومات عن كثير من الأندلسيين والمغاربة ونزلاء المشرق العربي وهو إضافة إلى ذلك يعكس مدى الاحترام الذي صدر عن صلاح الدين الأيوبي للمغاربة والأندلسيين.

✓ كتاب **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** لأبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت832هـ/1429م) أحد المصادر الغنية بمعلوماتها الهامة عن نزلاء منطقة الحجاز من المغاربة والأندلسيين، وزاد من عظمة هذا الكتاب أهمية الفاسي، حيث كان أحد المغاربة الذين نزلوا بالحجاز وعاشوا فيها وكان يعرف عددا كبيرا من الذين كتب عنهم، وكتابه هذا يؤرخ بصورة خاصة لمدينة مكة المكرمة على غرار ما كتبه ابن عساكر عن مدينة دمشق والبغدادي عن مدينة بغداد، وقد صنفه على طريقة حروف المعجم وقدم حرف الميم على جميع الحروف، ويفيد من ناحية أخرى عن نزلاء الحجاز من المغاربة هي أنه يعكس الأهمية الدينية لمدينة مكة المكرمة، وكان مثله من حيث الفائدة كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك والكتاب بالخطط لأحمد بن علي المقريزي فالكتاب يحتوي أيضا على معلومات هامة فيما يخص بعض المغاربة، مثل أبو حامد الغرناطي وغيره.

✓ كتابان، الأول هو **تاريخ ابن قاضي شهبة** وخاصة الجزء الثالث من المخطوط، الذي قام بتحقيقه الدكتور عدنان درويش، والثاني هو كتاب **أبناء الغمر بأبناء العمر** لابن حجر العسقلاني لهما أهمية كبيرة لهذا البحث مثل الكتب السابقة.

✓ كتاب **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة** ليوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/1469م)، ويمتاز هذا الكتاب بالموضوعية والصدق والأمانة العلمية، وصاحبه يتمتع بحس نقدي عميق، يظهر جليا في كثير من مواضيع هذا الكتاب وعلى الرغم من أن تراجمه عن المغاربة والأندلسيين مقتضبة، فإنها ذات دلالة كبيرة على أعمالهم الفكرية والثقافية في مصر والشام، ولكن الكتاب الأفضل من حيث التوسع وغزارة المعلومات هو كتابه المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي.

✓ وتوجد كتب أخرى أقل من التي ذكرت، مثل كتاب **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان** لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت696هـ/1297م)، ويرسم صورة عن علاقة بعض دول المشرق العربي مع الغرب في المجال الثقافي.

- ✓ وكتب عن بيت المقدس مجير الدين الحنبلي كتابا سماه **الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**، ويعتبر المصدر الرئيسي عن القدس وفلسطين وبالتالي فهو أوفى مصدر تناول بالدراسة والذكر جميع المغاربة والأندلسيين نزلاء بين بيت المقدس في فترة طويلة من العصور الوسطى.
- ✓ ويعتبر كتاب **الدارس في تاريخ المدارس** للنعيمي الدمشقي (ت927هـ/1521م) من الكتب غزيرة الفائدة بالنسبة لدراسة النهضة العلمية بمدينة دمشق خلال فترة العصور الوسطى التي أكثر المغربة من ارتيادها والسكن فيها والدراسة بمدارسها ومهادها العلمية.
- ✓ وشكل كتاب **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** لأحمد بن محمد التلمساني (ت1048هـ/1639م) أهم المصادر التي اعتمدت في هذا البحث لأنه على الرغم من بعده الزمني عن هذه الفترة، فإنه يعتبر موسوعة أندلسية مغربية متخصصة بتاريخ الأندلس ذكر فيها أخبار الأندلس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى غير ذلك فتكاد لا تخلو فقرة من فقرات هذا البحث من معلومات مصدرها هذا الكتاب.
- ✓ وتوجد مجموعة أخرى من المؤلفات تدرس ناحية معينة في مدينة ما أو موضوعا علميا، مثل كتاب **فضائل الشام ودمشق** لعلي بن محمد الربعي (444هـ/1053م) الذي يحتوي على كثير من الإشارات الهامة التي تبرز العوامل الجاذبة المتجسدة بمدينة دمشق، و كتاب **نزهة الأنام في محاسن الشام** للبدري، الذي يتحدث فيه عن كثير من النواحي الجاذبة أيضا للمغاربة وأهل الأندلس ومن الكتب ما إقتصر على معالجة ناحية تختلف عن كل ما ذكر حتى الآن مثل كتاب **سراج الملوك** لمحمد بن الوليد الطرطوشي، و كتاب **الشفا** للقاضي عياض اليحصبي وكلاهما احتوى على معلومات متفرقة كان لا بد منها في كثير من المواضيع.
- ✓ ومثلها إلى حد ما كتاب **الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة** لابن الزيات، الذي احتوى على بعض المعلومات عن مغاربة بمدينة القاهرة كانوا قد أسهموا بفاعلية في بناء صرح الحركة الفكرية بالقاهرة، وكتاب **الفتوحات المكية و نصوص الحكم** لابن عربي الذي يجسد من خلال محتويات هذين الكتابين مذهبه في وحدة الوجود، وكتاب **الإشارات لمعرفة الزيارات** للهروي، الذي يحتوي على معلومات تتعلق بالعوامل الجاذبة بمدينة

دمشق، وكتاب **كشف النون** الذي يحتوي على عدد كبير من تراجم المغاربة والأندلسـيين نزلاء المشرق العربي، ومثله كتاب **الأعلام** للزركلي.

- ✓ وهناك بعض الكتب انفصلت لوحدها وعرفت بعناوين مستقلة مثل كتاب **منامات الوهراني** ومقاماته ورسائله لمحمد بن محمد المعروف بالوهراني (ت535هـ/1179م) وهو عبارة عن مجموعة من المقامات الأدبية ومجموعة من الرسائل للحكام ويعتبر أهم دليل على إسهامات المغاربة والأندلسيين في المعرفة الأدبية في المشرق العربية خلال فترة هذا البحث بالإضافة إلى أنه يحتوي بعض المعلومات الهامة عن عوامل الجلاء الكائنة بالمغرب والأندلس.

- ✓ كتاب **الرحلة** لابن جبير الأندلسي (ت614هـ/1217م)، فقد دون فيه مشاهداته في رحلته الأولى إلى المشرق وهي مشاهدات مختلفة فمنها ما يخص النواحي الطبيعية والبشرية والتاريخية والاقتصادية، ومنها ما يخص النواحي الاجتماعية إلى غير ذلك.

وتتجلى روائع هذه الرحلة بالنسبة لهذا البحث أنها تعطي معلومات واضحة ومفصلة عن الجالية الأندلسية المغربية إلى المشرق العربي خلال القرن (6هـ/12م)، هذا بالإضافة إلى أنها تعطي معلومات عظيمة الأهمية في ميدان العوامل الجاذبة في المشرق والمغرب والأندلس خلال العصور الوسطى.

- ✓ كتاب **الرحلة** لابن بطوطة الذي زار المشرق العربي خلال القرن (8هـ/14م)، وتتجلى فائدة هذه الرحلة أيضا بإعطاء معلومات متفرقة عن المغاربة وأوضاعهم في المشرق العربي ويعطي الحميري في كتاب **الروض المعطار في خبر الأقطار** بعض المعلومات الهامة عن التجارة بين المشرق والمغرب خلال فترة ما قبل نهاية القرن (5هـ/11م)، وتأتي بعض هذه الكتب في الأهمية، كتب **رحلة ابن رشيد البلوي** و **رحلة التجيبي** و **رحلة القلصادي** و **رحلة العبدري** إلى غير ذلك، فهي تحتوي على معلومات متفرقة فيما يخص بعض المقيمين من الأندلسيين والمغاربة في المشرق خلال العصور الوسطى.

- ✓ كتاب **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور** لابن تغري بردي الأتاكي الذي أفاد بتفصيل حدود الدول التي قامت على أرض المغرب بشكل لم يعهد عند غيره و كتاب **التشوف إلى رجال التصوف** ليوسف بن عيسى التادلي المعروف بابن الزيات

(ت627هـ/1230م)، الذي احتوى على بعض المعلومات المتعلقة ببعض رجال الصوفية المغاربة، وكتاب تاريخ علماء بغداد، وهو **ذيل تاريخ بغداد** لابن النجار الذي يعطي بعض الصور المهمة عن أهمية بغداد العامة و **ذيل تاريخ بغداد** للدبيثي محمد بن سعيد (ت637هـ/1240م) الذي لا يختلف عن سابقه من حيث طبيعة معلوماته، و كتاب **المغرب في حلى المغرب** لابن سعيد المغربي وهو قليل الأهمية جدا، وكتاب **عنوان الدراية** للغبريني، الذي احتوى بعض الإشارات عن الصوفية المغاربة في المشرق وكتاب **الطابع السعيد في تاريخ الصعيد** للأدفوي، الذي أفاد بمعلومات مهمة إلى حد ما عن أبي حيان النحوي نزيل القاهرة هذا بالإضافة إلى أنه أحد المؤرخين المشارقة الذين نقلوا عن مؤلفات المؤرخين المغاربة.

✓ كتاب **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة** للسخاوي، الذي أفاد عدة إشارات و أخبار عن بعض المغاربة المقيمين بالمدينة المنورة.

✓ كتاب **جذوة المقتبس** لمحمد بن فتوح الحميدي، و كتاب **الذيل و التكملة عن كتابي الموصول والصلة** لمحمد بن عبد الملك المراكشي وهي تحتوي على بعض التراجم الموضحة لعدد من مسائل المؤثرات المشرقية في حقل الثقافة والفكر والاقتصاد، أضف إلى ذلك تحتوي على بعض اللمحات المهمة في فصل عوامل النزوح والهجرة من الأندلس.

✓ كتاب **الكامل في تاريخ** لابن الأثير الذي انفرد بميزة مهمة عن غيره تجسدت بالحديث المفصل عن أبي ركوة الداعية إلى خلافة الأمويين.

✓ كتاب **وفيات ابن رافع السلامي**، الذي يحتوي على بعض تراجم لمغاربة وأندلسيين عاشوا في المشرق العربي خلال هذه الفترة، وكتاب **أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن** وفيه بعض المعلومات المساعدة عن عدد من الذين هاجروا من الأندلس والمغرب.

✓ كتاب **الإحاطة في أخبار غرناطة** لابن الخطيب الذي تحدث عن بعض نواحي الجذب المشرقية مع أمور أخرى قليلة و كتاب **العبر والمبتدأ والخبر** لابن خلدون.

✓ كتابه الثاني **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا** ويحتويان على بعض المعلومات المتفرقة مثل دوره في حركة الثقافة في مصر.

✓ كتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي ومعه كتاب **نهاية الإرب** للنويري أفادا باستيضاح بعض المسائل المتعلقة بالمسائل الإدارية ونقول أصحابهما عن بعض المؤرخين المغاربة مثل ابن سعيد.

✓ كتاب **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** للسيوطي ويحتوي على معلومات متفرقة عن عدد من المغاربة نزلاء المشرق العربي، وكتاب **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر** لليوسفي وفيه بعض الإشارات البسيطة عن ابن مسدي المغربي، الذي أشتهر بالحديث والتاريخ و كتاب **خريدة القصر وجريدة العصر** للعماد الكاتب الأصفهاني الذي أفاد ببعض الإشارات عن بعض المغاربة وخاصة الأدباء منهم، مثله كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي.

✓ كتاب **الرسالة المصرية** لأمية بن أبي الصلت وهو متنوع الفوائد، وخاصة في ميدان الطب والأدب وكتاب **طبقات المشايخ في المغرب** للدرجيني، الذي يكشف بعض قنوات الاتصال بين مدينة البصرة ودولة الرستميين في المغرب و لاسيما القناة الاقتصادية والثقافية إلى غير ذلك من المصادر الأخرى العديدة.

2. المراجع

إن هذا النوع من الكتب لا يمكن الاستهانة بأهميته، فالمراجع تساعد على إيضاح كثير من القضايا التي لا توجد في المصادر خاصة و أن أصحاب هذه المراجع غالبا ما يتبعون أسلوب التعليل والتحليل والنقد، ومن هذه المراجع يمكن أن نذكر ما يلي:

✓ كتاب **خطط الشام** لمحمد كرد علي، الذي يحتوي على معلومات قيمة جدا، حول المؤثرات المشرقية في المغرب والأندلس في ميدان الزراعة، إضافة إلى بعض المظاهر الحضارية الأخرى[1].

✓ كتاب **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب** لنعيم ذي فهمي ففيه ذكر لبعض المؤثرات المشرقية في ميدان الصناعة، نقلها إلى الأندلس والمغرب عرب المشرق[2].

[1] محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، دمشق، ص199-163.

[2] نعيم ذكي فهمي، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق و الغرب، القاهرة 1973م، ص242.

- كتاب **عصر المرابطين والموحدين في الأندلس** لمحمد عبد الله عنان، الذي يؤكد فيه أن الانهيار الاقتصادي وصل إلى ذروته في نهاية العصر الموحدي، مما أجبر الأندلسيين والمغاربة على الجلاء عن بلدانهم
- كتاب **العصر المماليكي في مصر والشام** لسعيد عبد الفتاح عاشور.
- كتاب **المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى** لصلاح الدين المنجد.
- كتاب **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي من (524-936هـ)** لإبتسام مرعي خلف الله، الذي يحتوي على معلومات قيمة جدا حول العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والأيوبيين، كما يتعرض للصلات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية.
- كتاب **المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21-567هـ)** لأحمد عبد اللطيف حنفي، الذي يحتوي على معلومات هامة فيما يخص الدور الحضاري للمغاربة والأندلسيين في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، بالإضافة إلى معلومات جيدة فيما يخص دور المغاربة والأندلسيين في مصر في جميع المجالات الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية ...الخ.
- **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق**، ندوة عقدها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، محاضرات طبعت في كتاب كلها تتعرض للعلاقات التي تربط المنطقتين في جميع الميادين.

بالإضافة إلى هذه المراجع تم الإعتماد على عدة مجلات وردت بها مقالات مهمة تعالج الموضوع مباشرة، وعلى سبيل المثال:

- مجلة **دعوة الحق**، المغرب.
- مجلة **التراث العربي**، سوريا.
- مجلة **دراسات تاريخية**، سوريا.
- مجلة **كلية الآداب**، جامعة الجزائر.
- مجلة **كلية الآداب**، الإسكندرية.
- مجلة **أوراق أوراق**، مدريد.
- مجلة **العربي**، الكويت.

- ✓ مجلة **التاريخ العربي**، المغرب.
- ✓ مجلة **تطوان**، المغرب.

هذا عرض سريع لأهم المصادر الأصلية التي اعتمدت عليها في هذا البحث التـــي ورد ذكرها في حواشي الرسالة التي استفدت منها وأخذت عنها بطريقة مباشرة أو غيـــر مباشرة مهدت لي الطريق وذللت لي الصعاب، ولله الفضل والمنة.

الفصل الأول

العلاقات بين المغرب الإسلامي و مصر و الشام

منذ بداية القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن التاسع (12م/15م)

I.عوامل انتقال المغاربة والأندلسيين إلى مصر والشام

لم تنقطع حركة تنقل المغاربة والأندلسيين إلى مصر والشام طيلة عصور التـــاريخ الإسلامي، وذلك إما طلبا للعلم، أو للتجارة، أو في طريقهم إلى الحج، لكن بداية من القرن (6هــ/12م) أو قبل ذلك بقليل ظهرت نزعة لدى المغاربـــة والأندلســيين إلـــى الإقامـــة والاستيطان بمصر وبلاد الشام، وقد تطورت هذه الظاهرة واتسعت حتـــى تحولـــت مـــن هجرة للأفراد إلى هجرة لجماعات كبيرة من المجتمع الأندلسي والمغربـــي[1]، وســـنحاول خلال هذا الفصل إبراز الأسباب التي أدت إلى هذه الهجرة.

وباستقراء أحوال الأندلس والمغرب ومصر والشام نجد أن هناك عوامـــل ســـلبية قاهرة إجمالا أجبرت الكثير من سكان الأندلس والمغرب على الهجرة والنزوح، ويمكـــن تسمية هذه العوامل بعوامل الطرد، بينما نجد أن العوامل التي تجسدت على ساحة المشرق العربي وخصوصا مصر والشام اتسمت بالإيجابية شبه المطلقة، ويمكـــن تســـمية هـــذه العوامل أيضا بعوامل الجذب، وفيما يلي بيان هذه العوامل:

1- عوامل الطرد

ونعني بها الاضطرابات السياسية وتغير أنظمة الحكم ومـــا يصـــحب ذلـــك مـــن معارضة من طرف أصحاب النفوذ والمصالح في النظام السابق، والأخطار التي أحـــدقت بالأندلس وسكانه من جراء نشاط حركة حرب الإسبان ضد الوجود العربـــي والإســـلامي هناك[2]، ومن خلال هذا التعريف لعوامل الطرد يمكن تقسيم هذه العوامل إلى قسمين:

---

[1] علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين و المغاربة في المشرق العربي، منذ نهاية القرن الخامس حتـــى نهايـــة القـــرن التاسع الهجري (أي من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر ميلادي)، دار شمأل، دمشـــق 1995م، ص81. صالح محمد فياض أبو دياك، (العلاقات الثقافية بين المغرب والأندلس)، مجلة المـــؤرخ العربـــي، العـــدد 33، الســـنة 1987م، إتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ص75. عبد العزيز فيلالي، (العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب الإسلامي)، مجلة الثقافة، العدد 56، السنة 1980م، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ص38.
Massignon (L), le Maroc dans les premières années du XVI siècles, Alger 1906, p120.

[2] علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1989م، ص84. أحمد بدر، (هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب فـــي القـــرن الثاني للهجرة)، مجلة دراسات تاريخية، العدد 8، السنة 1982م، دمشق، ص77 وما بعدها.

أ – عوامل الطرد الداخلية

بقي الأندلس مستقرا من الناحية السياسية طيلة فترة حكم الأمــويين، بشــكل لــم يــدع الأندلسيين إلى الهجرة والبحث عن مكان آخر يلجأون إليه، وأدى هذا الاستقرار إلـــى ازدهـــار اقتصادي وفكري، ففي الناحية الاقتصادية نجد أن الزراعة قد ازدهرت وتطورت وبلغت أعلى المراتب، مما أدى إلى ازدهار الصناعة والتجارة على حد سواء، وهــذا الازدهـــار والتطـــور الاقتصادي الكبير جعل الحكام والرعية يلتفتون إلى الناحية الثقافية والفكرية، فتطورت العلـــوم بشكل مذهل وسريع مما جعل الأندلسيين والمغاربة يقفون وقوف الند أمام العلمـــاء المشـــارقة، عدتهم في ذلك الإنتاج الفكري الضخم في مختلف فنون المعرفة[1].

و في نهاية القرن (5هــ/11م) أصيب الأندلس بنكسة مؤلمة حيث شهد انهيار الوحـــدة السياسية بسبب زوال الخلافة الأموية[2] بعد عزل آخر خلفائها **هشام الثالث** الملقب **بالمعتمد بالله** سنة (422هــ/1030م)، ثم خروج من تبقى من الأمويين عن مدينة قرطبة[3] وعقب هذا الخروج ظهرت مجموعة من الإمارات أو الممالك أو الدويلات أطلق عليها اسم دول الطوائــف[4]، كمـــا

---

[1] علي أحمد، المرجع السابق، ص82، محمد زنيبر، (ظاهرة التواكب بين تاريخ المشرق والمغرب العـــربيين)، مجلـــة المؤرخ العربي، العدد 6، سنة 1953م، بغداد، ص78.

Gantier (E,F), le passé de l'Afrique du nord, 1964, p95.

[2] عن سقوط نظام حكم الأمويين بالأندلس، أنظر: ابن حزم (علي بن أحمد) –ق456 هــ/1063م– رسائل بـــن حـــزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشـــر، بيـــروت، لبنـــان 1987م، ج2، ص203. الحميدي (محمد بن فتوح الأزدي) –ق488هــ/1095م– جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأنـــدلس، تحقيـــق: إبـــراهيم الأبياري، ط3، دار الكتـــاب اللبنـــاني، بيـــروت 1989م، ج1، ص 59. الضـــبي (أحمـــد بـــن عميـــرة المرســـي) –ق599هــ/1202م– بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبيـــاري، ط1، دار الكتـــاب اللبنـــاني، بيروت، لبنان 1989م، ج1، ص56. المقري التلمساني (أحمد بن محمد) –ق1041هــ/1631م– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان 1968م، ج1، ص437–438. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، مطابع ألف باء الأديب، دمشق 1969م، ص144–145. مختار أحمد العبادي، في تاريخ العباســـي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ،ص253–263. إبراهيم بيضون، الدولة العربيـــة فـــي الأندلس، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1980م، ص375–381. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص364–368. أحمد بن عبود، (معركة الزلاقة والواقع الأندلســـي) مجلة البحث العلمي، العدد 33، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب 1982م، ص53.

[3] أنظر: ابن حزم، المصدر السابق، ج2، ص203. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص59–60. الضـــبي، المصـــدر السابق، ج1، ص437–438. ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد المغربي –ق808هــ/1406م– العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، لبنـــان، بيـــروت 1968م، ج4، ص329–330.

[4] العبادي، المرجع السابق، ص464.

جاء في كتاب **الاكتفاء في أخبار الخلفاء** للمؤرخ **ابن كردبوس** حيث قال: "و كانت أيامهم تسمى أيام الفرق"[1]، و قد بلغ عدد هذه الإمارات أو الدويلات 50 إمارة أو دويلة، الكثير منها لم يتجاوز سلطانها حدود المدينة الصغيرة أو بعض القرى، ومعظمها لم يعمر طويلا، بل منها من لم تعش إلا شهورا أو سنوات قليلة[2].

وهذه الدويلات كانت متنازعة من أجل السيطرة على السلطة المركزية[3]، قال **الفتح بن خاقان الغرناطي** (ت535هـ/1140م) في كتابه **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، واصفا حال الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية: "ولما ثل عرش الخلافة وخوى نجمها، وهوى ركن الإمامة وطمس رسمها، وصار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنصر البغاة، وصحت الأظفات، و استأسد الظبي في كنائسه، وثار كل واحد في ناسه، وخلت المنابر من رقاتها، وفقدت الجوامع مقيمي أوقاتها...".

وإذا كان الصرح السياسي قد انهار عندما سقطت الخلافة الأموية (41ـ132هـ/661ـ750م) وانتهى حكمها، فإن الحالة الاقتصادية بقيت محافظة على بعض الاستقرار والثبات بسبب وجود الأموال بأيدي الملوك والحكام، الأمر الذي حال دون الوصول إلى حالة الانهيار الكامل في الناحية الاقتصادية كما حدث في الجانب السياسي، مما ساعد الأندلسيين على البقاء بالأندلس وعدم اللجوء إلى الهجرة، ولعل أهم شيء ساعد على ذلك هو اهتمام حكام دول الطوائف ببناء دويلاتهم على كل الأصعدة ومن كل جانب، فقد عمل كل واحد منهم بكل ما أوتي من قوة وبما توفر لديه من إمكانات

---

[1] ابن بسام الشنتريني ـق542هـ/1147م- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1979م، ج2، ص573. ابن كردبوس (عاش في أواخر القرن 6هـ/12م)، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: مختار العبادي، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، اسبانيا 1971م، ص68. ابن الخطيب (لسان الدين) ـق776هـ/1374م- أعمال الإعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، المطبعة الجديدة، الرباط 1934م، ص167-276. عنان (محمد عبد الله)، دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، القسم الأول، طبعة مصر 1960م، ص19 محمد حمودة، تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط1، دار الكتاب العربي، مصر 1958م، ص245-249. أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة، دمشق 1981م، ص159-167.

[2] أحمد بدر، المرجع السابق، ص160.

Léon L'Africain, Description de l'Afrique Adrien Maisonneuve, paris 1956, p81.

[3] محمد لبيب البنوني، رحلة الأندلس، ط1، مطبعة الكشكول 1927، ص58. حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ج1، طبعة استانبول، المطبعة البهية، 1941م، ص326. رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس و اسبانيا النصرانية في عصر بني أمية و ملوك الطوائف، دار الكتب الإسلامية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص282-287.

على جعل دولته كيانا متميزا من جميع النواحي عن الدولة الأخرى التي تجاوره، سواء أكان ذلك على الصعيد السياسي أو العلمي أو الاقتصادي أو العسكري، يحدوهم في ذلك حب الظهور والشهرة والاستئثار[1].

وفي هذا الجو وجد الأندلسيون مناخا ملائما على تحقيق مصالحهم ضمن نطاق الحدود الأندلسية، دون اللجوء إلى الهجرة خارج الأندلس، ماعدا حالات شاذة، لذلك يلاحظ أنه عندما كان يتعثر عالم من العلماء عند أحد حكام دول الطوائف، فإنه يلجأ إلى حاكم آخر مثل الشاعر **ابن زيدون** الذي أجبر على ترك قرطبة، فالتجأ إلى إشبيلية عند المعتمد بن عباد حيث لقي هناك ترحيبا كبيرا[2]، وبقيت الحال هكذا حتى نهاية العقد التاسع من القرن (5هـ/11م)، حيث طرأ تغير جذري على الحالة العامة بالنسبة لبعض الطوائف من الأندلسيين تضررت مصالحهم المادية والمعنوية بسبب سقوط دول الطوائف نهائيا في الأندلس وقيام دولة المرابطين[3] على أنقاضها(485-541هـ/1092-1146م).

---

[1] أحمد سليم سعيدان، (في تاريخ العلوم في العصر الأموي)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 3، السنة 1980م، جامعة دمشق، سوريا، ص19 وما بعدها. إبراهيم حركات، (سياسة المغرب الخارجية في عهد بني مرين)، مجلة دعوة الحق، العدد 7، السنة 7، عام (1383هـ/1964م)، المملكة المغربية، ص46-50.

[2] عبد الواحد المراكشي (620هـ/1223م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الثقافة، سلا، المغرب 1938م، ص 106. الصدفي (صلاح الدين خليل بن أيبك) -764هـ/1362م- الوافي بالوفيات، ج6، تحقيق: أحمد بن الطيب بن خلف، أحمد بن محمد بن شراعة باعتناء إحسان عباس، طبعة بيروت 1969م، ص87.

[3] ارتبط تاريخ المرابطين بالأندلس منذ استنجاد ملوك الطوائف و على رأسهم ملك اشبيلية، ابن عباد بالأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، سنة479هـ/1086م، و انتصاره في المعركة الحاسمة المعروفة بـ (معركة الزلاقة) من نفس السنة على الصليبيين الإسبان بقيادة ملك قشتالة، ألفنسو السادس، و لكن بداية الحكم المرابطي لهذه البلاد، كان بعد الجواز الثاني للأمير المرابطي، سنة483هـ/1090م، وصده للهجومات الإسبانية على المنطقة و بعد هذا الانتصار أدرك بأن الحفاظ على الأندلس الإسلامية، يكمن في توحيدها مع المغرب و القضاء على حكم ملوك الطوائف، و بذلك قرر إخضاعها منذ سنة 484هـ/1091م، و شرع في تطبيق ذلك تدريجيا، بخلع ملوك الطوائف الواحد إثر الآخر بداية من اعتقال ملك إشبيلية ابن عباد من نفس السنة، عن قيام الدولة المرابطية وحكمها، انظر: ابن كردبوس، المصدر السابق، ص90-124، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص76-127، ابن الخطيب، المصدر السابق، ص277-305. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص373-389. ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد) -ق8هـ/14م- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1980م، قسم الموحدين، تحقيق: الكتاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1985م، ج4، ص7. ابن أبي زرع (علي بن عبد الله) – ق741هـ/1340م- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، تحقيق: كارل يوحن تورنبورغ، سالة 1943م، ص 75-110. السلاوي (أبو العباس أحمد خالد الناصري) -ق1315هـ/1897م- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، مصر 1895م، ج1، ص 98-130. خالد=

ثم دولة الموحدين التي حكمت من سنة (541-668هـ/1146-1270م)[1]، إضافة إلى ذلك الخوف الذي سيطر على نفوس الأندلسيين بسبب هذه الاضطرابات منذ أن سقطت الخلافة الأموية، الأمر الذي جعلهم يضطرون إلى البحث عن مكان آمن ومستقر يأوون إليه[2].

فعندما بسط المرابطون ومن بعدهم الموحدين حكمهم وسيطرتهم على الأندلس لم يتغير من الوضع شيء، بل استمر التذمر وعدم الاستقرار والاضطراب بسبب الحروب والثورات التي نشبت بين الأنظمة الحاكمة والفئة المعارضة لها[3] والتي أصبحت تدفع

إسماعيل نايف الحمداني، (العلاقة بين أموي الأندلس والخلافة العباسية)، مجلة التاريخ العربي، العدد 18، السنة 2001، ص37-42.

Alfred Bel, les banou chanya, paris 1909, p19-22.

[1] قامت دولة الموحدين على إثر دولة المرابطين،541هـ/1091م، و يرجع فضل ظهور الموحدين إلى رجل من إحدى قبائل المصامدة، يدعي أنه ينتسب إلى آل البيت و هو ابن تومرت، و دام حكمها إلى غاية سنة 668هـ/1269م، من أبرز حكامها الخليفة عبد المؤمن بن علي، موطد أركانها، و أبو يوسف الذي بلغت دولة الموحدين في عهده أوج قوتها وعظمتها، وكان له مواقف مشهودة في جهاد نصارى الأندلس، و أعظم هذه المعارك (معركة الأرك) سنة 591هـ/1194م عن قيام دولة الموحدين و حكمهم بالأندلس، أنظر: البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (توفي خلال القرن 6هـ/12م)، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق: ليفي بروفنسال، باريس 1928م، ص 71-127، المراكشي، المصدر السابق، ص 107. ابن عذاري، المصدر السابق، ص 15. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 305-311. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 464-489. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص 130 و ما بعدها. المراكشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس 1966م. ص3-23.

[2] محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، مصر 1960م، ص402-407. مختار أحمد العبادي، تاريخ المغرب و الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ، ص 259-263. عبد الله علي علام الدعوة الموحدية، ط1، دار المعرفة، القاهرة، مصر 1964م، ص31. أندري ميكيل، الإسلام و حضارته، ترجمة: زينب عبد العزيز، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص262. أحمد بدر، (المجتمع الأندلسي و المجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف)، مجلة دراسات تاريخية، العدد 15-16، جامعة دمشق، سوريا 1984م، ص32-63. حمودة، المرجع السابق، ص242. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس في عصر دولتي المرابطين و الموحدين، مركز الإسكندرية، مصر، بدون تاريخ، ص40. سالم، السيد عبد العزيز، (سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس)، مجلة المؤرخ العربي، العدد2، السنة 1975م، ص46.

[3] عن ظهور المعارضة الرافضة لحكم المرابطين و الموحدين، أنظر: المراكشي، المرجع السابق، ص124-126-151 وما بعدها. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص169 وما بعدها. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص285-304، ص310-370. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص356-365. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص126-130، ص197-198، محمود علي مكي (وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، إسبانيا، 1959-1960م. مج7و8، ص127. عبد الهادي شعيرة، المرابطون تاريخهم السياسي، ط1، مكتبة=

بظهور فكرة الهجرة والفرار من الأندلس[1] مثل ما حدث لأسرة **أبي بكر بن العربي**، إثـــر سقوط دول الطوائف، وفق رواية صاحب كتاب **نفح الطيب**، حيث قال: "... وكان أبوه **أبو محمد** بإشبيلية بدرا في فلكها، وصدرا في مجلس ملكها، اصـــطفاه **معتمـــد بنـــي عبـــاد**، اصطفاء **المأمون لابن أبي دؤاد**، ولاة الولايات الشريفة، وبوأه المراتـــب المنيفـــة، فلمـــا أقفرت حمص من ملكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحـــل فيـــه محل الخائف الغرق..." [2].

وخلاصة القول أن عوامل الاستقرار في الأندلس كانت مهزوزة وهشة بعـــد زوال الخلافة الأموية، فالاضطرابات الداخلية وعدم الاســـتقرار بدايـــة مـــن أواخـــر القـــرن (5هـــ/11م) أصبحت أمرا مزعجا للمسلمين في الجناح الغربي من الدولة الإسلامية ممـــا أدى إلى ظهور طائفة عريضة من الأندلسيين لم يعد أمامها من حل، سوى الرحيل عـــن الأندلس[3].

وبعد سقوط دولة المرابطين على أيدي الموحدين انعكس هذا سلبا على أتباع النظام السابق الذين لم يجدوا وسيلة إلا الفرار والهجرة نحو المغـــرب الإســـلامي أو المشـــرق العربي، وقد أشار الشيخ **أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد**، المعروف **بركن الـــدين الوهراني** سنة (575هـــ/1179م) [4] إلى سوء وتدهور الأوضاع السياسية الداخلية في ظل

القاهرة، مصر 1969م، ص156-157. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين، ط7، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1985، ص31. محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1992م، ص38. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس فـــي عصـــر دولتـــي المـــرابطين والموحدين مركز الإسكندرية، مصر، بدون تـــاريخ، ص58-61، ص81-82، ص94. عنـــان، عصـــر المـــرابطين والموحدين في المغرب و الأندلس، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، مصر، ج1، ص304 ومـــا بعدها، ج2، ص389 وما بعدها. محمد صالح الجون، أثر الأندلسيين في الأدب المغربي، أطروحـــة دكتـــوراه دولـــة، إشراف: محمود الربدوي، معهد اللغة و الأدب العربي، جامعة الجزائر 1987م، ص68-75، ص140-141.

[1] جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص49-51. أندريه مايكيل، المرجع السابق، ص319.

[2] المقري، المصدر السابق، ج2، ص34.

Oliver Roland & Fage (J.D), A Short History Of Africa, London 1970, p37.

[3] علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام، ص85-86. ابن غالب الأندلسي، (فرحـــة الأنفـــس فـــي تـــاريخ الأندلس)، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 1، ج2، سنة 1955م، مصر، ص125.

[4] أصله من مدينة و هران رحل إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم انتقل إلى بـــلاد الشـــام، فأقام بمدينة دمشق إلى غاية وفاته، له عدة مؤلفات، عن ترجمته أنظر: ابن خلكان (شمس الدين أبو عباس أحمـــد بـــن إبراهيم الشافعي) -ق 681هـــ/1282م-، وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيـــروت=

تغير الأنظمة الحاكمة بالمغرب والأندلس على السواء، فقال في مناماته: "...لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي..."[1].

ومن جهة أخرى أظهر **الوهراني** سخطه على الموحدين حينما سئل عن **عبد المؤمن بن علي**[2] (ت558هـ/1162م) سلطان الدولة الموحدية فقال: "... مؤيد من السماء، خواض للدماء، مسلط على من فوق الماء، حكم سيفه في المعمم، وأعمله في رقاب الأمم، حتى خضعت له التيجان، ودانت له الإنس والجان، فأغمد الحكم شفاره، وقلم العلم أظفاره، فلان مسه وهدأ حسه، ولو أن للعلم لسانا، وللورقة إنسانا، لتألمت وتظلمت..."[3].

ومما سبق يتبين لنا تعاطف المغاربة والأندلسيين مع الأنظمة السابقة في عهد حكم الطوائف أو المرابطين، وقد بلغ هذا التعاطف أوجه في عهد الموحدين، بسبب نظرة الموحدين إلى من خالفهم في العقائد والفروع نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية، إذ اعتبروا كل من أخذ بغير مذهبهم خارجا عن الملة، فعاملوه بقسوة بالغة، ما أثار موجة

لبنان 1970م، ج4، ص385. الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ص69-70. الصفدي، المصدر السابق، ج4، ص386.

[1] الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، دار الكاتب العربي، مصر 1968م، ص10.
Basset René, les nom berbères des plantes dans le traité des simples d'lbn el Bettar, Giornal della societa asiatica italiana, volume doclicesiom 1899, p53.

[2] هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي بن مروان القيسي الكومي، نسبة إلى قبيلة كومية بتلمسان، موطد أركان الدولة الموحدية، ولد ونشأ في أواخر القرن (5هـ/11م)، إلتقى بالمهدي بن تومرت المؤسس الروحي للموحدين فاصطحبه وأصبح قائد جيشه، ولما توفي ابن تومرت سنة 524هـ/1129م، بويع بخلافته، فحارب الدولة المرابطية حتى استطاع القضاء عليها سنة 541هـ/1146م، ثم بايعه أهل الأندلس، وبذلك خضع له كامل المغرب الإسلامي، عن سيرته، أنظر: البيدق، المصدر السابق، ص21-24-83 وما بعدها. وابن صاحب الصلاة، تاريخ المبد بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، دار الأندلس، بيروت، لبنان 1964م، ص115 و ما بعدها. المراكشي المصدر السابق، ص116-142. ابن قطان، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي (628هـ/1230م)، نظم الجمان، تحقيق: علي مكي، جامعة محمد الخامس، المغرب، بدون تاريخ، ص195. ابن أبي دينار، محمد الرعيني القيرواني (11هـ/17م)، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، ط3، دار المسيرة، لبنان 1993م، ص137-140. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص119-134. ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص237-241. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص305-309، مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص142-157. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص472-496. المراكشي، المصدر السابق، ص7-13. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص139-159.

[3] ثم يواصل كلامه بقوله:«... ولكن السكوت على هذا أرجح و مسالمة الأفاعي أنجح ...»، أنظر: الوهراني، المصدر السابق، ص11. علي أحمد، تاريخ المغرب القديم والإسلامي، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سنة (1427-1428هـ/2006-2007م)، ص38 وما بعدها.

من الخوف والذعر في أوساط الأندلسيين والمغاربة[1]، والمتغيرات التي حدثت في عهد الموحدين سببت الإزعاج والاضطراب للمواطنين لتعصبهم لمذهبهم التومرتي، فقد اعتبروا كل من اخذ بغيره فهو خارج عن الملة، وأصبح محل الكراهية وسوء المعاملة والمطاردة، مما جعل الكثير من الفئات الاجتماعية التي على المذهب المالكي وأتباع الدولة المرابطية تعيش في فزع وخوف ويظهر هذا من خلال ما وقع **لأبي الوليد محمد بن فيرة القرطبي** (ت551هـ/1156م)، الذي يصفه المؤرخ **ابن فرحون** (ت799هـ/1396م) في **الديباج** بقوله: "... كان من كبار فقهاء المالكية يتصرف في علوم شتى"، وانتفع به أهل قرطبة، في الفقه، والأصول، وقدم مصر هاربا من **بني عبد المؤمن** ودولته لما ظهر على المغرب، ثم خاف من استيلائه على مصر، فقدم الحجاز، فخاف أن يحج، فدخل اليمن، ثم خاف أن يظهر على اليمن فأراد أن يتوجه إلى الهند، فمات بزبيد (ت551هـ/1156م)، وضلت إلى درجة قريبة من الجنون والخبل، وقد وصف المقري في **نفح الطيب وابن فرحون** في **الديباج** حالة الفقيه المالكي، الذي أصابه الذعر من الموحدين، فبقي هاربا من مدينة إلى مدينة حتى أدركته المنية، قال **المقري**: "وخرج في الفتنة بعدما علا ذكره في قرطبة، وأقام بالإسكندرية خوفا من **بني عبد المؤمن بن علي**"، ثم قال: "كافى –والله– بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية"، ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة، ثم قال: "فوا لله، ما مصر والإسكندرية بمتباعدين"، ثم سافر إلى الصعيد، وحدث بقوص **بالموطأ**، ثم قال: "والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن البلاد" فمضى إلى مكة وأقام بها، ثم قال: "يصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون، ما أنا إلا هربت منه إليه"، ثم دخل اليمن، فلما رآها، قال: "هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند حيث أدركته منيته بها سنة551هـ، وقيل: مات باليمن"[2].

---

[1] عن محاربة الموحدين للمذهب المالكي و فقهائه و أتباع الدولة المرابطية، أنظر: المراكشي، المصدر السابق، ص170–171. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص62–63. ابن تومرت، المصدر السابق، ص254. ابن القطاب، المصدر السابق، ص27. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص114. جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص34.

[2] أنظر: نفح الطيب، ج2، ص240–241. ابن فرحون المالكي، القاضي إبراهيم بن نور الدين (799هـ/1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون الجناني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1996م، ص321–322. ابن الشكاوى، ج3، ص859. الضبي، المصدر السابق، ص410.

Mayny's Raymond, Tableau Géographique De L'Ouest Africain Au Moyen Age, paris 1961, p89.

ولم تشمل هذه الظاهرة فقهاء المالكية فقط، بل شمل تأثيرها أيضا من كان في خدمة البلاط الموحدي، بفعل الوشاية المغرضة، فخوفا من العقاب والسجن قرروا الهروب والهجرة للنجاة بأنفسهم وأسرهم، مثلما حدث **لأبي محمد بن عبد الله الصنهاجي،** المعروف **بابن الأشيري** (ت561هـ/1165م)، الذي كان يعمل كاتبا عند **عبد المؤمن بن علي** خلال النصف الثاني من القرن (6هـ/12م)، فلما اضطربت ظروفه وتبدلت أحواله خاف عاقبة الأمور، فرحل إلى مدينة اللاذقية[1]، وبعدها انتقل إلى دمشق، ثم توجه إلى العراق سنة (559هـ/1163م)، ثم عاد إلى الشام سنة (560هـ/1164م)، واستقر بمدينة حمص[2] إلى غاية وفاته[3].

وكذلك ما وقع لقاضي الجماعة **محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله اللخمي الباجي** من أهل إشبيلية (ت635هـ/1237م) بمصر، الذي رحل عندما ساءت أحوال ابن أخيه والي إشبيلية **أحمد بن محمد بن أحمد** لدى حاكم الموحدين، فاضطر إلى مغادرة المدينة سنة (632هـ/1234م)، متعللا بأنه يريد الحج[4].

وكذلك **ابن سعيد المغربي** (ت685هـ/1286م)، صاحب كتاب **المغرب في حلى المغرب،** الذي انتابه الخوف على حياته، بعد أن تغيرت مكانته لدى ابن عمه **أبي عبد الله**

---

[1] تقع مدينة اللاذقية على الساحل الغربي لبلاد الشام، و هي من أعمال حمص، أنظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله (626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان 1979م، ج5، ص5-6.

[2] تقع مدينة حمص غرب بلاد الشام، بين مدينة دمشق و حلب، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص302-304. الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (866هـ/1461م)، روض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، لبنان 1984م، ص198-199.

[3] ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الجزري (630هـ/1232م)، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، بدون تاريخ، ج1، ص68-69. القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (646هـ/1248م)، أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الكتب المصرية، مصر 1955م، ج2، ص137-141. ابن الأبار القضاعي البلنسي (658هـ/1259م)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة سخانجي، مصر 1956م، ج2، ص917-918. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، م2، ج4، ص198.

[4] ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص637-638. عبد الملك المراكشي، الذيل و التكملة لكتاب الوصل و الصلة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1973م، السفر5، ق2، ص687-695.

محمد بن سعيد، الذي كان وزيرا[1] لدى **أبي زكريا يحي بن عبد الواحد بن أبـــي حفــص الموحدي** ملك إفريقية[2] (ت647هـ/1249م).

ب-عوامل الطرد الخارجية

بالإضافة إلى عوامل الطرد الداخلية التي سبق ذكرها والتي أثرت بشكل كبير فـــي هجرة الأندلسيين والمغاربة من بلادهم نحو المشرق العربي وخاصة مصر والشام، هناك عوامل طرد خارجية كان لها دور كبير في خروج المغاربة والأندلسيين من بلادهم[3] إلى الأماكن التي يشعرون فيها بالاستقرار النسبي مـــن الناحيـــة السياســـية، والاقتصـــادية، والازدهار العلمي والديني وهذا ما كانت تتمتع به مصر والشام في هذه الفترة، فمنذ أوائل القرن (7هـ/13م)، أخذت قواعد الأندلس الشرقية والغربية والوسطى تسقط الواحدة تلـــو الأخرى ولم تنته سنة (659هـ/1260م)، حتى أصبحت معظم الأراضي الأندلسية تحت السيطرة الأســـبانية[4] فوقعـــت فـــي أيـــدي النصـــارى الإســـبان مدينـــة بياســـة ســـنة (623هـ/1226م)، و جزيرة ميورقة و بطليوس سنة (627هـ/1229م)، ومدينة ماردة سنة (628هـ/1230م)، ومدينة أبدة سنة (630هـ/1235م)، و مرسية و شـــلف ســـنة (640هـ/1242م)، و دانيـــة ســـنة (641هـــ/1243م)، و قرطاجنـــة وجـــان ســـنة (643هـ/1245م)، وشاطبة سنة (644هـ/1246م)، و إشبيلية سنة (646هـ/1248م)، و شنترية الغرب سنة (647هـ/1249م)، و لبلة ســـنة (655هـــ/1257م)، و قـــادس

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص277-278. جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص91-92.
Abaoui Abdallah, l'histoire du magreb un essai de synthèse, 1970, p223.

[2] من ملوك الدولة الحفصية بتونس، تولى الحكم سنة 626هـ/1228م، و هو أول من استقل بالملك و وطد أركانه، عن ترجمته، أنظر:ابن شاكر الكتبي، محمد بن أحمد (764هـ/1362م)، فوات الوفيات و الذيل عليهـــا، تحقيـــق: إحســـان عباس، دار صادر، بيروت، لبنـــان 1973م، ج4، ص293-294. بـــن أبـــي دينـــار، محمـــد الرعينـــي القيروانـــي (11هـ/17م)، المؤنس في إفريقية و تونس، ط3، دار الميسرة، لبنان 1993م، ص155-157م.

[3] محمد جابري الأنصاري، المرجع السابق، ص42-46. عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص62. أحمد بدر، المجتمع الأندلسي، ص53-63. محمد صالح الجوي، أثر الأندلسيين في الأدب المغربي، ص74-75، ص137-140.

[4] عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط3، طبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر، القاهرة، مصر 1966م، ص21.

وطلبيرة و شلب سنة (659هـ/1260م)، ومدينة شريش سنة (662هـ/1263م)[1]، ولم تبق إلا مدينة غرناطة[2] وضواحيها تحت حكم بني الأحمر[3].

ففر من فر من الأندلسيين ومن لم تسمح لهم الظروف بالهجرة والخروج من الأندلس، فرضت عليهم إجراءات تعسفية، تتصف بالإهانة والإذلال، فأجبروا على وضع شارة على ملابسهم لتمييزهم عن غيرهم من السكان الإسبان، وكذلك لا يجوز لأي مسلم أندلسي أن يستخدم مسيحيا مطلقا، ومن خالف هذا تصادر أملاكه، ومن يهرب منهم إلى بلاد المسلمين، يعتبر أسير حرب ويصبح ملكا لمن يقبض عليه من النصارى، كما فرض عليهم التنصير الإجباري[4].

إن العوامل الداخلية والخارجية أثرت سلبا على الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديني بشكل عام، فتدهورت الأوضاع الاجتماعية حيث انتشرت الأمراض، والأوبئة، والجوع، والبؤس، والحرمان، والغلاء[5]، وهذه الأمور تسببت في شيوع، الاضطرابات النفسية والقلق، والخوف من المصير المجهول[6] وكل هذه الظروف كانت دافعا قويا للبحث عن الهروب والهجرة خارج الأندلس[7].

---

[1] عن سقوط المدن والأراضي الأندلسية بعد زوال الدولة الموحدية في أيدي الإسبان، أنظر: عنان، المرجع السابق، ص20. عصر المرابطية و الموحدية، ج2، ص648. محمود لبيب البنوني، رحلة الأندلس، ط1، مطبعة الكشكول، 1927م، بدون مكان الطبع، ص124-125، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1969م، ص285-287، حبيب مؤمن، المرجع السابق، ج2، ص157-163. روجي لي تورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر الميلادي، ترجمة: أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1982م، ص112-114. عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص65-69.

[2] تقع مدينة غرناطة جنوب الأندلس (إسبانيا حاليا)، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص195.
Provençal Lévi, Histoire de l'éspagne musulmane, tome 1, paris 1944, p215.

[3] تعتبر دولة بني الأحمر آخر دول ملوك الطوائف الإسلامية الحاكمة بالأندلس، و تعرف بمملكة غرناطة، التي تأسست سنة 635هـ/1237م، أسسها محمد بن يوسف بن نصر، و لقب بابن الأحمر لشقرة فيه، و صمدت مملكة غرناطة في وجه الإسبان على مدى قرنين و نصف من الزمن إلى غاية سقوطها سنة 897هـ/1494م، عن قيامها وتطورها= وسقوطها، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ص342-343. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص366-384. المقري، المصدر السابق، ج1، ص447-454. السلاوي، المرجع السابق، ج2، ص18، ص152-155 و ما بعدها.

[4] البنوني، المرجع السابق، ص137. محمد المنوني، (علاقات المغرب بالمشرق أيام السلطان أبي الحسن المريني)، مجلة تطوان، العدد 1، السنة 1956م، المغرب، ص29 وما بعدها.

[5] عنان، المرجع السابق، ص626-628. جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص51.

[6] جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص46. عنان محمد عبد الله، نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنتصرين، ص21.

[7] عنان، المرجع السابق، ص21. جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص49.

والذي يثير الانتباه بشكل بارز خلال القرن (7هـ/13م)، هو الهجـــرة الجماعيـــة[1] حيث أصبحت جماعات جماعات تنتقل من الأندلس إلى بلاد المغرب الإسلامي، والمشرق العربي خاصة مصر والشام، وقد كان المغرب بعد انحسار حكم الموحدين أيضا مســـرحا لتبدلات سياسية لم تنقطع، حيث أدى التنافس على الحكم والمناصب إلى قيام عـــدد مـــن الدول والانقلابات على نفس النمط الذي كان يجري بالأندلس وقد انعكس ذلك سلبا علـــى مجموعة كبيرة من المغاربة، فاضطروا إلى الهجرة باتجـــاه مصـــر والشـــام خصوصـــا والمشرق العربي عموما[2].

ومقابل هذه العوامل السلبية يقابلها في الطرف الآخر عوامل ايجابية التـــي تســـمى بعوامل الجذب.

2- عوامل الجذب

وهي العوامل التي تستقطب وتســـتهوي، وتجـــذب المهـــاجرين مـــن المغاربـــة والأندلسيين نحو مصر وبلاد الشام وهـــي: طبيعيـــة، ودينيـــة، وتاريخيـــة، وسياســـية، واقتصادية، وفكرية.

أ- العامل الطبيعي

هناك تشابه كبير بين طبيعة الأندلس، وبلاد الشام في الظروف المناخية والجويـــة، وفي التضاريس السائدة فيهما، وهذا ما يسهل للمهاجرين عملية التأقلم بسرعة[3]، وقد لاحظ لاحظ الفاتحون الذين دخلوا الأندلس من المصريين والشاميين، هذا التشابه فأطلقوا علـــى المناطق التي نزلوها أسماء مناطقهم الأصلية التي أتوا منها، فأطلقوا على كورة البيـــرة: دمشق؛ لتشابههما الكبير، وعلى كورة إشبيليا: حمص، وعلى أرض جيان: قنسرين، ورية ومالقة: الأردن، وشذونة: فلسطين[4]، وقد أكد هذا التشابه الرحالة المغاربة **كـــابن ســـعيد**

---

[1] جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص51. إحسان عباس، المرجع السابق، ص32 وما بعدها.

[2] علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين و المغاربة، ص90.

Shafii Farid, An early Fatimid mihrab in the mosque of Ibn Tulun, Bulletin of the faculty of arts, (cairo univ), may 1953, vol XV, part I, p215.

[3] ليلى الصباغ، (الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث) المجلـــة التاريخيـــة المغربيـــة، تـــونس 1977م، العدد7-8 جانفي، ص81-82.

[4] هذا ما يقرره المؤرخ ابن الأثير في قوله:« ... و كثر أهل الشام عنده ،فلم تحملهم قرطبة، ففرقهم في البلاد، فـــأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها و سماها دمشق، و أنزل أهل حمص إشبيليا و سماها حمص، وأنـــزل أهـــل قنســـرين =

المغربي و**ابن جبير**[1]، قال **ابن سعيد المغربي** في أحد نصوصه، التي نقلها لنا صاحب **نفح الطيب**: "... منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الأسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها، إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق بالشام وفي حماة مسحة أندلسية..."[2]، وقال الرحالة **ابن جبير** الذي زار الشام في أواخر القرن (6هـ/12م)، وهو يصف مدينة قنسرين الشامية: "... و قنسرين هذه البلدة الشهيرة في الزمان... تشبهها من البلاد الأندلسية جيان، كما يذكر بأن أهل قنسرين نزلوا جيان عند افتتاحها استئناسا بالشبه الذي بينها وبين قنسرين الموطن الأصلي، مثلما فعل في أكثر بلادها حسب ما هو معروف"[3]، وعندما توقف في مدينة حمص ذكر التشابه الحاصل بينها و بين مدينة إشبيلية: "حمص... هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعيد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضعها، بعض شبه بمدينة إشبيليا من الأندلس، يقع للحين في نفسك خياله، و بهذا الاسم سميت في القديم، وهي العلة التي أوجبت نزول أعراب أهل حمص فيها، حسبما يذكر، وهذا التشبيه، وإن لم يكن بذاته، فله لمحة من إحدى جهاته"[4]، و يؤكد أيضا المؤرخ الرحالة **البكري** (ت478هـ/1094م)، هذا التشابه القائم بين الأندلس والشام

وسماها قنسرين، و أنزل أهل الأردن رية و سماها الأردن، وأنزل أهل فلسطين بشيدونية و سماها فلسطين» عن هذا التشابه، أنظر: اليعقوبي، أحمد بن واضح (ق284هـ/897م)، كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م، ص88. ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن العزيز (ق367هـ/977م)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1989م، ص44. ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج3، ص11. ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص491. ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: دوزي، ص46. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص244. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص259-260. المقري، المصدر السابق، ج1، ص148-237.

[1] ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص81.

[2] المقري، المصدر السابق، ج1، ص209.

[3] ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ق614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، لبنان 1959م، ص228.

[4] المصدر نفسه، ص232-233.

من حيث الطبيعة فيقول: "والأندلس شامية في طيبها وهوائها..."[1]، من خلال ما سبق يتضح بأن هناك تشابها كبيرا بين طبيعة الأندلس وطبيعة الشام، فكانت الهجرة الأولى مع الفتوحات من المشرق العربي أيام الأمويين ثم العباسين ثم جاءت الهجرة العكسية بالرجوع إلى الأصل أرض الآباء والأجداد، فكان من الطبيعي العودة إلى المنبت الأصلي للأندلسيين والمغاربة لأنهم لم يجدوا فرقا بين الأندلس وبين مصر والشام، وهذا من أهم العوامل التي ساهمت بقسط وافر في عملية التأقلم في المنطقتين وسهلت عملية هجرة الأندلسيين والمغاربة إلى مصر والشام خاصة[2].

ب- العامل الديني

إن منطقة الشام ومصر لهما مكانتهما الدينية في نفوس المسلمين، هاتان المنطقتان ورد ذكرهما في القرآن الكريم و في الأحاديث الصحيحة، ففي مصر كان **موسى** و**يوسف**، و**يعقوب** عليهم السلام...الخ، وفي بلاد الشام كان **المسيح** و **إبراهيم** عليهما السلام...الخ، وهذه المكانة الدينية كانت عامل جذب واستقطاب للجاليات المغربية والأندلسية[3] ومن الأحاديث الشريفة ما دعا و أوصى فيها الرسول(ﷺ) المسلمين بقصد الشام ومصر إذا وقعت لهم أو جابتهم المتاعب والعوائق والضائقات على شتى أنواعها، لأن هذه المنطقة تعتبر مهد الإيمان ومصدره، فعن **عبد الله بن عمر**، قال: "قال لنا نبي الله (ﷺ) يوما، رأيت الملائكة في المنام أخذوا عمود الكتاب، فعمدوا به الشام، فإذا وقعت الفتنة فإن الإيمان بالشام"[4].

و أورد **ابن عساكر** في كتابه **تاريخ مدينة دمشق**، حديثا عن **أبي ذر الغفاري** جاء فيه: "بينما أنا نائم في المسجد خرج علي رسول الله (ﷺ)، وضربني برجله فقال: "ألا أراك نائما فيه"، قلت: "يا رسول الله غلبتني عيني"، قال: "فكيف إذا أخرجت منها ؟" قال

---

[1] البكري، أبو عبيد الله (487هـ/1094م)، جغرافية الأندلس و أوربا من كتاب المسالك و الممالك، تحقيق: عبد الرحمان الحجي، ط1، دار الإرشاد، بيروت، لبنان 1968م، ص70. القزوني، أبو يحيى عماد الدين زكريا بن أحمد بن محمود، (682هـ/1283م)، آثار البلاد و أخبار العباد، دار بيروت، لبنان 1984م، ص504.

[2] محمد علي مكي، (الرحلات بين المشرق والأندلس)، مجلة البينة، العدد 2، السنة الأولى، عام 1962م، المغرب، ص19 وما بعدها.

[3] المنجد، المرجع السابق، ص20. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص80-81.

[4] الربعي المالكي، فضائل الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، دمشق 1950م، ص14. العز ابن عبد السلام، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق: خالد الطباع، دار الفكر، الجزائر، دون تاريخ، ص18.

قلت: "الحق بأرض الشام، فإنها أرض المحشر والأرض المقدسة..."[1]، فكانت بلاد الشام ملجأ الهاربين ومأوى دار المؤمنين[2]، كما أخبر بذلك النبي (ﷺ) في قوله: "...ألا إن عقر دار المؤمنين الشام"[3]، و من أهم مناطق الشام القدس الشريف، الذي يحتل المرتبة الثانية بعد الأماكن المقدسة بالحجاز(مكة و المدينة)، قال الرسول (ﷺ): "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، و مسجدي، ومسجد بيت القدس"[4] وهي أرض الإسراء والمعراج، و في هذا الشأن قال الله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"[5]، فالقدس كانت تستهوي قلوب المسلمين حيث كانوا يشدون الرحال إلى زيارتها، والإقامة بها، خاصة المغاربة والأندلسيين الذين تدفقوا على هذه المدينة، حتى سميت الحارة المجاورة للمسجد الأقصى باسم حارة المغاربة[6]، و من الأحاديث الشريفة التي ترفع من شأن مدينة القدس ما يبرز فضائل القدس الروحية، كفضائل الصلاة في المسجد الأقصى المبارك، كما جاء على لسان النبي (ﷺ) في قوله: "صلاة الرجل في بيته بصلاة واحدة، وصلاته في مسجد القبائل بست وعشرين، وصلاته في المسجد الذي يجتمع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة"[7]، و في حديث آخر عن ميمونة بنت سعد مولاة رسول الله (ﷺ) أنها قالت: "يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس"، فقال: "أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن كل صلاة فيه كألف صلاة"، فقلنا: "يا رسول الله، فمن لم

---

[1] الربعي، المصدر السابق، ص9. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1951م، ص137.

[2] العز ابن عبد السلام، المصدر السابق، ص12.

[3] ابن عساكر، أبو القاسم علي بن هبة الله (ق571هـ/1175م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق: عبد بدران، ط2، دار المسيرة، بيروت، لبنان 1979م، ج1، ص33. العز ابن عبد السلام، المصدر السابق، ص19.

[4] ابن فقيه، مختصر كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م، ص92. ابن الجوزي، فضائل القدس، ص96. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل، المطبعة الوهبية، القاهرة 1866م، ج1، ص205.

[5] سورة الإسراء، الآية 1.

[6] صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص21. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص81.

[7] ابن الجوزي، المصدر السابق، ص89.

يستطع أن يصل إليه"، قال: "فمن لم يستطع أن يأتيه فليهد إليه زيتا يسرج في قناديله، فإن من أهدى إليه زيتا، كان كمن أتاه"[1].

كما روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، أنه قال: "إن سليمان عليه السلام، سأل ربه ثلاثا، أعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة، سأله حكما يصارف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل يخرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون قد أعطاه إياه"[2]، وعن **أبي هريرة** (ض)، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "من صلى في بيت المقدس غفرت ذنوبه كلها"[3]، لقد حفزت هذه الأحاديث النبوية الشريفة، المسلمين على على الإقامة بالمدينة المقدسة (القدس) والانطلاق منها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، لأن الحاج يفضل أن تكون بداية زيارته للبقاع المقدسة من مدينة القدس الشريف امتثالا لقول النبي(صلى الله عليه وسلم): "من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة"[4]، بالإضافة إلى ما سبق هناك فضائل دينية أخرى تعتبر عامل استقطاب إلى مدينة بيت المقدس خاصة المغاربة والأندلسيين، كفضل الموت في أرضها، حيث يذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن: "... من مات مقيما محتسبا في بيت المقدس، فكأنما مات في السماء، ومن مات حول بيت المقدس، فكأنما مات في بيت المقدس، وأول أرض بارك الله فيها بيت المقدس، وهي الأرض المقدسة التي ذكرها الله في القرآن، فقال: "الأرض التي باركنا فيها للعالمين"[5]، وهي أرض بيت المقدس[6]، ويضاف إلى الفضائل السابقة أيضا فضل زيارة أضرحة الأنبياء والصالحين والمشاهد والآثار الموجودة داخل مدينة القدس وخارجها[7] والتي أصبحت تثير في نفوس المغاربة والأندلسيين الشوق لزيارتها، والإقامة بها.

---

[1] مجير الدين الحنبلي، القاضي أبو المن عبد الرحمان بن محمد العلمي (ق928هـ/1521م)، الأنيس الخليل بتاريخ القدس و الخليل، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1866م، ج1، ص207.

[2] ابن فقيه، المصدر السابق، ص92. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج1، ص203.

[3] مجير الدين الحنبلي، نفس المصدر،ج1، ص204.

[4] نفسه، ج1، ص205.

[5] سورة الأنبياء، الآية71.

[6] مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج1، ص211. ابن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص722-723.

[7] من هذه المشاهد والآثار الدينية، انظر ابن الجوزي، عبد الرحمان بن علي (ق597هـ/1201م)، فضائل القدس، تحقيق: جبرائيل جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان 1979م، ص97 وما بعدها. الهروي، الإشارات=

يقول المؤرخ **عبد الملك المراكشي** (ت703هـ/1303م) في كتابه **الذيل والتكملة لكتاب الوصل والصلة** حول الدافع الأساسي من رحلة الرحالة **ابن جبير الأندلسي** إلى بيت المقدس، ولما شاع الخبر المبهج للمسلمين حينئذ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن بوري وكان فتحه 13 رجب سنة (583هـ/1187م)، وكان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته على الرحلة الثانية، فتحرك من غرناطة أيضا سنة (585هـ/1189م) قال: "وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى (ﷺ)، وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجها، و في شهر واحد منصرفا"[1]، كما يذكر المؤرخ **المقدسي الدمشقي أبو شامة** (ت665هـ/1226م)، في كتابه **الذيل على الروضتين**، سبب زيارة العلامة **الأندلسي الشاطبي** (ت590هـ/1193م) بالقاهرة[2] إلى بيت المقدس في قوله: "... وقدم بيت المقدس زائرا قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان و اعتكف"، وقال لي الشيخ **أبو الحسين:** "سمعته يقول وقد جاءه رجل يودعه والرجل عازم على المسير إلى القدس: ذكر الله عنا ذلك الموضع بخير، وقال: لا أعلم موضعا أقرب إلى السماء منه بعد مكة والمدينة..."[3].

ومن المدن الشامية التي كانت تستهوي المغاربة والأندلسيين كذلك وتحظى باهتمام وتقدير لديهم مدينة الخليل[4] التي قال عنها الشيخ **أبو الحسين علي بن أبي بكر الهروي**،

في معرفة الزيارات، تحقيق: جافيه سورديل طوميه، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق 1953م، ص24-28. ليلي الصباغ، المرجع السابق، ص81.

[1] عبد الملك المراكشي (ق703هـ/1303م)، الذيل والتكملة لكتاب الموصل والصلة، المصدر السابق، ص605-606.

[2] هو أبو القاسم من فيرو بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني، الشاطبي، المقرئ الفقيه الحافظ، أحد العلماء المشهورين و الفضلاء المذكورين، ولد بمدينة شاطبة الأندلسية سنة 538هـ/1143م، رحل إلى المشرق حاجا، ثم استقر بمصر، فاستوطنها سنة 572هـ/1175م، حتى وافته المنية بها، و هو صاحب "حرز الأماني"، قصيدة في القراءات تعرف بالشاطبية، عن سيرته وترجمته، أنظر: ياقوت الحمودي، شهاب الدين بن عبد الله (626هـ/1228م)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1993م، ج5، ص2216. ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص71-73. ابن فرحون، المصدر السابق، ص323-324. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج2، ص20-23. السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، تحقيق: محمد أبو فضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى الباي الحلبي و شركاءه، مصر 1965م، ج2، ص260.

[3] أبو شامة، الذيل على الروضتين، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1974م، ص7.

[4] تقع مدينة الخليل شمال شرق فلسطين وجنوب مدينة القدس، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص387-388.

صاحب كتاب **الإشارات إلى معرفة الزيارات** (ت611هـ/1214م): "... مدينة الخليل، عليه السلام، بها مغارة فيها قبر **إبراهيم** و**إسحاق** و**يعقوب** و**سارة**، عليهم السلام، وقيل: إن قبر **آدم** و**نوح** و**سام** في هذه المغارة... التي تزار الآن"[1].

وهناك مدن أخرى لها أهميتها مثل: مدينة عسقلان، وعكا، وطبريا... وغيرها من المدن التي تحدث عنها الرحالة **ابن بطوطة** (ت779هـ/1377م): "... ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان، بها المشهد الشهير حيث كان رأس **الحسين بن علي** (رض) قبل أن ينقل إلى القاهرة... و في قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر... و في القبلة من هذا المسجد بئر يعرف ببئر إبراهيم (عليه السلام)... وبظاهر عسقلان وادي النمل"، ويقال: "إنه المذكور في القرآن الكريم، وبجانب عسقلان من قبور الشهداء والأولياء مالا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار... ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة، وهي فلسطين... وبها الجامع الأبيض"، ويقال: "إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام... ثم سافرت بقصد اللاذقية فمررت بالغور، وهو وادي بين تلال به قبر **أبي عبيدة بن الجراح** أمين هذه الأمة، زرناه وفيه زاوية فيها الطعام لابن السبيل... ثم وصلنا إلى القصير وبه قبر **معاذ بن جبل** (رض)، تبركت أيضا بزيارته، ثم سافرت... إلى مدينة عكا... بها عين تعرف بعين البقر"، يقال: "إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام... و بهذه المدينة قبر صالح عليه السلام... وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب عليه السلام... وقبر سليمان عليه السلام، وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام... ثم سرنا إلى مدينة بيروت... وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعم أنه من ملوك المغرب..."[2].

كذلك لا ننسى مدينة دمشق عاصمة الأمويين التي كانت تثير الشوق في نفوس المغاربة والأندلسيين لمكانتها الدينية والعلمية[3]، والتي يتوسطها جامع الأمويين الذي بناه

[1] الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، المصدر السابق، ص3.

[2] ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان 1960، ص59-63.

[3] عن المشاهد و الآثار التي تزخر بها هذه المنطقة، أنظر: ابن الجوزي، المصدر السابق، ص97 و ما بعدها. الهروي، المصدر السابق، ص19-34. العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب 1968م، ص221-232. مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص370-431.

الخليفة **الوليد بن عبد الملك**[1] (ت96هـ/714م) في الربع الأخير من نهاية (ق1هـ/7م)[2].

هذا المسجد الذي بني على أرض وجدوا بها مشاهد لقبور أنبياء وصالحين، فاتخذها المسلمون مزارا، هذا ما ورد في كتاب **فضائل الشام**، في قوله عن **ابن واقد** قال: "وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارة، فعرفنا الوليد بذلك، فلما آن الليل، وافى وبين يديه الشمع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صندوق، ففتح الصندوق، فإذا فيه سفط، وفي السفط رأس **يحي بن زكريا**، فأمر به الوليد، فرد إلى المكان، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيرا من الأعمدة، فجعلوا عليه عمودا مسقط الرأس"[3]، كما ذكر صاحب كتاب **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، فضائل الجامع الأموي فقال: "و بالجامع... مشهد **علي بن أبي طالب** (رض)، ومشهد **الحسين وزين العابدين** (رض) و بالجامع رأس **يحي بن زكريا**، عليهما السلام، ومصحف **عثمان بن عفان** (رض)، كما ذكروا أنه خطه بيده[4] ومدينة دمشق احتوت على الكثير من قبور الأنبياء والصحابة فأصبحت مقصد المغاربة والأندلسيين للتبرك و الزيارة[5].

---

[1] هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، سادس خلفاء بني أمية الكبار، ولد سنة 48هـ/668م، بويع بالخلافة عام 86هـ/705م، كان عهده عهد فتوح شرقا و غربا، و عم فيه الرخاء و تمت في عهده فتوحات موسى بن نصير في المغرب و الأندلس، من أبرز إنجازاته بناء مسجد دمشق و صخرة بيت المقدس وعقد عليها القبة، و وسع مسجد رسول الله (ﷺ).عن ترجمته و سيرته، أنظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ق310هـ/922م)، تاريخ الأمم و الملوك، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1991م، ج4، ص28-30. الكتبي، المصدر السابق، ج4، ص254-255. ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص161-166. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ق911هـ/1505م) تاريخ الخلفاء، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1994م، ص265-268.

[2] طه الوالي، المسجد في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1988م، ص430-470.

[3] الربعي المصدر السابق، ص33. ابن عساكر، تاجر في مدينة دمشق، ط 1954م، ج2، ص10. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ق744هـ/1372م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان 1990م، ج9، ص156-158. العدوي الزيارات بدمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق 1956م، ص4.

[4] الهروي، المصدر السابق، ص15. ابن شداد، تحقيق: سامي الدهان المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان 1956م، ص187.

[5] عن مدينة دمشق و من دفن فيها من الأنبياء والصالحين، أنظر: الربعي، المصدر السابق، ص49-52. الهروي، المصدر السابق، ص14-16. ابن كثير، المصدر السابق، ج9، ص158-154. العدوي، المصدر السابق، ص21-102.

وفضائل مدينة الشام وردت في أحاديث نبوية كثيرة و التي تحث المسلمين على السكن والاستقرار بها، روى **أبو الدرداء** (رض) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ"[1].

وروى **أبو هريرة** (رض) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أربع مدائن من مدائن الجنة في الدنيا: مكة، والمدينة و بيت المقدس، ودمشق"[2] و في حديث آخر أورده صاحب كتاب **فضائل الشام** يقول: "حدثنا **أبو سعيد الأسدي**، حدثنا **سليم بن عامر** عن **أبي أمامة**: عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، أنه تلا هذه الآية، قوله عز و جل: "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين"[3].

ثم قال: "هل تدرون أين هي ؟" قالوا: "الله و رسوله أعلم"، قال: "هي بالشام، بأرض يقال لها الغوطة، مدينة يقال لها دمشق، هي خير مدائن الشام"[4].

لقد أحاطت هذه الأحاديث النبوية الشريفة بلاد الشام بهالة من القدسية والبركة، وساهمت في ترغيب أهل الإسلام، خاصة المغاربة والأندلسيين على الهجرة إليها والإقامة بها[5].

و من خلال ما سبق يتضح لنا بأن العامل الديني كان له دور هام في استقطاب أنظار المسلمين نحو مصر و بلاد الشام.

ج- العامل السياسي

في بداية القرن (6هـ/12م) بدأ توافد المغاربة والأندلسيين على الشام، وكان اختيار مناطق تواجدهم على الأرض التي لم تكن تخضع لسلطة النفوذ الفاطمي الشيعي، ولا

---

[1] الربعي، المصدر السابق، ص27. ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ق683هـ/1284م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، المصدر السابق، ص307. البدري، نزهة الأيام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر 1922م، ص11.

[2] الربعي، المصدر السابق، ص29. ابن شداد، المصدر السابق، ص306. البدري، المصدر السابق، ص11.

[3] سورة المؤمنون، الآية 50.

[4] الربعي، المصدر السابق، ص17. ابن عساكر، المصدر السابق، طبعة 1951م، ج1، ص192. ابن شداد، المصدر السابق، ص305. البدري، المصدر السابق، ص357.

[5] صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة و الأندلسيين في القرون الوسطى، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1963م، ص21.

تحت سيطرة الفرنجة الصليبيين[1] كمدينة دمشق وحلب اللتان كانتا تحت حكم السلاجقة[2] والأتابكة[3] من بني بوري إلى غاية النصف الأول من القرن (6هـ/ 12م) والسبب في اختيار المغاربة والأندلسيين للمناطق الخاضعة للنفوذ السلجوقي و الأتابكي من بلاد الشام[4]، هو أن السلاجقة و الأتابكة كانوا على مذهب أهل السنة وكانوا يمثلون الحكم الشرعي في نظر المسلمين عامة والمغاربة والأندلسيين خاصة[5]، فوجدوا محيطا يشبه المحيط الذي كانوا فيه بالأندلس طبيعيا وعقائديا[6] من التمسك بالسنة وعدم الجدال في الدين.

---

[1] عن الصليبيين و فكرة الحروب الصليبية من منظور إيديولوجي و تاريخي، و الظروف و الدوافع الدينية والاقتصادية و الاجتماعية عند الغرب الفرنجي و الشرق الإسلامي، انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة و الآداب، الكويت 1990م، ص9 و ما بعدها. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب و الإفرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1958م، ص7 و ما بعدها. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، دار الجيل، بيروت، لبنان 1991م، ج4، ص230-241.

[2] أسرة من أفراد تركمانيين، ينتسبون إلى جدهم الأول سلجوق بن دقاق الذي جمع شملها و وحد كلمتها، موطنها الأصلي تركستان من أواسط آسيا، اعتنقت الإسلام على المذهب السني، و من أشهر سلاطينها طيفوربك، وألب أرسلان، و ملكشاه، بسطت حكمها على بلاد الشام سنة 471-511هـ/1078-1117م. عن السلاجقة وحكمهم لبلاد الشام، انظر: العماد الأصفهاني، تاريخ دولة سلجوق، مطبعة الموسوعات، مصر 1955م، ص5 و ما بعدها. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر دار البحار، بيوت، لبنان، م1، ج4، ص63 و ما بعدها. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: مصطفى زيادة دار الكتب مصرية، القاهرة 1934، ج1، ص30 و ما بعدها. دائرة المعارف الإسلامية، ج12، ص24-33.

[3] كلمة مشتقة من أتابك، وهي كلمة تركية، مؤلفة من قطعتين«أتا» بمعنى أب، و«بك» بمعنى: السيد الذي يقوم بتربية أولاد الملوك، ثم تطور وأصبح لقبا تشريفيا يمنح لكبار قادة الجيش ونائب السلطنة، أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1963م،ج4، ص18، حسن الباشا الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق و الآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م، ص122. بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، لبنان 1878م، ج5، ص469.

[4] بنو بوري من سلالة الأتابكة الأتراك الأصل، استقلت وحكمت دمشق من عام 503-549هـ/1109-1154م، وتنسب إلى مؤسسها طغتكسة بن بوري المتوفى سنة 522هـ/1128م، أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج4، ص285-286.

Recueil des historiens des croisades(historiens orientaux) ,tom1,paris , 1869, pp ,25 ,27 ,31, 435 ,456,495.

[5] دائرة المعارف الإسلامية ج12، ص29.

[6] ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص293-294. الذهبي، محمد شمس الدين (ق748هـ/1347م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان 1994م، ج22، ص365-366. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي (1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، =

ونفور أهل الشام عموما والسلطة السياسية خصوصا عن الاختلاف في الدين والجدل العقيم في المسائل التي لا طائل من ورائها ولا فائدة ترجى منها سوى تشتيت أمر المسلمين وإفساد وحدتهم وتفريق كلمتهم، أمر ذكره المؤرخ الدمشقي صاحب كتاب **ذيل تاريخ دمشق**، في تأريخه حوادث سنة (543هـ/1148م)، حيث قال: "... وفي رجب من هذه السنة أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور[1] بدمشق على جاري العادة والرسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض فيما لا حاجة إليه من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال و إبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد وطمع السفهاء الأوغاد، و ذلك في أواخر شعبان منها"[2].

فالجانب السياسي كان عاملا هاما في جعل المشرق العربي عامة، ومصر وبلاد الشام خاصة في استقطاب دائم للمغاربة والأندلسيين، لأن الأندلس كان يعاني من تفكك واضطرابات داخلية وهجومات وتحرشات خارجية، وهذا عكس المشرق العربي حيث ساد الاستقرار السياسي والمذهبي كما عم الأمن تحت حكم **نور الدين محمود زنكي** (ت568هـ/1173م)، الذي حكم البلاد الشامية من سنة (541هـ/1146م) إلى سنة (569هـ/1173م)[3]، و الذي وحد المنطقة كلها لمواجهة الصليبيين، كما عمل على توحيد المسلمين مذهبيا ببناء المدارس ودور الحديث، لدعم أهل السنة الذين عانوا من الاضطهاد

بدون تاريخ، م3، ج5، ص144-145. سير أعلام النبلاء، ج22، ص365-366. ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص140-141. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيوت، لبنان 1990م، ج1، ص145-298. أمينة بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق 1982م، ص230-231.

Brendel (F), la méditerrané et le monde méditerrané à l'époque de Philippe II, paris 1949, p102.

[1] يعني الجامع الأموي.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعية، بيروت، لبنان 1908م، ص301.

[3] هو أبو القاسم محمد بن عماد الدين زنكي بن واق سنقر، الملقب بالملك العادل نور الدين، صاحب حلب بعد مقتل أبيه سنة541هـ/1146م، و بعد وفاة أخيه الأكبر غازي صاحب الموصل سنة 544هـ/1149م، دخل دمشق سنة 549هـ، ونقل إليها مركز حكمه، فأصبح بذلك أكبر الأتابكة الزنكية، وحكما، وكان ملكا زاهد عادلا عابدا ورعا عالما محبا للعلم، بنى المدارس والجوامع في الشام، توفي سنة 568 أو 569هـ/1173م، وكانت ولادته في يوم الأحد 17 شوال سنة 511هـ/1117م، عن سيرته، أنظر: ابن الأثير، المهار في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليعات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، ص161 وما بعدها. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل بيروت، لبنان، ج1، ص227. ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص184.

المذهبي خلال الحكم الفاطمي الذي كان يعمل على نشر المذهب الشيعي[1]، وفي هذا الجو وجد المغاربة والأندلسيون راحتهم، فهم مالكية في الفروع و أشاعرة في العقيدة عاشوا في جو تسوده الوحدة المذهبية[2]، كما أن محاربة الفاطميين الخصوم من الناحية العقائدية أضحى شعارا و تقليدا للأندلسيين والمغاربة منذ حاربهم الخلفاء الأمويون في المغرب خلال القرن (4هـ/10م) [3] وهذه الوحدة المذهبية ذكرها غير واحد من المؤرخين، **فالمقدسي** مثلا يقول في كتابه **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: "... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك... و إن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوه ربما قتلوه..."[4].

فأصبح هؤلاء المغاربة والأندلسيون من أنصار حكام الشام في التصدي للفاطميين ومذهبهم الشيعي[5] وهكذا توسعت دائرة المذهب المالكي في مواجهة الفاطميين مغربا ومشرقا، كما حدث في مدينة الرملة بقيادة الشيخ **أبو بكر محمد بن علي النابلسي**، الفقيه المالكي، الذي اعتبرهم أخطر من الروم وتجب محاربتهم، حيث قال: "... لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة[6] واحدا في الروم..." [7]، ويقول عنه **القاضي عياض** (ت544هـ/1149م)، في كتابه **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: "... وكان شديدا على بني عبيد، حين ملكوا مصر والشام..."، وكان يفتي

---

[1] صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص22. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص64-70، و ما بعدها، أسعد طلس، مصر والشام في الغابر والحاضر، دار المعارف، مصر 1954م، ص25-26-66. عبد القادر الريحاني، مدينة دمشق تراثها و معالمها التاريخية، سوريا 1969م، ص18-23 وما بعدها. ابن قوطية، المصدر السابق، ص58-60. السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص60-62. أبو زهرة محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار العربي، القاهرة، ص421-423. علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام، ص103، الدور الفكري للأندلسيين و المغاربة، ص101.

[2] علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في الشام، ص104.

[3] نفسه و نفس الصفحة.

[4] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد خزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1987م، ص195.

[5] موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979م، ص377-388. مختار أحمد العبادي، التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص65-86. أحمد بدر، تاريخ المغرب و الأندلس، ص145-158.
Julien (C.A), histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe a 1930, paris 1952, p306-309.

[6] سمي الفاطميين مغاربة باعتبارهم كانوا حكاما للمغرب الإسلامي.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص344.

باستحلال من أتى من المغرب (أي مع بني عبيد)، و يستنفر الناس لقتالهم... وإنما سلك في هذا مسلك شيوخ القيروان في خروجهم عليهم، مع أبي يزيد لاعتقادهم كفر بني عبيد قطعا[1]، وعداء المالكية من المغاربة والأندلسيين للفاطميين يؤكده صاحب كتاب **المعجم في أصحاب القاضي الصدفي**، حيث ذكر أن أول من دعا للعباسيين في مصر، وقطع خطبة الفاطميين، هو الأندلسي، الشيخ الحافظ **اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عمر الغافقي**، الذي: "... صعد المنبر والأعراب حوله، وسيوفهم مصلتة خوفا من الشيعة، أن ينكروا فيقوموا، ولم يجسر أحد أن يخطب سواه، فحظي بذلك"[2].

لقد أدرك السلطان **نور الدين محمود** أن الانتصار على الصليبيين والقضاء على عقيدة الشيعة إنما يكون بالرجوع إلى الإسلام الصحيح كما جاء عن **محمد صلى الله عليه وسلم** متمثلا في مذهب أهل السنة والجماعة، والابتعاد عن البدع والجدل في الدين، والالتزام بمبادئه وتعاليمه بشكل صحيح، وفي هذا الإطار يقول المؤرخ **أبو شامة:** "وحكي أن إنسانا بدمشق، يعرف **بيوسف بن آدم**، كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه، أظهر شيئا من التشبيه[3] فبلغ خبره **نور الدين**، فاحضره و أركبه حمارا، وأمر بصفعه، فطيف به في البلاد جميعه، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق..."[4].

ومثل هذا الموقف في الحرص على الدين وصفاء العقيدة من الشوائب، كان عند المغاربة والأندلسيين أمرا طبيعيا، لأنهم كانوا على مذهب الإمام مالك، و كان **الإمام مالك** يكره الجدل في الدين وينهى عنه[5] حيث يقول: "ليس هذا الجدل من الدين في شيء"[6] ويقول كذلك: "أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد

---

[1] القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي (ق544هـ/1149م)، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج3، ص301-302.

[2] ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1989، ص331.

[3] يعني تشبيه الله عز و جل بالمخلوقين.

[4] أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص10.

[5] هذا ما يؤكده القاضي عياض، في قوله: «... كان مالك، رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلمين...»، أنظر: الذهبي، المصدر السابق، ج8، ص106.

[6] الذهبي، نفسه، ج8، ص108.

(صلى الله عليه وسلم) لجداله"[1] و قال أيضا: "إياكم وأصحاب الأهواء فإنهم أعداء أهل السنة"[2]، هكـذا وقع الانسجام بين السلطة الشامية والمغاربة والأندلسيين سواء في الاتجـاه المـذهبي أو العقائدي، هذا التوافق والتواكب أدى إلى طموحات مشتركة سياسيا ودينيا، مما أدى إلـى تقديم المساعدات للمهاجرين المغاربة والأندلسيين، وحسن اسـتقبالهم وتسـهيل إقـامتهم، وضمان معيشتهم، ويتضح هذا في وصف الرحالة **ابن جبير** لمناقب السلطان **نور الـدين محمود زنكي** حيث قال: "... ومن مناقب نور الدين، رحمه الله تعالى، أنـه كـان عـين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة".

منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، وهو **أبو الحسن علي بن سردال الجياني** المعروف **بالأسود:** "أن هذا الوقف المغربي يغل، إذا كان النظر فيه جيدا، خمس مائة دينـار فـي العام، وكان له رحمه الله، بجانبهم فضل كبير، نفعه الله،بما أسلف من الخير، وهيأ ديـارا موقوفة لقراء كتاب الله، عز و جل، يسكنونها"[3].

فكان تمييز **نور الدين محمود زنكي** واضحا للمغاربة والأندلسيين على غيرهم من الجاليات المسلمة الأخرى، بل الأكثر من ذلك فضلهم على رعيته من الشاميين وهذا مـا نجده في قول **ابن جبير:** "... وقد كان نور الدين، رحمه الله، نذر في مرضـة أصـابته تفريق اثنى عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملـة عمالتـه، فـأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يفـتكهم أهلـوهم وجيـرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم، فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى بهذا الصنف المغربي"[4].

ولم تقتصر مساعدات **نور الدين زنكي** للمغاربـة والأندلسـيين علـى المسـاعدات الجماعية، بل تعدتها إلى المساعدات الفردية للأسر والأشخاص، من ذلك مساعدته لأسرة **عبد الله بن محمد الأشيري،** الذي هاجر إلى الشام، في بداية النصف الثاني مـن القـرن (6هـ/12م)، ثم رحل لأداء فريضة الحج، و اصطحب أهله، ولفقره وظروفه المتدهورة،

---

[1] الأصفهاني، حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج6، ص324.

[2] الأصفهاني، المصدر السابق، ج6، ص327.

[3] ابن جبير، المصدر السابق، ص257.

[4] نفسه، ص280.

اضطر أن يعود إلى الشام، تاركا أسرته في المدينة المنورة، واستطاع أن يقابل السلطان **نور الدين زنكي**، وطلب منه المساعدة، ولكنه توفي فجأة سنة (561هـ/1166م)، فبادر السلطان بإرسال مساعدة مالية لأهله في الحجاز، وخيرهم في السكن بين منطقة الحجاز والشام، فاختاروا الشام، ونزلوا مدينة حلب[1].

هذه الرعاية والاهتمام وتسهيل شؤون الحياة والإقامة للمغاربة والأندلسيين في بلاد الشام، نفسها طبقت من طرف الدولة الأيوبية في مصر اتجاه هؤلاء المهاجرين، وممن عنوا بذلك من سلاطين هذه الدولة السلطان **صلاح الدين يوسف الأيوبي** (ت589هـ/1193م)[2].

فكل من الدولة النورية، والأيوبية كان على نفس المنهج في تجسيد وحدة الشام ومصر، عقائديا وسياسيا[3].

ولقد تجسد اهتمام **صلاح الدين الأيوبي** بالمغاربة والأندلسيين باتخاذه طبيبا خاصا من الأندلسيين من بين الذين انتقلوا إلى الشام، حيث كان ملازما له أينما ارتحل، وهذا الطبيب هو **عبد المنعم الجلياني** (ت603هـ/1206م)، رغم وجود أطباء شاميين في

---

[1] القفطي، المصدر السابق، ج2، ص140.

[2] هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية والشامية، من أصل كردي، ولد سنة 532هـ/1137م، ترعرع في بيت آل زنكي، على يد السلطان نور الدين، وبعد وفاة هذا الأخير أصبح صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام، بتزكية الخليفة العباسي، سنة 570هـ/1174م، من أهم انتصاراته انتصاره على الصليبيين في موقعة حطين في فلسطين سنة583هـ/1187م، حيث استرجع مدينة القدس= الشريف، و بذلك انتهت الحملة الصليبية الثانية لصالح المسلمين، و كان كثير التواضع، محبا للعلم والعلماء، ميالا للفضائل، عن سيرته و منجزاته كرجل حكم و دولة و حرب، أنظر: أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص212 و ما بعدها. ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص139. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص41 و ما بعدها. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف و الترجمة و النشر، مصر، بدون تاريخ، ج6، ص4 وما بعدها.

[3] أمينة بيطار، المرجع السابق، ص113–126 كذلك 201–216. المنجد، المرجع السابق، ص26. رشيد الجميلي، دولة الأتابكة في الموصل، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1970م، ص106. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك و نتاجه العلمي و الأدبي، مكتبة الآداب، مصر 1947م، ج1، ص10. عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، مصر 1947م، ص77. أسعد محمد طلس المرجع السابق، ص70. العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1992م، ص104. محمود السيد، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر1997م، ص73.

البلاد، كما أعاد صلاح الدين تجديد البناءات والهياكل المخصصة للمغاربة، فقد جدد مدارس المالكية بدمشق التي أقامها من قبل **نور الدين محمود**[1].

لقد تلقى المغاربة والأندلسيون المعاملة الحسنة في ظل الدولتين النورية الزنكية والصلاحية الأيوبية كما تظهر في شكلها الخارجي، أما في جوهرها الداخلي الخفي فهو التقرب من الأندلسيين والمغاربة لتحقيق أغراضهم السياسية والمذهبية ضد الدولة الفاطمية[2]، فكان سلاطين المماليك يقربون منهم الفقهاء والعلماء كوسيلة دعائية، لما للدين ورجاله من مكانة وأثر قوي قي نفوس الرعية والمجتمع بصفة عامة، حفاظا على بقائهم في الحكم[3]، و في نفس السياق يأتي ما ذكره الرحالة ابن بطوطة أثناء رحلته لمدينة دمشق، خلال القرن (8هـ/14م) حيث قال: "... وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر، يسمى عماد الدين القيصراني من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه، وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلازمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة أيضا كان الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره ..."[4]، لكن قد يستفاد من كلام ابن بطوطة أن المماليك لم يقربوا منهم إلا الفئة المميزة من المغاربة والأندلسيين ممن لهم المكانة الدينية أو العلمية في المجتمع

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص340-341.

Canard (M), Les relations entre les mernides et les mameloukes au XIVe siècle, Annales de l'institut d'études orientales d'Alger, 1938-1941, vol V, p73.

[2] بدأ حكم المماليك لبلاد الشام سنة 658-784هـ/1259-1516م، ويقسم المؤرخون حكم المماليك إلى دورين مميزين هما: الأول: دور المماليك البحرية(الأتراك) ويمتد بين سنة 658هـ-784هـ/1259-1382م، والثاني: دور المماليك البرجية (الجراكسة) و يمتد حكمهم من سنة 784-922هـ/1382-1516م. عن حكم المماليك، أنظر: الريحاني، المرجع السابق، ص26-30. محمود رزق، المرجع السابق، ج1، ص13 وما بعدها. نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت 1966م، ص24 وما بعدها. أسعد طلس، المرجع السابق، ص28-37. عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر و الشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر 1965م، ص1 وما بعدها. فيليب حتي، تاريخ سوريا و لبنان و فلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1983م، ج2= ص266-299. العبادي، المرجع السابق، ص114 وما بعدها. السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1992م، ص195 و ما بعدها.

[3] عبد الفتاح سعد عاشور، المرجع السابق، صفحات311-330-331، 336-337. عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي و المملوكي، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن 1980م، ص82.

[4] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص105-106.

كالفقهاء والقضاة والمتصوفة و أهل العلم عموما، لاستغلالهم في إقناع العامة بالتسليم بحكمهم والاعتراف بوجودهم[1].

ومن الرعاية الخاصة التي تلقاها المغاربة والأندلسيون من طرف سلاطين المماليك تلك التسهيلات التجارية والاقتصادية المتمثلة في تخفيض الضريبة على البضائع والسلع، فقد ورد في كتاب **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة** للمؤرخ جمال الدين بن تغري بردي (ت874هـ/1469م)، أن السلطان أبا السعادات الناصر فرج بن برقوق (ت815هـ/1412م)[2] رسم سنة (814هـ/1412م)، وقرر أن يؤخذ من التجار المغاربة العشر بدلا من الثلث[3] الذي كان مقررا في السابق دون بقية التجار الشاميين والمصريين، لفك الحصار الشديد الذي ضرب عليهم من طرف الصليبيين بدعم من البابوية خلال النصف الثاني من القرن (7هـ/13م)، بعد طرد الصليبيين من منطقة الشام نهائيا[4]، يؤكد هذا الكلام الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه **العصر المماليكي في مصر والشام**، بقوله: "... حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين، بحيث إنه لم يكد يمضي على قيام دولة المماليك نحوا من أربعين سنة حتى طردوا الصليبيين نهائيا من بلاد الشام، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك[5].

إن طرد المماليك للصلبيين من بلاد الشام كلها، نتج عنه رد فعل عنيف من الفرنجة، وصمموا على استعادة الشام، وهذا لا يكون إلا بإضعاف دولة المماليك التي تستمد قوتها

[1] عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 311. علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام، ص107.

[2] هو فرج بن برقوق بن أنيس الناصر الزين أبو السعادات بن الظاهر الجركسي، من ملوك الجراكسة بمصر والشام، ولد سنة791هـ/1388م، بويع بالحكم مرتين: الأولى سنة(801-808هـ/1398-1405م)، والثانية سنة (808-814هـ/1405-1411م)، عن ترجمته أنظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج6، ص168. ابن العماد، المصدر السابق، م4، ج7، ص112.

[3] ابن العماد، المصدر السابق، ج 13، ص128.

[4] عن هذا الحصار الاقتصادي، أنظر: عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص196. عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1963م، ج2، ص1203.

[5] عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، المرجع السابق، ص196.
Marçais Georges, la berberie musulmane et l'orienten moyen age, paris 1946, p31-40.

من احتكار التجارة الدولية في الشرق والغرب، فعملوا على إضعاف هذا العامل المهم الذي يعتبر مصدر قوة المماليك[1].

د-العامل الاقتصادي

تعتبر الشام ومصر من أهم المناطق في المجال الاقتصادي التي استقطبت الجالية المغربية والأندلسية بعدما ضاقت بهم سبل العيش والحياة في المغرب والأندلس[2].

وهذه الجالية وجدت في المدن المصرية والشامية التي استقروا فيها مكانا وفر لهم الأمن والاستقرار وكل متطلبات العيش الكريم، لأن المنطقة تزخر بأسباب الغنى والرخاء، فهي بلاد فلاحية، وصناعية وحرفية ومجال تجاري واسع، وهذه العوامل الاقتصادية منتشرة في كل المدن الشامية والمصرية التي استقرت فيها الجاليات المغربية والأندلسية[3] والتنوع الاقتصادي في هذه المناطق كان عاملا من عوامل الجذب لاسيما للمغاربة والأندلسيين الذين ضاقت بهم سبل الحياة والعيش فاضطروا إلى الهجرة نحو المشرق الذي وفر لهم كل ما يحتاجون إليه وما افتقدوه في بلادهم، ويشهد على هذا الرحالة الأندلسي ابن جبير في قوله: "... وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، و ينهال الخير عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء، و متى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المنقطعين إلى الله، عز وجل، فيقيم معهم ما شاء، و ينصرف حين شاء"[4].

---

[1] نفسه، ص130. عبد الفتاح سعيد عاشور، الحركة الصلبية، ج2، ص1204.

Heyed (W), histoire du commerce des levant au moyen age, paris 1885, pp23-29.

[2] هذا ما يؤكده الدكتور إحسان عباس، بقوله: «... ولم يكن هذا الجلاء مختصا بالحروب والفتن، بل كان من أسبابه أيضا طلب الرزق أو الهروب من الضرائب والظلم... و هذه الحال من فقدان الأمن والاطمئنان تضطر المضطهدين إلى الهجرة والنزوح...» عن هذه المشاكل و الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، أنظر: إحسان عباس، المرجع السابق، ص33-34، عصر المرابطية و الموحدية....، ج2، ص627-628. جابر الأنصاري، المجتمع الأندلسي، صفحات39-40-94.

[3] الريحاني، المرجع السابق، ص23-34. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص67. رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص297-310. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص219-227. إبراهيم، المرجع السابق، ج4، ص385. هيكل، المرجع السابق، ص256-257. محمود السيد، المرجع السابق، ص183 وما بعدها. كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب ودورهما في الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، تحت إشراف: أحمد رمضان أحمد، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر 1991م، ص36. العبادي، المرجع السابق، ص110-112.

[4] ابن جبير، المصدر السابق، ص259.

كل ذلك مما أنعم به الله على مصر والشام من خيرات الحياة الكريمة[1] وهذا ما دفع بالرحالة ابن جبير لأن يوجه دعوة صريحة إلى المغاربة والأندلسيين يشجعهم فيها على التوجه إلى المشرق، لأنه لاحظ والتمس بنفسه وجود موارد الرزق والعيش بها لهم هناك، فقال: "ومرافق الغرباء بهذه البلاد أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم... فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والإنفراد قبل علق الأهل والأولاد، وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، قد نصحت إن ألفيت سامعا، و ناديت إن أسمعت مجيبا... ولم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء، ولاسيما أهل باديتها، فإنك تجد من يبادر إلى بر الضيف عجبا، كفى بذلك شرفا لها. وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير، فيتوقف عن قبولها، فيبكي الرجل ويقول: لو علم الله فيّ خيرا لأكل الفقير طعامي، لهم في ذلك سر شريف"[2].

هـ- العامل الثقافي

عرفت مصر والشام منذ بداية القرن (6هـ/12م) نهضة علمية وفكرية نتيجة اهتمام الدولة النورية وسلطانها نور الدين زنكي، ثم سلاطين الدولة الأيوبية، وسلاطين دولة المماليك بالحياة الثقافية، الذين عمدوا إلى إقامة المرافق التعليمية، كبناء المدارس، ودور القرآن والحديث، والمساجد، والزوايا، والخوانق وغيرها[3]، والاهتمام بهذا الجانب

---

[1] نقولا زيادة، المرجع السابق، ص136. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص104. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص239-241. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص82-83.

[2] ابن جبير، المصدر السابق، ص258.

[3] أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف، بيروت، لبنان 1954م، ص100 وما بعدها. أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة النهضة، مصر، القاهرة، ص4-9. المنجد، المرجع السابق، ص32. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص201-216. عبد الجليل حسن، المرجع السابق، ص49 وما بعدها. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص80-83 و ص106-163. أسعد طلس، المرجع السابق، ص67. حسن الشمساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص19 وما بعدها. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص185. محمود السيد، المرجع السابق، ص206 وما بعدها. مبارك لمين، الرحلة العلمية=

كان عاملا هاما لجلب المغاربة و الأندلسيين من أهل العلم و المعرفة سواء كانوا طـــلاب علم أو علماء، أو من المتصوفة و الفقهاء[1].

فالسلطان نور الدين زنكي مثلاً لعب دوراً هاما في جلب المغاربة والأندلسيين لدعم المذهب السني في بلاد الشام و إحياء نفوذه و تمكينه حتى يمحو من الوجود الفكر الشيعي الذي كان سائدا قبله[2]، ومن أجل تحقيق هذا الغرض عمل السلطان محمود علـــى إنشـــاء مدارس لتعليم القرآن والحديث، وعلوم أهل السنة، وقد تخرج من هذه المدارس أصـــحاب المناصب والوظائف الحكومية من مدنية وعسكرية وقضائية، متشبعين بأفكـــار المـــذهب السني، كما تخرج منها الدعاة، والوعاظ، الذين كان يبعث بهم إلى كافـــة أنحـــاء الـــبلاد، لمجابهة دعاة الدولة الفاطمية، و التصدي للفكر الشيعي[3].

وعندما كثرت المدارس والمنشآت التعليمية، اضطرت السلطات الحاكمة للبحث عن علماء أكفاء على مذهب أهل السنة، وكان المغاربة والأندلسيون ممن تـــوفر فـــيهم هـــذا الشرط، زيادة على أنهم أعداء تقليديون للفاطميين[4] فتم الاعتماد عليهم في التدريس وفـــي الوظائف الحكومية في مصر والشام[5]، وقد بلغ عدد المدارس بالشام فـــي عهـــد الدولـــة النورية ثمان وخمسين مدرسة، أنجز منها في عهد السلطان نور الدين اثنتـــان وأربعـــون مدرسة، نصفها بناه من أمواله الخاصة، ففي مدينة دمشق، قام بتأسيس إحـــدى عشـــرة

الأندلسية إلى المشرق خلال القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلـــوم الإنســـانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان (1421-1422هـ/2000-2001م)، ص150.

[1] بدوي، المرجع السابق، ص10. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص201 وما بعدها.

Cherbonneau (A), les écrivains de l'Algérie au moyen age, in R.A 14, 1870, p19-21.

[2] المنجد، المرجع السابق، ص22. الريحاني، المرجع السابق، ص113. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص201-204. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص69. أسعد طلس، المرجع السابق، ص67. عبد اللطيـــف حمـــزة، المرجـــع الســـابق، ص82.

[3] أحمد شلبي، المرجع السابق، ص195-196. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص204. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص82. الريحاني، المرجع السابق، ص113. عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1984م، ص166. شمساني، المرجع السابق، ص267-268. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص185.

[4] عن هذا العداء، أنظر: بيضون، المرجع السابق، ص314-317. أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص14. شمساني، المرجع السابق، ص19. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص212.

[5] أمينة بيطار، المرجع السابق، ص202. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص196. عبد الله عبد الدائم، المرجع الســـابق، ص166. محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها و تطورها في البلاد العربية، عالم الكتـــب، القـــاهرة، مصـــر 1983م، ص190.

مدرسة، خمسة للحنفية على زاوية الأسدية في المسجد الكبير، وأربع للشافعية، ومدرســة مختلطة للشافعية والحنفية، ومدرسة للمالكية.

أما في مدينة حلب فبنى ثلاث مدارس للحنفية، وأربعاً للشافعية، إضافة إلى زاويتين، واحدة للحنابلة وأخرى للمالكية، كذلك قام بإنشاء مدرستين في مدينــة حمــاة وحمــص، وواحدة بمدينة بعلبك[1] وأول مدرسة أنجزها سلطان الدولة النورية، هــي التــي تعــرف بالعصرونية، نسبة للقاضي ابن عصرون (ت585هـ/1189م)[2] لنشر المذهب الشــافعي السني[3] بمدينة حلب سنة (548هـ/1153م)[4]، و قد تكفل السلطان نــور الــدين زنكــي بالإنفاق على هذه المدارس والاهتمام بها، كدفع رواتب المعلمين والمتعلمين، وإطعــامهم وإسكانهم حتى ينصرفوا لطلب العلم فقط، و أوقف الأوقاف علــى المنشــآت العلميــة[5]، ويعتبر السلطان نور الدين أول من قام بإنشاء دار لتدريس الحديث النبوي الشــريف فــي تاريخ الإسلام بمدينة دمشق، وأطلق عليها اسم النورية، وسار على نهجه من جاء بعــده مــن حكــام الدولــة الأيوبيــة والمملوكيــة فــي هــذا المجــال[6] فتميــز القــرنين (6-7هـ/12-13م) باهتمام كبير بالنهضة الفكرية والعلمية فظهرت المرافق والمنشــآت التعليمية كالمدارس، والخوانق، والزوايا، و دور الحــديث، ودور القــرآن، والمســاجد،

---

[1] بيطار، المرجع السابق، ص213. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص102-103. الريحاني، المرجع السابق، ص65.

[2] هو الإمام العلامة الفقيه شيخ الشافعية بالشام، قاضي القضاة، شرف الدين أبو السعادات عبد الله بن محمد بن هبــة الله ابن مظهر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السري التميمي، الحديث، من أهل الموصل ولد سنة 492هـــ/1098م، و رحل إلى الشام سنة 545هـ/1147م، فاستقر بمدينة حلب ودمشق، و بنى له السلطان نور الدين مدارس بحلب وحمص وبعلبك، كما بنى لنفسه مدرسة بحلب، عن ترجمته أنظر: ابن خلكان، المصــدر الســابق، ج3، ص53-57. الــذهبي، المصدر السابق، ج21، ص125-129. ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص33-334. ابن الجزرى، شمس الــدين (ق833هـ/1429م)، غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنــان 1982م، ص445. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص303-305. ابن العماد، المصدر السابق، م2، ج4، ص283-284.

[3] أسعد طلس، المرجع السابق، ص67.

[4] عن هذه المدرسة، أنظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص54. ابن شداد، المصــدر الســابق، ص238-239. الذهبي، المصدر السابق، ج21، ص127. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص302-308. ابن العماد، المصدر السابق، م2، ج4، ص283.

[5] أحمد بدوي، المرجع السابق، ص5، شمساني، المرجع السابق، ص19، محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق 1926م، ج4، ص39. بيطار، المرجع السابق، ص202 وما بعدها.

[6] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص408. كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص38. أسعد طلس، المرجــع الســابق، ص67. شمساني، المرجع السابق، ص20.

والبيمارستانات، خاصة في الشام ومصر، وأصبحت هذه المناطق مقصد المتعطشين لطلب العلم من جميع المسلمين خاصة المغاربة والأندلسيين[1].

ومعظم المرافق العلمية كانت بمدينة دمشق، ففي حكم الدولة الأيوبية كـان بدمشـق مائتان واثنان وأربعون مسجداً[2] و في حكم دولة المماليك كان بها(84) مدرسة، منها(35) خاصة بالشافعية، و(34) لأتباع المذهب الحنفي و(08) لأصحاب المذهب الحنبلي و(07) الباقية مشتركة بين مذهبين أو أكثر[3]، بالإضـافة إلـى الزوايـا والخانقـات والأربطـة والبيمارستانات[4] وفي هذا المجال يقول الرحالة ابن بطوطة: "وأهل دمشق يتنافسون فـي عمارة المساجد والمدارس والمشاهد... ومن أراد طلب العلم أو التفـرغ للعبـادة وجـد الإعانة التامة على ذلك"[5]، وفي نفس السياق يقول الحميري: "... وهناك ديـار موقوفـة لقراء كتاب الله تعالى يسكنونها، ومرافق الغرباء أكثر في البلد من أن تحصى، لا سـيما لحفاظ كتاب الله تعالى و المنتمين لطلب العلم... وهي أحسـن الـبلاد للغريـب لكثـرة المرافق..."[6]، و هكذا أصبحت دمشق مركز إشعاع علمي في المشرق العربي كله خـلال القرن (6هـ/12م) [7] مما جعلها منطقة استقطاب للجاليات المغربيـة والأندلسـية[8] التـي توفرت لها الظروف المناسبة لممارسة نشاطاتها المدنيـة والدينيـة والعلميـة، وهـؤلاء الأندلسيون هم أحفاد الفاتحين من الأمويين، وتعتبر مدينـة دمشـق فـي نظـرهم أرض الأجداد[9] كما يسرت لهـم السـلطات الحاكمـة فـي الشـام ومصـر خـلال القـرنين (6-7هـ/ 12-13م) خلال حكم الـزنكيين والأيـوبيين والمماليـك، ظـروف الإقامـة

---

[1] أحمد شلبي، المرجع السابق، ص350-351. بدوي، المرجع السابق، ص5-10. شمساني، المرجع السابق، ص19-38 و ص268-269. الريحاني، المرجع السابق، صفحات30-65-69. أسعد طلس، المرجـع السـابق، ص67-76. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص149-155. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص202 وما بعدها. المنجد، المرجع السابق، صفحات22-23-32. محمد منير حرص، المرجع السابق، ص233. عبد الجليل حسـين، المرجـع السـابق، ص49. الجميلي، المرجع السابق، ص114-115.

أ[2] مينة بيطار، المرجع السابق، ص231.

[3] نقولا زيادة، المرجع السابق، ص119-122.

[4] نفسه، ص122-128. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص108-163. شمساني، المرجع السابق، ص20.

[5] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص104-105.

[6] الحميري، المصدر السابق، ص204.

[7] المنجد، المرجع السابق، ص22.

[8] نفسه، ص53.

[9] نفسه، ص17 وما بعدها.

والرعاية، وأسسوا لهم مدارس خاصة بهم وبمذهبهم المالكي[1] قال ابن بطوطة: "وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصماقية، و بها سكن قاضي قضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود زنكي، والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر"[2].

وضمنت السلطات للمعلمين والمتعلمين الإعانة المالية والإيواء والإطعام من عطايا المتبرعين وأوقاف المدارس[3] و يظهر هذا الاهتمام في قول الشيخ البدري (ت847هـ/1443م)، في كتابه **نزهة الأنام في محاسن الشام**، بقوله: "... وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المجرد الفقير اللباس ورتبوا له من الخبز واللحم والطعام، والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام، فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء و الخضرة و الوجه الحسن فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن» [4]، كل هذه الفضائل أثارت في نفسية المؤرخ ابن الخطيب (ت776هـ/1374م) الإعجاب والشوق بجعله يتمنى زيارتها و رؤيتها قبل وفاته، بعدما سمع عن أخبارها من الذين زاروها خلال القرن (7هـ/13م) حيث قال: "... وكثيرا ما يطنب على دمشق، ويصف محاسنها، فما انفصل عني إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها، فأتمنى أن احل مواطنها إلى أن ابلغ الأمل قبل المنون"[5] وهذا الرحالة المغربي الشريف الإدريسي، يصف محاسنها بقوله: "ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب الصناعات وأنواع الثياب الحرير كالخز والديباج والنفيس الثمين العجيب الصنعة العديم

---

[1] نفسه، ص33 وما بعدها.عبد الجليل، المرجع السابق، ص57 وما بعدها. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص82-85.

[2] ابن شداد، المصدر السابق، ص253-254. ابن بطوطة، المصدر السابق. النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص3-22.

[3] أمينة بيطار، المرجع السابق، ص207 و ما بعدها. كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص97 و ص39. عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص104-107. عبد الجليل، المرجع السابق، ص66-81- 83-107. شمساني، المرجع السابق، ص42-48. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص362-367.

[4] البدري، المصدر السابق، ص70-71.

[5] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، دار المعارف، مصر 1955م، ج1، ص220. المنجد، المرجع السابق، ص26 وما بعدها.

المثال الذي يحمل إلى كل بلد و يتجهز منها به إلى كل الأفاق والأمصار المصــاقبة لهــا والمتباعة منها، ومصانعها في ذلك عجيبة...» [1].

ويقول عنها الرحالة ابن جبير: "... مدينة دمشق، حرسها الله تعالى، جنة المشرق... وعروس المدن... قد حلت بأزاهي الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين... ولله صدق القائلين عنها: "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق[2] لاشك فيهــا، وان كانــت فــي السماء فهي بحيث تسامتها و تحاديها"، ويقول عنها كذلك المؤرخ الرحالة ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م): "... وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونظارة... وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشئ إلا و في دمشق مثله، و من المحال أن يطلب بها شــيء من جليل أغراض الدنيا و دقيقها إلا وهو فيها أوجد مــن جميــع الــبلاد..."[3] وبالنسـبة للخيرات التي كان يتمتع بها سكانها يصفهم الحميري قي كتابه **الروض المعطار**، قــائلا: "... دمشق... وأهلها في خصب، وهي أعز البلاد الشامية وأكملها حسنا"[4] وتعتبر معاملة الشاميين للغرباء الوافدين عليهم خاصة للمغاربة والأندلسيين وطريقة استقبالهم التي كانت تحظى باحترام وتقدير كبير[5] وشهادة ابن بطوطة عندما زارها خلال القرن (8هـــ/14م) فيما تلقاه هو من معاملة كريمة وحسن ضيافة و استقبال حار، من قبل مدرس المالكيــة، نور الدين السخاوي، بمنزله ولمدة أربعة أيام، فيقول: "و لما وردت دمشق وقعــت بينــي وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة، فرغب مني أن أفطر عنده فــي ليــالي رمضان، فحضرت عنده أربع ليالي ثم أصابتني الحمى، فغبت عنه فبعــث فــي طلبــي فاعتذرت بالمرض، فلم يسعني عذرا، فرجعت إليه وبت عنده، فلمــا أردت الانصــراف بالغد فمنعنى من ذلك وقال لي: احسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيــك، وأمــر بإحضار طبيب، وان يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غــذاء، وأقمــت

---

[1] الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف (ق560هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان 1989م، ص369. الحميري، المصدر السابق، ص240.

[2] ابن جبير، المصدر السابق، ص235.

[3] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص465.

[4] الحميري، المصدر السابق، ص240.

[5] هذا ما يؤكد عليه الرحالة المغربي ابن بطوطة، في قوله:« وأهل دمشق... يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال و الأهليين و الأولاد...» أنظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ص104. المنجد، المرجع السابق، ص34-35. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص52-85.

كذلك عنده إلى يوم العيد، وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني، وقد كان ما عندي من النفقة نفد، فعلم بذلك فاكترى لي جملا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي: "تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم،جزاه الله خيرا"[1].

وقد وصف هذا الرحالة المغربي حوار الغرباء الذين يحلون على مدينة دمشق في قوله: "... وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يأتي له وجه من المعاش من إقامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يحي إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة يشهد من الشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخرى من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعلم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك"[2]، وخلاصة القول فان جل العوامل الايجابية المساعدة على استقطاب أنظار المغاربة والأندلسيين أثرت في نفسيتهم ودفعتهم إلى الهجرة إلى المشرق العربي خاصة مصر وبلاد الشام.

لكن هذه العوامل لم تكن لها نفس درجة التأثير فهناك تفاوت وخلاف بينهم، فالعامل السياسي هو أقوى تأثيرا من العوامل الأخرى على المهاجرين الأندلسيين والمغاربة سواء كان العامل اقتصاديا، أو دينيا، أو طبيعيا، فالعامل السياسي في طليعة التأثير وبدون منافس، والمحرك الأول له، لأنه لولا انعدام الاستقرار والأمن الذي عرفته منطقة الأندلس والمغرب، وما حل بهما من تفكك و انهيار للسلطة الحاكمة، عقب زوال نظام الحكم الأموي، في الأندلس، ثم المرابطي، وبعده الموحدي في المغرب والأندلس كذلك وما حدث للأندلسيين بفعل التحرشات و الهجمات العسكرية، في محاولة استرداد الإسبان للأندلس[3] لما غادرت وتركت فئة كبيرة من كان الأندلس أراضيها، تبحث عن وطن بديل، يحقق لهم ما فقدوه، ويعوضهم خيرا عن وطنهم الأم، ويجدون فيه الأمن والاستقرار ويوفر لهم سبل الرزق والعيش الكريم، بالإضافة إلى ما سبق هناك العاطفة السياسية التي كان يكنها المغاربة والأندلسيون لمصر وبلاد الشام، فالمغاربة والأندلسيون كانوا يعتبرون

---

[1] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص105.

[2] نفسه، ص105.

[3] كمال السيد، المرجع السابق، ص40-94.

أنفسهم أحفاد فاتحيها من أهل الشام ومصر، وكان حنينهم إلى هذه البلاد كموطن للأصالة و أرض الأجداد، كما يقول المثل: «الرجوع للأصل فضيلة».

أما بالنسبة للعامل الاقتصادي فيعتبر المحرك الثاني، لأنه لولاه لما استقر المغاربة والأندلسيون في مصر وبلاد الشام، التي أصبحت في فترة موضوع البحث تشهد ازدهارا كبيرا[1] ولا يجب إهمال العامل الديني و الفكري، لكن هذا العامل لم يبلغ درجة العامل السياسي و الاقتصادي، إلا أنهما لعبا دورا لا يستهان به في عملية جذب وطرد المغاربة والأندلسيين إلى مصر وبلاد الشام، حيث كان العامل الديني يوفر للمغاربة والأندلسيين الذين هاجروا من بلادهم، الحرية في إحياء شعائر مذهبهم المالكي السني و العمل به، مع تلقي المساعدات من طرف السلطات الحاكمة، أو من فئة رجال الدين، كالعلماء والفقهاء.

كذلك العامل الفكري المتمثل في تلك الحركة الفكرية النشيطة، التي عرفتها المناطق المستقطبة من المشرق العربي عامة، ومصر والشام خاصة، التي شجعت المغاربة والأندلسيين، على الهجرة إليها، في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها أقطارهم.

وفي الأخير هناك العامل الطبيعي، الذي وجد فيه المغاربة والأندلسيون التشابه الكبير بين الأندلس و بلاد الشام.

هذه العوامل كلها مجتمعة كانت دافعة ومشجعة للأندلسيين والمغاربة لشد الرحال في اتجاه مصر والشام للاستقرار و الاستيطان بها، وهذا رغم العداء الذي وقع بين الأمويين والعباسيين، وخاصة بعد الإطاحة بالخلافة الأموية، و نشأتها من جديد بالأندلس.

فكان العداء هو السائد في طبيعة العلاقات بين السلطتين، الخلافة العباسية في المشرق، والإمارة الأموية الأندلسية في المغرب[2] وأيضاً في معاملة العباسيين لأهل

---

[1] أحمد بن عبود، (التصورات التاريخية للأندلس قديما و حديثا) مجلة البحث العلمي، العدد34، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية 1984م، ص53-63. كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص40-94.

[2] عن هذا العداء بين النظامين الحاكمين، أنظر: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1990م، ص94. عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1991م، ج1، ص445-449. حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر 1993، ص137-150. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي و الحضاري، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان 1989م، ص55-56. حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، الدار الجامعية، بيروت، لبنان 1986م، ص36-37. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص188-190 و ص197. حسين أحمد محمود، تاريخ المغرب=

الشام[1]، وهذا ما نلمسه في كتاب المستشرق الفرنسي، ليفي بروفنسال في كتابه **الإسلام في المغرب والأندلس**، في قوله: «... وقد ساعد الزمان وبعد المكان علـــى زيـــادة العـــداء المعهود بين الأمويين بإسبانيا، و بين خلفاء بغداد، بحيث بدأ الشام يفقد في نظرهم صـــفة الفردوس المفقود، بعد أن صاروا يحكمون أرضا لها نفس المميزات والثراء والخصـــوبة والطبيعة التي لا تقل عن الشام تنوعا وانسجاماً»[2].

وهناك إشارات كثيرة تبرز وجود ذلك الترابط الوثيق والصلة العاطفية القائمة بـــين المنطقتين، بدليل إطلاق أسماء المدن التي انطلقوا منها من بلاد الشام على الأماكن التـــي نزلوا فيها من أرض الأندلس[3] فقد ذكر المؤرخ الأندلسي ابن قوطية، في كتابـــه **تـــاريخ افتتاح الأندلس**، أنه منذ عهد الخليفة الأمـــوي هشـــام بـــن عبـــد الملـــك بـــن مـــروان (ت 125هـ/742م)[4] نزل الشاميون في كور الأندلس، «... وتفريقهم عن قرطبة، إذ كان لا تحملهم، فأنزل أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن برية، وأهل قنسرين بجيـــان، وأهـــل مصر بباجة، وقطيعا منهم بتدمير...»[5].

والأندلس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1999م، ص94. عبد العزيز فيلالي، (العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب الإسلامي) مجلة الثقافة، العدد56، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 1980م، مارس-أفريل، ص116.

[1] أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة 1977م، ص232 ومـــا بعدها. وليم الخازن، الحضارة العباسية، ط2، دار المشرق، بيروت، لبنان 1992م، ص49. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق 1981م، ص67-94. محمد الخضري بك، الدولة العباســـية، تحقيـــق: أحمـــد حطيط، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان 1994م، ص35-37.

[2] ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص93-94.

[3] اليعقوبي، المصدر السابق و نفس الصفحة، ابن القوطية، المصدر السابق و نفس الصفحة. مؤلف مجهـــول، أخبـــار مجموعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1989م، ص49. ياقوت الحموي، معجـــم البلدان، ج2، ص304. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص491. ابن الأبار، الحلة السيراء، نفس الصـــفحة. ابـــن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص244.

[4] هو عاشر خلفاء بني أمية، ولد بدمشق سنة71هـــ/690م، وبويـــع بالخلافـــة بعـــد وفـــاة أخيـــه الخليفـــة يزيـــد سنة105هـ/723م، وفي عهده بلغت الخلافة الإسلامية أقصى اتساعها وفتوحاتها، عن ترجمته، أنظـــر: ابـــن شـــاكر الكتبي، المصدر السابق، ج4، ص238.

[5] ابن القوطية، المصدر السابق، ص44.

ويتجلى هذا الترابط العاطفي بشكل واضح عندما لم يستطع مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس، الأمير عبد الرحمان الداخل، (ت172هـ/788م)[1]، إخفاء مشاعره التي كانت تحن إلى مسقط رأسه، موطن حكم آبائه وأجداده، وأمله في العودة إلى منطقة الشام[2] ويبدو هذا الإحساس ويظهر بصورة خاصة عندما حط قدمه لأول مرة في مدينة الرصافة[3] فوقع بصره على نخلة، فتذكر من خلالها الأرض والوطن، فانفعل وقال فيها شعراً[4] ويظهر بوضوح هذا التواصل العاطفي،عند دخول الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، حيث اختار النزول في أرض البيرة[5] واتخذها مقراً لجند دمشق[6]

---

[1] هو الأمير أبو مطرف عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الدمشقي المعروف بالداخل، والشهير بصقر قريش، مجدد الدولة الأموية بالأندلس سنة138هـ/755م، بعد سقوطها بالمشرق سنة132هـ/749م، وكان مولده بالشام سنة 113هـ/731م، ويعتبر من أهل العلم والعدل، عن سيرته، أنظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص46-57. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص49-109. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1989م، ج1، ص26-27. الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص37-38، الضبي، بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، ج1، ص32. ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص489-496 و ج6، ص110. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص40-58. الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص302-303. المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص327-334، ج3، ص27-55.

[2] قد عبر عن هذه المشاعر الفياضة بالأبيات التالية:

يا أيها الركب الميمم أرضي	إقرا بعض السلام عني لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض	وفؤادي و مالكيه بأرض
قد قضى الله بإبعاد علينا	فعسى باقترابنا سوف يقضي

عن هذه الأبيات أنظر: الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص38. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص32. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص11. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص60. الذهبي، المصدر السابق، ج8، ص246، الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص303. ابن الخطيب، إعلام الأعلام، ص9، المقري، المصدر السابق، ج3، ص54.

[3] تعرف برصافة قرطبة، وهي مدينة أنشأها الأمير عبد الرحمن الداخل، وأطلق عليها هذه التسمية لشبهها برصافة الشام، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص46-50. الحميري، المصدر السابق، ص269.

[4] حيث قال: تبدت لنا وسط الرصافة نخله تفاءت بأرض الغرب عن بلد النخل

[5] البيرة: كورة كبيرة من الأندلس، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا، وأراضيها كثيرة الأنهار والأشجار. عن مدينة البيرة، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص244-242. الحميري، المصدر السابق، ص29.

[6] ابن قوطية، المصدر السابق، ص47 وما بعدها. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص74 وما بعدها. ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة، 1963م، ج2، ص346. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص41. المقري، المصدر السابق، ج3، ص31 وما بعدها.

وعندما انتشر الخبر في الأندلس قدم الجنود من كل مكان، و انضموا تحت لوائه وساروا في ركبه[1].

وتدل هذه الواقعة التاريخية على التعاطف المتين بين الأمويين في الشام وأهل الأندلس، وتوجد إشارات تاريخية أخرى تبين انحياز وميل الأندلسيين لأهل الشام، ويتجلى ذلك في أن أشهر العلماء الأندلسيين في هذه الفترة كانوا موالين للأمويين[2] مثل ابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1063م)[3] قال عنه ابن بسام الشنتريني(ت542هـ/1147م) في كتابه **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: «... و كان مما يزيد في شأنه تشيعه لأمراء بني أمية، ماضيهم و باقيهم بالمشرق والأندلس واعتقاده لصحة إمامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش...»[4]، و الشيخ الحافظ أبو بكر بن العربي (ت543هـ/1148م)[5] الذي زار

---

[1] مؤلف مجهول، المرجع السابق، ص74 وما بعدها. ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص345. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص44. المقري، المصدر السابق، ج1، ص328 وما بعدها. ابن قوطية، المصدر السابق، ص44-52. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص45 وما بعدها. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص37-38. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص32. عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص10. ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص347-350. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص35-38 و ص 44-50. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص261-266. المقري، المصدر السابق، ج1، ص238، ج3، ص25 و ص26-35.

[2] يرى الدكتور محمد عابد الجابري، أن هناك من العلماء الأندلسيين من كانوا ينطقون باسم الخلافة الأموية ويحملون مشروعها الثقافي والإيديولوجي، أنظر: محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1991م، ص188.

[3] هو أبو محمد بن سعيد بن حزم، أصله من بلاد فارس، ولد بقرطبة، سنة 384هـ/994م، كان من أنصار المذهب الظاهري فلقب بالظاهري، برع في الفقه والحديث، والشعر والفلسفة والكتابة، له مؤلفات كثيرة، عن ترجمته أنظر: ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912م، ص75-77. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص308. ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1979م، ج1، ص167-180. الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، مكتبة المكاوي، القاهرة 1908م، ص63-64. الضبي، المصدر السابق، ج2، ص543-545. ابن بشكوال، خلف بن عبد الله (578هـ/1182م)، الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتب، اللبنانية، بيروت، لبنان 1989م، ج2، ص605-606، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص27-30. القفطي، تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، مؤسسة الخانجي، مصر 1903م، ص232-233. ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص325. المقري، المصدر السابق، ج2، ص77-84.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص169.

[5] هو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي المعافري، من أهل مدينة إشبيلية، يكني بأبي بكر، الإمام المتبصر، خاتمة علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها، خرج إلى الحج مع والده سنة 485هـ/1092م، ثم ارتحل في طلب العلم إلى كل من مصر، والشام، وبغداد، وكان من أهل النفس في العلوم والاستبحار فيها، صنف تصانيف كثيرة=

المشرق العربي (خاصة مصر والشام) في المنتصف الثاني من القرن (5هـ/11م) وكان يجتهد في تبرئة الأمويين وإنصافهم والثناء عليهم[1] في حواره مع أنصار المذهب الإسماعيلي[2]، و كان الأندلسيون إذا ذكروا الشاميين، نوهوا بالصحابة رضي الله عنهم، أمثال عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، وغيرهم[3]، من خلال ما سبق نستنتج بأن العلاقة الحميمية والترابط العاطفي، بين أهل مصر والشام وبين أهل الأندلس والمغرب، ظلت قائمة رغم البعد الجغرافي بين المنطقتين، وقد كانت دافعا رئيسيا وإيجابيا في تشجيع حركة التآلف الحضاري بين المشرق والمغرب في جميع الميادين[4]، و نبين الصلات التي كانت موجودة بين المشرق و المغرب في ثلاثة محاور، فيما يلي:

منها «شرح الجامع الصحيح للترمذي» و«قانون التأويل في تفسير القرآن» و«العواصم من القواصم»، عن ترجمته أنظر: ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص855-857. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص125-131. ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص296-297. الذهبي، تذكرة الحفاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1374هـ، ج4، ص1294-1298. ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص228. ابن فرحون، المصدر السابق، ص376-378. الداودي، طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر 1972م، ج2، ص162-166. المقري، المصدر السابق، ج2، ص25-44. ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص136-138.

[1] أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق: عمار طالبي، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر 1981م، ص61 وما بعدها.

[2] الإسماعيلية طائفة من الإمامية الباطنية، تعرف بالسبعية، وهي فرقة من المذهب الشيعي، يتحزبون لآل البيت، عامة، وعلي بن أبي طالب (رض)، وأبنائه خاصة، وينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم يتفقون مع الإمامية الإثنا عشرية في تولي الإمامة إلى جعفر الصادق، ثم يختلفون معها فيمن يتولى بعده الإمامة، فيقررون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل وليس ابنه موسى الكاظم، كما تطالب الإثنا عشرية، نشأ هذا المذهب بالعراق، كغيره من الفرق الشيعية، حيث استطاع أن يكون دولة خاصة به في المغرب ومصر، والشام، وهي الدولة الفاطمية، أنظر: أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص52-55. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج1، ص322-333. مصطفى الرافعي، حضارة العرب، ط4، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان 1988م، ص233-234. دائرة المعارف الإسلامية، ج2، ص187-194.

[3] ابن حزم، المصدر السابق، ج2، ص175. المقري، المصدر السابق، ج3، ص164.

[4] ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص94. صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص17 وما بعدها. محمد محمودة، المرجع السابق، ص21، إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص109. حسان حلاق، المرجع السابق، ص33-34-38. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1355هـ، ج1، ص214-215. محمود علي مكي

1 العلاقات السياسية بين المغرب الإسلامي و مصر و الشام

أ- العلاقات السياسية بين المغرب ومصر

ارتبط المغرب الإسلامي بمصر ارتباطات قوية أدت إليها رابطة الجوار و الإسلام من جهة، و رابطة الخلافة من جهة ثانية، و رابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة، ثم رابطة الحج؛ لأن مصر تقع على الطريق الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة.

ففي عصر المرابطين لم تكن العلاقة بين المغرب و مصر مخطط لها من قبل الحكام، بل كانت عادية تسير على سجيتها[1].

وأما العلاقات السياسية بين الدولة الموحدية ومصر فلم تكن على ما يرام، ذلك أن الموحدين قد تلقبوا بالخلافة منذ عهد عبد المؤمن بن علي سنة (528هـ/1133م) الذي تسمى بأمير المؤمنين، فأصبحوا بذلك ينافسون الفاطميين في مصر و العباسيين في بغداد و الأمويين في الأندلس. على أن لتأثير آراء محمد بن تومرت حول الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية دور لا ينكر في ذلك، حيث أنه خلال زيارته التي قام بها سنة (501هـ/1107م)، و التي استمرت خمسة عشر عاما اتهم فيها الفاطميين بتقصيرهم في مواجهة الحملات الصليبية و تردي أحوال مصر الداخلية، كما حمّل العباسيين تدهور الأوضاع في المشرق و عجزهم عن حماية المسلمين هناك، و قد حرص خلفاء ابن تومرت على تحقيق دعوته في تغيير الأوضاع في المغرب و في المشرق، و قد ظهر ذلك في جزء من برنامج الخليفة يعقوب المنصور[2]، الذي كان ينوي الذهاب إلى مصر وغيرها من بلدان المشرق لوضع حد لما يجري فيها من أمور منكرة، قال المؤرخ المراكشي في **المعجب** عن الخليفة يعقوب المنصور: " و بلغني من غير واحد أنه صرح

(التأثيرات المشرقية في الأندلس ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، إسبانيا، 1961-1962م، م9-10، ص495.

وذكر صلاح الدين المنجد أنه رغم بعد بلاد الشام عن بلاد المغرب إلا أن الشام بقي مقصد الأندلسيين والمغاربة، أنظر: صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص20. عدنان فائق عنيتاوي، حكايتنا في الأندلس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 1989م، ص149. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص60.

[1] علي أحمد، تاريخ المغرب القديم و الإسلامي، ص167.

Peyrouton Marcel, histoire générale au Maghreb, paris 1966, p93.

[2] ولي الحكم (من سنة580هـ إلى595هـ). منى إبراهيم عبد الرحمان، السفارات الأجنبية في مصر على عهد سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة (1395هـ/1975م)، ص70 وما بعدها.

للموحدين بالرحلة إلى المشرق، و جعل يذكر البلاد المصرية و ما فيهـا مـن المنـاكر والبدع، و يقول: نحن –إن شاء الله– مطهروها، و لم يزل عزمه إلى أن مات رحمـه الله في صدر سنة (595هـ/1198م).

والمناكر والبدع التي كان يعنيها يعقوب المنصور هي تلك الأمور التي كان يأتيهـا الفاطميون الشيعة في مصر، والاضطهاد الذي كان يلقاه أهل السنة منهم.

و انطلاقا من سياسة الموحدين و المبادئ التي نادى بها محمـد بـن تـومرت تـم إخضاع المغرب الأدنى و المغرب الأوسط، ووصلت حدود دولتهم إلـى برقـة شـرقا، وعبروا المضيق إلى الأندلس وقضوا على ما بقي فيها من نفوذ للمرابطين، وحققوا سلسلة من الانتصارات ضد الممالك الإسبانية الشمالية و أوقعوا بالأساطيل البرتغاليـة الخسـائر الفادحة[1].

وقد تزامنت هذه الانتصارات التي حققها الموحدون في المغرب والأندلس مع سقوط الفاطميين وعودة مصر إلى الانضواء تحت راية الخلافة العباسية على يد صلاح الـدين الأيوبي.

و لا شك أن قيام الدولة الأيوبية قد حال دون تحقيق أهداف الموحدين وتطلعهم نحو المشرق، لا سيما و أن شخصية صلاح الدين و دوره في محاربة الصلبيين قد أضعفا من فرصة الموحدين و أطماعهم اتجاه الشرق الإسلامي، و بهذا أصبح من المسـتبعد قيـام علاقات طبيعية بين الأيوبيين و الموحدين و بالتالي انعدام التنسيق و التعاون بين الدولتين في مواجهة الحملات الصليبية.

و في سنة (568هـ/1172م) تدهورت العلاقات بين الأيوبيين والموحدين، وذلـك على إثر دخول قراقوش إفريقية مع طائفة من الأتراك واستيلائه على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما عدا المهدية و صفاقس و قفصة و تونس[2].

---

[1] ابن شداد، يوسف بن رافع، النوادر السلطانية و المحاسبة اليوسفية، سيرة صلاح الدين الأيوبي، تحقيق: جمال الـدين الشيال، طبعة مصر 1964م، ص46.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص215. حورية عبده عبد الحميد سلام، علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح العربـي حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة 1974م، ص120.

Piloti (E), l'Égypte au commencement XVe siècle, cairo univ fiud 1950, p201.

و قد اعتبر الموحدون أن هذه الحملة، قد تمت بتشجيع من الأيوبيين بعد أن تدهورت علاقة صلاح الدين مع السلطان نور الدين محمود، و ذلك للبحث عن مكان آخر يكـــون موئلا لدولته الناشئة فيما إذا نفذ نور الدين تهديده بإخراجه من مصر.

و على الرغم من صحة ما تردد من تشنج العلاقة بين صلاح الدين و نـــور الـــدين محمود إلا أنه من المستبعد أن تكون حملة قراقوش قد تمت بتشـــجيع أو تخطـــيط مـــن الأيوبيين؛ لأن هذه الحملة لم تكن على مستوى من التخطيط و الإعداد من حيـــث العـــدد والعدة بما يسمح لها القيام بمثل المهمة المذكورة، كما أنه لم يشارك فيها أحد من أمـــراء الأسرة الأيوبية كما جرت العادة بذلك.

و قد بقي اهتمام صلاح الدين بتحرير الشام من الاحتلال الصليبي بعد وفـــاة نـــور الدين محمود سنة (569هـــ/1173م) يحتل مركز الصدارة في سياسته، فلم يخلـــد إلـــى الراحة طيلة السنوات التالية التي شهدت تصاعدا خطيرا في الحركة الصليبية، وعليه فإن أمر المغرب لم يكن يحتل حيزا في سياسة صلاح الدين الخارجية.

ومما تقدم يتبين لنا أن دخول العناصر التركية بقيادة قراقوش إلى إفريقية قد أســـاء بشكل كبير إلى العلاقات بين الأيوبيين و الموحدين، و جعل إمكانية التعاون بين الدولتين أمرا يكاد يكون مستحيلا في الوقت الذي كان فيه المشرق الإسلامي يواجه أخطر هجمـــة صليبية عرفها العصر الوسيط[1]، و رغم الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلـــى يعقـــوب المنصور للمشاركة في الدفاع عن الشام و الوقوف في وجه الصليبيين و اســـتعمال عبـــد الرحمن بن منقذ رسول صلاح الدين كل ما أوتي من قدرة و موهبة في مـــديح يعقـــوب المنصور و الإشادة به، إلا أن إجابة المنصور لم تكن في صالحه تماما، فمع أنـــه خـــرج راضيا من الناحية الشخصية، مغمورا بالهدايا، إلا أنه أصيب بخيبة أمـــل فيمـــا يتعلـــق بالغرض من سفارته حيث لم ينل المساعدة البحرية المنشودة.

و هناك عدة تفسيرات لعدم إجابة يعقوب المنصور لطلب صلاح الدين، أهمها[2]:

---

[1] رشيد عبد الله الجميلي، (العلاقات السياسية بين الأيوبيين و الموحدين في المغرب الأقصى)، مجلة المؤرخ العربـــي، العدد 35، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد، السنة (1409هـــ/1988م)، ص164-165.

[2] سعد زغلول عبد الحميد، (العلاقة بين صلاح الدين و أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوســـف بـــن عبـــد المـــؤمن الموحدي) مجلة كلية الآداب، العدد 26، جامعة الإسكندرية، سنة1952-1953، ص93-97.

1- أن موقف المنصور لم يكن بأفضل من موقف صلاح الدين؛ لأنه كان في حاجة إلى كل قواته البحرية؛ لمواصلة الصراع ضد الميورقيين القراصنة، ثم إنه كان عليه أن يحمل كل قواته البرية إلى إسبانيا عبر المضيق، و أن يؤمن طريق مواصلاته من قوات أعدائه البحرية، و أن يدافع عن ثغور الإسلام في الغرب ضد كل خطر بحري مثل ذلك الذي دعا إلى سقوط شلب بين أيدي البرتغال سنة (585هـ/1186م)، و قد أثبتت الحوادث في إسبانيا أن المنصور كان محقا عندما رفض توزيع قواته، كما أن الانتصارات التي أحرزها ضد ممالك النصارى هناك، و لا سيما انتصاره الباهر في موقعة الأرك ضد قشتالة أثبتت أن تقديره للموقف لم يكن خاطئا.

2- أن يعقوب المنصور كان مريضا، و لم تكن فترة مرضه خطيرة على شخصه فحسب، بل على حياة دولته أيضا، فكان عليه قبل أن يفكر في مساعدة المسلمين بالمشرق أن يركز اهتمامه على استتباب الأمن و السلام داخل دولته، و أن يقتل كل محاولة ضد خلافته، و لذلك قتل أخاه أبا يحيي الذي أراد أن يدعو إلى البيعة لنفسه بدلا من عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان وليا للعهد في ذلك الوقت[1].

3- مساعدة المماليك المصريين أتباع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أخي صلاح الدين لبني غانية[2] في ثورتهم بإفريقية ضد المنصور، و التي كان صلاح الدين يظهر فيها، و لو بصورة غير مباشرة بمظهر الشريك، ففي سنة (568هـ/1173م) خرجت جماعة من الترك المصريين الغز تحت قيادة قراقوش و بوزيا من أتباع تقي الدين بن أخي صلاح الدين متجهة نحو إفريقية و المغرب[3]، و بدأت بتوطيد سلطانها بطرابلس تحت زعامة قراقوش الذي سيعظم شأنه و يلتصق اسمه بحوادث طرابلس و إفريقية في هذه الفترة، و بالتالي بدولة الموحدين.

و يرى أصحاب هذا الرأي أن المماليك المصريين كانت لهم أسباب سياسية وأخرى دينية؛ فالسياسية تتمثل في مصلحتهم في نشر نفوذ مصر الاسمي على الأقل على هذه البلاد، و هذا يتطلب إضعاف سلطان الموحدين هناك.

---

[1] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص204.

[2] بنو غانية: عائلة من المرابطين كانت تحكم ميورقة (جزر البليار حاليا)، لم يستطع الموحدون غزو جزرهم.

[3] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص171.

و أما الأسباب الدينية فهي الاعتراف بالخلافة العباسية في بغداد باعتبارها السلطة الشرعية الوحيدة.

و قد طلب صلاح الدين من رسوله عبد الرحمن بن منقذ أن يعتذر إلى يعقوب المنصور عما فعله قراقوش و بوزيا، و أن يخبره بأنهما من نفايات الرجال و ليسا من الرجال الذين إذا غابوا أحضروا، و لا ممن إذا فقدوا افتقدوا، و أنه يستعيذ بالله من أن يأمر مفسدا يفسد في الأرض.

فصلاح الدين اعتذر عما فعله مملوك ابن أخيه بالمغرب، و لكن لم يكن هناك ما يحمل المنصور على أن يصدقه أو يقبل عذره.

و لا شك أن هذا كان سببا كافيا لأن يرفض يعقوب المنصور تقديم المساعدة لصلاح الدين، إضافة إلى أن صلاح الدين لم يكن يعترف للخليفة الموحدي بلقب أمير المؤمنين؛ وهو اللقب الذي تلقب به الموحدون.

و مع أن يعقوب المنصور رفض طلب صلاح الدين في المساعدة ضد الصليبيين، إلا أن المغاربة كانوا يجاهدون إلى جانب إخوانهم المشارقة بالشام[1].

و أما بالنسبة للعلاقات السياسية بين مصر في عهد المماليك و بين الدولة الحفصية بتونس (1228–1573م) فقد كان يشوبها الفتور في وقت ما.

و ذلك أن ملوك بني حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفويضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية حكام المسلمين، بل اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي الملقب بالمستنصر (1249–1276م) لقب الخلافة و الإمامة.

و لم يمض على هذا التلقيب فترة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (659هـ/1260م)، مما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر و الملوك الحفصيين في تونس، و الواقع أن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين؛ بدليل أنه لا يوجد في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين، بل لقبوا ملوكهم بأمراء المسلمين بدل لقب خلفاء المسلمين، و لعل هذا راجع إلى ما ذكره المؤرخون من الطعن في نسب الحفصيين، فقد شكك القلقشندي في دعوى انتساب الحفصيين لقريش، و قال: إنهم ليسوا من العرب في شيء، و حقر من شأنهم وشأن

---

[1] سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص93–97. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص381.

خلافتهم[1]، و كذلك حقر من شأنهم يوسف بن تغري بردي الأتابكي، فقد قال ما نصه: "وصلت الأخبار من العرب باستيلاء إنسان على إفريقية، و ادعى أنه خليفة و تلقب بالمستنصر[2]".

ومشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تحل دون التعاون على صد خطر الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامي، فحملة ملك فرنسا لويس التاسع على تونس سنة (669هـ/1270م)، أثارت اهتمام السلطان بيبرس، حيث أرسل رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من جند، كما طلب من عرب برقة مساعدة المستنصر الحفصي، كما أمر بحفر الآبار في الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لنجدة تونس[3].

لكن لم يكد يمضي بيبرس في استعداداته حتى جاءت الأنباء بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته، الأمر الذي جعل بيبرس يوقف استعداداته لمساعدة تونس ويرسل إلى سائر البلاد الإسلامية ابتهاجا بفشل الحملة الصليبية على تونس.

أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامي، فالزيانيون في تلمسان تطلعوا في أول الأمر إلى توثيق العلاقة مع المماليك ضد أطماع بني مرين، و لكن المماليك مالوا إلى بني مرين باعتبارهم القوة الكبرى في المغرب، فأظهروا نحوهم الود، و حرصوا على كسب صداقتهم، الأمر الذي أدى إلى نفور بني زيان من المماليك، ففي سنة (705هـ/1305م) أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سفارة إلى السلطان المريني أبي يعقوب يوسف و مع السفارة هدية جليلة، و بعد أن لقيت السفارة من بني مرين كل ترحاب و حفاوة، تعرضت و هي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان، فغضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون على السلطان الزياني أبو حمو موسى[4] و أن أعضاء السفارة قد طلبوا من بني زيان حمايتهم في أراضيهم[5]، فأرسل إليه

[1] القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، المصدر السابق، ج7، ص377.

[2] أبو المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة، ج7، ص32.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص291. محمد جابر الأنصاري، (ابن خلدون وسيطا بين العروبيين والإسلاميين)، مجلة العربي، العدد 292، سنة (1403هـ/1983م)، ص58-60.

[4] ولي الملك من سنة 1307 إلى سنة 1318م.

[5] سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر و الشام في عصر الأيوبيين و المماليك، ص366.

يعتب عليه و يؤنبه، و بعث إليه بهدية صغيرة؛ تحقيرا لشأنه، فرد أبو حمو موسى على الناصر محمد بن قلاوون محتجا، كما رفض قبول الهدية[1].

و حاول السلطان عبد الرحمن بن موسى الزياني أن يصلح الأمور مع المماليك، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (726هـ/1325م) معبرا عن حسن نواياه و يوضح له أن سبب استياء أسلافه من المماليك هو ميلهم إلى غيرهم؛ يعني بني مرين، لكن المماليك لم يرحبوا بهذه المحاولة، و لم يلبث أن بسط المرينيون سيادتهم على تلمسان سنة (738هـ/1337م)، و كتب أبو الحسن علي المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا و مهنئا. من خلال ما تقدم يظهر لنا أن سلاطين المماليك في مصر كانوا ينظرون باحترام وإجلال إلى بني مرين باعتبارهم أكبر قوة في المغرب العربي، فضلا عن دورهم في حماية الإسلام بالمغرب و جهاد المسيحيين بإسبانيا.

عموما لقد كانت العلاقات بين المغرب العربي و بين مصر في أواخر العصور الوسطى و في عصر سلاطين المماليك خصوصا عديدة و متنوعة، و من مظاهر هذه العلاقات حرص المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصارا على أعداء الإسلام؛ كالصليبيين و التتار، و كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فرارا من حكام بلادهم، ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين بسبب التقلبات السياسية، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر طلبا للعلم والرزق؛ كالفقراء والصوفية والعلماء، وقد ترك هؤلاء المهاجرون أثرا عميقا في أحوال مصر الاجتماعية؛ إذ انتشر التصوف وقويت حركته بسبب هؤلاء الوافدين[2].

كما كانت مصر محطة يتوقف بها الحجاج المغاربة في طريقهم إلى الحجاز أو عند الرجوع إلى بلادهم بعد أداء فريضة الحج، ويطلعون على أوضاع مصر وأحوال أهلها، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة قد مهدت لانتعاش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين[3].

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج7، ص327.

[2] سعد عبد الفتاح عاشور، مصروالشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بلاتا، ص120 وما بعدها.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص368.

ب- العلاقات السياسية بين الأندلس و بلاد الشام

كان الأندلس قبل تأسيس إمارة الأمويين به، أحد الولايات التابعة لولايـــة إفريقيـــة التي كانت تخضع للسلطة المركزية التي مقرها مدينة دمشق[1] وبعد قيام الخلافة العباسية[2] وسقوط الدولة الأموية[3].

انتقل الأمويون المضطهدون ببلاد الشام إلى منطقة الأندلس، وأعلنوا قيام إمـــارتهم وسلطتهم بها[4]، ورغم معارضة ومطاردة العباسيين لهم[5] وعلى الرغم من أن الأمير عبـــد

---

[1] عن الحياة الإدارية في العصر الأموي، أنظر: أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشـــام، ط3، دار دمشـــق، ســـوريا، 1994م، ص305 وما بعدها. محمد خضربك، تاريخ الأمم الإسلامية والدولة الأموية، تحقيق: أحمد حطـــيط، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت 1994م، ج2، ص317. عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام والدولـــة الأمويـــة، ط7، دار العلـــم للملايين، بيروت 1986م، ص206-222. فيلالي، المرجع السابق، ص115.

Salem Abdel Aziz, De nuevo sobre la influencia de al Andalus en el arte musulman de égypto, cuadernos de la al hambra, 1979, p97.

[2] قامت الخلافة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية، سنة(132هـ/749م)، و ينتسب بنو العباس إلـــى العبـــاس عـــم الرسول (ﷺ)، ودام حكمهم إلى غاية سنة(656هـ/1258م)، من أبرز خلفائهم «أبو العباس السفاح» و«أبو جعفـــر المنصور» و«الرشيد» و«المأمون» و«المعتصم». عن قيام الخلافة العباسية ودورهـــا الحضـــاري، أنظـــر:الطبـــري، المصدر السابق، ج4، ص344 وما بعدها. ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص408 وما بعدها. الســـيوطي، تـــاريخ الخلفاء، ص311 وما بعدها. العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص17 وما بعدها. كـــارل بروكلمـــان، تـــاريخ الشعوب الإسلامية، منير البعلبكي، ط12، دار العلم للملايين، بيروت 1993م، ص175 وما بعـــدها. حســـن إبـــراهيم، المرجع السابق، ج2، ص17 وما بعدها. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص17.

[3] تأسست بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين سنة(41هـ/661م)، على يد معاوية بن أبي سفيان، على إثر مقتل الخليفة علي بن أبي طالب (رض)، وينتسب بنو أمية إلى أمية بـــن عبـــد الشـــمس بـــن منـــاف، ودام حكمهـــم إلـــى غايـــة (132هـ/7491م)، من أشهر خلفائها معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز. عن قيـــام الخلافة الأموية وتطورها وسقوطها، أنظر:الطبري، المصدر السابق، ج3، ص167 وما بعدها، ج4، ص3، وما بعدها. السيوطي، المصدر السابق، ص233-308. فيليب حتي، تاريخ العرب، ترجمة جبرائيل جبـــور، ط3، دار الكشـــاف= بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج1، ص251-258. محمد خضربك، المرجع السابق، ج2، ص238 وما بعـــدها. عمـــر فروخ، المرجع السابق، ص126 وما بعدها. إسماعيل علي، المرجع السابق، ص161 وما بعدها. العبـــادي، المرجـــع السابق، ص5-17.

[4] أسس هذه الإمارة الأمير عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام سنة(138هـ/755م)، وبذلك أحيـــا ملـــك أجـــداده الضائع بالمشرق وجدد دولتهم بالمغرب، واستمر حكم الأمويين بالأندلس إلى غاية (422هـ/1030م). عن قيام دولـــة بني أمية بالأندلس، أنظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص46 وما بعدها. ابن الفرضـــي، المصـــدر الســـابق، ج1، ص26 وما بعدها. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص35 وما بعدها. ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص46 وما بعدها. السيوطي، المصدر السابق، ص592-593.

[5] عن معارضة الدولة العباسية للحكم الأموي ومطاردتهم، أنظر: ابن القوطية، المصدر الســـابق، ص54-55. مؤلـــف مجهول، المصدر السابق، ص93. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص51-52. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4=

الرحمن الداخل في بداية حكمه بالأندلس، أظهر ولاءه للخليفة العباسي في العراق، ودعا له في الخطبة لمدة زمنية قصيرة[1]، إلا أنه استطاع أن يقطع هذا الولاء السياسي نهائياً[2] ولقب نفسه بالأمير[3] ومنذ تلك الفترة رسمت الأندلس خطا سياسيا مستقلا ومنفصلا عن السياسة العباسية[4] الذي وصل في بعض الأوقات إلى درجة المعارضة.

وهذا ما نستنتجه من خلال علاقة الطرفين مع الدولة البيزنطية، حيث كان حكام الأندلس، يتبادلون سفرات الود و الصداقة معها[5] خاصة تلك التي أرسلت في عهد الأمير

ص266-268. المقري، المصدر السابق، ج1، ص332. عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية، نفس الصفحة. العبادي، المرجع السابق، ص310-311. إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص194-199. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص188-190. وليم الخازن، المرجع السابق، ص119-120.

[1] لقد اختلف المؤرخون في تحديد المدة التي خطب فيها الأمير عبد الرحمن الداخل لبني العباس، مثل ابن حزم، والمقري، بينما لم يحددها ابن الأثير وابن خلدون، أنظر: ابن حزم، المصدر السابق، ج2، ص84. ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص496. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص264-266. المقري، المصدر السابق، ج1، ص329. العبادي، المرجع السابق، ص308.

[2] يرى بعض المؤرخين أن عبد الرحمن الداخل و الخلفاء من بعده لم يقطعوا الخطبة لبني العباس، أنظر: ابن كردبوس، المصدر السابق، ص60. ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص58. العبادي، في تاريخ المغرب و الأندلس، ص97.

[3] إلا أنه لم يلقب نفسه بلقب الخليفة، و إنما اكتفى بأن أضاف إلى اسم الأمير لقب "ابن الخلفاء"، لأنه كان يشعر بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، و أن الخليفة الشرعي هو مالك و حامي الحرمين الشريفين، أنظر: ابن خردابة، المسالك والممالك، تحقيق: محمد محزوم، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م، ص83. المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع و النشر و التأليف، القاهرة 1938م، ص288. ابن قوطية، المصدر السابق، ص47. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص37. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص39. ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص535. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8، ص244. ابن خلدون، العبر، ج4، ص265.
Lévi provençal, op, cit, t1, p94.

[4] بيضون، المرجع السابق، ص220. العبادي، المرجع السابق، ص110. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس، المرجع السابق، ص 206. خلاف، المرجع السابق، ص17. وليم الخازن، المرجع السابق، ص120. لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1958م، ص6-39. عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982م، ص116.

[5] أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، ج1، صفحات60-70-159-206. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص193-195. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص137-150. حمودة، المرجع السابق، ص162. عنان، دولة= الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، مصر 1943م، العصر الأول، القسم الثاني، ص264-267. العبادي، المرجع السابق، ص142 -144. عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية، ص449. بيضون، المرجع السابق، ص265-267. بروفنسال، المرجع السابق، ص91 -118.

عبد الرحمان الأوسط (ت 238هـ/852م)[1] التي أراد منها البيزنطيون التحالف مع الحكام الأمويين بالأندلس ضد الخلافة العباسية، ولكن هذا التحالف لم يكتب له النجاح.

و يرجع فشل مساعي البيزنطيين العدائية للعباسين، إلى كون الأمير الأموي الأندلسي، رفض التعاون ضد المسلمين[2] رغم أن خلفاء بغداد أعداءه، و اقتصرت نتائجها على أن يسود الأمن و السلام، و الهدوء و الاستقرار بين الطرفين[3] وهكذا يتضح مما سبق أن العلاقات السياسية بين الأندلس و المشرق العربي كانت مفقودة على المستوى الرسمي، من طرف الحكام .

و إن وجدت بعض العلاقات بين المنطقتين في بعض الأوقات و الحالات فإنها تكون في سرية تامة و اقتضتها ظروف معينة فرضتها في زمن قصير و يمكن تحديد منطلق هذه العلاقات و أساسها إلى العهد الذي تبع قيام الخلافة العباسية وسقوط نظام الخلافة الأموية في المشرق الإسلامي، ومحاولة استخلافها و بعثها من جديد، في منطقة المغرب و الأندلس و من ذلك الوقت أصبح الحكام الأمويين في الأندلس يعبرون[4]عن شوقهم و حنينهم إلى أرض أجدادهم، و تنامي هذا الشعور إلى الماضي القريب، و أصبح تحقيق هذا الحنين هو ضرورة السيطرة على المشرق، و إحياء أمجاد الخلافة الأموية المنقرضة[5]

---

[1] هو أبو المطرف عبد الرحمان، الابن الأكبر للأمير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل الأموي الأندلسي، ولد بمدينة طليطلة سنة(176هـ/792م)، تولى الإمارة بعد وفاة أبيه الحكم سنة(206هـ/821م)، وكان عهده عهد سلم و رخاء، احتضن فيه العلماء و رجال الفن و الأدب، و أسس مدناً إسلامية كمرسية و ألمرية، و تقدمت في عهده الحركة العلمية، ويعتبر أشهر خلفاء بني أمية الذين وضعوا الأسس الأولى للنهوض بالحضارة الأندلسية، أنظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص75-85. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص122-379، و ج7، ص69. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص80-93. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص277-283. المقري، المصدر السابق، ج1، ص344-350.

[2] أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص206. العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص353.

[3] عن تبادل سفارات الود و الصداقة بين الإمارة الأموية الأندلسية و الدولة البيزنطيين سنة(225هـ/839م)، في عهد كل من الأمير عبد الرحمن الأوسط، و الإمبراطور البيزنطي تيوفيل، حيث يقول المؤرخ المقري عن ذلك: « و قد كان ملك القسطنطينية.... توفلس بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة 25 بهدية يطلب مواصلته و يرغب في ملك سلفه بالمشرق.... فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية، وبعث إليه يحي الغزال من كبار أهل الدولة، وكان مشهورا بالشعر و الحكمة، فأحكم بينهما الوصلة، و ارتفع لعبد الرحمن ذكر عن منازعيه من بني العباس»، أنظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر 1955م، ج2، ص57-58. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص282. المقري، المصدر السابق، ج1، ص346-347.

[4] يقول المؤرخ ابن خلدون عن مجدد و مؤسس الدولة الأموية في الأندلس: «... وجدد ماطمس لهم بالمشرق معالم الخلافة وأثارها»، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص264. المقري، المصدر السابق، ج1، ص329.

المنقرضة[1] والأمير أبو مطرف عبد الرحمن الداخل، يعتبر أحسن نموذج على ذلك،حيث كان يسعى منذ أن انتقل له الحكم في الأندلس، إحياء وبعث الخلافة الأموية وتجديدها في المشرق الإسلامي، و بقي هذا الحلم يراوده إلى غاية وفاته و لم يستطع تجسيده[2] و يؤكد هذا النموذج المقري التلمساني في كتابه **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** بقوله: «... و كان في نيته أن يحدد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل ...»[3]، و قد أدرك الأمويون بالأندلس، أن أفضل منطقة يمكن الظفر بها هي منطقة الشام.

و يرجع سر هذا الاختيار إلى وجود أتباعهم الأوفياء فيها بكثرة، يساندون النظام الأموي بالأندلس من أجل بسط سلطانه[4] و امتداده إلى الشام لتعود مرة أخرى حاضرة الخلافة الإسلامية التي كانت قائمة قبل قيام الخلافة العباسية[5]، وتظهر قيمة هؤلاء الأتباع والأنصار الشاميين الموالين لحكم بني أمية بالأندلس، الذين برهنوا على رصد الترابط والصلة بين المنطقتين الأندلسية و الشامية، فيما استغله الشاعر أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني (ت 298هـ/910م)، الذي حل ببلاط الأمير الأموي الأندلسي محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت 273هـ/886م)[6] حيث عمل على تمويهه و الاحتيال عليه، بتحريف

---

[1] المسعودي، المصدر السابق، ص289-292. المقري، المصدر السابق، ج1، ص333. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص197. ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص15. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص178-206. فيلالي، المرجع السابق، ص118.

[2] عن هذا يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن، أن عداوة و«مناوأة آهالي الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين و اعتقد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي الشام لبني أمية»، أنظر: حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص197.

[3] المقري، المصدر السابق، ج1، ص333.

[4] يرى أحد المؤرخين المعاصرين أن: «بلاد الشام موالية لبني أمية، حتى و لو زالت دولتهم وأدبرت، ولكن أصبح التفكير و إعادتها ضربا من الخيال، رغم ذلك فقد كانت تراود أحلام بني أمية وأتباعهم...»، أنظر: أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ط1، دار دمشق 1983م، ص19.

[5] عن ولاء أهل الشام لبني أمية، ومحاولة الأمويين الأندلسيين إحياء وتجديد الدولة الأموية بالمشرق الإسلامي، أنظر: المسعودي، المصدر السابق، ص289. المقري، المصدر السابق، ج1، ص333. أحمد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص19. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص197.

[6] هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي الأندلس، يكنى بأبي عبد الله، من أمراء الإمارة الأموية الأندلسية ولد بقربطة عام(207هـ/822م)، ولي الإمارة بعد وفاة أبيه سنة(238هـ/852م)، عن ترجمته، أنظر: ابن قوطية، المصدر السابق، ص86-112. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص126-132. ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص29. الحميدي، المصدر السابق، ج7، ص40. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص36. ابن الأثير،

بتحريف و افتعال صحيفة مكتوبة، تشمل على توصية مأخوذة على لسان أتباع الأمــويين ببلاد الشام[1] هذا ما ورد في كتاب **أخبار مجموعة**، في قوله: «... و كــان أبــو اليســر الشاعر، المعروف بالرياضي، قد اضطرب بالمشرق فأعيته وجوه مطالب الرزق، فقصد الأندلس و افتعل كتابا على لسان ابن الشيخ بالشام، و ألسنة أهل بلاده، بكل ما أمكنه مــن الاستدعاء إلى الخلافة، و ذكر تقارب الدولة، فلما ورد على الأمير محمد، رحمه الله فهم أنه متعيش شحاد، فأمر بتوسيع نزله... ثم أمر له بخمسمائة دينار وزنا...» [2] فقد كان أبو اليسر يدرك ذلك الترابط العاطفي و الاحترام المتبادل بين أمويي الأندلس و المساندين لهم في منطقة الشام، و هناك إشارات أخرى تبرهن على انحياز أهل الشام إلى جانب أمــويي الأندلس، خاصة خلال القرن (4هـ/10م) [3] و من بين هذه المؤشرات تلك التــي ذكرهــا المؤرخ الرحالة المسعودي (ت 346هـ/957م)، الذي وجد مؤلفا و اطلع عليه لدى أحــد أنصار بني أمية، بمدينة طبرية[4] الشامية سنة(324هـ/935م)، و يحمل تسمية البــراهين في إمامة الأمويين[5] حول بقاء الإمامة في الأسرة الأموية و امتدادها إلى غايــة الخليفــة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله [6] كما يحتوي هذا الكتاب على ذكر فضائل بني أمية ،و ملامح استرجاع ملكهم و أمجادهم في بلاد الشام [7] ونستنتج من هذا الــدليل،

المصدر السابق، ج7، صفحات69–70–424. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص93–113. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص283–287. المقري، المصدر السابق، ج1، ص350–352.

[1] مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص129–131. ابن الأبار، التكملة لكتاب الصــلة، ج1، ص173–174. المقــري، المصدر السابق، ج3، ص134–135.

[2] مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص129–130.

[3] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص117–119.

[4] عن مدينة طبرية، يقول ياقوت الحموي، أنها مشتقة من كلمة "... طبر في العربية بمعنى قفز واختبأ... وهــي مــن أعمال الأردن ..."، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص17–20. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م، ج8، ص117–118. الحميــري، المصــدر الســابق، ص385– 386.

Makik (M.A), Ensayo sobre las aportaciones orientales en la espanâ musulmana, ysu influencia en la formacion de la cultura hispana-Ârabe, Revista del instituo islamicos en Madrid, tom IX-X, 1961-1962, pp139.

[5] المسعودي، المصدر السابق، ص291. عبد الهادي التازي، أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة المحمدية، ســنة (1401هـ/1981م)، ص54 وما بعدها.

[6] المسعودي، نفسه، ص291.

[7] نفسه، ص291–292.

وجود طائفة، يساندون أحقية الأمويين بالخلافة والإمامة، ويعارضون سلطة بني عبـــاس[1] وكذلك يستشف مما سبق على وجود علاقة بصورة سرية، ذات طـــابع سياســـي، بـــين الأندلسيين، من أجل مساعدة الأمويين على استرجاع خلافتهم، ببلاد المشرق.

و في الأخير نخلص إلى أن الأمويين اعتبروا بلاد الأندلس بديلا عن بـــلاد الشـــام[2] رغم أن الحكام الأندلسيين، كان بإمكانهم تجسيد تلك الأماني، و ذلك الأمل المنتظر، الذي راودهم بالرجوع إلى أصولهم الأولى، و وطنهم الأم[3] بعد اســـتقرار أمـــور الحكـــم فـــي الأندلس، خاصة في فترة القوة و الازدهار والهدوء[4] في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الناصر لدين الله (ت350هـ/961م)[5].

و لكن تخوف هؤلاء الحكام من هذه المجازفة و المخاطرة، غير الواضحة المعـــالم والعواقب، التي كانت ستنبثق عنها نتائج، قد تهدد وجود الأمويين فـــي منطقـــة الأنـــدلس ومصالحهم، لاسيما بعد تزايد خطر الدولة الفاطمية الشيعية، التي أصبحت تتوعد العـــالم الإسلامي عامة، والمشرق والأندلس خاصة، في ظل ضعف الخلافة الســـنية العباســـية،

---

[1] و يرى المؤرخ غوستاف لبون، بأن العرب منذ القدم كانوا يعرفون مدينة دمشق بكونها جنة الـــدنيا و نـــور الشـــرق، أنظر: غوستاف لبون، المرجع السابق، ص165. ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب و الأندلس، ترجمة: عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1990م، ص94. حسان حلاق، المرجع الســـابق، ص38. المنجـــد، المرجع السابق، ص18.

[2] المقري ،المصدر السابق، ج1، ص333. حسن إبراهيم حسن، المرجع الســـابق، ج2، ص197. أحمـــد إســـماعيل، المرجع السابق، ص19.

[3] عن فترة الاستقرار و الازدهار في الأندلس، أنظر: العبادي، في تاريخ المغرب و الأنـــدلس، ص167-222. عبـــد العزيز سالم، المرجع السابق، ص279-313. أحمد بدر، تاريخ الغرب و الأندلس، ص132-145. حمـــودة، المرجـــع السابق، ص191-210. محمد لبيب البتوني، المرجع السابق، ص51 فما بعدها. بيضون، المرجع الســـابق، ص297-337. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص179-186. فيلالي، المرجع السابق، ص118.

[4] و هو أبو مطرف عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، من أشهر خلفاء بني أمية، في الأندلس، ولد بقرطبة سنة(275هـــ/888م)، تولى الخلافة عقب وفاة جده الأميـــر عبـــد الله بـــن محمـــد سنة(300هـــ/912م)، وتلقب بألقاب الخلافة سنة(317هـ/929م)، وبلغت الأندلس في عهده عصرها الذهبي من الأمن و الاستقرار و التطور الحضاري، عن ترجمته، أنظر: مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص135-143. ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص31. الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص41-4. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص39. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص73-74، و ص535-536. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص156-233. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص298-312. نفسه، ج1، ص353-382.

[5] الراشد، عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرن 2و3هـــ، مكتبة النهضة، الرياض 1969م، ص85.

إضافة إلى ظهور خطر الفرنجة الأسبان، الذين كانوا يسعون إلى استرداد ما ضاع منهم من المسلمين[1].

2 - **العلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب الإسلامي ومصر والشام**

اتسمت العلاقات العلمية والثقافية بين المغرب والأندلس و مصر والشام بالحيوية والنشاط طيلة القرون الخمسة الهجرية الأولى، حيث أصبح المغرب الإسلامي، يرتكز ارتكازا كبيرا على المشرق الإسلامي كونه منبعا غنيا من الناحية الفكرية والعلمية والثقافية[2] وفي مختلف الميادين الحضارية[3] يقول الدكتور أحمد بدر في كتابه **دراسات في تاريخ الأندلس**: "... المشرق كان مصدر الثقافة للأندلسيين، وإن اختلف مدى اقتباسهم منه كما وكيفا باختلاف درجة تطورهم وزمن اقتباسهم"[4] وذلك باعتبار أن أصول الحركة العلمية الإسلامية العربية، موطنها المشرق العربي، وقد نمت هذه الحركة وتطورت وازدهرت في ظل خلافة بني أمية[5].

---

[1] و بالرغم من ضعف نظام حكم الخلافة العباسية آنذاك، إلا أن قوتها كانت حتما سوف تتصدى و تفشل أي محاولة استرجاع الأمويين الأندلسيين، أمجاد أسلافهم، ببلاد الشام، أنظر: أحمد بدر، المرجع السابق، ص145 فما بعدها، العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص40-127، و ص383-412. سالم، المرجع السابق، ص307-317. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص23-72، ج3، ص181-183. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص59 فما بعدها. إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة 1977م، ص73 فما بعدها، سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1990م، ص195 فما بعدها.

[2] ليفي برفنسال، الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، دار الطباعة المغربية، تطوان، المغرب 1951م، ص25-29. بروكلمان، المرجع السابق، ص299. حلاق، المرجع السابق، ص29. سالم، المرجع السابق، ص206 فما بعدها. العبادي، المرجع السابق، ص317-319. المنجد، المرجع السابق، ص17-20. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، ج1، ص159-179. إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: يوسف أسعد داغر، ط13، منشورات عويدات، بيروت، لبنان 1994م، ج3، ص336. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص82.

[3] حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. حمودة، المرجع السابق، ص221. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص209. العبادي، المرجع السابق، ص317. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159-165. المنجد، المرجع السابق، ص18-20. ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص78.

[4] أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159. حلاق، المرجع السابق، ص32 فما بعدها.

[5] خليل داود الزرو، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول و الثاني للهجرة، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان 1971م، ص18 فما بعدها. أحمد إسماعيل، تاريخ بلاد الشام، ص335 فما بعدها. أحمد أمين، فجر الإسلام، ط11، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1975م، ص187-189. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159-161. مصطفى=

ثم بني العباس[1]، فكانت مصر و الشام و مكة و المدينة والعراق أكبر مراكز الإشعاع العلمي والثقافي التي تستقطب أنظار أهل العلم وطالبيه[2] هذا ما يؤكده الدكتور حسن حلاق، في كتابه **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى** بقوله: "... و قد أصبحت بغداد -كما قيل- كعبة علمية يحج إليها طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، و كانت الأندلس إحدى مناطق هذا العالم..." [3]، و بالرغم من التحول الهام، الذي طرأ على الشام من الناحية السياسية، إلا أنها بقيت محافظة على مكانتها الثقافية و العلمية، و ظلت منهلا يرتوي منه أهل الفكر من المسلمين[4]، وعلى الرغم من ظهور مفكرين و علماء أجلاء بالمغرب و الأندلس لهم نفس السمعة و المكانة العلمية العالية، التي تتوفر عند المشارقة[5] بقي الأندلسيون والمغاربة أوفياء

الرافعي، حضارة العرب، ط4، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان 1988م، ص226-229. أحمد سليم سعيدان، (في تاريخ العلوم في العصر الأموي) مجلة الدراسات التاريخية، العدد3، جامعة دمشق، سوريا 1980م، ص113-122.

[1] غير أن الدكتور فيليب حتي، يرى أن " الحياة الفكرية زمن الأمويين لم تبلغ مستوى رفيعا، إذ كان هذا العصر بوجه الإجمال عصر تمخض و اختمار... كان هذا العهد هو العهد الذي بذرت فيه البذور التي قدر لها أن تنمو و تزكو و تبلغ غاية نضجها في خلافة بني العباس"، أنظر: فيليب حتي، المرجع السابق، ج1، ص308، ج2، ص104. عبد القادر ماهر، التراث و الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص139. وليم الخازن، المرجع السابق، ص19-20، ص113-114.

[2] ماهر، المرجع السابق، ص139-143. ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1972م، ص150-151. وليم الخازن، المرجع السابق، ص40-43. بيطار، المرجع السابق، ص375-376. بارتولد، الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، مصر 1966م، ص75-95. محمد خضر بك، الدولة العباسية، ص53-55.

[3] حلاق، المرجع السابق، ص42.

[4] حسن الشمساني، المرجع السابق، ص18. أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ص129 فما بعدها. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159-161. بارتولد فلاديمرويج، المرجع السابق، ص65. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص165 -166.

[5] عن التطور الفكري و الثقافي و ازدهاره في منطقة الأندلس خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، صفحات91-223-253. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص47-49. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص277 فما بعدها. المقري، المصدر السابق، ج1، صفحات347-350-385-394-395. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص193-194، ج3، ص179-186. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1 ص165-179. العبادي، المرجع السابق، ص338-365. سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس، ص310-315. بيضون، المرجع السابق، صفحات267-272-323-328.

للمراكز العلمية بالمشرق عامة، ومصر والشام خاصة [1] فلم تنقطع الرحلة إليهـا، الأمـر الذي انعكس سلباً على تنمية الفكر المغاربي، ويرجع ذلك إلى أن المغـرب الإسـلامي، خاصة خلال العهد الأول من الفتح الإسلامي، كان في احتياج علمي كبير، لاسـيما فـي الأندلس، ويعود هذا الجمود الفكري إلى محدودية المستوى الثقافي لعرب الأندلس، الـذين فارقوا ديارهم بالمشرق في نهاية القرن (1هـ/7م) وبداية القرن (2هـ/8م)، قبل بـزوغ الحركة العلمية والثقافية التي عرفتها حاضرة الخلافة العباسية بغداد بعد ذلك[2]، إلى جانب ذلك أن معظم الفاتحين الذين انتقلوا إلى المغرب الإسلامي، لم يكونوا مـن أهـل العلـم والمعرفة بل كانوا جندا مقاتلين[3] وأحسن نموذج على ذلك، يتجلى فـي أحـد زعمـائهم الصميل بن حاتم[4]، و قد أدرك الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (ت 101هـ/719م)[5]

---

[1] يرى الدكتور صلاح الدين المنجد، أنه: "لما انقطع سيل العرب الشاميين النازحين إلى المغرب والأندلس للإقامة... بدأ عندئذ سيل المغاربة و الأندلسيين إلى المشرق، فقد صار المشرق مهوى أفئدتهم..."، ثم يواصـل قولـه: "ولقـد كـان الشام... مقصد الأندلسيين والمغاربة... من النواحي السياسية والدينية والعلمية..."، أنظر: المنجد، المرجـع السـابق، ص18-20. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159. لطفي عبد البديع، الإسلام في اسـبانيا، ط1، مكتبـة النهضـة المصرية، القاهرة، مصر 1958م، ص39، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص60.

[2] وفي هذا المجال، يقول أحمد بدر: " بينما كانت الثقافة العربية في المشرق تتطور، خلال القرن الثـاني الهجـري... كانت ظروف الأندلس ... تعاني من حالة جمود ..."، انظر: أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص161.

[3] عمر فروخ، المرجع السابق، ص192. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص161. صالح محمـد فيـاض أبوديـاك، "العلاقات الثقافية بين المغرب و الأندلس "، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، بغـداد، العـراق، 1987م، العدد33، ص108.

[4] هو الصميل بن حاتم أبو جوشن الكلابي، زعيم من زعماء العرب المشهورين في الأندلس، كان أميا و له شعر وكان من جند قنسرين في جيش الشام، الذي أرسله الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى المغرب سنة (123هـ/740م)، ثم استقرت به الحال في الأندلس، فأصبح زعيم القيسية في قرطبة، وكانت له علاقة وثيقة بوالي الأندلس يوسف الفهـري، فاشتركا في قتال الأمير عبد الرحمن الداخل، فتمكن منهما، فسجن الصميل حتى مات في سجنه، عن ترجمته، أنظـر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص44-61. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص57-92. ابن الآبار، الحلة السـيراء، ص49-50. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص34-35. ابن خلـدون، المصـدر السـابق، ج4، ص260-263. المقري، المصدر السابق، ج1، صفحات237-238-328-329. ج3، صفحات23-26-30-36-52-53.

[5] هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الصالح العادل، وربمـا قيـل لـه: خامس الخلفاء الراشدين، تشبيها له بهم، ولد بالمدينة المنورة سـنة(61هـ/680م)، ونشـأ بهـا، ولـي الخلافـة= سنة(99هـ/717م)، بعد وفاة سليمان بن عبد الملك، ومدة خلافته سنتان و نصف، توفى سنة(101هـ/719م). عـن ترجمته، أنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلميـة، بيـروت، لبنـان 1990م، ج5، ص253 فما بعدها. الطبري، المصدر السابق، ج4، ص59-72. ابن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيـق=

النقص العلمي ببلاد المغرب الإسلامي، فأوفد إليها عشرة رجال من الشـاميين الأكفـاء، ذوي المكانة العلمية والمعرفية المرموقة، ليتكفلوا بنشر علومهم ومعارفهم هناك[1] وعلـى إثر اضمحلال حكم الخلافة الأموية في المشرق الإسلامي، وانبعاثها من جديد في الأندلس أخذ حكامها يهتمون بالميادين الفكرية والثقافية، ويشجعون أهل هذه البلاد على احتضانها[2] وبذلك انطلق الأندلسيون في رحلات علمية طويلة إلى المشرق عامة، ومصـر والشـام خاصة، لنهل العلوم الدينية والدنيوية بمختلف فنونها[3] وهكذا أخذت مصر والشام تستقطب أعداداً كبيرة من الأندلسيين والمغاربة المهتمين بتحصيل واكتسـاب المعـارف، وتنميـة قدراتهم الفكرية والثقافية[4] وهذا ما نستشفه من خـلال المؤلفـات التاريخيـة المغربيـة والمشرقية، التي تزخر بأسماء الرجال الذين وفدوا على مدن مصر والشام[5]، والملاحـظ

محمود فاخوري، ط1، دار الوعي، حلب، القـاهرة 1970م، ج2، ص127-130. الـذهبي، المصـدر السـابق، ج5، ص114-148. السيوطي، المصدر السابق، ص273-293.

[1] و هذا ما يذكره ابن الفرضي في قوله: " أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقيـا..."، أنظر: ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص225-226. ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص216. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، لبنـان 1968م، ج2، ص171. المقـري، المصـدر السـابق، ج1، ص278. إسماعيل سامعي، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية و الثقافية بـبلاد المغـرب الإسـلامي، رسـالة ماجستير، إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1994-1995م، ص19.

[2] عن احتضان الحكام الأمويين الأندلسيين للحركة الفكرية و تشجيعها في الأندلس، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، صفحات91-223-253. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص47-49. ابـن خلـدون، المصـدر السـابق، ج4، ص283. المقري، المصدر السابق، ج1، ص347-385. عنان، الخلافة الأموية والدولـة العامريـة، ط3، مؤسسـة الخانجي، القاهرة، مصر 1960م، صفحات419-421-440-461. أحمد بدر، تاريخ المغرب والأنـدلس، ص137-138.

[3] و هذا ما يؤكده عبد العزيز سالم من خلال قوله: "كان لبعد بلاد المغرب و الأنـدلس و انقطاعهمـا عـن المشـرق الإسلامي، مركز الحضارة الإسلامية و مهدها... أثر كبير في تطلع أهل المغرب و الأندلس للرحلة إلى الشام... إلتماسا للعلم في المراكز المختلفة و رغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق..."، أنظر: عبد العزيز سالم، تاريخ البحريـة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص60. المنجد، المرجع السابق، ص18-20. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، ج1، ص159. عبد البديع، المرجع السابق، ص39.

[4] باعتبار المدن الشامية مراكز إشعاع ثقافي تنير عقول المسلمين عامة، والمغاربة خاصة، أنظر: مفتاح محمد ديـاب، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، ط1، دار الكتب الوطنيـة، بنغـازي، ليبيـا 1993م، ص105-107. شمساني، المرجع السابق، ص18. المنجد، المرجع السابق، ص18-21. عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1986م، ص212.

[5] عقد المقري في كتابه نفح الطيب بابين كبيرين أحدهما لذكر الوافدين إلى الأندلس من المشارقة، والثاني لذكر الوافدين إلى المشرق من الأندلسيين، أنظر: المقري، المصدر السابق، ج2، ص5-704، ج3، ص5-149. لطفي عبد البـديع=

والمتتبع لحركة الوافدين المغاربة إلى المشرق الإسلامي، يجد أنها تكاد تنحصر في مصر و الشام عموما، وفلسطين خصوصا، أما التبادل الثقافي بين مصر و المغرب، فالمعروف أن مصر كانت دوما محط أنظار المغاربة و الأندلسيين، ففي عصر المرابطين كان باستطاعة أي مغربي أن ينتقل إلى مصر و يسكن في أي مدينة شاء دون عوائق أو مشاكل؛ مما ساعد على هجرة عدد كبير من المغاربة و الأندلسيين إليها، و قد أسهموا مساهمة بارزة في الحياة الاجتماعية والثقافية، ففي الطب برز الطبيب أبو الحكم عبد الله بن المظفر الباهلي الملقب بتاج الحكماء (ت549هـ/1155م)، و قد درس الطب في مصر و بغداد، و تولى ببغداد أمر البيمارستان، و كان يحمل عقاقيره و أدويته على أربعين جملا[1].

و في مجال العلوم الدينية اشتهر بعض المحدثين و القراء و رجال الزهد و التصوف الذين سكنوا القاهرة و الإسكندرية؛ كالمقرئ ابن الطحان صاحب كتاب **نظام الأداء في الوقف و الابتداء**.[2]

و في علوم اللغة برع الأندلسيون و المغاربة في هذا العصر، ولكن لم يصلوا إلى المستوى الذي بلغه اللغويون في العصر الموحدي.

و أما في مجال الهندسة و الرياضيات و الفلك و الكيمياء، فلم يكن للمغاربة شيء يذكر، إذ لم تكن هذه العلوم مما يرغب فيها في هذا العصر، باستثناء بعض الحالات النادرة كأمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (ت 529هـ /1134م) نزيل مصر، فقد برع في علم الميكانيك، و استخدم البكرات المتعددة.[3]

و في عهد الموحدين توطدت علاقة المغرب العربي مع المشرق من خلال رحلات العلماء من مختلف التخصصات، الذين هاجروا من المغرب و الأندلس إلى مختلف مدن المشرق في مصر و الشام و العراق و الجزيرة العربية، و قد كانت هذه الهجرة كبيرة لم

المرجع السابق، ص39. سالم، المرجع السابق، ص212. محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص164. محمد عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، أطروحة دكتوراه من الدور الثالث، إشراف: محمد حسان، كلية الآداب، جامعة الجزائر 1972م، ص299-300.

[1] انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج3، ص123. المقري، نفح الطيب، ج2، ص133.

[2] المراكشي، الذيل و التكملة، سفر1، ق1، ص415. علي أحمد، تاريخ المغرب القديم و الإسلامي، 169.

[3] علي أحمد، تاريخ المغرب القديم و الإسلامي، منشورات جامعة دمشق، سنة(1427-1428هـ/2006-2007م)، ص167.

تعهد من قبل، بسبب سقوط معظم الممالك الأندلسية في أيدي الإسبان مما أدى إلى هجرة واسعة من الأندلس إلى المغرب، و من المغرب إلى المشرق، و من هؤلاء المهاجرين إلى مصر الفلكي ابن أبي حجلة التلمساني صاحب كتاب **النحر في أعمدة البحر**، و الطبيب إبراهيم بن موسى القرطبي، الذي اعتمده الكامل الأيوبي رئيسا لأطبائه، و الصيدلي أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار (ت646هـ/1249م) صاحب الشهرة الذائعة، قال فيه ابن أبي أصيبعة: «وأول اجتماعي به كان بدمشق سنة(633هـ/1236م)، و لقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه و قرأت عليه، و كان أحضر لنا من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة؛ مثل كتاب ديسقوريدس و جالينوس و الغافقي، فكنت أراجع تلك الكتب معه، و لا أجده يغادر شيئا مما فيها»[1].

وقد تفوق ابن البيطار على جميع معاصريه في الخبرة الصيدلانية، و ذلك بسبب مشاهداته الكثيرة في بلاد الروم و المغرب و بلاد الإغريق، و أودع كل ذلك في كتابه الشهير **الجامع في الأدوية المفردة**، و هو أكمل كتاب ألفه العرب في هذا الباب، و أكثرها تفصيلا، و فيه أكثر من 300 مادة دوائية جديدة لم يُشِرْ إليها أحد من قبله من علماء النبات.

ومن العلماء الذين هاجروا إلى مصر في عصر الموحدين أيضا: النحوي الجزائري يحيى بن عبد المعطي الزواوي الشهير بابن معطي المتوفى بالقاهرة سنة (628هـ/1230م)، و ابن معطي هو صاحب أول ألفية في النحو، و هو الذي أوحى لابن مالك أن يؤلف ألفيته المشهورة كما أشار إلى ذلك ابن مالك في ألفيته.

و من العلماء المهاجرين أيضا المحدث أبو الخطاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية (ت633هـ/1236م) الذي ترأس المدرسة الكاملية بالقاهرة، و المحدث محمد بن أبي بكر الشاطبي (ت662هـ/1264م) الذي تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة.

و المؤرخ علي بن سعيد المغربي صاحب كتاب **المشرق في حُلَى المشرق**، وأبو الوليد الطرطوشي صاحب كتاب **سراج الملوك**، و قد عاش الطرطوشي بالإسكندرية، وتوفي بها، و الجغرافي ابن جبير الأندلسي الرحالة المعروف، فقد زار معظم مناطق

[1] ابن أبي أصيبيعة السعدي الخزرجي (ق668هـ/1269)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1965م، ج1، ص121.

مصر والشام وغيرها من مناطق المشرق العربي، والشيخ محيي الدين بن عربي الأندلسي، الصوفي الشهير، سكن مصر كما سكن الشام، و يعد ابن عربي أهم شخصية أندلسية سكنت مصر و الشام في العصور الوسطى من حيث تأثير أفكاره و بصماته على الفكر الصوفي في المشرق العربي، ففي هذه الفترة من التاريخ تعرف المشرق على طرق جديدة من التصوف العام و الفلسفي بسبب هجرة علماء مغاربة و أندلسيين متصوفة إلى المشرق العربي، و نشروا فيه مذاهبهم الصوفية[1].

و أما التبادل الثقافي بين مصر و المغرب في عصر المماليك، فالمعروف أن مصر في هذا العصر صارت محل سكن العلماء، و محط رحال الفضلاء؛ كما وصفها السيوطي[2]، لذلك قصدها في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم، و أما العلماء المغاربة فقد حظوا بعطف سلاطين المماليك و سمحوا لهم بالتدريس في الأزهر[3]، وعلى رأس هؤلاء العلماء ابن خلدون الذي قدم إلى مصر سنة(784هـ/1382م)، و ظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف و التدريس إلى أن وافته المنية بها سنة (808هـ/1405م).

و الرحالة المغربي ابن بطوطة وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة(725هـ/1324م)، و سجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة[4].

و أما التبادل الثقافي بين المغرب العربي و الأندلس و بين الشام، فقد كانت الرحلة إلى فلسطين أكثر من غيرها من مدن الشام؛ وذلك لأن فلسطين كانت تزخر بالمشايخ والعلماء الكبار آنذاك، إذ كانت تعد منبعا ومنهلا علميا وثقافيا، يستند عليه في التحصيل

---

[1] علي أحمد، تاريخ المغرب القديم و الإسلامي، ص203-209.

[2] أنظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، ج2، ص86.

[3] أنظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص361-362، ج4، ص327.

[4] أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر و الشام في عصر الأيوبيين و المماليك، ص368.

الفكري[1] إضافة إلى كونها منفذا رئيسيا للحجاج المسلمين، في طــريقهم نحــو الحجــاز وباعتبارها أرضا مقدسة، تستحب زيارتها سواء قبل الحج أو بعده[2].

وهذا لا يعني أن المدن الشامية الأخرى، كانت أقل أهمية وشأنا من مدن فلســطين، بل حظيت هي كذلك بالعناية والاهتمام، بهدف الدراسة والتعلم، فمثلا وفــد إلــى مدينــة أنطاكيا[3] الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى بن لب بــن يحــي المعــافري، المعروف بأبي عمر الطلمنكي القرطبي (ت429هـــ/1037م)[4] ودرس علــى مشــايخ وعلماء الشام الكبار، من أمثال الشيخ علي بن محمد الأنطاكي، وغيرهم، ولم يرجع إلــى بلده، إلا بعد أن جمع علما متنوعا وكثيرا[5]، وهو يعتبر أول من أدخل علم القراءات إلــى الأندلس[6].

و بفضل هذه الرحلات العلمية[7]، أصبح أهــل المغــرب و الأنــدلس فــي أرقــى مستويات التطور و الازدهار الفكري العلمي، حتى تفوقوا على أهل العلم مــن المــشرق

---

[1] عن الحركة الفكرية في بلاد فلسطين، أنظر: عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي و المملوكي، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن 1980م، ص28.

[2] ابن الجوزي، فضائل القدس، ص85-87. المنجد، المرجع السابق، ص20. نبيل خالد الآغا، مــدائن فلســطين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، عمان، الأردن 1993م، ص43 فما بعدها. حسن إبراهيم حسن، المرجع الســابق، ج2، ص257.

[3] تقع مدينة أنطاكيا غرب بلاد الشام، أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص266-270. الحميري، المصدر السابق، ص38-39.

[4] عن ترجمته أنظر: الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص181. القاضي عياض، المصــدر الســابق، ج4، ص749-750. ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص83-85. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص205. الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات و الأعصار، تحقيق: محمد سيد جاد الحــق، ط1، دار الكتــب الحديثــة، القــاهرة 1967م، ج1، ص309-310. الصفدي، المصدر السابق، ج8، ص32-33. ابن فرحون، المصدر السابق، ص101-102. الداودي، المصدر السابق، ج1، ص77-79.

[5] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص84. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص567. ابن الجــزري، المصــدر السابق، ج1، ص120.

[6] نفسه و نفس الجزء و الصفحة.

[7] عن الرحلات العلمية التي اشتهر بها المغاربة نحو المشرق الإسلامي، أنظر: المنجد، المرجع السابق، ص18. عبــد العزيز سالم، المرجع السابق، ص212. محمد الكحلاوي، آثار مصــر الإســلامية فــي كتابــات الرحالــة المغاربــة والأندلسيين، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1994م، بدون مكان الطبع، ص16. نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عنــد العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1987م، ص147-151. لطفي عبد البديع، المرجع السابق، ص39. أحمد بــدر، المرجع السابق، ج1، ص166-167.

الذي يعد مصدر العلوم و منبع الثقافات[1].

ورغم وصول المغاربة إلى قمة العطاء المعرفي والثقافي، لم ينقطعوا عن المشرق الإسلامي، واستمروا في الترحال والتنقل لطلب العلم، خاصة بالشام ومصر، خلال القرن (5هـ/11م) ومن هؤلاء الوافدين على مدينة دمشق، نذكر الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يونس بن حبيب بن إسماعيل الأنصاري(ت 477هـ/1084م)، من أهل مدينة سرقسطة[2] الأندلسية، فسمع وحدث بها[3] وأيضا قدم إليها الشيخ محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بأبي الحكم(ت 479هـ/1086م)، بدمشق، وكان فقيها أشعريا[4] ووصل إلى نفس المدينة الأندلسي المشهور، القاضي أبو الوليد سليمان الباجي (ت 474هـ/1081م)[5].

فأخذ المعارف بها، خاصة علم الحديث، على يد الكثير من مشايخها الكبار، ليرحل بعد ذلك إلى مدينة صيدا[6] و غيرها من المدن الشامية، للاستزادة من العلم. وكان الشيخ

---

[1] أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159 فما بعدها. المنجد، المرجع السابق، ص18 فما بعدها. لطفي عبد البديع، المرجع السابق، ص39. عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس، ص60. ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص29. أحمد بن عبود، المرجع السابق، ص40.

[2] "...مدينة سرقسطة قاعدة من قواعد مدن الأندلس كبيرة القطر، آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع و الرحاب حسنة الديار و المساكن..."، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص554. ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص214. الحميري، المصدر السابق، ص317.

[3] ابن الآبار، المصدر السابق، ج1، ص397.

[4] نفسه، ج1، ص398.

[5] هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي، المحدث و الفقيه، المالكي، ولد بمدينة بطليوس سنة(403هـ/1012م)، درس بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق سنة(426هـ/1034م)، لطلب العلم، فمكث به ثلاثة عشر عاماً، له مؤلفات كثيرة، منها المنتقى في شرح الموطأ، توفي سنة(474هـ)، عن ترجمته أنظر: الفتح بن خاقان، القلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق: محمد العنابي، دار المكتبة العتيقة، تونس 1966م، ص215-216. ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص94-105. عياض، المصدر السابق، ج4، ص802-803. المصدر السابق، ج6، ص250-252. ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص317-320. الضبي، المصدر السابق، ج2، ص385-386. ياقوت، معجم الأدباء، ج3، ص1387-1389. ابن خلكان، المصدر السابق، ج2، ص408-409. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج3، ص1178-1183. المقري، المصدر السابق، ج2، صفحات67-69-71-77، ابن فرحون، الديباج، ص120-122.

[6] "مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال دمشق، شرقي صور...". أنظر: ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص437-438. الحميري، المصدر السابق، ص373.

أبو الوليد الباجي يعتبر إمام الأئمة في المشرق والمغرب، لاسيما ببلاد العراق[1] كما رحل إليها طالب علم آخر أصبح من أكابر علماء الأندلس، وهو أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي، المعروف بابن أبي رندقة[2] (ت520هـ/1126م) بمدينة الإسكندرية لينتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس، هذا ما تقرره دائرة المعارف الإسلامية بقولها: "... وبعد أن درس الفقه والأدب في مسقط رأسه ثم سرقسطة مع القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، أدى فريضة الحج عام (476هـ/1083-1084م) وبعد ذلك ذهب إلى بغداد، فالبصرة، فبيت المقدس للتحصيل والتدريس..." [3] وقد تتلمذ عليه جماعة من العلماء والمحدثين والفقهاء المشارقة والمغاربة حيث ذكر الذهبي، في كتابه **سير أعلام النبلاء**: "... أن أبا بكر الطرطوشي أنجب على يديه نحو مائتي فقيه مفتي..." [4] منهم واحد من أهل بلده، تفقه عليه واستفاد منه[5] وهو الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري (ت543هـ/1148م) الذي رحل إلى الشام سنة(485هـ/1148م)[6] وقصد بيت المقدس ودمشق، وأخذ بهما العلوم و المعارف عن أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، وأبي الفضل بن الفرات الدمشقي[7]، كما وفد إلى مدينة دمشق أيضاً سنة (487هـ/1094م)، القاضي الشهير أبو

---

[1] ابن عساكر، المصدر السابق، ج6، ص252.

[2] فقيه مالكي، عالم بمسائل الخلاف، والأصول، والفرائض، والحساب، والأدب، ولد بمدينة طرطوشة الأندلسية، سنة(451هـ/1059م)، رحل إلى المشرق فاستقر بمدينة الإسكندرية إلى غاية وفاته، له عدة مصنفات، منها " سراج الملوك "، "البدع والمحدثات"، "سراج الهدى"، "الفتن"، عن ترجمته، أنظر: ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص838-839. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص175-179. ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص30-31. ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص262-265. ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص424. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص490-496. الصفدي، المصدر السابق، ج5، ص175. ابن فرحون، المصدر السابق، ص371-373. المقري، المصدر السابق، ج2، ص85-90. ابن العماد، المصدر السابق، م2، ج4، ص62-64. ابن مخلوف، المصدر السابق، ص124-125.

[3] دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص77.

[4] الذهبي، المصدر السابق، ج19، ص492.

[5] عياض، المصدر السابق، ج4، ص803. ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص856. المقري، المصدر السابق، ج2، ص85. عبد الجليل حسن، المرجع السابق، ص29-31.

[6] تقدمت ترجمته، راجع ص31.

[7] الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص1295، الدوادي، المصدر السابق، ج2، ص163.

علي الصفدي، المعروف بابن سكرة، من أهل مدينة سرقسطة (ت 514هـ/1120م)[1] لطلب العلم، فتتلمذ على يد أبي الفتح نصر المقدسي، وأبي الفرج الإسفراني، وغيرهما[2].

و الاتصال الفكري والثقافي بين المغاربة وبين المصريين والشاميين خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى، لم يقتصر على تنقل المغاربة إلى بلاد الشام، بل كانت هناك أيضاً هجرة عكسية من المشرق إلى الأندلس، فالشاميون مثلا رحلوا إلى الأندلس واستوطنوه وأخذوا يمتهنون التدريس ويؤثرون في المجتمع بثقافتهم وعاداتهم المشرقية.

وقد ساهم علي بن محمد الأنطاكي المتقدم ذكره في إعداد نخبة من أهل العلم والفكر المغاربة، كان لها الفضل في تنوير الحركة الفكرية والثقافية بالأندلس، وخاصة بمدينة قرطبة[3]، نذكر منهم أبو مروان عبيد الله بن سلمة بن حزم اليحصبي (ت405هـ/1014م)، أحد شيوخ أبي عمرو الداني[4] وأبو الوليد عتبة بن عبد الملك بن عاصم (ت445هـ/1053م)[5]، والشيخ المؤرخ عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر بن الفرضي الأزدي (ت403هـ/1013م)، صاحب كتاب **تاريخ علماء الأندلس** والذي يصف شيخه الأنطاكي، بقوله: "... وأدخل الأندلس علما جما من القراءات، وكان بصيرا بالعربية والحساب وله حظ من الفقه على مذهب الشافعي، قرأ الناس عليه وكتبوا عنه، وسمعوا منه، وسمعت أنا منه"[6] إن جل المغاربة في رحلاتهم إلى مصر والشام، خلال القرون الهجرية الخمسة الأولى، كانوا يسعون إلى تحقيق هدفين أساسيين هما:

[1] عن ترجمته، أنظر: ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص235-237. الضبي، المصدر السابق، ج1، ص331. الذهبي، المصدر السابق، ج4، ص1253-1255. المقري، المصدر السابق، ج2، ص90-93. ابن العماد، المصدر السابق، م2، ج4، ص43.

[2] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص236. الذهبي، المصدر السابق، ج4، ص1253، المقري، المصدر السابق، ج2، ص91. ابن العماد، المصدر السابق، م2، ج4، ص43.

[3] ابن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص536. ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص565.

[4] ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص487-565.

[5] نفسه، ج1، ص499.

[6] ابن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص536.

أداء فريضة الحج، والبحث عن منابع التحصيل الفكري والعلمـــي فـــي مختلـــف المـــدن المصرية والشامية[1].

ولا يعودون إلى مواطنهم الأصلية حتى يرتووا من مناهلها المتنوعة، ولـــو كلفـــتهم التضحية في سبيل ذلك زمناً طويلاً[2] وفي رحلاتهم العلمية التحصيلية اهتموا اهتماما بالغا بالعلوم النقلية، سواء كانت علوماً دينية أو علوماً لسانية، كعلم الحديث، والفقـــه، واللغـــة، والنحو، والصرف، والعروض، وما شابه ذلك[3] ورغم عوائق ومصاعب السفر و الانتقال من منطقة إلى أخرى، إلا أن المساعدة والتحفيز الذيْن تلقاهما هؤلاء الوافدون مـــن قبـــل السلطات الحاكمة لكلا البلدين، هونت عليهم تلك المعاناة و المشاق[4] حيث مـــنح الحكـــام المغاربة جميع التسهيلات والإمكانيات التي تشجع وتحث أهل المغرب والأنـــدلس علـــى الرحلة إلى المشرق الإسلامي بمختلف مناطقه، كالشام ومصر لتحصيل مختلـــف الفنـــون العلمية، الدينية منها و الدنيوية.

كما أخذوا على عاتقهم جلب مشاهير المشايخ والعلماء المشـــارقة، وتـــوفير جميـــع ظروف البقاء والراحة لهم من عطايا وهدايا، من أجل بعث الحياة الفكريـــة وتطويرهـــا وترقيتها بالمغرب الإسلامي، والأندلس[5] وكذلك رحـــب المشـــارقة عامـــة والمصـــريون والشاميون خاصة، بالمغاربة في المشرق ووفروا لهم الآمان وكل المتطلبـــات المســـاعدة على تلقي العلم والمعرفة في أحسن الظروف.

---

[1] المنجد، المرجع السابق، ص18-20. عبد العزيز سالم، التاريخ و المؤرخون، ص212-213. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص147 وما بعدها. الكحلاوي، المرجع السابق، ص15-16. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص166-167. إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص63.

[2] حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص346. عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس، ص60. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص166. لطفي عبد البديع، المرجع السابق، ص39. المنجد، المرجع السابق، ص18-19. حلاق، المرجع السابق، ص36-37.

[3] عن أنواع التحصيل الفكري للمغاربة و الأندلسيين في المشرق ثم نقلها و نشرها بأصقاعهم، أنظر: أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص168 وما بعدها.

[4] حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص346، سالم، المرجع السابق، ص60-61.

[5] ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص26. حلاق، المرجع السابق، 36-37. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص344-346. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص166-167. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس، ص312-315. العبادي، في تاريخ المغرب و الأندلس، ص211-212. عنان، المرجع السابق، ص419-455 وما بعدها.

وعلى الرغم من العداء السياسي القائم آنذاك بين الدولة العباسية بالمشرق والدولة الأموية بالأندلس والمغرب، كما أشرت سابقا فقد رحبت كلتا الدولتين بالوافدين من المشرق أو المغرب، وبرهنتا على أن نقاط وعوامل الجمع والقرب بين المنطقتين أكثر من نقاط الاختلاف والفرقة[1].

ارتبط المغرب الإسلامي بمصر ارتباطا وثيقا، ولعل أبلغ الروابط وأعمقها قد تحققت على يد العلماء وطلبة العلم الذين كانوا يتوجهون نحو مصر، وكانت مصر آنذاك مركزا لحركة علمية كبيرة فارتحل إلى مصر عدد كبير من العلماء منهم: عبد الله بن فروخ (ت 176هـ/792م) بمصر، وأسد بن الفرات الذي دخل مصر بعد عودته من المدينة حيث اجتمع بفقيهي مصر عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم، وقد دون بن الفرات ما أخذه عن ابن القاسم في كتاب سمي **الأسدية**، وكان هذا الكتاب هو أساس الفقه في المغرب الإسلامي[2] في تلك الفترة لأنه عوض بالمدونة لسحنون بن سعيد المالكي، كما رحل إلى مصر فقيه القيروان (ت240هـ/854م)، حيث تتلمذ على يد ابن القاسم وأشهب وابن وهب من فقهاء العصر و وضع كتابه المدونة الذي اعتمد فيه على الأسدية التي وضعها ابن الفرات بعد أن أخذ في مراجعتها ومناقشتها مع ابن القاسم، فأضاف إليها وأسقط منها، وأصبحت مدونة سحنون هي المرجع الأساسي للمالكية عموما و للمغاربة خصوصا، كما أحضر سحنون من مصر مؤلفات فقهاء مصر من المالكية. ولا يزال بعض هذه الكتب موجودا إلى الآن بمكتبة القيروان العتيقة المنقولة إلى متحف رقادة على بعد 10كلم من القيروان.[3]

[1] هذا ما استنتجه من رأي الدكتور صلاح الدين المنجد في قوله: " إن تأثير أهل الشام و الأندلس بثقافة إسلامية عربية واحدة، وإتباعهم عادات عربية أموية متقاربة، عرفنا لماذا كان العرب الشاميون يجدون في الأندلس وطنا كوطنهم، و الأندلسيون الراحلون إلى الشام بلدا كبلادهم. "انظر: المنجد، المرجع السابق، ص18.

[2] أبو العز (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني) (ت333هـ/944م)، طبقات علماء افريقية و تونس، تحقيق: علي الشابي، و نعيم حسن اليافعي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص109. الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي –ت696هـ/1294م–)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، ط2، المكتبة العتيقة، تونس 1993م، ج2، صفحات5-11-12-13.

[3] عن المدونة السحنونية و كتب الفقه المالكية المجلوبة من مصر، أنظر: الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص15-18. أشهد (بن عبد العزيز)، المجالس (ج4،ج5)، رواية سحنون بن سعيد، متحف رقادة، القيروان، عدد رتبي336/ملف16، كتاب البيوع، رواية سحنون عن عبد الرحمان بن القاسم، عدد رتبي39/ملف8، ابن وهب (عبد الله)، قطعة من موطئه، عدد رتبي244/ملف7، ابن المواز (محمد بن إبراهيم)، كتاب الموازية (24جزءا)، عدد رتبي30/ملف3.

وبعد رجوع سحنون إلى القيروان حصل له ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالــك، فقد انتهت إليه رئاسة العلم والمذهب بتونس، وعنه انتشر علم مالك بالمغرب.

كما رحل إلى مصر محمد بن سحنون (ت256هــ/869م)، وقد أكرم المصـــريون وفادته، فنزل في دار الفقيه أبي رجاء بن أشهب، وقدم له المزني صاحب الأمر الشافعي دابته ليستخدمها في تنقلاته[1].

كما رحل إلى مصر لتلقي العلم، إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة حيث تتلمذ على يد الليث بن سعد[2].

ورحل إليها من فقهاء افريقية، عيسى بن مسكين (ت295هــ/907م)، وتتلمذ على يد محمد بن سنجر وأبي الطاهر بن السرح و الحارث بن مسكين و يونس بن عبد الأعلـــى الصدفي و الربيع، وعاد إلى القيروان وتولى منصب القضاء في عهد إبراهيم بن الأغلب، ويذكر المالكي أنه كان ينهي أحكامه بقوله: «حكمت لك بقول ابن القاسم، وحكمـــت لـــك بقول أشهب». وهذا يدل على مدى تأثره بأقوال شيوخه المصريين الذين تتلمذ عليهم.

كما أصدر أوامره عقب توليه القضاء بألا يقرأ القرآن في جامع القيروان إلا بحرف نافع، وهي القراءة التي نقلت إلى القيروان من مصر[3].

كما رحل إلى مصر من فقهاء إفريقة أيضا عبد الله بن طالب (ت275هــــــ/888م)، ولقمان بن يوسف الغساني(ت319هــ/931م)، و ربيع أبو سليمان بن عطـــا لله القطـــان (ت334هــ/910م)، وعون بن يوسف الخزاعي (ت298هــ/910م) الذي تفقه على يـــد فقيهي مصر عبد الله بن وهب والمفضل بن فضالة، و حمديس القطان (ت289هــ/901م) الذي تتلمذ على يد أصحاب ابن القاسم وأشهب و ابن وهب[4].

---

[1] القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي –ت544هــ/1149م–)، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، و دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، ج2، ص107 وما بعدها.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص116. ابن الأبار، الحلة السيراء، ص402. أسعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، دون رقم الطبع، الكويت 1979م، ج2، ص27.

[3] عياض، المصدر السابق، ج2، ص212–223، أنظر: المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و افريقية و زهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، تحقيق: بشير يكوش، ط2، دار الغريب الاسلامي، بيروت، لبنان 1994م، ج1. كما فرض القاضي عبد الله بن طالب الالتزام بقراءة نافع بجامع القيروان. عياض، المدارك، ج2، ص198.

[4] عياض، المدارك، ج2، صفحات194–311–324–255، ج1، ص627. الدباغ، المعالم، ج2، ص201.

ورحل إلى مصر من المغرب الفقيه أبو عبد الله النفزاوي "الملقب بمالك الصغير"، ومحمد بن نظيف، وعبد الله بن مسرور، وزياد بن يونس، وعلي بن محمد المعارفي[1].

كما رحل إلى مصر مع المعز لدين الله الفاطمي الطبيب المغربي أعين بن أعين، والطبيب موسى بن العزار، والنحوي محمد بن جعفر القزاز القيرواني، وقد دارت بينه وبين النحوي ابن النحاس المعري مناظرات و مناقشات.

هذه نماذج من رحلات المغاربة نحو مصر، وأما رحلات المصريين إلى المغرب، فنذكر على سبيل المثال: رحلة الفقيه زيد بن بشر إلى تونس، فقد لقي هذا العالم تقدير واحترام أهلها بسبب تفانيه في التعليم والتدريس، فقد ذكر أبو العرب أنه استقر بتونس، وكان ذا فقه وأدب وعقل وصيانة، سمع منه الناس ورحل إليه من القيروان خلق كثير يسمعون منه، منهم سعيد بن إسحاق وسليمان بن سالم وغيرهما، ويروي المالكي أن أهل القيروان كانوا يدعون له، فيقولون: اللهم أبقه لنا، وأحرزه للمسلمين، فقد انتفع به شبابنا وحظي به شيوخنا.

كما رحل إلى تونس للتدريس بها، النحوي والفقيه يحي الوقار الذي تتلمذ على يديه كثير من الطلاب في الفقه والنحو.

كما رحل إلى تونس الطبيب المصري إسحاق بن سليمان الذي ذاع صيته بها. واتخذه الأمير الأغلبي زيادة الله الثالث طبيبا خاصا له. وأولاه كثير من العناية والاهتمام.

وقد نال العلماء المصريين في تونس كثيرا من الاحترام والتقدير والمساعدة، وكان تلامذتهم يصحبونهم في ذهابهم و إيابهم إلى المسجد الجامع، ويكرمون صحبتهم، كما نال فقهاء إفريقية وطلابها كثيرا من الترحاب والرعاية من قبل المصريين.

وقد أدى تنقل العلماء بين مصر و المغرب إلى حدوث تأثيرات متبادلة، فقد انتقلت كثير من العلوم التي ازدهرت في مصر عن طريق العلماء المغاربة الذين تتلمذوا على أيدي فقهاء مصر وعلمائها، فانتقلت إلى المغرب الإسلامي قراءة نافع للقرآن والتي انتشرت في مصر على يد عثمان بن سعد المصري المعروف بورش وأبي يعقوب بن عمر بن يسار وقد أدخلها محمد بن خيرون إلى القيروان بعد أن أخذها عن ورش وأبي

---

[1] لم أقف على تراجمهم سوى عبد الله بن مسرور (ت346هـ/957م). عياض، المدارك، ج2، ص341، و علي بن محمد المعافري (ت403هـ/1012م)، المدارك، ج2، ص616.

يعقوب، ثم انتشرت في أنحاء المغرب، وحلت محل قراءة حمزة التي كانت قد عرفت من قبل في القيروان.

كما تأثرت تونس بآراء فقهاء مصر من المالكية خاصة ابن القاسم وابن وهب، فقد درس فقهاء القيروان أسس المذهب المالكي على يديهما.

3- العلاقات الاقتصادية

تميزت العلاقات الاقتصادية بين المغرب الإسلامي والمشرق العربي خاصة مصر والشام بالحيوية والنشاط من جهة، و بالحرية من جهة أخرى[1] بالرغم من أن المصادر المعاصرة لتلك الفترة لم تهتم بهذا الجانب الهام، إلا في إشارات عابرة و نادرة، و مع ذلك يمكننا أن نقسم هذه العلاقات من حيث نوعها إلى:

أ- العلاقات الزراعية

تتمحور العلاقات الزراعية للمغاربة والأندلسيين مع بلاد الشام، حول تلك المزروعات النباتية المختلفة التي نقلها و استحضرها الشاميون بعد فتحهم لهذه المناطق وتوطيد حكمهم بها، لأن معظم هؤلاء الفاتحين المسلمين ينتمون إلى الأصل الشامي[2] ولهم دراية واسعة بوسائل وفنون الزراعة، مما سهل عليهم نشرها و تعميمها في الأراضي المغاربية المفتوحة، كما ساعدتهم على ذلك الظروف الطبيعية المناسبة و المتشابهة بين المنطقتين[3]، ولقد قام العرب الفاتحون، خاصة أهل الشام، بإحضار الكثير من النباتات الزراعية ذات الأصول الشامية من حبوب و ثمار، وعملوا على ترويج هذه الثمار و نشر زراعتها في كامل المناطق المغربية المفتوحة بصفة عامة، و منطقة الأندلس بصفة خاصة، و ذلك بتشجيع من السلطات الحاكمة، فهذا الأمير الأموي الأندلسي عبد الرحمن الداخل، يعتبر أول من تولى نشر فاكهة الرمان و زرعها في الرصافة بالقرب من مدينة

---

[1] ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص25-26.

[2] ابن قوطية، المصدر السابق، ص43-44. المقري، المصدر السابق، ج1، ص237. بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص40. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. محمد كردي علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق 1926م، ج4، ص163. حلاق، المرجع السابق، ص29.

[3] حلاق، المرجع السابق، ص33 وما بعدها. بروفنسال، المرجع السابق، ص41. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. المنجد، المرجع السابق، ص17، العبادي، المرجع السابق، ص109.

قرطبة[1] بعدما جاءه بهذا النوع من الفاكهة سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن[2]، فعرف الرمان باسمه و اشتهر بإسم الرمان السفري[3]، كما جلب الشاميون مختلف أصناف الخضر و الفواكه والأشجار المثمرة، والحبوب، مثل النخيل، والبرتقال والتوت، والقطن، و قصب السكر، و الذرة، و الأرز، و الزعفران، و الخرشوف، والسبانخ، والباذنجان، و البصل العسقلاني، و الياسمين، و غيرها[4] و جل هذه الأنواع من النباتات الزراعية كانت مشهورة في الشام منذ القدم[5]، و إلى جانب نقل أهل الشام، مختلف أنواع النباتات الملاحية إلى الأندلس، فإليهم يرجع فضل ترويج مختلف الطرق و الوسائل الزراعية الشامية[6] كطريقة سقاية الحدائق و استحداث النواعير[7] و هكذا نستنتج أن الشاميين الذين استقروا بالأندلس قاموا بإحضار معظم الثمار الفلاحية، و تزويد المنطقة بمختلف المعارف و الطرق و الوسائل الزراعية، المعروفة بالشام، لتكون البديل عن وطنهم الأصلي، لأن الأندلس هي بنت الشام في المجال الزراعي على حد قول المؤرخ السوري محمد كرد علي

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج1، ص467. حلاق، المرجع السابق، ص31-32. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص 140. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص207-208. العبادي، المرجع السابق، ص108.

[2] المقري، المصدر السابق، ج1، ص467-468.

[3] نفسه، ج1، ص468. عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص207. العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص318.

[4] محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص163. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص140. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق و الغرب، المكتبة العربية، القاهرة 1976م، ص242. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص274. حمودة، المرجع السابق، ص217. رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص467. أرشيبالد لويس، القوى البحرية و التجارية في حوض المتوسط، ترجمة: أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر 1960م، ص264. أبو خليل شوقي، الحضارة الإسلامية، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1987م، ص231-232.

[5] محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص263.

[6] كطريقة زراعة النباتات الصناعية المختلفة، مثل زراعة قصب السكر و القطن التي لم تكن تعرفها بلاد الأندلس قبل الفتح الإسلامي. عن هذه الطرق الزراعية، أنظر: نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص242 فما بعدها. كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص163. حمودة، المرجع السابق، ص227. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص274. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص264. رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص466-468. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص252-253.

[7] يقول في ذلك محمد كرد علي: "... وما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى... برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير العجيبة..."، أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص163. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص274. رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص467. أبو خليل شوقي، المرجع السابق، ص231.

(ت1373هـ/1953م)، صاحب كتاب **خطط الشام**[1] وأغلب الصنوف الفلاحية التي عرفتها أوروبا عن طريق الأندلس تكاد تكون خاصة بأرض الشام[2].

ب- العلاقات الحرفية والصناعية

إن العلاقات الحرفية و الصناعية بين المشرق العربي والمغرب الإسلامي غير واضحة المعالم، لقلة و ندرة المعلومات في المصادر المعاصرة، التي تتعرض لهذا الجانب المهم، لمعرفة الحالة الاقتصادية للمنطقتين و مدى التقارب والتبادل الحاصل بينهما في هذا المجال، ورغم ذلك انتشرت الكثير من الحرف والصناعات بشكل واسع في المدن الأندلسية، في تلك الفترة[3] و يقول الإدريسي: "... ولم تخل قرطبة... من... سائر الصناعات..." الدكتور محمد رجب عبد الحليم، في كتابه **العلاقات بين الأندلس واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف**، بقوله:"... أما الصناعة فقد بلغ مسلمو الأندلس فيها شأوا عظيما... و قد توافرت المواد الخام و خاصة المعادن اللازمة لتلك الصناعة في معظم أنحاء الجزيرة... و نظرا لتوافر هذه المواد الخام الكثيرة فقد قامت صناعات كثيرة في الأندلس الإسلامية..." [4]، فاشتهرت مدينة قرطبة بدباغة الجلود والنسيج[5]، و المرية[6] بصناعة الحديد و النحاس وبناء السفن، و اشتهرت مدينة

---

[1] حيث يقول: "... ومعلوم أن الأندلس ابنة الشام فتحها الشاميون و نقلوا إليها مدينتهم و هذا الصوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوروبا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون..."، أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص163.

[2] محمد رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص466-468. كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص163.

[3] رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص468-472. حمودة، المرجع السابق، ص217. البتوني، المرجع السابق، ص113-114. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص253-255، ج3، ص329-333. شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص232-234.

[4] رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص468-469.

[5] يقول المؤرخ ابن غالب الأندلسي: "و مدينة المرية... دار الصنعة... قد استقرت فيها العدة و الآلات للسفن... وكان يعمل فيها من الوشي و السقلاطوني و البغدادي و سائر أجناس الديباج..."، عن هذه الصناعات، أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ط2، ليدن 1938م، ص111-115، الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص581. الحميري، المصدر السابق، ص456. البتوني، المرجع السابق، ص113. حمودة، المرجع السابق، ص217. رجب، المرجع السابق، ص470.

[6] تقع مدينة المرية جنوب الأندلس، عن المرية و صناعاتها، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص563. ابن غالب الأندلسي، (فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس)، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مصر1955م، م1، ج2، ص283-284. ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص119-120. الحميري، المصدر السابق=

مالقة[1] بصناعة الفخار أما مدينة سرقسطة بالأقمشة الحريرية والكتانية[2] ومدينة شاطبة بالورق[3] و اشبيلية بالصناعة الحريرية[4]، و بذلك أصبحت الصناعة في بلاد الأندلس متطورة ومزدهرة[5] ومستقلة عن المشرق الإسلامي، بل ومنافسة له، ويفتخر بها على الجيران والفاطميين[6]، ويرجع الفضل في ذلك إلى الاعتماد على معارف بعض المشارقة ممن استقروا بالمنطقة، خاصة أهل الشام الذين كان لهم دور فعال في تطوير هذا النوع من النشاط الاقتصادي، يؤيد ذلك أن أغلب الصناعات والحرف، التي عرفت وانتشرت في الأندلس كانت موجودة في بلاد الشام[7]، فمثلا يذكر لسان الدين بن الخطيب أن مدينة مالقة انتشرت بها الصناعات الشامية[8]، ويقول محمد كرد علي، في ذلك: "... ونقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الأقمشة المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم... أي عمل ثياب على النمط الدمشقي..." [9]، وما يقال في الصناعة النسيجية يقال

ص537–538. سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1969م، ص155–168. البتوني، نفسه، ص113.

[1] تقع مدينة مالقة جنوب الأندلس، عن مالقة و صناعاتها، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص570. ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، ص294. ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص43. الحميري، المصدر السابق، ص517. المقري، المصدر السابق، ج1، ص201–202. البتوني، المرجع السابق، ص113. رجب، المرجع السابق، ص470.

[2] عن أهم أنواع الحرف التي اشتهرت بها مدينة سرقسطة، أنظر: ابن غالب، المصدر السابق، م1، ج2، ص287–288. ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص212–213. المقري، المصدر السابق، ج1، ص197. البتوني، المرجع السابق، ص113. رجب، المصدر السابق، ص469.

[3] تقع مدينة شاطبة شرق الأندلس، عن شاطبة و صناعاتها، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص556. ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص309–310. الحميري، المصدر السابق، ص337. البتوني، المرجع السابق، ص113. رجب، المرجع السابق، ص470.

[4] البتوني، المرجع السابق، ص113.

[5] عن هذا التطور و الازدهار، أنظر: حمودة، المرجع السابق، ص217. البتوني، المرجع السابق، ص113. رجب، المرجع السابق، ص468–472. كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص296.

[6] يورد القاضي النعمان(ت سنة363هـ/973م)، في كتابه "المجالس و المسايرات"، رواية عن الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر يفاخر و يباهي فيها بتطور و ازدهار الصناعات بالأندلس التي جعلتها تستقل عن المشرق و صناعاته أمام المعز لدين الله الفاطمي، أنظر: القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، تحقيق: الحبيب الفقهي، المطبعة الرستمية، تونس 1978م، ص180.

[7] حلاق، المرجع السابق، ص35.

[8] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس، تحقيق: مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1983م، ص77.

[9] محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص221.

في الصناعات الأخرى، كصناعة تكفيت النحاس والصلب بالذهب والفضة وزخرفتهـــا، و التي كانت قد انتقلت من الشام إلى الأندلس، يقول الدكتور علي حمـــودة: "أمـــا صـــناعة تكفيت النحاس و الصلب وغيره بالذهب والفضة وزخرفتها بنقوش تمثل الإزهار، فإنهـــا أدخلت من دمشق وازدهرت في كثير من المدن الأندلسية وانتقلت منها إلى بعض المـــدن الأوروبية الأخرى"[1].

ج- العلاقات التجارية

نشطت الحركة التجارية بين المغرب الإسلامي و مصر فكان الزيتون؛ مـــن أهـــم صادرات تونس، و يعتبر ميناء صفاقص من الموانئ الهامة لتصدير زيت الزيتون إلـــى مصر وصقلية و سائر الأصقاع، و تعتمد على هذا الزيت صـــناعة الصـــابون و زيـــت التجميل، وأهم مراكزه ليبيا و إفريقية.

و مع فترات الاضطرابات في تونس حلَّت البندقية محلها في نقل الزيت إلى مصـــر وجزيرة كريت[2]، و ذكر شاهد عيان أن: " السفن الإيطالية كانت تحمل الزيت من جزيرة جربة إلى الإسكندرية"[3].

و لوفرة إنتاج تونس من الزيتون انخفض سعره، و بيع ستون قفيزا و سبعون قفيزا بدينار[4].

و يلي الزيتون و زيته في مجموع المواد الزراعية المصدرة التمور، وتعتبر بـــلاد الجريد من أهم مناطق تصديره، و يقول البكري في توزر: "و إنتاجها من التمور أخصب الإنتاج بإفريقية، و يخرج منها كل يوم ألف حمل إلى كافة الجهات"[5]، و لكثرة إنتاج التمر التمر فقد بيع أحيانا حمل الجمل بدرهمين[6]، و ذكر الإدريسي أن التمر بوادي درعة كان رخيصا جدا، و قد بيع حمل الجمل بنصف درهم[1].

---

[1] عن الصناعات التي انتقلت من المشرق الإسلامي إلى المغرب الإسلامي، أنظر: حمودة، المرجع السابق، ص127. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص264. زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1984م، ص13 فما بعدها. سالم، المرجع السابق، ص157-158، أندري ميكيل، الإسلام و حضارته، ص227.

[2] ابتسام مرعي خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية و المشرق الإسلامي، ص310-311.

[3] Brunshvic, op, cit, tome 2, p262.

[4] أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص47.

[5] البكري، المسالك و الممالك، ص118.

[6] أنظر: ابتسام مرعي خلف الله، المرجع السابق، ص312.=

و كان الشمع و الملح من المواد التي تصدرها تونس بكثرة، و كذلك التوابل والشب.

و من مواد تجارة المغرب مع المشرق سمك التونة، و يصطاد في سواحل المغرب وإسبانيا المقابل لها، و خصوصا في مدينة سبتة حيث يجفف و يباع، و كان التين يحمل من المغرب إلى المشرق و خاصة من طليطلة إلى مصر و الشام و العراق[2].

و أما العلاقات التجارية بين الشام والمغرب الإسلامي، فقد اتصفت في نهاية القرن (5هـ/11م) بالنشاط و الحيوية[3]، وكان الأندلس وقتها تابعا للخلافة الأموية بالمشرق، ثم بعد استقلال الأندلس عن الشام في عهد الخلافة العباسية أصبح دولة متطورة ومزدهرة في جميع الأنشطة الحضارية عامة، والاقتصادية خاصة، لاسيما في مجال الزراعة والصناعة على وجه التحديد، مما نتج عنه نمو النشاط التجاري و تطوره[4]، و هكذا أصبح التجار الشاميون والأندلسيون والمغاربة يتنقلون بين المنطقتين، مثقلين بمختلف أنواع السلع و المنتجات الزراعية و الصناعية، يتبادلونها فيما بينهم[5] وأحسن مثال عن هؤلاء التجار، التاجر الأندلسي، الذي أشار إليه المؤرخ ابن بشكوال في كتابه **الصلة**، ذو النون بن إبراهيم الإخميني، الذي كان يرتحل في كل عام إلى فلسطين قاصدا بيت المقدس ومدينة الرملة[6].

إضافة إلى تجار آخرين نقلوا بضائع شامية ثمينة إلى منطقة الأندلس، كأحمد اليوناني، وربيع الأسقف، اللذان جلبا حوضا صغير الحجم، أخضر اللون، مزخرفا بنقوش

Cahen (cl), le commerce dans le monde musulman a sompagee, un EF, FG, EL, année 1966-1974, p102.

1 أنظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص21. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص303.

2 آدم ميتز، المرجع سابق، ص307-311.

3 ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص53. البتوني، المرجع السابق، ص114. إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص336. ج4، ص388. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص328.

4 عن هذا الازدهار الاقتصادي، أنظر: رجب، المرجع السابق، ص466-472. البتوني، المرجع السابق، ص112-113. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، صفحات252-264-329-332. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص140 فما بعدها، حمودة، المرجع السابق، ص217-218. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص273-276. شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص229-234. كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص296.

5 عن هذا التبادل التجاري، أنظر: إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص336. البتوني، المرجع السابق، ص114. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص328. حمودة، المرجع السابق، ص219. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص274.

6 ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص551.

تمثل صورة إنسان[1] كما رحل الكثير من الشاميين إلى الأندلس بهدف التجارة، ومن بين هؤلاء التجار العلاء بن الحارث بن كثير بن عباد بن الحضرمي، المعروف بأبي وهب من أهل مدينة دمشق، الذي سافر إلى الأندلس سنة(429هـ/1037م)، وقد اصطحب معه ابنا له يدعى كثير، ليساعده في قضاء احتياجاته التجارية[2] و لم ينحصر النشاط التجاري بين المنطقتين على محاولات الأفراد، خاصة من قبل الأندلسيين، بل ساهم الحكام بقسط كبير في تنشيط وتشجيع حركة التبادل التجاري، ويتجلى ذلك في إرسال حاكم مدينة دانية الأندلسية[3] ابن موسى سنة(484هـ/1091م) مركبا محملا بالزرع إلى الشام، ليرجع منها مزودا إلى بلاده بالذخيرة والتحف النادرة و الباهظة الثمن[4].

ولقد ساعدت المدن الأندلسية والشامية بفضل موقعهما الساحلي الهام المطل على البحر في عملية تفعيل الحركة التجارية بين الأندلس و بين الشام، و دفعها إلى الأمام[5] فمدينة دانية ذات الموقع الهام على الساحل الشرقي الأندلسي[6] كانت تستقبل المراكب التجارية، خاصة في المنتصف الأول من القرن (4هـ/10م)، هذا ما يؤكده المؤرخ والرحالة الجغرافي الشريف الإدريسي(ت 560هـ/1164م)، في كتابه **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، بقوله: "... و مدينة دانية على البحر... تسافر إليها السفن و بها ينشأ أكثرها، لأنها دار إنشاء السفن و منها يخرج الأسطول للغزو ومنها تخرج السفن إلى

---

[1] قال المقري في شأن هذا الحوض: "... أما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، أما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية مع ربيع الأسقف..."، أنظر: المقري، المصدر السابق، ج1، ص568.

[2] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص649.

[3] تقع مدينة دانية شرق الأندلس، أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص434. الحميري، المصدر السابق، ص231-232.

[4] يقول ابن عذاري المراكشي عن هذا الخبر: "... و ذلك أن مصر كانت بها مجاعة و مسغبة شديدة و كانت دانية الأندلسية في شرقي الأندلس كثيرة الخصب، فبعث ابن موسى من مدينة دانية إلى الشام مركبا كبيرا محشوا بالزرع، فعاد إليه بكل ذخيرة و تحفة خطيرة ..."، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص144-146.

[5] عن هذه المدن الأندلسية و الشامية ذات الموقع الهام المطل على البحر، أنظر: ابن حوقل، المصدر السابق، صفحات60-107-164-189. الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص347-378، ج2، ص525 فما بعدها. الحموي المصدر السابق، ج1، ص262-264، ج3، ص311-315. الحميري، المصدر السابق، صفحات33-35-335.

[6] عن هذا الموقع الهام، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص557. الحموي، المصدر السابق، ج2، ص434. الحميري، المصدر السابق، ص231-232.

أقصى الشرق..." [1] ومدينة المرية الواقعة على الساحل الجنوبي للأندلس، بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله سنة(344هـ/955م)[2] لتكون أهم القواعد والمراكز البحرية الأندلسية[3] و كانت السفن الراحلة من بلاد الشام و غيرها من أقطار المشرق الإسلامي، تقصد المرية تحمل إليها السلع ومختلف المنتجات الزراعية والصناعية، ثم تنقلها منها عند عودتها إلى مواطنها[4] يقول محمد بن عبد المنعم الحميري(ت 866هـ/1461م) في كتابه **الروض المعطار في خبر الأقطار**: "...وكانت المرية تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية و الشام، ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا..." [5].

و تعلو مكانة مدينة المرية، ليس لكونها أهم القواعد البحرية على سواحل الأندلس من الناحية التجارية فحسب، و لكن لأنها مدينة صناعية متطورة و مزدهرة[6]مما جعلها تقوي مركزها التجاري أفضل من السابق، خاصة خلال النصف الثاني من القرن (5هـ/11م) في ظل حكم المرابطين للأندلس[7] عن هذا الازدهار الصناعي لهذه المدينة، يقول صاحب كتاب **الروض المعطار في خبر الأقطار**: "... و كانت المرية في أيام الملثمين مدينة الإسلام و بها كل الصناعات الغريبة، و كان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز، وتعمل بها الحلل والديباج و السقلاطوني و الأصبهاني و الجرجاني و الستور المكللة و الثياب الثمينة و العتابي و المعاجر، و صنوف أنواع الحرير، و كانت فيما تقدم تصنع بها صنوف آلات النحاس و الحديد ما لا يعد..." [8]، كما يصفها محمد بن أيوب بن غالب، في كتابه **فرحة الأنفس** بقوله: "و مدينة المرية و هي باب الشرق ومفتاح التجارة

---

[1] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص557.

[2] الحميري، المصدر السابق، ص537.

[3] السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص33 فما بعدها.

[4] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص562-563. الحموي، المصدر السابق، ج5، ص119-120. الحميري، نفسه، ص537-538. سالم، المرجع السابق، ص168-171. البتوني، المرجع السابق، ص114.

[5] الحميري، المصدر السابق، ص538.

[6] عن هذا التطور و الازدهار الاقتصادي، لمدينة المرية، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص562-563. ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، م1، ج2، ص283-284. ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص119-120. الحميري، المصدر السابق، ص537-537. سالم، المرجع السابق، ص155-168.

[7] سالم، المرجع السابق، ص156.

[8] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص562. الحميري، المصدر السابق، ص538.

والرزق، وبالمرية دار الصنعة... قد استقرت فيها العدة و الآلات و السفن و ما يقوم بـــه الأسطول، و كان يعمل فيها من الوشي و السقلاطوني و البغدادي وسائر أجناس الـــديباج وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يعمل مثله بصنعاء وعدن، ومنها يســفن إلـــى جميـــع الآفاق، وكان يعمل فيها الحلل الرفيعة القدر الكثيرة الأثمان..." [1].

و ما يقال عن المدن الأندلسية المطلة على ساحل البحر، يمكن أن يقال عن المـــدن الساحلية المصرية و الشامية، حيث ظهرت مدينة الإسكندرية و مدينة عكا[2] كأهم الثغـــور والمحطات البحرية على الساحل الشامي و المصري فيما يخص استقبال الوافـــدين مـــن التجار المغاربة و غيرهم من مختلف الأوطان[3] و يصف الحميري مدينة عكا، بأنها: "... مجمع السفن و الرفاق و ملتقى تجار المسلمين و النصـــارى مـــن جميـــع الآفـــاق..." [4]، ويضاف إلى مدينة عكا الفلسطينية مدينة طرابلس الشام، التي احتلت المراتب الأولى فـــي ميدان التبادل التجاري بين المغرب والمشرق عامة، والأندلس والمغرب والشام خاصة[5]، يقول عنها الرحالة الفارسي ناصر خسرو (ت 481هـــ/1088م) في كتابه **سفر نامة**: "... و طرابلس من ممتلكات سلطان مصر... و المدينة مركز هام من مراكز جمع الضرائب، حيث تتجه إلى الميناء سفن كثيرة من أطراف الأرض من الروم والفرنجـــة و الأنـــدلس والمغرب، و كلها تدفع العشر لسلطان مصر... و لسلطان مصر عدد كبير مـــن الســـفن المرابطة و التجارية تبحر إلى بلاد الروم، و صقلية، و المغرب للتجـــارة..." [6] و كـــذلك كان حال المدن الشامية الأخرى، لها نفس المكانة و الأهمية الاقتصادية بصـــفة عامـــة، والتجارية بصفة خاصة، كمدينة دمشق و أنطاكية و غيرها[7].

أما أصناف المبادلات التجارية بين المنطقتين فهي متباينة و متنوعة، وفق ما تنتجه كل منطقة، وحسب احتياجات أسواقها الداخلية، فبلاد الأندلس زخرت بفائض كبيـــر فـــي

---

[1] ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، م1، ج2، ص283-284.

[2] تقع مدينة عكا على الساحل الغربي لفلسطين، أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص143-144. الحميري، المصدر السابق، ص410-411.

[3] الحميري، المصدر السابق، ص410. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص116.

[4] الحميري ، المصدر السابق، ص410.

[5] سالم، بحوث إسلامية...، ص230-231. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص328.

[6] ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة: أحمد خالد البدلي، مطابع الملك سعود، الرياض، السعودية 1983م، ص43-44.

[7] الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص369، ج2، ص645. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص257، ج3، ص336. جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط3، دار الفكر العربي 1973م، ص144.

ميدان المنتجات الفلاحية[1] فأصبحت تسوق هذا الفائض إلى كامل المشرق الإسلامي، حتى وصل إلى أقصى شرق آسيا كالهند و الصين[2]؛ فمدينة مالقة مثلا اشتهرت بإنتاج التـين، بكميات هائلة، و كان يتميز عن غيره بالعذوبة و الطيب و الجودة العالية[3] فكان يصـدر فائضه إلى الأراضي الشامية، وغيرها من الأصقاع[4]هذا ما يؤكده عبد المنعم الحميـري، عند وصفه لهذه المدينة، بقوله: "... و فيما استدار بها من جميع جهاتهـا شـجر التـين المنسوب إليها، و هو يحمل إلى مصر و الشام و العراق و ربما وصل إلى الهنـد..." [5]، كما لعبت مدينة شاطبة الأندلسية دورا هاما في تسويق المواد المصنعة التي اشتهرت بها، كصناعة الورق، إلى بلاد الشام، يقول في ذلك صاحب كتاب **نزهة المشتاق في اختـراق الآفاق:** "... يعمل بها من الكاغذ مالا يوجد له نظير بمعمور الأرض، و يعـم المشـارق والمغارب"[6] و اشتهر الأندلس كذلك بصناعة الصوف المصبوغ بألوان خاصة كالـديباج واللبود، والحرير المصبوغ، والألبسة الكتانية التي كثر الطلب عليها مـن تجـار الشـام لتسويقها ببلادهم[7].

---

[1] يحدثنا ابن غالب الأندلسي عن الإنتاج الزراعي الهام لمدينة إشبيلية، فيقول: "... و احتوى على الزرع والضرع وكثرة الثمرات من كل الصفات، و فضل الصيد في بر و بحر... و بذلك يصلح نتاجها و تدوم ألبان ماشيتها... و هي من السواحل التي يحسن فيها قصب السكر..."، عن تطور القطاع الفلاحي من حيث الكمية و النوعية في الأندلس، أنظر: ابن غالب، المصدر السابق، م1، ج2، ص293. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص140-141. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص253، ج3، ص329، ج4، ص369. رجب، المرجع السابق، ص466-468. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص274، شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص231-232. حمودة، المرجع السابق، ص217-218. أرشيبالد، المرجع السابق، ص252-259.

[2] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص565. الحميري، المصدر السابق، ص517. المقري، المصدر السابق، ج1، ص151.

[3] حيث يقول الحميري: "... وهو من أحسن التين طيبا وعذوبة..."، عن نوعية هذا المحصول، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص565. الحميري، المصدر السابق، ص517. المقري، المصدر السابق، ج1، ص151.

[4] و يؤكد ذلك الإدريسي، في قوله: "... و تينها يحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند..."، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص565.

[5] الحميري، المصدر السابق، ص517.

[6] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص556. ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص309، الحميري، المصدر السابق، ص337.

[7] ابن حوقل، المصدر السابق، ص114، الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص562. ابن غالب، المصدر السـابق، م1، ج2، ص283-284. ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص119. الحميري، المصدر السابق، ص538. المقري، المصـدر السابق، ج1، ص201.

و تعد بلاد المغرب الإسلامي عامة، و الأندلس خاصة،من أهم مواطن ومخازن الموارد الأولية المتنوعة التي تحتاجها معظم الأصقاع و البلدان لتتزود بها في مختلف القطاعات و الأنشطة الاقتصادية [1] فقد كان يجلب منها معدن الفضة من صقع كرتيش بمدينة قرطبة[2] و مادة القصدير من منطقة أكشونبة الساحلية[3] و من جبال البرانس يستخرج الزئبق[4]، أما معدن حجر التوتيا، و الحديد، و النحاس، والرصاص، فيتواجد بمدينة ألبيرة[5]، و الكحل و الزجاج بمدينة طرطوشة[6]، يقول المؤرخ و الجغرافي القزويني القزويني (ت 682هـ/1283م) في كتابه **آثار البلاد و أخبار العباد** عن معادنها: "... و بها معدن الكحل الطيب الذي هو غاية و معدن الزجاج..." [7]، إضافة إلى معادن و مواد أخرى تزخر بها الأندلس، كالتين الذي يستعمل في الأكل و تنظيف الشعر، والمتوفر بكميات كبيرة بإحدى كور مدينة طلطيلة[8] حيث يقول عنه الشريف الإدريسي: "...وعلى مقربة من مدينة طليطلة قرية تسمى بمغام و على جبالها و ترابها الطين[9] المأكول الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به منها الى أرض مصر و جميع بلاد الشام والعراق و بلاد الترك، و هو نهاية في لذاذة الأكل و في نظافة غسل الشعر، و لطليطلة

[1] عن هذه الموارد الأولية التي تزخر بها الأندلس، أنظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص113-114. البكري، المصدر السابق، ص124-130، الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص535-581. القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، دار بيروت، بيروت، لبنان 1984م، ص503. عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224. الحميري، المصدر السابق، ص32. المقري، المصدر السابق، ج1، ص141-144.

[2] البكري، المصدر السابق، ص129. عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224. المقري، المصدر السابق، ج1، ص143.

[3] تقع مدينة أكشونبة، جنوب غرب الأندلس، أنظر: البكري، المصدر السابق، ص129. ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، م1، ج2، ص291. ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص240. المقري، المصدر السابق، ج1، ص143.

[4] ابن حوقل، المصدر السابق، ص114. البكري، المصدر السابق، ص129. الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص581. ابن غالب، المصدر السابق، م1، ج2، ص283. المقري، المصدر السابق، ج1، ص143.

[5] البكري، المصدر السابق، ص129. ابن غالب، المصدر السابق، م1، ج2، ص283. القزويني، المصدر السابق، ص502. ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص244. المقري، المصدر السابق، ج1، ص143.

[6] البكري، المصدر السابق، ص130. القزويني، المصدر السابق، ص545. المقري، المصدر السابق، ج1، ص143.

[7] القزويني، المصدر السابق، ص545.

[8] تقع طليطلة وسط بلاد الأندلس، أنظر: ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص39-40. الحميري، المصدر السابق، ص393-394.

[9] يعني التين.

في جبالها معادن الحديد و النحاس..." [1]، و بالمقابل كان الشام أحد أهم المناطق التي تمد المغرب و الأندلس بالمواد الأولية و التي تفتقر إليها المنطقة و تحتاجها في تنشيط قطاعها الاقتصادي[2] فقد كان التجار الأندلسيون و الشاميون ينقلون الكثير من المنتوجات الفلاحية والصناعية المفقودة إلى هذه المنطقة، كالتوابل التي تتشكل من الفلفل والقرفة والقرنفل والعقاقير الطبية كالكافور والزعفران والتوتيا، والبخور والعطور التي تتنوع في المسك، كالعنبر، الجاوي، و أدوات الصباغة، التي تشتمل على النيلة، الشب، التوتيا، القطران الطبيعي، ومتطلبات البناء والزينة، كالخشب، العاج، الزجاج، والمنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية، وأشهرها الحرير المعروف باسم البروكار[3] الذي كان يصنع و يجلب من طرابلس الشام ودمشق، وأنطاكية، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة مثل الزمرد والفيروز واللازورد والذهب والماس[4] هذه الظروف التي تهيأت للأندلس والشام، ساعدت على تنشيط و تفعيل حركة التجارة و حرية تنقل الأشخاص، خاصة التجار والبضائع، فأصبحت بذلك في طليعة المناطق المزدهرة اقتصاديا[5].

و من خلال هذا العرض الوجيز للعلاقات الاقتصادية و الحضارية بين المغرب والمشرق عامة، والأندلس والشام خاصة، نلاحظ أن هذه العلاقات تمتاز بالتبادل الحر

---

[1] الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص552. الحميري، المصدر السابق، ص394.

[2] خاصة إذا علمنا أن دمشق كانت في هذه الفترة في طليعة المدن الشامية و المشرقية المتطورة، التي أصبحت تزود العالم الإسلامي و حتى الأوروبي، سواء في المنطقة الشرقية أو الغربية بمختلف أنواع المنتوجات الصناعية، هذا ما نستشفه من أقوال الإدريسي، حيث يقول: "و مدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن و ضروب من الصناعات... الذي يحمل إلى كل الآفاق و الأمصار المصاقبة لها و المتباعدة منها و مصانعها في كل ذلك عجيبة... فلا يعادلها جنس و لا يقاومها مثال..."، أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص369. الحميري، المصدر السابق، ص240. نعيم زكي، المرجع السابق، ص37.

[3] نعيم زكي، المرجع السابق، ص246. زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص389-393.

[4] نعيم زكي، المرجع السابق، ص191 فما بعدها، أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص252.

[5] عن تفاعل و نشاط الحركة التجارية بين المغرب والمشرق عامة، والأندلس والشام خاصة، أنظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ص77. غوستاف لبون، المرجع السابق، ص273-276، ص558-562. حلاق، المرجع السابق، ص35. سالم، المرجع السابق، ص168-174. تاريخ البحرية...، ص61-64. حمودة، المرجع السابق، ص219. أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص252. نعيم زكي، المرجع السابق، ص189-254. بروفنسال، المرجع السابق، ص53-54. الشرق الإسلامي...، ص26. عنبتاوي، حكايتنا في الأندلس ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان 1989م، ص148. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص254-255، ج3، ص332-333. إدوار بروي، المرجع السابق، ص192-193. عدنان فائق عنبتاوي، المرجع السابق، ص148.

والاستقطاب الحضاري[1] خاصة من قبل الشاميين، و هذا ما يعرف بالمؤثرات الشامية أو المشرقية بصفة عامة على المجتمع الأندلسي[2].

[1] ما عدا العلاقات السياسية التي كانت تتصف بالتوتر و العداء بين المنطقتين في ظل حكم العباسـيين فـي المشـرق، والأمويين في الأندلس، أنظر: فيما سبق من بداية هذا الفصل.

[2] كما يعرف و يصطلح عليه بالتقليد الشامي أو المشرقي، أو بالطابع السوري، عن هذه المصطلحات الحضارية التـي تأثر بها أهل الأندلس، أنظر: حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج2، ص196. حمودة، المرجع السـابق، ص221. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين و آثارهم ...، ص209. العبادي، المرجع السابق، ص317. أحمد بدر، المرجع السابق، ج1، ص159-165. المنجد، المرجع السابق، ص18-20. بروفنسال، المرجع السابق، ص14 وما بعدها.
Makik, op, cit, tom IX-X, pp93-144.

الفصل الثاني

إسهامات المغاربة و الأندلسيين في المجال الثقافي و العلمي

1 -في ميدان العلوم التطبيقية

يمكن القول بادئ ذي بدئ، أن تحصيل المغاربة و الأندلسيين في ميدان العلوم التطبيقية كان متباينا في كل حقل من حقول هذه العلوم، و بتعبير أوضح فإن دورهم في ميدان الطب على سبيل المثال يختلف عن دورهم في ميدان الصيدلة أو الرياضيات أو الكيمياء ويعود ذلك إلى أسباب متعددة الجوانب ستظهر في كل حقل بصورة منفصلة عن الحقل الآخر.

لكنه و قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع فإن الذي يمكن قوله أن العلوم التطبيقية في المشرق العربي لم تكن تحظى من الاهتمام و العناية بالقدر الذي يساعد على وضعها على قدم المساواة مع العلوم النظرية، فقد كان من سوء حظ العرب و الإسلام أن النشاط العلمي في فترة العصور الوسطى تدور تقريبا حول دراسة العلوم الشرعية، مما أدى إلى إضعاف العلوم التطبيقية إلى حد كبير رغم أن هذه العلوم قد نالت حظها من الاهتمام، حيث كانت الأفضل بالمقارنة بين الشعوب الأوربية آنذاك.

و لعل في دراسة كل علم و بشكل منفصل عن الآخر تظهر حقيقة هذا القول.

أ) إسهاماتهم في ميدان الطب

لعل من المفيد القول إن إسهامات المغاربة و الأندلسيين في حقل علم الطبابة كان إيجابيا و متميزا أكثر من بقية العلوم التطبيقية الأخرى، ففي نهاية القرن (5هـ/11م) و بداية (6هـ/12م) و بالتحديد في عهد **نور الدين زنكي** و **صلاح الدين الأيوبي** استقر الوضع في مصر و الشام و عمت مظاهر الإزدهار، فشهدت الحركة العلمية مداها و قدر لهما أن تستقطبا عددا من الأطباء المغاربة و الأندلسيين الوافدين إلى المشرق العربي الذين وجدوا فيه مكانا و ملجأ لهم فجعلوه دار مقام، و أصبحت بلاد الشام عاصمة بلاد إسلامية أخرى فيما وصلت إليه من تطور في الممارسة الطبية رغم ما عرفته في هذه الفترة من الحروب و خاصة الحروب الصليبية ولكن لا ننسى موقع مصر التي تمتعت مراكزها الفكرية بميزة أخرى تضاف إلى رقيها وهي وقوعها على طريق المغاربة والأندلسيين إلى الحج نحو الديار المقدسة، و مع ذلك تتعدد لدينا الشواهد و تكثر الأمثلة والدلائل على تردد الكثيرين من المغاربة و الأندلسيين على مصر و الشام ذلك لأن دراسة الطب كانت مسموحا بها خلال هذه الفترة و كان لأصحابها قيمتهم الاجتماعية العالية بين

صفوف عامة الشعب و الحكام على حد سواء و رغم هذه المكانة المرموقة وجدت أن بعض الحكام غضوا الطرف عن بعض أبحاث عدد من الأطباء المغاربة والأندلسيين على الرغم من أنها كانت من المحظورات التي يعاقب عليها النظام آنذاك[1].

وسنطلع بالتفصيل على جملة من الأطباء المغاربة والأندلسيين الذين كانت لهم اليد الطولى في العلاج ومعرفة خواص الأعشاب ومقاديرها ومنافعها.

و كان الطب الإسلامي القديم قد استمد عناصره الأولى من الطب النبوي الشريف الذي وردت فيه أحاديث كثيرة اهتم بها العلماء وجعلوها قاعدة للعلاج وألفت في الطب النبوي تآليف مفيدة من أهمها: **أربعون حديثا في الطب النبوي** للعلامة **عبد اللطيف البغدادي** (ت629هـ/1231م)[2].

و عندما اختلطت الأمة العربية بشعوب أخرى بعد انتشار الإسلام، أخذ العلماء المسلمون يهتمون بنقل كتب الطب من اليونانية والفارسية ولغات أخرى إلى اللغة العربية وانكبوا على دراستها. ولم يكتفوا بالنقل فقط، بل أضافوا إلى علم الطب إضافات جعلت العرب والمسلمين فيما بعد أساتذة العالم في هذا العلم وفي غيره.فلا ينكر أحد من الدارسين لتاريخ الحضارة الإسلامية تأثير **ابن سينا** (428هـ/1037م) و**ابن طفيل** (581هـ/1185م) و**ابن النفيس** (687هـ/1288م) و**ابن الهيثم** (430هـ/1039م) و**الرازي** (311هـ/923م) وغيرهم في علم الطب وأستاذيتهم للعالم فيه. كما لا ينكر أحد تأثير **ابن رشد** (595هـ/1198م) و**ابن سبعين** (669هـ/1269م) و**ابن باجه** (533هـ/1138م) و**ابن خلدون** (808هـ/1406م) وغيرهم في علم الفلسفة والاجتماع وأستاذيتهم للعالم فيه.

و للتدليل على ما نقول ننظر إلى عدد المخطوطات الطبية التي تزخر بها المكتبات في المغرب الإسلامي والمشرق العربي والمؤلفة في علم الطب بجميع فروعه وأقسامه التي الكثير منها لم ير النور بعد. فنتمنى أن تنهض همة مؤسسات النشر بالعمل على

---

[1] يمكن ذكر طبيب على سبيل المثال هو أبو الحكم عبد الله الباهلي الذي خرج عن المألوف في مسألة الهزل و المجون، أنظر: القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 264، ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص123-124. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص153.

[2] إبراهيم بن مراد، (من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين 6 و7هـ)، مجلة التراث العربي، العدد 19، السنة 5، سنة (1405هـ/1985م)، ص75.

نشرها للدارسين، لأن معرفتنا بتراثنا يجعلنا نكتشف ذاتنا وموقعنا من تاريخ الحضارة الإنسانية وندرك القيمة العلمية لمساهمة علماء المغرب الإسلامي والأندلس في علم الطب ومهنة التطبيب في المشرق العربي خاصة مصر والشام.

و يذكر **الأستاذ المنوني** أن رجالات الطب والصيدلة في ذلك العهد كانوا بكثرة وافرة و منهم الطبيب **أبو بكر يحيى ابن محمد عبد الرحمان بن بقي السلوي** (ت563هـ/1168م) الذي اشتغل بالطب و نبغ فيه، و منهم **الشريف الإدريسي الجغرافي** المشهور الذي ألف في علم الطب كتابه **الجامع لصفات أشتات النبات**، و هو أحد الكتب التي اعتمدها **ابن البيطار** في كتابه **علم النبات**، كما ألف كتابا في الصيدلة[1].

و منهم الطبيب **سعيد الغوماري** الذي عاصر الخليفة **يوسف بن عبد المؤمن** بمراكش، و منهم طبيب كبير من المغرب هو **أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد السلمي** المعروف بالقطب المصري، قتله التتار **بنيسابور** عام (ت618هـ/1221م)، الذي ألف كتبا في الطب و الحكمة منها (شرح الكليات من كتاب القانون لابن سينا).

و لنتأمل إلى وصف شاهد عيان هو **الشيخ عبد الواحد المراكشي**. يصف مستشفى بناه **الخليفة يعقوب المنصور الموحدي** بمدينة مراكش قال: "... و بنى بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله، و ذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، و أمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة و الزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، و أمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار، المشمومات و المأكولات، و أجرى فيها مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف و الحرير و الأديم و غيره بما يزيد على الوصف و يأتي فوق النعت، و أجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام و ما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل و نهار للنوم، من جهاز الصيف و الشتاء، فإذا نقه المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، و إن كان غنيا دفع إليه ماله و ترك و سببه، و لم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كان من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت، و كان في كل جمعة بعد صلاته يركب و يدخله يعود

[1] العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 123.

المرضى و يسال عن أهل بيت، يقول كيف حالكم و كيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج، لم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات رحمه الله"[1].

لكن الذي يجب فهمه هو أن الحكام لم يتساهلوا في مسائل الشرع مع هؤلاء الأطباء إنما كان الواقع غير ذلك حيث لم يخالف هؤلاء ظاهر الشرع و لا مضمونه الحقيقي، فلا يوجد في كل الشرع الإسلامي الذي مصدره القرآن و الحديث النبوي الشريف نصا. يحارب العلوم العقلية أو الفلسفية أو الموسيقى أو أي شيء من هذا النوع إنما الذي حدث هو تفسير الفقهاء للشرع و الفتاوى التي صدرت عنهم و التي لا ترتكز على حقيقة أو قاعدة لها وجودها و ثباتها[2].

و من الجدير ذكره أن الذين قدموا مصر والشام واستقروا في مختلف مدنها وحواضرها أو حتى الذين لم يستقروا كانت لهم معرفة في ميدان العلوم منها الطب عشية وصولهم إلى حيث استقروا في مصر و الشام و كانت جميع معلوماتهم مصدرها المغرب و الأندلس، لأن الأندلس شكلت إحدى القواعد العربية الإسلامية المتطورة في حقل علم الطبابة فقد ظهر فيها أطباء حسنت شهرتهم مثل الطبيب **أبي مروان عبد الملك** بن زهر الأندلسي (464هـ/1072م-557هـ/1162م)[3] الذي عاصر المرابطين والموحدين في الأندلس و عايشهم مبقيا مسافة كافية بينه و بين سياسات كلتا الطائفتين فقد كان رفيع المكانة عند المرابطين هو و أبوه أبو العلاء حتى إنه ألف كتاب **الاقتصاد في إصلاح الأنفس و الأجساد** و يسمى أيضا **الزينة** بطلب من أمير مرابطي، ثم علا شأنه عند الموحدين بعدهم.

كان **بن زهر** من نوابغ الطب و الأدب في الأندلس، وصفه **ابن أبي أصيبعة** بأنه الوزير الحكيم الأديب الحسيب الأصيل. و لم يكن في زمانه اعلم منه بصناعة الطب أخذها عن أبيه و عرف بالحفيد **ابن زهر**، له **الترياق الخمسيني في الطب** و الترياق

---

[1] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص287.

[2] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، نفس الجزء و في نفس المكان. المقري، المصدر السابق، ج2، ص335.

[3] حين ظهر أبو مروان عبد الملك بن زهر طبيبا نظاميا ذاعت شهرته كانت شمس الحضارة العربية في الأندلس، قد بلغت سمتها ثم مالت إلى الانحدار و في الآن ذاته كانت تلك الدولة المتطورة التي مهدت بإنجازاتها العلمية و التقنية والفكرية لنهضة أوروبا في ما بعد قد تفككت إلى دويلات و إمارات يحارب بعضها بعضا، و يستعدي الأمراء ألد أعداء بني قومهم على الملوك و الأمراء الآخرين و أخذت الدولة الإسبانية تتسع من حيث أخذت ساحات دول الطوائف تضيق و تنحسر مع السنين الملأى بأحداث الثورات والحروب.

يشتمل على عناصر متعددة تركب تركيبا صناعيا لتقوية الجسم و حفظ الصحة و التخلص من السموم الحيوانية و النباتية و المعدنية[1].

و صنف **ابن أبي زهر** عددا من الكتب الهامة في ميدان الطب بقيت تعتمد في المغرب و الأندلس و المشرق العربي فترة طويلة من الزمن مثل:

1. كتاب **التيسير في المداواة و التدبير** ألفه **للقاضي أبي الوليد بن رشد.**
2. كتاب **الأغذية** ألفه **لمحمد عبد المؤمن بن علي** أمير الموحدين.
3. كتاب **الزينة** و هو على الأرجح كتاب **الاقتصاد في إصلاح الأنفس و الأجساد.**
4. **تذكرة في أمر الدواء المسهل و كيفية أخذه** ألفه لوالده أبو بكر.
5. مقالة في علل الكلى.
6. **رسالة في علتي البرص و المبهق** كتب بها إلى بعض الأطباء بإشبيلية.
7. **تذكرة** كتبها لابنه **أبو بكر** أول ما تعلق بعلاج الأمراض[2].

و بتعبير آخر هؤلاء الأطباء القادمين من المغرب الإسلامي أبناء بيئة علمية متطورة جاؤوا إلى مصر و الشام على صورة تختلف عما كانت عليه قبل بداية القرن (6هـ/12م).

و على الرغم من ذلك المستوى الرفيع الذي كان عليه بعضهم غداة وصولهم إلى المشرق فإنهم لم يكونوا مجددين في ميدان علم الطب بشكل عام بمعنى أنهم لم يأتوا باكتشاف جديد يمكن اعتباره حديثا على موطنهم الجديد المشرق العربي.

و تأتي أهمية دورهم في هذا الميدان من خلال الخدمات الجليلة التي قدموها للمشارقة في أصعب الظروف و أحوجها إلى الخدمة و الرعاية أيام حكم **صلاح الدين الأيوبي** عندما كان يخوض معاركه التحريرية في حواضر فلسطين و غيرها من مدن الساحل الشامي ضد الصليبيين، وقد قدر لمصر والشام أن تحتضن أنماطا رفيعة المستوى من الأطباء المغاربة والأندلسيين في تلك الفترة من الزمن وتأتي مكانة هؤلاء الأطباء من عدة قنوات واتجاهات[3].

---

[1] ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط2، بيروت 1982م، ج3، ص192.

[2] المقري، المصدر السابق، ج3، ص185.

[3] إكتمال رجب، مكانة ابن السويدي بين أساتذة الطب الدمشقيين، مجلة التراث العربي، العدد 110، السنة الثامنة والعشرون، سنة (1429هـ/2008م)، ص72 وما بعدها.

أولهما: المراكز الطبية التي شغلوها و التي كان لها أثرها الكبير في رفد المشرق بالخبرة و الإطارات الطبية المؤهلة هذا بالإضافة إلى اشتراكهم الفعال في الحرب كأطباء مرافقين في جيش **صلاح الدين الأيوبي** و كأطباء في الداخل و خاصة بمدينة دمشق التي كانت حينذاك محور استقطاب الفعاليات جميعها على كل الأصعدة و الوجوه.

ثانيهما: المؤلفات التي صنفوها في ميادين طبية متنوعة هذا بالإضافة إلى أن أكثر من خمسة منهم توصلوا إلى رئاسة مستشفيات بدمشق والقاهرة و أن أكثرهم عملوا كأطباء رسميين في مستشفيات مصر و الشام و أن عددا غير قليل عملوا كأطباء معتمدين عند الحكام و السلاطين.

و من استعراض أسماء هؤلاء يمكن الوقوف على مساهماتهم بشكل أوضح حيث يمكن الإطلاع على تفاصيل أوفى و أكمل.

نزل اثنان منهم في مصر خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي هذان الطبيبان هما:

فقد كانت الصلة بين المغرب الإسلامي و مصر و الشام في هذا المجال ممتدة قبل فترة البحث بكثير فمثلا وجدنا بعض المراسلات دارت بين الطبيب المصري **نسطاس النصراني**[1] الذي كان معاصرا لحكم **محمد بن طغج الأخشيد**، و بين طبيب من الأندلس هو **خالد بن يزيد بن رومان النصراني**[2] و كانت الرسالة تدور حول استفسار الطبيب المصري حول أمراض البول من الطبيب الأندلسي لاختصاصه في هذا المجال[3].

كما تم تعيين **أبي عبد الله محمد بن عبدون الجبلي القرطبي** للإشراف على مارستان الفسطاط[4]، للعلم أن ابن عبدون هذا كان عالما بالحساب و الهندسة بالإضافة إلى تخصصه في مجال الطب[5].

---

[1] أنظر ترجمته عند إبن جلجل، في طبقات الأطباء و الحكماء، تحقيق: فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، سنة 1955، ص82، القفطي، أخبار العلماء، ص221.

[2] ابن جلجل، المصدر السابق، ص96. بالنثيا أنخل حنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، الطبعة الأولى، ص462.

[3] ابن جلجل، المصدر السابق، ص82. ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص203.

[4] ابن جلجل، المصدر السابق، ص115. المقري، المصدر السابق، ج2، ص351، ج3، ص13. بالنثيا، المرجع السابق، ص461.

[5] المقري، المصدر السابق، ج3، ص13.

كذلك هناك إشارة إلى الشيخ **أبي الحسن علي بن صالح الأندلسي** الذي قدم إلى مصر و كان متخصصا في أمراض العيون الذي بقي بها يعالج الناس إلى أن توفي، فدفن بناحية القرافة[1].

وخلال النصف الأول من القرن (6هـ/12م) نزل إلى مصر **علي بن يقظان السبتي** الطبيب الأديب الشاعر عام (544هـ/1149م)[2]، و **أبو جعفر عمر بن علي القلعي** (ت576هـ/1180م)، حيث كان ماهرا في الأدوية و علاج الأمراض و كتب ملاحظات على كتاب ابن سينا، و كانت وجهة هذا الأخير إلى دمشق التي استقر بها حتى وفاته[3]. كما قدم **أبو العباس الشريشي السلوي** إلى مصر و استقر بمدينة الفيوم و امتهن مهنة الطب بها إلى أن توفي عام (641هـ/1243م)[4]. و نزل إلى مصر كذلك طبيبان هما **علي بن إبراهيم الصقلي** (ت532هـ/1138م) و **أبو العباس أحمد بن محمد البلنسي** الذي كانت له معرفة بعلوم الأوائل إضافة إلى الطب الذي لم يكن محور نشاطه على ما يبدو من رواية السلفي عنه الذي عاصره و عرفه عن قرب بمدينة الإسكندرية[5].

كما وفد إلى مصر الطبيب الأندلسي **يحيى بن إسماعيل البياشي** الذي كان الطبيب الخاص **لصلاح الدين الأيوبي**. و زار مصر كذلك العشاب **احمد بن محمد بن أبي مفرج المعروف بابن الرومية**، ذكره **ابن فرحون** في الديباج المذهب أنه كان "أعجوبة الزمان في عصره، و ما قبله و بعده في معرفة علم النبات، و تمييز العشب و تحليلها و إثبات أعيانها على اختلاف أطوارها بمنابت المشرق و المغرب لا مدافع له في ذلك و لا منازع حجة لا ترد و لا تدفع"[6]، و يبدو أن زيارته لمصر للتعرف على البيئات النباتية والأعشاب والأعشاب الطبية بها و دراستها و تصنيفها.

---

[1] ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص119. المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص480. و اشتهر أبو الحسن علي بن صالح بين الناس بالصلاح و التقوى، فكان قبره من بين المقابر التي خصها أهل الفسطاط بالزيارة للتبرك، بل كان بعضهم يضع من تراب قبره على أعينهم اعتقادا في ذلك أنه سيقيهم أمراض العيون.

[2] مجلة التاريخ المغربي، العدد 6، ص151.

[3] إبن الأبار، التكملة، المصدر السابق، نفس الجزء و الصفحة.

[4] نفس المصدر.

[5] السلفي– معجم السلفي وزارة الثقافة و الفنون– العراق 1978، ص180 وما بعدها.

[6] ابن فرحون، المصدر السابق، ج1، ص191-192.

و كانت فائدة طبيب أندلسي آخر أكثر وضوحا و أهمية هو **أبو الحكم تاج الحكمــاء عبد الله بن المظفر الباهلي** (ت549هــ/1155م)، وهو من أهــل المريــة كــان طبيبــا للبيمارستان الذي كان يحمل في المعسكر السلطاني على أربعين جملا، و قدم دمشق خلال فترة حكم البوريين فاستهوته الإقامة فيها بصورة دائمة وفيها مارس صنعة الطب بــدكان عن باب جيرون يداوي الناس كما هو حال أطباء هذه الأيام ذكره المقري بقوله: "... كان كامل الفضيلة جمع بين الأدب و الحكمة"[1].

و ظهرت فائدة أبي الحكم عند ابنه **محمد بن عبد الله الباهلي** الملقب **بأفضل الدولة** عاش في القرن (6هــ/12م) بشكل أكمل فقد برع في كل العلوم و الفنون التــي عرفهــا والده و تفوق عليه فيها جميعا و خاصة علم الطب الذي كان فيه أحذق أهل زمانــه ممــا جعل نور الدين زنكي يعتمده مسؤولا عن إدارة البيمارستان الذي أنشأه بدمشــق خــلال السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن (6هــ/12م) و اقتصرت مهمته الرئيسية في هذا البيمارستان على مداواة المرضى.

و قد ابتكر نظاما إداريا محكما تجلى بحيث قسم وقته إلى ثلاث في اليوم تبدأ الأولى بزيارة إلى البيمارستان يعود خلالها مرضاه و تبدأ الفترة الثانية بزيارة القلعة حيث الحكام ومعاونيه من كبار رجال الدولة و تبدأ الفترة الثالثة بمغادرة القلعة عائدا إلى البيمارســتان ليقضي فترة كانت تصل إلى ثلاث ساعات يقضيها جالسا في الديوان ينــاقش المشــتغلين بالطب و يدرس المبتدئين و تعتبر هذه الفترة من أهم أوقاته على الإطلاق حيث كان يؤهل خلالها الكوادر الطبية الجديدة و مهمته هذه تشبه إلى حد بعيد مهمات أطباء مستشــفيات الجامعات الحالية[2].

و قد اشتغل عدد من الأطباء المغاربة و الأندلسيين مع صلاح الدين الأيوبي في كل من مصر والشام وظهرت لديهم مهارات متعددة فجمعوا بين التأليف والتطبيب ومن هنــا تبرز أهميتهم المتميزة منهم:

موسى القرطبي أبو عمران الذي برع في الفلسفة إلى جانب الطب الأمر الذي لم ير فيــه صلاح الدين الأيوبي مانعا من اعتماده طبيبا له و رئيسا لأطبائه بمصر و كــذلك الأمــر

---

[1] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 264. المقري، المصدر السابق، ج2، ص233. ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص123-124. العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ج2، ص236.

[2] الصدفي، الوافي بالوفيات، المصدر السابق، ج4، ص34.

بالنسبة لابنه **علي بن موسى القرطبي**، الذي تجلى دوره الفعال في ميدان التأليف الذي احتوى بعض البحوث الجديدة مثل المقالة التي ألفها في **البواسير و علاجها** و مقالة في **تدبير الصحة** وضعها للملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي و **مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة**. إضافة إلى ذلك فقد ألف كتابين الأول سماه **اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس** و هو على ما يبدو لا يتعدى كونه تلخيصا مبسطا لا جديد فيه والثاني كتاب **شرح العقار** والشرح يأتي بفوائد أكثر من التلخيص و من هنا تتجلى فائدة هذا الكتاب[1] وقد عاصر صلاح الدين طبيب بدمشق كانت له يد بيضاء في ميدان المداواة والتأليف هذا الطبيب هو:

عمر بن علي البذوخ (ت576هـ/1180م) الذي كتب عدة مؤلفات أهمها **الحواشي على كتاب القانون لابن سينا**. وجاءت أهمية دور هذا الطبيب من أنه جمع بين الطب والصيدلة حيث كان يحضر الدواء بنفسه[2] وعند صلاح الدين أيضا اشتغل طبيب حاذق هو:

عبد المنعم الجلياني (ت603هـ/1207م) من جليانة بالأندلس انتقل بين مصر ودمشق مدح صلاح الدين الأيوبي في قصائد أشهرها (المديحات) و اقتصرت مهمته بصورة كلية على رئاسة البيمارستان السلطاني في السفر و الحضر و دليل معرفته الأكيدة في ميدان الطب و تفوقه فيه أن كل الذين ترجموا له لقبوه **بحكيم الزمان**، كما كان يأكل من عمل يده، فكان له دكان بمدينة دمشق يمارس فيه مهنة الطب والمداواة[3]، وامتاز عن بقية الأطباء الآخرين بتضلعه وبرعايته في علم الكحالة (طب العيون)، كما امتاز بمعرفة علم الكيمياء[4]، أما مؤلفاته الطبية فكانت قليلة جدا، لا تعدو كونها عبارة عن تعاليق متفرقة ومتنوعة في مجالي الطب والأدوية المركبة[5].

و قاد مسيرة الطب بمدينة حلب أيام حكم غازي بن صلاح الدين الأيوبي الطبيب الأندلسي:

---

[1] ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق، ج3، ص194-195.

[2] نفس المصدر، ج2 ، ص157.

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد 2، ص157.

[4] ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق، ج2، ص157. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص35. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد 2، ص157. المقري، المصدر السابق، ج3، ص392.

[5] ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق، ج2، ص161. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص36.

أبو الحجاج يوسف الأندلسي الذي أشتهر بالتدريس كما جعله الملك **غازي الأيوبي** من أطبائه المقربين، و قد ألف كتابا سماه **ترتيب الأغذية اللطيفة و الكثيفة** و ضمنه بعض شروح أبقراط[1].

و جاءت أهمية دور طبيب آخر بمدينة حلب من أنه ابتنى مركزا لتدريس الطب على حسابه الخاص هو **يوسف بن يحي السبتي** المعروف **بابن سمعون** (ت623هـ/1227م)[2] و كان يعمل كطبيب خاص للحاكم و أعوانه و كان له إطلاع واسع في علوم الرياضيات يقول عنه صاحب كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء و كان معاصرا له و ملازما له بصورة دائمة: "... و عاش شيئا من علوم الرياضة و أجادها وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة"[3]، و بقي هذا الطبيب يمارس العلوم الطبية في مدينة حلب حتى وفاته[4].

و خلال فترة حكم الملك الأيوبي أشتهر أندلسي بالطب هو:

إبراهيم بن موسى القرطبي و تأتي و أهميته من كونه اعتمد لرئاسة أطباء الملك الكامل هذا بالإضافة إلى أنه عرف كطبيب رئيسي من أطباء البيمارستان بالقاهرة و ذكر **ابن أبي أصيبعة** أنه شاهده بالقاهرة سنة (631هـ/1234م) و كان من ذوي المعرفة الرفيعة في ميدان الطب[5].

و في مصر أيضا توصل إلى رئاسة أطبائها أوائل القرن (8هـ/14م) الطبيب **أحمد المغربي الإشبيلي** الذي لا يعرف عنه الشيء الكثير مما جعل كل قول عن دوره في ميدان الطب لا يصل إلى درجة الثقة المقبولة و إن كان المنصب الذي شغله كرئيس للأطباء يدل دلالة واضحة على مدى أهميته في مجال علم الطبابة[6] و أسهم طبيب مغربي مغربي آخر بالقاهرة في مجال تدريس الطب و المداواة في البيمارستان **هو محمد بن**

---

[1] نفس المصدر، ج3، ص195.

[2] أحمد عيسى، ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط2، بيروت 1982، ص125.

[3] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص257.

[4] نفس المصدر، ص258.

[5] عيون الأنبياء، ص469 وما بعدها.

[6] نفس المصدر، ص152 وما بعدها.

محمد المعروف **بابن القويع التونسي** الذي قيل عنه: "و إن ذكر في الطب فجالينوس ما يجالس أنسه و ابن زهر كف نور هذا من ذاك..."[1].

و بمدينة القاهرة أيضا لمع نجم طبيبين من المغاربة على صعيد العلم و الأهلية والمناصب التي وصلا إليها و هما **شهاب الدين أحمد بن المغربي** الذي ترأس أطباء القاهرة و عالج الناس فترة من الزمن[2]، لكن الأكثر شهرة كان **ابنه إبراهيم بن أحمد المعروف بابن المغربي جمال الدين** رئيس الأطباء بالديار المصرية الذي لا شك أنه لم يصل إلى مرتبة رئيس الأطباء إلا بتفوقه و تميزه بعلمه و على الرغم من أنه نال شهرة عريضة كرئيس للأطباء و طبيب للسلطان فإنه لم يشتهر بالتأليف و التدريس و اقتصرت **فائدته** على قلة من الناس تمثلت في حاشية السلطان و كان مثله على صعيد الفائدة والمرتبة **صلاح الدين يوسف بن محمد** المعروف أيضا **بابن المغربي** الذي ترأس أطباء مدينة القاهرة بعد جمال الدين الأنف الذكر و حل محله في مداواة السلطان و حاشيته[3].

و ساهم في مداواة العيون و أمراضها في ناحية سنباط المصرية و هو أحد الأطباء المغاربة الذين عرفوا ببراعتهم في علم الكحالة.

و هكذا فإنه و من خلال ما جاء حول الأطباء المغاربة و الأندلسيين حتى الآن يمكن القول أن إسهاماتهم كانت فعالة و كبيرة قدموا من خلالها خدمات معتبرة للمجتمع من خلال تدريسهم العلوم الطبية فتخرج عليهم كثيرون من أطباء مصر و الشام و بقية المشرق العربي عرفوا و اشتهروا فيما بعد أمثال **مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم** و هو تلميذ الطبيب الأندلسي **محمد بن أبي الحكم أبو المجد** و كان أحد أطباء البيمارستان النوري البارزين بدمشق و الذي بقي فيه حتى وفاته سنة (599هـ/1213م) و مما يدل على براعته مؤلفه المسمى كتاب **الأدوية المفردة**[4] هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء

---

[1] الصدفي، الوافي بالوفيات، المصدر السابق، ج5، ص314 وما بعدها. المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي، ج1، ص20.

[2] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، قسم1، ص249. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، دار التحرير للطبع و النشر، القاهرة، ج1، ص101. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص239-240.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص321.

[4] ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق، ج2، ص190-191.

هؤلاء الأطباء المغاربة قاموا بمرافقة الجيش في كثير من الأحيان. فقد حظي عند صلاح الدين الأيوبي طبيب أندلسي آخر هو:

يحي البياسي الملقب بأمين الدين: بعد أن ترك الأندلس، وصل إلى مصر و استقر فيها مدة قصيرة من الزمن توجه بعدها إلى مدينة دمشق و استقر فيها بشكل نهائي و اشتهر في هذا العلم أكثر من أي علم آخر، فعلا شأنه كطبيب ماهر مما جعل صلاح الدين الأيوبي يعتمده في قائمة أطبائه الرئيسيين الذين رافقوه في أثناء غيابه عن مدينة دمشق لمحاربة الصليبيين و قد استعفى من هذه المهمة ليعود إلى دمشق و يستقر فيها يعمل في مجال اختصاصه بالإضافة إلى أنه بقي يتقاضى راتبا كان خصصه له صلاح الدين الأيوبي كما تميز أيضا بمعرفته البصيرة بالعلوم الرياضية و الهندسة و النجارة[1] و هناك طبيب آخر هو ابن إمام المالكية بدمشق:

الطبيب **برهان الدين علي بن علوش المغربي:** من مواليد دمشق و أطلق عليه اسم **منصور بن علي المغربي** المعروف **بناصر الدين،** نال معرفة عريضة و دقيقة في علم الطب لكنه توفي في مقتبل العمر قبل أن يمارس عمله كالذين سبقوه و كانت وفاته سنة (617هـ/1221م) بدمشق حيث دفن في مقابر سفح فاسيون[2].

و هناك الطبيب **محمد بن إبراهيم المعروف بالكلي** و الملقب **بشمس الدين** و هو من الأندلس جاء إلى دمشق و أقام بها إلى حين وفاته سنة (675هـ/1277م)[3] و في دمشق بدأ حياته العلمية بدراسة الطب و الاهتمام به فدرس على مشاهير الأطباء منهم **مهذب الدين عبد الرحمن ابن علي،** فكان يلازمه بصورة دائمة و على يديه أتقن علوم الطب القديمة و قد بالغ في دراستها و تعمق فيها حتى حفظ كتاب القانون **لابن سينا** عن ظهر قلب فقلت شهرته كطبيب بارع في مدينة دمشق الأمر الذي جعل **الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبي** يعتمده في قائمة أطبائه الخاصين حتى وفاة الملك المذكور، لينتقل بعد ذلك للخدمة في البيمارستان النوري الذي ظل يتردد عليه لمعالجة المرضى فترة لا بأس بها[4].

---

[1] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص213.

[2] أبو شامة، الذيل على الروضتين، نشرة عزت العطار الحسيني، الطبعة الأولى، دار الجليل، بيروت 1947، ص121.

[3] اليونيني (موسى بن محمد)، ذيل مرآة الزمان، ط1، مجلس دئرة المعارف الإسلامية، طبقة حيدر أباد الدكن، 1960م، مجلد3، ص193.

[4] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص263. اليونيني (موسى بن محمد)، المرجع السابق، مجلد3، ص194.

كما عرفت دمشق اثنين من الأطباء الأندلسيين المغاربة هما:

الطبيب **جمال الدين الزواوي** (ت684هـ/1284م)[1] كان طبيبا متمكنا لكن شهرته في ميدان القضاء كانت أكثر منها في الطب.

و الطبيب **ياسين عبد الله المغربي** الذي يعرف عنه أنه كان جراحا ماهرا قرب باب الجابية بدمشق.

لقد كانت المدرسة الطبية اللبودية بدمشق حكرا على هذين الطبيبين المغربين لعشرات السنين[2].

و انتقل كذلك الطبيب **حسين بن يوسف الأنصاري** من مدينة ألمرية بالأندلس إلى دمشق سنة (790هـ/1388م)، اشتغل منذ نشأته بدراسة الطب و من دمشق توجه إلى مصر وبقي يعمل في هذا التخصص حتى وفاته[3].

ثم الطبيب **تقي الدين بن برهان الدين الحكيم المغربي** الذي استطاع أن يجمع بين العلوم الدينية والطبية على حد سواء فقد اشتغل كفقيه على مذهب الإمام الشافعي حتى وفاة والده فتحول إلى دراسة الطب فنجح فيه فتمكن أن يصبح رئيسا للأطباء في مدينة دمشق كما أصبح الطبيب الرئيسي الذي يتولى معالجة المرض من الحكام و أكابر رجال الدولة الذين كان على رأسهم حاكم دمشق المملوكي **قجماس الإسحاقي الظاهري** و كانت وفاة هذا الطبيب سنة 887هـ/1482م فدفن بمقبرة الباب الصغير[4].

و **أبو الفضل المشدالي** الذي انتقل إلى مصر سنة (849هـ/1445م) حيث سبقته إليها شهرته العلمية و أتاحت له السلطات المصرية، تولي التدريس في أهم المدارس و خاصة في الأزهر الشريف، و لم تلبث أن توثقت الصلة بين **المشدالي** و مؤرخ مصر **محمد بن عبد الرحمن السخاوي** حيث قال في كتابه الضوء اللامع: "... و قد حصلت بيننا اجتماعات و صحبة..."[5]. كان إعجاب **السخاوي بالمشدالي** إعجابا فاق كل حد قولا وعملا، فأشار إلى خبرة **المشدالي** بالطب و تواضعه مع الناس كما عمل على تهيئة سبل

---

1 نفس المرجع، ج4، ص239.

2 Louis pauzet, maghrébines damas aux XIII siècle, discutes orientales tome XXVIII fime, 1975, p177-178.

3 السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص131. المقري، المصدر السابق، ج2، ص597. إبن سعيد، الفتح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت 1980، ص181.

4 مفاكهة الخلافة في حوادث الزمان، قسم1، ص56. الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص411.

5 السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص149.

الالتقاء بين **المشدالي** و أستاذه و شيخه **ابن حجر**، روى **السخاوي** قائلا: "... و أراد الله أن مرض الإمام **ابن حجر** بأمراض منها ضيق النفس... طال مرضه فذكر لـــه الكمـــال والشرف **ابن العطار** بأنه يتعين أن ينظره **المشدالي** ليشخص مرضه و ينظر علاجه، فإنه في الطب واحد عصره و فريد دهره... فطلبه... فعاده يوم الأحد منتصــف ذي الحجـــة وهو في أشد المرض فابتهج به ابتهاجا و عظمه تعظيما كبيرا"[1].

خلف **المشدالي** مدرسة واسعة ليست في مصر فحسب، بل و في الشام كذلك لأنه انتقــل إلى دمشق و بيت المقدس و ألقى الدروس هناك كذلك و توفي هذا العــالم الجليــل ســنة (864هـ/1460م).

في الحقيقة لم تشهد بلاد الشام و مصر في القرنين (3-4هـ/9-10م) مــا شـــهدته بقية العواصم الإسلامية من إزدهار في العلوم الطبية و مباحثها فــالقرن الثالـــث كـــادت تستأثر بمظاهر الازدهار في بغداد عن سواها نتيجة نشاط بيت الحكمة فيها[2].

أما القرن (4هـ/10م) فقدت عمت مظاهر الازدهار عواصـــم أخـــرى و خاصــة قرطبة والقيروان و بجاية و القرويين في بلاد المغرب و قد شهدت تلك الحركة العلميــة تقلصا.

و في القرن (5هـ/11م) قد شمل -ماعدا بلاد الأندلس- معظم البلاد الإسلامية ثـــم استعادتا في القرنيين (6-7هـ/12-13م) مدها كأشد ما تكون ليس من حيث عدد الأطباء الممارسين فحسب بل من حيث تنظيم المهنة و كثرة المؤسســـات الإستشــفائية وأحكـــام الإشراف عليها و تسييرها.

و أصبحت مدينة دمشق مقصودة يشد إليها الأطباء الرحال و هي ظاهرة تدل علـــى المنزلة التي كانت تتميز بها عن سواها من البلاد الإسلامية في نظر الأطباء من الحكـــام في بلاد الشام فقط بل بسبب رخاء العيش فيها.

لقد كانت هجرة الأطباء إلى بلاد الشام قوية بالقياس إلـــى ذلـــك العصـــر و نظـــرا لظروف الحرب التي كانت البلاد تمر بها و قد كانت الهجرة السرية إليها من أصقاع شتى و خاصة من بلاد المغـــرب و الأندلس.

---

1 السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص155.

2 البابا، محمد زهير، (المدرسة الطبية الدمشقية في ظل البيمارستان النوري)، مجلـــة المناضـــل، العـــدد 126، عـــام 1971م، دمشق، ص699 وما بعدها.

هؤلاء الأطباء قد هاجروا إلى بلاد الشام و خاصة إلى دمشق و قد كانت هجرة معظمهم في القرن (6هـ/12م)، وكانت إقامة جلهم نهائية و خاصة في دمشق والقاهرة والإسكندرية، لقد حظي الأطباء والطب عامة بمنزلة رفيعة في بلاد الشام في القرنيين (6-7هـ/12-13م) و نال من الثناء هذا على الدور المهم الذي كان للملوك والأمراء الأيوبيين و من أهم أصحاب الدلائل على رفعة تلك المنزلة:

1. استصحاب الملوك الأطباء و اصطفاؤهم لخدمتهم.
2. اهتمام أمراء الأقاليم باستصحاب الأطباء أيضا.
3. تقليد الأطباء الوزارة من طرف الملوك و الأمراء.
4. كثرة عدد الأطباء مما خلق بيئة علمية حقيقية تزدهر في حيزها العلوم الطبية.

و يمكن القول أنهم كانوا صورة صادقة لحكامهم الزنكيين و الأيوبيين الذين جمعوا بين الدعوة للعلم و تشجيعه و بين السياسة الناجحة و الخبرة في الإدارة و الحرب، لقد أخذوا بأسباب التقدم و البحث عن كل نافع و مفيد للإنسانية و للدين في وقت واحد.

ب) إسهاماتهم في ميدان علوم الصيدلة

لقد اختلف الأمر في ميدان الصيدلانية عنه في ميدان علوم الطب فالأمر هنا كان أكثر جدة و حداثة و عمقا على صعيد المجتمع العربي في المشرق فقد وجد من بين الصيادلة المغاربة و الأندلسيين من كان له السبق في اكتشاف العديد من العقاقير و المواد الدوائية التي لم تكن معروفة بالمشرق العربي كله و لم يذكرها أحد من قبل.

و حمل عبء نقل المعارف الصيدلانية عدد من المغاربة و الأندلسيين مثل:

الطبيب **عمر بن علي البذوخ القلعي** عاش بدمشق حتى وفاته سنة (576هـ/1181م)[1].

وهو نموذج للطبيب الذي جمع ما بين الطب و الصيدلة، واقتصر عمل هذا الطبيب على مداواة العامة من الناس على خلاف ما كانوا يقومون به الآخرين من الأطباء في العمل بالمستشفيات الحكومية أو العمل عند الحكام و رجال الدولة. فكان له دكان خاص في مدينة دمشق يعالج فيها المرضى.

و كانت جميع أدويته من صنعه و تحضيره بحيث كان يعطي مريضه ما يحتاجه من دواء بشكل مباشر، يقول عنه **ابن أبي أصيبعة** أنه: "كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة

---

[1] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص155.

يصنعها من المعاجين والأقراص و السفوفات وغير ذلك" و كان يدعم خبرته بصورة مستمرة من خلال الإطلاع على كتب الطب والصيدلة والتحقق من صحة ما ورد فيها ومناقشته و التعليق عليه حتى كتب عدة مؤلفات طبية كان من أهمها **الحواشي** على قانون **ابن سينا**[1]، و أقام صيدلاني آخر مدة ثلاث سنوات في المشرق العربي أمضاها متنقلا بين القاهرة و الإسكندرية و مكة و بغداد هو:

أحمد بن محمد الإشبيلي و يعرف **بابن الرومية** و قد قيل عنه أنه عجيبة عصره في حقل علم النبات و معرفة تركيب الأدوية ،لكن حظ المشرق لم يكن كبيرا من علمه أو بالأحرى يكاد يكون معدوما فقد انكب خلال وجوده بالمشرق على دراسة الحديث و ما إلى ذلك والقليل من وقته أمضاه بالبحث عن الأعشاب و معرفة خواصها الدوائية ما كان منها غير موجود في المغرب العربي و حدث أكثر ذلك بمدينة الإسكندرية[2]. انه كان يتمتع بميزتين لم تجتمعا معا و بهذا القدر من الوضوح عند غيره من العشابين أو الأطباء في الأندلس أو في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية[3].

أولى هاتين الميزتين انه كان عالما بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى فهو يعشق المعرفة و يتحرى أسبابها و يجري ورائها، فهو حريص على ذلك في كل الأوقات.

و الميزة الثانية التي تمتع بها **ابن الرومية** و فاق فيها نظراءه من العشابين، فإنها تتجلى في حرصه على تحلية النباتات أي وصفها وصفا علميا و في دقته في هذا الوصف... و قد تستنفذه التحلية للنبتة الواحدة حتى يكاد لا يبقى زيادة لمستزيد[4].

لم يستقر في القاهرة طويلا ثم توجه إلى دمشق التي استقر فيها إلى أن لقي ربه، بعد أن صنف أكبر موسوعة عربية في بابها الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية، والطريف أنه كان قد اعتذر شاكرا تكريما بذله له صاحب مصر و الشام الملك العادل بأن يقيم عنده و يكون طبيبا و رئيسا[5].

---

[1] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص157.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق، مجلد1، ص207.

[3] فاضل السباعي، (الصيدلاني الأندلسي أبو العباس النباتي **ابن الرومية**)، مجلة التراث العربي، العدد 30، السنة 8، سنة (1408هـ/1988م)، ص54 وما بعدها.

[4] نفس المصدر، مجلد1، ص208-213.

[5] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص601. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص112 -114.

و لعل أكبر الأدوار الفعالة هو دور الصيدلي: **ضياء الدين أبو أحمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي** الذي يعرف **بابن البيطار** (ت646هـ/1249م)[1]، وقد توفق على الجميع بخبرته الصيدلانية و الدوائية التي حصلها من خلال مشاهداته الكثيرة في بلاد الروم و المغرب و بلاد الإغريق و من خلال لقاءاته مع صيادلة و علماء هذه البلدان فكان يعرف النبات بصورة مباشرة على الأرض و البيئة التي ينمو و يعيش فيها فبلغ بذلك حدا قارب من الكمال و المعرفة المطلقة في هذا الميدان في عصره يقول عنه **ابن أبي أصيبعة:** "و أول اجتماعي به كان بدمشق سنة (633هـ/1235م) و لقد شاهدت معه ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه و قرأت عليه... و كان أحضر لنا من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس و الغافقي فكنت أراجع تلك الكتب معه و لا أجده يغادر شيئا مما فيها..."[2].

و يعتبر ابن البيطار هذا ثورة عربية في ميدان علم الدواء و الصيدلة فقد أظهر براعته و تعمقه فيه من خلال كتابه الجليل **الموسوم بالجامع في الأدوية المفردة** و الذي يقول عنه **ابن أصيبعة:** "و قد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة و أسمائها و تحريرها وقواها و منافعها و بين الصحيح منها و ما وقع الاشتباه فيه"[3]، و هو أكمل ما ألفه العرب في هذا الحقل و أكثره تفصيلا، فقد اعتمد في تأليفه على كتب ما سبقه من العرب واليونان و زاد عليهم بثلاثمائة مادة دوائية لم يشر إليها أحد قبله[4] و له مؤلفات أخرى جيدة مثل: **المغني في الأدوية المفردة** وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء الآلمة وتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فقط لا من ناحية التاريخ الطبيعي[5] وله كتاب **الأفعال الغريبة والخواص العجيبة** وكتاب **الإبانة والإعلام** بما في المنهاج من الخلل والأوهام.

---

[1] محمد أمين الميداني، (ابن البيطار)، مجلة التراث العربي، العددان 25-26، السنة 7، عام (1986-1987م)، دمشق، ص65 وما بعدها.

[2] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج1، ص121.

[3] نفس المصدر، ج1، ص133.

[4] بلانثيا (آنخل جنثالت)، تاريخ الفكر الأندلسي، ص479.

[5] نفس المرجع، ص479. ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص133.

و في نظر أحد المستشرقين هو الطبيب العربي الوحيد الذي وقف حياته لدراسة علم النبات[1].

و لم تقتصر علوم ابن البيطار على النبات و الأعشاب بل شملت الطب و الصيدلة أيضا، و فاقت شهرته على جميع الصيادلة في القرون الوسطى[2].

أما في مصر فقد اتصل **ابن البيطار** بالملك **الكامل الأيوبي**[3]، الذي كان يحكم مصر و دمشق[4]، واعتمد الملك الكامل على هذا العالم في الأدوية و الحشائش و جعله مقدما في أيامه و حظيا عنده[5] فسلمة حوالي (628هـ/1230م) منصب رئيس العشابين و أصحاب البسطات في الديار المصرية[6]، كما جعله رئيسا للأطباء في مصر[7]، و كان تفاني هذا العالم في خدمة الملك الأيوبي و إخلاصه لذكراه دافعا له ليبقى في خدمة ابنه الملك الصالح **نجم الدين أيوب**[8] بعد وفاة أبيه، فكان حظيا مقربا عنده في الوقت الذي عرف فيه فيه **ابن البيطار** و ذاع صيته و اشتهر شهرة كبيرة في المشرق و المغرب و من مؤلفاته:

---

[1] لوسيان لوكير، دراسة تاريخية عن إبن البيطار، مقالة منشورة في المجلة الأسيوية الصادرة باللغة الفرنسية، حزيران1826م، ص437.

Leclerc lucien, etude historique et philologique sur EBN Bettar journal asiatique, juin 1826, p437

[2] جلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، منشورات دار الرائد، بيروت 1967م، ص273.

[3] هو محمد بن محمد بن أيوب من سلاطين الدولة الأيوبية ولد بمصر و تولى حكمها بعد وفاة أبيه 615هـ/1217م، وامتدت حدود الدولة الأيوبية أيام حكمه لتصل إلى ديار الشام كما دخل إبنه (الملك المسعود) سنة 620هـ/1222م مكة المكرمة و قد توفي الملك الكامل في دمشق عام 635هـ/1238م و دفن في قلعتها، راجع الزركلي (خير الدين)، كتاب الأعلام ، ط3، دمشق، بلاثا، ج7، ص225.

[4] أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية و معجم الأسر الحاكمة منشورات دار المعارف بمصر عام 1972م، ج1، ص142.

[5] الكتبي، المصدر السابق، ص434. وهو ذيل على كتاب وفيات الأعيان لإبن خلكان، حققه وضبطه وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر 1951م.

[6] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، الباب14.

[7] أرنست سيكينيرجر، النباتات المصرية لابن البيطار، مقالة منشورة في مجلة المعهد المصري الصادرة باللغة الفرنسية، ج2، رقم10، العام 1889م، ص3.

Bulletin de l'institut égyptienne ،les plantes égyptiennes d'ibn beither،Sickenberger Ernest deuxième série n° 10 année 1889 deuxième partie page 3 ،

[8] هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب من كبار ملوك أيوب في مصر، ولد في القاهرة عام 603هـ/1246م، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه عام 635هـ/1238م، مات الملك الصالح بالمنصورة في مصر عام 647هـ/1246م، وقد عرف بالشجاعة و الحزم أيام حكمه، راجع: الزركلي، الأعلام، ج1، ص382.

- الجامع في الأدوية.
- المغنى في الأدوية المفردة.
- الأفعال الغريبة و الخواص العجيبة.
- الإبانة و الإعلام بما في المنهاج من الخلل و الأوهام.

و لم يظهر من بين المغاربة و الأندلسيين غير هؤلاء الصيادلة ما يمكن ذكره على أنه أفاد و أسهم في علم الصيدلة بمصر و بلاد الشام خلال الفترة المتبقية من العصور الوسطى موضوع هذا البحث.

ج) في ميدان الهندسة

إن الحقيقة التي لا بد من التنويه بها أن نزلاء مصر و بلاد الشام مغاربة و أندلسيين خلال فترة هذا البحث لم يتركوا آثارا هندسية كتابية أو عملية يمكن الوقوف عندها على الرغم من أن علم الهندسة لم يكن ممنوعا في المشرق العربي كله كما الحال بالنسبة لبعض العلوم الأخرى كالفلسفة و لا يعود ذلك إلى قصور عقلي أو عدم معرفة بهذا العلم.

فالأندلس كانت في بداية فترة هذا البحث قد تطورت و ارتقت إلى أعلى المستويات على صعيد العلم مثل الهندسة التي تشهد عليها آثار الأندلس الباقية حتى أيامنا هذه من قصور و جوامع و مدن و غير ذلك و يعود السبب الرئيسي على أغلب الظن إلى عدم الاهتمام و التركيز على هذا العلم من قبل الأندلسيين و المغاربة أنفسهم. و على الرغم من ذلك فقد ظهرت عند بعضهم بوادر طيبة أسفرت عن بعض الابتكارات التي لم يقدر لها أن تتطور و تنتشر مما جعل فوائدها غير فعالة و لا ذات تأثير في الحياة العلمية مثال هذه الابتكارات تجسد بصنع عدة آلات هندسية صححها الطبيب المغربي **يحي البياسي** و أهداها لأستاذه **ابن النقاش**[1].

و قد ذكر **ابن أبي أصيبعة** أن الطبيب **محمد بن عبد الله الباهلي** كانت له يد طولى في مجال الهندسة و الفلك لكنه لم يذكر أنه ألف أو ابتكر شيئا يتعلق بأي نوع من أنواع الهندسة و هو ما يذهب إليه أيضا الصدفي[2].

---

[1] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص163.

[2] الصدفي، المصدر السابق، ج4، ص24.

و أما ما عدا ذلك فلا يوجد في كل تاريخ هذه الفترة مـا يـدل علـى أن مغاربـة وأندلسيين كانت لهم عناية بعلم الهندسة و بالتالي نسبت إليهم ابتكارات و بحوث جديدة ما عدا المغربي **السموأل بن يحي** الذي ألف كتابا أسماه إعجاز المهندسين.

د) في ميدان الرياضيات و الفلك

أما في ميدان الرياضيات و الفلك فلم يكن بين المغاربة و الأندلسـيين مـن يمكـن تصنيفه بشكل مستقل على أنه متفرغ لهذين العلمين أو على الأقل عمل فيهمـا باسـتثناء اثنان منهم.

و أن الذي حدث أنه وجد من يعرف الرياضيات و الفلك لكن من وجد منهم لم يعمل في هذا المجال و تمثل أكثرهم بالأطباء الذين ذكروا بهذا البحث بالإضافة إلى بعض الذين جمعوا بين العلوم النظرية و العقلية مثل **أمية بن أبي الصلت** (ت528هـ/1134م)، فقـد كان يجيد معرفة الهيئة و النجوم و الطبيعيات و الرياضيات و الإلهيات و الموسيقى[1].

و الوحيد الذي ألف بين المغاربة و الأندلسيين في حقل الرياضيات هو **السموأل بن يحي المغربي** (ت476هـ/1181م)، حيث برع في العلوم الرياضية فبلغ فـي العـدديات مبلغا لم يصله أحد في زمانه و خاصة في علم الجبر.

و له مؤلف في الحساب أسماه **القوافي في الحساب** و ينقل بعضهم قوله في إحـدى رسائله المكتوبة بخطه أنه يذكر أن مصنفاته بلغت خمسة وثمانين مصنفا فـي الحسـاب والجبر والهندسة والنجوم والطب والأدب[2]، أما في ميدان الفلك والنجوم فقد ألف فيه **ابـن أبي حجله التلمساني** كتابا واحدا سماه **النهر في أعمدة البحر**[3].

هـ) في ميدان الكيمياء

لقد كان علم الكيمياء أقل اهتماما من جميع العلوم العقلية والنظرية على حد سـواء فلم يلق أي تيار فكري خلال كل هذه الفترة من المعارضـة مـا لاقـاه علـم الكيميـاء والمشتغلين فيه، و قد يبدو للوهلة الأولى أن المعارضة لم تكن ضد علم الكيمياء بقدر مـا

---

[1] السيوطي، حسن المحاضرة، المصدر السابق، ج1، ص539.

[2] الصدفي، المصدر السابق، ج15، ص453-454.

[3] حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2، طبعة نيويورك 1964، ص312.

كانت ضد الكيمياء التي يشتغل أصحابها في مسائل السحر والشعوذة و ما إلى ذلك من الأعمال التي تستند إلى معرفة معلومات وطرق خاصة لتؤدي بالنتيجة إلى القيام بمهمة معينة يتوهم المرء أنها حقيقة واقعة، لكن الذي حدث على أرض الواقع كان غير ذلك تماما أي أن الحملة المعارضة كانت موجهة ضد الكيمياء باستثناء فروع بسيطة منها مثل تركيب الأدوية و مزجها مع أن الأمر كان تابعا لحرفة الطب.

و الأمثلة كثيرة في هذا المضمار و منها على سبيل المثال، أن دار الخلافة في بغداد هي التي بدأت الحملة ضد الكيمياء و كان ذلك في مستهل القرن (6هـ/12م) عندما عبرت بصورة بشعة و شنيعة تدعو للحزن والأسى من جهة و للسخرية لعدم المعرفة والجهل من جهة أخرى ذلك أن الخليفة أمر بقتل الكيميائي **أبو علي المغربي** (ت506هـ/1113م) نزيل بغداد الذي اشتهر في بداية عهده و لفترة طويلة بالزهد والتصوف ثم غير مسار حياته و قرر الاشتغال في ميدان الكيمياء فطلب إلى دار الخلافة و انقطع خبره و لم يعد حتى يومنا هذا حيث لا يحتاج الأمر إلى الكثير من التفكير حول ما آل إليه الأمر الذي لا شك أنه صفي جسديا و قضي على إطار علمي كان من الجدير بمن يقوم بشؤون الخلافة و تدبير أمور الحكم أن يشجعه ماديا و معنويا على اعتباره مهتما بتقدم شعبه و أمته.

و في بلاد الشام توج نور الدين زنكي فاتحة الحملة القاسية ضد الكيمياء والكيميائيين في أوائل النصف الثاني من القرن (6هـ/12م)، ففي رواية **العماد** للكاتب **الأصفهاني** ينقلها **النعيمي** في كتابه **الدارس في تاريخ المدارس** تبين بوضوح هذا الواقع المرير الذي لا يعبر عنه إلا بالجهل و ضعف النظر، يقول **النعيمي:** "... و في سنة سبع و ستين و خمسمائة قال العامل الكاتب في شهر رجب فوض إلي **نور الدين** المدرسة التي عند حمام القصر* و هي التي منذ قدمت دمشق فيها ساكن و كان فيها الإمام الكبير **ابن عبد** و قد استفاد من علمه كل عبد و حر، فتوفي و خلف ولدين استمرا فيها على رسم

---

* هذه المدرسة هي العمادية داخل باب الفرج و الفراديس لصيق المدرسة الدماغية من الجنوب بناها الخضر بن شبل نور الدين محمود زنكي برسم خطيب دمشق أبي البركات إبن عبد الحارش و يقال لها العمادية نسبة للعماد الكاتب الأصفهاني لإمامته الطويلة فيها، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص406-407.

الوالد و درسا بها فخدعهما مغربي بالكيمياء فلزماه و التقيا به و أغنياه و غاظ **نور الدين** ذلك فأحضرهما و وبخهما و رتبني فيها مدرسا و ناظرا"[1].

و وصل الأمر إلى حد الرعب و الذعر عند معظم من كانت لهم اهتمامات بالكيمياء خلال هذه الفترة، و دليل ذلك أن **ابن عربي** المتصوف المشهور صاحب مـذهب وحـدة الوجود الذي عبر من خلال مذهبه على شجاعة فائقة عندما تحدى جميع الفقهاء الجهلة فلم يلتفت إلى الحملة التي قادوها ضده سواء كان ذلك على صعيد الشعب أم علـى صـعيد الحكم، على الرغم من ذلك أن المسألة تمس العقيدة الدينية بصورة مباشرة فإنه لم يتجـرأ على العمل في ميدان الكيمياء أو على الأقل الاهتمام في أحد مواضيعها المختلفة الجوانب و هو الذي صرح في عدة مواضع بقوله: "أعرف الاسم الأعظم و أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب"[2]، فلا يستبعد أن **ابن عربي** و هو العالم المتنور أنه كان يعرف بصورة أكيدة أنه فيما لو تقدم على تجسيد معلوماته الكيميائية إلى حقائق ملموسة و مفيدة حيث عاش في فترة كان للفقهاء فيها الدور الأكبر في تاريخ قيادة المجتمع.

و لم يتطور الأمر إلى الأفضل بمرور عشرات السنين بقدر ما تطور إلى الأسـوأ وإذا لم يكن قد حدث ذلك فإن الحال ظلت كما هي من ضغط و تضييق على الكيميـائيين أو من له علاقة أو اتصال بهم عن قصد أو غير قصد، فقد حدث أن وجد في حوزة **علي الـدوادار** بالقاهرة سنة (745هـ/1345م) صندوق فيه أواني من الخزف تشبه الجرار أو القوارير، و ختمت القوارير تحت إشراف الأطباء فإذا هي سـموم قاتلـة فجـيء **بعلـي الدوادار** و عذب كثيرا حتى اعترف بأن المزين المغربي الذي أقامـه السـلطان رئيسـا للجرائحية ركب ذلك و هو الذي خصصه السلطان عنده بعمل السموم و صناعة الكيمياء بمساعدة شخص آخر اسمه **أقسنقر الرومي** الذي كثيرا ما كان يجلب الحشائش من الشام لتركيبها بحضرة السلطان[3].

و لعل بعضهم يقول: أنه يستنتج من هذه الحادثة أن الحكام لم يمنعوا جميعا أعمـال الكيمياء أن هذا القول صحيح من الناحية الظاهرية لكن الحقيقة أن هذا الموضوع ما كان ليسمح به لو أن أحدا غير السلطان أمر به كونه يخدم مصالح السلطان مباشرة و حيث لا

---

[1] النعيمي الدمشقي، المصدر السابق، ص411.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، حيدر أباد الدكن 1359م، ص171.

[3] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، قسم3، ص716.

يتعدى تركيب مادة سامة قاتلة كثيرا ما كانت تستخدم فـــي القضـــاء علـــى المعارضـــين والأعداء.

2 -في ميدان العلوم النظرية

أ) في ميدان الفلسفة و علم الاجتماع

إن الذي يمكن قوله في مستهل الحديث عن إسهامات المغاربة و الأندلسيين في حقل الفلسفة و علم الاجتماع خلال فترة هذا البحث أن العرب المسلمين في العصور الوســطى لم تلق الفلسفة أدنى اهتمام أو رعاية من قبل الأندلسيين و المغاربة نزلاء مصر و الشـــام إلا نادر الأوقات ذلك على الرغم من وجود استعداد لدى بعضهم.

و يعود السبب في ذلك إلى النظرة الحذرة لهذا النوع من العلوم و تــتلخص هــذه النظرة بأن الفلسفة بدعة موجهة ضد الشرع و التعاليم الإسلامية لا يجوز في أي حال من الأحوال السماح بتدريسها[1].

ففي زمن **نور الدين زنكي** اعتبرت الفلسفة علما هداما يجب محاربته و استئصـــال جذوره من الأساس كونه يقوم على الجدل و المناقشة الأمر الذي يـــنعكس ســـلبيا علـــى الوحدة المذهبية و السياسية و بالتالي فإنه يؤدي إلى حالة من الضعف و الانهيـــار أمـــام الغزاة، لذلك فليس غريبا أن يتصدى **نور الدين زنكي** لهذا العلم و هو الذي حارب علمـــا أقل ضررا و تأثيرا منه و هو علم الكيمياء مما أدى إلى عدم الاهتمـــام بتطـــويره هـــو الآخر[2]، و توج **صلاح الدين الأيوبي** كرهه للفلسفة و رجالها بأن أقدم على قتل الفيلسوف **السهروردي** صاحب كتاب **حكمة الإشراق** فعبر بذلك عن رأيه للفلسفة.

و إذا كان خلفاؤه من الأيوبيين قد اتسموا ببعض التسامح فـــي هـــذا المجـــال فـــإن الفلاسفة لم يظهروا في عهدهم أيضا لأن هذا التسامح لم يقابله تسامح أو انفتاح من قبـــل رجال الدين و الفقهاء الذين كانوا مصدر كل بادرة مضادة للفلسفة مثال ذلك مـــا يـــذكره **النعيمي الدمشقي** في كتابه **الدارس في تاريخ المدارس** عن **تقي الدين بن الصلاح** أنـــه: "كان لا يمكن أحدا في دمشق من قراءة المنطق و الفلسفة و الملوك تطيعه في ذلك"[3].

---

[1] محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص55. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص20 وما بعدها.

[2] ابن شداد، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية، ص10.

[3] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص20-21.محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص55 وما بعدها.

و بقي أمر الفلسفة من الأمور الممنوعة خلال فترة البحث التي أعقبت حكم الأيوبيين و هي فترة حكم المماليك مثال ذلك أن **ابن عربي** الذي لم يكن فيلسوفا بالمعنى الدقيق قد حوربت مؤلفاته بشكل أو بآخر فكيف لو كانت بالفلسفة البحتة.

هذا ما كان في مصر و بلاد الشام فماذا على الجانب الآخر المتمثل بالمغرب والأندلس.

إن المغاربة و الأندلسيين أبناء بيئة لم تعرف التسامح مع رجال الفلسفة كونهم بمذهب مالك الذي يشدد على رفض الجدل على حساب الشرع و السنة ففي رواية **لابن سعيد** ينقلها **المقري** في **نفح الطيب** يظهر من خلالها هذا الواقع المحزن يقول: "و أما الفلسفة و هو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره فلذلك تخفى تصانيفه"[1].

و قد ظل الفكر الفلسفي صورة مطابقة لما هو عليه في المشرق العربي دون أن يتأثر بالتراث المحلي فكانت القرون الثلاثة الأولى في الأندلس من أحلك الأزمنة والأوقات بالنسبة للعلوم الرياضية و الفلسفية التي ظل تقدمها يسير ببطء شديد جدا و كانت المشقة الأكبر بالنسبة لكل من يتعاطى البحث في الطبيعة و ما وراءها، وتحسنت الأمور قليلا خلال فترة حكم دول الطوائف عندما عم التسامح بعض الشيء مع أنه عمها الانقسام والضعف[2].

و إن نظرة موضوعية على موقف الحكام من علم الفلسفة و رجالها تمكن من الإستنتاج بسهولة أن العلة لم تكن متجسدة بالحكام بقدر ما كانت متجسدة ببعض أشباه الفقهاء الذين عملوا بكل ما أوتوا من قوة حجة و استخدموا ما ملكوا من قوة إقناع و تأثير على تحريض باسم الدين و الوحدة المذهبية و السياسية لمنع رجال الفلسفة من تطوير علمهم من أجل أن يظلوا محافظين على مكانتهم لدى الحكام من جهة أخرى و كل من يقول أنهم انطلقوا من الغيرة على الصالح العام يكون قد جانب الحقيقة و ابتعد عن الواقع و دليل ذلك أنه ليس في تاريخ الإسلام ما يدل على أن الفلاسفة وقفوا ضد الدين أو بالأحرى أرادوا من خلال كتاباتهم ذر بذور الفرقة و الشتات بين فئات الشعب أو أنهم وقفوا إلى جانب الغزاة و الأعداء.

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج3، ص186، و ج2، ص221، حيث يورد أن المشتغل بالفلسفة يسمى زنديقا.

[2] بلانثيا، المرجع السابق، ص325-332.

و حتى لا يظلم الحكام و لا سيما الزنكيون و الأيوبيين فليس أحق من القول أنهم قصدوا من وراء محاربة الفلسفة فعليا المحافظة على الوحدة المذهبية و السياسية و ذلك للتمكن من الوقوف بقوة و صلابة في وجه الأعداء الخارجيين الصليبيين لكن أشباه بعض الفقهاء الذين أشعلوا نار الحرب على رجال الفلسفة لم يكونوا حريصين على ذلك بقدر ما كانوا حريصين على مصالحهم الخاصة.

و مهما كانت صورة الواقع و حقيقته فقد اتفقت آراء الفريقين المشرقي و المغربي على اتخاذ موقف موحد معاد للتيارات الفلسفية مما حال دون ظهور فلاسفة مغاربة وأندلسيين في المشرق العربي كله يمكن تصنيفهم بصورة مستقلة كما هو الحال بالنسبة لرجال العلوم الأخرى و على الرغم من هذا الجو المفعم بالرهبة و القسوة فإنه ظهر بعض من كانت لهم اهتمامات بسيطة بالفلسفة أو عندهم قابلية للاشتغال فيها و لم يستطيعوا فعل شيء خشية العاقبة.

و كان في مقدمة هؤلاء **محمد بن عتيق القيرواني المغربي** نزيل بغداد (ت513هـ/1119م) حيث يبدو أن عصره عرف بعض التسامح خاصة بمدينة بغداد العريقة بعلومها و تقدمها الحضاري وقد تمثل دور الفيلسوف الإيجابي بأن قام بتدريس مادة علم الكلام بالمدرسة النظامية هذا العلم الذي بدأ بتدريسه من سنة (443هـ/1052م) على حد رواية السلفي الذي قابل هذا الفيلسوف بمدرسته بالإسكندرية حيث درس عنده[1]، و استطاع بعضهم أن يؤلف في علم الكلام و تمر العاقبة بسلام إنما يبدو مؤلفاته لم تكن من الخطورة التي يستحق العقوبة عليها كما هو حال **أبو عبد الله محمد بن مسلم الصقلي** نزيل الإسكندرية الذي صنف كتاب **البيان** و هو شرح لكتاب **البرهان** و كتاب **المهاد** وهو شرح لكتاب **الإرشاد**[2] و كان مثله تقريبا **محمد بن مالك النحوي** الذي اشتهر عنه معرفته الكبيرة في العلوم الفلسفية فألف فيها كتابا سماه **مقدمة المنطق**[3].

---

[1] سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزأوغلي)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، القسم الأول، الجزء8، طبعة حيدر أباد الدكن، 1952، ص75-76. ابن الجزري، المصدر السابق، ج2، ص195. الصدفي، المصدر السابق، ج4، ص79. الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص428.

[2] ابن مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الطبعة الأولى، دار الكاتب العربي، بيروت، 1349هـ، ص125.

[3] الصدفي، المصدر السابق، ج1، ص205.

و ذكر **السخاوي** أن **عبد الله بن حجام المغربي** (ت701هـ/1302م) قد ألف في المنطق لكنه لم يسم هذه المؤلفات[1].

و قد وجد من المغاربة و الأندلسيين من اشتهر بعلمه الأكيد بالفلسفة لكنه لم يؤلف فيها مثل **علاء الدين علي بن محمد الباجي** نزيل القاهرة (ت714هـ/1315م) الذي قيل عنه أنه كان أنظر أهل زمانه في المنطق[2] و غيره كثيرون حيث لم يتجاوزوا معرفتهم بالمنطق دون التأليف أو التدريس.

أما الشق الثاني من العلوم الفلسفية و هو **علم الاجتماع** فإنه من الممكن القول أن علم الاجتماع بهذه التسمية لم يكن معروفا و بالتالي لم يكن ممنوعا و كيف يمنع و هو غير معروف بصورة لها قواعدها و أسسها الواضحة و لم يؤلف أو يشتغل فيه أحد من المغاربة و الأندلسيين سوى **ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن** (ت808هـ/1406م) الذي وضع فيه كتابا لم يكن مستقلا بذاته بل كان **مقدمة** لكتابه التاريخي المسمى **العبر**.

و تبحث هذه المقدمة في **طبيعة العمران** و يشمل ذلك جميع النشاطات البشرية على الأرض و تعود شهرة **ابن خلدون** في الحقيقة إلى هذه المقدمة التي لم يكن ليشتهر إلى هذه الدرجة لولاها فقد شغلت الكثير من العلماء في المشرق و المغرب و لاسيما في العصر الحديث و المعاصر فوضعوا لها دراسات و تفاسير متعددة و مازالت مستمرة حتى يومنا هذا و ربما تستمر في المستقبل و يمكن القول أنه لم يؤلف خلال كل العصور الوسطى و في شتى النواحي الفكرية و العلمية كتابا أو مؤلفا كان له هذا التأثير و تلك الأهمية حتى اشتغل الناس فيه و أشغلهم مثل مقدمة **ابن خلدون**.

و ربما يكون سبب ذلك أن هذه المقدمة كانت جديدة في مضمونها و منهاجها وبالتالي فهي مبتكرة لم يعتمد فيها **ابن خلدون** على علوم أو مؤلفات أخرى و يعتبر بذلك أول عالم عربي في حقل علم الاجتماع الإنساني وضع نظرية علمية فيه و على الرغم من بعده الزمني عن عصرنا فإنه أتى بآراء سبق فيها **أوغست كونت** و غيره من علماء الاجتماع في أوروبا أو الذين ظهروا إلى وقت قريب.

---

[1] السخاوي (محمد بن عبد الرحمان)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، نشر طرابزونل الحسني، القاهرة 1979م، ج1، ص310-311.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، المصدر السابق، ج1، ص544.

و لعل خير ما قيل في مقدمة **ابن خلدون** و مدى تأثرها في ميدان علم الاجتمـــاع وبالتالي قيمة هذا التأثير العلمية ما ورد على لسان **المقريزي** الذي يقول مبينا إنفراد هــذه المقدمة في موضوعها و مضمونها: "مقدمته لم يعمل مثلها و إنه لعزيز أن ينال مجتهــد منالها إذ هي زبدة العارف و العلم و نتيجة العقول السليمة... "[1].

و شاركه في هذا المعنى من المعاصرين الدكتور **علي الوردي** الذي يقول: "... ولو لم يكن في الحضارة الإسلامية غير هذا الرجل* لكفاها فخرا ناهيك به فيلسوفا يبدع علما لم يستطع الفكر البشري أن يبدأ به إلا بعد تطور استمر خمسة قرون"[2].

ب) إسهامات الأندلسيين والمغاربة في مجال الدراسات التاريخية

كما كان الحال بالنسبة لإسهامات المغاربة والأندلسيين لكثير من العلوم، فإن الــذين اهتموا بالتصنيف التاريخي كانوا قلة ومعظمهم لم يكن التاريخ اختصاصــهم الوحيــد، و هؤلاء اقتفوا في مؤلفاتهم الأساليب المتبعة في المشرق العربــي مثــل **التــاريخ العــام، والتراجم، وتاريخ المدن** ....الخ.

ونجحوا إلى حد بعيد في معظم هذه المؤلفات التي أخذ منها المشارقة الكثيــر مــن المعلومات ودونوها في كتبهم و مؤلفاتهم، و نستطيع أن نقول بأنه لا يكاد يخلــو مؤلفــاً تاريخيا بعد القرن (7هـ/13م) من معلومات عن المؤرخين المغاربة و الأندلسيين بمصر والشام، و لتتضح الصورة أكثر لابد من دراسة كل مؤرخ منهم منفصلاً عن الآخر حسب التسلسل الزمني و نركز على ذكر مؤلفاتهم، و أهم من أخذ منها المــؤرخين المشــارقة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر[3].

1 -محمد بن أحمد كمال الدين القرطبي: اشتهر كمحدث بمدينة **قنا** بمصــر، ويــذكر **الصفدي** أنه كانت له وجاهة ورئاسة، وكان مبجلا عند الجميع[4].

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص147.

* يقصد بالرجل ابن خلدون.

[2] علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته طبعة الشركة التونسية للتوزيع، 1977، ص223.

[3] محمد عبد الله عنان، (كتب تأثرت بمقدمة ابن خلدون)، مجلة العربي، العدد 182، سنة 1974م، وزارة الثقافة، الكويت، ص187-189.

[4] الصدفي، المصدر السابق، ج2، ص139-194.

2 -**اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني:** وصل إلى مصر سنة (560هـ/1165م) فاحتضنه صلاح الذين الأيوبي، وحفه برعايته بصورة مميزة عن أقرانه فألف له كتاباً في التاريخ سماه **المعرب في أخبار محاسن أهل المغرب** و يقول الجزري عنه في كتابه **غاية النهاية في طبقات القراء:** "رأيت التاريخ المذكور وفيه أوهام، وليس بكثير على مثل هذا الرجل، ولا يظن بمثله ذلك"[1] يبدو من خلال هذا قول أن **اليسع** أراد بهذا الكتاب أن يلفت إليه اهتمام **صلاح الذين الأيوبي**، لنيل اهتمامه به، نقل عنه **ابن أبي أصبيعة** في كتابه **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** الشيء الكثير عن ترجمة الأطباء الأندلسيين[2].

ويمكن أن **صلاح الدين** هو الذي كلفه بتأليف هذا الكتاب عن المغرب و ليهتدى به لضم المغرب للمشرق تحت سلطانه لأنه كان قد أرسل قواته بقيادة **قرقوش** فسيطرت على جميع أنحاء ليبيا تقريباً[3]، وهذا الاحتمال الذي أميل إليه لأن الكتاب ألف خلال فترة قصيرة جداً وربما أراد **صلاح الدين** العمل على إعادة اللحمة بين جناحي الوطن العربي من جديد في الوقت الذي كان يتعرض لضغوطات صليبية في المشرق والمغرب.

3- **محمد بن أيوب الأنصاري:** صنف كتاباً **لصلاح الدين الأيوبي** عن أخبار المغرب ويتضح بأن **صلاح الدين** كان مهتماً جداً بالبحث عند أصول المغاربة ودولهم وملوكهم، هذا الكتاب نقل عنه **ابن خلكان** في **وفيات الأعيان**[4] وقال بأن هذا الكتاب كان يرسم لسفرائه إلى تلك البلاد خططاً دقيقة في استقراء أحوال البلاد سياسياً واقتصاديا واجتماعيا، والتعرف على أوضاع أهلها وعاداتهم وأخلاقهم ومختلف نواحي حياتهم[5] وكان على علم بانزعاج الموحدين من قيام دولة غير الدولة الفاطمية بمصر[6].

4- **عمر بن الحسين أبو الخطاب الشهير بابن دحية الكلبي:** (ت633هـ/1236م) فقد ألف كتابين في التاريخ ظلت تناقلهما أيدي المؤرخين وتنقل عنهما ومازالت متداولة حتى يومنا هذا، وعند وصوله إلى المشرق العربي توقف قليلاً بمدينة دمشق، ثم انتقل إلى

---

1 غاية النهاية في طبقات القراء، ج2، ص385-386. ابن سعيد (علي)، المصدر السابق، ج2، ص88.

2 ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص79-80-84. الجريدة، ج3، صفحات439-433-438 وغيرها.

3 الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص53.

4 الذهبي، المصدر السابق، ج3، ص53.

5 ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص .

6 الشبيبي (محمد رضا)، أدب المغاربة والأندلسيين، ط(2)، دار اقرأ، بيروت 1984، ص37.

مدينة **أربيل** سنة (604هـ/1208م) فوجد ملكها **مظفر الدين زين الدين** يعتني بالمولد النبوي الشريف، فكتب له كتاباً سماه **التنوير في مولد السراج المنير**، ويقول **ابن كثير** عن هذا الكتاب: "وكتبت منه أشياء حسنة"[1]، ولعل الكتاب الذي اشتهر به **ابن دحية** في المشرق العربي هو الكتاب **النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس** الذي ألفه بمصر للملك **كمال الأيوبي** وبقي هذا الكتاب إلى وقتنا الحاضر[2] وله أهمية كبيرة في دراسة الحالة السياسية للدولة العباسية[3]، نقل **المقريزي** عن هذا الكتاب خبراً يتعلق ببعض أخبار الدولة الطولونية بمصر، فيقول: قال **أبو الخطاب بن دحية** في كتاب **النبراس:** "وخربت قطائع أحمد بن طولون، يعني في الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر، وهلك جميع من كان بها من الساكنين، وكانت نيفاً على مائة ألف دار نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين»[4].

5- جلال الدين مكرم بن أبي الخزرجي الباجي: هذا المؤرخ لم يذكره سوى **ابن سعيد،** الذي قال عنه كتب كتاباً في التاريخ **كالكامل** وهو تذييل على كتاب **الكامل في التاريخ لابن الأثير** بالاشتراك مع شخص مصري هو **عبد الطاهر الأعمى**، لكن هذا الكتاب لم يذكر ولم يشتهر[5].

6- الطبيب الأندلسي عبد المنعم الجلياني[6]: ألف كتاب في التاريخ سماه **منادح الممادح وروضة المأثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر صلاح الدين،** قدمه **لصلاح الدين الأيوبي**، الذي كان يعمل عنده كطبيب مرافق له، هذا الكتاب يدور حول تدوين سيرة **صلاح الدين** التي عرفها **الجلياني** عن قرب ولم نجد له اثر في كتابات المؤرخين المشارقة.

1-ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص144.

[2] طبع المرة الأولى سنة 1949، بتحقيق وتعليق عباس العزاوي في بغداد.

[3] إسماعيل البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول، 1951م، ج1، ص786. عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول و التركمان، بغداد 1957، ص59-60.

[4] المقريزي (أحمد بن علي)، الخطط المسماة المواعظ و الاعتبار، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص326. أنظر أيضاً ص489 حيث ينقل عنه خبراً أخر.

[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة، ج6، ص322.

[6] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص161.

7- **علي بن سعيد المغربي:** ألف عدة كتب حول المشرق والمغرب مثل **المشرق في حلى المشرق** شبه بكتاب **المغرب في حلى المغرب** وكتاب آخر **القدح المعلى في التاريخ المحلى** يحتوي هذا الكتاب على تراجم شعراء أندلسيين في عصره، كما ألف كتاب آخر **رايات المبرزين وغايات المميزين**[1] ألف الكتاب **لجمال الدين بن يغمور**، نقل عن **ابن سعيد** الكثير من المشارقة، وفي مقدمتهم، **القلقشندي** صاحب كتاب **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**[2].

كما نقل عنه أخبار تاريخية عن حكام مكة وملوكها قبل الإسلام وهي مدونة في كتاب **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** الذي يعتبر جزءاً من كتاب **القدح المعلى في التاريخ المحلى**، يقول **ابن سعيد:** "وجرهم هذه هم الذين بعث إليهم إسماعيل، وتزوج فيهم، وكانت قبلهم جرهم أخرى مع عاد"[3]، كما نقل عنه معلومات عن تاريخ اليمن قبل ظهور الإسلام وبعده[4] وكذلك أخذ عنه أخبار عن تاريخ مناطق سيواس و أماسية وهرقلة وقونية، و قيسارية[5].

و أخذ عنه **الأدفوي** تراجم بعض العلماء في منطقة قوص بمصر، مثل **عبد الرحمان بن عبد الوهاب القوصي**، الذي قال عنه **الأدفوي** في كتابه **الطالع السعيد في تاريخ الصعيد:** "وذكره **ابن سعيد** وقال: لم يزل يصحب ولاة قوص، ويكتب عنهم ويمدهم، وله رسالة في حريق خان السلطان بقوص من أعجب الرسائل، ثم انتقل إلى القاهرة، واشتهر بها إلى أن ستوزره الملك المظفر صاحب حماة ..."[6]، واعتمد المؤرخ **السيوطي** على معلومات **ابن سعيد** في كتابيه **بغية الوعاة** و **حسن المحاضرة**، ففي **بغية الوعاة** يذكر أخذ بعض المعلومات عن كتاب **المعرب في حلى المغرب** منها ما كان حول النحوي **محمد بن ابي موسى البياسي**، الذي يقول عنه ابن سعيد: "هو من أهل المائة السادسة من حسنات

---

[1] ابن سعيد (علي)، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت1970م، صفحات16-17-20-23.

[2] ابن سعيد، المصدر السابق، ص23.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص249. ابن سعيد، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، عمان الجامعة الأردنية 1982م، ج1، ص31.

[4] القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص296-298. ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص93.

[5] نفس المصدر، صفحات322-323-367-371-471.

[6] الأدفوي (كمال أبو الفضل جعفر ابن ثعلب بن جعفر)، الطالع السعيد في تاريخ الصعيد، جمع و تصحيح أمين عبد العزيز، المطبعة الجمالية، مصر، 1914، ص288.

بياسة في علوم العربية ... "[1]، ومنها ما نقله عن ترجمة ابن سعيد **لمحمد بن عياض اللبلي** الذي قال فيه: "كان نحوياً أديباً، تصدر للأقراء بقرطبة، وله المقامة المشهورة بالدوحية..."[2]، أما في كتاب **حسن المحاضرة** فقد نقل عنه تعريفه لمصطلح السلطنة يقول: "ذكر علي بن سعيد، أن الاصطلاح، ألا تطلق هذه التسمية، إلا على من يكون في ولايته ملوك... "[3].

وأخذ عن كتاب **المشرق في حلى المشرق** لابن سعيد المؤرخ **ابن شاكر الكتبي** خبرين الأول يتعلق بسيرة **علي بن الحسين العقيلي** وقسماً من شعره[4]، والثاني قوله في الكاتب الأديب على **بن محمد القليوبي** يذكر **ابن شاكر الكتبي،** قال بن سعيد المغربي القليوبي: "إن نصف لم يفضل عليه ابن المعتز"[5].

8- أمية بن أبي الصلت: نقل عن هذا الكتاب عدداً لا بأس به من مؤرخي المشرق فقد نقل عنه ابن مماتي صاحب كتاب **قوانين الدواوين** خبراً تاريخيا قصيراً عن بعض آثار مصر القديمة **البرابي**[6] واستهل الخبر بعبارة، قال أبو الصلت: "طول كل عمود ثلاثمائة وسبعة عشر ذراعاً، ويحيط بها أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع و كل ضلع أربعمائة وستون ذراعاً"[7] وأخذ عنه **العماد الأصفهاني** صاحب جريدة **القصر** وجريدة **العصر** تراجم كاملة لشعراء، كان **أمية بن أبي الصلت،** قد إلتقاهم بمصر خلال فترة إقامته فيها خلال الثلث الأول من القرن (6هـ/12م)، مثل الشاعر **أبو الحسن علي بن جعفر البوير المغربي،** الذي انتقل إلى مصر وأقام بها.

ويستهل **الأصفهاني** الحديث بعبارة، وذكره **أمية بن أبي الصلت** في رسالته وقال: "لم يقبل الأفضل على أحد من الشعراء كإقباله على رجل من أهل معرة النعمان يدعى أبا الحسن علي بن جعفر بن البوير، فإنه أفاض عليه سحائب إحسانه وأدر عليه حلوبة

---

[1] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص103.

[2] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص204.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص125.

[4] ابن شاكر، فوات الوفيات، المصدر السابق، ج2، ص99 وما بعدها.

[5] المصدر السابق، ج1، ص139.

[6] البرابي، المقصود فيها السلات المصرية الشهيرة.

[7] ابن مماتي (أسعد بن المذهب بن أبي هليج)، تحقيق: عزيز سوريا (عطية)، الجمعية الزراعية الملكية، قوانين الدواوين، مصر 1943م، ص80.

أنعامه، ولقبه بأمين الملك وأدناه وأستخلصه، ولست أعرف أحداً من أهل تلك البلاد يروي له بيتاً واحدً فما فوقه لمنافرة الطبع كلامه ونبو الإسماع عن طريقته"[1]، و أخذ عنه ترجمة كاملة **لجرجس** الفيلسوف الأنطاكي، الذي ذكره **أمية بن أبي الصلت** عند ترجمته للطبيب **أبي الخير سلامة بن رحمون** قال: "وكان بمصر طبيب من أنطاكية جرجس وتلقب بالفيلسوف على نحو ما قيل في الغراب أبو البيضاء... وقد تفرغ للتولع به، يعني **بابن رحمون** و الأزراء عليه..."[2].

كما نقل عنه المؤرخ **القفطي** صاحب كتاب **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** ترجمة الطبيب **سلامة بن رحمون**، فيذكر، قال أبو الصلت: "وأنبه من رأيت منهم، يعني أطباء مصر، وأدخلهم في عداد الأطباء رجل يدعى **أبو الخير سلامة بن رحمون...**"[3]، ونقل عنه نفس الخبر ابن أبي أصبيعة صاحب كتاب **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**[4]، ونجد المؤرخ المصري **المقريزي** ينقل عنه خبراً طريفاً عن الأهرام، كان قد سجله أمية بن أبي الصلت الأندلسي في رسالته، حيث جاء فيها: "إلا انه يظهر من أمرهم، أنه كان فيهم طائفة من ذوي المعارف والعلوم، وخصوصاً علم الهندسة والنجوم، ويدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالأهرام والبرابي، فإنها من الآثار، التي حيرت الأذهان الثاقبة، و إستعجزت الأفكار الراجحة، وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكر فيها..."[5] ونقل عنه معلومات أخرى عن مدينة منف فقال، وقال **أبو الصلت أمية أبن عبد عبد العزيز الأندلسي**: "... وكانت دار الملك بمصر في قديم الدهر مدينة منف،وهي في غربي النيل على مسافة أثني عشر ميلاً من الفسطاط ..."[6].

9- عبد الله بن البيطار المغربي: هو من نزلاء المشرق العربي واشتهرت كتاباته في ناحية معينة من نواحي التاريخ تتعلق بتاريخ الطب والصيدلة مثل كتاب **الأدوية المفردة** الذي نقل عنه الكثير من المشارقة مثل: المؤرخ الأديب النويري، في كتابه **نهاية**

---

[1] العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق 1959م، ج2، ص121.

[2] نفس المصدر، ج2، ص177-185.

[3] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص209-210.

[4] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج2، ص176-177.

[5] المقريزي، الخطط، ج1، ص118.

[6] المقريزي، الخطط، المصدر السابق، ج1، ص35.

الأرب في فنون الأدب حيث اعتمد عليه في تبيان كثير من خصائص عدد من النباتات الدوائية.

فقد أخذ عنه قوله في نبات الأذريون، الذي قدم له النويري بما يلي: وقال عنه ابن البيطار في جامعه "إنه نوار ذهبي في وسطه رأس صغير أسود و اسمه بالفارسية آذركون ومعناه لون النار"[1] كما أخذ عنه في مواضع أخرى معلومات في مسائل كثيرة مثل الملك وغيره[2].

ونقل السيوطي عن ابن البيطار تصنيفه لألوان الورد، فيذكر أن ابن البيطار قال في مفرداته: "الورد أصناف، أحمر، وأبيض، و أصفر، أسود..."[3].

كما نقل عنه البدري صاحب كتاب **نزهة الأنام في محاسن الشام** عدداً من الأخبار، التي تبين الخواص الدوائية لعدد من النباتات[4] و نجد بعض الرحالة المغاربة كانوا قد ألغوا بعض الكتب في المغرب و الأندلس وانتشرت في المشرق العربي خلال هذه الفترة، مثل كتاب عارضة الأحوذي.

10- أبو حامد الغرناطي عبد الله بن عبد الرحيم والقيسي: الذي ألف كتباً ذاع صيتها في المشرق العربي، حيت احتوت مؤلفاته على كثير من المعلومات في ميدان التاريخ الطبيعي وخاصة كتابه **تحفة الألباب** الذي نقل عنه المقريزي في الخطط.

فقد نقل عنه خبرا طويلاً عن أهرامات مصر، التي زارها الغرناطي سنة (511هـ/1118م) الذي يصفها وصفا دقيقاً من خارجها وفي داخلها يصف الفراعنة المحنطين مند زمن طويل[5] وأخذ عنه كذلك خبر عن الأشخاص الطوال الذين شاهدهم أبو أبو حامد الغرناطي في بلغاريا سنة (530هـ/1136م)[6].

---

[1] النويري، نهاية الأدب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1923م، ج11، ص277.

[2] القفطي، المصدر السابق، ص295-299.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص401.

[4] البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، المصدر السابق، ص180 وما بعدها.

[5] المقريزي، الخطط، ج1، ص115-116. وأنظر قوله عن قصر أحد الفراعنة بمدينة منف، ص135.

[6] نفس المصدر، ج1، ص161.

11- يحي بن إسماعيل البياسي: الطبيب الأندلسي الذي اشتهر في ميدان تاريخ الطب ونقل عنه المشارقة مثل ابن أبي أصيبعة الذي نقل عنه خبراً عن بعض العلماء الذين قدموا إلى دمشق في عصره[1].

12- أبو الوليد الطرطوشي: سكن دمشق قبل أن ينتقل إلى الإسكندرية التي جعلها دار مقام أبدي له، بحيث ألف كتابه **سراج الملوك** الذي نقل عنه ابن أبي أصيبعة خبراً حول أحد أطباء مدينة دمشق في القرن (6هـ/12م)، وأسمه البيرودي.

يذكر وقال الطرطوشي في سراج الملوك: "حدثني بعض الشامين، أن رجلاً خبازاً في تنوره بمدينة دمشق إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش، فاشترى منه، وجعل يأكله بالخبز فلما فرغ سقط مغشياً عليه، فنظروا فإذا هو ميت، فجعلوا يتربصون به، ويحملون له الأطباء، فيلتمسون ولائه ومواضع الحياة منه، فلم يجدوا فقضوا بموته وخرجوا إلى الجبانة، فبينما هم في الطريق على باب البلد، فاستقبلهم رجل طبيب يقال له البيرودي .... فاستخبرهم عن ذلك فقصوا عليه قصته، فقال حطوه حتى أراه، فحطوه فجعل يقلبه وينظر في آمارات الحياة، التي يعرفها،ثم فتح فمه وسقاه شيئاً، فإذا الرجل قد فتح عينيه، وتكلم وعاد كما كان إلى حانوته"[2].

13- عبد الواحد المراكشي: الذي هاجر إلى المشرق سنة (613هـ/1217م) حيث أقام في مصر حتى سنة (617هـ/1221م)، ثم غادرها إلى الحجاز، ومنها توجه إلى الشام فبغداد وأثناء تجواله في المشرق التقى وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله فأكرمه ومن اجله ألف كتابه في التاريخ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** فرغ من تأليفه سنة (621هـ/1225م)[3] اقتصر فيه على المغرب والأندلس من سنة (92هـ/711م) إلى سنة (620هـ/1225م) خاصة الجانب السياسي والاقتصادي. وتأتي أهمية هذا الكتاب وخاصة أخبار عصر الموحدين الذي عايشه وعرفه عن قرب على إعتباره كان أحد رجال البلاط الموحدي ومن المؤرخين المشارقة الذين اعتمدوا على هذا الكتاب المؤرخ الذهبي الذي نقل عنه خبراً طويلاً يدور حول سيرة السلطان الموحدي الناصر أبو عبد الله حرب ابن غانية في إفريقية و الأدفنش في العقاب يقول: "قال عبد

---

[1] ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ج3، ص270 وما بعدها.

[2] المصدر السابق، ج3، ص270 وما بعدها.

[3] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص388.

الواحد المراكشي في تاريخه فبلغني أن جملة ما أنفقه في هذه الغزوة مئة وعشرون حمل ذهب ثم دخل الأندلس في سنة ثمان وستمائة فحشد له الأذفنش واستنفر عليه حتى فرنج الشام وقسطنطينية الكبرى وكانت واقعة الموضع المعروف بالعقاب فانكسر المسلمون، وكان الذي أعان على ذلك أن البربر الموحدين لم يسلموا سلاحاً بل جنحوا وانهزموا..."[1] تأليفه لهذا الكتاب عن المغرب والأندلس مما يوحي أن معرفة المشارقة عن المغرب والأندلس كانت ضئيلة.

14- ابن العربي: المتصوف المشهور نزيل دمشق وضع بعض المؤلفات التاريخية مثل الملحمة المنسوبة إليه الذي نقل المقريزي عنها خبراً طويلاً عن القاهرة فاستهل كلامه فقال: قال العارف محي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي في الملحمة المنسوبة إليه: قاهرة تعمر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وتخرب سنة ثمانين وسبعمائة"[2]، وخلال الفترة التي أعقبت نهاية العصر الأيوبي ظهر دور المؤرخين المغاربة والأندلسيين بصورة أجدر بالبحث فظهرت مؤلفات تاريخية فكانت لها أهميتها الكبيرة من حيث دقتها وعلميتها وشموليتها ويبرز في بداية هذه الفترة مؤرخان وصلا إلى مرتبة ممتازة في السلم التاريخي خلال العصور الإسلامية، وكان دورهما فعالاً بحيث نقل كثير من مؤرخي المشرق من كتاباتهما المختلفة وهما:

15- الأول هو محمد بن محمد فتح الدين المعروف بابن سيد الناس: استقر بالقاهرة (ت734هـ/1334م)، وتقرب فيها برجال الدولة فأصبحت له مكانة ممتازة عندهم يقول الصفدي في هذا الصدد: "ما أعرف أحد من الأمراء الكبار والأعيان في الدولة إلا و هو يميل إليه ويجتمع به..."، وتعود شهرته كمؤلف في ميدان التاريخ إلى كتابه، الذي يبحث في سيرة الرسول (ﷺ) والذي سماه **عيون الأثر في فنون الغازي والشمايل والسير** ومختصره **نور العين**[3]، فالأول يبحث في غزوات الرسول (ﷺ) مند بداية الدعوة الإسلامية حتى وفاته، بالإضافة إلى سيرة الرسول (ﷺ) قبل الدعوة وبعدها...الخ، أما مختصره **نور العين** فلم يأخذ شهرة الكتاب الأول.

[1] الذهبي، العبر في خبر من غبر، المصدر السابق، ج3، ص154-155.

[2] المقريزي، الخطط، ج1، ص372.

[3] الصدفي، الوافي بالوفيات، المصدر السابق، ج1، ص292.

و ذكر اليوسفي في كتابه **نزهة الناظر** أن ابن سيد الناس ألف كتاباً أخر سماه **نــور العيون في سيرة الأمين والمأمون** وهو من كتبه المفقودة[1].

لقد نقل كثير من مؤرخي المشرق عن ابن سيد الناس، وهذه الكتب التي أخذوا منها لا يعرف مصدرها مثل ابن شاكر الكتبي الذي نقل عنه دون ذكر أسم المصدر، رغــم أن نقوله كانت في عدة مواضع من كتابه **فوات الوفيات** فقد أخذ عنه مثلاً قوله في ابن تيمية الحراني، الذي أورده على النحو التالي: "قال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بعد أن ذكــر ترجمة شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله وهو الذي حداني على رؤيــة الشــيخ الإمام، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً..."[2]، كما أخذ عنه بعض الأخبار الأخرى مــن التي تأتي أهميتها من أن ابن سيد الناس عاصر أصحابها وعرفهم عن قرب[3].

ونقل كذلك عن ابن سيد الناس المؤرخ الأدفوي خبراً مطولاً عن ابن دقيــق العيــد محمد بن علي دون ذكر اسم المصدر الذي نقل منه بقوله: "وقد ترجم له الأمــام العــالم الأديب المحدث فتح الدين محمد اليعمري، فقال لم أر مثله فيمن رأيت، ولا حملــت عــن أجل منه فيما رأيت ورويت، وكان للعلوم جامعاً وفي فنونها بارعاً، مقدماً في معرفة علل الحديث على أقرانه، متفرداً بهذا الفن النفيس في زمانه بصيراً بذلك، سديد النظر في تلك المسائل..."[4]، وأخذ السيوطي عنه بعض الأخبار وضمنها كتابه **حسن المحاضــرة** مثــال ذلك الخبر الذي قاله في ابن دقيق العيد: "لم أر مثله فمن رأيت ولا حملت عن أجل منــه فيمن رأيت ورويت... "[5] وهو نفس الخبر الذي أورده الأدفوي في **الطالع السعيد**.

وكان آخر من نقل عن ابن سيد الناس المؤرخ الشــوكاني (ت1250هـــ/1851م) الذي يذكر المصدر الذي نقل منه أيضا، وأهمية الأخبار التي نقلها عنه لأنه كان معاصرا لأصحابها. حيث قابلهم وسمع منهم، مثل الخبر الذي يدور حول عبد المؤمن بــن خلــف

---

[1] اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ط1، بيروت 1986، ص216-217.

[2] ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص71.

[3] اليوسفي، المصدر السابق، ص87.

[4] الأدفوي (كمال الدين أبو الفضل جعفر ابن ثعلب بن جعفر)، الطالع السعيد في تاريخ الصعيد، جمعه و صححه أمــين عبد العزيز، المطبعة الجمالية، مصر 1914م، ص569-570. ونظر بعض الأخبار الأخرى التي ينقلها عن ابن ســيد الناس، ص578.

[5] السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص317.

الدمياطي، الذي اشتهر بعلم الحديث ، قال أبن سيد الناس: "سمعته يقول دخلت على جماعة يقرؤون الحديث فمن ذكر عبد الله بن سلام فشدد لامه فقلت سلام عليكم سلام عليكم"[1].

ونقل عنه أيضاً خبرا عن يوسف بن عبد الرحمان الذي، يقول قال ابن سيد الناس في ترجمته: "أنه احفظ الناس للتراجم، وأعلمهم بالرواة من أعارب وأعاجم... "[2] والذي يمكن أن نقوله حول عدم ذكر الذين نقلوا عن ابن سيد الناس مصادر نقلهم، أن هذه النقول، لم تكن قد دونت في مؤلف ما، بل هي أقوال صدرت عن ابن سيد الناس، وتناقلها العلماء عنه، لأنه اشتهر بحفظ تراجم الناس.

16-علم الدين البرزالي: لقد تفوق على جميع المغاربة والأندلسيين الذين سبقوه إلى المشرق العربي أو عاصروه، في مجال صناعة التاريخ، وكانت مؤلفاته في مجملها جديدة المحتوى والمضمون ومن النوعية، حيث كتب عن أحداث وقعت خلال حياته وعن شخصيات كانت له معهم تجربة ومعرفة، بينما نجد معظم الذين سبقوه، كتبوا عن فترات لم يعيشوها ولا عاصروا رجالها، فكانت معلوماتهم نظرية محضة وكادت تكون في مجملها نقلا عن من سبقوه. ومن هنا نلاحظ الفرق الكبير بين التاريخ النظري والتاريخ الحقيقي الأصلي وقد ألف البرزالي كتابين في التاريخ هما: كتابه **التاريخ** الذي ذيل به على أبي شامة المقدسي صاحب كتاب **الروضتين والذيل عليه.**

ويبدأ تاريخ البرزالي بسنة (665هـ/1267م)، حيث انتهى المقدسي، وينتهي عند حوادث سنة (738هـ/1338م)، يقول ابن كثير: "وهذا مأرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي وكتابه الذي ذيل به على تاريخ ابي شامة المقدسي... "[3]، و ذكر ابن حبيب في مقدمة كتابه **المنتقي من درة الأسلاك في تاريخ ملك الأتراك[4].**

وتنبثق أهمية هذا التاريخ من أنه لم يكتب في الفترة التي تلت وفاة صاحبه البرزالي، كتاباً في التاريخ إلا واعتمد صاحبه على تاريخ البرزالي.

---

[1] الشوكاني (محمد بن علي)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة 1348هـ، ج1، ص404.

[2] المصدر السابق، ج1، ص354.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، المصدر السابق، ص183.

[4] ابن حبيب، درة الأسلاك في تاريخ ملك الأتراك مخطوطة في مكتبة عبد الجبار زكار، وهي نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، حوادث سنة 739هـ، ورقة 23.

أما كتاب الثاني الذي صنفه البرزالي فهو الكتاب المعروف باسم **العجم** والذي يدور حول سير وأخبار المشايخ والمدرسين الذين أخذ عنهم علومه ومعارفه في جميع رحلاتــه الطويلة في المشرق العربي،ونهج فيه طريقة مؤلفي كتب التراجم على حروف الهجــاء، وخص كل حرف منها المجلد، وزاد فيه مجلدا خصصه للكنى.

وتبدو أهمية هذا الكتاب البالغة من خلال قول ابن حبيب المدون فــي مقدمــة هــذا الكتاب، وهو عبارة عن مجموعة شعرية، بلغت أكثر من عشرين بيتاً منها:

يا طالباً نعت الشيوخ وما رأوا ورووا على التفصيل والإجمال
دار الحديث أنزال تجد ما تبتغي بارزا في معجم البرزالــــي[1]

وهكذا فإنه من الممكن إعتبار البرزالي من أهم مؤرخي العصور الوسطى على نظام الحوليات، هذا النظام الذي اعتمده في تأليف تاريخه السالف الذكر أو على نظام التــراجم الذي اعتمد في تأليف كتابة المعجم و شكل هذا الكتاب مصدرا غنيا، أخذ عنه عدد كبيــر من المؤرخين المشارقة خاصة ما بعد النصف الأول من القرن (8هــ/14م).

كان في مقدمة من نقل عن البرزالي المؤرخ المشرقي ابن كثير الدمشقي صـــاحب كتاب البداية والنهاية فقد قام هذا المؤرخ باختصار وتلخيص كتاب التاريخ للبرزالي، حتى وصل إلى سنة (736هــ/1335م) وقد ذكر ذلك بصراحة بقوله: "وهذا أخر مـــا أرخـــه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الــدين أبي شامة المقدسي وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء مـــن تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأخيرة سنة (751هــ/1350م) أحســـن الله خاتمتهما"[2]، وعلى الرغم من أنه قام بتلخيص تاريخ البرزالي فإنه جاء على ذكره في عدة مواضيع من الكتاب وربما يعود سبب ذلك إلى أن طبيعة الخبر كانت تحتـــاج إلـــى هــذا التنويه الذي يضفي عليه مزيدا من الثقة والتصديق ولاسيما أن البرزالي هو القائل مثـــل ذلك أنه ذكر اسمه صراحة في حوادث سنة (698هــ/1299م) حيث نقــل خبــرا عــن قازان.[3] وذكر في حوادث سنة (701هــ/1302م) في سياق حديثه عن أمر عجيب حدث

---

[1] درة الأسلاك، حوادث سنة 739هــ، ورقة 23.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص183.

[3] نفس المصدر، ج14، ص9.

آنذاك في مصر[1] كما نقل معلومات متفرقة عن كتاب البرزالي الثاني **المعجم** فقد ذكر في عدة مواضع من كتابه **البداية والنهاية** أنه نقل عن هذا الكتاب.

يقول على سبيل المثال: "قال شيخنا الحافظ علم الدين الرزالي في معجمه"[2] ويأتي ابن رافع السلامي بعد ابن كثير من حيث كثرة النقول عن البرزالي، والتي ضمنها كتابه **الوفيات،** الذي ذيل به على تاريخ البرزالي، كما اعتمد على كتاب البرزالي الثاني **المعجم** فأخذ منه معلومات كثيرة يتعذر علينا عرضها جميعاً في هذا البحث ويكفي أن نعطي بعض الأمثلة فقط مثال ذلك أنه نقل قول البرزالي عن علي بن محمد المقدسي الدمشقي المعروف بابن غانم المتوفى سنة (737هـ/1337م) فذكر العبارة التالية قال عن البرزالي في معجمه: "شيخ فاضل من أعيان الموقعين ومن حسنات الزمان"[3] كما نقل قولاً آخر عن علاء الدين أيدغدي، يذكر أن البرزالي قال فيه: "وكان مملوكا لوالدي وسمع معي من الشيخ شمس الدين بن أبي عمر وابن البخاري وابن العسقلاني وابن شيبان... ورافقنا في الحج سنة عشر وسبعمائة وحدث في الطريق، وكان رجلاً جيدا جنديا من الحلقة، وكان يسافر في البريد"[4].

ومن نقول ابن رافع عن معجم البرزالي، يمكن الإستنتاج، أن كتاب المعجم قد ألف قبل تاريخ البرزالي فهو يترجم للكثيرين ممن درسوا معه، ولكنه توفي قبلهم، الأمر الذي جعل ابن رافع السلامي يذكرهم في سياق تراجمه **الوفيات**.

يضاف إلى ذلك أن جميع المعلومات التي نقلها إبن رافع السلامي عن البرزالي كانت معظمها أصلية أي ان البرزالي شاهد عيان عليها و تساوى مع إبن رافع السلامي في التسلسل بحجم النقل عن البرزالي المؤرخ الدمشقي النعيمي صاحب كتاب **الدارس في تاريخ المدارس** فنقل عنه الشيء الكثير و أشار إلى هذا النقل بصورة واضحة تماما في كل موضع نقل عنه مثل قوله: "و رأيت بخط الحافظ علم الدين البرزالي في تاريخه في سنة ست و ثلاثين و سبعمائة و من خطه نقلت..."[5].

---

[1] نفسه، ج14، ص22.

[2] نفسه، ج14، ص32.

[3] ابن رافع السلامي (محمد)، الوفيات، تحقيق: عبد الجبار زكار، طبع على الجستنتر، دمشق 1985م، ج1، ص10.

[4] نفسه، ص20–21. و أنظر ما ينقله أيضاً، ص29–58 و ص113–133.

[5] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص353.

و يلي هؤلاء في التسلسل بحسب حجم النقل عن البرزالي المؤرخ الأدفوي صاحب كتاب **الطالع السعيد في تاريخ الصعيد** فقد نقل عنه بعض الأخبار المتفرقة من الخبر الصغير عن وفاة **علي بن حميد الصباغ القوصي**[1]، ومثله ابن ابي حجلة التلمساني صاحب كتاب **سكردان السلطان** الذي نقل عن البرزالي من كتابه خبرا يتعلق ببعض العجائب التي جرت في مدينة حماة سنة (721هـ/1322م) و يقول: "نقلت من خط الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه ما نصه و في وسط شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرون و سبعمائة ورد كتاب من حماة يخبره فيه انه وقع في هذه الأيام ببارين من عمل حماة برد على صور حيوانات مختلفة، منها سباع و حيات و عقارب و معز طيور..."[2].

ويعتبر ابن حجر العسقلاني من أغزر المؤرخين المشارقة خلال العصر المملوكي وعلى الرغم من ذلك، فقد وجد نفسه محتاجا للرجوع إلى تاريخ البرزالي الذي اعتمد عليه كثيرا عند تصنيفه كتابيه الشهيرين **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، و **إنباء الغمر في أبناء العمر** وقد ذكر ذلك صراحة في مقدمة **الدرر الكامنة**[3]، وإذا ما دونت جميع نقول ابن حجر عن البرزالي، فإن ذلك يحتاج منا الكثير لذلك فإن ذكر بعضها يوصل إلى الغاية، وهي التأكيد على اعتماد ابن حجر على تاريخ البرزالي، كواحد من مصادره الرئيسية، مثال ذلك أنه أخذ عنه ترجمة إبراهيم بن علي الحراني(ت709هـ/1310م)، وإبراهيم بن علي بن شارو الحميري، الذي كتب البرزالي عنه، ونقله ابن حجر: "كان من أعيان القراء، قرأ عليه الطلبة، وكان يروي القراءات عن ابن فارس وابن ابي الدر وعيرهما"[4]، أما بالنسبة لاعتماده على البرزالي في كتابه **الدرر الكامنة** المذكور سابقا، بالإضافة إلى أنه لا يسمي الكتاب الذي نقل عنه، مثال ذلك ما ينقله عنه من كتاب **المعجم** في صدد تصحيح وفاة عمر بن حسين المراغي المزي[5] وتساوى ابن تغري بردي مع ابن ابن حجر في حجم النقل عن البرزالي.

---

[1] الأدفوي، المصدر السابق، ص386. دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 3، الترجمة العربية، ص534. الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص196. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج9، ص319.

[2] سكردان السلطان، ص452.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص4-5.

[4] نفس المصدر، ج1، ص45.

[5] ابن حجر، إنباء الغمر، ص142-143.

وضمن نقوله جميعها في كتابه **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** ولا ذكر للبرزالي البتة في كتابه الآخر **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة.**

وربما يعود السبب في ذلك إلى أن كتاب **المنهل الصافي** ألف قبل **النجوم الزاهرة** لأن ابن تغري بردي في كتابه الأخير، كثيرا ما يقول عندما يكون في صدد ترجمة معينة، أنه توسع في الترجمة و وفاها حقها في كتابه **المنهل الصافي.**

وطالما نقل عن البرزالي فيه، فقد وجد على ما يبدو، أن لا حاجة لذكر المصادر مرة أخرى ونقل عن كتابي البرزالي و هما في التاريخ و المعجم، و يذكر ذلك بوضوح وصراحة فقد أخذ عن المعجم معلومات جيدة، مثال ذلك ما نقله ابن سحق الحلبي إبراهيم بن عبد الله يقول: "و ذكره البرزالي" في معجم شيوخه قال: "سمع من ابن خليل ودخل بغداد وسمع بها من الكاشغري ودرس بحلاوية بحلب...[1].

و وصل به الأمر إلى أن نقل ترجمة كاملة عن البرزالي، حول سيرة إبراهيم بن عبد الرزاق الرسعني في معجم شيوخه بقوله: "كتبت عنه، وقد فاق أبناء جنسه معرفة وذكاء، وكان نبيها فاضلا متمكنا حسن الأخلاق وله منظوم منثور... "[2]، وله نقول أخرى متعددة في شخصيات علمية مختلفة[3]، وكانت نقوله من كتاب البرزالي الأخر **التاريخ** كثيرة أيضا لكنها لم تكن في حجم ما نقله عن كتاب **معجم شيوخ البرزالي.**

فقال عنه على سبيل المثال في عدة مواضع، منها ما نقله عن أحمد بن علي البغدادي المعروف بابن الساعاتي الذي قال عنه: "أنه ظفر في تاريخ الحافظ علم الدين البرزالي رحمه الله بحاشية مكتوبة على حوادث سنة أربع وستين وستمائة نوع استدراك على المصنف قال: وفي هذه السنة توفي العلامة مظفر الدين أحمد بن علي بن تغلب بن أبي ضياء بن مظفر البغدادي الحنفي"[4].

وأكثر المؤرخ ابن العماد الحنبلي صاحب كتاب **شذرات الذهب** من النقل عن البرزالي ومعظم المعلومات التي نقلها، كانت حول تراجم كتبها البرزالي في كتابيه المذكورين مثال ذلك ما نقله عن الحافظ الدمياطي، الذي قال عنه البرزالي في كتاب

---

[1] ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص77.

[2] نفس المصدر، ص84.

[3] نفسه، صفحات85-101-320.

[4] نفسه، ص403. أبو الفداء، (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، المختصر في أخبار البشر، ج2، دار المعرفة، بيروت، ص419.

التاريخ: "وكان آخر من بقي من الحفاظ وأهل الحديث أصحاب الرواية العالية والدراية الوافرة"[1].

كما نقل من كتاب **المعجم** شيئاً كثيراً أيضاً، مثال ذلك ما نقله عن أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي (ت711هـ/1312م) الذي يقول عنه البرزالي: "صالح عارف صاحب نسك وعبادة وانقطاع وعزوف عن الدنيا..."[2].

ومثل ابن العماد الحنبلي، كان المؤرخ جلال الدين السيوطي، الذي أخذ عن البرزالي، وهو يختلف عن معظم الذين ذكروا حتى الآن من المؤرخين، في أنه لا يذكر صراحة اسم الكتاب، الذي نقل عنه وخاصة في كتاب **بغية الوعاة** لكن التعرف على ذلك ليس مسألة صعبة، أو يمكن التعرف عليه من خلال طبيعة كتب البرزالي حيت تختلف أقواله في كتاب **المعجم** عنها في كاتب **التاريخ** ففي المعجم، ينوه مدى إستفادته من الذي يترجم عنه كونه مجمعا لشيوخه مثال ما نقله السيوطي عنه عن صالح بن إبراهيم الفارقي الذي يعتقد أنه من كتاب **التاريخ**.

يذكر السيوطي ما يلي، قال: "البرزالي ولد بميافارفين ليلة التاسع والعشرين من محرم سنة خمس عشرة وستمائة، وقرأ القراءات وأتقن العربية..." أما كتاب **حسن المحاضرة** فإنه يعلن صراحة عن مصدره و أخذه عن البرزالي ما يتعلق ببعض العجائب، التي حدثت سنة (702هـ/1303م) في بعض نواحي مصر[3]، ونقل عن البرزالى المؤرخ الداودي صاحب كتاب **طبقات المفسرين** ويشبه الداوودي في مسألة عدم التصريح عن الكتاب، الذي نقل عنه المؤرخ السيوطي لكن المرجح أن الداودي نقل عن كتاب **التاريخ** للبرزالي. و من هذه النقول خبراً مطولاً عن عثمان التنوخي الذي قال عنه البرزالي: "وكان عالماً بفنون شتى من الفقه والأصول، وله تعاليق في التفسير واجتمع له العلم والدين و المال والجاه وحسن الهيئة..."[4]، وشكلت مؤلفات أبو حيان النحوي المتوفى بالقاهرة سنة (745هـ/1345م) منهلا غنيا بالمعلومات التي دونها المؤرخون المشارقة في ثنايا كتبهم فعلى الرغم من أنه اشتهر على صعيد النحو والأدب، كانت له اهتمامات

---

[1] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص23-24.

[2] ابن العماد الحنبلي، ج6، ص24-25. وأنظر أيضاً ما نقله عن البرزالي، المصدر نفسه، ج5، ص425-426.

[3] السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص8.

[4] الداودي، طبقات المفسرين، ج2، ص325.

تاريخية مهمة، ولاسيما في ميدان تاريخ الأدب، فكان أهم مؤلفاته في هذا الميدان كتاب **النضار** الذي يحتوي على تراجم لشخصيات أدبية ونحوية بالإضافة إلى كثير من الأخبار التاريخية المختلفة، يمكن اعتباره من خلالها تاريخا متنوع المواضيع والفوائد ولعل أفضل تعريف بمضمونه، جاء على لسان ابن حجر العسقلاني في كتابه **الدرر الكامنة** بقوله: "ووقفت عل كتاب له سماه النضار عن المسلاة نضار[1] بخطه في مجلد ضخم ذكر فيه أوليته وابتدأ أمره وصفة رحلته وتراجم لكثير من أشخاصه وأحواله إلى أن استطرد إلى أشياء كثيرة تشتمل على فوائد غزيرة، ولقد لخصناها في التذكرة مثال ذلك يذكر أصل قبيلة نفزة، التي أرجعها إلى فلسطين ومعها هوارة، وصنهاجة، وكتامة، ولواتة... كلها كانت بفلسطين مع جالوت، فلما قتل تفرقوا وقصد أكثرهم الجبال في السوس وغيرها"[2]، يضاف إلى ذلك مأثرة أخرى لأبي حيان أفاد من خلالها المؤرخين تجسدت بتشجيعه لأحد تلامذته على تأليف كتاب في التراجم عن منطقة الصعيد في مصر هذا التلميذ هو الأدفوي صاحب كتاب **الطالع السعيد في تاريخ الصعيد** الذي ذكر أن أستاذه أبو حيان الغرناطي النحوي، هو الذي شجعه على وضع كتابه المذكور فقد قال بعد أن أطنب في مدحه: "... أشار علي أن أعمل تاريخا للصعيد مرة ومرة وراجعني في ذلك كرة بعد كرة فرأيت امتثال إشارته علي متعينا حتما، والإعراض عن اجابته غرما لا غنما فشرعت في هذا التأليف مرتبا له على، الأسماء ولم أجد من تقد مني فيه، فأكون له تابعا ولا من أسأله فأكون لما يورده جامعاً فأنا مبتكر لهذا العمل..."[3] وتأتي مؤلفات أبي حيان بالدرجة الثانية من حيث الأهمية في ميدان اعتماد المؤرخين المشارقة عليها بعد مؤلفات البرزالي السابقة.

وإذا قورن البرزالي بأبي حيان، فإن فروقا عديدة تظهر بينهما ، منها أن الذين نقلوا عن أبي حيان كانوا أكثر من حيث العدد لكن كمية المعلومات المنقولة عن البرزالي، هي أكبر بكثير من تلك التي أخذت عن أبي حيان يضاف إلى هذا أن البرزالي ألف تاريخا وأبو حيان ألف في النحو فكانت معظم المعلومات التي نقلها مؤرخو المشرق عنه حول

[1] نضار: هي ابنة أبي حيان النحوي، كان يحبها جداً، فتأثر عليها كثيراً عندما ماتت حتى أنه طلب من السلطان أن يسمح له بدفنها في بيته لتكون في جواره فكان له ذلك، وباسمها ألف هذا الكتاب.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5، ص73-74.

[3] الأدفوي، المصدر السابق، ص5.

نحويين وأدباء ومن في حكمهم، وكان أول من نقل عنه المؤرخ السبكي صاحب كتاب **طبقات الشافعية** الذي يفهم من تسميته أنه يقتصر على دراسة رجال الفقه من الشافعيين منذ القرن الثاني الهجري حتى عصر المؤلف، وجاءت نقوله عنه قليلة جداً أخذها من كتاب **النضار** وهي عبارة عن خبر صغير، أبو حيان في سياق ترجمة عبد العزيز بن سعيد الدميري: "قال شيخنا أبو حيان كان متقشفا مخشوشنا يتبرك به الناس"[1] ونقل عنه ابن أبي حجلة التلمساني صاحب كتاب **سكر دار السلطان** بعض الأخبار مثال ذلك أنه أخذ عنه بعض المعلومات المتعلقة بتفسير آية يوسف عليه السلام[2] ويعتقد أن ابن أبي حجلة التلمساني رجع إلى تفسير القرآن لأبي حيان، الذي يعتبر من أجل التفاسير، التي وضعت خلال فترة هذا البحث.

واعتمد ابن شاكر الكتبي صاحب كتاب **فوات الوفيات** على مؤلفات أبي حيان فأكثر من النقل عنه دون أن يذكر مصدر النقل، وإن كان من المحتمل انه كتاب **النضار** حيث أخذ عنه معلومات كثيرة عن أشخاص، كانت لهم عناية ظاهرة بالنحو والأدب ، كان أبو حيان معاصرا لعدد كبير منهم ، مما يضفي على أقواله صفة الصدق، و الأمانة والثقة ، وبالتالي فهي أقوال صادرة عن اختصاصي، يمتلك المعرفة الوثيقة في علوم اللغة العربية وآدابها. وكان من الذين كتب عنهم وعاصرهم **نصر الدين الحسن بن شاور النفيسي**، الذي قال عنه أبو حيان ونقله ابن شاكر الكتبي: "جالسته بالقاهرة مراراً وكتبت عنه وكان نظمه حسنا"[3]، ونقل عنه أيضا رأيه في أحد المتصوفين على طريقة وحدة الوجود، وكان له ذكره المشهور خلال فترة العصور الوسطى المتأخرة هو عفيف الدين التلمساني الذي يقول فيه أبو حيان: "أديب ما هو جيد النظم يكون شيخ صوفية وتارة مجرد قدم علينا القاهرة ونزل بخانقاه سعيد السعداء *عند صاحبه شيخها شمس الدين الأيلي، وكان متخيلا في أقواله وأفعاله ابن العربي... "[4] كما نقل عنه في موضع أخر معظم ترجمة مجير

---

[1] السبكي، طبقات الشافعية، ط1، القاهرة، بلاتا، ج8، ص991.

[2] ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ص408.

[3] ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص232.

* وهي بخط رحبة باب السعيد بالقاهرة قرب جامع بيبرس الجاشنكيري كانت تعرف بمعهد الفاطميين بدار سعيد السعداء، فعملها صلاح الدين خانقاه الصوفية سنة 569هـ، وتعرف بالصلاحية وهي عامرة إلى الآن وتعرف بجامع الخانقاه وسعيد السعداء (الخطط التوفيقية) 50/6.

[4] ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص266.

الدين عمر ابن عيسى التميمي وهي: "رأيته بقوص وكتبت عنه شيئاً من شعره، قدم علينا مصر وسكنها أيام القاضي تقي الدين بن دقيق العيد، واشتغل عنده في أوقات... "[1] إلى غير ذلك من النقول الأخرى ومن الذين نقلوا عنه ابن تغري بردي في كتابه **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، لكن نقوله كانت قليلة جدا، منها قوله في ترجمة **أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري المكي**، الذي ذكر عنه **أبو حيان:** "أنه وقع له وهم فاحش في القسم الأول وهو التساعي، وهو إسقاط رجل من الإسناد، حتى صار له الحديث تساعيا في ظنه" وجاء ذلك في سياق حديث أبي حيان عن بعض مؤلفات المترجمة له في ميدان الحديث[2]، و لعل السيوطي كان أوسع النقلة عند أبي حيان و خاصة في مؤلفه **بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة** وهذا الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء أو عميق تفكير لمعرفة الأسباب، التي جعلت السيوطي ينقل عن **أبي حيان**، وهي أن كتاب **النضار** الذي نقل عنه السيوطي وذكره بصراحة عند كل نقل عنه، يحتوي على تراجم لعدد كبير من النحويين والأدباء و من المعلومات التي نقلها عنه على سبيل المثال، ما قاله في ترجمة النحوي الأندلسي محمد بن عبد الله الجياني: "بحثت عن شيوخه، فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه، ويرجع في حل المشكلات إليه،إلا أن بعض تلامذته، ذكر أنه قال قرأت على ثابت بن حيان في حلقة أبي على الشلوبين..." ونقل قولا أخر عن ترجمة أبي حيان لبهاء الدين محمد ابن إبراهيم المعروف بابن النحاس، وهو القول نفسه الذي دونه ابن شاكر الكتبي في كتابه **فوات الوفيات** يذكر السيوطي قال أبو حيان: "كان هو الشيخ محي الدين المازوني شيخ الديار المصرية ولم الق أحدا أكثر منه سماعاً لكتب الأدب وتفرد بسماع صحاح الجوهري..."[3]، أما المؤرخ السخاوي، فقد كانت نقوله قليلة عن كتاب أبي حيان ويختلف عن جميع الذين نقلوا عنه، في أنه لم ينقل الترجمة بكاملها أوفي معظمها، إنما اقتصر على الجانب الأهم فيها، مثال ذلك أنه نقل رأي أبي حيان في مسألة نحوية واعتبره نهائيا ولا حاجة لمقارنته مع غيره وربما أنطلق في ذلك من معرفته، أن أبا حيان كان في عصره شيخ النحو بلا مزاحمة[4] ونقل في مكان أخر قولا لأبي حيان في ترجمة

---

[1] نفسه، ج1، ص226.

[2] ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، المصدر السابق، ج1، ص320-324.

[3] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص14.

[4] السخاوي، الذيل على رفع الأصرص، تحقيق: جودة هلال، و محمد محمود صبحي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص53.

عمر بن عبد الوهاب المعروف **بابن بنت الأعز** "أنه كان رجلا مهيبا ديناً فقيهاً نحوياً صالحاً كثير الصدقة و الإقتصاد لفقراء الفقهاء الذين كانوا في مدرسته..."[1].

وكذلك فعل المؤرخ **الشوكاني** صاحب كتاب **البدر الطالع** فاقتصر في نقله عن أبي حيان على أخبار مقتضبة، مثال ذلك أنه نقل قوله في النحوي أحمد بن إبراهيم الأندلسي: "وكان يحرر اللغة وكان أفصح عالم رأيته..."[2]، ونقل قولاً ثانياً كان هذه المرة حول أحد الذين اعتنوا بالحديث إلى جانب النحو وهو عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، الذي وصفه بأنه حافظ المشرق والمغرب[3]. وتجدر الملاحظة هنا إلى أن معظم المعلومات التي نقلت عن كتاب **النضار** لأبي حيان تعلقت بشخصيات عربية مغربية وأندلسية كان يعرف الكثير من أصحابها وهي مسألة كان مؤرخو المشرق العربي، يفتقرون إليها، الأمر الذي جعلهم ينكبون على مؤلفات أبي حيان ويأخذون منها بالشكل الذي بدأ فيما سبق من حديث عنه.

17- عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوي: ألف تاريخا في عشر مجلدات لم تذكر المصادر اسم هذا الكتاب، وقد بيض منه نصفه ذكر فيه من بدء الدنيا وقصص الأنبياء وأخبار الأمم من آدم إلى زمانه ولا وجود لمخطوط هذا الكتاب في فهارس المخطوطات العربية، وفوق كل ذلك فإنه لم يعثر على إشارة، تدل على أن أحدا من المؤرخين اللاحقين أو المعاصرين قد أعتمد عليه[4].

وهناك من المغاربة من اهتم بكتابة تاريخ المدن التي أصبحت من المصادر الأساسية، فظهر مغربي كانت له كتابات تاريخية إلى جانب كتاباته العلمية الأخرى وهو:

عبد الله بن فرحون التونسي: نزيل المدينة المنورة الملقب بمؤرخ المدينة **(ت769هـ/1368م)**، كتب كتابا سماه **نصيحة المشاور وتغذية المجاور** في تاريخ المدينة المنورة[5]، ومن عائلة هذا المؤرخ ظهر مؤرخ أخر بنفس المدينة مكملا له، لكن إنتاجه التاريخي كان أعمق أثرا أو أشد أهمية واستقطابا للعلماء حيث أخذوا عنه الكثير من المعلومات هذا المؤرخ هو: **إبراهيم بن علي أبو إسحاق** المعروف بابن فرحون

---

[1] نفس المصدر، ص202.

[2] الشوكاني (محمد بن علي)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة (1348هـ/1929م)، ج1، ص34.

[3] نفس المصدر، ص404.

[4] ابن فرحون، المصدر السابق، ج2، ص72. ابن مخلوف (محمد)، المصدر السابق، ص129.

[5] السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج2، المصدر السابق، ص403.

(ت**799هـ/1397م**) الذي صنف كتابا على طريقة التراجم في أعيان المالكية وعلمـائهم سماه **الديباج المذهب في أعيان المذهب**[1]، نقل عنه مؤرخان من المشرق العربـي همـا: السيوطي في كتابه **حسن المحاضرة** الذي أخذ منه بعض الأخبار عن ترجمة **إسماعيل بن مكي الزهري الأسكندراني** الذي قال عنه: "كان إمام عصره في المـذهب وعليـه مـدار الفتوى مع الزهد والورع"[2]، كما نقل عنه **الداودي** في **طبقات المفسرين** ترجمة **محمد بن بندار** بقوله: "قال ابن فرحون، ورأيت على كتبه بخطه... أنه تفقه على الأبهـري، ولـه كتاب كبير في الخلاف وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القـرآن[3] وفـي مدينـة القاهرة ألف الأديب المغربي **ابن أبي حجلة التلمساني** (ت778هـ/1376م) كتابـا فـي التاريخ سماه **سكردان السلطان** ألفه للسلطان الناصر حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، ويعتبر من الكتب الجديدة في المنهجية وأسلوبه لا يماثله أي مؤلف آخر من هذه الناحية، يحتوي على أخبار مختلفة من الجد والهزل مع نصائح وسير لـبعض الملـوك والـدول والحديث عن مصر وما جرى فيها من العهود القديمة حتى عصره على غير ذلـك مـن المواضيع الأخرى المتنوعة[4]، وقد نقل عنه السيوطي في كتابه **حسن المحاضرة** وتجسدت نقوله في خبرين اثنين، أحدهما عند بناء مدينة القاهرة وثانيهما عن جبل الطير في صعيد مصر و ما فيه من عجائب[5]، وهناك مغربي آخر نزيل القاهرة هو:

محمد بن أحمد: المعروف **بابن مرزوق المغربي** (ت781هـ/1380م)، ألف كتابـاً تاريخياً واحداً بمدينة القاهرة سماه **السند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسـن**، وقد ألفه بإسم **أبي فراس عبد العزيز بن سلطان أبي الحسين المريني** لأنه كان على مـا يبدو، يرى العودة إلى المغرب لكنه لم ينجح في هذا المسعى وانتشر الكتاب في المغـرب الذي تبحث مقدمته في أمور الخلافة المختلفة ولا يستبعد أن يكون الهدف من بحثه لأمور

---

[1] ابن فرحون، المصدر السابق، ص222.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص453.

[3] الداودي، المصدر السابق، ج2، ص98. وأنظر أيضا صفحات182-236-241.

[4] ابن أبي حجلة، المصدر السابق، ص349-350.

[5] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص24-25.

الخلافة، لأنه أراد إثارة الرغبة في نفوس المغاربة للتطلع إلى ضم المغرب إلى المشـــرق أو بالعكس وتعود أيام الخلافة الأولى، التي كان فيها المغرب والمشرق دولة واحدة [1].

كما استقبلت مدينة القاهرة أيضا مؤرخا من طراز نادر في هذا الميدان وهو:

ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون[2]: له عدة اهتمامات أخرى غير التـــاريخ، فقـــد كتب تاريخا أستهله بمقدمة تمتاز عن غيرها من المؤلفات بمنهجية،مستقلة عن غيرها من المؤلفات فقد ربط فيها الحادثة التاريخية بأسبابها العامة والشاملة، بحيث أن كـــل شـــيء يرتبط بقضية العمران، حتى غدت محور تاريخه الأساسي المسمى **العبر وديوان المبتـــدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** الذي ألفه في تونس، ونقله إلى مصر خلال الربع الأخير من القرن (8هـ/14م)[3]، و له كتاب آخر وصفه خلال إقامته بالقاهرة سماه **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا** وعلى الرغم من أنه يدور حول حياة ابن خلدون، فإنه يفيد في كثير من المسائل الأخرى المتفرقة التي ذكرها عن أساتذته وغيرهم ومن حكام وسلاطين مصر والشام.

يضاف إلى كل ذلك، فإنه يعكس الحالة السياسية في المغـــرب والأنـــدلس وعلاقـــة المشرق العربي بذلك كما يحتوي أيضا وقائع مقابلته لتيمور لنك، الذي كان يطمـــع كمـــا يبدو بغزو المغرب العربي حيث طلب من ابن خلدون تصنيف مذكرة عن المغرب ففعل[4].

لقد بدأ ابن خلدون حياته الجديدة بالقاهرة عاصمة الشرق، وموئل التفكير الإســـلامي يومئذ، وتولى التدريس بالجامع الأزهر، وبطائفة من المدارس السلطانية وتـــولى رئاســـة القضاء المالكي غير مرة، وعكف على تنقيح مقدمته، والزيادة في تاريخه فـــي مـــواطن

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجـــي، دار الكتـــاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1951م، ص49-55. ابن الخطيب (محمد بن عبـــد الله الســـلماني)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة سخانجي، القاهرة 1955م، ج5، ص103. ابن فرحون، المصدر السابق، ج2، ص290-296. ويقول الدكتور سهيل زكريا في بحث نشرة عن هذا الكتاب في مجلـــة التـــرات العربي، العدد الثاني، ص136، إن ليفي بروفنسال قام بانتخاب المادة التاريخية الواردة فيه ونشرها ســـنة 1925 فـــي باريس، وأنه أي الدكتور سهيل زكار قد إطلع على نسخة الكتاب الخطية الموجودة بالخزانة العامة في الربـــاط ونســـخ مقدمته.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص450 وما بعدها.

[3] عبد الحميد حاجيات، (الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زياد)، مجلة الأصالة، عـــدد26، الســـنة الرابعـــة 1975م، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص139-154.

[4] عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص49 وما بعدها.

كثيرة، حتى وصلا إلى الحالة التي انتهينا إلينا بها، و استطالت حياتــه بالقــاهرة زهــاء الثلاثة وعشرين عاما، ثم توفي بها في رمضان سنة (808هــ/1406م)[1]، وعلى الــرغم من ضخامة كتابه **العبر** فإن الذين أخذوا عنه كانوا قلــة مثــل **الســيوطي** و**المقريــزي**، و**السخاوي** و**ابن حجر العسقلاني**.

فمن ضمن نقول السيوطي في كتابيه **حسن المحاضرة** و **نظم العقيــان** عــن ابــن خلدون مايلي:

فقد ضمن الكتاب الأول قولا حول سيرة النحوي **جمال الدين بن هشام المصــري**، الذي يقول عنه: "وما زلنا... بالمغرب نسمع من أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال لــه ابن هشام أنحى من سيبويه..."[2] كما ضمن كتابه الآخر **نظم العقيان** نتفا متفرقــة، منهــا تصحيح النسب عندما يكون موضع ريبة وشك يقول سمعت شيخ الإسلام ابن حجر، ينقلها عن قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون وهي: "إنا إذا أشككنا في نسب، حسبناكم بين أوله ومن في آخره من السنين جعلنا لكل مائة سنة ثلاثة أنفس، فإنها مضطردة عادة وإذا أخر فبالزيادة"[3]، وأخذ عنه **ابن حجر العسقلاني** خبرا يدور حول مقتــل **لســان الــدين ابــن الخطيب** ويقول **ابن حجر**: "وتحديده بشكل دقيق، هو كما جاء عند ابن خلــدون" والــذي يقول: "والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين بن خلدون..."[4].

فأما مؤرخ مصر **المقريزي** فقد كان تأثره واضحا وشديدا بمقدمة ابن خلــدون فــي كتابه **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، وربما لأنه كان في شبابه تلميذا لابــن خلــدون وكــان إعاجبه إعجاب التلميذ بأستاذه في كتاباته، حيث كان من أشد الكتاب المصــريين تعظيمــا لقدره وإجلالا لتفكيره وعلمه، وهذا وما نجده واضحا في كتابه المذكور أعلاه الذي ينحو فيه الشرح و التعليل منحى شيخه ابن خلدون في مقدمته، فنجد المقريزي يستعمل ألفــاظ شيخه وعباراته مثل **أحوال الوجود وطبيعة العمران**.

---

[1] مجلة العربي، العدد 182، جانفي 1974م، مقال (كتب تأثرت بمقدمة أبن خلدون) لمحمــد عبــدا لله عنــان. [مجلــة تصدرها ....ص187]

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، المصدر السابق، ج1، ص536.

[3] السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)، نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره فيليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك 1927، ص183.

[4] ابن حجر، إبناء الغمر، ج1، ص93.

هكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاُ في منهج التلميذ، ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزي في كتابه، وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبقة الملك و عوامل فساده و عن السكة و عن أثر المكوس في الدولة وأثر الظلم في خراب العمران وكيف يسري الخلل إلى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدولة وسقوطها، أما **السخاوى** فإنه بالرغم من خصومته لابن خلدون، وتحامله عليه قد تأثر كذلك بمقدمة ابن خلدون في كتابه **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** فنجده واضحا فيما كتبه **السخاوي** في هذا الكتاب عن قيمة التاريخ، وأثره في دراسة أحوال الأمم[1] كما وصل إلى مصر سنة (803هـ/1401م) مغربي هو:

ناصر بن أحمد بن يوسف: المعروف **بابن مزني** (ت823هـ/1420م) مجردا من كل شيء بعد أن تعرض لعملية نهب وهو في الطريق إلى المشرق مع ركب المغاربة، استقر بالشيخونية* بعد نجاح وساطة ابن خلدون، ثم شرع في تأليف كتاب **تاريخ الرواة**[2] وهذا الكتاب لا وجود لذكره في المصادر المشرقية، إما لجهل في معرفته وإما تجاهل مقصود، كما شكلت بعض كتب الرحلة التي ألفها المغاربة بعد زيارتهم لبلدان الشرق العربي مصدرا غنيا للمعلومات المختلفة الوجوه مثل:

رحلة ابن رشيد السبتي: التي سماها **ملئ العيبة في ماجمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة** التي تضمنت كثيرا من أسماء العلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم في مصر والشام، وذلك في كثير من العلوم الدينية واللغوية الأمر الذي جعل مؤلفه هذا غنيا في المعلومات الأصلية عن مصر والشام.

وقد اعتمد عليه **السيوطي** فنقل عنه معلومات حول بعض النحويين الذين ذكرهم في **بغية الوعاة** يقول عن رحلة **ابن رشيد** الأنفة الذكر: "... وهي ست مجلدات وقفت عليها بمكة وعلقت منها فوائد واستفدت منها الحديث المسلسل بالنحاة..."[3].

وظهر في الحجاز مؤرخ من المغاربة، الذين ولدوا و نشأوا فيها، وهو من هذه الناحية يشبه البرزالي وهو:

---

[1] مجلة العربي، المرجع السابق، ص188.

*كانت خانقاة بناها الأمير سيف الدين شيخو العمري وفرغ من عمارتها سنة (727هـ/1326م)، ورتب فيها أربع دروس للمذاهب الأربعة مع درس للحديث وآخر للقراءات، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص266.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص195-196.

[3] السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق: علي محمد عمر، مصر 1937م، ص524.

محمد بن أحمد بن على الفاسي المكي: (ت832هـ/1429م) ويبدو في الأمر كأنه مقسم كما يلي:

- ففي بلاد الشام اشتهر البرزالى.
- وبمصر اشتهر ابن خلدون.
- وبالحجاز اشتهر الفاسي.

كانوا جميعا متساويين من حيث الشهرة التي نالها كل منهم، والتي جاءت من خلال مؤلفاتهم في التاريخ التي إستطاعت على الرغم من مرور زمن طويل أن تبقى ومازالت قيمتها في ازدياد حيث يكثر الاعتماد عليها في كثير من المسائل العلمية ولعل في مقدمة الكتب التاريخية التي صنفها الفاسي في المشرق العربي كان كتاب **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** في مجلدين جمع فيه ما ذكره **الأرزقي** في تاريخه وزاد فيه أشياء كثيرة واختصره في مجلد لطيف سماه **تحصيل المرام** ثم إختصره في آخر سماه **هادي ذوي الإفهام إلى تاريخ البلد الحرام**، ثم عمل مختصر نهائيا سماه **ترويح الصدور بطيبات الزهور.**

أما الكتاب الثاني فقد تمتع بشهرة واسعة جدا واسمه **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ويشتمل على السيرة النبوية ثم على تراجم صنفها على حروف المعجم جماعة من الصحابة من قريش وحلفائها وكنانة وخزاعة وثقيف وجماعة من ولاة مكة وقضاتها وخطبائها وأمتها ومؤذنيها ،وجمع من العلماء والرواة والقاطنين بها والواردين عليها، ومن وسع المسجد الحرام، ومن عمر بها شيئاُ من الأماكن المباركة مثل المساجد والمواليد وغير ذلك[1].

وذيل الفاسي على المؤرخ **الذهبي** عدة كتب منها **بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة** وذكر الذهبي في هذا الكتاب جماعة من الأعيان العلماء والرواة وغيرهم. وابتدأ فيه من السنة الأولى للهجرة، وانتهى إلى سنة (701هـ/1302م) فذيل الفاسي عليه من حيث انتهى إلى تاريخه على النمط الذي ذكره الذهبي وذيل على الذهبي في آخر صغير سماه **إرشاد ذوي الإفهام إلى تكميل كتاب الإعلام بوفيات للإعلام** ويسمى **درة التاريخ** ابتدأ به الذهبي من السنة الأولى للهجرة وانتهى إلى سنة (740هـ/1340م) فذيل الفاسي عليه

[1] طبع هذا الكتاب في المملكة العربية السعودية في عدة أجزاء.

ذيلا أبسط منه ومنا سباله وله الذيل الأخير على الكتاب **سير أعلام النبلاء** في مجلـــدين[1] كما قام باختصار كتاب المؤرخ المشرقي **ابن رافع السلامي** المسمى **تاريخ علماء بغـــداد** المذيل على تاريخ بغداد **لابن النجار** وسماه **منتخب المختار**.

وعلى الرغم من أنه عاش في القرن (9هـ/15م) فإن العدد من مؤرخي المشـــرق العربي الذين اشتهروا بالتدوين التاريخي اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مؤلفاته ونهلوا منهـــا شيئاُ كثيراُ وممن أخذ عنه من المؤرخين الأقطاب، **ابن حجر العسقلاني** الذي ذكـــر فـــي مقدمة كتابه **أبناء الغمر** إن أهم المصادر التي عول عليها هي مؤلفات الفاســـي، وعلـــى الأخص كتابه المسمى **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** فمن خلال مقارنـــة متمعنـــة، يظهر ذلك واضحاُ خاصة وان الأسلوب الذي ينهجه الفاسي، هو الأسلوب نفسه عند ابـــن حجر العسقلاني، والفروق لا تكاد تلاحظ فكلا الأسلوبين واحد تقريبا[2].

أما ابن تغري بردي فقد كان أوضح من ابن حجر العسقلاني، عندما أشار إلى نقوله عن المؤرخ الفاسي، التي ضمنها كتابه **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** مثال ذلك أنه نقل من كتاب **العقد الثمين** ترجمة عبد الله محب الدين الطبري المكي بقولـــه: "قـــال الشيخ تقي الدين الفاسي، وقد أختلف في وفاة المحب الطبري في أربعة أقوال..."[3].

وكان الفاسي قد قام بتدوين سيرة والده في كتاب **العقد الثمين** فجاء ابن تغري بردي ونقل الترجمة بكاملها ودونها في **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** دون زيـــادة ولا نقصان[4]، ونقل عن **الفاسي** المؤرخ **الداودي** ومن مصدرين مختلفين فقد نقل عـــن **العقـــد الثمين** في موضعين من كتابه، مرة عن ترجمة **لمحمد بن أحمد الزبيدي** حيث ذكر، قال الفاسي في تاريخ مكة: "كان إماما عالما فاضلا متفننا، انتهت إليه الرياسة باليمن في علم الأدب..."[5] ونقل في المرة الثانية خبرا يخص **محمد بن علي المرسي** يقول، قال الفاســـي

---

[1] الحسني (أبو المحاسن)، ذيل تذكرة الحافظ، طبعة دار إحياء الثرات العربي، بيروت، ص291 وما بعدها. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص199. الشوكاني، المصدر السابق، ج2، ص114. الفاسي (تقي الدين)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1959م، ج1، ص341.

[2] ابن حجر، إبناء الغمر، ج2، ص4.

[3] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص328.

[4] نفس المصدر، ج1، ص381-382.

[5] الداودي، المصدر السابق، ج2، ص89.

في تاريخ مكة: "وله تصانيف منها التفسير الكبير يزيد على عشرين جــزءا والأواســط عشرة و الصغيرة ثلاثة، ومختصر مسلم والكافي في النحو..."[1].

وكان الداودي المؤرخ الشرقي الوحيد، الذي نقل عن كتاب آخر للفاسي غير **العقــد الثمين** هو كتاب تعريف ذوي العلا بمن لم يذكره الذهبي في **سير النبلاء** ومنه أخذ بعضا من ترجمة **محمد بن عوض الكرماني**[2].

وأكثر النقل عن الفاسي المؤرخ جلال الدين السيوطي في كتابه **بغية الوعاة** وخاصة تراجم النحويين، الذين اشتهروا بمكة المكرمة، فنقل على سبيل المثال ومن كتابــه العقــد الثمين قوله في النحوي محمد بن إسحاق الخوارزمي نزيل مكة: "كان ذا فضل في العربية ومتعلقاتها وغير ذلك كثير التصدي للاشتغال والإفادة والنظر، وأظنه أخذ العربيــة عــن صهره إمام الحنفية شمس الدين المعيد، وناب عنه في الأمانة بمكة، ودخل الهند وعاد إلى مكة، وجمع شيئاُ في فضائلها وفضائل الكعبة..."[3]، وفعل الشيء نفسه عند حديثــه عــن نزيل مكة محمد بن حجاج الحضرمي يقول قال الفاسي في تاريخ مكة: "ولد ســنة ثــامن عشرة وستمائة،وحج وسمع ابن مسدى، وعاد إلى الإسكندرية ثم إلى مكة ثم إلــى عــدن وأقرأ بها النحو وعاد إلى مكة فأقام بها إلى أن مات..."[4]، وهناك معلومات أخرى كثيرة لا حاجة لاستعراضها هنا فهي على شاكلة ما ورد حتى الآن[5].

وآخر من نقل عن **الفاسي**، كان المؤرخ **السخاوي** في كتابه **الذيل على رفع الإصر** وكانت نقوله ضئيلة جدا.

ويقول **السخاوي**، قال **الفاسي**، والتقى الحلبي: "ما رأينا مثله..."[6] ويذكر السخاوي، أن **الفاسي** ترجم له بشكل كامل في كتاب أخر سماه **ذيل التقييد**.

---

[1] نفس المصدر، ج2، ص170.

[2] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص221.

[3] السيوطي، نفس المصدر، ج1، ص54.

[4] نفسه، ج1، ص74.

[5] نفسه، ج2، صفحات62-145-253-267، ص144.

[6] السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص86.

فيكون السخاوي ثاني مؤرخ مشرقي، يعتمد على مصدرين للفاسي أحدهما غير متداول بين المؤرخين الآخرين[1]، ويمكن ذكر أندلسي أخر أسهم إلى حد ما في بعض البناء التاريخي الذي نقل عنه عدد من مؤرخي الديار المشرقية بصورة مميزة وهو:

محمد بن يوسف الغرناطي الشهير بابن مسدي: ومن الذين نقلوا عنه السبكي صاحب كتاب **الطبقات الشافعية** فنقل عنه خبرا يتعلق بيحي ابن عبد الرحمان أبو زكريا الأندلسي المعروف بالأصفهاني لإقامته بأصفهان يورد السبكي الخبر بقوله: "قال ابن مسدي قحطنا بغرناطة فنزل أميرهم إلى شيخنا أبي زكريا، فقال تذكر الناس فلعل الله يفرج عن المسلمين فوعظ..."[2] ونقل عنه الأدفوي خبرا حول سعد الله بن إسماعيل القفطي، الذي يذكره ابن مسدي بقوله: "مشهور النسب معروف الأدب... لقيته بقوص وسمعت شيئا من أدبه أجازني و أنشدني بقوص في سنة خمس وأربعين وستمائة..."[3].

ونقل عنه أيضاُ المؤرخ السيوطي في **بغية الوعاة** الذي يعتبر الوحيد من بين جميع من نقلوا عنه، الذي يسمى مصدره، يقول على سبيل المثال: "يقول ابن مسدى في معجمه عن عياش بن حوافر الأندلسي، كان عارفا بكتاب سيبويه أديبا شاعرا..."[4].

كما أخذ عنه المؤرخ الداودي عدة أخبار ضمنها كتابه **طبقات المفسرين** مثال ذلك أنه نقل بعض المعلومات عن محمد بن علي العربي، الذي قال عنه: "وكان يلقب بالقشيري لقب غلب عليه لما كان يشير من التصوف إليه"[5] وعن محمد بن محمد التونسي التونسي المعروف بابن القوبع، أخذ بعض المعلومات التي تدور حول إقامته وسكنه غداة وصوله إلى مصر[6].

ونلاحظ أن جميع النقول عن ابن مسدي كانت عن مغاربة وأندلسيين، عاشوا في المشرق العربي، وكانت له معرفة في معظمهم أضف إلى ذلك أن هذه النقول كانت من المعجم الذي ذكره السيوطي في أغلب الظن إلى جانب المصادر المكتوبة للأندلسيين والمغاربة التي ذكرت حتى الآن فقد شكل بعض المغاربة والأندلسيين الذين أقاموا

---

[1] السبكي، المصدر السابق، ج8، ص400.

[2] نفس المصدر، ج8، ص400.

[3] الأدفوي، المصدر السابق، ص 252. وانظر كذلك ص417.

[4] السيوطي، بغية الوعاة، ص239.

[5] الداودي، المصدر السابق، ج2، ص238.

[6] نفس المصدر، ج2، ص238.

بالمشرق أو الذين زاروه لفترة قصيرة منهلا ثانيا استفادوا منه الشيء الكثير وقد تجسد هذا بالسماع بصورة مباشرة من راوي الخبر ويمكن تقسيمه هذا القسم بالمصادر الشفوية.

فقد أكثر المشارقة من الاعتماد على أقوال مغاربة وأندلسيين إلتقوهم في مواضع مختلة، ولاسيما في مسائل لم تكن مدونة أو مؤلفات تاريخية يمكن العودة إليها إذا دعت الحاجة مما يعطي على هذا النوع من المصادر أهمية خاصة تأتي في مقدمة هؤلاء المؤرخين **ابن أبي أصبيعة** صاحب كتاب **عيون الإنباء في طبقات الأطباء** حيث أكثر من الاعتماد على المغاربة والأندلسيين بشكل لم يعهد عند غيره من كل مؤرخي الديار المشرقية.

فأخذ عن بعضهم معلومات عن الطبيب الأندلسي ابن زهر[1]، وأخذ عن ابن عربي نزيل دمشق، بعض الأخبار الطبية عن ابن زهر[2] واعتمد كذلك على القاضي **محمد بن محمد أبو مروان الباجي** بصورة مميزة فأخذ عنه شيئا كثيرا[3].

كما استعان بأندلسي آخر هو **عبد الله محمد المالقي**، الذي أعطاه بعض الأخبار عن الطبيب **علي بن رضوان**[4] وعن الطبيب **حسين ابن إسحاق**[5] و لم يقتصر **ابن أبي أصبيعة أصبيعة** على سماع الأخبار من أفواه الأندلسيين والمغاربة فحسب إنما تعدى ذلك إلى التطبيق الفعلي، وهذا ما حدث عندما التقى الطبيب الصيدلاني **ضياء الدين بن البيطار** بمدينة دمشق الذي أطاعه وعرفه على عدد من النباتات وأين تنمو وتعيش وما هي صفاتها العلاجية والدوائية ؟.

و يليه في التسلسل من حيث اعتماده على المغاربة والأندلسيين كمصدر شفهي المؤرخ أبو شامة المقدسي صاحب كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، فأكثر من معاشرتهم والإهتمام بأخبارهم وخاصة منهم الذين عاصروه وعاشوا معه بمدينة دمشق بصورة دائمة أو الذين زاروها لفترة قصيرة هذا بالإضافة إلى أنه لم يسعد إلا مع المرأة الأندلسية التي تزوجها كما يذكر عن نفسه وكان يلجأ في كثير

---

[1] ابن أبي صبيعة، عيون الأنباء، ج3، ص107.

[2] نفس المصدر، ص108، ثم صفحات110-111-113.

[3] نفسه، ص112 وما بعدها.

[4] نفسه، ص167.

[5] نفسه، ج2، ص146.

من الأحيان إلى إعتبار معلومات المغاربة والأندلسيين الذين أخذ منهم أنها المصدر الوحيد لبعض المسائل التاريخية التي دونها في كتابه **الذيل على الروضتين**[1].

كما استعان بقول أندلسي آخر عند كتابته عن بعض المتصـوفين الزهـاد، فقـال: "أخبرني أبو علي حسن عبد الله بن صدقة الصقلي الشيخ الصالح وفقه الله تعالى، سمعت شيخنا السخاوي يقول، سمعت ابن عباس يقول..."[2].

ومثله على هذا الصعيد المؤرخ صلاح الدين بن أيبك الصفدي صاحب كتاب **الوافي بالوفيات** الذي كان لا يجد حرجا في الاعتماد على أقوال المغاربة والأندلسيين وتـدوينها فنقل بعض الأخبار عن أثير الدين أبو حيان النحوي، ونقلها عنه ابن تغري بـردي عـن الصفدي ودونها في كتابه **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، يقول ابن تغري بردي حول بعض التراجم: "قال الإمام صلاح الدين ابن أيبك أخبرني الشيخ الإمام العلامة أثيـر الدين أبو حيان من لفظه قال رأيت المذكور بالقاهرة وحضرت جلسة"[3] ويكـرر الشـيء نفسه عند ترجمته لسيرة أحمد بن عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز، يذكر قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: "وأخبرني من لفظه الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان قـال درس المذكور بالهكارية و القطبية وتولى الحسبة بآخره وكان له معرفة بـالأدب وتقييـده..."[4] ويبدوا أن الصفدي كثيرا ما كان ملازم أبو حيان. فهو يذكره في مواضع كثيرة من كتابه **الوافي بالوفيات**. ومن خلال هذه الملازمة والتردد عليه، كان يستفيد من الذين يجمع بهم عنده. فقد كان المغاربة والأندلسيون يقصدونه، مثلهم في ذلك مثل أهل المشرق من أجـل الانتفاع بعلمه ومعرفته، فنقل الصفدي عن أحد الأندلسيين، الذين إلتقاهم في بيـت أبـي حيان[5]، وهو محمد بن محمد الغرناطي، وأخذ الصفدي أيضا بعض الأخبار الشفوية عـن المؤرخ **ابن سيد الناس اليعمري الأندلسي**، مثل الخبر الذي يدور حول **الوزير فخر الدين الخليلي**[6].

---

[1] أبو شامة، الذيل على الروضتين، المصدر السابق، ص163.

[2] نفس المصدر، ص30.

[3] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص163.

[4] نفس المصدر، ج1، ص359.

[5] الصدفي، الوافي بالوفيات، ج1، ص222-237. كما ضمن كتابه بعض الأخبار كلها منقولة عن أبي حيان أنظر ذلك في ص177-206.

[6] نفس المصدر، ج1، ص218-239.

واعتمد المؤرخ الأدفوي صاحب كتاب **الطالع السعيد في تاريخ الصعيد** على عـــدد من المغاربة فأخذ من **الحسن بن عبد الرحيم السبتي** معلومات عن عدة أمـــور ،تتعلـــق بمدينة سبته المغربية[1] أما المصدر الشفهي الهام الذي استقى منه **الأدفوي** فقد تمثـــل فـــي شيخه **أبي حيان النحوي** الذي أخذ عنه شيئا كثيرا وبصورة مباشرة وكله دونه في كتابـــه الأنف الذكر[2] مثال ذلك ما أورده بقوله: "وحكى لي شيخنا أثير الدين أبو حيـــان... أنـــه اجتمع بأحد سكان مدينة قوص الذي قال له لو وجدت بالقاهرة رغيفين ما خرجت منها"[3] ويقول في مكان ثان وفي صدد حديثه عن محمد بن أحمد القرطبي: "حكى لنا شيخنا أثير الدين أبو حيان وقال وردت قنا وسمعت عليه من أول مسلم وامتدحته بقصـــيدة... وأخـــذ عن شيخه الباجي علاء الدين علي بن محمد خبرا عن ابن دقيق العيد"[4].

واعتمد **الداودي** في **طبقات المفسرين** على أقوال بعض المغاربة الشـــفوية[5] ونقـــل اليوسفي صاحب كتاب **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر** عن بعض المغاربـــة الـــذين عاصرهم بمدينة القاهرة خلال القرن (8هـــ/14م)، وأخذ بعض أقوالهم ودونها في كتابـــه المذكور منها ما أخذه عن الطبيب صلاح الدين المغربي رئيس الأطباء حول مرض أحـــد أبناء السلطان الناصر محمد بن محمد قلاوون[6] وأخذ عنه خبرا ثانيا حول الأمير بكنمـــز الساقي الذي مات مسموما[7].

واعتمد **علي ابن سيد الناس** الذي حكى له عن نزلة أصابت خده وكان يعاني منهـــا كثير بقوله: "وحكى لي أنه ذكر ذلك بعض الليالي في نفسه وقال يا سيدي يا رسول الله قد ضرني ما أرى من هذا الأثر في وجهي وتوسل به فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وقـــد مر بيده الطاهرة على تلك الكبة فانفجرت واستيقظ لما أحس منها و رآها وقد جرى منهـــا شيء كثير..."[8]، وذكر في مكان آخر أن ابن سيد الناس أوقفه على كتـــاب وصـــله مـــن

---

[1] الأدفوي، المصدر السابق، ص298.

[2] نفس المصدر، ص479، وانظر ص573-574.

[3] نفسه و في نفس المكان.

[4] الأدفوني، المصدر السابق، ص484.

[5] الداودي، طبقات المفسرين، ج2، ص165.

[6] اليوسفي (موسى بن محمد)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، الطبعة الأولى، عالم الكتـــب، بيروت 1986م، ص145.

[7] نفس المصدر، ص162.

[8] نفسه، ص217.

المغرب مع ابن عمه ودونه ،وهو خليط من نثر وشعر، و عرض عليه مراسلات له مع بعض العلماء[1].

وكان المغاربة المقيمون في الشرق يأخذون عن بعضهم بعضا كما فعل **ابن أبي حجلة التلمساني** صاحب كتاب **سكردان السلطان** الذي ذكر في هذا الكتاب أنه أخذ بعض ما يتعلق بواحدة من مسائل النحو يقول: قال الأستاذ أبو علي المالقي في واو الثامنية أنها لغة فصيحة لبعض العرب من شأنهم أن يقولوا إذا أعادوا واحدة، إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة ،عشرة، فهذه لغتهم ،ومتى جاء من كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو"[2].

و يحتوي كتاب **إنباء الغمر** لابن حجر العسقلاني بعض الأخبار الشفهية الصادرة عن مغاربة وأندلسيين بطريقة السماع المباشر، مثال ذلك ما ذكره في سياق ترجمة أحمد بن يحي التلمساني، الذي عرف بابن أبي حجلة أن صاحبه أبو زيد المغربي، كان قد أخبر ابن حجر شفهيا عند وصية لابن أبي حجلة ومفادها أنه قبل أن يموت أوصى أن يدفن معه ذلك الكتاب الذي وضعه في الحط على ابن الفارض الشاعر المتصوف المعروف الذي نهج منهج ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود.[3]

ويحتوي أيضا كتاب **طبقات الشافعية** لتقي الدين السبكي على بعض الأخبار التي نقلها عن أناس، سمعوها عن مغاربة وأندلسيين. فقد ذكر في ترجمة **عبد الرحمان إبراهيم الفزاري** المعروف **بالفركاح** ما يلي:

"أخبرنا الشيخ تاج الدين بن الفركاح و الشيخ فخر الدين ابن البخاري قرأه عليهما، قال الأول، أخبرنا الإمام شرف الدين محمد بن عبد الله بن المرسي قراءة عليه"[4] ونقل القفطي القفطي صاحب كتاب **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** خبرا عن بعض الأطباء المغاربة نزلاء مدينة حلب عند ترجمته للطبيب عبد السلام بن عبد القادر البغدادي بقوله: "أخبرني بن الحكيم يوسف السبتي قال كنت ببغداد يومئذ تاجرا و حضرت المحفل، و سمعت كلام ابن المارستانية، و شاهدت في يده كتاب الهيئة لا بن الهيثم..."[5].

---

[1] نفسه، ص220.

[2] ابن أبي حجلة، المصدر السابق، ص354.

[3] ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص81-82.

[4] السبكي، المصدر السابق، ج8، ص163-164.

[5] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص239.

و قد فعل مثل ذلك المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، الذي اعتمد في كتابه **ذيل تاريخ مدينة دمشق** على بعض الأخبار، التي استقاها من الفقيه محمد بن عبد الجبار الصقلي، الذي وصل إلى دمشق ضمن مجموعة من المغاربة خلال النصف الأول من القرن (6هـ/12م)[1]، يضاف إلى كل ذلك المعلومات التي كان ينقلها التجار و الحجاج على مختلف الأصعدة.

وهكذا يمكن أن نقول، إذا قمنا بإحصائيات دقيقة لمجموع الكتب التاريخية، التي ألفها المغاربة و الأندلسيون، أثناء وجودهم في المشرق العربي خلال العصور الوسطى، فان هذا المجموع، يصل إلى ما يقرب من أربعة و عشرين مؤلفا في شتى أنواع طرق الصناعة التاريخية. و أن الذي بقي من هذه المؤلفات المخطوط منها و المطبوع و قيد التداول، يقارب العشرة كتب تتفاوت من حيث ضخامتها، و يأتي في مقدمتها تاريخ ابن خلدون المسمى **العبر**، ويليه تاريخ الفاسي **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، ثم تاريخ البرزالي.

فيكونون قد أسهموا بجزء مهم في بناء صرح حضاري عربي في المشرق العربي، ومعظم هذه المؤلفات وضعت لغايات نبيلة، طالما افتقدها العرب في أيام المحن والشدائد، وهي إعادة الوئام و الوحدة لأجزاء من وطننا العربي مشرقه ومغربه.

هؤلاء المؤرخون لقد حلوا محل السياسيين والحكام في ربط صلة العرب والمسلمين ببعضهم البعض، ونشر الثقة والأمان في أوساطهم، و أملهم أن يكون مستقبل هذا الوطن مستقبل العزة والكرامة، مستقبل بلا حدود ولا جوازات ولا حواجز لمواجهة الخطر الأمريكي والأوروبي تحث قيادة صليبية جديدة.

ج) إسهامات المغاربة والأندلسيين في ميدان اللغة العربية وآدابها

يقصد بهذه العلوم ناحيتان هامتان من مجموع علوم اللغة العربية هما النحو والأدب، وسنقتصر على دراستهما هنا من خلال إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام خلال فترة هذا البحث.

وجد من بين المغاربة والأندلسيين، الذين عاشوا في المشرق العربي خلال العصور الوسطى، عدد لا يستهان به اهتموا بدراسة النحو وتدريسه والتأليف في مضماره،

[1] ابن القلاسني (حمزة بن أسد)، ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المثنى، بيروت 1908م، ص293.

وشغل أكثر هؤلاء دورا إيجابيا في ميدان هذا النوع من علوم اللغة العربية، وذلـــك مـــن خلال المهام والوظائف التي تقلدها بعضهم و أداها. فقد توصل هؤلاء إلى صعيد مناصب التأليف أو على صعيد الإدارة لمراكز تعليم لمادة النحو في مـــدارس و دور العلـــم فـــي المشرق العربي كله خاصة مصر و الشام[1].

و بصورة عامة فقد كانوا عناصر إيجابية في المشرق العربي إقترن وجودهم بالنفع و الفائدة، و عبروا بشكل دائم عن أهلية و براعة شبه كاملتين في التصدي لهذه المهمـــة الصعبة و تفوق نفر منهم إلى حد بلغ بهم الأمر إلى اكتساب سمة الخلود والبقاء وبخاصة من خلال مؤلفاتهم العلمية.

وقبل الشروع في تفصيل مساهمتهم في تبيان المهام التي تصدوا لها مـــن الجـــدير بالذكر أن نقول: بأن علم النحو كان من العلوم المزدهرة و المتطورة في الأندلس فقد نال هذا العلم منذ وقت مبكر إهتماما بالغا من رجال العلم هناك ، فوصل إلى درجة عالية من النضوج ، يمكن أن يضاهي من خلالها ما أنتجه علماء المشرق على حد ســـواء. وألـــف **إسماعيل بن القاسم** كتاب **البارع** و كتاب **المقصور و الممـــــدود** و ألف **ابن القوطيـــة** كتاب **الأفعال**. هذا عدا عن الكتب التي وضعها **أحمد بن ابن سعيد** المعروف بالعالم التي بلغت مائة سفر في النحو و الأدب، و ألف **أبو علي الشـــلوبين** كتـــاب **التوطئـــة علـــى الجزولية** وغيرهم كثيرون[2] والحقيقة أن سلسلة النحويين من الأندلس والمغرب لم تنقطع، بحيث من النادر أن تخلو منهم بعض أمكنة العلم و دوره خلال كل فترة هذا البحث، وقـــد تباين الدور الذي قاموا به أو الوظيفة التي شغلها كل و احد منهم بحيث لا يمكن المساواة فيما بينهم و اتسمت بعض أعمالهم بالجدية و التميز في أسلوبهـــــــا ومنهجها فهم إذن مجددون في مضمار علم النحو، و خاصة ما كان منه في حقل التأليف، و كانوا من ناحية أخرى صورة طبق الأصل عن نظرائهم من المشارقة الذين كثروا في هذه الفتـــرة مـــن

---

[1] إبراهيم العدوي، (تبادل الأساتذة بين الجزائر ومصر في القرن 9هـ/15م)، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد 2، السنة 1970م، ص50-56. سليم زيدان، (تطور الحساسية الأندلسية وأثرها في العلاقات الأدبيـــة بـــين الأنـــدلس والمشرق في عهد المرابطين من خلال كتاب أحكام صنعة الكلام للكلاعي)، مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد 20، السنة 1981م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ص195-210.

[2] المقري، المصدر السابق، ج3، ص171-172-184.

الزمن و الذين اقتصرت أعمالهم العلمية على شرح مؤلفات من سبقهم من العلماء والمبتكرين[1].

و لا يمكن للمرء أن يستنتج أو يقف على الدور الذي شغله المغاربة والأندلسيون بشكل واضح في مصر و بلاد الشام، كأن يصنف كل فئة منهم بصورة منفصلة عن الأخرى، بمعنى أن يصنف رؤساء المدارس على جهة و المدرسين على جهة والمؤلفين على جهة وهكذا، ومرد هذا يرجع إلى سبب وجيه، يتجلى بأن الغالبية العظمى منهم، اشتغلوا في كل هذه الفروع التي ذكرت، فكانوا شيوخ مدارس و مؤلفين و مدرسين في وقت واحد[2].

و قد قدر لمصر أن تحتضن واحدا من هؤلاء في حوالي سنة (500هـ/1107م) ألا و هو **أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن إبراهيم بن الأغلب السعدي الصقلي** المعروف **بابن القطاع** اللغوي النحوي الكاتب، و استقر بها حتى وفاته (ت515هـ/1121م)[3]، وقد لقيه المصريون بالحفاوة و بالغوا في إكرامه، وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدبا لولده في علوم العربية وفنون الأدب.

و **لابن القطاع** الصقلي كذلك عدة تصانيف أخرى منها: كتاب **الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة** أي جزيرة صقلية، اشتمل على تراجم مائة و سبعين شاعرا وعشرين ألف بيت من الشعر و كتاب **الأسماء في اللغة** جمع فيه أبنية الأسماء كلها، و كتاب **الأفعال** هذب فيه أفعال ابن القوطية و أفعال ابن طريف و غيرهما في ثلاثة مجلدات و له **تاريخ صقلية** و كانت وفاته بمدينة الفسطاط و دفن بقرب ضريح الشافعي[4].

و قد تتلمذ على ابن القطاع بمصر:

---

[1] عبد الحميد حاجيات، (مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية)، مجلة الثقافة، العدد81، الجزائر (1004هـ/1984م)، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، ص45-64.

[2] ليلى الصباغ، (الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث)، المجلة التاريخية المغربية، العدد7-8، سنة 1977م، تونس، ص28. علي أحمد، (بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن 6هـ حتى نهاية القرن 9هـ)، مجلة التاريخ العربي، العدد 15، السنة (1421هـ/2000م)، المغرب، الرباط، ص39 وما بعدها.

[3] المصدر السابق، ج2، ص236-238. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص532-533. راجع حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية 1958م، ص438-439. ومحمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، سلسلة الألف كتاب (عدد 455)، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة 1963م، ص118.

[4] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص533.

علي بن عبد الجبار بن سلامه الهذلي، اللغــوي التونســي نزيــل الإسكندريـــة والمتوفى بها سنة (519هــ/1125م)، الذي أجاد هو الآخر في علم اللغة و الشعر، وأكد **السلفي** على نشاطه في هذا الشأن، وأشار إلى إحدى القصائد التي كان ابن سلامة قد ألفها في الرد على أحد المرتدين ببغداد، وكانت عبارة عن أحد عشر ألف بيــت علـــى قافيـــة واحدة[1]. و تتلمذ كذلك على ابن القطاع الصقلي أحد اللغويين الأندلسيين و يدعى **نصرون بن حسين الجزري**، و الذي أدركه السلفي بمدينة الفسطاط و روى عنه شيئا من نـــوادره في اللغة[2].

و قد سبقت الإشارة إلى **أبي عمر الصقلي السرقوسي المقري**، و عالم النحو، الذي انتفع به أهالي الفسطاط و أقبلوا على حلقة علمه بمسجد عمرو بن العاص. و قد انتشرت بينهم مؤلفاته في الأدب و النحو، مثل حاشيته على كتاب الإيضاح، و مختصر له علـــى كتاب العمدة **لإبن رشيق القيرواني**[3].

و يشير **المقري التلمساني** إلى إثنين من الوافدين من أهل الأندلس، استقر أحـــدهما وهو أبو جعفر النحوي بمدينة الفسطاط و صار من رؤساء أهل العلم بالنحو بين أهلهـــا[4]. وأقام آخر و هو **أبو الحسن**، وقيل **أبو الفضل جابر بن أحمد بـــن عبـــد الله الخزرجـــي القرطبي** بمدينة الإسكندرية بعض الوقت و عرف عنه أنه كان أديبـــا ناظمـــا، أي يـــنظم الشعر، وقد كتب عنه المحدث المصري **أبو محمد العثماني السكندري** بعض شعره[5].

و يرجع الفضل إلى **الحافظ أبي طاهر السلفي** في إلقاء الضوء علـــى كثيـــر مـــن النوادر في الأدب و النحو و الشعر، التي كانت تتخلل دروس علمه بمدينة الإســـكندرية. وكان كثير الدارسين المغاربة و الأندلسيين أطرافا فيها من هؤلاء:

---

[1] القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، ج2، ص292-293.

[2] نفسه، ج3، ص247-248.

[3] انظر ترجمته فيما سبق، و راجع محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص123.

[4] المقري، المصدر السابق، ج3، ص262.

[5] و عن المحدث المصري أبي محمد العثماني (المتوفى 572هــ/1176م)، أنظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهـــرة، ج6، ص80. السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص375.

أبو محمد عبد الله بن حسن العبدري الأندلسي من جزيرة يابسة المتوفى بالإسكندرية (525هـ/1131م) الذي تصدر مع العطارين للإقراء و تدريس النحو، وأنشد السلفي بعضا من شعره[1]. و منهم أيضا:

أبو الحسين علي بن إبراهيم النحوي الصقلي المعروف **بابن المعلم** نزيل الفسطاط و المتوفى بها سنة (532هـ/1138م) و الذي أجاد في اللغة و النحو، و تصدر للإفادة بجامع عمرو بن العاص و كان إلى جانب ذلك على دراية بالطب و تعبير الرؤيا[2]. ومنهم:

أبو محمد عبد الله بن أبي سعيد الأنصاري الأندلسي المتوفى بالإسكندرية سنة (533هـ/1139م)، الذي وصفه السلفي بالأديب الفقيه، و روى عنه شيئا من شعره، وأكد أنه سكن محرس القشميري المشهور –آنذاك– بمدينة الإسكندرية مرابطا في سبيل الله[3]. ومنهم:

أبو الزهر ثابت بن المفرج بن يوسف الخثعمي الأندلسي البلنسي، الذي قدم إلى الفسطاط سنة (517هـ/1123م)، بعد خروج السلفي منها إلى الإسكندرية. وكان أبو الزهر –فضلا عن تفقهه بالمذهب الشافعي– من أهل الأدب و كان يقول الشعر، و استمر طوال إقامته بالفسطاط حتى وفاته سنة (545هـ/1150م) على علاقة طيبة بالسلفي وكان يرسل إليه بالإسكندرية بشيء من شعره[4]. و منهم:

أبو عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد المقرئ اللغوي و النحوي الأديب الأندلسي، الذي أعجب به السلفي كثيرا و روى عنه نادرة في النحو عن حرفين في اللغة مد أحدهما و لم يمد الآخر، رغم أن العكس هو الصحيح[5]. و منهم كذلك، إلى جانب من ذكرنا:

---

[1] إحسان عباس: المرجع السابق، ص62.

[2] القفطي: إنباه الرواة، ج3، ص220–221. وقد فسر ابن الملعم الصقلي رؤية رآها السلفي على نحو استراح معه السلفي، عن ذلك انظر: المصدر السابق، ص107.

[3] القفطي، المصدر السابق، ج2، ص108–109. و الظاهر أن محرس القشميري أسسه رجل هندي من إقليم قشمير (كشمير حاليا) بشمال الهند.

[4] ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، ج2، المصدر السابق، ص758، ترجمة رقم 1878.

[5] القفطي: إنباه الرواة، ج3، ص322–323.

أبو القاسم مكي بن محمد بن عيسى النحوي السوسي الذي أكد السلفي أنه كان موجودا بمدينة الإسكندرية قبيل سنة (543هـ/1148م)[1].

أبو العباس أحمد بن معد بن وكيل التجيبي الأندلسي النحوي اللغوي، الذي قدم إلى الإسكندرية حوالي سنة (546هـ/1151م) و قرأ على السلفي علوم الحديث و أنشده بعض شعره[2].

و ثمة حالة أخيرة تدلنا بوضوح على عظم حجم الدور الذي لعبه المغاربة والأندلسيون في مجال الدراسات اللغوية و النحوية بمصر خلال فترة البحث، و تتمثل في أن الفضل في التكوين العلمي لخاتمة علماء النحو المصريين في العصر الفاطمي، و هو:

أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار المتوفى سنة (582هـ/1186م)[3]. إنما يرجع إلى إثنين من علماء اللغة و النحو الوافدين هما:

أبو بكر محمد بن عبد الملك الأندلسي المعروف **بابن السراج** المتوفى بمصر سنة (549هـ/1154م)[4].

أبو طالب عبد الجبار بن محمد المعافري القرطبي الذي أقام بمصر سنة (551هـ/1156م) إلى سنة (566هـ/1170م)، أما **ابن السراج** فقد أقام بالفسطاط بعض الوقت منذ قدومه إليها في سنة (515هـ/1121م) و التقى خلالها بالسلفي أثناء وجوده بها آنذاك و انعقدت له حلقة علم بمسجد عمرو بن العاص أقرأ فيها مؤلفاته الخاصة في علم

---

[1] نفس المصدر، ج3، ص322-323.

[2] نفسه، ج1، ص136-137. إحسان عباس: أخبار و تراجم، ص24-25.

[3] هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري النحوي اللغوي، صاحب التصانيف الجيدة، أخذ النحو عن الأستاذين ابن سراج و أبي طالب عبد الجبار الأندلسيين أثناء مقامهما بمصر و درس كذلك الحديث و اطلع على أكثر كلام العرب. له على كتاب الصحاح للجوهري حواش فائقة تدل على سعة علمه، أفاد خلالها بتعليقات ابن القطاع الصقلي. و قصده الدارسون من بلاد شتى و كان يتولى هو الآخر مطالعة الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء لتصحيح الأخطاء اللغوية و النحوية. ولد بمصر سنة 499هـ/1105م، و توفي سنة 582هـ/1186م، خلال حكم صلاح الدين الأيوبي. راجع القفطي: إنباه الرواة، ج2، ص110. ابن خلكان: وفيات، ج2، ص292-293. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص103-104. السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص533.

[4] ترجم له: ابن الأبار: في التكملة، ج2، ص473، و المقري: المصدر السابق، ج3، ص7-8.

النحو و الأدب مثل: كتاب **تنبيه الألباب في فضل الإعراب** و كتاب في **العروض** وكتاب **مختصر العمدة في الشعر** لابن رشيق القيرواني.

و أما **عبد الجبار القرطبي** فقد درس لابن بري كثيرا من فنون النحو و لقنه الخط على طريقة المغاربة، إذ كان مشهورا بإتقانه غاية الإتقان[1].

و حدث أن أقدم بعض الأندلسيين و هو **محمد بن أحمد الإشبيلي (ت580هـ/1185م)** على كتابة تعليقة على كتاب سيبويه سماه **الطرر** يقول **الصفدي** عنها أنه "لم يسبق إلى مثلها..."، لذلك و استنادا إلى شهادة الصفدي هذه فإنه يمكن أن يقال عنه أنه كان من الذي جددوا في حقل النحو[2].

وفي مدينة دمشق قام **علي بن القاسم الإشبيلي** المعروف **بابن الدقاق (ت605هـ/1209م)** بشرح الجمل[3]، وقام بشرح الجمل أيضا **حلب علي بن محمد** المعروف **بابن خروف (ت609هـ/1213م)** لكنه زاد عن سابقه بأن جعل ذلك على نموذجين الأول سماه **شرح سيبويه** و الثاني سماه **شرح الجمل**[4].

و قد افتتح قائمة المؤلفات المبدعة و المبتكرة في المشرق العربي بإقرار الجميع واعترافهم النحوي المغربي **يحيى بن عبد المعطي الزواوي** الذي اشتهر **بابن معطي (ت628هـ/1233م)** الذي تصدر بجامع عمرو بن العاص بمصر بمدينة القاهرة و جاء إبداعه من خلال مؤلفه الذي سماه **الألفية** و الحق يقال أن ابن معطي يعتبر أول من ألف على هذا النمط من بين المغاربة و المشارقة على حد سواء لذلك فقد اشتهرت هذه الألفية في المشرق العربي كله خلال العصور الوسطى فكانت تذكر في كل موضع يدرس فيه النحو مما يدل بوضوح على أهميتها هذا بالإضافة إلى أن كثيرين من الذين جاؤوا بعد ابن معطي و كانت لهم عناية بالنحو قاموا بشرحها و تدريسها على أنها النموذج الأمثل والمفيد[5]، و لا يستبعد أن يكون ابن معطي هو الذي أوحى **لابن مالك** الذي سيذكر في

---

[1] ابن خلكان، المصدر السابق، ترجمة رقم 370.

[2] الصدفي، الوافي بالوفيات، ج2، ص113-114.

[3] بغية الوعاة، ج1، ص346.

[4] المقري، المصدر السابق، ج2، ص142-143. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، المصدر السابق، ص120.

[5] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص112. ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص129. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص533. شذرات الذهب، ج5، ص129. اليافعي المكي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط2، بيروت 1970م، ج4، ص66.

مكان تال بتأليف ألفيته التي فاقت هذه الألفية من حيث أهميتها و اشتغال العلمــاء فيهــا. وألف ابن معطي غير الألفية ما كان أقل أهمية منها مثل كتاب **الفصول في النحو** وشغل ابن معطي دورا بارزا إضافة للتأليف بأن أسهم في تدريس مادة النحو بدمشق و القــاهرة فتخرج على يديه الكثير من النحويين في هاتين المدينتين[1].

و كما كان ابن معطي أول المبتكرين في ميدان التأليف الذي حصل على شهرته من خلاله كان **القاسم بن أحمد المرسي** نزيل دمشق (ت661هــ/1263م) أول الذين تمكنــوا من أن يصلوا إلى مرتبة تدريسية إدارية عالية هي مشيخة علم النحو التي تشــبه رئاســة قسم من أقسام أية كلية في الجامعة فهو يشرف على تدريس النحو في المدرسة أو الــدار التي يعمل شيخا للنحو فيها و هو الذي يضع المناهج و يقررها و كثيرا ما كــان يــدرس بنفسه.

و كان عمل هذا الأندلسي في المدرسة **العادليــة*** بدمشق هذا بالإضافة إلى حلقة من الطلاب عهد إليه بمهمة تدريسها في المدرسة نفسها و تدريس مادة النحــو بالنيابــة فــي المدرسة **العزيزية*** و على الرغم من مقدرته العلمية التي أهلته لأن يكون شيخا للنحو في مدرسة من أهم مدارس دمشق و أكبرها فإنه لم يكن مبتكرا في حقل التأليف النحوي إنما إنكب على مؤلفات غيره فشرحها و فسر عباراتها بصورة مفصلة مثال ذلك أنه قام **بشرح الجزولية** و **شرح المفصل في النحو** و **شرح الشاطبية** و ربما هو أول أندلسي قام بشرح الجزولية و الشاطبية من نزلاء المشرق العربي من مغاربـــة و أندلسيين، و لا يســتبعد أن يكون أيضا هو الذي نقلها معه إلى بلاد الشام و انتشرت في كل أقطار المشرق العربي و خاصة الجزولية* و هذا التخمين لا يصل إلى درجة اليقين الكامل لأنه مــن المحتمــل

---

[1] ابن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص197.

* المدرسة العادلية التي تعرف بالعادلية الكبرى و هي من مدارس الشافعية بدمشق، تقع إلى الشمال من الجامع الأموي تجاه المدرسة الظاهرية يفصل بينهما الطريق أول من أنشأها نور الدين زنكي و توفي و لم يتممها ثم بنى بعضها الملك العادل الأيوبي و توفي و لم تتم فأكملها ولده المعظم (النعيمي، الدارس في تاريخ المــدارس، ج1، ص359)، و كانــت لفترة قريبة مقرا لمجمع اللغة العربية.

* المدرسة العزيزية هي للحنفية بدمشق بجانب المدرسة المعظمية بالصالحية بناها الملك العزيز عثمان بن الملك العادل الأيوبي وقد إندرست و لم يبق منها سوى عقد إيوانها و بعض جدرانها (النعيمي، الدارس في تــاريخ المــدارس، ج1، ص381).

* الجزولية نسبة إلى أبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي كان إماما في علم النحو كثيرا الإطلاع علــى غريبــه ودقائقه صنف في المقدمة التي سماها القانون أتى فيها بالعجائب و هي من الإيجاز مشتملة على كثير النحو حتى قيل=

أيضا أن يكون آخرون سبقوه في نقلها سواء من المغاربة أو غيرهم[1] أما النحـــوي الـــذي قدر لبلاد الشام أن تحتضنه حيث كان تأثيره كبيرا و أهميته بارزة من حيث تفوقه علـــى جميع من عمل في هذا الميدان في عصره ليس في الشام فحسب بل في معظـــم الأقطـــار المشرقية فهو **محمد بن عبد الله جمال الدين أبو عبد الله** الشهير **بابن مالك النحوي** وتأتي أهمية ابن مالك من الدور الكبير الذي شغله في الحياة العلمية بمدينة دمشق بصورة خاصة و في المشرق العربي بصورة عامة.فقد عمت شهرته و برز كمؤلف مبتكر فـــي ميـــدان النحو و كأستاذ لا يجارى و كرئيس لمشيخة النحو في إحدى أكبر المـــدارس الدمشـــقية وكصاحب طريقة في التدريس لم تكن معروفة قبله. تتلخص بأنه كـــان يستشـــهد خـــلال إعطاء الدرس بأمثلة من أشعار العرب فإن لم يجد يلجأ للإستشهاد بآيات القـــرآن الكـــريم فإن تعذر عليه الحصول على أمثلة من القرآن للتدليل على ما هو بصدد علاجه كان يلجأ إلى الحديث النبوي الشريف[2].

و أما مؤلفاته فهي كثيرة جدا من ناحية عددها و مضمونها تصل إلـــى أكثـــر مـــن عشرين مجلدا و قبل الحديث عن هذه المؤلفات التي تمتاز بالسهولة و الوضوح و خاصة المصنفات التعليمية[3].

و من هذه المؤلفات **الخلاصة** و هو الكتاب الذي عرف بالألفيـــة و يحتـــوي علـــى خلاصة منتقاة يبين فيها المقاصد و الأهداف من علم النحو و قد عبر عن ذلك شعرا فـــي بداية هذا الكتاب بقوله: أستعين الله في ألفيـــــة مقاصد النحو بهـــــا محويـــة

و يختم قوله : حوى من الكافية الخلاصة كما اقتضى رضا بلا خصاصة[4]

و قد صنف الخلاصة خلال فترة وجوده بمدينة حماة و ساعده فـــي ترتيبـــــــــــها ونسخها قاضي القضاة **شرف الدين البارزي**[5] و قد ضم مختصرا لكتاب آخر كان قد ألفه

أنه لم يسبق إلى مثلها و هي عبارة عن إشارات و رموز يصعب فهمها و إدراكها (مـــرآة الجنـــان و عبـــرة اليقظـــان لليافعي، ج4، ص9).

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص268-269. أبو شامة، المصدر السابق، ص227.

[2] الصدفي، المصدر السابق، ج3، ص359. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص452.

[3] دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مجلد1، ط 1933، ص273.

[4] المقري، المصدر السابق، ج2، ص423 و حاشية المحقق.

[5] ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت 1970م، ج2، ص318.

بمدينة حلب هو **الكافية الشافية**[1] و ألف أيضا **كتاب الموصل في نظم الفصل** قام بشــرحه فيما بعد بمؤلف آخر سماه **سبك المنظوم و فك المختوم**[2].

و له **كتاب إكمال الإعلام بمثلب الكلام** و**لامية الأفعال**، و**المقدمة الأسـدية** وضـعها باسم إبنه أسد و له كتاب **عدة الألفاظ** و**عمدة الحافظ** و**النظم الأوجز فيما يهز**، و**الإعتضاد بالظاء والضاد**، و**إعراب مشكل البخاري** و**تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** وهـو كتـاب جمع فيه مسائل النحو فأتى على ذكر كل مسألة من مسائله و قواعـده. و معظـم هـذه المؤلفات صنفها خلال فترة إقامته بمدينة دمشق[3]. و له أيضا كتاب آخر سماه **نظم الفوائد** و هو عبارة عن مجموعة فوائد و ضوابط نحوية مختلفة صاغها بقالب شعري مختلـف الروى.

و له بعض المجاميع التي تحتوي على قواعد و ملاحظات و فتاوى جوازية لم يكن هو الذي جمعها و أعدها إنما الذي جمعها عنه مجموعة من تلاميذه و ربما حدث ذلك من خلال المحاضرات و الدروس التي ألقاها بالمدرسة العادلية بدمشق[4].

و قد اعتبر **ابن مالك** أحد أكبر النحويين الذين كاد أن ينازع **سيبويه** شهرته فقدم من خلال مصنفاته النحوية التي مر ذكرها خدمة حقيقية خالدة لعلم النحو[5] كما اعتبر من جهة جهة ثانية صاحب مدرسة نحوية كبيرة كان لها ميزاتها و أهميتها البارزة، وخاصة فـي الفترة التي أعقبت وفاته و وصل تأثير هذه المدرسة إلى درجة أن كبار المهتمين بـالنحو وشؤونه إشتغلوا بشرح مؤلفاته و كأنها وضعت حدا للإبداع و التجديد. لم يتمكن النحويون أن يتجاوزوا هذا الحد و أن الذين شرحوها و ألفوا حولها لم يجدوا أنه باستطاعتهم عمـل شيء أكثر من تفسيرها بصورة سهلة و مبسطة. و من هؤلاء الشارحين على سبيل المثال **الشهاب الشاغوري** الذي قام بشرح كتاب **تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد** و وصل فيـه إلى باب مصدر الفعل و أكمله فيما بعد **صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي**.

و شرحه العلامة الكبير **أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسـي** المتـوفى سنة (745هـ/1361م) في عدة مجلدات و سماه **التحصيل و التفصـيل لكتـاب التـذييل**

---

[1] ابن الجزري، المصدر السابق، ج3، ص181. المقري، المصدر السابق، ج2، ص423.

[2] نفس المصدر، ج2، ص423.

[3] حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، المرجع السابق، مجلد 1، ص5. المقري، المصدر السابق، ج2، ص423.

[4] السيوطي، بغية الوعاة، ج3، ص360.

[5] دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 1، ص272-273.

والتكميل إضافة إلى عدة حواشي عليه وشرحه العلامة **بدر الدين محمد الدماميني** بعد أن نقله معه إلى الهند حيث طلب منه شرحه على اعتبار أنه كان من الكتب المجهولة هنـاك وشرحه كثيرون غير هؤلاء[1].

و أما كتابه **الكافية الشافية** فقد شرحه هو الآخر عدد من العلماء منهم **محمـد بـن علي النقاش المصري** المتوفى سنة (763هـ/1362م) و ذيل عليه **محمود بـن محمـد الحموي** بخمسمائة بيت سماها **وسيلة الإصابة** نظمها سنة (805هـ/1403م) ثـم قـام بشرحها[2] وهذا إن دل على شيء إنما يدل على المستوى الرفيع و المتقدم الذي بلغه ابـن مالك في ميدان النحو و ربما لم تعرف بلاد الشام نحويا طيلة فترة العصور الوسطى مثل ابن مالك هذا سواء من حيث علمه و سعة إطلاعه أو من حيث المؤلفات الكثيـرة التـي وضعها في علم النحو والعربية.

و قد تخرج على يديه عدد كبير من الطلاب كان لهم شأن متميز فيما بعد سواء في حقل علم النحو أو في حقل الإدارة منهم على سبيل المثال : **المـزي** و**العـالم الفـارقي** و**الشمس البعلي** و**الشيخ النووي**[3] والمدرس **محمد بن عبد الرحمن السـلمي** المعـروف **بابن الفويرة** المتوفى سنة (675هـ/1277م)[4] و **زين أبو البركات المنجا بن عثمان بـن أسعد الدمشقي** المتوفى سنة (695هـ/1262م)، والذي برع في علم النحو علـى حيـاة أستاذه ابن مالك الذي قال عنه عندما سئل عن شرح الألفية **شرحها لكـم ابـن المنجـا**[5] و**محمد ابن إبراهيم الأزرعي** الذي ولي قضاء دمشق سنة (705هـ/1306م)[6] و**محمـد شمس الدين الأنصاري** الشافعي الذي يعتبر من أفضل من تخرج على ابن مالك في مجال النحو و العربية توفي بعد أستاذه سنة (628هـ/1284م)[7] و**محمود بن سليمان بن فهـد الحلبي** المتوفى سنة (725هـ/1325م) وتسلم كتابة السر فوصفه بعضهم بأنه لم يكن بعد

---

[1] حاجي خليفة، المرجع السابق، مجلد 1، ص40 وما بعدها.

[2] نفس المرجع، مجلد 2، ط1، إستانبول 1943، ص1369.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص427-428.

[4] اليونيني (موسى بن محمد)، ذيل مرآة الزمان، ط1، مجلس دائرة المعارف الإسلامية حيدر أبار الدكن، 1960م، ج3، ص203.

[5] النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص120-121.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص278.

[7] اليونيني، المصدر السابق، ج4، ص197.

القاضي الفاضل مثله و بقي في ديوان الإنشاء نحوا من خمسين سنة بمدينة دمشق ومصر[1] و غيرهم كثيرون.

و من ناحية أخرى لاقى **ابن مالك النحوي** من الإهتمام بعد وفاته ما لم يلقه أحد من قبله و لا من بعده في كل بلاد الشام خلال العصور الوسطى فأثنى عليه كثيرون كانت لهم معرفة ضليعة بعلم النحو مما يجعل أقوالهم و شهاداتهم موضع ثقة و تصديق كبيرين. فقد وصفه بعضهم بالكمال شبه المطلق و المعرفة شبه الكاملة بدقائق النحو و العربية في كل زمان و مكان ذكر فيهما .فقد دلل **ركن الدين بن القويع** على أن **ابن مالك** وضع حدا لعملية الإبتكار و التجديد في ميدان النحو لا يمكن تخطيه أو تجاوزه فكان يقول دائما: "أن ابن مالك ما خلى للنحو حرمة..." و قال **شرف الدين الحصني** يرثيه مبينا منزلته و تميز شخصيته في مجال علمه و عبر عن كبر الفاجعة و التي ألمت بعلم النحو من جراء موته يقول :

يا شتلت الأسماء و الأفعال	بعد موت ابن مالك المفضال
و انحراف الحروف بعد ضبط	منه في الإنفصال و الإتصال
و مصدرا كان للعلوم بإذن	الله من غير شبهة و محال[2]

و لم يكن ابنه محمد المعروف **ببدر الدين أبو عبد الله** (ت686هـ/1287م) بمستوى والده من حيث النضوج العلمي ولا من حيث التجديد في حقل التأليف على الرغم من أنه استطاع أن يقف على بعض أخطاء كان قد وقع بها والده و قد تسلم مشيخة النحو **بالمدرسة العادلية** بدمشق بينما كان والده رئيسا للمدرسة كلها يضاف إلى ذلك انه كان يعيد في المدرسة **الأمينية*** بدمشق.

و على الرغم من حياته اللاهية إذا قورنت بحياة والده الجادة فقد عرف عنه بعض المؤلفات الهامة في النحو منها شرح ألفية والده المعروفة بالخلاصة أجاد شرحها بأن نقحها و فصلها بشكل يسهل فهمها و الإفادة منها. وأشار إلى بعض الأخطاء التي وقع بها والده من قبل. يقول الصفدي صاحب كتاب الوافي بالوفيات عن هذا الشرح: و لم تشرح

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص236.

[2] الصدفي، الوافي بالوفيات، ج2، ص362-369.

* هي إحدى المدارس الشافعية و تقع إلى الجنوب من باب الزيادة أحد أبواب الجامع الأموي و المسمى قديما بباب الساعات، بناها أمين الدولة ربيع الإسلام سنة (531هـ/1136م)، (النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص177-178).

الخلاصة بأحسن و لا أسد و لا أجزل على كثرة شروحها و من مؤلفاته الأخرى **كتاب المصباح** و هو مؤلف يحتوي بعض مبادئ النحو و طوره في مؤلف أوسع و أشمل سماه **روضة الأذهان**[1]. و قد أسهم **عثمان بن علي السرقوسي الصقلي** في علوم النحو بمصر كان ذلك من خلال قناتين حيث كان مسؤولا عن تدريس حلقة في جامع عمرو بن العاص حيث انتفع به كثير من طلبة العلم حتى قيل أن الطلاب كانوا يتنافسون باقتناء تصانيفه وحضور دروسه، و القناة الثانية التي أسهم من خلالها في ميدان النحو كانت التأليف حيث صنف **كتاب الحاشية** على **كتاب الإيضاح** و هو في غاية الجودة و **كتاب مختصر عمدة ابن رشيق** الذي يقول القفطي عنه: "و شاهدت هذا المختصر بحلب بخطه عند ابن القيسراني و قد زاد فيه أبوابا أخل بها ابن رشيق و هي واقعة موقعها من التصنيف"[2].

ويمكن وضع مثيل له و خاصة في حقل التأليف النحوي **محمد بن عبد الله محمد المرسي** (ت655هـ/1257م) الذي صنف عدة كتب نحوية كان منها **كتاب الضوابط النحوية في علم العربية** و **كتاب الإملاء المفصل** و كتابا في **البديع والبلاغة**... وذكره غير واحد مثل **إبن النجار** الذي قال عنه في كتاب تاريخ بغداد: "هو من الأئمة الفضلاء في فنون العلم" و قال **الفارسي** في تاريخ مكة له: "له من التصانيف الكافي في النحو"[3] واعتاد الأندلسيون و المغاربة على الإعتماد على مؤلفات بعضهم بعضا في التأليف أو التدريس أو الشرح إلى غير ذلك.

مثال هؤلاء مثل **أحمد بن أحمد الأندلسي** (ت690هـ/1291م) الذي قام بشرح كتاب **الفصول لابن معطي** و يعتقد أنه الوحيد الذي شرح هذا الكتاب سواء من المغاربة أو المشارقة على حد سواء[4].

و قام بعضهم بإدخال كتب لم تكن معروفة في المشرق العربي كما فعل **محمد بن إبراهيم السبتي** نزيل قوص (ت695هـ/1296م) الذي أدخل **شرح أبي الربيع** إلى مصر و هو أول من أدخله إلى المشرق بالإعتماد على معطيات المصادر و هو شرح **كتاب الإيضاح في النحو** الذي اختصره في مجلد واحد و صاحبه هو **أبو الحسن أحمد الفاسي**

---

[1] الصدفي، الوافي بالوفيات، ج3، ص362-363.

[2] القفطي، إنباء الرواة على أنباء النحاة، ج3، ص342-343.

[3] الداودي، المصدر السابق، ج2، ص198 وما بعدها.

[4] الفيروز أبادي (محمد بن يعقوب)، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تحقيق: محمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1972، ص32.

النحوي (ت377هـ/988م) و له أيضا كتاب **شرح المحصول للقرافي**. وقد أسـهم فـي الحركة الثقافية بصورة متميزة عن غيره من الذين ذكروا حتى الآن بأن أوقف جميع مـا يملكه من كتب في خزانة الكتب التابعة لجامع مدينة قوص و يبدو أنها كانت كثيرة كونـه كان من الميسورين[1].

و ترك **محمد بن حجاج الحضرمي أبو عبد الله** المعروف **بابن مطرف الإشـبيلي** بمكة سنة (706هـ/1307م) ترك مؤلفا بسيطا جدا هو **التقيد علـى جمـل الزجاجـي** وظهر بالقاهرة نحوي أندلسي يتساوى مع ابن النحوي السابق الذكر في ناحية واحدة هي المعرفة الواسعة بعلم النحو و الخدمات التي قدمها في هذا المضمار هذا النحوي هو **محمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الغرناطي** نزيل القاهرة (ت745هـ/1348م) وقد طبـع العصر الذي عاش فيه باسمه، فكان يختفي أمامه و يصغر كل مشتغل بالنحو بدون جدال و لا مناقشة فوصفه بعضهم بأنه إمام الدنيا في علم النحو.

و قد خلف **أبو حيان** تركة غزيرة و قيمة في ميدان النحو لكنه لم يصل إلى درجـة ابن مالك النحوي ولاسيما على صعيد الإبتكار الذي لم يتمكن على ما يبدو أن يكون فيـه متميزا و كل الذي خلفه عدة مؤلفات نحوية جديدة اقتصر بعضها على شـرح مؤلفـات وضعها نحويون سابقون مثل **ابن مالك** الذي قام أبو حيان بشرح كتابه **التسـهيل** وسـمى شرحه هذا **التذليل و التكميل في شرح التسهيل** و **منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك**. هذا بالإضافة إلى أنه كان لا يدرس إلا ثلاث مصادر نحوية هي: كتب ابن مالـك، وكتب سيبويه وكتبه هو. ويمكن تفسير هذه المسألة أنه لم يكن مبدعا في مجال التـأليف والنحو و ربما يعود ذلك إلى أنه لم يقتصر على علم النحو كما كان ابن مالك و غيره من النحويين بل أجاد في عدة علوم غير اللغة العربية مثل القـراءات، والتفسـير، وعلـوم القرآن، و بعض العلوم التطبيقية و غير ذلك.

و من مؤلفاته أيضا كتاب **شرح كتاب سيبويه** و كتاب **التجريـد لأحكـام سـيبويه** وكتاب **المبدع في التصريف** و كتاب **اللمحة** و كتاب **الشـذرة** و كتاب **الإرتضـاء فـي**

---

[1] الأدفوي، المصدر السابق، ص477 وما بعدها.

الفرق بين الضاد و الظاء و كتاب **نكت الأمالي** و كتاب **تحفة الندس في نحاة الأنـــدلس** إلى غير ذلك مما لم يكمل تصنيفه[1].

و تأتي عظمة الدور الذي شغله في ميدان النحو من أن كبار علماء النحو في عصره و لفترة غير قصيرة من بعده تخرجوا عليه بمدينة القاهرة و كان منهم على سبيل المثـــال **تقي الدين السبكي** و**والده**، و**الجمال الأسنوي**، و**ابن قاسم**، و**ابن عقيل** و**السمين**، و**نـــاظر الجيش**، و**السفاقسي**، و**ابن مكتوم احمد بن محمد الدمشقي**، و**أبو بكـــر بـــن أيدغـــدي**، و**إبراهيم بن أحمد الخشاب**، و**صالح بن محـــــمد القيمري**، و**محمد بن محمد الغمـــاري**، و**محمد بن علي الشقوري الغرناطي**، و**شيخ آمد أحمد الحنبلـــي** و**الأدفـــوي** و غيـــرهم كثيرون[2].

والحقيقة التي لا بد من قولها أن أبا حيان و ابن مالك شخصيتان نحويتان لم يظهـــر في مشرق الوطن العربي و لا في مغربه من يوازيهما في هذا العلم و ذلك طيلة أربعـــة قرون في الفترة الأخيرة للعصور الوسطى و قد رثاه بعض معاصريه فعكسوا من خـــلال مرثياتهم المكانة الكبيرة التي كان يشغلها على صعيد النحو، يقول تلميذه الصـــفدي مـــن قصيدة طويلة في رثائه: مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق و استعبرا.

إلى أن يقول: و النحو قد سار الردى نحوه و الصرف للتصريف قد غيرا[3].

و مهما يكن من أمر فإن منطقة المشرق العربي لم تعرف نحويا مثل أبي حيان فيما تبقى من العصور الوسطى اعتبارا من سنة وفاته و هي فترة تنوف قلـــيلا عـــن قـــرنين ونصف القرن من الزمان لم تعرف مثله لا من المغاربـــة و لا مـــن المشـــارقة و ظـــل المؤلفون يذكرونه كنحوي أغدق في العطاء و الإنتاج العلمي.

---

[1] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص267 وما بعدها. ابن ثغري بردي، المصدر السابق، ج10، ص111-112. ابـــن رافع السلامي، المصدر السابق، ج4، ص71-72. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص280 وما بعدها.

[2] العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص145. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص280 وما بعـــدها. ابـــن الجـــزري، المصدر السابق، ج2، ص285 وما بعدها. ابن قاضي شهبة (تقي الدين أحمد)، طبقات النحويين واللغـــويين، تحقيـــق: محمد عناص النجف الأشرف، 1974م، ص289 وما بعدها.

[3] الصفدي (صلاح بن أيبك): نكت الهيمان في نكت العميان، ط1، نشر أحمد زكي بك، المطبعـــة الجماليـــة، القـــاهرة، 1911م، ص281.

و ترك النحوي المغربي **حسن بن قاسم المراكشي** الشهير **بابن أم قاسم** (ت749هـ/1349م) ترك عدة مؤلفات نحوية معظمها شروح لكتب أخرى مثال ذلك أنه قام بشرح **ألفية ابن مالك، وكتاب التسهيل**، وكتاب **شرح الجزولية** و**الكافية الشافية**، و**شرح كتاب الفصول** لابن معطي، و**الحاجبية النحوية**.

و أبدع في كتاب واحد هو كتاب **إعراب القرآن** حيث لم يرى مثله من ذي قبل هذا بالإضافة إلى صعوبة إعراب القرآن و إن دل هذا على شيء فإنما يدل على صبره الكبير من جهة و معرفته المتعمقة في ميدان النحو من جهة أخرى[1].

و يشبه إلى حد ما **محمد بن علي الدكالي** المغربي المعروف **بابن النقاش** حيث اقتصر إنتاجه العلمي على عدة شروح لكتب سابقة هي **شرح التسهيل** و **شرح العمدة** في عدة مجلدات و **شرح ألفية بن مالك** و **كتاب النظائر** و **الفروق**[2].

و عاصره بمدينة دمشق نحوي أندلسي هو **محمد بن الحسن المالقي** (ت771هـ/1370م) الذي اشتهر كرئيس **للخانقاه النجيبية*** و كمدرس للنحو و كان يدرس كتابه الذي سماه **شرح التسهيل** و قد جاء مقتضبا بشكل يسهل معه فهمه واستيعابه.

و ذاعت شهرة نحوي عربي مغربي بمدينة دمشق أيضا هو **أحمد بن محمد العنابي** (ت776هـ/1365م) الذي لقب بشيخ النحاة لمعرفته العميقة في تفاصيل مادة النحو.

و قد درس بصورة فعلية و مستمرة في مدرستين هما **الناصرية الجوانية*** و**الخانقاه الأندلسية*** على الرغم من مكانته المرموقة في ميدان النحو فإنه لم يكن من المبدعين في التأليف و كل الذي عمله هو **شرح التسهيل لابن مالك**.

---

1 الداودي، المصدر السابق، ج1، ص139. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص116.

2 ابن حجر، نفس المصدر، ج2، ص200 وما بعدها.

* تقع داخل المدرسة التي تعرف بالنجيبية، و هي ملاصقة للمدرسة النوورية من جهة الشمال. بناها جمال الدين أقوش الصالحي النجمي في النصف الثاني من القرن (7هـ/13م) و هي إحدى مدارس الشافعية. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص469.

* الناصرية الجوانية: تقع إلى الشمال من الجامع الأموي، أنشأها الملك يوسف بن صلاح الدين، و كانت قبل ذلك تعرف بدار الزنكي المعظم و فرغ من عمارتها أواخر سنة (653هـ/1255م). النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص459.

* الخانقاه الأندلسية: بناها محمد بن أحمد بن يوسف الأندلسي داخل مدرستهم المعروفة بالكلاسة بالجامع الأموي. العلموي، مختصر تنبيه الطالب، ص140.

أما تلاميذه فقد كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن ذكرهم جميعا منهم على سبيل المثال **بدر الدين أبو عبد الله محمد بن احمد** المعروف **بابن مكتوم** (ت797هـ/1395م) الذي عمل معيدا في **المدرسة العادلية الصغرى** و **الناصرية** و **الجامع الأموي** مدة خمس عشرة سنة كان خلالها مسؤولا عن **مشيخة النحو بالناصرية** المذكورة[1].

و بمدينة حلب ظل **محمد بن أحمد بن جابر** المعروف **بأبي عبد الله الأعمى المغربي** (ت780هـ/1379م) ظل يشغل الطلبة في النحو مدة ثلاثين عاما متواصلة أمضاها بالتدريس و التأليف و كان من أهم كتبه **شرح الألفية لابن مالك** وعلى الرغم من أنه شرح فقد اعتبر من المؤلفات الجيدة التي كان لا بد منها للمبتدئين بدراسة النحو ونهج في هذا الشرح طريقة مبتكرة سهلت عملية دراسته و تجلت هذه الطريقة بأن أرفق الشرح بالإعراب.

و تدل هذه الشروح العديدة لمؤلفات **ابن مالك النحوي** بصورة أكيدة على مدى الأهمية البالغة لإنتاجه الذي كان بمعظمه جديدا و مبتكرا، فاشتغل كثير من النحاة في شرح هذا الإنتاج و تفسيره و ربما تعود هذه الظاهرة إلى الأسلوب الذي إتبعه ابن مالك، بالإضافة إلى سعة المعلومات التي تضمنتها مؤلفاته ولاسيما المسائل النحوية المعقدة، الأمر الذي يجعل الفائدة منها نادرة إذا ما أرغم الطلاب على دراستها كما وضعها ابن مالك. لذا ليس غريبا أن يكون إقبال الكثيرين على شرحها منطلقا من هذا الواقع... وانحصر إبداعهم في هذا المجال كونهم وجدوا من الصعوبة مجاراتها أو وضع ما يماثلها على ما يبدو أضف إلى ذلك أنهم لم يتمكنوا من التركيز على دراسة النحو وفهم تفاصيله كما حدث لابن مالك نفسه و فوق كل ذلك أنهم وجدوا في عصر لا يقيم للعلم وزنا إذا ما استثني علم الحديث و الفقه.

و ترافق ذلك مع وجود هجمات خارجية كانت تهدد المشرق العربي و بخاصة بلاد الشام بين الحين و الآخر حتى توجت بغزو **تيمورلنك** لحلب و دمشق خلال السنوات الأولى من القرن (9هـ/15م)، و التي اتسمت بالتخريب والدمار على كل صعيد و بشكل خاص على الصعيد العلمي، فقتل كثير من العلماء و تعطلت المدارس و توقفت حركة العلم لفترة طويلة. مثال ذلك المدرسة العادلية التي كانت لها أهميتها الكبيرة في حقل

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص371-372.

التدريس حيث توقفت عن استقبال الطلاب من سنة (803هـ/1401م) حتى سنة (838هـ/1435م).

ففي رواية **لابن قاضي شهبة** في الذيل ينقلها **النعيمي** في كتابه **الدارس** يبين هذا الواقع بوضوح: "في شهر ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة وفي يوم الأربعاء خامسة حضر قاضي القضاة سراج الدين الحمصي بالغزالية و درس في قوله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو... ثم ذهب إلى العادلية الكبرى فدرس فيها أول المنهاج و من تمرلنك إلى الآن لم يدرس بها أحد و كذلك لم يدرس بها المذكور غير هذا الدرس"[1].

و **لابن جابر الأعمى** عدة مؤلفات أخرى مثل كتاب **نظم الفصيح** و **كتاب كفاية المتحفظ** و هو خاتمة المغاربة و الأندلسيين في بلاد الشام من الذين يمكن تصنيفهم على أنهم خدموا الحركة الفكرية و ساهموا بصفة خاصة في مادة النحو عن طريق التدريس والتأليف بينما كان الأمر أحسن حالا في مناطق المشرق العربي الأخرى و خاصة بمصر التي لم تصلها الهجمات الآنفة الذكر و إن كان الأمر لا يخلو من اضطراب داخلي كان شبه مستمر بين السلطان و الأمراء، الأمر الذي إنعكس بصورة مباشرة على الحركة العلمية و هذا ما جعل النحويين خلال القرن (9هـ/15م) يختلفون عن الذين سبقوهم بشيء رئيسي يتجسد بأن السابقين كانوا مبدعين إلى حد ما بينما اقتصر معظم هؤلاء على شرح كتب غيرهم.

لعل في مقدمة هؤلاء **عمر بن علي الأندلسي** المعروف **بابن الملقن** المتوفى بالقاهرة سنة (804هـ/1402م) الذي اكتفى بشرح عدة كتب مثل: **المنهاج** و**التنمية** و**الحاوي** إلى غير ذلك[2] و يشبهه النحوي **محمد بن عمار** المتوفى بالقاهرة سنة (844هـ/1441م)، الذي قام بشرح **كتاب التسهيل** وسماه **جلب الموائد** و**المغنى لابن هشام** و**سماه الكافي الغني** في ثمانية مجلدات[3] ومثله فعل **محمد بن محمد الغرناطي** (ت853هـ/1450م) فشرح عدة كتب هي **الألفية** و**الأجرومية** و**القواعد** وغيرها[4] وعلى الرغم من أن نزيل القاهرة **أحمد بن محمد القسنطيني** كان قد أشتهر في زمانه

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص367.

[2] أنباء الغمر، ج2، ص216 وما بعدها.

[3] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص203-204.

[4] السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص203. نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص166-167.

ولقب **بشيخ النحاة** وقيل عنه أقوال تكفي للبرهان على أنه بلغ مستوى رفيعا في ميـدان علم النحو قال **السيوطي** عنه: "و أما النحو فلو أدركه الخليل لأتخذه خليلا..." و مع ذلـك فإن آثاره لم تكن تتناسب مع ما قيل عن علمه و أهليته العلمية ،حيـث اقتصـر إنتاجـه العلمي على **الشرح المغنى** لابن هشام و على حاشية على كتاب **الشفاه**[1] و مهما يكن من أمر فإنه على الرغم من تفاوت النحويين المغاربة والأندلسيين في المستوى والأهلية كسعة الإطلاع والحفظ وبالتالي المهمة التي تصدوا لها فإنهم أسهموا جميعا من خـلال عمليـة التدريس في المدارس ودور العلم أو من خلال المؤلفات التي خلفوها و أسهموا في إحياء علوم النحو والصرف في كثير من الأحيان ساعدهم في ذلك تضلعهم في هذا العلم، فبـدا واضحا من خلال المناصب التدريسية الرفيعة التي شغلوها في مدارس الشرق حيث تسلم عدد منهم مشيخة النحو في عدة مدارس ومساجد و بلغ عددهم تسعة من أصل أكثر مـن مئة نحوي مغربي وأندلسي وتسلم من هذا العدد أربعة شيوخ مدارس ودور علم شـهيرة كما في الجدول:

[1] ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النـور، ط1، دار التراث، القاهرة 1970م، ج1، ص95 وما بعدها. السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص375 وما بعدها.

المدينة التي تقع فيها المدرسة	مرتبته	مكان عمله و زمان إنتهائه	الإسم
طرابلس الشام	مدير هذه الدار	دار علم طرابلس	أبو عبد الله الطليطلي
دمشق	شيخ النحو فيه	المسجد الأموي (595هـ/1138م)	ابن معطي النحوي
دمشق	رئيس مدرسة	المدرسة العادلية الكبرى (672هـ/1273م)	محمد بن عبد الله الشهير بابن مالك النحوي
دمشق	مشيخة النحو بالعادلية و نائب مدرس بالعزيزية	المدرسة العادلية و العزيزية (661هـ/1262م)	القاسم بن أحمد المرسي
دمشق	شيخ النحو فيها و معيد بالأمينية	المدرسة العادلية (686هـ/1287م)	محمد بن محمد جلال الدين أبو عبد الله
دمشق	مشيخة الأقراء فيهما	الأشرفية و تربة أم صالح (718هـ/1318م)	محمد بن قاسم المرسي
دمشق	مشيخة الخانقاه نفسها	الخانقاه النجيبية (771هـ/1369م)	محمد بن الحسن المالقي
القاهرة	شيخ النحو في هذه الأمكنة	عدة أمكنة بالقاهرة (745هـ/1344م)	محمد بن محند أثير الدين أبو حيان الغرناطي
دمشق	شيخ النحاة فيهما	الناصرية الجوانية و الخانقاه الأندلسية (776هـ/1374م)	أحمد بن محمد العنابي
القاهرة	شيخ النحاة فيها	عدة أمكنة بالقاهرة	أحمد بن محمد القسنطيني

تعني كلمة أديب على وجه الدقة أن صاحبها إما يجيد الكتابة النثرية في عدة مواضيع، وإما يجيد قرض الشعر في مناسبات مختلفة.

و إنطلاقا من هذا التعريف لكلمة أديب و إذا ما طبق بشكل دقيق على المغاربة والأندلسيين الذين وفدوا إلى مصر و بلاد الشام في أوقات مختلفة من فترة هذا البحث فإنه

يظهر جليا أن الذين عملوا في ميدان الكتابة النثرية مثل تصنيف الكتب الأدبية أو أي شيء من هذا القبيل كانوا قليلين جدا و إذا وجد أثر لبعضهم فإن مجال إنتاجهم وكتابتهم تعد في مجال الخطابة أو القيام بشرح و تبيان معنى قصيدة من القصائد الشعرية أو غير ذلك، أما الذين اشتغلوا في ميدان الضرب الثاني أي قول الشعر و نظم القصائد فهم كثيرون جدا بمعنى أن جميع المغاربة و الأندلسيين على مختلف فئاتهم العلمية كانوا يقرضون الشعر تقريبا في مناسبات متعددة.

و لم تكن هذه السمة مقتصرة عليهم فحسب بقدر ما كانت سمة عامة تميز بها العلماء العرب المسلمون خلال العصور الوسطى موضوع هذا البحث. فإستنادا إلى هذا الواقع فإن هذه الدراسة ستبني على من إتخذ من قول الشاعر حرفته الرئيسية كمصدر للتكسب و الحصول على المال بالدرجة الأولى و من لم يتخذ من الأدب بشكل عام مصدرا للتكسب بالدرجة الثانية، لأن كلا الجانبين أورث أدبا رقيقا من مديح و وصف وهجاء إلى غير ذلك حيث لا يخلو ديوان شعر أو كتاب أدبي ألف خلال فترة هذا البحث من قليل أو كثير من أشعارهم و أدبهم الرفيع، و جاء بعده الشاعر **مواهيب بن جديد المغربي** مصطنع الدولة الذي مدح حاكم اليمن الملك **المفضل بن أبي البركات الحميري** في ذي جبلة سنة (503هـ/1110م) بقصيدة قافية نال على أثرها مالا كثيرا منها:

هذي الخميلة للربيع المونــــق   من وشي ذاك البارق المتأنـــق
وتلفتت بغداد ترجو مقدمـــي   فعل المحب إلى الحبيب الشيــق
فرفضتها شوقا إلى ذي جبــلة   وتركت كل الملوك أهل المشرق
فقصدت أفضلها المفضل مقدما   نحو المقدم زاهدا فيمن بقـــي[1]

و هو الذي بلغ في مصر وبلاد الشام في فترة البحث مبلغا كثيرا من الرقي والإزدهار وهذا بفضل تشجيع الخلفاء الفاطميين ثم الأيوبيين وبعدهم المماليك للشعراء وإغداقهم الهبات والعطايا وكانوا يجرون عليهم الأرزاق، وجعلوا لبعضهم رواتب تجارية[2]

[1] اليمني، تاريخ اليمن المسمى، المفيد في أخبار صنعاء و زبيد و شعراء ملوكها و أعيانها و أدبائها، تحقيق: محمد الأكوع الحوالي، اليمن، 1973م، ص285.

[2] محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص158. بشير المسبحي: أخبار مصر القسم الأدبي، ص63-65. إلى أسماء بعض القادة و كبار رجال الدولة الفاطمية الذي اختص كل منهم ببعض الشعراء يمدحونه و نجد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إجتبى عددا من الشعراء من المغاربة و الأندلسيين.

هذا فضلا عن أن الخلفاء والملوك كانوا يتذوقون الأدب والشعـــر، ويتقنونه[1] هذا ما ساعد مصر وبلاد الشام لتصبحا وجهتين للشعراء والأدباء المغاربـــة والأندلســيين فجـــأة فـــي مقدمتهم: • **مروان بن عثمان المكي** (ت525هـــ/1131م)[2].

• الشاعر الأديب **أبو الصلت بن أبي الصلت الأندلســـي** (ت528هــــ/1134م).[3]

وبالنسبة للمكي فيصف كامل حسين و ما وصلنا من شعره بأنه من نوع الغزل الخفيــف الذي نلمح فيه سهولة تتفق مع رقـــة الغـــزل وعاطفـــة الحـــب و مثـــال ذلـــك قولـــه[4]:

ما بال قلبك يستكيــــــن   أبه غرام أم جنـــــــــون
برح الخفاء بما يجــن   فاذهب الشك اليقيـــــــن
حتى متى بين الجـــوا   نح و الضلوع هوى دفين
و إلى متى قلب النتيم   في البلوى رهيــــــــــن

و لاحظ كذلك كامل أن العاطفة الشعرية عند مكي تتفق و أسلوب أهل مصــــر الآن، لاسيما في البيت الثالث من مقطوعته التي منها:

تمكن من السقم حتى كأننــــــــي   توهم معنى من خفى ســـــــــؤال
و لو سامحت عيناه عيني في الكرى   لأشكل من طيف الخيال خيالـــــي
سمحت بروحي و هي عندي عزيزة   وجدت بدمعي و هو عندي غالـــي
و قد خفت أن تقضى على منيتـــــي   و لم أقض أو طاري بيوم و صال
وأهون ما ألقى من الوجد أنـــــــه   صدود دلال لا صدود مـــــــلال[5]

---

[1] ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص97. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة فـــي ملـــوك مصــــر و القـــاهرة، ج4، ص133. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، ج1، ص558.

[2] العماد الأصفهاني، الجريدة، ج2، ص100-101.

[3] هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الإشبيلي كان عالما في فنون شتى مثل الأدب و الشـــعر والطب و الفلسفة و المنطق، و التنجيم و الهندسة و الموسيقى... و يقول أبن سعيد عنه: " يقال أن عمره كـــان ســـتين سنة: عشرون في إشبيلة، عشرون سنة إلى المهدية، وعشرون سنة محبوسا في خزانة الكتب " وعـــن حبســـه يقـــول : "وكان قد خرج من اشبيلية، فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين، وتوجه في رسالة إلى مصر فسجن في القاهرة فـــي خزانة البنود وكانفيها خزائن من أصناف الكتب فأقام بها نحو عشرين سنة فخرج منها و قد برع في علوم كثيـــرة مـــن حديثه و قديمه". ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص261-262. أنظر أيضا المقري: نفح الطيب، ج1، ص530، ج2، ص307-311. و انظر أيضا: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص361.

[4] العماد الكاتب الأصفهاني، المصدر السابق، ج2، ص101. محمد كامل، المرجع السابق، ص280.

[5] محمد كامل، المرجع السابق، ص280.

أما **أمية بن أبي الصلت**، فيمكن القول بأنه كان –منذحضوره إلى مصر في سنة (489هـ/1096م) حتى خروجه إلى المهدية بإفريقية سنة (506هـ/1112م)– محورا لحركة أدبية نشطة، تخللها الإطلاع على محتويات خزانة الكتب بالقصر الفاطمي ومدارسة أدباء مصر وعلمائها في تخصصات عديدة فضلا عن نظمه للشعر والنثر في مختلف المناسبات. و قد جمع هذا كله في مخطوطته التي وصلتنا بعنوان **الرسالة المصرية** و عدت بحق وصفا دقيقا للمجتمع المصري خلال هذه الفترة[1].

و شهدت هذه الفترة كذلك ذروة نشاطه في التأليف العلمي في فنون شتى من أدب وطب ومنطق وفلك وتنجيم، بحيث لخص **المقري التلمساني** حال إبن أبي الصلت أثناء مقامه بمصر، بأنه كان "محبوسا في خزانة الكتب"[2]. و قد اتصف إبن أبي الصلت بغلبة روح النقد تجاه من لقيهم من أدباء مصر و شعرائها. رغم أن أحكامه كانت شديدة على معظم هؤلاء الأدباء و الشعراء، إلا أن الموضوعية التي إلتزمها إبن أبي الصلت تدل على بعد صيته و رسوخ قدمه في سوق الأدب و الشعر. ففي تعليقه على زلة وقع فيها أحد شعراء الأفضل عندما طلب منه أن يصف زهر الأترج المصبوغ فأنشد:

كأنما أترجه المصبغ   أيدي جناة من زنود تقطع

يقول إبن أبي الصلت في ذلك: "فغلط و لم يفطن، و أساء أدبه و لم يشعر، لأنه قصد مدح الأترج فقزز نفس الملك (أي الوزير الأفضل) و صرفها عنه، ولو قصد ذمه لما زاد على ما وصف به من الأيدي المقطوعة من زنودها". و يختتم ملاحظته قائلا: "و البليغ الحاذق من إذا وصف شيئا أعطاه حقه ووفاه شرطه و وصفه بما يناسبه في حالتي مدحه و ذمه و وضع كل شيء في مكانه في نثره و نظمه"[3].

رغم أن إبن أبي الصلت قد أبدى إعجابه بأحد الشعراء المصريين، و يدعى **أبا الطاهر بن إسماعيل بن محمد** المعروف **بإبن مكنسة**، ووصفه بأنه: "شاعر كثير التصرف، قليل التكلف، مفتن في وشي جد القريض وهزله و ضارب بسهم في رقيقه

[1] راجع: ابن أبي صلت (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي)، الرسالة المصرية، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة 1953م، ص6–56.

[2] المقري، المصدر السابق، ج2، ص308.

[3] ابن أبي صلت، المصدر السابق، ص44. و اسم هذا الشاعر: أبو الحسن علي بن جعفر، من أهل معرة النعمان من أعمال الشام الذي ينسب إليها أبو العلاء المعري الشاعر المشهور.

وجزله" [1]، و رغم هذا فقد عبر إبن أبي الصلت عن رأيه بصراحة في بعض أبيات شعرية أنشده إياها إبن مكنسة على أنها من نظمه. وكان رد إبن أبي الصلت يدل بوضوح على سعة إطلاعه، إذ قال بعد أن أثنى على المعنى العام للأبيات: "و لكنه سرقه بيتين أنشدنيهما بمصر رجل يسمى أبا محمد التكريتي من تلاميذ **أبي حامد الغزالي** (الإمام المشهور) لأبي حامد (نفسه)، ولم أسمعهما من غيره". و ذكر البيتين بعد ذلك فإذا هما يدوران حول ذات المعنى الذي قصده إبن مكنسة، بل جاءت الكلمات متطابقة في معظمها[2].

و من الشعراء الذين أعجب إبن أبي الصلت بهم، و أورد لهم شيئا من نظمهم: أبو الحسن علي بن البرقي، الذي أثار إبن أبي الصلت إلى انه كان من أهل قوص بصعيد مصر، و أنشد له[3]: رماني الدهر منه بكل سهم و فاجاني ببين بعد بين

و جمع في فؤادي كل حزن و فرق بين أحبابي و بيني

ففي قلب حرارة كل قلب و في عيني مدامع كل عين

وذكر له أيضا قوله: ولي سنة لم أدر ما سنة الكرى كان جفوني مسمعي والكرى العذل

و يبدو أن الشاعر **أبا نصر ظافر بن قاسم** المعروف **بالحداد السكندري**، كان الوحيد الذي سلم من نقد من إبن أبي الصلت، بل إن الإثنين إرتباطا بعاطفة ود قوية تمثلت في مقطوعة شعرية نظمها الحداد عند رحيل إبن أبي لصلت إلى المغرب، و عبر فيها عن حزنه الشديد لفراقه. و قد إعتز إبن أبي الصلت كثيرا بها و ضمنها رسالته[4].

و ممن تصادق مع إبن أبي الصلت أثناء مقامه بمصر: **الأمير أبو الثريا** الذي عد من أمراء مصر مدة حكم الأفضل. و قد جرت بينهما مساجلات شعرية، نذكر منها تلك التي أجاب فيها أبو الثريا على كتاب لوم و عتاب كان أبن أبي الصلت قد بعثه إليه، وجاء فيها:[5] أبا الصلت يا قطب المكارم و الفضل و أفضل من ينمي إلى كرم الأصل

ومن حاز أسباب الرياسات بالعلا وبالجود والفعل الجميل و بالنبل

---

[1] ابن أبي صلت، المصدر السابق، ص43-44.

[2] نفس المصدر، ص49-50.

[3] نفسه، ص52.

[4] ابن أبي صلت، المصدر السابق، ص53-54.

[5] العماد الكاتب الأصفهاني، المصدر السابق، ج2، ص117.

و أصبح في كل العلوم مبرزا يسابق فيها كل مجر على رسل، و منها:

ألا أرجع إلى الفضل الذي أنت أهله وخذ بيدي عفوا و أن زل بي نعلي

و لأبي الثريا كذلك في جواب ثان على إبن أبي الصلت، و قد بعث إليه الأخير بخطاب مدح:

قد أتتني منه حديقة مـــــدح فـــاح من عرفها فتيق الخزامــي
وقف السحر عندها ليس يدري أين يمضـــي: يمانيا أم شامـــا[1]

و ممن اشتهر بإجادته الشعر من الدارسين المغاربة و الأندلسيين أثنـاء وجــودهم بمصر: المقرئ و الفقيه و المالكي و عالم النحو:

أبو محمد عبد الله بن أبي سعد الأندلسي، المعروف **بالكاسات**، نزيل مصر و المتوفى بها سنة (520هـ/1162م)[2]. و قد وصف بأنه "كان خفيف الروح كثير المجـون، يضـحك بنوادر و سخفه المحزون". و الحق أن ما وصلنا من شعره و شيء من نشـاطه العلمـي بمصر يدلنا على غير ذلك. إذ أن الكاسات أحد علماء القراءات و النحو الـذين تصـدوا لإفادة هذين التخصصين في حلقة علم أفردت له بمسجد عمرو ابن العاص بالفسطاط، كما أنه في مقطوعاته الشعرية كان مثالا للشاعر المقتدر المعتز بنفسه، مثال ذلك قوله:

نبل العلا بسوى الإحسان ممــتنع و اللؤم طبع لمن في عرضه طبع[3]
والحر يألف ما يأتيه من كــــرم فليس يردعه شيء و لا ينــــزع
والمجد ينفر مثل الوحش عن نفر يكفيهم الري دون المجد و الشــبع
ماتوا و فاتوا فما ضروا بموتــهم خلقا كما أنهم عاشوا و ما نفــعوا
تبا لهم، جمعوا مالا و غالهـــم عنه الحمام فما فازوا بما جمعوا[4]

---

[1] نفس المصدر، ج2، ص118.

[2] نفسه، ج2، ص61-62. والقفطي: إنباه الرواة، المصدر السابق، ج2، ص110. راجع: إحسان عباس: أخبار وتراجم أندلسية، نشر و توزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان 1963م، ص55-56. و لاحظ أن الكاسات قد اجتمع بالحافظ السـلفي و روى عنه الأخير بعض شعره.

[3] الطبع (بالفتح): اللؤم.

[4] العماد الكاتب الأصفهاني، المصدر السابق، ج2، ص61-62.

حتى في نظم المديح الذي يقرضه الشعراء عادة للإسترزاق، بدا الكاسات أكثر دقـــة في إستخدام الألفاظ التي تنم عن طبيعة عمله كأستاذ في القراءات. فقد ورد عنه أنه قـــال في وصف دار الملك بالقاهرة:

شماء كالجبل الراسي يجاورها بحران: نيل و نيل، كيف ينقطـــع

كأنها كعبة و القاصدون لهـــا مثل الحجيج، إذا طافوا بها ركعوا

و منها:

لا ترض لي بسوى الإكرام جائزة فليس مثلي بكسب المال ينتفـــع

و اخلع على دنو منك ينفعنـــــي ما ليس ينفعني الأموال و الخلع[1]

و مما أثر عن الكاسات في الزهد و النصيحة ، قوله:

تزود و ما زاد اللبيب سوى التقوى عساك على الهول العظيم بها تقوى

فمن لم يعمر بالتقى جدثـــا لــــــه فمـــاله في خلـــده منزل أقـــــوى[2]

و كعادة البشر في كل زمان و مكان، غالى **أبو محمد عبد الله ابن محمد بن عبـــد الله الكناني الأندلسي** من أهل جزيرة يابسة أما السلفي في وصف نفسه بأنه شاعر وبأنـــه تلقى هذا الفن عن مشاهير عصره بالأندلس[3]. و أنشد لنفسه بعض أبيات شعرية، جعلـــت السلفي يراجع هذه المقولة، وهذه الأبيات مع دارس آخر من مواطني الكناني هـــو: **أبـــو العباس أحمد بن يوسف ابن نام، اليعمري البياســـي**[4]، الذي أكد للسلفي صحة شكوكه في **أبي محمد الكناني**، عندما أجاب: "عبد الله كذاب، لا يعول عليه في شيء"[5].

---

[1] نفس المصدر، ج2، ص62.

[2] إحسان عباس: المرجع السابق، ص56. وهذان البيتان مما أرسلهما–عن الكاسات–ابن موهوب المصري من الفسطاط إلى الحافظ السلفي بالإسكندرية.

[3] نفس المرجع، ص45–46. وقد انعكس هذا على أن السلفي بعد أن سرد سيرة أبي محمد الكناني، و قبل أن يســـتطرد في ذكر أبياته الشعرية، صرح بكلمة "والعهدة عليه"، بمعنى أن السلفي ليس مسؤولا عن صحة هذه المقولة التي قالهـــا أبو محمد عن نفسه.

[4] احسان عباس، المرجع السابق، ص17–19. بمعنى أن السلفي قد ترجم لأبي العباس اليعمري مرتين، وصفه بالصدق في سيرته و حديثه.

[5] نفس المرجع، ص46.

و مما يذكر للشاعر **أبي الخليل احمد بن مفرج بن احمد الصقلي** المعروف بتلميذ **إبن سابق** المتوفى بمصر سنة (536هـ/1141م)[1] قيامه بمناورة شعرية لطيفة جعلت الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله يرجع عن تنفيذ قرار كان قد أصدره بشان تخفيض عدد الساعات المقررة للشعراء الذين يجتمعون كل يوم حول القصر لإلقاء قصائدهم في المديح، بعد أن كثر إطنابهم لدرجة غير عادية، و أمروا بناء على ذلك بالاختصار في قصائدهم، فما كان من **ابن مفرج** إلا أن خاطب الحافظ قائلا:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا — لم لا أمرت ندى كفيك يختصر؟

و الله لا بد أن تجري سوابقنا — حتى يبين لها في مدحك الأثر

فأمر الحافظ بالعودة إلى ما كانوا عليه ،و جعل لهم الرسم يوما كاملا[2].

و من الطريف ما روى عن إعتراض الشاعر **مجير بن محمد الصقلي** المتوفى حوالي سنة (540هـ/1145م) على زميله في الصنعة **أبي عبد الله مسلم** الذي طلب منه أن ينظم "السيرة المصرية" و جعل له راتبا شهريا خمسة دنانير، فطلب الزيادة فزيد نصف دينار. إذ عد الشاعر مجير هذا التصرف من أبي عبد الله يحط من قدر الشعراء جميعا و هجاه قائلا:

جرى الحديث فقالوا كل ذي أدب — أضحت له خمسة دنانير تجري بمقدار

بأي فضل حواه إبن مسلم من — دون الجماعة حتى زيد في الجاري

أجروا له خمسة عن حق سيرته — فقال: لا تنقصوا حق أشعاري

نادوا عليه و سوق الشعر نافقة — فلم يزد قدرها عن نصف دينار[3]

و قد وردت عن القاضي **الجليس بن الجباب** صاحب القصائد التي ألهبت حماس **ابن رزيك** قبل ذلك، منظومات أخرى قالها في أغراض شتى من غزل، و وصف الطبيعة و

---

[1] ابن ميسر (محمد بن علي بن يوسف): أخبار مصر، تحقيق: هنري ماسيه، مطبوعات المعهد الفرنسي بالقاهرة، 1919م، ج2، ص85. ابن سعيد الأندلسي (أبو الحسن علي بن موسى): النجوم الزاهرة، تحقيق: حسن نصار، دار الكتب، 1970م، ص329-330.

[2] نفس المصدر، في نفس المكان.

[3] محمد كامل حسين: المرجع السابق، ص160.

في العتاب و الإستبطاء و الشكوى[1]. و من طريف ما روى عنه قوله على سبيل المداعبة لطبيبه اليهودي **إبن السديد**، الذي كان يعالجه من الحمى:

و أصل بليتي من قد غزانـــــي   من السقم الملح بعسكرين
طبـــيب طبـــه كـــعذاب بـــيـــن   يفرق بين عافيتي و بيني
أتى الحمى و قد شاخت و باخت   فرد لها الشباب بنسختين
و دبـــرها بتـــدبيـــر لطـــــيف   حكاه عن سنان وحـــنين
و كانت نـــوبة فـــي كـــل يـــوم   فصيرها بحذق نـــوبتين[2]

و لما برئ من مرضه على يد ذات الطبيب، أنشد يمدح حذقه:

يا وارثا عن أب و جد   فضيلة الطـــب والسداد
و كاملا رد كل نفـــس   همت عن الجسم بالبعاد
أقسم أن لو طببت دهرا   لعاد كونا بـــلا فســـاد[3]

و يبدو أن المكانة التي نالها القاضي الجليس لدى **الخليفة العاضد الفـــاطمي** كانـــت مثار حسد بعض زملائه من شعراء الخاصة. و قيل في ذلك أن الشاعر **أبا القاسم هبـــة الله بن البدر** المعروف **بابن الصياد** كان مولعا بهجاء القاضي، كثير التهكم بأنفه الكبيـــر، وقيل أيضا أنه أنشد أكثر من ألف مقطوعة في أنف الجليس، و أن الشاعر المصري **أبـــا الفتح بن قادوس** قد رد على ابن الصياد مدافعا عن الجليس قائلا:

يا من يعيب أنوفنا الشـــ   مم التي ليست عـــــاب
الأنـــف خلقة ربنـــــــا   و قرونك الشم إكتساب[4]

وقدر لأسرة الشاعر **ابن هانئ الأندلسي** أن يكون احد أفرادها –و هو **القاسم محمد بن إبراهيم بن هانئ** (ت565هـ/1170م)– من شعراء الخاصـــة فـــي أخريـــات أيـــام الفاطميين. و له مطلع يمدح بها أحد الخلفاء الأواخر:

---

[1] العماد (الكاتب الأصفهاني)، المصدر السابق، ج1، ص194–199.

[2] نفس المصدر، ج1، ص192.

[3] العماد، المصدر السابق، ج1، ص193.

[4] نفسه و نفس الجزء، ص245. راجع: محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص253. حيث تبريـــر لطيـــف لموقـــف الشاعر ابن قادوس الممالئ لابن الجليس.

إمسحوا عن ناظري كحل السهاد و انفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا منـــــي الذي أبقيتــــم مــــا أحب الجسم مسلوب الفــؤاد[1]

و قد تعرض **أبو القاسم محمد** لدسيسة من أحد حاسديه نجحت في إبعاده عن المكانة التي صارت له، و كاد يفرط له في العقاب. صاحب هذه الدسيسة **الموفق بــن الخــلال**، متولي ديوان الإنشاء لدى الخليفة، الذي بث بيتا من الشعر في هجاء الخلافــة الفاطميــة، مدعيا أنه من نظم إبن هانئ[2].

و من الشعراء المغاربة الذين وردت بشأنهم روايات خلال العصر الفاطمي... **سالم بن ظافر الإفريقي**، الذي أكد **العماد الأصفهاني** كثرة مجونه و تعمده خدش الحياء العــام، وامتنع عن إيراد مقطوعات شعرية له[3]. و على العكس منه حرص **أبو موسى عمران بن علي بن الحسين الفاسي**، على ترديد منظومات أساتذته المصريين، ممن شاع عنهم الزهد و الورع. فكان أن روى عن **ابن الجهم الحوفي** بناحية قلقشندة من أعمال القليوبية بالوجه البحري، ما صورته:

أزف الرحيل و ليس لي من زاد غير الذنوب لشقوتي و نكادي
يا غافلا عما جنيــت و حيرتــي يوما ينادي للحساب منــــادي

و منها: يا غافلا من قبل الموت فاتعظ وألبس ليوم الجمع ثوب حداد[4]

وما دمنا بصدد الحديث عن الشعر والشعراء المغاربة في مصــر خــلال العصــر الفاطمي، فتجدر الإشارة إلى أن مدرسة الشعر في مصر قد بدأت تشهد في أخريات هــذا العصر تغيرا هاما تمثل في بداية معرفة أهل مصر لنمط الشعر الغنائي بأســلوب أهــل الأندلس، أو ما عرف **بالموشحات الأندلسية**[5]، وكان من الطبيعي أن يلعب بعض الوافدين –الأندلسيين خاصة– دورا رئيسيا في هذا المجال.

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص565.
[2] محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص357–358.
[3] العماد، المصدر السابق، ج2، ص118.
[4] نفسه، ص199–200.
[5] راجع ما قيل في التعريف بالموشحات وظروف نشأتها بالأندلس. على سبيل المثال لا الحصر: ابن خلدون: المقدمــة، تحقيق: علي عبد الوافي، ط3، دار النهضة، مصر 1981م، ج3، ص1337–1350. و انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط19826، ج3، ص203. و بالنثيا (أنخل جنثالث): المرجع السابق، ص142–143. محمد زكريا عناني: الموشحات=

مثال ذلك ما رواه الحافظ السلفي عن إثنين ممن وفدوا عليه بمدينة الإسكندرية وهما: **أبو الخطاب عمر بن محمد بن عتيق بن معمر المري** من مدينة المرية[1]، و **أبو محمد عبد الله بن محمد بن ملول التنوخي** ،من نواحي لورقة بشرق الأندلس[2].

أما **أبو الخطاب،** فقد ذكر السلفي أنه أنشده أحد موشحات **عبادة القزاز** –وشاح الأندلس الشهير– التي سمعها من **ابن القزاز** نفسه، وجاء فيه[3]:

هل يتاح للأرواح   من ظباك يا سفاك
أن تراح أو ترتاح   عن رضاك في مرآك

و منه:

يا أقاح يا فواح   من حماك من مضناك
و أباح صرف الراح   من لماك للمسواك

أما أبو محمد التنوخي، فقد ذكر للسلفي خبرا عن إقامة أحد الوشاحين الأندلسيين –ويدعى **عمران موسى بن محمد بن بهيج الكفيف المري** من مدينة المرية– بمصر بعض الوقت، و أنه عملا خلاله موشحا أوله[4]:

يا منجمينا   هل للغريب سبيل
نحو الظاعنينا   فالقلب منه عليل

الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، العدد 31، جويلية 1980، حيث تدور المقالة كلها حول الموشحات و أشهر الوشاحين في الشرق و الغرب. أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، مصر 1982م، ص137-152. أحمد صادق الجمال: الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة و النشر بالقاهرة، 1966، ص97-101.

[1] إحسان عباس: المرجع السابق، ص75-77 رقمي 46-47. و قد أورد السلفي عن أبي الخطاب المري مقطوعة شعرية جاء فيها:

أبيت أراعي النجم طورا، و تارة   أغمض أجفاني حياء من النجم
من أجل غزال لحظه لحظ جؤذر   و خداه روض، قطفها بيد الوهم

[2] إحسان عباس: المرجع السابق، ص43-44، رقم21.

[3] نفس المرجع، ترجمة أبي الخطاب المري.

[4] نفسه، ترجمة ابن ملول التنوخي.

لا يلقى معيـــنا	إلا دموعا تسيل
و يجريها هتونا	من جفنه تسيل

و منه:

حكى نوح الحمـــــام	ممـــا به غـــــــرام
نوحا كنوح المـــــام	علـــى ذي الأكــــــام
عدا يجري بانسجـــام	دمعا كصوب الحمام
يشكو لكــل الأنـــام	ما بالحشا من كـــام

و تمخص ذلك عن ظهور **علي بن عباد الإسكندرني** المتوفى أيام الخليفة الفـــاطمي الحافظ سنة (531هــ/1137م) بموشحته التي مدح فيها **محمد بن أسامة** أحـــد مـــوظفي الدولة الفاطمية[1]. ثم **نصير الأدفوي** (ت550هــ/1155م) الأديب الشاعر، الذي كان ينظم الشعر و الموشح و هو صاحب الموشح الذي شاع بين أهالي مدينة أدفو المعاصرين لـــه، وتغنوا به و جاء فيه [2]:

يا طلعة الهلالي	هل للذا لي	في الحب منتظر
يا غاية الأماني	أما لي	من الهوى مفر
أما الداني راقي	من راقي	قدرا على الأنام
زها بحسن الساقي	و الساقي	من ريقه الدام
به فؤادي باقي	و الباقي	في لجة الغرام
و سست و الخلاق	أخلاقي	بالصبر إذا هجر
فلذ للمذاق	مذاقي	في حبه السهر

أبو محمد عبد الله بن سلامة: أصله من بجاية، ورحل إلى مصر و أقام فترة مـــن الزمن في الإسكندرية ثم في مصر و الصعيد و الريف و هو القائل فيها:

لي حرمة الضيف لو كنتم ذوي كرم	و حرمة الجار لو كنتم ذوي حسب
لكنكم يا بني اللخنـــاء ليـــس كلكـــم	فضل و لا انتم من طينة العـــرب[3]

---

[1] العماد، المصدر السابق، ج2، ص44. راجع: عبده إسماعيل الطهطاوي، اللغة العربية في مصر من الفـــتح العربـــي حتى أواخر القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة (د.ت)، ص333.

[2] الأدفوي: المصدر السابق، ص390-392.

[3] العماد، المصدر السابق، ج1، ص343.

علي بن يقظان السبتي: أصله من سبته و قد ذكره بعض أهل الأدب بمصر قال: "ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع و أربعين و خمسمائة و مضى منها إلى اليمن، ورحل من جديد، و سافر إلى المشرق في طلب الرزق وزار العراق و دار الأفاق يمدح أهلها"[1].

إبن شقرون السبتي: الذي ذكر عنه في سنة (573هـ/1177م) أنه كان يعيش بمصر، و له مدح في عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين[2].

يوسف القسطي: من الجزيرة الخضراء، كان في أواخر المائة (6هـ/12م) بالمشرق، وقد مدح عبد المؤمن أيضا[3].

أبو عبد الله أبو حامد محمد بن عبد الرحيم: المازني القيسي الغرناطي ولد عام (473هـ/1077م) و نزل بالإسكندرية سنة (508هـ/1114م) فيها سمع عن **أبي عبد الله الرازي**، و بمصر عن **أبي صادق مرشد بن يحي المديني** و **أبي الحسن الفراء الموصلي** و **أبي عبد الله محمد بن بركان بن هلال النحوي** و غيرهم، و حدث بدمشق وسمع أيضا بها و ببغداد التي قدمها سنة (556هـ/1261م)، و دخل خرسان و أقام بها مدة ثم رجع إلى الشام و أقام بحلب سنين و سكن دمشق[4].

هذه أمثلة قليلة لعلماء مغاربة كثيرين نزحوا إلى المشرق الإسلامي و تنقلوا بين مراكزه العلمية المختلفة و استقر بعضهم في هذه المراكز وقد ذكر المقري في النفح أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل الأيوبي رقعة في ورقة بيضاء: إن قرأت في ضوء السراج ظهرت فضية، و إن قرأت في الشمس كانت ذهبية، و إن قرأت في الظل كانت حبرا أسودا. و من الأبيات التي جاءت فيها و التي تتوج أهداف المغاربة:

لئن صدني البحر عن وطني   و عيني بأشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لي مكة   بأنوار كعبته الزاهرة
و زخرف لي بالنبي يثربا   و بالملك الكامل القاهرة

[1] العماد، المصدر السابق، ج1، ص343.
[2] نفسه، ج1، ص345.
[3] نفسه، ج1، ص348.
[4] المقري، المصدر السابق، ج3، ص5.

فرد عليه الملك قائلا بل قال: وطيب لي بالنبـــي طيبـــة وبالملك الكامل القاهرة

و بعد ذلك الشاعر **ابن خروف القرطبي** نزيل حلب المتوفى سنة (604هــ/1207م) أو (605هــ/1208م)، فوضعه بعضهم في قائمة الشعراء المشاهير في المغرب والمشرق العربي على حد سواء فقد مدح الكثير من أهل المغرب و خاصة الحكام منهم قبل أن يأتي إلى المشرق مثل حاكم سبتة الموحدي **إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن** بقصيدة طويلـــة جمع فيها بين الوصف لمدينة سبتة و بين مدح حاكمهـــــا و إطرائه[1] و كان آخــر مــن مدحه من المغاربة **أبو عبد الله محمد بن عياش** كاتب الحضرة بمراكش لدى **يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي** و إبنه من بعده، وحدث أن أعطاه قدرا من المـــال لـــم يعجبه فاغتاظ و رده إليه و نظم قصيدة بهذا الشأن يستدل من خلالهـــا أن التكســـب مـــن الشعر في المغرب كان لا يكفي آنذاك يقول:

مدحت ابن عياش فجدد لي الذي حباني به ما قد تناسيت من كربـــــي
رددت إليه عظمه لأســـــــــره و أقبلت أمحو ما كان في قلبـــــــــي
و أصبحت أسمو للمشارق طالعا لأني رأيت الشمس تنحط من الغـــرب[2]

و في مدينة حلب التي راقت له الحياة فيها قال عدة قصائد تنوعـــت أغراضـــــها ومضامينها مثل قصيدته التي قالها في غلام حكم عليه بالسجن و هو لم يبلغ سن الرشـــد فأنحى باللائمة على القاضي الذي أصدر الحكم في هذا الغلام بقوله:

أقاضي المسلمين حكمت حكما غدا وجه الزمان به عبوســـا
حبست على الدرهم ذا جمـــال و لم تسجنه إذ سلب النفوسا[3]

و لعلا أهم قصائده خلال هذه الفترة تلك القصيدة المادحة التي جاء بها إلـــى بـــلاط الملك **الظاهر بن صـــلاح الـــدين الأيـــوبي** فـــي إحـــدى ليـــالي رمضـــان مـــن ســـنة (604هــ/1207م) و التي أشاد من خلالها بحكام بني أيوب، في مناقبهم و حسن ســـيرهم في ميدان الحكم و الرياسة، لكن الموت لم ينتظره حتى يلقيها في حضرة الملك الظـــاهر

---

[1] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، المصدر السابق، ج1، ص136.

[2] نفسه، ج1، ص139.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص395-396.

وعثر عليها في جيبه فأمر الظاهر بأن تصرف جائزته عليها بالصدقة عنه و تجهيز جنازته و دفنه و من هذه القصيدة:

شمس الهداية في أبناء أيوب   أخت النبوة في أبناء يعقـــوب
هم الملائك في الملوك و هم   أسد الحرب وأقطاب بالمحاريب[1]

و تفوق على هذين الشاعرين الشاعر **عبد المنعم الجلياني** من خلال أساليبه المبتكرة في ميدان الشعر، عدا عن ذلك فهو يجمع إلى جانب الشعر و معرفة الموسيقى و الهندسة فهو طبيب و موسيقي و مهندس.

و في النهاية أديب متميز نادر الوجود فقد استطاع أن يجمع بين النظم و النثر وألوان البديع، مما جعل فئة من الذين كتبوا عن مسار حياته يضعونه في المرتبة الأولى بين الأدباء، وأكدوا من ناحية أخرى على مقدرته الفائقة بمزج الشعر بالحكم و غيرها والجمع بين الشيء و ضده في كثير من مؤلفاته. يقول عنه ياقوت الحموي: "كان عجيبا في عمل الأشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف و يستخرج منها الرسائل و الكلام الحكمي مكتوبا من خلال الشعر و كان يعمل من ذلك دوائر و أشعارا و صورا... وكذلك لقيته و وقفني على أشياء مما ذكرته و أنشدني لنفسه ما لم أضبطه عنه"[2].

و يقول عنه أيضا العماد الأصفهاني في مسألة كتابته الشيء و ضده في وقت واحد و ينقل هذا القول المقري في كتابه نفح الطيب "هو صاحب البديع البعيد و التوشيح والترشيح والترصيع والتصريح والتجنيس والتطبيق والتوفيق والتلفيق... والتعريف والتعريب"[3]. و الحق يقال أنه لم يعثر على أحد المغاربة والأندلسيين نزلاء المشرق العربي خلال هذه الفترة موضوع هذا البحث ما يشبهه في هذه المزايا و ذلك بشكل يمكن مقارنته معه وقد ترك عدة مؤلفات أدبية رائعة منها **سر البلاغة و صنائع البديع في فصل الخطاب** و يدل هذا المؤلف دلالة واضحة على مدى تمكن **الجليـاني** في ميدان علوم اللغة العربية و ألف ديوانا سماه **المشوقات إلى الملأ الأعلى** و هو شعر بكامله.

و كان له في الغزل حظ وافر حيث ألف ديوانا سماه **ديوان الغزل** و يتضمن قصائد زجلية و موشحات، فهو بذلك أول أديب مغربي أندلسي يؤلف في حقل الموشحات من بين

---

[1] ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص138-139.

[2] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد2، ص157.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص392.

نزلاء المشرق العربي و هو نوع من الشعر اختص فيه شعراء الأندلس و المغرب. وألف ديوانا ثالثا إحتوى على ألغاز و رموز و أحاجي و أوصاف و أغراض كثيـرة متنوعـة صاغه على هيئة شعر[1] و ربما هو المؤلف الذي أكد من خلاله مقدرته على المزج بـين عدة ضروب كما تقدم ذكره.

و لكن على الرغم من كل المزايا التي انفرد بها و تميز من خلالها عـن شـعراء المغرب والأندلس فإن شعره لم يرق إلى القمة من حيث التراكيب والجزالة وليس غريبا أن يكون سبب ذلك صعوبة سبك الأفكار والمواضيع التي كان يعالجها فصياغتها تصعب على أقدر الشعراء و أشهرهم في ميدان النظم.

و أدت هذه الظاهرة ببعض الذين أطلعوا على شعره إلى القول بأن **الجلياني** مملـوء بالسخف والمجون وكان على رأس هؤلاء **ابن سعيد المغربي** صاحب كتاب **المغرب فـي حلى المغرب** الذي كان الوحيد من بين الذين ترجموا له في هذا المجال، و في الوقت الذي وصف شعره بالضعف والسخف أشاد به كطبيب بارع قدير ويستشهد على ضعف شعره بأبيات قالها في بعض أصحابه بمدينة دمشق هو الملقب **بأبي الوحش:**

إذا جاءني يوما نعي أبي الوحـش	أبصرته فوق الرؤوس على النعـش
و قد جعلوا من نهر قلوط غسلـه	و كفن في كرش و الحد في حـش
و ظل لما يلقاه من هو منكـر	و شده ضيق القبر يضرط كالجـحش
بذلت لصحبتي زق خمر وقيـنة	و زخرفت بالنمارق الفـرش
فإن قيل لي ماذا التكرم و السخـا	أقل لهم مات الوضيع أبو جحـش[2]

و يبدو أن ابن سعيد المغربي لم يطلع على جميع مؤلفاته في ميدان الشعر والأدب ويرجح أنه اقتصر على دراسة الديوان الشعري الذي يحتوي قصائد متعددة المواضيع والأغراض و معظم هذه المؤلفات مفقودة.

---

[1] ابن أبي صبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ص161. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص36.

[2] ابن سعيد (علي)، المصدر السابق، ج2، ص106. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد2، ص157. المقري، المصدر السابق، ج3، ص392.

و تجرأ البعض على التدخل في السياسة والأمور الداخلية في المشرق العربي زمن صلاح الدين الأيوبي كما فعل الرحالة **ابن جبير** عندما مدح صلاح الدين بقصيدة طالب من خلالها إبطال عادة تفتيش الحجاج المغاربة منها:

ثأرت لدين الهدى في العـــــــعدا   فآثرت الله من ثائـــــــــــــر

و قمت بنصر إله الـــــــــــورى   فسماك بالملك الناصـــــــــــر

و كم بقيت حسبه في الظــــــلوم   و تلك الذخيرة للذاخـــــــــــر

يضيق حجاج بيت الإلـــــــــــه   و يسطو بهم سطوة الجائـــــر

و قد وقفوا بعد ما كشفــــــــــوا   كأنهم في يد الآســـــــــــــــر[1]

و تدخل في شأن آخر كان أكبر من الذي مضى بأن خاطب صلاح الدين بقصـــيدة يدعوه فيها إلى النظر فيما ظهر من البدع في المدينة المنورة يقول:

صلاح الدين أنت له نظـــــــــام   فيما يخشى لعروته انفصـــــــام

فأظهر سنة الله احتســــــــــــابا   فقد ظهرت بها البدع العظـــــام

و في الدين الهدى حدثت أمـــــور   بها للدين حزن و اغتمــــــــــام

و هي قصيدة طويلة يحرض فيها صلاح الدين الأيوبي على أهل الحجاز لأنهم فـــي رأيه لا يمثلون الإسلام الصحيح، الأمر الذي يحتم على صلاح الـــدين أن يعيـــدهم إلـــى الهداية إلى غير ذلك من الصغائر التي شغلت الكثيرين ممن ادعوا العلم و المعرفة خلال العصور الوسطى فكانت النتيجة سلبا و خرابا و تفتتا لوشائج الأمة الواحدة.

و قد جاءت دعوة **ابن جبير** في وقت من أصعب الأوقات التي واجهت صلاح الدين عندما كان في شغل شاغل هو الدفاع عن البلاد من خطر الصليبيين، فكان أحـــرى بـــابن جبير أن يحرض من خلال قصائده على الألفة و المحبة و الوقوف في وجه الخطر الذي يهدد الجميع و ليس التحريض على مسائل ليست من النفع بشيء و خاصة في زمن كـــان في غاية الصعوبة و الدقة و الحرج، وكان لبعض الشعراء المغــــــاربة و الأندلســـيين إهتمامات غير التي ذكرت حتى الآن، فقد اهتم بعضهم بمسألة أرق لا تدعو إلى الســـخط والتجريح هي مسألة الوصف التي مثلها بمدينة دمشق **بدر الدين بـــن الحســـن المغربـــي**

[1] عبد الملك المراكشي، الذيل و التكملة، قسم2، ص599.

الميورقي (ت655هـ/1257م) الذي وصفه **ابن تغري بردي** بأنه: "كان فاضلا أديبا شاعرا" و ذكر عدة أبيات من قصيدة قالها في وصف مدينة دمشق:

القضب راقصة و الطير صادحة   والستر مرتفع و الماء منحدر
و قد تجلت من اللذات أوجهها   لكنها بظلال الدوح تستتر
فكل وادي به موسى يفجره   و كل روض على حافاته الخضر[1]

و عاصر **الميورقي** بمدينة دمشق أيضا شاعرا أندلسيا هو الإبن الأكبر لابن عربي و أسمه سعد الدين (ت656هـ/1258م)، و هو من شعراء الصوفية المشهورين. و على الرغم من ذلك فلا وجود لقصائد صوفية له في كل مصادر هذه الفترة و كل ما هو موجود لهذا الشاعر قصيدته التي دونها أبو شامة في كتاب **الذيل على الروضتين** وموضوعها طلب استعارة كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية لأبي شامة**[2].

و كان لواحد من شعراء المغاربة قصيدة تناقلتها الأجيال واحد تلو الآخر حتى أيامنا هذه. هذه القصيدة هي قصيدة البردة **لمحمد بن سعيد المغربي** المعروف **بالبوصيري** (ت659هـ/1296م) بمصر، و هي التي نظمها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إثر إصابته بفالج نصفي على حين غرة و نظمها و هو على فراش المرض و صار يرددها طالبا من الله أن يشفيه فكان له ما أراد عندما رأى الرسول في المنام يدثره في بردته و لروعة هذه القصيدة و جمالها فقد أقتديت و قلدت فنظم على غرارها الشاعر أحمد شوقي قصيدة سماها نهج البردة و هي كثيرا ما تنشد و تغنى في عيد المولد النبوي الشريف.

و الحقيقة فإن من يطلع على قصيدة البوصيري هذه يلمس مقدرته على النظم وقرض الشعر. و يقول فيه ابن سيد الناس: "و هو أحسن شعرا من الجزار و الوراق"[3].

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص59.

[2] أبو شامة، الذيل عل الروضتين، ص200 وما بعدها.

[3] السيوطي، حسن المحاضرات، ج1، ص570.

وامتدت شهرته إلى عصرنا الراهن فأثرت بالهيئات الرسمية المسؤولة عن قطـــاع التربية و التعليم و أسمت بعض المدارس باسمه في كل من دمشق و القاهرة و غيرهما.

و كان لشاعرين آخرين ذكر طيب في حقل الشعر هما الشاعران المغربيان **عفيـــف الدين التلمساني** و ابنه الشاب الظريف بمدينة دمشق. و قد وصف الذهبي شعرهما بقوله عن عفيف الدين: "و أما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغـــــة و البيـــان لا مـــن حيث الإيجاد"[1] و قال عنه ابنه الشاب الظريف: "... و شعره في غاية الحسن"[2] و أعطى الصقاعي الأحكام نفسها تقريبا عن هذين الشاعرين فوصف عفيف الدين بأنـــه ذو شـــعر رقيق و ذكر بعض الأبيات التي قالها في شاب بصري الشام:

أقول له ببصرى و هو ظبي يصيد الأسد صيدا أي صـــيد
بلادك أين؟ قال السويـــــــدا فقلت لصاحبي هذا سويـــــدي

و وصف ابنه بالفضل و الذكاء و أن شعره قوي و معبر ويذكر منه قوله في طباخ و بعض المناسبات الأخرى التي لا يمكن ذكرها جميعا لكثرتها و بالتالي فليس المقصـــود هنا الحديث عن الشعراء المغاربة من منطلق فني بحت[3].

و قد اشتهر بعض نزلاء القاهرة من المغاربة بفن أدبي آخر غير كل الفنون التـــي ذكرت حتى الآن، هذا الفن هو فن الشرح الذي شاع أمره في القرون الثلاثة الأخيرة مـــن العصور الوسطى حيث إمتازت هذه الفترة بالجمود و الركود على صـــعيد الفكـــر فقـــل الإبداع و ندر الجديد فانكب كثير من علماء هذه الفترة على شرح مؤلفات غيرهم.

مثال هؤلاء الأديب التونسي **أبو عبد الله محمد بن محمد** المعروف **بـــابن القوبـــع** الذي قام بشرح **ديوان المتنبي** في عدة أجزاء و هو نحي على كثير من رفاقه المشـــارقة الذين نحوا هذا المنحى، وغير هذا الشرح فإنه لم يعثر على شيء آخر لابن القوبع علـــى الرغم من سعة علمه و مقدرته الفكرية و العالية[4] إلى جانب ذلك فقد اهتم بعضهم بجمـــع قصائد شعرية لشعراء و أدباء معروفين كما فعل **ابن دحية الأندلســـي** نزيل مصر، عندما

---

[1] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص367.

[2] نفس المصدر السابق، ج5، ص359.

[3] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة، دمشق 1974، ص82 وما بعدها.

[4] ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص208-209.

قام بجمع قصائد لعدد من شعراء المغرب و الأندلس الذين سبقوه و سمي هذا **المطرب في أشعار أهل المغرب** وقد ألفه للكامل الأيوبي[1].

و خلال النصف الثاني من القرن (8هـ/14م) ظهر أحد المغاربة على الساحة الأدبية هو الأديب **أحمد بن يحيى التلمساني** المعروف **بابن حجلة** (ت776هـ/1375م) بالقاهرة.

فمن خلال مؤلفاته الكثيرة و المتنوعة المواضيع و المقاصد، يمكن أن يقال أنه تفوق على جميع رفاقه من نزلاء مصر و الشام بعدد المؤلفات التي صنفها في مجال الأدب فقد عارض في أول كتابه قصائد **ابن الفارض** الصوفية التي تدور حول فكرة و عقيدة وحدة الوجود، لكنه لم يسم الكتاب و أشار إليه شخص إسمه **ابن القطان** و أجازه إبن حجر الذي ذكر أيضا أن شخصا آخر هو **أبو زيد المغربي** أخبره أن **ابن أبي حجلة** كان قد أوصى بوضع هذا الكتاب معه في القبر عند وفاته و من جهة أخرى فقد حاول ابن أبي حجلة أن يؤلف على غرار مقامات الحريري فلم ينجح على ما يبدو فقد ذكر ابن حجر أن الجميع عابه على ذلك.

و له من المؤلفات أيضا كتاب **الأدب الغض** و**ديوان الصبابة** و هو مطبوع و**رسالة الهدهد** و**زهر الكمام** و**سجع الحمام** و**قصيرات الحجال** و**مجتبى الأدباء** و**منطق الطير** و**السكردان** و هو مطبوع و**عجائب وغرائب** و لا يستبعد أن يكون قد تأثر بكتاب **العجائب للغرناطي** الذي تأثر به عدد من الذين كتبوا في هذا الفن مثل **الدميري** و**الباقوي** وغيرهما، و زاد عليه بأنه ذكر العجيبة و من ثم العجيبة و من ثم الأعجب منهما حتى يكون متميزا عن غيره من الكتب و هذه ميزة تبدو شبه واضحة في منهج ابن أبي حجلة و بلغت مؤلفاته أكثر من ستين مؤلفا معظمها في الأدب و أكثرها في حكم المفقود الآن[2] و ذكر ابن تغري بردي بعضا من شعره الوصفي الذي امتاز بالقوة و حسن التصوير يقول:

تفرد الخال عن شعر بوجنته   خال من المسك من خال من الشعر[3]

و ذكر المقريزي بيتين آخرين حول خانقاه إبتناها الأمير شيخو العمري يقول:

---

[1] الكتاب مطبوع، تحقيق: مصطفى عوض الكريم، ط1، طبعة الخرطوم و مصر، سنة1954م.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص571-572. ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص81-82. إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين و المصنفين، وكالة المعارف، استانبول 1951م، ج1، ص113.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص131-132.

و مدرسة للعلم فيها مواطـــــن فشيخو بها فرد و إيثاره جمع
لئن بات فيها في القلوب مهابة فوافقها ليث و أشياخها ســبع[1]

و في صعيد مصر إشتهر أديب مغربي بنوع من الشعر لم يشاركه فيه أحد من الذين ذكروا حتى الآن هذا الشعر هو ما سمى بالمواليا و هو يقترب من شعر الزجل إلى حــد ما.

هذا المغربي هو **عبد الله بن أحمد التونسي** (ت787هـ/1386م) و قد ذكــر ابــن حجر بعض أبيات من هذا الشعر هي: ركبت في جارية لم ير فيها عـــــين

و صحبتي جارية تسوى جمل من عين
إلى المرج جارية وأنا عليها عــــين
من كاينة خاويــــة أو من حسد أو عين[2]

و بمكة المكرمة اشتهر أمر شاعر مداح كان يتكسب من صــنعة الشــعر صــحب صاحب مكة أبا نمي الحسني و مدحه بأحسن الأشعار. هذا الشاعر هــو **عبــد الواحــد القيرواني** الذي قال عنه **أبو حيان النحوي الأندلسي:** "كان عندنا بالقــاهرة و لــه نظــم حسن..." و من شعره في مدح أمير مكة المذكور:

خليلي هيا فاظهرا ذلك البرقـــا تبدا لنا يهفو على طرف البرقـــــا
تعرض في الظلماء مثل سلاســل من البتر في راحات مرتعش تلــقى
و في منحنى الوادي التهامي جيرة أضاعوا و ما ضيعت يوما لهم لاحقا[3]

و قد ظهر خلال القرن (9هــ/15م) عدة شعراء مغاربة وأندلســيين فــي مصــر والحجاز لكنهم لم يكونوا مثل الذين ذكروا من حيث أهمية موقعهم في الحركة الأدبية منهم **أحمد بن عبد الخالق المحاصي** نسبة إلى محاصة قرية بالمغرب الذي قال عنه المقريزي أنه أنشد الكثير من شعره[4] و محمد بن عبد القوي البجائي المغربي (ت852هــ/1449م)

---

[1] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، قسم1، ص18-19.

[2] ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص307-308.

[3] الفاسي (تقي الدين)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد الفقي، مطبعــة الســنة المحمديــة، القــاهرة، 1959م، ج5، ص528-529.

[4] السخاوي، المصدر السابق، ج1، ص324.

الذي مدح أعيان مكة و أمراءها و قال بعضهم أنه نظم الشعر الجيد الفائق و إلى جانب أنه مداح كان أيضا هجاء بذيء اللسان قل من سلم من أهل مكة من هجائه.

يقول فيه السخاوي: "بل كتب الناس من نظمه الكثير و جمع النجم بن فهد منه مجلدا"[1] و إلى جانب نظم الشعر وقرضه وشرح القصائد المتنوعة فقد اهتم بعضهم بجمع القصائد التي مدح بها الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم كما فعل ابن سيد الناس اليعمري و أطلق على الكتاب الذي تضمن هذه القصائد منح المدح أو شعراء الصحابة عن مدح الرسول صلى الله عليه و سلم أو رثائه[2].

أما الضرب الثاني الرئيسي في ميدان الأدب و هو النثر كما هو معروف الذي لم يشتهر أمر المغاربة كثيرا في ميدانه لذلك كانت مساهماتهم فيه قليلة و نادرة الوجود و الحدوث، و لولا **محمد ابن محرز أبو عبد الله الوهراني** نزيل القاهرة و المتوفى سنة (575هـ/1180م) لكانت إسهاماتهم معدومة فقد خلف الوهراني هذا كتابا يمكن القول أنه حل محل الكثير من المؤلفات و الكتب و برهن على أن العبرة ليست في الكثرة و العدد بقدر ما هي بالجودة و الأصالة هذا الكتاب هو **منامات الوهراني** و مقاماته و رسائله.

و هو عبارة عن مجموعة من المقامات الأدبية و عدد من الرسائل لحكام و وزراء مشارقة كان قد عاصرهم و قد طارت شهرة هذا الكتاب في أيامه و تداوله الناس من بعده و بصورة كثيفة و دليل ذلك أنه في عصر **ابن العماد الحنبلي** المتأخر كان كتاب الوهراني ما يزال مطلوبا من الناس لقراءته و الاستمتاع بما فيه، يقول: "... و عمل المنامات و الرسائل المشهورة و هي كثيرة بأيدي الناس و فيه دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته و كمال ظرفه"[3].

و يعتبر هذا الكتاب من الكتب المغربية الجديدة في موضوعها و مضمونها فهو يحتوي فنا لم يسبق إليه الوهراني أحدا و لم يأت مثله من بعده في هذا الإطار.

و كان للأندلسيين و المغاربة دورهم البالغ الأهمية في عملية نقل فن الموشحات الأندلسية إلى المشرق العربي و على الرغم من عدم وجود تفاصيل حول هذه المسألة فلا

---

[1] نفس المصدر السابق، ج8، ص71-72.

[2] صدر هذا الكتاب عن مكتبة دار الفكر بدمشق، تحقيق و تقديم: عفت وصال حمزة، عام 1988.

[3] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص252-253.

بد من القول على أن الذي عثر عليه من إشارات و تلميحات له بعض من التـدليل علـى هذا الواقع بكل ثقة و اطمئنان.

و من هذه الإشارات تلك التي ذكرها **ابن دحية الأندلسـي** نزيـل مدينـة القـاهرة (ت633هـ/1236م) في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب بقوله عـن الموشـحات الأندلسية ما نصه: "و هي زبدة الشعر و خلاصة جوهره و صفوته و هي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق و ظهروا فيها كالشـمس الطالعـة و الضـياء والمشرق..."[1].

يتضح مما سبق أن رحلة المغاربة و الأندلسيين إلى المشرق العربي و خاصة مصر و الشام و بالخصوص في المجال الثقافي لم تنقطع منذ الفتح الإسلامي إلى المغرب الكبير حتى بعد انفصال إفريقية عن مصر بكراهية المرابطين و الموحدين المغايرين لهـم فـي المذهب، بل ظل انتقال الناس من التجار و الحجاج و العلماء الأمر الذي ترتب عليه إثراء الحياة الفكرية في مصر و الشام و إلى وجود نوع من وحدة الفكر و الثقافة بين المشـرق العربي و المغرب الإسلامي.

د) إسهاماتهم في العلوم الشرعية

العلوم الشرعية هي مجموعة علوم اللسان العربي نسجا متكاملا، بحيث صار من المعتاد أن نجد علماء كثيرين قد برع كل منهم في أكثر من مجال في هذه العلوم. كما أنها كانت المحور الرئيسي الذي دارت عليه حركة الدراسات عامة، ليس في مصر وحدها لكن في أنحاء العالم الإسلامي إذ كان من الطبيعي أن يسعى المسلمون في كل مكان للاستزادة في تلك العلوم كوسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى[2].

و بالنسبة للمغاربة و الأندلسيين الوافدين إلى مصر و الشام في طريق الحج لم يختلف الحال، بل يمكن القول بأن مشاركتهم، بشتى الصور في إنعاش حركة الدراسات الخاصة بهذه العلوم أثناء وجودهم بمصر أو الشام كان فيها الكثير من المعاناة من متاعب الطريق، و اعتبروا ذلك أيضا من المنافع التي أشار إليها الله تعالى في خطابه

---

[1] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: مصطفى عـوض الكـريم، ط1، جامعـة الخرطـوم 1954، ص186. ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج4، ص436.

[2] عبد الحميد حاجيات، مجلة الثقافة، العدد81، الجزائر 1984م، ص38.

الكريم لنبيه إبراهيم: "و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم..."[1].

و بالإضافة إلى ذلك فقد شجع هؤلاء الوافدين على القيام بتلك المساهمات العلمية، الرواج الذي كانت عليه مدرسة مصر و الشام الإسلامية آنذاك، كحصاد لجهود العديد من الصحابة و التابعين الذين قدموا مصر و الشام و كانوا نواة حركة علمية عظيمة لم تقل عن مثيلاتها التي شاعت في مدن الحجاز و العراق[2].

و قدر للمشرق العربي أن يستقبل أعدادا كبيرة من مغاربة و أندلسيين عملوا في مجال هذه العلوم كانوا في كثير من الأحيان موضع إحترام و تقدير لا مثيل لهما ليس فقط على الصعيد الشعبي بل أيضا على الصعيد الحكومي و الرسمي فقد أنزل هؤلاء أحسن المنازل و تبوءا أعلى المناصب الدينية فازدادت ثروتهم و أملاكهم مقابل عمل مارسوه في تعليم و تدريس الحديث أو الخطبة في مسجد معين أو تعليم طريقة من طرق القراءات أو عمل من هذا القبيل و يمكن القول أنه لو قدر لغيرهم من رجال العلوم الأخرى مثل الفلسفة و العلوم التطبيقية أن ينالوا هذه المكانة أو يلقوا هذا التشجيع لكانت النتيجة غير تلك التي انتهت إليها هذه الفترة الهامة من تاريخ العرب و الإسلام في المشرق العربي مثال ذلك أن كثيرا من الذين نزلوا المشرق العربي كانوا يعرفون الكيمياء و غيرها من العلوم الأخرى مثل **ابن عربي** المتصوف المشهور الذي صرح في عدة مواضع أنه يعرف الكيمياء[3].

د-1) في مجال علم الحديث

دراسة علوم الحديث تنصب على دراسة سنة النبي صلى الله عليه و سلم، لإستخلاص كل ما أمر به و نهى عنه و ندب إليه، قولا و فعلا و تقريرا و صفة مما لم ينص عليه القرآن أو أشار إليه على سبيل الإجمال و هي تدور في نوعين:

---

[1] سورة الحج، الآية 27-28.

[2] وقد أفرد السيوطي بابا خاصا لمن قدم مصر من الصحابة و التابعين، وعد منهم ما زاد على الثلاثمائة، حسن المحاضرة، ج1، ص166 وما بعدها.

[3] ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، قسم2، ج8، حيدر آباد الدكن، 1952م، ص 736. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص200.

●نوع يهدف إلى دراسة أقوال النبي صلى الله عليه و سلم، و روايتها و ضبطها وتحرير ألفاظها و هو ما عرف **بعلم الحديث رواية.**

●و آخر يعرف بواسطته حقيقة الرواية و شروطها و أنواعها و أحكامها و حال الرواة و شروطهم و أصناف المرويات و ما يتعلق بها، و هو ما يطلق عليه **علم الحديث دراية**[1].

و تجدر الإشارة إلى أن دراسات الحديث –بوصفها المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن، و إحتوائها على العديد من التفصيلات الدقيقة التي تنظم أمور الناس في حياتهم العادية قد شاعت في أنحاء العالم الإسلامي، و مرت بمراحل تطور عديدة إستمرت تشكل خلالها مادة واسعة لجميع العلوم و المعارف الدينية (فراوي الحديث يروي حديثا فيه تفسير لآية من القرآن و حديثا فيه حكم فقهي، و حديثا فيه غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه و سلم، و حديثا فيه شرحا لحالة إجتماعية زمن النبي صلى الله عليه و سلم أو الصحابة أو التابعين) و هكذا...[2]، وعليه، فإن مشاركة الوافدين إلى مصر و الشام من أهل المغرب و الأندلس في تنشيط الدراسات المتعلقة بعلم الحديث، قد إحتوت أيضا إسهاما مباشرا منهم في دفع عجلة تلك العلوم الدينية الأخرى، و لكن علم الحديث لم يكن بالعلم الجديد على المشرق والمغرب والشيء الجديد بالنسبة للمشارقة ينحصر بأنهم لم يعرفوا قبل هذا الفترة حفاظا كبارا ومحدثين من أصل مغربي و أندلسي عملوا في هذا الميدان. فهمة المغاربة والأندلسيين في فترة من الفترات ما قبل القرن (5هـ/11م) كانت تقتصر على السماع والأخذ عن المحدثين المشارقة وثم يعودون إلى بلادهم.

أما فيما بعد هذه الفترة فإن الصورة أصبحت عكسية تماما عندما أصبح المغاربة و الأندلسيون يرتادون المشرق العربي بقصد العمل الذي كان يعتقد بأنه حكر على المشارقة فقط.

---

[1] راجع في ذلك: ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص1033 وما بعدها. ولمزيد من الإيضاح، أنظر للشيخ عبد الغني محمود، مصطلح الحديث، مطبعة الفتوح الأدبية بمصر، ط2، 1913م، حيث المقالة كلها تدور حول التعريف بعلم الحديث ومناحي دراسته و المصطلحات الخاصة به، وفائدة كل فرع من فروعه (رواية و دراية) و خاصة من ص2 –ص5 وقارن، محمد عبد المولى، القوي السنية، رسالة الماجيستير، ص237–241، حيث تعريفات متعددة لكلمة (سنة)، وأقسامها، والصلة بينها و بين القرآن.

[2] أحمد أمين، ضحى الإسلام، مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة، ط9، 1979، ج2، ص137. عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص38–45.

و استطاع كثيرون منهم أن يصلوا إلى أعلى المراتب عن علم و جدارة وغدوا في معظم الأوقات معلمين و أساتذة كبارا في هذا الشأن و ظهرت مكانتهم بوضوح من خلال المدارس التي ترأسوها و درسوا بها و كحفاظ يقصدون من شتى الأقطار العربية والإسلامية للأخذ عنهم و تظهر مكانتهم أيضا من خلال المؤلفات التي خلفوها و من خلال الطلاب الذين تخرجوا عليهم في فترات زمنية مختلفة.

و تظهر أهميتهم في علم الحديث في دفع حركة هذا العلم قدما إلى الأمام بكل نشاط و حيوية فعلى الرغم من أن مجموع المحدثين من المغاربة و الأندلسيين لم يبلغ أكثر من أربعين محدثا فإن الذين أطلق عليهم لقب حافظ بلغ أكثر من ثلاثة عشر توزعوا من مدينة دمشق و القاهرة و مكة المكرمة و بغداد هذا عدا عن الذين تسلموا مشيخة مدارس أو مشيخة الحديث فقط في هذه المدارس.

فمنذ الربع الأول من القرن (6هـ/12م)، بدأ محدثو المغرب العربي والأندلس نزلاء المشرق العربي بالعطاء و بسخاء كبير في مناطق مشرقية مختلفة منهم المحدث **يوسف بن العزيز المنورقي** (ت523هـ/1129م) بالإسكندرية و الذي لم يكن على مستوى المحدثين الكبار مما جعل تأثيره محدودا جدا و اقتصرت مهمته على قراءة صحيح الترمذي.

حيث إستقبلت الشام في سلسلة المحدثين و الحفاظ المغاربة و الأندلسيين **علي بن سليمان** المعروف **بالمرادي الفرغليظي** (ت544هـ/1150م) و اقتصرت على تدريس الصحيحين بحلب و دمشق و حماة.

و يتوازى معه المحدث الأندلسي **طارق بن موسى أبو محمد البلنسي** (ت549هـ/1155م) فوصف بأنه ثقة برهن على ذلك نقل **المقري** لقول **ابن عياد** عنه: "لم ألق أفضل منه" و روى عنه كثيرون بالسماع و الإجازة في المشرق و المغرب على حد سواء[1].

و لعل المحدث **أحمد بن أحمد بن معد التجيبي الحافظ** نزيل قوص (ت550هـ/1156م) هو أول أندلسي و مغربي ألف في ميدان الحديث بالمشرق العربي فصنف كتابين هما: **الدر المنظوم فيما يزيل الهموم، وشفاء الظمآن في فضل القرآن**[2].

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج3، ص51-514.

[2] البغدادي، المصدر السابق، ج1، ص80.

و **محمد بن علي بن ياسر الأنصاري**[1] المعروف **بأبي بكر** نزيل حلب ثم توجه إلى دمشق، فسكن في محلة قنطرة سنان مدة عامين، إشتغل خلالها بتعليم القــرآن، و ســماع الحديث على بعض العلماء الشاميين ثم عاد إلى مدينة حلب فاستوطنها، وسلمت له **خزانة الكتب النورية**، و أجريت له جراية مقابل هذا العمل و من ناحية أخرى كــان صــاحب مستوى رفيع و أصبح ممن يروى عنهم .فمن الذين رووا عنه على سبيل المثال، كل من **أبي حفص الميانشي**، و **أبي منصور مظفر بن سوار الخمي** و غيرهما.

و يختلف عن سابقه من ناحية مهمة، أنه وقف جميع كتبه التي يملكها على رجــال الحديث و المهتمين به، وفاء منه لهذا العلم، توفي بمدينة حلب سنة (563هـ/1168م)[2].

و بمدينة الإسكندرية عرف واحد منهم بعلومه الواسعة و معرفته الأكيدة بعلم الحديث و يظهر ذلك من خلال الذين رووا عنه مثل **أبي الحسن المقدسي** و غيره و مــن كثــرة الذين درسوا عليه موطأ مالك هذا المحدث هو **أبو الطيب عبد المنعم بن يحي الغرنــاطي** (ت586هـ/1190م)[3] و كان مثله **أبو القاسم هبة الله علي** المغربي الأصل نزيل القاهرة (ت598هـ/1202م) و يعرف **بالبوصيري** الذي وصف بأنه لم يكن في عصره مثلــه أو في درجته العلمية و أسهم في ميدان الحديث من خلال قناة التدريس فأخــذ عنــه أنــاس كثيرون جاؤوا إليه من مختلف البلدان العربية و الإسلامية[4].

---

[1] هو من مدينة جيان jaen بجنوب الأندلس، ولد سنة 492هـ/1099م، رحل طويلا في طلب علم الحديث، وفي ســنة (520هـ/1126م)، توجه إلى بغداد بصحبة ابن عساكر، فسمع بها على هبة الله بن الحصين و غيره، ثم توجــه إلــى خرسان فسمع بها من حمزة الحسيني و أبي عبد الله الفراوي و أبي القاسم الشمامي و غيرهم، ثم قصد بلخ و بها ســمع أيضا على جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني و أبو النجم مصباح بن محمد المالكي و غيرهما، و منهما= عاد إلى العراق مرة أخرى، فحل بمدينة الموصل و في الأخير انتهت رحلته بمدينة حلب. أثنى عليه كل من ابن العماد الحنبلي صاحب كتاب شذرات الذهب، و الذهبي المؤرخ والمحدث، و وصفاه بأنه ذو معرفة جيــدة فــي ميــدان علــم الحديث، أنظر: ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص210. و الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج4، ص183.

[2] المقري، المصدر السابق، ج2، ص356-357. السبكي، المصدر السابق، ج4، ص88. الصدفي، المصدر الســابق، ج4، ص162.

[3] ابن مخلوف، المصدر السابق، ص158-159.

[4] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص67.

و وصل أندلسي آخر إلى دمشق التي كانت آخر محطاته، بعد رحلة طويلة في طلب الحديث و لم يغادر منذ وصوله إليها، حيث بقي يعمل في ميدان الحديث حتى توفي (ت625هـ/1228م)[1] و هو **أحمد بن تميم بن هشام** الملقب **بفخر الدين**.

و ظهر في زمن الملك الكامل الأيوبي محدث حافظ هو **أبو الخطاب عمر بن الحسن** المعروف **بابن دحية** (ت633هـ/1236م). وقد اشتهر بسعة إطلاعه و معرفته الحديث، و ربما جاءت أهميته من أنه تسلم شيخ **المدرسة الكاملية**[2] التي خصصها الكامل الأيوبي للمحدثين و سلمه رئاستها و لكن تبين للملك مؤخرا أنه لا يفهم من الحديث إلا قليله فقام بعزله و جعل بدلا منه أخاه محمد[3].

و لم يكن تواجد هؤلاء المحدثين يقتصر على المراكز الكبرى في مصر و بلاد الشام إنما شمل مدنا صغيرة مثل **غزة** التي إحتلت أهمية كبيرة كممر إلى المدن الكبرى في كثير من الأحيان، حيث نجد النصف الأول من القرن (7هـ/13م) المحدث **زين الدين أبو زكرياء المالقي** الذي توفي سنة (640هـ/1243م)[4] بغزة و عمل بها في مجال تخصصه.

و أسهم بنسبة ضئيلة في ميدان تدريس الحديث و التأليف فيه **أبو عبد الله محمد بن عبد الله المرسي** (ت655هـ/1257م) فقد درس قليلا بكتاب السنن للبيهقي و أيضا بكتاب غريب الحديث للخطابي و كان ذلك في مصر و بغداد حيث اشتهر أمره حتى قال عنه ابن النجار: "ما رأيت في فنه مثله..."[5].

و تفوق عليه معاصره بمدينة الإسكندرية **أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي** و خاصة في ميدان التأليف فقد صنف كتابا سماه **المفهم في شرح صحيح مسلم**، و يعتبر هذا الكتاب من أهل المصنفات كونه احتوى على تفسير و إيضاح كثير من المسائل

---

[1] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص102.

[2] المدرسة الكاملية: تقع بين القصرين أنشأها الملك الكامل الأيوبي سنة (622هـ/1225م) لتدريس الحديث، المقريزي، الخطط التوفيقية، ج6، ص14.

[3] الذهبي، العبر في خبر من عنبر، ج5، ص139. الغبريني (أحمد بن أحمد)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابقة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1970م، ص228 وما بعدها. ابن الجوزي، المصدر السابق، قسم2، ج8، ص69.

[4] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص172.

[5] المقري، المصدر السابق، ج2، ص241-242.

الغامضة من صحيح مسلم و له كتاب آخر سماه **كشف القناع عن الوجوه و السماع** و قد أجاد فيه هو الآخر و أحسن.

و بعد فترة قصيرة قام باختصار هذين الكتابين في كتاب أسماه مختصر الصحيحين أي صحيح مسلم و صحيح البخاري و درس كثيرا فكان له تلامذة كثر كان في مقـدمتهم شرف الدين الدمياطي الذي قال عنه: "أخذت عنه و أجاز لي مصنفاته وحدث بالإسكندرية و غيرها"[1].

و كانت مهمة المحدث **محمد بن أبي بكر محي الدين الشاطبي** (ت662هـ/1264م) كبيرة و حساسة حيث تسلم مشيخة مدرستين للحديث واحدة بمدينة حلب و هي المدرسة البهائية و الثانية مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة. ومنصب كهذا لا يتسلمه إلا الذين يمتلكون المعرفة العميقة بعلم الحديث و إن حصل و تسلمه محدثون غير أكفاء فذلك إستثناء تفرضه ظروف خاصة و قد شارك في التدريس إضافة إلى مهمته هذه فتخرج على يديه كثيرون من أبناء و زوار مدينتي حلب و القاهرة[2].

و تسلم **مشيخة الكاملية** لفترة قصيرة المحدث **محمد بن الخطاب بن دحية أبو الطاهر** (ت667هـ/1269م) فعرف بصدقه وأمانته وعلمه ومدحه العلماء أكثر من أخيه[3].

و مثله في المنصب كان **محمد بن أحمد الشاطبي** المعروف **بابن القسطلاني** (ت686هـ/1288م) فقد تسلم أيضا مشيخة الحديث الكاملية بالقاهرة كونه من علماء هذا الشأن المشاهير و تجلت إسهاماته بصورة خاصة من خلال التدريس فتخرج عليه عديدون من طلاب علم الحديث أشتهر منهم على صعيد العلم **الدمياطي**، و**ابن جماعة**، و**أبو القاسم علم الدين البرزالي**، و**الحافظ**، و**أبو حيان الأندلسي**، و**ابن سيد الناس**، وغيرهم.

---

[1] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، المصدر السابق، ص457. المقري، المصدر السابق، ج2، ص615. الذهبي، العبر في خبر من عنبر، ج5، المصدر السابق، ص226-227. اليونيني، المصدر السابق، مجلد1، ص95-96. الصدفي، المصدر السابق، ج7، ص264-265. ابن كثير،المصدر السابق، ج13، ص213.

[2] الصدفي، المصدر السابق، ج1، ص134. ابن خلكان، فوات الوفيات، ج3، ص254-256. اليونيني، المصدر السابق، مجلد2، ص304-305. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص381. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص310-311. المقري، المصدر السابق، ج2، ص63-64. الذهبي، العبر في خبر من عنبر، ج5، ص270. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص216. ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص243.

[3] الصدفي، ج3، المصدر السابق، ص41.

كما أسهم قليلا من خلال التأليف فجسد ذلك في كتاب أسماه **الإفصاح عن المعجم من الغامض و المبهم في أسانيد رجال الحديث** و رتبه على حروف الأبجدية[1].

و بمدينة دمشق كان أول من تسلم مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية* المحدث **إبراهيم بن عبد العزيز الرعيني الأندلسي** من الشاميين و المغاربة على حد سواء هذا بالإضافة إلى مهمة تدريس مادة الحديث فيها و ظل هكذا حتى توفي سنة (687هـ/1269م) و تخرج عليه كثيرون [2] و كان مثله في المستوى الرفيع في ميدان الحديث نزيل دمشق **أحمد بن فرج اللخمي الإشبيلي** الملقب **شهاب الدين** (ت699هـ/1300م) الذي أورد المقري قول **الصفدي** فيه و هو: "و كان من كبار أئمة هذا الشأن و ممن يجري فيه و هو طلق اللسان"[3] و قد طلب لتسلم مشيخة الحديث بالمدرسة النورية بدمشق لكنه رفض ذلك و هذا يدل على أن شهرته كانت واسعة كمحدث متعمق و اقتصر دوره الثقافي على مهمة تدريس حلقة للحديث بالجامع الأموي حتى وفاته و تخرج عليه جماعة كان أشهرهم على الإطلاق الذهبي صاحب التواريخ المعروفة و المحدث المشهور[4] و قد وضعه السيوطي في طبقات الحفاظ لأنه على ما يبدو كان واحدا منهم و له قصيدة شعرية بين فيها مقاصد الحديث و أهدافه يقول فيها:

غرامي صحيح و الرجال فيك مفصل   و حزني و دمعي مطلق و مسلسل
وصبري عنكم يشهد العقل أنه   ضعيف ومتروك وذلي أجمل
ولا حسن الإسماع حديثكم   مشافهة يملي علي فأنقل[5]

[1] اليونيني، ج4، المصدر السابق، ص330 وما بعدها. ابن العماد الحنبلي، النجوم الزاهرة، ج7، ص373.

* الظاهرية: داخل باب الفراديس بجوار الجامع الأموي شمال باب البريد و شرقي العادلية الكبرى بابهما متواجهان، يفصل بينهما الطريق و كانت من قبل تعرف بدار العقيقي، اشتراها الملك الظاهر بيبرس و بناها مدرسة و دار حديث في حدود سنة (670هـ/1271م) و ذلك للشافعية و الحنفية، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص348-349، و هي اليوم دار الكتب الوطنية بدمشق.

[2] المقري، المصدر السابق، ج3، ص272. اليافعي المكي، المصدر السابق، ج4، ص204. النعيمي الدمشقي، المصدر السابق، ج1، ص355.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص282-283.

[4] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص393-394. المقري، المصدر السابق، ج3، ص282-283. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)، طبقات الحفاظ، تحقيق: غلي محمد عمر، مصر 1937م، ص514.

[5] المقري، المصدر السابق، ج3، ص283. السيوطي، طبقات الحفاظ، ص514.

و اشتهر بمدينة القاهرة المحدث **الحسن بن عبد الكريم الغماري المغربي** (ت712هـ/1313م) و اشتهر كمدرس للحديث فأخذ عنه كبار هذا الشأن مثل الذهبي الذي قال فيه: "و كان حسنا كإسمه..." و أبو حيان النحوي و تقي الدين السبكي وغيرهم[1].

و كان شبيه المحدث **عبد الله بن علي الصنهاجي** (ت724هـ/1325م) الذي درس الحديث أيضا بمدينة القاهرة و أخذ عنه كثير من طلاب العلم فيها[2] و حمل لواء تطوير الحديث و لفترة غير قصيرة، إثنان من المغاربة و الأندلسيين نزل الأول بمدينة القاهرة والثاني بمدينة دمشق و لم يكن في مجموع الذين عاصروهما و لا الذين جاؤوا بعدهما من يمكن وضعه في مرتبتهما و بالتالي لم يصل إلى درجة إسهامهما في تقدم علم الحديث.

أولهما كان المحدث **محمد بن محمد فتح الدين أبو الفتح** المعروف **بابن سيد الناس** (ت734هـ/1378م) و قد لقب بالحافظ لكثرة محفوظاته من الحديث و شغل دورا فعالا في إغناء علم الحديث بمدينة القاهرة و ذلك من خلال المناصب العلمية التي تسلمها هناك و هي مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية و مدرسة أبي حليقة و غيرهما، و قال الذهبي عنه: "و لو أكب على العلم كما ينبغي لشدت إليه الرحال و لكنه كان يتلهى عن ذلك بمباشرة المكتبة..." و هذا ما ظهر أثناء دراسته على ابن دقيق العيد الذي كان إذا ذكر أحد رجال الحديث أثناء إعطائه الدرس يقول له: "وايش ترجمة هذا يا أبا الفتح فيأخذ في الكلام و يسرد و الناس سكوت و الشيخ مصغ إلى ما يقول" و قد درس عليه كثيرون كان لهم شأن كبير في ميدان الحديث فيما بعد مثل الذهبي و غيره ساعدته علومه الواسعة ومكانته الرفيعة بين رجال العلم على التوصل إلى كثير من رجال الدولة يقول الصفدي: "ما أعرف أحدا من الأمراء الكبار الأعيان في الدولة إلا و هو يميل إليه و يجتمع به..."[3]

و قال إبن قاضي شهبة عنه: "و لم يكن بمصر في مجموعة مثله في حفظ الأسانيد والمتون و العلل... و لم يخلف بعده في القاهرة و مصر من يقوم بفنونه مقامه"[4].

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص102.

[2] نفس المصدر، ج2، ص281-282.

[3] الصدفي، المصدر السابق، ج1، ص389 وما بعدها. ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص169. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، المصدر السابق، ص330 وما بعدها. الحسيني (أبو المحاسن)، ذيل تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث، بيروت، ص16-17. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص108-109.

[4] ابن قاضي شبهة، طبقات الشافعية، ج2، ص390 وما بعدها.

و ثانيهما **القاسم بن محمد بن يوسف البرزالـــي** (ت739هـــ/1339م) و يعتبـــر نموذجا متفوقا على جميع الذين ذكروا كمساهمين في إحياء علم الحديث مـــن المغاربـــة والأندلسيين في معظم النواحي إلى حد كبير يمكن القول عنده أنه خير ما عرفتـــه بـــلاد الشام من المحدثين المغاربة بلا جدال خلال فترة العصور الوسطى موضوع هذا البحـــث فقد أطلق عليه كل من ترجم له تسمية حافظ الشام و محدثها الأمر الذي لم يشتهر به أحد غيره و دليل ذلك أنه لما وافته المنية قيل فيه قصائد كثيرة تظهر مـــن خلالهـــا الثغـــرة الواسعة التي تركها بموته فمن قصيدة رثاه فيها القاضي **شهاب الدين أحمد بن يحي بـــن فضل الله** و نقلها السبكي في كتابه طبقات الشافعية تتوضح مكانه البرزالي و تمكنه فـــي علم الحديث كعالم لا يجارى:

محدث الشام صدقا بل مؤرخـــه   حبرا بهذا و ذا فيما مضى القلم

يا طالب العلم في الفنين مجتهدا   في ذا و هذا ينادي المفرد العلم

و قال عنه السبكي نفسه عندما كان بصدد ترجمة المزي: "... أقول ما رأيت أحفظ من ثلاثة المزي و الذهبي و الوالد... و عاصرت أربعة لا خامس لهـــم هـــؤلاء الثلاثـــة والبرزالي، فإني لم أر البرزالي و كان البرزالي يفوقهم من معرفة الأجـــزاء و رواتهـــا الأحياء..."[1] وقال عنه معاصره ابن تيمية: "نقد البرزالي نقـــر فـــي حجـــر"[2]. و تمكـــن بمساعدة علومه الواسعة من أن يتسلم عدة مناصب تدريسية عالية مثل مشـــيخة الحـــديث بالمدرسة **الظاهرية** و المدرسة **النورية** و **النفيسية**[3] و قد تجلى دوره الفعال في الحركـــة العلمية في أن تخرج عليه من هذه المدارس علماء كان لهم شأن كبير فيما بعد منهم على سبيل المثال حجي بن موسى الحسباني و الحسين بن علي الأصفهاني[4] و والد تقي الـــدين السبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية[5] و شهاب الدين أبو العبـــاس أحمـــد بـــن صـــالح الدمشقي الذي درس في عدة مدارس دمشقية فيما بعد، كما تسلم إفتاء دار العدل و ناب في

---

[1] السبكي، المصدر السابق، ج9، ص247-248.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص321.

[3] الحسيني، المصدر السابق، ج3، ص19. السبكي، المصدر السابق، ج1، ص246. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج2، ص263-264. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص122.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص6.

[5] السبكي، ج2، المصدر السابق، ص246-247.

القضاء عن البلقيني[1] و ابن شافع السلامي الصعيدي المصري[2] و أيضا الذهبي و ابن كثير الدمشقي[3] هذا بالإضافة إلى تلميذه **ابن رافع السلامي** الذي ذيل على تاريخه وكثيرون غيرهم لكن على الرغم من علمه و سعة إطلاعه فإنه لم يكتب أي مؤلف في الحديث يرجع إليه و هذا أمر من الأمور التي غدت مصاحبة لكل محدث من الكبار وبصورة خاصة الحفاظ منهم الذين لم يعطوا للتأليف وقتا كبيرا يعول عليه و يمكن إرجاع هذا الأمر في غالب الأحيان إلى ضيق أوقاتهم حيث شغلوا بالمهمات التدريسية والعلمية التي إستغرقت معظم أوقاتهم على ما يبدو.

و درس كثير من أهل الإسكندرية على المحدث **محمد بن محمد القرطبي (ت736هـ/1336م)**[4] و عرفت مدينة القاهرة، بعد وفاة ابن سيد الناس الماضي ذكره أندلسيا كان له بعض اهتمام بعلم الحديث لكنه بقي يشتهر بعلم آخر هو علم النحو، هذا الأندلسي هو **محمد بن يوسف أثير الدين ابن حيان (ت745هـ/1345م)**، فقد أجاد في عدة علوم إضافة إلى علمه الرئيسي و محور إهتمامه النحو كان منها علم الحديث الذي برع فيه إلى حد مكنه من تسلم مشيخة الحديث بالقبة المنصورية حتى وفاته و تخرج عليه عدد كبير من أبناء مدينة القاهرة و روادها[5].

و قام نزيل دمشق **محمد بن عثمان الغرناطي أبو عمرو** بتدريس الحديث في منطقة الربوة حتى وافته المنية سنة (752هـ/1352م) فسمع منه جمع غفير من طلاب دمشق كان في مقدمتهم الحافظ المزي[6].

و تسلم مشيخة الحديث **بالمدرسة السامرية*** المحدث المغربي **محمد بن يوسف القفصي** الذي أسهم في ميدان الحديث من خلال منصبه التدريسي هذا[7] و أسهمت بعض النساء المغربيات بعلم الحديث في المشرق العربي بشيء قليل جدا مثل **زينب بنت أحمد**

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص370.

[2] نفس المصدر، ج1، ص94-95.

[3] نفسه، ج1، ص108.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص256.

[5] الحسيني، المصدر السابق، ص23 وما بعدها.

[6] السيوطي، طبقات الحفاظ، ص256. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص45.

* السامرية هي دار الحديث بدمشق أوقفها على الشافعية صدر الدين أبو العباس أحمد بن محمد البغدادي السامري وتقع إلى الغرب من مئذنة الشحم، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص27.

[7] السيوطي، طبقات الحفاظ، ص266.

التونسية نزيلة مكة المتوفاة سنة (780هـ/1379م) فقد كانت لها حلقات تدرس أصحابها الحديث و يبدو أنها كانت موضع ثقة مما جعل منها شخصية كبيرة في مكة هذا **أبو حامد بن ظهيرة** كان يروى كثيرا عنها بعد وفاتها[1] و ظهر أحد المهتمين بعلم الحديث خلال الربع الأخير من القرن (8-9هـ/14-15م) هو **عمر بن علي** المعروف **بابن النحوي وابن الملقن الوادي آشي** المتوفى بالقاهرة سنة (804هـ/1402م).

و تجلى دوره الإيجابي في ميدان علم الحديث بالمؤلفات الكثيرة التي صنفها خلال حياته هذا بالإضافة إلى انه أحد الحفاظ المغاربة الذين اشتهروا في هذه الفترة فتمكن لوحده من تأليف أكثر مما ألفه جميع المحدثين الذين ذكروا حتى الآن حتى قيل أن مصنفاته في الحديث و الفقه بلغت نحو ثلاثمائة مؤلف منها **شرح البخاري** في عشرين مجلدا و **البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير** في ستة مجلدات أجاد فيه كثيرا و اعتبر من أفضل المؤلفات و **خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث** و **الآثار الواقعة في الشرح الكبير** و **المقنع في علم الحديث** و **الكافي** الذي لم يتقنه و **طبقات المحدثين** إلى غير ذلك.

و تصدى لمهمة تدريس الحديث بالجامع الأزهر طيلة فترة غير قليلة من الربع الأول من القرن (9هـ/15م) **عبد الله بن محمد الأندلسي** (ت820هـ/1418م) و كان يدرس مضمون كتاب **الشفا** للقاضي **عياض اليحصبي** فتخرج كثيرون من الطلاب مثل **البهاء المشهدي**[2].

و لم يظهر خلال الفترة المتبقية من القرن (9هـ/15م) من المغاربة والأندلسيين في ميدان الحديث من يستحق الوقوف عنده.

و ربما يعود ذلك لحالة الركود التي عمت جميع أجزاء المشرق العربي على صعيد العلوم كافة و قد عكس هذه الحالة المؤرخ المقريزي عندما كان بصدد الحديث عن المدرسة الظاهرية فإنه كان لا يدخلها إلا المدرسون الأقوياء بينما أصبحت صورتها خلال القرن التاسع عكسية تماما كما يعبر عنها شعرا:

تصدر للتدريس كل مهووس   بليد يسمى بالفقيه المدرس

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص211.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص63.

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها و حتى سامها كل مفلس[1]

و مهما كانت صورة الأمر فإن المغاربة و الأندلسيين من فئة المحدثين أسهموا إلى حد كبير في رقي علم الحديث و تطوره و ذلك من خلال قناتين أساسيتين هما التـدريس والتأليف فقد وضع هؤلاء المغاربة ما يزيد عن ثلاثمائة مؤلف في حقل علم الحديث منها ما وضع لأول مرة و منها ما اقتصر على شرح مؤلفات سابقة و تخرج على أيدي هؤلاء المحدثين أكثر من خمسين تلميذا كانت لهم شهرة ممتازة و سمعة عطرة في ميدان الحركة العلمية بصورة عامة هذا عدا عن التلامذة الكثر الذين لم تكن لهم شهرة كبيرة يضاف إلى ذلك أن قسما كبيرا منهم تسلم مناصب علمية رفيعة المستوى خلال هذه الفترة كمـا فـي الجدول التالي:

إسم المحدث	مكان عمله و زمان إنتهائه	مرتبته في المدرسة	موقع المدرسة
محمد بن علي الجياني	خزانة الكتب النورية (533هـ/1138م)	رئيس خزانة الكتب النورية	حلب
عمر بن الحسن المعروف بابن دحية	المدرسة الكاملية (633هـ/1235م)	مشيخة الكاملية	القاهرة
محمد بن يوسف البرزالي زكي الدين	مشهد ابن عروة بالجامع الأموي (636هـ/1238م)	مشيخة الحديث بهذا المشهد	دمشق
محمد بن سراقة الشاطبي	المدرسة البهائية (642هـ/1244م)	مشيخة الحديث	حلب
محمد بن محمد الشاطبي	المدرسة البهائية و الكاملية (662هـ/1263م)	مشيخة الحديث	حلب و القاهرة
محمد بن الخطاب ابن دحية	المدرسة الكاملية (667هـ/1268م)	مشيخة الحديث	القاهرة
إبراهيم بن عبد العزيز الأندلسي	المدرسة الظاهرية (678هـ/1279م)	مشيخة الحديث	دمشق
محمد بن أحمد الشاطبي	المدرسة الكاملية (686هـ/1287م)	مشيخة الحديث	القاهرة
أحمد بن فرح الإشبيلي	الجامع الأموي (699هـ/1299م)	مشيخة الحديث	دمشق
محمد بن محمد بن سيد الناس	المدرسة الظاهرية و مدرسة إبن أبي حليقة (734هـ/1333م)	مشيخة الحديث	القاهرة
القاسم بن محمد البرزالي	المدرسة الظاهرية و النفيسية و النورية (739هـ/1338م)	مشيخة الحديث في هذه المدارس	دمشق
محمد بن يوسف الغرناطي أثير الدين أبو حيان	القبة المنصورية	مشيخة الحديث	دمشق
محمد بن يوسف القفصي	المدرسة السامرية	مشيخة الحديث	دمشق

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص380.

و في الأخير نقول أن الدور الذي لعبه الوافدون إلى مصر و الشام من أهل المغرب و الأندلس في تنشيط دراسات الحديث، ظل عد من أبرز الأنشطة التي ساهموا بهـا فـي حركة الدراسات الدينية بمصر و الشام إن لم نقل أشهرها على الإطلاق.

كما نشير كذلك إلى مشاركة الوافدين إخوانهم المصريين و الشاميين في وضع حجر الأساس للدراسات المالكية في مصر و بلاد الشام، الأمر الذي شجع الأجيال التالية مـن مواطينهم على الحضور إلى مصر و الشام ينهلوا من هذا التراث.

و استمرت بالتالي هذه الكثافة العددية لجموعهم الوافدة تعمـل أثرهـا فـي جعـل الدراسات المالكية تحتل المكانة الأولى بين غيرها من المذاهب الأخـرى التـي عرفـت بمصر خاصة.

د-2) في مجال علم القراءات

تنحصر معرفة القراءات بإتقان طرق تجويد القرآن الكريم و التي وصلت عند بعض القراء إلى سبع طرق و إلى عشر عند بعضهم الآخر.

و هي التي تختص ببيان ألفاظ القرآن الكريم و أسباب نزوله، أو ما عـرف بعلـم التفسير ثم بإسناد نقله و روايته إلى النبي صلى الله عليه و سلم، الذي جاء به من عند الله سبحانه و تعالى و إختلاف روايات القراء في قراءته أو ما عرف بعلم القراءات.

و قد شاع بمصر هذا الصنف من الدراسات بقسميه، بيد أن دراسات الإقراء شهدت نشاطا أكبر بفضل جهود مقرئ مصر الكبير.

أبو عمرو عثمان بن سعيد المعروف **بورش** (197هـ/812م)[1] صـاحب القـراءة المعروفة باسمه حتى الآن، و التـي كـان قـد أخـذها عـن أسـتاذه **نـافع المـدني**

[1] هو أبو عمر، و قيل أبو سعيد، و قيل أبو القاسم، عثمان بن سعيد المصري أصله من القبط، وقيل من القيروان مولى آل الزبير بن العوام ولد سنة 115هـ/733م و أخذ القراءة عن نافع المدني و هو الذي لقبه بورش لشدة بياضه، و قيل لقبه بالورشان ثم خفف، إنتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه و كان عالما باللغة العربيـة بارعـا فـي النحو و توفي سنة 197هـ/812م، أنظر إبن الجزري، المصـدر السـابق، ج1،ص502-503. السـيوطي، حسـن المحاضرة، ج1، ص485.

(169هـ/785م). أحد علماء القراءات السبع[1] و قد إنتهت إلى ورش رياسة الإقراء في زمانه لأجل أنه "جيد القراءة حسن الصوت، و إذا قرأ بهم يهمز و يمد و يشدد و يبين الإعراب بحيث لا يمله سامعه"[2].

و الذي يجب أن يذكر هنا أن المغاربة و الأندلسيين إشتهروا في هذا المضمار إلى حد تميزوا عن غيرهم و خاصة في الفترة التي أعقبت نهاية القرن (4هـ/10م) فقبل هذه الفترة كان الأندلسيون و المغاربة يعتمدون الأسلوب المشرقي في القراءات.

و تعود جذور تأسيس هذا العلم إلى مجاهد مولى العامريين الذي إعتمده **المنصور إبن أبي عامر** و اجتهد في تعليمه و عرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان هذا كبير و اختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية و الجزائر الشرقية فاشتهرت القراءات من خلاله كونه أحد القراء الكبار وقتذاك[3] و ظهر بمدينة قرطبة واحد من كبار هذا الشأن هو **أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي** (ت437هـ/1046م) و ألف عدة كتب هامة في القراءات بالأندلس أهمها كتاب **التبصرة**[4].

و هكذا تتالى ظهور المهتمين بعلم القراءات في الأندلس و انكبوا على دراستها و إتقانها بشكل جيد و إلى درجة يمكن القول عندها بأن الأندلسيين و المغاربة كانوا أصحاب مدارس يعول عليها في هذا الميدان لذلك فإن خريجي هذه المدارس و خاصة منهم الذين عرفتهم مصر و الشام خلال هذه الفترة لم يكن نشاطهم مقتصرا على وجه واحد من وجوه هذه الصنعة كممارسة القراءة في مسجد أو محفل في مناسبة معينة فحسب إنما شمل هذا النشاط أمورا كانت أكثر أهمية و خلودا ذلك بأنهم قاموا بوضع مؤلفات تختص بعلم القراءات و تدريسها للطلاب و المهتمين كأي علم أو فن آخر، وبرهنوا على مقدرتهم الفائقة في هذا المجال كمعلمين متفوقين و بارزين و يمكن القول أنهم كانوا مجددين على هذا الصعيد و تجلى التجديد لديهم بأنهم نقلوا إلى مصر و الشام العديد من

---

[1] هو التابعي نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني الأصبهاني مولى أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه و سلم و إلتزم أهل المدينة قراءته و رجعوا إلى إختياره، و عليه قرأ عالم الفقه الكبير مالك بن انس. توفي بالمدينة سنة 169هـ/785م، راجع، إبن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص5-6.

[2] لمزيد من التفصيل عن قراءة ورش، راجع: عبد الله خورشيد البري، القرآن و علومه في مصر، دار المعارف بمصر، 1969، ص195-216.

[3] بلانثيا، المرجع السابق، ص405-506.

[4] المقري، المصدر السابق، ج3، ص179.

طرق القراءات التي لم تكن معهودة قبل هذه الفترة بالشكل الذي سيظهر في سياق الحديث عن دور كل مقرئ من المقرئين المغاربة.

و قد تباين دورهم و اختلف فتفوق بعضهم فابتكر و أبدع بينما ظل الآخرون عاديين لم يأتوا بجديد و بدأت طلائع هؤلاء المقرئين تصل إلى مصر و الشام منذ وقت مبكر ليبدؤوا نشاطهم باجتهاد و عزيمة صادقة ففي النصف الأول من القرن الخامس الهجري و مطلع النصف الثاني منه إشتهر أمر **إسماعيل بن خلف الأندلسي** (ت455هـ/1063م) بمدينة القاهرة حيث مارس القراءة في جامع عمرو بن العاص فقرأ عليه كثيرون من طلبة مصر أمثال جماهير بن عبد الرحمن و ابنه جعفر و **أبو الحسين يحي بن علي الخشاب** وعنه انتشرت طريقته و رفد القراء بكتابين ألفهما في مصر هما كتاب **العنوان و الإكتفاء** و كتاب **مختصر الحجة لأبي علي**[1].

و أسهم مثله في تعليم القراءات بمدينة الإسكندرية خلال العقد الأول و نصف العقد الثاني من القرن (6هـ/12م) **الحسن بن خلف القيرواني** (ت514هـ/1121م) إلى ذلك أنه قام بتأليف كتاب سماه **العبارات في القراءات**[2].

و كان شبيهه أيضا **أحمد بن محمد الأنصاري الشاطبي** الذي وصل إلى دمشق في مطلع القرن (6هـ/12م) و كان كبير السن فقام بتعليم طرق القراءات و بعدة روايات وكان العمل الأهم بالنسبة له. أن قام بتأليف عدد من الكتب التي تختص بالقراءات و التي كان منها **كتاب المقنع في القراءات** و كتاب **قراءة أبو عمرو الداني** (ت444هـ/1053م) و هو شخصية لها شهرتها الواسعة في ميدان علم القراءات ذلك أنه بلغ الغاية و المنتهى ووقفت عليه معرفة و انتهت إليه رواية أسانيده و تعددت تأليفه فيه الأمر الذي جعلها من المصادر التي يعول عليها رجال الإقراء[3] وتتلمذ عليه عدد كبير من أهل مدينة دمشق كان منهم والد أبي القاسم علي بن عساكر مؤرخ الشام فأجازه جميع مصنفاته و كتب سماعاته سنة (505هـ/1112م).

و حل بالإسكندرية في هذه الفترة مقرئ أندلسي هو **عبد الرحمن بن عتيق الصقلي** (ت516هـ/1123م) الذي قال عنه الأندلسيون: "ما رأيت أحدا أعلم بالقراءات منه لا

---

[1] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج1، ص164.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص494. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص41.

[3] المقري، المصدر السابق، ج2، ص135. بلانثيا، المرجع السابق،ص406.

بالمشرق و لا بالمغرب و انتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية في عصره بلا منـــازع وقد أسهم في ميدان التأليف أيضا فوضع كتابا سماه **التجريد في القراءات**". وقد اعتبر ثقة فوصف أنه: "أسند من بقي بالديار المصرية في القراءات"[1] و قال الجزري صاحب كتاب غاية النهاية في طبقات القراء أن كتابه **التجريد في القراءات** من أصعب كتب القـــراءات على الإطلاق مما جعل الجزري يفسره و يوضح مشكلاته و صعوباته في كتـــاب ســـماه **التقيد في الخلف بين الشاطبية و التقييد**[2].

و ظهر بمدينة حلب مقرئ من نوع بارع جدا هو **عبد العزيز علي** المعروف **بـــابن الطحان** (559هـــ/1164م) الذي اعتبر أحد المقرئين الأندلسيين الكبار مـــن بـــين الـــذين سكنوا الشام وعرفوا بالدقة والإتقان والإحاطة بجميع أنواع القراءات وليس أدل على ذلك من قول بعضهم فيه: "و ليس بالمغرب أعلم بالقراءات من إبن طحان". وقد حمـــل ابـــن الطحان لواء التجديد في القراءات و تجسد هذا الأمر في العديد من الكتب التي ألفها مثـــل كتاب **نظام الأداء في الوقف و الإبتداء** و كتاب **مخارج الحروف** الذي هو عبـــارة عـــن مقدمة في علم القراءات وكتاب **الدعاء** هذا بالإضافة إلى مقدمتين إحداهما فـــي **أصـــول القراءات** و الثانية في **مخارج الحروف**[3].

وأسهم أندلسي أخر ولفترة قصيرة في تدريس **كتاب التيسير لأبي الداني** بروايتـــه عن **ابن هزيل** سماعا سنة (553هـــ/1159م) بالإسكندرية[4] وقدر لمصر بصورة خاصـــة وللمشرق بصورة عامة أن ينزلها و يستقر في ربوعها مقرئ أندلسي كان له أكبر الأثـــر في تاريخ علم القراءات في المشرق العربي هذا المقرئ **هو أبو القاسم محمد بـــن فيـــرة الشاطبي** المتوفى بالقاهرة سنة (590هـــ/1194م).

فقد اشتهر على صعيد التدريس الذي مارسه في مدرسة القاضي الفاضل **عبد الرحيم البيساني** كاتب صلاح الدين الأيوبي و تعرف بالمدرسة **الفاضلية*** و اشتهر على صـــعيد التجديد و الإبتكار في علم القراءات ككل و ذلك من خلال المؤلفات التي وضعها وطـــار

---

[1] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص495. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص49.

[2] ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص374-375.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص389-390.

[4] نفس المصدر، ج2، ص509.

* الفاضلية مدرسة تقع بدرب ملوخيا بالقاهرة، بناها القاضي الفاضل سنة (580هـــ/1184م)، و وقفها على الشـــافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للأقراء تلاشت اليوم لخراب ما حولها، المقريزي، الخطط التوفيقية، ج6، ص12.

ذكرها ،فقد ترك أثرا ذا قيمة عالية تجلى بأن قام بنظم القواعد الواردة في **كتاب التيسير لأبي عمرو الداني** و اختصرها من قصيدته الشاطبية فسهل بذلك على القراء استذكار قواعد القراءات و حفظها و عدة هذه القصيدة ألف و مئة و ثلاث و سبعون بيتا أبدع فيها كل الإبداع و نظم قصيدة دالية أخرى في خمسمائة بيت لخص فيها مضمون كتاب **التمهيد** لأبن عبد البر في القراءات[1].

و قد عمت شهرة المؤلف الأول **للشاطبية** أو التي تعرف أيضا بـ **حرز الأماني ووجه التهاني** فأصبحت من الكتب التي يركز عليها كل من لهم بالقراءات إهتمام و عناية في المشرق كله. وعبر عن ذلك ابن خلكان بقوله: "أنه أبدع في حرز الأماني **منظومة** وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم ،فقل من يشتغل بالقراءات إلا و يقدم على حفظها و معرفتها مشتملة على رموز عجيبة و إشارات لطيفة و ما أظن أنه سبق إلى أسلوبها"[2] و عكس أهمية الشاطبية أيضا في المشرق العربي صاحب مؤلف أختص بتاريخ المقرئين هو **الجزري** صاحب كتاب غاية النهاية في طبقات القراء بقوله: "و من وقف على قصيدته علم مقدار ما أتاه الله في ذلك و خصوصا اللامية التي عجز البلغاء من بعده معارضتها فإنه لا يعرف مقدارها إلا من نظم على منوالها أو قابل بينها و بين ما نظم على طريقها و لقد رزق هذا الكتاب من الشهرة و القبول ما لا أعلمه لكتاب غيره في هذا الفن بل أكاد أقول و لا غير هذا الفن فإنني لا أحسب أن بلدا من بلاد الشام يخلو منه و لا أظن أن بيت طالب علم يخلو من نسخة به و لقد تنافس الناس فيها و رغبوا من إقتناء النسخ... حتى أنه كانت عندي نسخة باللامية و الرائية بخط الحجيج صاحب السخاوي مجلدة فأعطيت بوزنها فضة فلم أقبل و لقد بالغ الناس في التغالي فيها و أخذ أقوالها مسلمة و إعتبار ألفاظها منظومة مفهومة حتى خرجوا بذلك عن حد أن تكون لغير معصوم و تجاوز بعضهم الحد فزعم أن ما فيها هو القراءات و أن ما عدا ذلك شاذ لا تجوز القراءة به..."[3].

و درس على الشاطبي جماعات لا يحصى عددها فقد طغى إسمه على كل مقرئ في عصره من تلامذته يمكن ذكر محمد بن عمر القرطبي الذي خلفه بعد موته و تصدى

---

[1] بلانثيا، المرجع السابق، ص406.

[2] المقري، المصدر السابق، ج2، ص229.

[3] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج3، ص22.

للإقراء بمكانه **بالفاضلية**[1] و عيسى بن يوسف المقدسي و عبد الرحمن بن سعيد الشافعي و عثمان بن عمر بن الحاجب و أبو عبد الله الكردي و أبو الحسن علي بن محمد السخاوي و الكمال علي بن شجاع[2] و ارتقى بعض هؤلاء التلاميذ إلى مناصب دينية عالية و خاصة في مجال القراءات على حد قول ابن الزيات الذي لم يذكر إسم أحد منهم[3].

و شغل دورا مهما في تدريس و إقراء علم القراءات بمدينة قوص المقرئ **محمد بن عبد الله المريني** (ت601هـ/1205م) و تخرج عليه عدد من التلامذة كان في مقدمة من اشتهر منهم الشهاب القوصي الذي قال عن أستاذه: "قرأت عليه القرآن بها و سمعت من اليسير..."[4].

و في أوائل القرن (7هـ/13م)، وصل إلى حلب المقرئ **أبو بكر بن الرماك الإشبيلي الأندلسي،** كان بارعا على إتقان الأداء في قراءة القرآن فتوسعت شهرته كقارئ معلم نادر الوجود في مدينة حلب[5].

و يبدو أن الجامع الأموي الكبير بدمشق كان أحد المراكز التي استقطبت مقرئيين أندلسيين و مغاربة و من هؤلاء **إبراهيم بن يوسف** المكنى **بأبي الفرج** و المعروف **بالوجيه إبن البوني** الذي اشتهر أمره بالمسجد الأموي كمقرئ و كان يعقد حلقة للإقراء قال عنه **أبا شامة** الذي عاصره و قرأ على يديه جزءا من القرآن الكريم: "كان فاضلا خيرا متواضعا ساعيا في حوائج الناس. قرأت عليه الجزء الأول من القرآن..." (ت612هـ/1216م)[6].

وفي دمشق أيضا و بالمدرسة العادلية كان المقرئ الشيخ **أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي الضرير** من مدينة إشبيلية بالأندلس و في طريقه إلى المشرق أسر من طرف الإفرنج و هو في البحر و بعد الإفراج عنه توجه إلى مصر، و منها إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج، و منها توجه إلى بلاد الشام، فاستقر بدمشق يعمل في مجال

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص23.

[2] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج1، ص508. الداودي، المصدر السابق، ج1، ص39 وما بعدها.

[3] ابن الزيات (شمس الدين)، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثنى، بغداد، ص310.

[4] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج2، ص160.

[5] الرعيني الإشبيلي، برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق: إبراهيم شبوح، وزارة الثقافة و الارشاد القومي، طبعة دمشق 1962م، ص09-10.

[6] أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، ص91.

القرآن الكريم فقط توفي بالمدرسة العادلية سنة (648هـ/1251م) و دفن في مقابر الصوفية[1].

و إحتضنت مدينة القاهرة مقرئا بارعا كانت له شهرته الواسعة فيها و بالتالي كان دوره في ميدان القراءات كبيرا جدا يظهر من خلال الذين درسهم و تخرجوا عليه.

فقد ذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضرة أنه: "أجاز سبعة ألاف رجل بالقراءات".

و هو عدد كبير جدا على مقرئ واحد إذا علم أنه لا يسمح بإجازة أحد إلا إذا كان متقنا لعلم القراءات إتقانا تاما جريا على عادة العلماء في العصور الوسطى هذا المقرئ هو **أبو العباس أحمد بن محمد الأندلسي** (ت623هـ/1227م) و هو بذلك يتساوى مع أكبر المقرئين المغاربة و الأندلسيين نزلاء المشرق العربي كله في غزارة عطائه العلمي.

و كان **لعيسى بن عبد العزيز الشريشي** دوره المتميز في هذا المجال بمدينة الإسكندرية فقد وصفه بعضهم أنه إمام في القراءات و قد بالغ في بعض مؤلفاته كثيرا فقيل أنه ألف كتابا، جمع فيه حوالي سبعة آلاف رواية يقول الجزري عن هذا الكتاب: "أما هذا الكتاب فإنه سماه **الجامع الأكبر و البحر الأزخر** يحتوي سبعة آلاف رواية و طريق فرأيت بعضه و هو عندي و رأيت مختصره لأحمد بن عبد الباري الصعيدي و بعضه عندي" و يقول الذهبي في هذا الصدد بلغة الساخر المتهكم: "رجل قليل الحياء... فأين السبعة آلاف رواية فالقراء كلهم الذين في التواريخ ما أظنهم يبلغون ثلاثة آلاف رواية". ومن تلامذته **ابن مسدي الأندلسي** الذي قال عنه أيضا: "و من هذا الكتاب وقع الناس فيه ختمت عليه بالسبع من طريق التجريد و مع هذا كفى أسانيده تخليط..." وقال فيه أبو حيان النحوي الأندلسي عندما سئل عن حال أسانديه: "أكثر هؤلاء لم يكونوا موجودين في الدنيا بل هي أسماء موضوعة لغير موجود"، أما كتابه الثاني فقد أسماه **التبيين فيمن أجازه من المقرئين** و يقول الجزري عنه: "لم أره لكن رأيت مختصره لولده عبد الرحمن بن عيسى سماه **الإرشاد** ذكر فيها شيوخا كثرا". وعلى الرغم من أن كتابه الأول وصف بعدم الثقة إلا حد ما فإنه كان شاملا لعلوم القراءات كما يقول الجزري: "فكتابه الذي جمعه و سماه

[1] نفس المصدر، ص18.

الجامع الأكبر لم يجمع مثله في هذا الفن فإنه لم يترك من القراءات شيئا قل و لا جل إلا نادرا من رآه رأى العجب..."[1].

و قد خلف الشاطبي صاحب الشهرة الواسعة تلميذه محمد بن عمر القرطبي (ت631هـ/1233م) الذي لم يكن في مستوى أستاذه لا من حيث المعرفة و لا من حيث الإبداع و كل ما اشتهر به أن قام بتدريس علم القراءات و لاسيما كتاب الشاطبية بالمدرسة الفاضلية فانتفع به كثيرون منهم عبد الصمد بن أبي الجيش و الحسن بن عبد الكريم بن زيادة و غيرهما و يبدو أنه كان من رواد هذا الشأن و هذا ما يظهر من بعض ما قيل و ما روي عنه مثل المنذري و الشهاب القوصي[2].

و تصدى بمدينة الفيوم **أحمد بن علي الأندلسي** (ت640هـ/1243م) لمهمة القراءة التي لا تعود شهرته إلى هذه المهمة فقط، بل إلى مؤلفاته من القراءات التي لم تكن مبتكرة حيث قام باختصار كتاب **التيسير و شرح الشاطبية**[3] وقد شارك في ميدان القراءات مشاركة فعالة و إيجابية المقرئ يوسف بن جامع القفصي المتوفى ببغداد سنة (682هـ/1284م) فقد تتلمذ عليه علي بن أحمد الجزيري و أبو العلاء الفرضي، و يبدو أنه كان من المقرئين الكبار بدليل قول الذهبي عنه: "و كان لا يتقدمه أحد في الإقراء في زمانه" و ألف كتابا سماه **الشافي في القراءات العشر** و آخر سماه **التأييد و النهاية** يقول الجزري عن الأول: "ورأيت كتاب الشافعي يدل على كلمة علمه الكثير في هذا الشأن"[4].

وقد ساهم المقرئ محمد بن محمد الغرناطي بتدريس علم القراءات بمدينة القاهرة خلال هذه الفترة ما بعد الثلث الأول من القرن (8هـ/14م) فتخرج عليه كبار أهل العلم بالقاهرة مثل **أبي بكر بن أيدغدي** و **أحمد بن حسن السويداني** و **ابن الجندي** و يروي الجزري أنه لما وصل مصر سنة (720هـ/1330م): "عظمه أبو حيان جدا و أمرني أن أقرأ عليه فختمت به شيوخي الذين قرأت عليهم القراءات"[5].

---

[1] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج1، ص609 وما بعدها. الذهبي، المصدر السابق، ج5، ص116-117.

[2] ابن الجرزي، المصدر السابق، ج2، ص219. الداودي، المصدر السابق، ج2، ص220. اليافعي المكي، المصدر السابق، ج3، ص75. الصدفي، المصدر السابق، ج4، ص261.

[3] ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص87. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص501. المقري، المصدر السابق، ج2، ص137.

[4] ابن الجزري، المصدر السابق، ج1، ص394.

[5] نفس المصدر، ج2، ص240.

و توصل **محمد بن محمد الغماري** (ت802هـ/1400م) إلى مشيخة الأقراء بالشيخونية* بالقاهرة و هذا يدل على غزارة علمه و معرفته بالقراءات إذ لولا ذلك لما تسلم منصبا كهذا[1].

و ساهم أيضا بمدينة القاهرة بتدريس القراءات و طرقها **أحمد بن عيسى المغربي** (ت827هـ/1424م) الذي كان يمارس مهمته بالجامع الأزهر، حيث تخرج كثيرون مثل الشمس القرافي و غيره[2] و يتساوى معه في مهمته العلمية **سرور بن عبد الله المغربي** (ت845هـ/1442م) الذي تصدى لتدريس القراءات بمدينة الإسكندرية و كان له تلامذة كثر[3].

و هكذا فإنه يلاحظ على حركة المغاربة و الأندلسيين في ميدان علم القراءات أنها حركة اتسمت بالنشاط و الإيجابية و تكللت في معظم الأحيان بالنجاح و الوصول إلى الهدف المطلوب فقد ساعد القراء المغاربة و الأندلسيون على إغناء طرق القراءات في مصر و الشام من خلال مهمة التدريس التي أبدعوا فيها و من خلال التأليف الذي وفوه حقه ، فقد ألفوا أكثر من أربعين كتابا كان منها خمسة كتب جديدة على الأقل في أسلوبها ومضمونها وامتازت على جميع ما ألف في هذه الفترة من كتب في حقل علم القراءات والتجويد في المشرق العربي كله.

د-3) في مجال الفقه

إن الشيء الملاحظ أن المغاربة و الأندلسيين الذين عملوا في ميدان الفقه و الخطابة في المساجد كانوا من الكثرة يصعب ذكرهم جميعا.

و لن يكون التركيز على أحد منهم إلا من خلال ما قدمه من تأليف علمي أو ما مارسه من عمل خطابي في المساجد و كان له أثره الجيد على الناحية الثقافية بصورة عامة.

---

* المدرسة الشيخونية: أنشاها شيخو العمري سنة (756هـ/1355م)، و هي عامرة إلى الآن و تعرف بجامع شيخو بالقاهرة، المقريزي، الخطط التوفيقية، ج6، ص8.

[1] ابن الجزري، المصدر السابق، ج2، ص244.

[2] السخاوي، ج2، المصدر السابق، ص59.

[3] نفسه، ج3، ص245.

و لعل في مقدمة المؤلفات الجيدة التي صنفها فقهاء من هذه الطبقة كان كتاب **سراج الملوك** الذي وضعه الفقيه **أبو بكر الطرطوشي** (ت520هـ/1127م) بالأسكندرية و كان قد ألفه للأفضل بن أمير الجيوش، وهو بمجمله يدور حول تقديم النصائح و الإعتبارات للحكام من خلال مضمونه الذي لا يخرج عن كونه كتابا تعليميا لرجال الحكم الذين يجب عليهم الأخذ بما فيه و الإهتداء بهديه حتى يبلغوا النجاح و الطرطوشي في هذا الكتاب يشبه العلماء المسلمين الذين ألفوا على شاكلة هذا الموضوع مثل الغزالي في كتابه **التبر المسبوك في نصيحة الملوك** و ابن طباطبا في كتابه **الفخري في آداب السلطانية** و ابن خلدون في مقدمته و اعترف ابن خلدون أن الطرطوشي من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف في ميدان العمران لكنه لم يحسن علاج موضوعاته بدقة و لا يفرق الطرطوشي في كتابه بين السياسة و الأخلاق فهما عنده شيء واحد، وهو كتاب مازال متداولا حتى أيامنا هذه و قد طبع عدة مرات و من مؤلفاته الأخرى **الكتاب الكبير في مسائل الخلاف** وكتاب **بدع الأمور و محدثاتها** و كتاب **بر الوالدين** و **شرح رسالة الشيخ أبن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي** و كتاب **الأسرار** و كتاب **رسالة في تحريم جبن الروم** وكتاب **الفتن** و قد اشتهر كتاب سراج الملوك من بين جميع هذه المؤلفات خلال الفترة التي تلت وفاة الطرطوشي إلى درجة أن هذا الكتاب قد وصل حد التقديس[1].

و يبدو أن الطرطوشي اشتهر في ناحية أخرى هي طريقته في التدريس في ميدان الفقه بمدينة الإسكندرية عندما ابتكر طريقة جديدة هي أقرب شيء إلى طريق التربية الحديثة فلم تقتصر دروسه على طريقة الإلقاء إنما كان يصحب تلاميذه إلى البساتين والأماكن الأخرى المناسبة لإلقاء الدروس مما حبب التلاميذ فيه فكثروا حوله حتى فاق المألوف[2].

لقد عرفت مصر وبلاد الشام خلال فترة البحث عددا لا بأس به منهم تفرقوا في مناطق مختلفة من مصر و بلاد الشام، بحيث كانوا أوسع إنتشارا من الفئة التي عمل رجالها في ميدان علم الحديث و يظهر أن البعض منهم لم يكن يرغب في مثل هذا العمل

---

[1] ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص261 وما بعدها. المقري، المصدر السابق، ج2، ص85. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص62-63. ابن مخلوف، المصدر السابق، ص125 وما بعدها. جمال الدين الشيال، تراث الإنسانية، طبعة وزارة الثقافة بمصر، بلاتا، مجلد2، ص797 وما بعدها.

[2] نفسه، ص794.

و لكن لظروف صعبة تتعلق بتامين وسائل العيش أجبروا على الإشتغال في هذا الميدان، مثال ذلك:

محمد بن محرز بن محمد: من مدينة وهران بالجزائر الملقب **بركن الدين** أو **جمال الدين** نزل مدينة دمشق، التي قدم إليها عن طريق مصر أيام كان فيها **صلاح الدين الأيوبي**،و كانت رغبته الرئيسية العمل في ميدان الكتابة و الإنشاء لكن الظروف لم تسمح له بذلك حيث عمل خطيبا بمسجد في بلدة داريا بدمشق حتى توفي سنة (575هـ/1179م)[1].

و لعل أبرز الفقهاء و خطباء المساجد كان نزيل بيت المقدس و خطيب مسجدها **أبو الحسن علي بن محمد المعافري الأندلسي** (ت605هـ/1204م) الذي عكس من خلاله خطبه الدينية السياسية العامة للدولة و التي رسخها صلاح الدين الأيوبي و اعتبر المعافري أن الصراع مع الصليبيين في وجه من وجوهه على الأقل صراعا وطنيا يجب أن يساهم فيه الجميع من مسلمين و مسيحيين و هي السياسة نفسها التي كان ينتهجها صلاح الدين بدليل أنه قرب إليه أحد زعماء الكنيسة الشرقية على اعتبار أن الكنيسة الغربية كانت وراء الغزاة الصليبيين فاستخدم يوسف بن بابيط مستشارا له[2] و يعتبر دور المعافري هذا من أجل و أقدس المهمات الفكرية و الثقافية في كل زمان و مكان و خاصة أنه يدعو إلى إنقاذ الوطن و الحفاظ على وحدة شعبه.

لم يكن تواجد هؤلاء مقتصرا على مدارس المالكية فحسب، إنما وجدوا في كثير من الأحيان في مدارس أخرى متفرقة مثل المدرسة العادلية بدمشق حيث حل واحد من المغاربة يعمل مؤذنا هو **أبو الحسن علي المغربي المالقي** حتى وفاته سنة (626هـ/1226م)[3].

كما نزل بدمشق و استغرق ست سنوات يختلط بالعلماء و يسمع منهم، و كان آخرهم ابن عساكر المؤرخ الدمشقي، فأصبح من المقرئين الممتازين الأمر الذي أهله ليكون مناوبا في قراءة التراويح في رمضان[4] و عندما سيطر صلاح الدين الأيوبي على

---

[1] ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص385.

[2] عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، قسم1، ص315-316. ابن الزبير (أحمد)، صلة الصلة، تحقيق: ليفي بروفنسال، الجزائر، 1937م، ص104.

[3] أبو شامة، المصدر السابق، ص157.

[4] طبقات القراء، ج2، ص205. عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص175.

مدينة دمشق أمر بتجديد عمارة **مدرسة الكلاسة** الملتصقة بالجامع الأموي من جهة الشمال فكان أول إمام صلى بها هو **أبو جعفر الفنكي**، لكونه يجمع بين القراءة و الحديث و العلوم الفقهية، و بقيت في يده مدة طويلة، ثم توارث إمامتها من بعده أولاده حتى سنة (643هـ/1246م) حيث انقرضوا و لم يبق فيهم أحد[1].

و كان نصيب الفقه عند المغربي **أبو العباس بن إدريس الصنهاجي القرافي** (ت684هـ/1286م) كان حظ الفقه عنده كبيرا إلى حد ما و يعتبر من العلماء الذين اتسمت أعمالهم الفكرية بالتجديد و الإبتكار على عكس ما كان عليه علماء عصره الذين اقتصر معظمهم على شرح مؤلفات غيرهم يقول عنه السيوطي: "و أجمع المالكية والشافعية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة القرافي و ناصر الدين بن المنير و ابن دقيق" و أهم مؤلفاته الفقهية **كتاب الذخيرة و القواعد** و شرح **المحصول و التنقيح في الأصول** و شرحه إلى غير ذلك و يمتاز كتاب التنقيح بسهولة العبارة و بسط القواعد الأصولية[2] و اقتصرت مهمة الفقيه **إبراهيم ابن محمد الصفاقصي** (ت743هـ/1343م) على شرح مؤلف ابن الحاجب في الفقه[3].

و وصل إلى دمشق أندلسي مغربي تسلم الإمامة بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، هذا الإمام هو **محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي القرطبي** ثم **الغرناطي المالكي** حيث تولى لدى وصوله مباشرة إمام المالكية برواياتهم و بقي فيها حتى وفاته سنة (718هـ/1318م)، وعرض عليه منصب قاضي قضاة المالكية بدمشق فرفضه ربما لأنه كان وضعه المادي ميسورا لأنه ورث ثروة مالية لا بأس بها عن أبيه و جده.

و نستنتج من هذا العرض أنه كان ذا ثقافة دينية تؤهله لإستلام منصب كهذا دون واسطة[4].

---

[1] إبن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدهان، طبعة دمشق 1956، ص76. الذهبي، المصدر السابق، ج4، ص179.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص316. عبد الله المراغي، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، ط2، بيروت، ج2، ص46. و توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية.

[3] ابن سعيد الأندلسي، المصدر السابق، ج10، ص98.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص350-351. الصدفي، المصدر السابق، ج2، ص144.

و بعد وفاته ورث ولده **عبد الله** المدعو أبو محمد الملقب **بفخر الدين** تولى الإمامة عشية وفاة والده لأن مستواه العلمي كان يؤهله لذلك المنصب دون غيره، وبقي في إمامة المالكية بدمشق إلى وفاته سنة (723هـ/1323م)[1].

و وصل إلى دمشق الفقيه **شهاب الدين أحمد العفيف** الأندلسي و تصدر إمامة جامع الرأس بمدينة دمشق إلى أن توفي سنة (724هـ/1324م)[2].

و قد شكل وجود بعض الأندلسيين و المغاربة أهمية أكبر في المناطق أو بعض المدن الصغيرة في بلاد الشام و مصر، قام فيها بعض المشايخ و رجال الدين البارزين بمهمة الإمامة والخطبة في الجمع في المناسبات في مساجدها و من هؤلاء:

حسن بن محمد القرطبي الأصل الصفدي المنشأ المعروف بنجم الدين كان والده خطيبا بصفد خلال (7هـ/13م) و كان هو ينوب عنه في حياته والده و بعد وفاة والده انتقل إلى مدينة دمشق و عمل خطيبا في جامع جراح كما حظي بخدمة نائبها المملوكي وهذا الأخير كلفه بمهمة الخطابة و ديوان الإنشاء في وقت واحد لكن بمدينة صفد و بقي بها حتى توفي سنة (723هـ/1323م)[3]. فكان فريدا و مميزا عن أمثاله من العاملين في هذا الميدان، و امتاز بالكرم و السخاء المفرط، وبعد وفاته خلفه في خطابة مسجد صفد ابنه **محمد** الملقب **بكمال الدين** ،تعلم على والده الخطابة و هو في سن السابعة عشر[4] يعتبر هذا الخطيب و والده من النماذج الفريدة من مجموع الجالية الأندلسية و المغربية التي حلت بالشام.

و لم يقتصر وجود الأندلسيين في الجامع الأموي الكبير على الزاوية المالكية فحسب إنما وجد بعضهم في أماكن أخرى منه، لكن ليس بصفة إمام، و إنما بصفة مؤذن، مثال ذلك **عيسى بن علي البسطي** الأندلسي حيث عمل مؤذنا فكان آذانه محببا لفصاحته و حسن نغمته، توفي بدمشق سنة (734هـ/1334م)[5].

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص286.

[2] الذهبي، المصدر السابق، ص139.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص44-45.

[4] الصدفي، الوافي بالوفيات، ج2، ص366-367.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص20.

و الذين أموا في محراب المالكية بالجامع الأموي **أحمد بن محمد الإشبيلي** المعروف **بأبي عمرو المالكي**، قدم دمشق و تصدى لمهمة الإمامة لكنه لم يدم فيها طويلا و توفي سنة (745هـ/1345م)[1].

كما عرفت مدينة طرابلس الشام واحدا من المغاربة عمل كخطيب في أحد مساجدها و هو عمر بن علي بن أبي بكر المغربي لكن لم يعمر كثيرا حيث توفي سنة (784هـ/1382م) بمدينة حماة[2].

و في مدينة دمشق أيضا إشتغل محمد بن أحمد بن أبي الوليد القرطبي إماما بالزاوية المالكية بالجامع الأموي حتى وفاته سنة (793هـ/1391م)[3].

و ركز بعض هؤلاء الأئمة و الخطباء أكثر من غيرهم و بصورة متميزة على أمر معين هو النهي عن المنكر و الأمر بالمعروف و الأعمال النافعة المفيدة. مثل الفقيه **زين الدين عبد الرحمن بن محمد الدكالي** (ت819هـ/1417م) الذي اشتهر أمره إلى حد ذاع صيته و عرف و اتصف بشدة تعلقه و تمسكه بما كان يقول و يدعو إليه و مارس مهمة الخطابة في جامع ابن طولون بمدينة القاهرة و أصبحت مكانته مرموقة عند الشعب ورجال الحكم على حد سواء الأمر الذي يدل على انه مدعاة للثقة و مصدرا لها و بالتالي بإمكانه التأثير من خلال أقواله وهذا ما حدث بالواقع[4].

و خلال القرن (9هـ/15م)، إستقبلت بلاد الشام و مصر عددا كبيرا من المغاربة و الأندلسيين، عملوا في ميادين مختلفة كان منها المساجد و تركز عمل الأئمة من هؤلاء في المسجد الأقصى، الذي خصص قسما منه للمغاربة، كما كانت الحال بالنسبة لهم بالجامع الأموي بدمشق و الجامع الأزهر بمصر، منهم:

محمد بن محمد المغربي المالكي الشهير **بابن خليفة** الذي تنوعت معارفه كحفظ الحديث والقرآن والتجويد والنحو والفقه عمل في إمامة المالكية بالمسجد الأقصى حتى وفاته[5].

---

[1] نفس المصدر، ج1، ص247. الذهبي، المصدر السابق، ص246.

[2] ابن حجر، أبناء الغمر، ج1، ص268.

[3] نفس المصدر، ج1، ص428.

[4] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص136.

[5] الحنبلي (مجير الدين)، المصدر السابق، ج2، ص587.

أحمد بن محمد الرباحي المغربي الذي إشتغل مؤذنا بالمسجد الأقصى و بقي في عمله حتى وفاته سنة (875هـ/1470م)[1]، والمغاربة الذين عملوا أئمة بالزاوية المالكية بالأقصى:

محمد بن خليفة بن مسعود المغربي الملقب بشمس الدين و بقي على رأس هذا العمل حتى سنة (872هـ/1468م) و توفي سنة (889هـ/1484م)[2]. ثم جاء **محمد بن عبد الرحمن المغربي** الملقب بشمس الدين الذي تولى نيابة الإمامة بالزاوية المالكية بالأقصى و بقي في هذا العمل حتى توفي سنة (892هـ/1483م)[3].

أما البقية الباقية من الفقهاء فهي كثيرة جدا و على الرغم من ذلك فلم يشتهر منهم أحد على صعيد التأليف أو نحوه و كل الذي قاموا به و أنجزوه أنهم تولوا الخطابة و الإمامة في مسجد أو مدرسة أو خانقاه أو مشهد من المشاهد المشهورة إلى غير ذلك من هذا القبيل.

و قد توزعوا بشكل ملحوظ و واضح على مناطق ثلاث هي الحجاز في مكة والمدينة والطائف ومصر بالقاهرة والإسكندرية وبلاد الشام بدمشق وبيت المقدس.

و الذي يمكن إستنتاجه من خلال ما سبق تبين لنا أن أفراد هؤلاء المغاربة والأندلسيين الذين ساهموا في أعمال بالمساجد والزوايا كأئمة وخطباء أو مؤذنين يختلفون عن جميع الفئات الأخرى و هذا الإختلاف انحصر في نقطة واحدة فقط و هي تمسكوا بمذهبهم الأصلي المالكي إلا نادرا.

و هكذا فإن إسهامهم الفكري والثقافي لا يمكن إنكاره في مجال العلوم الشرعية وذلك من خلال المهمات التي قاموا بها كأئمة للمالكية والشافعية والحنابلة والحنفية و لا يعرف أن أحدا منهم قام بعمل سيء أو شائن يخالف الفكر العام والمألوف في تلك الفترة من الزمن ماعدا حادثة واحدة وقعت سنة (570هـ/1175م) في بلدة **مشغرا** من جبل لبنان عندما ادعى أحد المغاربة بأنه نبي مرسل فآمن به جمع كبير من الناس البسطاء

[1] نفس المصدر، ج2، ص589.

[2] نفسه، ج2، ص590.

[3] الزاوية المالكية بالمسجد الأقصى، حديثة العهد إذا ما قورنت بالزاوية المالكية بالجامع الأموي بدمشق، فهي تعود على وجه التقريب إلى السنين الأخيرة من النصف الأول من القرن (7هـ/13م) و كان الذي سعى بإقرار الصلاة المنفردة للمالكية، وهو الشيخ موسى المغربي المالكي المتوفى بمدينة الخليل العربي سنة (810هـ/1407م)، الحنبلي (مجير الدين)، المصدر السابق، ج2، ص581.

ولكن ذلك لم يدم طويلا حيث اضطر مرغما للهرب إلى مدينة حلب حيث عاش فيها معتمدا على السحر والشعوذة و ما شاكل ذلك[1].

د-4) في مجال علوم التفسير

إقتصر عمل أفراد هذه الطبقة على تفسير آيات القرآن الكريم و أنهم أقل الطبقات العلمية من المغاربة والأندلسيين نزلاء مصر والشام بحيث أن عددهم كان قليلا و ربما يعود سبب ذلك إلى أن القرآن الكريم كان قد فسر من قبل علماء كثر يشهد لهم بالعلم والمعرفة والثقة.

هذا بالإضافة إلى أن الذي يود القيام بمهمة تفسير القرآن يجب أن يتسلح بالعلم والمعرفة العميقة لذلك فإن من اشتغل في تفسير القرآن من المغاربة والأندلسيين خلال فترة هذا البحث كانت لهم شهرتهم العلمية الواسعة الأمر الذي ساعدهم على الإقبال بجرأة و ثقة على تفسير كتاب الله العظيم.

و كان من أوائل أفراد هذه الطبقة **محمد بن محمد شرف الدين** المغربي سنة (655هـ/1257م) فقد ساعدته ثقافته الشرعية الواسعة على تفسير آيات القرآن الكريم في كتاب سماه **ري الظمآن في تفسير القرآن** و قد ذكر بأن هذا التفسير امتاز بجودته و دقته وحياده ودليل ذلك أن أبا حيان أثير الدين النحوي الذي عرف بغزارة علمه و معارفه أخذ عنه شيئا كثيرا عندما تصدى لتفسير القرآن[2].

وقام بعده بزمن قليل **محمد بن أحمد القرطبي** (ت671هـ/1273م) بتفسير القرآن الكريم الذي لم يعطه أسما سوى التفسير على ما يبدو و قد اشتهر أمر هذا الكتاب في أواسط العلماء والمفسرين حتى تفوق على جميع التفاسير المعاصرة واللاحقة وقيل فيه شيء كثير كان أفضل هذه الأقوال ما جاء على لسان خليل بن أيبك الصفدي صاحب كتاب **الوافي بالوفيات.**

و قد سارت بتفسيره الركبان و هو تفسير عظيم ببابه و قام بمجهود آخر في ميدان التفسير لم يسبقه آخر في ميدان التفسير لم يسبقه إليه أحد في المشرق العربي على حد ما جاء في روايات المؤرخين و هو تفسير الأسماء الكثيرة التي يختص بها الله تعالى عن

---

[1] أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص251-252. لم يذكر أبو شامه إسم هذا المغربي و ربما يكون سبب ذلك أنه لم يلتق به و هو الذي عرف عنه حب معاشرة المغاربة.

[2] ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص141 وما بعدها.

غيره وسماه **الأسنى في أسماء الله الحسنى**[1] و قام بإغناء علم التفسير في المشرق العربي خلال القرن (8هـ/14م) و أسهم فيه بصورة مميزة و من خلال قناتين رئيسيتين هما التدريس و التأليف **أبو حيان أثير الدين النحوي** (ت745هـ/1345م) فقد قام بتفسير آيات القرآن الكريم في كتاب سماه **البحر المحيط في التفسير** و اختصره فيما بعد بكتاب سماه النهر و **أتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب** هذا بالإضافة إلى أنه كان مسؤولا عن تدريس مادة التفسير بالقبة المنصورية* و جامع ابن طولون[2] و قد أعجب الكثيرون من العلماء بكتاب التفسير الآنف الذكر مثل الذهبي الذي قال عنه: "و له التفسير الذي لم يسبق إلى مثله في عشر مجلدات كبار و اختصره في ثلاثة مجلدات سماه النهر"[3].

و غير هؤلاء الذين ذكروا مع كل ما لهم من دور إيجابي في ميدان علم التفسير فإن مصر والشام لم يعرفا أحدا من المغاربة والأندلسيين إشتغل في مجال هذا العلم، لكن وعلى الرغم من عددهم القليل فإنهم أجادوا في أعمالهم و استحقوا كبير الثناء و عوضوا بذلك عن الكثيرين.

و كان خاتمة المفسرين المغاربة و الأندلسيين **شمس الدين محمد بن علي المغربي** المعروف **بابن النقاش** (ت763هـ/1362م) الذي اشتهر عنه كتاب التفسير قيل أنه طويل جدا ألتزم فيه أن لا ينقل فيه حرفا من كتاب آخر و سماه **اللاحق السابق** الأمر الذي يدل على تمكنه من معرفة معاني القرآن و أسباب تنزيله و هذا بالإضافة إلى أن هذا التفسير مبتكر و جديد[4].

و هكذا فإن الذين إشتغلوا في ميدان علوم الدين تمكنوا بجهودهم الخاصة أن يتركوا ذكرا طيبا و خالدا من خلال الأعمال التي مارسوها مثل رؤساء لمشيخة العلم التي كانت محور نشاطهم أو مدرسين ناجحين و أيضا من خلال مؤلفاتهم التي يمكن أن يقال عنها

---

[1] الصدفي، المصدر السابق، ج2، ص122.

* المنصورية بشارع النحاسين بالقاهرة: أنشاها الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي و هي عامرة إلى الآن وتعرف بجامع المارستان، المقريزي، المخطط التوفيقية، ج1، ص15.

[2] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص146. ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص290.

[3] ابن الجزري، المصدر السابق، ج2، ص286. الداودي، المصدر السابق، ج2، ص288. الصدفي، نكت الهيمان في نكت العميان، ص281.

[4] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص198.

أنها زادت على أربعمائة مؤلف منها ما زال مخطوطا و منها ما طبع و يعتمد عليها في كثير من البحوث و الدراسات المختلفة.

و إن عددا من هذه المؤلفات لا يستهان به كان قد صنف لأول مرة فهو جديد في مضمونه وموضوعه على صعيد المشرق العربي والمغرب والأندلس على حد سواء ويضاف إلى هذه الأعمال أن بعضهم قام بنقل كتب كانت قد صنفت في المغرب والأندلس و اشتهرت بصورة واسعة في المشرق العربي فوصل بعضها إلى درجة التقديس واتخذها بعض الناس وسيلة خلاص لهم من المتاعب التي يتعرضون لها.

و حدث ذلك بالفعل بمدينة القاهرة سنة (782هـ/1380م) عندما طلب الأمير الكبير برقوق من **الشيخ جلال الدين التباني** و سأله أن يستقر في قضاء الحنفية فقال له الشيخ: "أنا أعجمي و العرب أولى بها" أي وظيفة القضاء و ألح برقوق بالطلب فأخرج الشيخ التباني ختمة من القرآن وكتاب الشفا للقاضي عياض اليحصبي وتشفع فيهما وطلب من برقوق أن يعفيه من الإستقرار في القضاء فأعفاه[1].

د-5) في مجال علم الكلام (التوحيد)

و هو علم يدرس العقائد الإيمانية في أمور مثل ذات الله وصفاته وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر، والدفاع عنها بالأدلة العقلية. و ذلك بهدف الوصول للتوحيد الكامل لله سبحانه وتعالى وتنزيهه عما لا يليق[2]. و قد تعددت فرق المتكلمين وكان أشهرها: الخوارج، الشيعة، ثم المرجئة والجبرية أو الجهمية، فالقدرية أو المعتزلة، ثم السلفية، و أخيرا الأشاعرة[3]. على الرغم من إختلاف وجهات النظر بين تلك الفرق في تناول قضايا التوحيد، إلا أنها اشتركت جميعا في المضامين الفلسفية التي احتوتها طريقة معالجة هذه القضايا بالنسبة لكل فرقة.

لهذا كان من الطبيعي ألا يتضح -في هذا المجال- دور ذو شأن بالنسبة لجماعات الدارسين والحجاج المغاربة والأندلسيين أثناء وجودهم بمصر، لاسيما و أن طبيعة وجود الغالبية العظمى منهم كطلاب علم كانت تتعارض و هذا الإغراق في الفلسفة الذي هو من

---

[1] ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج3، ص34-35.

[2] إبن خلدون: المقدمة، ج3، ص1069 وما بعدها.

[3] عن نشأة هذه الفرق والتعريف بها، راجع: أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط9، المرجع السابق، ج3، 1978م، حيث يدور كله حول هذه الفرق.

مقتضيات علم الكلام. و لا ننسى أن أهل المغرب والأندلس عامة قد اشتركوا في عدم إستساغة هذه الخلافيات، و إن كانت قد هناك فبغير تعمق في أبعادها الفلسفية[1]. كما أن أهل مصر –كذلك– كانوا كارهين لإختلافات الرأي التي نجمت عن تباعد وجهات النظر بين أنصار كل فرقة[2]، و مال جمهور كبير من علمائهم لمعاداة النزعات المتطرفة التي نادى بها علماء فرقة مثل المعتزلة في قولهم بأن القرآن خلق الله و ليس كلام الله[3].

و وصل الأمر إلى أن راح بعض العلماء المصريين ضحية لهذه المحنة، مثل البويطي الشافعي[4]، و عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي[5]. و لا نستبعد أن يكون ثمة تعاطف و رغبة في رفع الظلم قد حدث بين الموجودين بمصر خلال هذه الفترة من الدارسين المغاربة والأندلسيين و بين أساتذتهم المصريين. أو على الأقل من جانب تلاميذ هؤلاء الأساتذة المضطهدين. و إن هذا التعاطف المشترك كان تعبيرا عن إتفاق و جهتي النظر بينهما بشأن رفض المغالاة في هذه النزعات الفلسفية.

و نستدل على ما سبق بتلك الحادثة التي قيلت عن إتهام أحد علماء المغرب –و هو **يحي بن سلام بن أبي ثعلبة**[6]– بالقول بالإرجاء في أثناء حياته، و إمتناع علماء مصر –المالكية منهم خاصة– عن رواية الأحاديث التي هو طرف في إسنادها، على الرغم من علو مكانة **إبن سلام** كمحدث الأمر الذي جعل **الإمام مالك** نفسه و**الليث بن سعد** و**عبد الله**

---

[1] يشير المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء)، في هذا الصدد إلى أن أهل الأندلس كانوا يقولون عن أنفسهم: (لا نعرف إلا كتاب الله و موطأ مالك و أنهم إن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي أو نحوهما ربما قتلوه)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة برلين، لندن، 1906م، ص236. راجع: محمد عبد المولى، القوى السنية، ص54-55.

[2] أنظر ذلك: الكندي، (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري)، ولاة مصر و قضاتها، تحقيق: حسين نصار، ص155، حيث أشار إلى إتهام أهل الفسطاط للوالي العباسي علي بن سليمان (169هـ/171هـ،785م/787م) بأنه قدري من أجل انه "استخلص رجلين متهمين بالقدرية، وهما عبد الحميد بن كعب بن علقمة التنوخي و هرم بن سليم إبن عياض العامري من قريش".

[3] عن تفاصيل هذه المحنة، انظر: احمد أمين، المرجع السابق و نفس الجزء، ص161-186.

[4] راجع ترجمة البويطي، فيما سبق، ص157.

[5] هو أبو عثمان عبد الحكم أكبر أبناء عبد الله بن الحكم له سماع كثير في علوم الحديث و فقه مالك على أبيه و عبد الله بن وهب، و إختص كثيرا بابن وهب و تعرض للتعذيب و سجن خلال محنة القول بخلق القرآن حيث دخن عليه الكبريت، راجع: إبن فرحون، الديباج، ص166. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص446.

[6] سبقت ترجمته، ص152.

بن لهيعه يروون عنه بعض أحاديثه[1]. و لم تنفرج الأزمة إلا بواسطة جماعة من الوافدين من أهل القيروان، كان على رأسهم عون بن يوسف[2]، الذي روى الحادثة بنفسه قائلا: "كنت عند عبد الله بن وهب المصري فقيه المالكية الكبير نسمع منه، حتى مر في متنه حديث عن **يحي بن سلام** فقال أطرحوه لأنه بلغني أنه مرجى. فقمت أنا إليه و معي ثلاثة من أهل إفريقية فشهدنا عنده أنه بريء من الإرجاء"[3].

و كي يطمئن عون أستاذه **إبن وهب** على براءة ساحة إبن سلام، قال له: "أنا كاشفته عن ذلك... فقال: معاذ الله أن يكون رأيي أو أدين الله به، ولكن أحاديث رويتها عن رجال يقولون الإيمان قول، و آخرين يقولون الإيمان قول وعمل، فحدثنا بما سمعنا منهم". فقال إبن وهب مخاطبا عون: "فرجت عني فرج الله عنك"[4]. و لا شك أن مقولة إبن وهب الأخيرة كانت فاتحة لأن يعرف باقي علماء مصر حقيقة موقف إبن سلام و يتبينوا براءته. و يمكن القول بأن التكريم الذي حظي به الأخير أثناء وجوده بمصر في أخريات حياته، وصيرورة المكان الذي دفن فيه بمقطم مصر سنة (200هـ/815م) بجوار قبر رفيقه **إبن فروخ** مزارا عاما، كل ذلك كان تعبيرا عن فرحة المصريين ببراءة إبن سلام من التهمة المنسوبة إليه[5].

و يلاحظ أن كراهية هؤلاء الوافدين للخوض في فلسفات هذا العلم، لم يكن يعني عدم إلمامهم بقضايا التوحيد، أو ينفي عنهم إستعدادهم لخوض أية معركة كلامية من أجل نصرة العقيدة الإسلامية، إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك.

---

[1] أبو العرب (محمد بن أحمد بن محمد بن تميم بن أبي الجهم تمام بن تميم التميمي)، طبقات علماء إفريقية، ج1، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص37-38. راجع: محمد عبد المولى، القوى السنية، ص502-503.

[2] سبق ترجمته، ص150.

[3] أبو العرب، المصدر السابق، ص38.

[4] نفس المصدر، في نفس المكان.

[5] أبو العرب، المصدر السابق، ص37.

و أوضح مثال على ذلك تلك التي جرت وقائعها في مدينة الفسطاط في أحد أيام سنة (235هـ/849م) و كان بطلها الغمام الفقيه **محمد بن سحنون** إمام إفريقية الكبير (ت256هـ/869م)[1].

فقد حدث أثناء وجود هذا الفقيه بمدينة الفسطاط، على رأس وفد مغربي في الطريق لأداء فريضة الحج، أن نشبت مناظرة بين أحد رفاقه في الرحلة –و كان يدعى أبا الفضل بن حميد و بين رجل يهودي من سكان الفسطاط كان صاحب أحد الحمامات بالمدينة. وكان اليهودي قد إستعلى–في البداية– على الفتى بكثرة حججه. فلما رأى إبن سحنون ذلك، دخل طرفا ثالثا في الحوار، و سرعان ما انقطع إبن حميد، و اقتصر الأمر على إبن سحنون و اليهودي[2]. ثم أن المحاجاة حفلت بمشاهد جعلتها حديث الناس في المدينة، ذلك أن اليهودي أبدى مقدرة كبيرة على الجدل بحيث إستمرت من قبل صلاة الظهر و حتى حلول وقت المغرب. و كادت أمور الحياة العادية تتوقف بالمدينة إنتظارا لما يسفر عنه اللقاء، و ذلك لكثرة من حضر من المصريين للمشاهدة. فلما كان عند صلاة المغرب، غلب اليهودي على أمره و انقطع عن الحجة، و ظهر عليه إبن سحنون بالدلائل الواضحة و الحجج البالغة، فلم يجد غير أن يعلن إسلامه و نطق الشهادتين. و نلاحظ إعجاب الحاضرين بمسلك إبن سحنون و تفوقه من خلال أصواتهم التي علت بالتكبير قائلين:

---

[1] هو الإمام إبن الإمام أبو عبد الله محمد بن سحنون ورث العلم عن أبيه و برع في ذلك حتى كان يناظره. و قد توسم أبوه سحنون فيه النجابة فكان يقول عنه: "ما أشبهه إلا بأشهب" يريد أشهب بن عبد العزيز المصري، إشتهر محمد بالذود عن مذهب مالك و ألف في ذلك و في غيره من فنون العلم مؤلفات زاد عددها على المائتين منها: كتاب الإمامة الذي كتبه أثناء وجوده بمصر و كتب بماء الذهب. ولد سنة 200هـ/815م و قيل سنة 202هـ/817م و توفي سنة 252هـ/849م بعد أن بلغ شأنا كبيرا بإفريقية. راجع: الخشني، طبقات علماء إفريقية، ج4، ص129–132. المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله محمد)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و افريقيةو زهادهم و عبادهم و نساكهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م، ج1، ص345–352. الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن علي بن عبد الله الأنصاري الأمدي)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية التونسية، 1902–1907م، ج2، ص80–88. إبن فرحون (ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني)، الديباج، المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص234–237.

[2] يفهم من النص أن إبن حميد قد دبر للقاء إبن سحنون مع هذا اليهودي قبل حدوثه بعام، إذ كان إبن حميد قد حضر للحج في العام السابق على هذه المرة و إلتقى مع اليهودي في مناظرة عرف من خلالها مدى قوته فرجع إبن حميد إلى القيروان بعد ما حج و في قلبه حسرة إذ لم يكن عند المناظرة ما يدحض به حجة اليهودي، راجع المالكي، المصدر السابق، ج1، ص351.

"أسلم اليهودي على يدي الفقيه المغربي". و نلاحظ كذلك أن الإمام **محمد ابـن سـحنون** –رغم تفوقه في المناظرة و إلمامه بقواعد الكلام– كان كارها للخوض في مثل هذه المناظرات و لولا خشيت أن يؤدي تفوق اليهودي على رفيقه **ابن حميد** إلى افتتان أحد النظار من المسلمين من أهل مصر لما أُقدم على مناظرته. و يؤكد المالكي على أن **ابـن سحنون** عبر عن هذه الحقيقة فور انتهاء المناظرة "و هو يمسح العرق على جبينه"[1].

و أخيرا فلم يكن هذا الموقف الجسيم بالأمر الغريب على **محمد بن سحنون** الذي ما إن وطئت قدماه أرض مصر، حتى سرت حمية ثقافية بين علماء مدرسة الفسطاط آنذاك. فنراهم و قد أقبلوا عليه ما بين مرحب يسأله الإقامة عنده طوال إقامته بالفسطاط، تماما كما كان الحال مع والد هذا و والد ذاك، و كان أبو رجاء **محمد بن أشهب بن عبد العزيز (ت249هـ/863م)**[2]. و بين ثان يقدم عليه و يطيل الجلوس معه حتى ينفرد بلقائه بعد أن ينصرف الناس، و هو المزني صاحب **الإمام الشافعي،** و بين ثالث يتناول مؤلفاته بالمدح واصفا صاحبها **ابن سحنون** بأنه رجل سبح في العلم سبحا و كان **محمد بن عبد الله بـن عبد الحكم** الغني عن التعريف[3].

---

[1] انظر الحادثة بتمامها عند المالكي، المصدر السابق، ج1، ص351–352. الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص80–81.

[2] انظر ترجمة أبي رجاء بن أشهب عند إبن فرحون، الديباج، المصدر السابق، ص320.

[3] الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني الأندلسي)، طبقات علماء افريقية، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص129. و راجع: الدباغ، المصدر السابق و ج2، ص81. الذي جعل إقبال علماء مصر على إبن سحنون عقب هذه الحادثة مباشرة و لاحظ أن إطلاع محمد بن عبد الحكم على مؤلفات ابن سحنون و إعجابه بها يؤكد ما رجحناه من قبل عن إمكانية أن تكون مؤلفات المغاربة و الأندلسيين قد صارت ضمن المناهج الدراسية التي تم تدريسها بمصر خلال عصورها الإسلامية.

الفصل الثالث

إسهامات المغاربة و الأندلسيين في مصر و الشام في المجال الإدراي و السياسي و العسكري

1- في ميدان الحكم و السياسة في مصر و الشام

لقد كانت مجموعة من المغاربة، لم يتعد عدد أفرادها أصابع اليد، تدخلوا في شؤون الحكم و السياسة و كان لهم رأيهم الخاص في هذا المجال، و خاصة في فترة حكم المماليك، و كان لواحد منهم طموح لتولي السلطة، الأمر الذي لم يوجد عند أحد من العرب المشارقة على الإطلاق، و اعتبر تدخلهم في شؤون السياسة، التي كانت تنتهجها طبقة الحكم آنذاك من أشد الأمور مساسا بمركز السلطان، لأنه لم يسبق لأحد أو جماعة أن تدخلت في شؤون السلطنة مع أهل البلد الأصليين فالمشاكل من هذا القبيل تصدر عن المماليك أنفسهم[1].

الحادثة الأولى: كانت خلال فترة حكم صلاح الدين الأيوبي، لكنها لم تكن بقصد الإضرار بالسلطة الأيوبية بقدر ما كانت لأجل ترسيخها و تقويتها، و هو ما قام به **اليسع بن علي بن حزم الجياني** (ت595هـ/1198م) تجرأ و خطب باسم العباسيين في أواخر أيام الفاطميين في مصر، و كانت مبادرة منه دون توجيه من صلاح الدين الأيوبي لم يتجرأ أحد غيره على القيام بها و نجحت المبادرة فنال مكانة مرموقة عند صلاح الدين الذي ظل يكرمه حتى آخر أيام حياته[2].

الحادثة الثانية: كانت سنة (742هـ/1342م)، و تتلخص بقيام أحد المغاربة بمجادلة **جر كتمر بن بهادر** أحد الأمراء المماليك آنذاك بالقاهرة و كان المغربي يتهمه بأنه قتل الملك المنصور بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذي خلفه بالسلطنة مباشرة بعد موته و لفترة قصيرة لم تتعد بضعة أشهر.

و بلغت الجرأة بهذا المغربي أن كتب بذلك إلى الأمير **قطلوبغا الفخري** فقبض على المغربي و لا ريب في أن مصيره كان القتل، فلا رحمة فيمن يطرح مثل هذه الأمور وعلى الأخص في فترة من أصعب فترات التاريخ العربي الإسلامي و أحلكها و هي فترة

---

[1] ابن إياس، المصدر السابق، ج3، ص100.
Rabinowitz (L.I), Jewish Marchant Adventures, London 1948m p127.

[2] نفس المصدر، ج3، ص222. أحمد عبد اللطيف حنفي محمد، الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21-567هـ/ 642-1171م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة طنطا، تحت إشراف: د/محمد أحمد عبد المولى، ص85 وما بعدها.

حكم المماليك في المشرق الإسلامي[1] و لا يذكر المقريزي اسم هذا المغربي على الـــرغم من دقته و شدة ملاحظته بالإضافة إلى أنه المصدر الوحيد، الذي أتى على هذه الحادثة.

و بلغ الأمر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة إلى إرجـــاع ســـوء الحالـــة الإقتصادية و تفاقم الأمور و تدهورها إلى سياسة السلطان نفسه، فقد إتهم مغربي جـــريء السلطان بأنه السبب فيما وصلت إليه حالة الإقتصاد من سوء و تدهور، و تحمس بصورة كبيرة لهذه القناعة التي تكونت عنده حتى أخذ يدعو الناس فـــي القـــاهرة للـــتخلص مـــن السلطان، و حدث ذلك سنة (775هـ/1374م)، التي عمت خلالها موجة الغلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها.

و بلغ الأمر بهذا المغربي، الذي لم يذكر المقريزي اسمه أيضا، إلى مكان قريب من القلعة مكان إقامة السلطان و الأمراء و تحريض الناس علانية على قتـــل السلطـــــــان والتخلص منه لأن ذلك مفتاح حل الأزمات التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت، يقـــول المقريزي: "و في ثالث عشر ذي الحجة، قبض على رجل مغربي كان يقف في الليل تحت القلعة و يصيح، اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم و يجري نيلكم فضربه والـــي القـــاهرة وتركه لحاله"[2].

و الحقيقة أن السبب الذي دفعه لأن ينادي بقتل السلطان لا يمكن التكهن به إنما يمكن القول أن السبب في ذلك، ربما يعود إلى أن السلطان كان بمقدوره أن يحرك الأزمة باتجاه الأفضل إذا ترفع عن جشعه و طمعه، لأن حكام مصر المماليك من أمراء و سلاطين، لم يكن همهم إلا أنفسهم و من يدور في فلكهم من أبنـــاء جنســـهم، فـــاحتكروا التجـــارتين الخارجية و الداخلية، و سيطروا سيطرة تكاد تكون شبه كاملة على جميع مصادر الثـــروة لصالحهم الشخصي[3].

الحادثة الثالثة: تدخل من خلالها المغاربة في أمور السياســـة فكانـــت مـــن أخطـــر الحوادث على مستقبل السلطان و الحكم بصورة عامة، و بطلها أحد المغاربة الـــذي قـــام بالتخطيط مع بعض أمراء العرب للإطاحة بالسلطان المملوكي و الـــتخلص مـــن حكـــم المماليك نهائيا، لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق و الإرتكاز على ثوابت موضوعية

---

[1] المقريزي، المصدر السابق، ج3، قسم1، ص226.

[2] المقريزي، المصدر السابق، ج2، قسم3، ص594.

E.J.Brill Leyde G P, Maisonneuve et larose S.A, paris 1971, p120.

[3] مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة2، العدد27-28، السنة1987، ص202.

ما يمكن صاحبه من الوصول إلى ما يهدف إليه، و كان أن أخفقت أول و آخر محاولة من هذا القبيل، و خلال العصر المملوكي.

و هي و إن دلت على شيء فهي تدل على أن المغاربة نزلاء المشرق العربي كانوا على درجة من الوعي و النضوج بصورة تدعو للقول أنهم تفوقوا على أضرابهم من المشارقة، و صاحب هذه المحاولة الفريدة في عصر المماليك **جمال الدين محمد العنابي** (ت796هـ/1394م)، و هو الذي اختصه السلطان الظاهر برقوق و قربه إليه و ملخص محاولته الفاشلة قيامه بالاتصال مع الأمير العربي **موسى بن محمد بن عيسى** و هو في السجن بأمر السلطان برقوق، و عرضه عليه أن يخبر جميع أنصاره بأن يحضروا إلى قريب من القاهرة و ينتظروا حتى يخرج السلطان الذي كان على وشك الخروج إلى الشام، و من ثم يهاجمون القاهرة يدعمهم في ذلك خمسمائة مملوك بقيادة العنابي من داخلها و يسيطرون عليها، و بعد أن تتم عملية السيطرة على القاهرة، يعلن العنابي خليفة **و شهاب الدين بن قايماز** أتابكا للجيش، و يتم أيضا تعيين سلطان جديد، و من ثم تنفيذ ما يراه هؤلاء مناسبا من الأعمال، لكن الأمير السجين لم يوافق على ما يبدو على خطة العنابي لأنه لم يعطه منصبا قياديا كبيرا، فكان أن سلم مذكرة العنابي إلى من أوصلها إلى السلطان الذي أمر باعتقال العنابي و أجرى معه تحقيقا طويلا اعترف هذا من خلاله بخطته الرامية لقلب نظام الحكم و الإطاحة بالسلطان فصدر الأمر بقتل هذا المغربي.

و بذلك انتهت أول محاولة تجرأ مغربي أن يقوم بها، و تدل هذه المحاولة على مدى الوعي الذي في الأوساط الشعبية و عدم رضاها عن الحكام المماليك الذين عاشوا في غربة دائمة كانت تفصلهم عن الشعب و الأرض على حد سواء في كل تصرف و في كل خطوة على أرض مصر و ظل المغاربة يلعبون دورهم في أحداث تاريخ مصر السياسي طوال القرنين (8-9هـ/14-15م).

2. مساهمة ابن خلدون السياسية في ربط العلاقات بين مصر و المغرب الإسلامي

سمع ابن خلدون كثيرا بالقاهرة من التجار و الرحالة و الحجاج القادمين من مصر، و تذكر قول أحد علماء المغرب له: "من لم يرها (القاهرة) فإنه لم يعرف عز الإسلام"[1] والواقع أن الأثر الذي تركته القاهرة في نفسه كان بالغا.

إلا أنه من الجهة الأخرى فهو لم يكن غريبا عن حلقات القاهرة الفكرية فإن شهرته كمؤلف للمقدمة و كتاب العبر و كرجل دولة و دبلوماسي كانت قد سبقته إلى المشرق كله و خاصة مصر و الشام، فعندما وصل إلى مصر إنتشر خبر وصوله بسرعة و أثار إهتمام أهل العلم و سعوا إلى تكريمه و دعوته إلى الإقراء و نصب مدرسا بالأزهر الشريف[2].

قد كان لظهور ابن خلدون على مسرح الفكر في القاهرة أثر بالغ في نفسه ، فقد توثقت أواصر المودة بينه و بين الأمير **ألطنبغا الجوباني**[3] و هو واحد من أكابر أصحاب النفوذ في بلاط السلطان **برقوق** و كان هذا الأمير سببا في تعريف السلطان بابن خلدون، و قد أدى هذا التقارب إلى صداقة وثيقة خالصة دامت طوال حياة السلطان و حكمه.

و هذه الصلة بين السلطان و ابن خلدون هي التي عينت نشاط ابن خلدون و مجرى حياته في مصر، فقد كان برقوق ينفرد به كثيرا و كل المناصب التي مارسها ابن خلدون في مجال التعليم و القضاء و السياسة غنما كان منشؤها هذه الصلة الشخصية.

و حيثما كان يشغر منصب ما كان السلطان إلا و يفكر بابن خلدون على أنه الأول والأصلح له، وقد وجد ابن خلدون في برقوق من يحميه و يرعاه، بحيث أنه أغرقه بالمنن و الألطاف و أغدق عليه العطاء و حباه من العطف ما يسر له السير في مشاريعه. وقد اعترف ابن خلدون باستمرار المقام الخاص الذي ناله و الخير الذي جناه من هذه الصلة

---

[1] ابن خلدون، التعريف، ص96-97. محمد بن تاويت الطنجي، التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا، دار الكتاب المصري، القاهرة 1951، ص246-248. ابن خلدون، العبر، ج7، ص452. محمد طه الحاجري، ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1980م، ص175-180.

[2] ابن خلدون، التعريف، ص96-97. محمد بن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص247-248. ابن خلدون، العبر، ج7، ص452. ابن تغري بردي، المنهل، الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص49. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص146.

[3] لا يشير ابن خلدون إلى هذه الشخصية في التعريف بهذه المناسبة، راجع العبر، ج5، ص467 و ما بعدها. المنهل، الصافي، المصدر السابق، ص49 وما بعدها. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص146.

فقد كتب قائلا: "منذ أن وصلت مصر و السلطان يحبوني بعطفه لقد إنساني فرقتي وابتعادي عن وطني"[1].

رغم هذا الإهتمام لم ينس صلة ابن خلدون بالمغرب و الأندلس، لقد ظل يراسل الأصدقاء و العلماء و رجال الدولة و كانوا هم يتابعون أخبار و نجاحه في غربته بإهتمام كبير و كان الزوار و الحجاج[2] والتجار من أهل المغرب يزورون ابن خلدون، ابنهم الكبير إذا مروا بالقاهرة[3]، فكانوا يمدونه دوما بأخبار وطنه الأول، و قد كان هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين يحملون إليه أخبار المشرق لما كان هو مقيما في المغرب[4] و كثيرا ما كان ابن خلدون واسطة تعريف هؤلاء مقيما بالسلطان و قد تعرضت مرة قافلة حجاج مغربية للنهب و هي في طريقها إلى مكة، فطلب أصحابها بها حماية السلطان و كان ذلك بواسطة ابن خلدون الشخصية.

وقد حدث أن هبط القاهرة رجل مغربي معروف إسمه **الشيخ يوسف** و رجا أن يتدخل السلطان برقوق في مصلحته مع سلطان تونس و كان برقوق في سورية، فتولى ابن خلدون الأمر، فلما عاد برقوق إلى القاهرة قدم ابن خلدون الشيخ على السلطان، فلبى

---

[1] ابن خلدون، التعريف، ص97-107 وما بعدها. تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص249 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج5، ص467 وما بعدها، ج7، ص451 وما بعدها.

Encyclopedia of Islam, vol 3, edition: London 1986, vol 13, edition London 1971, p91.

[2] لما كان ابن خلدون حاجا في مكة و صلته رسالة من الشاعر ابن زمرك الغرناطي مع قصيدة في السلطان برقوق. وقد طلب الشاعر أيضا من ابن خلدون أن يبعث إليه كتبا من مصر، ابن خلدون، التعريف، ص88 وما بعدها.

راجع بخصوص هذا الوزير الشاعر:

R. Blachere «Vizir Poete Ibn Ezamruk et son œuvre » annales de l'institut d'étude orientales d'Alger ,vol 2 ,1936, p291-312 ; and E.Garcia Gomez ,Ibn Zamrak , el pozta de la alhambra (Madrid 1943), see also A.R NYKL Hispano-Arabic poetry (Baltimore,1943, p366-369)

[3] لقد ظل المغاربة في إفريقية وإسبانية، شديدي التعلق بابن خلدون و تابعوا نشاطه في مصر بشيء من الاهتمام، فليس غريبا أن يكون عزله من القضاء قد وجد صدى في المغرب، فقد كتب قاضي غرناطة و هو صديق لابن خلدون يقول: "و قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم من الولاية التي تقلدتم أمرها و تحملتم مرها..."، نقولا زيادة، 1960. ثم تعرفت على كيفية انفصالكم و أنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هذا لكم، ابن خلدون، التعريف، ص106 وما بعدها.

[4] ابن خلدون، التعريف، ص56 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج7، ص428-429. و قد جاء في رسالة بعث بها ابن خلدون إلى ابن الخطيب (وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله و انتفاض سلطانه و انتزاء الجفاة على كرسيه... حتى أن الهبعة ــالهرج في الأزقةــ اتصلت بالقاهرة أياما). راجع أيضا، ابن خلدون، العبر، ج6، ص396. حيث يقول: "إن أخبار المغرب وصلته في مصر على أيدي أولئك الذين وصلوها من تلك الديار".

طلب الشيخ[1]، و إحتفاظ ابن خلدون بصلاته مع أكابر القوم في شمال إفريقية كان في نظر السلطان برقوق أمرا في الخير والفائدة.

و يبدو أن التأييد المطلق الذي كان ابن خلدون يلقاه لدى السلطان برقوق، لم يكن الباعث عليه عناية السلطان بالعلماء عامة و ابن خلدون خاصة باعتباره مؤرخا كبيرا، إنما كانت ثمة رغبة عند السلطان في أن يفيد من مهارة ابن خلدون الدبلوماسية ومقدرته وإتصالاته بالمغرب، ذلك أن السلطان كان حريصا على الحفاظ على صلات الود مع جيرانه في المغرب، و في الواقع أن دور ابن خلدون في الوساطة بين مصر والمغرب وبين المشرق و المغرب، مدونة في فصل خاص من التعريف هو **السعاية في المهاداة والألطاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر**[2].

وقد كانت العلاقات الدبلوماسية بين حكام المغرب الإسلامي وسلاطين المماليك في القاهرة تتخذ شكل الهدايا والرسائل والسفراء[3].

وقد كانت عادة قديمة العهد، واستمرت على ذلك في أيام السلطان **برقوق**. فقد كان برقوق شديد الرغبة في الحصول على الأشياء الثمينة النادرة مما يوجد في المغرب وخاصة السلاح والحلي والبغال والخيل والسيوف والحرير والكتان والقنب والجلود والأصباغ والنحاس، فأفاد من صلات ابن خلدون مع حكام المغرب. و قد كان أشد هذه الأمور طلبا خيول المغرب، وقد كانت الخيول مما يصدر حتى إلى إيطاليا وغيرها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

---

[1] ابن خلدون، التعريف، ص129 (تا340). راجع بخصوص هذا الأمر، السلاوي، الاستقصاء، ج4، ص77.

[2] ابن خلدون، التعريف، ص127-132، يتحدث ابن خلدون كمؤرخ عن العلاقات السابقة بين المرينيين والمماليك ويعطينا التفاصيل عن تبادل الأشياء بين الدولتين و في العبر تفاصيل أخرى حول القضية، راجع العبر، ج5، المصدر السابق، ص420 وما بعدها، صفحات440-479-501. و قد وردت الرسوم المختلفة المتعلقة بهذه الأشياء عند القلقشندي في صبح الأعشى، ج8، ص79 (من تونس) وص84 (من تلمسان) وص87 (من فاس) وص99 وص103-115 (من المرينين)، و لسنا نريد أن نشير إلى جميع الوثائق التي توضح العلاقات بين المماليك و حكام المغرب، راجع:

M.Canard, « les relations entre les mernides et les mamelouks au XIVe siècle ».Annales de l'institut d'etudes orientales d'alger ?1938-1941, Vol V ,p41-81.

بخصوص العلاقات بين المماليك و الحفصيين في تونس راجع:

R.Brunschvig, La Berberie orientale sous les Hafsides ,Vol I (paris ,1940), p 204-216, Vol II (paris 1947), p311-429.

[3] كان حكام المغرب يبعثون إلى المشرق بسفراء مخصوصين في أحوال خاصة. فقد حمل سفراء من هذا النوع رسائل تهنئة و هدايا ثمينة إلى برقوق إثر عودته إلى العرش بعد الثورة التي قامت ضده، أو لما تولى العرش سلطان جديد.

و من الأمور البارزة أنه لم يكد ابن خلدون تتوثق صلته ببرقوق، حتى كتب إلى سلطان تونس يحثه على إرسال بعض الخيول إلى برقوق –و لعل هذا الأخير إقترح ذلك– لأن خيول مصر من حيث القوة و الجمال لا تداني خيول المغرب.

و لقد أرسلت خمسة أحصنة إلى برقوق، لكنها لم تصله، فقد كانت على ظهر المركب الذي هلكت فيه زوج ابن خلدون و ابنه إذ ثارت عليه عاصفة شديدة و قد رغب برقوق أن يبتاع خيولا، و يقول مؤلف التعريف: "و بعث برقوق إلي فحضرت بين يديه وشاورني في ذلك (شراء الخيول من المغرب) فوافقته، و سألني كيف يكون طريقه (طريق المملوك) فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس"[1]، هذه و غيرها مما ورد في التعريف تشير إلى الدور الذي قام به ابن خلدون و لو إلى حين، بوصفه خبيرا و مشيرا في الشؤون المتعلقة بالمغرب، و يبدو أن ابن خلدون كان يدرك قيمة العمل الذي يقوم به لبرقوق، و لفرج من بعده، و يؤكد أنه اكتسب بذلك سمعة "بسبب أنه كان في صلة دائمة بين هذين الملكين"[2].

و لعل هذا التعلق بالمغرب يفسر لنا احتفاظ ابن خلدون بزيه المغربي ، فلم يتخذ له زي القاضي المصري، الأمر الذي عابه عليه خصومه من معاصريه[3] فقد ظل طيلة حياته مغربيا و غريبا، و كان يبدي ذلك بشكل واضح في زيه و في أشياء أخر[4]. و مما يلفت النظر بشكل خاص أنه إثر عودته من دمشق إلى القاهرة بعث إلى سلطان المغرب بتفاصيل ما جرى له مع تيمور، و ذلك تجديدا لصلاته بالمغرب.

---

[1] ابن خلدون، التعريف، ص130. محمد عبد الله عنان، ابن خلدون وتراثه الفكري، ط2، مطبعة مصر –شركة المساهمة–، مصر، بلاتا، ص68–70.

[2] لقد نتج عن جهد ابن خلدون في تمكين الصلات بين مصر و المغرب حدث أدبي هام، فقد اتخذ إحدى مناسبات تبادل الرسل و الهدايا فرصة لإرسال نسخة منقحة و مزيد عليها من كتابه العبر إلى أحد سلاطين المرينيين بفاس. وهذه النسخة لا تزال محفوظة في مكتبة جامع القرويين، و تعتبر هذه النسخة ما للأهمية بمكان لكونها تحتوي على أتم ما وصل إلينا من الجزئين الثالث و الخامس من العبر. راجع:
E.Levi-Proveçal in journal Asiatique, 1923, p161-168.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص146–148. شذرات الذهب، ج7، ص77 وأيضا:
Tyan Vol I ,p 280-313 ,Quatremére , Maqrizi-Suluk ,Vol II ,Pt 2 ,p 72 ,ff ,R.Dozy , Dictionnaire des noms des vetements chez les arabes (Amsteram , 1845).

[4] و قد روى ابن عربشاه ما يؤيد هذا فيما يتعلق بابن خلدون، إذ قال أنه لما ظهر ابن خلدون مع بقية القضاة أما تيمور لنك، لفت الزي المغربي نظره فقال: "ليس هذا الرجل من بلادكم". و كان ابن خلدون، على ما رواه ابن عربشاه، يعتمر عمة خفيفة أنيقة و يرتدي جبة على طوله و عليها حاشية حالكة السواد، تبدو كأنها بدء الليلة الظلماء. راجع:
J.H Sanders ,Tamerlane or timur the great amir (london , 1936), p 114.

3. إسهامات المغاربة والأندلسيين في سلك الوظائف الإدارية

لقد كثر عدد المغاربة والأندلسيين الذين رحلوا عن بلادهم و استقروا في المدن المصرية و الشامية و تنوعت وجوه الحياة التي إنخرطوا فيها و إن كان معظمهم يشتغل بالتجارة، كما أن عددا من أقطابهم تفرغوا لنشر الفكر الصوفي، و منهم من تجلى نشاطه في الميادين العسكرية و الثقافية، و الإدارية و السياسية، و منهم أيضا من نال حظوة لدى الحكام و السلاطين فأسندوا إليهم بعض المناصب الرفيعة كمنصب القضاء و الكتابة[1].

و قد تعرضنا لمعظم هذه الوظائف في فصول أخرى من هذا البحث أما في هذا العنصر سنقتصر على وظيفة الكتابة و بعض المهن الأخرى.

لقد رافق تعدد نشاطات المغاربة و الأندلسيين في مصر و الشام تزايد أعداد الجالية المغربية و الأندلسية بكثرة خاصة في القرنين (8-9هـ/14-15م) و هو أمر يمكن تفسيره بالانهيار الذي حصل خلال هذه الفترة في سلطان العرب و المسلمين السياسي في الأندلس و وصل إلى ذروته بنهاية الوجود السياسي لهم بسقوط غرناطة (897هـ/1492م)[2].

و في غياب الإحصاءات لا نستطيع تحديد أعداد من اختاروا مصر و الشام كمقر و كموطن لهم، مما يجعلنا نعتمد على المؤشرات لزيادة العدد كإنشاء منصب لنظام القضاء المالكي في القاهرة و دمشق أولا، ثم إمتداده لباقي المدن المصرية و الشامية، يضاف إلى هذا التزايد في الوافدين تزايدهم الطبيعي بالتوالد في وقت إحتفظت عدة أجيال بنسبها المغربي مع تحديد المدينة[3].

إن الذين شغلوا مناصب إدارية، كانوا قليلي العدد إلى حد ما. و هذا ما يدعو للقول، أن نزلاء بلاد الشام من عرب الأندلس و المغرب، لم يوفقوا في هذا الميدان، كما كان الأمر بالنسبة للمجالات و الميادين الأخرى، و ذلك بالرغم من مكانتهم الرفيعة لدى الحكام و العامة على حد سواء، و بالرغم مما عرف عنهم من جد و إخلاص في العمل، إضافة إلى ذلك الأمانة والقناعة والوفاء، التي تميزوا بها. و يمكن القول أن هذا الأمر، لا يرجع

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص639.

[2] ابن إياس، المصدر السابق، ج2، ص99.

[3] المقري، المصدر السابق، ج2، ص639-640.

Seligman (C.G), Races Of Africa, London 1966, p73.

إلى عدم قدرتهم وأهليتهم للقيام بأعباء مثل هذه الأعمال بقدر ما يعود إلى عدم اهتمامهم بالبحث عن مثل هذه المناصب، و إن كان بعضهم قد اشتغل في مجال الإدارة بالشام و مصر، فإن المراكز التي شغلوها، لم تكن ذات شأن كبير، إذا ما قيست بتلك التي شغلها أهل البلاد و المقربين من الحكام و قد كان هذا الأمر طبيعيا جدا في تلك الفترة من الزمن، بحيث كانت جميع المراكز الهامة كالوزارة و النيابة و غير ذلك، توزع على حاشية الحكام و المقربين، على اعتبارهم طبقة مميزة عن عامة الشعب، يجب أن تبقى في المراكز القيادية العليا كما حدث في الفترة التي حكم فيها المماليك بشكل خاص. فهؤلاء كما هو معروف، ظلوا سادة البلاد و حكامها، و بالتالي مصدر كل أمر فيها. إذن و الحالة هذه، فإن من غير المستغرب أبدا، أن يكون الأندلسيون و المغاربة قد ظلوا بعيدين عن المناصب العليا مثلهم في ذلك، مثل إخوانهم عرب الشام و مصر، و بالرغم من ذلك فقد توصل بعض المغاربة إلى شغل مناصب إدارية تلي في الترتيب الوزارة و القضاء. فكان حظ دمشق و الإسكندرية جيدا إلى حد ما، من ناحية أنها احتوت جزءا لا بأس به منهم.

ففي مصر لم تخل ميادين الكتابة من وجود مغربي، على الرغم من أن أعمال الكتابة كانت نادرا ما تسلم لغير أهل مصر الذين تميزوا بإتقانها و القيام بأعبائها على خير وجه، و بصورة خاصة كتابة مدينة القاهرة عاصمة الدولة و مقر الحكومة والسلطان[1]، ففي هذا الميدان عمل المغاربة نزلاء مصر و منهم **محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري** من قلعة بني حماد في الأصل الذي أقام ببلدة بوصير من أرض مصر و تسلم كتابة ديوان المنطقة الشرقية حتى وفاته سنة (697هـ/1298م)، فاشتهر بالسيرة الأخلاقية الحسنة التي لم يحد عنها معظم من تسلم مناصب إدارية في مصر من المغاربة، و هي مسيرة الصدق والأمانة والنزاهة والإندفاع في العلم، وتألم للحالة المأسوية التي كانت تسود تلك الفترة من الزمن، و التي تميزت بالابتعاد عن الصدق واستغلال المناصب الإدارية للمصالح الشخصية فثارت في أعماقه مشاعر السخط والأسى على هذا الواقع الصعب فقال:

[1] المقري التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص639-640.

فقدت طوائف المستخدمينـــا	فلم أر فيهم رجلا أمـــــــــينا
فقد عاشرتهم و لبثت فـــيـــها	مع التجريب من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلال و ما عرفنا	بهم فكأنما سرقوا العيونـــــــا[1]

وعرفت مدينة المحلة الكبرى* إداريا مغربيا عمل في ديوان الإنشاء موظفا عـــاديا وهو رضى الدين محمد بن حمزة المغربي (ت615هـ/1219م)[2]، و بلغت ثقة الحكام المصريين بالمغاربة حدا كبيرا جعلهم يستخدمونهم في مناصب أمانة السجن في القاهرة الذي تسلمه في أواخر القرن (7هـ/13م) المغربي أبو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني (ت694هـ/1295م)، و برهن من خلال عمله الذي لم ينفصل عنه إلا بالموت، أنه أهل للثقة التي أولاه إياها رجال الدولة في مصر أنذاك[3].

كما توصل معاصره الأمير بدر الدين المغربي (ت698هـ/1299م) إلى منصب رفيع جدا بمدينة القاهرة هو منصب **الدوادارية*** الذي لم يتسلمه مغربي غيره خلال الفترة موضوع هذا البحث، لأنه مثل هذا المنصب غالبا ما كان يسند إلى المقربين من السلطان و حاشيته، و قد عينه فيه السلطان **المنصور لاجين*** و كلفه بتجديد عمارة جامع ابن طولون[4].

و فاق جميع الإداريين في مصر، والمشرق العربي عبد الواحد بن إسماعيل الإفريقي (ت786هـ/1384م) من حيث المرتبة والمنصب الذي شغله بمدينة القاهرة وهو

[1] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص100 وما بعدها.

*المحلة الكبرى، و هي من المدن المصرية القديمة إسمها القبطي دقلا، و لما فتحها العرب سموها محلة دقلا، وعرفت بمحلة شرقيون ثم سميت المحلة الكبرى لأنها أكبر البلاد المسماة بإسم المحلة بمصر، و ذكرها المقدسي بإسم المحلة الكبرى و قال إنها مدينة على نهر الإسكندرية (أي فرع رشيد)، و وصفها الإدريسي قائلا: "المحلة مدينة ذات أسواق عامرة و تجارات شاملة"، و ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج6، ص169. المحلة عدة مواضع بمصر منها محلة دقهلية و هي أكبرها وأشهرها تقع بين القاهرة و دمياط، أنظر: القاموس الجغرافي، ج2، ص198.

[2] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص313.

[3] ابن فهد، لحظ الإلحاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلاتا، ص84.

Tourneau (R.Le), L'Occident Musulman du VII à la fin du XVes, Algérie 1958, p123.

* الدوادرية : وظيفة يشرف صاحبها على مصالح السلطان، و ينفذ ما يأمره به و لا يكتمه شيئا و لو كان على نفسه.

* المنصور لاجين: هو أحد سلاطين المماليك الذي حكم سنتين و شهرين و يسمى أيضا علم الدين سنجر الدواداري، أنظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، قسم3، ص827-859.

[4] المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص882-883.

منصب كتابة السر* لدى السلطان، و هو من أكبر المناصب الإدارية، و من يتسلمه يعتبر أحد شخصيات الدولة المرموقة و التي يعول عليها في كثير من الأمور التي تهم الدولة والمجتمع، لأهمية الأمور التي يطلع عليها كاتب السر و حساسيتها.

و قد تدرج الإفريقي في السلم الوظيفي حتى وصل إلى هذه المرتبة العالية، إذ عمل في البداية شاهدا في ديوان أحد أمراء الطلخاناه*، و لما أصبح برقوق أمير طلخاناه استخدمه كشاهد ديوانه أيضا، ثم انتقل بعد ذلك إلى وظيفة موقع الدست*، وعندما تسلم الظاهر برقوق السلطنة عينه كاتبا للسر فسار فيها سيرة حميدة أرضت الجميع، لكن مدة توليه هذا المنصب لم يدم طويلا، فمات متأثرا من مرض أصابه قبل أن يبلغ الأربعين من عمره[1].

و يبدو أن السلطان الظاهر برقوق، كان لا يثق إلا بالمغاربة، و دليل ذلك أنه لما تسلطن للمرة الثانية، قام بتعيين مغربي آخر لمنصب كتابة السر في الدولة و هو **علي بن عيسى العامري** المعروف **بالكركي** (ت794هـ/1392م)، و كان قد قدم له بعض المساعدات في منفاه بالكرك* فكافاه حين عودته إلى السلطنة بهذا المنصب المرموق وهو كالذي سبقه لم تطل مدته بسبب الوفاة[2].

و تسلم مغربي آخر كشف منطقة الوجه البحري جميعها، وهو **أحمد بن شرف الدين عبد الهادي بن أحمد المغربي** المعروف **بابن الشيخ** (ت787هـ/1385م)، و لم يعرف عنه ما يسيئ إلى سمعته خلال عمله هذا[3].

---

* كتابة السر: وظيفة يقوم صاحبها بإدارة ديوان الإنشاء التي تصدر عنه جميع الرسائل و المكاتيب الداخلية والخارجية، أنظر: عبد القادر زكار، المنتقى من صبح الأعشى، ج1، ص63.

*الطلخاناه: وظيفة ديوانية موضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية، و يكون صاحبها رفيقا للوزير، ويكون أمير طلخاناه أو أمير عشرة و تقابل في يومنا المدير أو معاون الوزير، أنظر: كتاب ولاة دمشق في عهد المماليك، ص26.

*موقع الدست: هو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أما السلطان أو النائب بمملكة من الممالك، أنظر: عبد القادر زكار، المنتقى من صبح الأعشى، ج1، ص63.

[1] ابن حجر العسقلاني، أنباء العمر، المرجع السابق، ص295.

*الكرك: مدينة في الأردن، عرفت قديما بإسم كير مؤاب، كانت حصنا للمؤابيين احتلها الصليبيون (573هـ/1177م)، واستولى صلاح الدين الأيوبي على حصنها (584هـ/1188م)، و كانت قاعدة لدولة المماليك (709هـ/1309م).

[2] ابن قاضي شهبة، التاريخ، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1977م، مجلد3، ص466.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص207-208.

وتسلم الحسبة بمدينة الإسكندرية **يوسف بن محمد الفلاحي المغربي (ت875هـ/1471م)**، و قد حمدت سيرته فيها[1].

أما في بلاد الشام كان في مقدمتهم **الفقيه جامع المغربي،** الذي حل بدمشق في الثلث الأخير من القرن (6هـ/12م) و السنوات الأولى من القرن (7هـ/13م)، حيث درس في بداية وصوله إليها على الحافظ الكبير **أبي القاسم بن عساكر** وغيره. و كان عمله الرئيسي في ميدان الإدارة بدمشق، مسؤولا عن عقود الأنكحة وإبرامها وكتابتها وكل ما يتعلق بها، بما يشبه العاملين في دائرة كاتب العدل في أيامنا هذه. و يفهم من حديث أبي شامه عنه، و الذي كان معاصرا له، أنه كان من الأندلسيين المعروفين على صعيد مدينة دمشق، ليس فقط لأنه مسؤول عن عقود الأنكحة، إنما لنواح أخرى تتعلق بأخلاقه و سلوكه القويم في ميدان عمله. و دليل ذلك أن أبا شامه نفسه، و الذي عاش بعد وفاة المغربي ثلاثا و ستين سنة، يذكر بأن رتبته مشهورة في **جبل قاسيون،** علما أنه توفي سنة (602هـ/1206م)[2]. و على صعيد آخر، فقد توصل واحد منهم إلى منصب هام جدا يمكن اعتباره أعلى منصب توصل إليه و شغله الأندلسيون في مدينة دمشق، بحسب المعلومات المتوفرة في كتب التراجم و غيرها. و تجلى هذا المنصب في ناظر الدواوين و المسؤول عنها بمدينة دمشق، الأمر الذي يدل على مكانة هذا المغربي، الذي يلقب **بعلاء الدين،** و اسمه **علي بن محمد بن علي البكري المراكشي** الكاتب، الذي لا نعرف متى دخل الشام، و إن كان من المحتمل أنه عاش فيها سنين طويلة، حيث شغل منصب **ناظر المرستان،** قبل أن يرتقي إلى ناظر **الدواوين،** الذي ظل يشغله حتى توفي في سنة (684هـ/1286م)[3] و لعله أحد الأجداد القدماء لعائلة البكري، التي ما تزال تنتشر في عدة مدن شامية بشكل خاص بمدينة دمشق. و أقل من هذا المنصب بالطبع، كان منصب **مدير السجن بدمشق،** الذي توصل إلى أمانته مغربي آخر، هو **علي بن عثمان ابن يحيى الصنهاجي** الذي كان يعمل شواء للحمة، كما يفهم من نعت الذهبي له، قبل أن يعهد إليه بهذا المنصب. لكن يجب أن لا يفهم من ذلك أنه كان جاهلا، لأنه كان من المهتمين بالناحية العلمية، فقد سمع بدمشق على طائفة كبيرة من علمائها، أمثال

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص231-233.

[2] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص55.

[3] الذهبي، العبر، ج5، ص348.

الزبيدي و ابن غسان و مولده يكون في سنة (622هــ/1225م) و بالاعتماد على قــول الذهبي أنه توفي سنة (693هــ/1292م) عن عمر يناهز السبعين عاما بقليــل[1]، و فـــي الفترة التي تلت عرفت دمشق أيضا مغربيا تسلم فيها أحد المناصب الإدارية الهامة جــدا، و هو **وكالة بيت المال،** التي يصنفها القلقشندي في كتابه **صبح الأعشى،** على أنهــا مــن الوظائف الإدارية طبيعة القدر و العظيمة الشأن، تلي مباشرة من حيث أهميتهــا وظيفــة قاضي القضاة، و قضاء العسكر و إفتاء دار العــــدل، و موضوعها التحدث فيما يتعلــق بمبيعات بيت المال و مشترياته من أراض و نحو ذلــك، و لا يتســلمها إلا أهــل العلــم والفضل و الاستقامة[2] هذا المغربي هو:

جمال الدين أحمد بن الشريشي الشافعي نزيل دمشق، الذي ولد سنة (653هــــ/1256م) وفي سنة (719هــ/1319م). و يبدو أنه كان من الشخصيات المغربية المعروفة، حتـــى وصل إلى هذا المنصب، بدليل أن الصقاعي وصفه أنه من الرؤساء الأكابر[3]. وقد عمــل البعض منهم كإداريين عاديين في الدواوين وغير ذلك من هذا القبيل، بما يشبه إلـــى حـــد كبير الموظفين العاديين في أيامنا هذه، بالرغم من أهليتهم و قدرتهم للعمل فـــي مناصـــب أهم و أكبر مثال هؤلاء بمدينة دمشق، مثل **شمس الدين محمد بن عفيف الدين ســليمان التلمساني** المعروف بالشاب الظريف. الذي اشتغل بعدة أماكن شامية، لا يعــرف عنهــا شيء، إلى أن استقر بدمشق في الفترة الأخيرة من حياته، يعمل كاتبا صغيرا في خزانـــة بيت المال، حتى وفاه الأجل سنة (688هــ/1289م)[4]. و لم تكن مدينة دمشق وحدها هي التي احتوت مثل هؤلاء الإداريين، بل وجد منهم و بمراتب كبيرة و صغيرة في العدد من المدن الحواضر الشامية، حتى إن البعض منهم عمل في أكثر من مدينة كما هو الحال في **عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني** (ت690هــ/1291م) الذي اقتصر عمله علـــى الكتابة العادية كموظف في الدواوين. و لا تذكر المصادر أسماء المدن التي عمل بها كلها بل تذكر فقط بلدة بصرى الشام، التي كانت آخر محطاته في مجال عمله الوظيفي[5] و قــد كان لهؤلاء وجود في مدينة الكرك الأردنية، حيث توصل واحد منهم لتسلم وكالـــة بيـــت

---

[1] نفس المصدر، ج5، ص383.

[2] القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص36-37.

[3] ابن خلكان، الذيل على كتاب وفيات الأعيان، ص184.

[4] الذهبي، العبر، ج5، ص359. ابن خلكان، الذيل، ص82.

[5] نفس المصدر و في نفس المكان، ص82.

المال فيها بجدارة و استحقاق، لأنه كما مر قبل قليل، أن مثل هذه الوظيفة تحتاج إلى شخص كفء من الناحية العلمية و السلوكية الأخلاقية، اللتين توفرتا بالمغربي الأندلسي **علي بن محمد الباجي** الملقب **بعلاء الدين الشافعي،** الذي ولد بباجة بالأندلس سنة(631هـ/1234م) و رحل إلى المشرق في سن الشباب، فاستقر بدمشق، حيث درس و تلقى علومه و اشتهر ذكره، فعمل مرة في التدريس و الإفتاء، فحمدت سيرته فيهما، الأمر الذي ساعده لأن يرشح لتسلم وكالة بيت المال بالكرك المذكورة بصورة مستمرة حتى وافته المنية سنة (741هـ/1317م)[1]. و قد اشتهر من الإداريين الأندلسيين اثنان فيما بعد بمدينة صفد الفلسطينية، لكن ليس بصورة متميزة أو بالأحرى في وظائف عالية المرتبة، كما هو الحال بالنسبة للباجي الآنف الذكر. إنما اشتهروا ككتاب عاديين في ديوان الإنشاء و هما **حسن بن محمد القرطبي** الملقب **بنجم الدين.** كان والده خطيبا لقلعة صفد، وخلفه في هذا المهمة، لكنه تعرض لمضايقات أجبرته على الإنتقال إلى دمشق، حيث عمل بخدمة نائبها كزاي المملوكي، فقدمه على جميع ما عنده، بعد أن لمس عن قرب خيره و فضله. و بعد فترة قصيرة أعاده إلى صفد ككاتب معتمد في ديوان الإنشاء وخطيب للمسجد فيها. و مع ذلك فإن الأمر لم يستقر على هذا المنوال، بل اضطر مجبرا لترك ديوان الإنشاء و الاشتغال بأمور الخطابة بالمسجد، حتى وافاه الأجل سنة (723هـ/1323م)[2]. و قد حدث نفس الشيء بالنسبة لابنه **محمد الملقب بكمال الدين،** الذي ولد بدمشق، و نشأ بصفد مستقر والده. و عندما توفي الوالد، وجد نفسه بدون عمل، فانكب على المطالعة و الإشتغال و صقل ثقافته. و في سنة (742هـ/1342م) حضر إلى دمشق و استطاع أن يحصل على موافقة حاكمها باعتماده كاتبا في ديوان الإنشاء بصفد. و يذكر الصفدي صاحب كتاب **الوافي بالوفيات** أنه هو الذي قام بنسخ كتاب التكليف بنفسه[3]. أما عن الفترة التي أمضاها الأندلسي المذكور بهذا العمل، فهي غير معروفة على وجه التحديد. و فيما بعد هذه الفترة الزمنية، فإنه لم يظهر من الأندلسيين أحد اشتغل في ميدان الإدارة، و ذلك بالاعتماد على ما تعطيه المصادر، و إن كان الأمر لا يخلو من حالات كثيرة لم يقدر لأصحابها أن يذكروا، و خاصة في كتب التراجم، التي لم يول

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص101 وما بعدها.

[2] نفس المصدر، ج2، ص44-45.

[3] الصفدي، الوافي، ج2، ص366-367.

أصحابها إهتماما لأحد ما لم تكن له معرفة بأحد العلوم الشرعية أو غير ذلك، الأمر الذي يمكن معه القول، أن وجود الأندلسيين في مضمار الوظائف الإدارية، ظل مستمرا خـــلال الفترة التي تلت منتصف القرن (8هــ/14م)، و بالمراتب نفسها التي تسلمها هؤلاء سالفي الذكر.

و كانت أفضل المراكز التي شغلوها في هذا الميدان، لم تتعد كتابا بسطاء في ديوان الإنشاء أو في أي مركز مماثل، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة، مثال ذلك أن أربعة منهم، توصلوا إلى مناصب رفيعة إلى حد ما، تلي منصب القضاء مـــباشـــرة، وتسلم وأحد من هؤلاء الأربعة ناظر الدواوين بدمشق، و تسلم الثاني وكالة بيت المـــال بمدينـــة الكرك، و تسلم الثالث مدير أمن السجن المركزي بدمشق[1] أما الرابع فلم يتسلم أي منصب معين، و هو **رجب الدين الرجيحي التونسي**، و مع ذلك فإنه كان من المقربين جدا إلـــى الحكام بدمشق، بحيث يعتمدون عليه في كثير من الأمور، كما يبدو من حديث الصـــقاعي صاحب كتاب **تالي وفيات الأعيان** عنه، و لا أدل على قيمته الكبيرة و مكانته المرموقـــة عند الحكام، من أنه أقطع إحدى قرى الغوطة الدمشقية، الأمر الذي كـــان لا يحصـــل إلا للمتنفذين من الحكام و الأمراء في الفترة المملوكية. و مما يدل على ذلك أيضا، أنه عذب في بعض الأحيان و حجز عليه[2] و ربما تعود هذه الظاهرة، التي تتجلى بغياب الأندلسيين عن المراكز الإدارية العالية في غالب الأحيان إلى أن هذه المناصب كانت على ما يبـــدو حكرا على الذين يمتون بصلة القرابة و الدم إلى الحكام، كما كان يحدث خلال فترة حكـــم المماليك، الذين استأثروا بكل المناصب الإدارية القيادية. و يمكن ذكر سبب آخر ربما لا يبتعد كثيرا عن الواقع، هو أن الأندلسيين الذين كانت لديهم رغبة في الحصول على مثل هذه المناصب، عزفوا عن هذه الرغبة عندما وجدوا في بلاد الشام شخصيات إداريـــة لا تجارى في مجال عملها. مثال ذلك ما حدث لبعضهم أيام حكم صـــلاح الـــدين الأيـــوبي بمصر، و هو **أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني** الملقب **بركن الـــدين**، أو **جمال الدين**. فقد قدم إلى مصر، و كله أمل بالتوصل إلى منصب إداري في ميدان الكتابة و الإنشاء، على اعتبار أنها كانت محور اختصاصه الرئيسي، لكنه عدل عن ذلك، عندما وجد نفسه لا شـــيء بالمقارنة مع القاضي الفاضل، و**عماد الـــدين الأصـــفهاني**، كاتـــب

[1] أنظر عن هؤلاء ص241 وما بعدها من هذا البحث.

[2] ابن خلكان، الذيل، ص135. ابن حجر، الدرر، ج2، ص108.

صلاح الدين[1]. لكن هذه القناعات، لم تكن ثابتة، بحيث يمكن اعتمادها، أو القياس عليهـــا، بشكل لا يقبل الجدل فقد انتهز الأندلسيون و تحينوا الفرص في كثير من الأحيـــان، لكـــن محاولاتهم باءت بالفشل لسبب أو آخر، بالرغم مما عرف عنهم مـــن أمانـــة و إخـــلاص وإقدام، و خير مثال على ذلك ما حدث سنة (688هـ/1270م). عندما قدم **الشجاعي**[2] من طرابلس إلى دمشق، و تعرض لأهلها بالمصادرة و الظلم، مدحه **شمس الدين محمد بـــن سليمان بن علي** المعروف **بالتلمساني** (ت688هـ/1270م) بدمشق، بقصيدة نالت منـــه كل تقدير و إعجاب، لكن المذكور توفي بعد فترة وجيزة، فقال الشجاعي بما معناه، أنه لو كان حيا، لكان نقله إلى وظيفة عالية[3].

4. رجال الخدمة

و هؤلاء مجموعة من الأندلسيين المغاربة الذين يختلفون عن المجموعات الأخرى، من حيث طبيعة الأعمال التي مارسوها و اشتغلوا فيها و التي اعتبرت من أدنى الأعمال، بالقياس إلى مردودها و قيمتها بالنسبة للعاملين فيها فقط. و قد تمثلت هذه الأعمـــال فـــي ميادين و مجالات متنوعة، مثال ذلك العمل في حراسة طاحونة ما، أو بستان أو حمام أو مطبخ إلى آخر ما هنالك من هذا القبيل. و ربما الذي دفع هؤلاء للعمل في هذه المجالات، أن ظروفهم العامة، لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع و أفضل مردودا كالعمل في حقل التدريس أو بالتجارة، أو في أي مجال آخر غير مجال الخدمـــة. وخير من أشار إلى هؤلاء، و إنتقد الأعمال التي امتهنوها الرحالة الأندلسي ابـــن جبيـــر، عندما تحدث عن الجالية الأندلسية بالشام. يقول بعد أن انتهى من الحديث عن المهتمـــين بشؤون العلم و ما يلقونه من حفاوة و تكريم: "فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، و صون محفوظ غير مريق ماء الوجه. و سائر الغرباء ممن لـــيس علـــى هـــذه الحالة، ممن عهد الخدمة أو المهنة، في مجالات متنوعة، إما بستان يكون ناطورا فيه، أو حمام يكون عينا على خدمته، و حافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليهـــا، أو

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص385.

[2] هو علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري، نشأ بدمشق و اتصل بالأمير سيف الدين قلاوون الألفي و جعلـــه وزيـــرا عندما حكم مصر حتى (690هـ/1291م)، ولاه الملك الأشرف ابـــن الملـــك المنصـــور النيابـــة بالشـــام، و عزلـــه (691هـ/1292م)، و جعله نائبا بمصر (692هـ/1293م).

[3] ابن خلكان، الذيل على كتاب وفيات الأعيان، ص82.

كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم، و يصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجـــوه الواسعة. و ليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم في البلد صيت في الأمانة و طار لهم فيها ذكر"[1] و يظهر أن مهنة حراسة البساتين، كانت تقليديـــة لـــدى فقراء المغاربة الوافدين على المشرق، بدليل قول الطرطوشي الذي أقام بمصر في فترتنا هذه بقول في كتابه **سراج الملــوك:** "أما أنا فلما هممت بالرحيل من بلدي إلى المشرق في طلب العلم، كنت لا أعرف التجارة، و لا لي حرفة أرجع إليها، فجزعت مـــن الخـــروج وكنت أقول: إذا ذهبت نفقتي فماذا أفعـــــل ؟ و كانت أقوى الآمال في نفســـي أن أحفـــظ البساتين بالأجر أدرس العلم بالليل ثم استخرت الله فرحلت..." [2]، و في هذا الميدان ينقـــل الوهراني الذي رحل إلى المشرق، قول أحد المشارقة، و هو المسمى ابن العميـــد فيـــه: "ضيعتم الوقت في حديث الوهراني. والله أن ملك المغرب نحس، ما جاءنا قط مـــنهم إلا حارس كرم، أو ناطور بستان"[3] و مع أن هذا القول من جانب واحد، حيث لا يصح، بـــأن أهل الأندلس و المغرب، الذين وفدوا الشام، كانوا كلهم حراسا و نواطير بســـاتين، فإنـــه يدلل على إقبالهم و اشتهارهم بالعمل في هذا المجال. و بالرغم من وجود فـــرص شـــتى للعمل في هذه المجالات للفقراء من عرب الأندلس، و بالرغم أيضا من كثرة عددهم، فإنه من المؤسف حقا، أن المصادر و المراجع، التي بحث أصحابها في تـــاريخ هـــذه الفتـــرة الزمنية، لم يعيروا أفراد هذه الطبقة أدنى عناية أو اهتمام. و إذا كان ابن جبير و غيـــره: أشاروا إلى المهن التي مارسها هؤلاء في معظم الأحيان، فإنه يستفاد من روايات أخرى، أن عدد أفراد هذه الطبقة، كان كبيرا جدا إلى حد فاق و بعدة أضعاف أفراد جميع الطبقات الأخرى مجتمعة. و لعل أهم و أغنى إشارة على الإطلاق، تدلل على عدد هـــؤلاء الـــذي وصل إلى عدة آلاف، جاءت على لسان المقريزي في كتابه **السلوك لمعرفة دول الملوك،** فقد تحدث عن وجود **أكثر من ألف حمام** برفقة صلاح الـــدين الأيـــوبي، خـــلال الفتـــرة الطويلة، التي أمضاها من أجل تحرير مدينة بيت المقدس و المدن العربيـــة الفلســـطينية الساحلية و غيرها من المدن، التي كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الصليبي. و كان أكثر

[1] ابن جبير، المصدر السابق، ص250–251.

[2] الطرطوشي (محمد بن الوليد)، سراج الملوك، المطبعة الوطنية، الإسكندرية (1289هـ/1872م)، ص293.

[3] الوهراني (محمد بن محمد)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، و محمد نفش، دار الكتـــاب العربي، القاهرة 1968م، ص168.

الذين قاموا بمهمة تجهيز و تحضير الحمامات، إنما كانوا من الأندلسيين والمغاربة الفقراء يقول: "... و كان في المعسكر أكثر من **ألف حمام** و كان أكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم **اثنان أو ثلاثة**، و يحفرون ذراعين، فيطلع الماء و يأخذون الطين، فيعملون منه حوضا و حائطا، يسترونه بحطب و حصير، و يقطعون حطبا من البساتين التي حولهم، و يحمون الماء في قدر، و صار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم أو أكثر". ولا يستبعد أن تكون أعدادا كبيرة منهم، قد شاركت إلى جانب هذا العمل في أعمال أخرى كالطبخ و تجهيز الطعام للجيش[1] و لم تكن هذه الأعمال لفترة محددة فحسب، إنما ظلت معروفة، و يمارسها الأندلسيون طيلة فترة هذا البحث في بلاد الشام. و يوجد دليل يصلح لأن يكون شاهدا حيا على استمرار فقراء المغاربة و الأندلسيين بالعمل في هذه المجالات من وجوه الخدمة و يتمثل هذا الدليل في شخص **عمر بن سعيد التلمساني أبو حفص** من أهل القرن (8هـ/14م) و الذي تسلم أمينا لطاحونة أشنان بدمشق و لفترة طويلة من الزمن، كان آخرها سنة (752هـ/1352م) تقلد بعدها منصب قاضي قضاة المالكية بحلب، حيث بقي فيه حتى وافاه الأجل سنة (756هـ/1356م)[2]. و هذا يعني أن بعض هؤلاء، كان ينتهز الفرصة للتخلص من هذه الأعمال، في سبيل تحسين أحوالهم المادية والمعنوية، كما يعني من ناحية أخرى، أن الذي أجبرهم على العمل في مجال الخدمة، لم يكن لأنهم جاهلون فحسب، إنما لعدم مساعدة الظروف للكثيرين منهم في غالب الأحيان ويفهم هذا الأمر بوضوح من قول واحد منهم هو الشاعر الأندلسي نزيل دمشق **الشاب الظريف** الذي قال في أحد الأندلسيين الذين امتهنوا حرفة الطبخ على الرغم منه بفعل الحاجة المادية :

رب طباخ مليح فاتر الطرف غرير
مالكي أصبح لكن شغلوه بالقدور[3]

و من كل ما تقدم، فإنه من الممكن القول، أن العاملين في المجالات الاقتصادية من الوافدين الأندلسيين المغاربة، شكلوا جالية كبيرة العدد، و خاصة في الفترة، التي تلت منتصف القرن (7هـ/13م)، و أواخر القرن (9هـ/15م)، تاريخ سقوط غرناطة آخر المعاقل العربية في الأندلس.

[1] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق1، ص94.
[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص167.
[3] ابن خلكان، الذيل على كتاب وفيات الأعيان، ص83.

و تنوعت خدماتهم في كل المناطق الشامية و المصرية، و انعكست بشكل إيجـابي على الحياة العامة في بلاد الشام و مصر، بحيث لم تقتصر أعمالهم على الحرف السـابقة فحسب، إنما وجد منهم من عمل في حرف أخرى غير مشهورة على الصعيد العام. لكنها على ما يبدو شكلت مصدر دخل كبير لأصحابها، بشكل يمكن وضعهم أحيانا في مصاف من امتهن التجارة و الصناعة، مثال هؤلاء **الشرف يحيى بن المغربـي** نزيل مدينة دمشق (ت661هـ/1264م) الذي عمل طيلة حياته في مجال قشر القمح و دقه و تجهيزه بالشكل الذي يكون فيه صالحا للاستخدام في أنواع مختلفة من أعمال الطبخ و الطعام. و يظهر أن هذه الحرفة، كانت من الحرف الهامة، التي تدر على صاحبها دخلا وفيـرا، ممـا جعـل صاحب الترجمة المذكور، يعرض على أبي شامه المقدسي، أنه يريد وقف أملاكه علـى **زاوية المغاربة** بدمشق، الأمر الذي يستنتج منه أن هذه الأملاك، كانت كبيرة إلى حد ما. لكنه توفي قبل أن يتم عملية الوقف هذه[1] و الذي يدلل على أن هذه الحرفة كانت مصـدر دخل كبير، يمكن أن يظهر بوضوح من خلال تتبع الوسائل المستخدمة في تلك الفترة من الزمن. حيث أن معظم تلك الوسائل كانت يدوية تحتاج إلى جهد كبير، و خاصة في ميدان هذه الحرفة، التي ظلت معروفة و مستخدمة إلى فترة قصيرة من عصرنا، في كل أنحـاء بلاد الشام، حيث اختفت الآن بعد أن ظهرت المطاحن الآلية، التي تمتاز بالسرعة والإتقان و توفير الجهد. و مثله و في ميدان آخر عمل المغربي المدعو **علي بن عثمان ابن يحيى الصنهاجي**، عمل شواء للحمة في مدينة دمشق في القرن (7هـ/13م) و ذلـك قبـل أن يتوصل إلى تسلم أمانة السجن فيها. لذلك ومن كل ما تقدم من أمثلـة، يمكـن الاسـتنتاج بسهولة أن الأندلسيين المغاربة نزلاء الشام و مصر، لم يغيبوا عن مجال من المجـالات الاقتصادية العامة و الخاصة، مثلهم في ذلك مثل بقية الطبقات التي تشكل قوام سكان الشام و مصر، الأمر الذي يدل على أن أعدادهم كانت كبيرة جدا.

5. إسهامات المغاربة و الأندلسيين في ميدان القضاء

كان منصب القضاء من أهم المناصب الإدارية التي شغلها المغاربة و الأندلسيون في مصر وبلاد الشام خلال الفترة المعنية بهذا البحث، خاصة مهنة القضاء على المذهب المالكي مع وجود بعض القضاة على المذاهب الأخرى، و يمكن القول أن استحداثه في

---

[1] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص227.

كثير من المدن المصرية مثل الإسكندرية و القاهرة و الشامية مثل: دمشق و حلب و بيت المقدس و غيرهما كان منوطا بوجود جالية مغربية وأندلسية كبيرة تستحق استحداث منصب كهذا و قد بدأ دورهم جليا واضحا منذ أن أحدث منصب القاضي المالكي الذي لم يعرف في وقت مبكر، كما كان الحال بالنسبة لبعض المذاهب الأخرى[1].

أ) القضاة على المذهب المالكي

قبل البدء في ترجمة المغاربة والأندلسيين، الذين شغلوا منصب قاضي القضاة في مصر وبلاد الشام، فإنه من الجدير التنويه ببعض الملاحظات الهامة في هذا المجال. تتجلى إحداها بأنه خلال فترة حكم الزنكيين والأيوبيين، لم يكن هناك ما يسمى بالقاضي المالكي و لا يستبعد أن يكون سبب ذلك يعود إلى الجالية الأندلسية والمغربية، كانت ما تزال قليلة العدد و بالتالي لم يشتهر أمرهم و ذلك إذا ما قورنوا بالفترة التي تلت وهي فترة حكم المماليك، التي شهدت هجرة أندلسية مغربية كثيفة إلى مصر وبلاد الشام، بفعل الأحداث التي وقعت في الأندلس وعلى سواحل المغرب الإسلامي. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن كيف كان الأندلسيون والمغاربة يحلون مشاكلهم الخاصة والعامة ؟ فكانوا يلجؤون إلى قضاة المذاهب الأخرى خاصة في الأمور التي لا يمكن لأحد الفصل فيها إلا القاضي.

أما المسائل العادية فكانوا يلجؤون إلى الأكابر منهم والمعهود لهم بالعلم والمعرفة خاصة الذين تسموا بشيخ المالكية.

و يمكن الإشارة إلى أن الذين تولوا منصب القضاء لم يكونوا متساوين في الكفاءة والأهلية العلمية و السلوكية والأخلاقية.

فكان أول قاضي مالكي في بلاد الشام هو **محمد بن عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي** المالكي الملقب **زين الدين** المولود بمدينة بجاية سنة (589هـ/1193م)، قدم مصر سنة (615هـ/1219م) و كان نزوله بمدينة الإسكندرية حيث درس علم القراءات

[1] إبراهيم زعرور، (القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك)، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 53-54، السنة 16، سنة 1995م، ص61-65.

وغيرها ومن مدينة الإسكندرية انتقل إلى الشام فاستقر بمدينة دمشق سنة (616هـ/1220م) وتصدر مشيخة التدريس بتربة أم صالح[1] و بالجامع الأموي الكبير.

و عندما استحدثت مناصب القضاة الأربعة بدمشق، أجبر على تسلم قاضي قضاة المالكية، و ظل يمارس هذه الوظيفة على كره منه فترة تسع سنوات متتالية، بدءا من سنة (644هـ/1266م).

عاد بعدها إلى مهنة التدريس، حتى وافته المنية سنة (681هـ/1283م)[2]، ودفن في مقابر الباب الصغير وكانت جنازته حافلة، شارك في تشييعه نائب الشام بنفسه، ويقول ابن قاضي شهبة أن قبره مقصود بالزيارة، و هذا دليل على ثقة الناس به لمكانته الكبيرة[3]. و يعتبر الزواوي هذا من الشخصيات النادرة والفريدة تقريبا بين من تسلم قضاء الشام من المالكية، لرفضه تناول أي راتب لقاء عمله كقاضي المالكية[4].

هذا هو موقف عبد السلام من منصب القضاء بينما نجد ابن عمه **يوسف بن عبد الله ابن عمر أبو يعقوب جمال الدين الزواوي** كان العكس تماما فقد بذل جهدا كبيرا على إثر ترك عبد السلام لمنصبه كي يحل محله و هو الذي كان يعمل نائبا له في القضاء، وتحققت إرادة جمال الدين هذا بان أسفرت جهوده عن الفوز بقاضي قضاة مدينة دمشق على المذهب المالكي، حتى وافته المنية و هو بطريق الحج سنة (684هـ/1286م)[5]، وتتالت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بمدينة دمشق، حيث خلف القاضي المذكور، قاض آخر هو محمد بن سليمان الملقب بجمال الدين أيضا، ولد سنة (630هـ/1233م)، قدم الإسكندرية ودرس على بعض علمائها، لينتقل بعد ذلك ما بين القاهرة ومدينتي الشرقية والغربية، يعمل نائبا لقاضي المالكية حتى عين قاضي قضاة القاهرة فترة لا بأس بها، و في ظروف غير معروفة على وجه التحديد، غادر مصر قاصدا مدينة دمشق، وفيها تسلم منصب قاضي قضاتها منذ سنة (687هـ/1288م)، و قد ضرب رقما قياسيا

---

[1] شرح مصطلح (أم صالح)، ص197 من هذا البحث على الهامش.

[2] اليونيني، المصدر السابق، ج4، ص173-174. ابن خلكان، المصدر السابق، ص105-106. الذهبي، العبر، ج5، ص366. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص235-236.

[3] ابن قاضي شهبة، طبقات النحاة و اللغويين الظاهرية، نسخة مصورة مخطوطة بمكتبة الأسد بدمشق رقمها 3468، ص370.

[4] ابن خلكان، المصدر السابق، ص106.

[5] اليونيني، المصدر السابق، ج4، ص239.

في الفترة الزمنية التي أمضاها في القضاء فوصلت إلى حوالي ثلاثين سنة قضاها دون كلل أو ملل، و قد عرف بصراحته و صلابته لا يتراجع عن قراراته و أحكامه.

و في أواخر أيامه اعتراه مرض أقعده الفراش، و منعه عن الكلام فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة (717هـ/1318م) بدمشق، و دفن بمقابر الباب الصغير، و كانت جنازته حافلة شارك فيها العامة و الخاصة[1] و هذا دليل على مكانته المرموقة وجميع الذين ترجموا له تقريبا، وصفوه بالاستقامة والعدل أقدم على تجديد عمارة مدرستين في مدينة دمشق هما المدرسة الصمصامية[2] و المدرسة النورية[3].

أما أول مشاركة للمغاربة والأندلسيين في منصب قاضي المالكية بمصر حسب معطيات المصادر المعاصرة تمثلت بوجود **محمد بن الحسين بن عبد السلام** المعروف **بابن المقدسية أبو بكر السفاقسي**، و هو ابن أخت **الحافظ أبي الحسن المقدسي** الذي لا يستبعد أن تكون ولادته و نشأته بمصر، بحيث درس بالإسكندرية و تولى نيابة القاضي المالكي فيها حتى وافته المنية سنة (654هـ/1257م)[4].

كما افتتحت قائمة القضاة المالكيين بالإسكندرية فكان قاضي القضاة **محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام الربيعي التونسي شمس الدين** (ت715هـ/1316م)، الذي أهلته ثقافته لهذا المنصب، فقد درس على عدد من كبار علماء القاهرة الأمر الذي ساعده لأن يفتي و يدرس في عدة مدارس بالقاهرة قبل توليه منصب القضاء بصورة مستقلة[5].

لم يكن وجود العاملين في ميدان القضاء من المغاربة والأندلسيين مقتصرا على المدن الكبرى التي كانت محط أنظار الغرباء بشكل خاص، مثل القاهرة والإسكندرية ودمشق و بيت المقدس بل انتشروا في مناطق كانت أقل سكانا و أدنى مستوى، ففي مدينة المحلة الكبرى توصل إلى نيابة القضاء على المذهب المالكي **أبو القاسم بن بنون**

---

[1] ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص84-85. النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص12-13.

[2] الصمصامية: هي من مدارس المالكية بدمشق، محلة حجر الذهب، عمرها القاضي المالكي محمد بن سليمان الملقب بجمال الدين الزواوي في الربع الأخير من القرن (7هـ/13م). النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص8. ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص84. و كان قد وقف عليها من قبل الزواوي، خطط الشام، ج6، ص98.

[3] ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص84. النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص84.

[4] الصفدي، المصدر السابق، ج3، ص18.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص266.

التونسي و الذي زاره **ابن بطوطة** سنة (726هـ/1326م) خلال مروره بالمحلة الكبرى ضمن رحلته المعروفة، و كان ما يزال على رأس عمله الذي يمارسه بعفة و إخلاص[1].

و على الرغم من كثافة الوجود المغربي والأندلسي في مدينة القاهرة خلال هذه الفترة فإن وصول المغاربة إلى منصب القضاء في هذه المدينة جاء متأخرا بعض الشيء، إذ ولي منصب قاضي قضاة المالكية **عيسى بن مسعود الزواوي** خلال النصف الأول من القرن (8هـ/14م) و توفي سنة (743هـ/1343م)، و قد تلقى معظم ثقافته التي كانت في غالبها شرعية مثل: الفقه، الحديث والعربية من المغرب في بجاية و تونس، وبدأ عمله القضائي بمدينة دمشق نائبا لقاضيها حتى استقل بهذا المنصب في القاهرة، ولم يؤخذ عليه شيء فيما يتعلق بمجال عمله هذا[2].

و تأتي مدينة حلب من المدن الشامية بعد مدينة دمشق التي استحدثت فيها هذا المنصب سنة (747هـ/1347م)[3]، فكان أول قاضي مالكي بهذه المدينة هو **أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري المالكي** الملقب **بصدر الإسلام**، ولي القضاء بحلب بعد عزل شهاب الدين الرياحي فترة من الزمن سنة (663هـ/1265م) و قبل وصوله إلى حلب كان يعمل نائبا للقاضي المالكي بمصر، و ظل في القضاء المالكية بحلب سبع سنوات متتالية من سنة (769هـ/1368م)[4].

أما **أحمد بن محمد** المعروف **بابن الخلطة الصنهاجي** (ت756هـ/1358م) فقد ولي قضاء الإسكندرية بعد إقامة وجيزة بدمشق عشية وصوله من المغرب و كان من القضاة الذين حمدت سيرتهم و أثنى عليهم[5]، و لم تكن أهلية القضاة الذين تسلموا القضاء هي التي التي أوصلتهم إلى حيث وصلوا في كثير من الأحيان، إنما وجدت عوامل على أرض الواقع المصري كان لها تأثيرها، الأمر الذي لا يمكن تجاهله أو غض الطرف عنه عند بحث مسألة من هذا القبيل مثال ذلك أن السلطان في كثير من الأحيان كان يقدم بعض من وقف إلى جانبه في أمر من الأمور أو في مناسبة ما، و يوليه القضاء بغض النظر عن

---

[1] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص31.

[2] ابن القاضي (أحمد بن محمد)، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، طبعة القاهرة و تونس، 1971م، ج3، ص187.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص190.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص172-173.

[5] ابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان، ج1، ص47.

المؤهلات الثقافية التي لا بد من توافرها فيمن يتولى هذه المهمة الصعبة، و هذا ما حدث بالفعل في زمن السلطان برقوق و تحديدا خلال فترة سلطنته الثانية سنة (792هـ/1390م) و عندما قدم **محمد الركراكي** المغربي على جميع من في حاضرة حكمه و عينه قاضي قضاة المالكية بالقاهرة، و هو الذي امتنع عن فتيا السلطان الظاهر برقوق خلال فتنة حدثت قبل تسلمه هذا المنصب بزمن قليل، مع العلم أن ماضيه الأخلاقي لم يكن يؤهله للتربع على عرش منصب القاضي المالكي[1]، فأصبح أداة طيعة في أيدي السلطان وحاشيته فحاباهم و نفذ كل ما طلبوه منه في ميدان عمله، الأمر الذي جعل بعض من رثاه يفصح عن ذلك بوضوح تام، و منهم عيسى بن حجاج الذي قال فيه:

لهفي على قاضي القضـــــــاة ألف العلوم الفارس الركراكي

قد كان رأسا في القضاء فلا جل ذا حزنت عليه عصابة الأتـــراك[2]

و ممن إشتهروا بالإستقامة والإعتدال ورفض ثقل مسؤولية القضاء **إبراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجي المالكي**، و هو يختلف عن الذي مر ذكـــره (717هـــ/1318م) وفيها نشأ و تلقى علومه على علماء معظمهم من المغاربة و الأندلسيين، و كان من حفاظ موطأ مالك، و يبدو أنه كان من الشخصيات المالكية المعروفة بدمشق، و دليل ذلـــك أنـــه كلف بتوقيع رسمي سنة (783هـ/1382م) لأن يتسلم منصب قاضي قضاة دمشق علـــى المذهب المالكي فلم يقبل و حدث أن تكرر تكليفه في سنة (788هـ/1386م) فامتنع أيضا و بالرغم من حالة الرفض هذه فقد بقي الحكام يلحون عليه حتى وافق بتسلم قاضي قضاة المالكية بدمشق لمدة ثلاث سنوات، تـــوفي بمدينـــة دمشـــق علـــى حـــين غـــرة ســـنة (796هـ/1394م) حيث دفن **بالمزة**[3] و من هؤلاء القضاة من إنتقل في أكثر من مدينـــة شامية كقاض لقضاة المالكية و كنائب له، كان منهم القاضي **إبراهيم بن محمد بن علـــي التادلي** المدعو **أبو سالم**، الذي تنقل بين دمشق و حلب و يختلف عن القضـــاة الســـابقي الذكر أنه تكرر عزله و إعادته بشكل ملفت للنظر، فقد ولي قضاء حلب أول مـــرة ســـنة (772هـ/1370م) كقاضي قضاة، علما بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبل هذه الـــسنة

---

[1] ابن القاضي شهبة، التاريخ، ج3، ص413. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص8.

[2] ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص430.

[3] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص345. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص30. ابـــن القاضـــي شـــهبة، التاريخ، ص524-525. ابن حجر، أبناء الغمر، ج1، ص487. ابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان، ج1، ص189.

و تكرر عزله و إعادته خلال هــذه الفتــرة التــي تلــت هــذا التــاريخ، ففــي ســنة (777هــ/1379م) إستقر في قضاء حلب عوضا عن **ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن سري الدين** المعروف **بابن هانئ الأندلسي**[1]، إنتقل في السنة التي تلت إلى مدينة دمشــق وتسلم قضاءها عوضا عن **زين الدين أبي بكر المازوني**، لكنه لم يســتقر ســوى فتــرة قصيرة عزل بعدها عن القضاء و حل محله **علم الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين القفصي**، الذي بقي حتى سنة (780هــ/1379م)، ثم عزل و أعيد مرات عدة، وهكذا فإن الفترة التي أمضاها في القضاء في كل من حلب ودمشق بلغت بمجموعها حــوالي ثلاثــة عشرة عاما ونصف العام. وكان خلال هذه الفترة نموذجا للقاضي الذي توفرت فيه القــوة و التصميم والجد في العمل، إضافة إلى الشجاعة والجرأة في إصدار الأحكــام وامتثــال العدالة والمساواة بين الناس، ويظهر هذا بشكل مؤكد من خلال قصيدة أرسلها إلــى أحــد القضاة المعروف **بالبدر أبي محمد بن حبيب** عندما كان يستعد لمغادرة حلب إلى دمشــق يقول مخاطبا القاضي المذكور:

سر إلى جنة الشام دمشـــق   حاكما عادلا رفيع المقام

راقت القرب منك فادخل إليها   يا أبا سالم بأذكى ســـلام

توفي بدمشق سنة (803هــ/1401م) و هو قاض[2].

و من سجلماسة بالمغرب الأقصى، وصل إلى حلب عبد الرحمن بن محمد بن عبــد الرحمن المعروف بابن الحفيد المالكي. ولد سنة (712هــ/1313م) قدم من بلاده، فــأدى فريضة الحج، و تابع إلى مصر، فحل بالقاهرة مدة، تابع بعدها إلى بلاد الشــام، فــدخل مدينة حلب، حيث اشتغل بالتجارة، التي أجبرته على التنقل بين بغداد والقاهرة ومكث فترة من الزمن. ليعود مرة أخرى إلى حلب، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لا بأس بها، كان آخرها سنة (787هــ/1385م) حيث عزل و حل محلــه، القاضي جمال الدين الحريري. و هو نموذج للقاضي الجاهل غير العارف، وهذا ما حــدا البعض لأن يقول عنه: "أن كلامه أكثر من علمه" و قد امتزجت قلة العلم عنده وضــحالته بما هو أقسى من حدة الخلق وعدم اللين والروية واحتقاره للناس، حيث كان لا يقيم قــدرا

---

[1] المقريزي، كتاب السلوك، ج3، قسم1، ص157.

[2] السخاوي، المصدر السابق، ج1، ص155-156. المقريزي، كتاب السلوك، ج3، قسم1، ص294-325.

لأحد[1] بينما وصفه البعض الآخر، بأنه كان راوية للحديث، و له معرفة متضلعة بمـذهب مالك، أصوله و فروعه، إضافة إلى معرفة جيدة ببعض العلوم الأخـرى[2] و بعد عزلـه عن قضاء المالكية بحلب سنة (787 هـ/1385م توجه إلى دمشق، و منها إلى غزة، ثـم إلى بيت المقدس حيث توفي سنة (789هـ/1387م)[3]. أما القاضي المالكي محمـد بـن يحيى ابن سليمان المغربي، الملقب بجمال الدين، فإنه لم يعرف الاستقرار، فقد تنقل بـين كل من حماة و طرابلس و دمشق، و عرف بتضلعه ببعض العلوم العقلية، و عدم معرفته بالعلوم الشرعية، و خاصة على مذهب المالكية و بالرغم من ذلك، فإنه استطاع أن يتسلم قاضي القضاة المالكية، في مدينة حماة لفترة قصيرة عزل بعدها فتوجه إلى دمشق واتصل بحاكمها طالبا منه، أن يوليه قضاءها، فأجيب طلبه هذا، و تصدر لقضاء المالكيـة لكـن طريقته لم تكن مقبولة، حيث تصدى لإيذاء الناس و إطلاق لسانه في الأكابر و الأعيـان. يضاف إلى ذلك، أنه برهن في مناسبات عديدة على عدم اتزانه العقلـي، وفجـوره وفسقه و قلة دينه، الأمر الذي يتنافى بشدة مع مركز القضاء، فحكم عليـه بـالعزل مـن منصبه كقاض غير صالح، فذهب إلى مصر، و توسط لدى السلطان، لكنه لم ينجح، ونفاه إلى الشام سنة (794هـ/1392م) فتوفي بالرملة في السنة التالية[4]. وقد تمثلـت صـورة الجهل المطبق وعدم السلوكية الأخلاقية في قاض آخر هو محمد بـن محمـد الدمشـقي المالكي، الملقب بعلم الدين القفصي، وهكذا فإنه يعتبر من النماذج غير الصالحة لمنصـب القضاء. ويختلف عن رفاقه السابقين الذين هم من فئته، بأنه من مواليد مدينة دمشق، كان جده والد أبيه، يسكن بدمشق منذ سنة (719هـ/1319م). وخلال فترة وجوده فيها عمـل نائبا في القضاء. أما والد قاضينا علم الدين القفصي، فقد كان جنديا في الجيش المملوكي، و كذلك الأمر بالنسبة له، فإنه انخرط في صفوف الجيش لفترة غير قصيرة على ما يبدو، انطلاقا من كونه، لم يركز على الدراسة و التحصيل، إلا بعد أن أصبح في سـن عاليـة، بعكس معظم الذين سبقوه من القضاة. و بالرغم مما عرف عنه مـن الجهـل وعـدم الإتزان العقلي وسوء الأخلاق والسيرة، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص343.

[2] ابن القاضي شهبة، التاريخ، ص230. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص313.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص343. ابن قاضي شهبة، التاريخ، ص230.

[4] ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص264-265. ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص490-496.

في ثلاث مدن شامية، هي حلب وحماة ودمشق، وأمضى فترة خمس و عشرين سنة من عمره، يعمل في القضاء بالمدن المذكورة، بين معزول عن القضاء و شاغل له. مثال ذلك، أنه ولي قضاء دمشق إحدى عشرة مرة، و كذلك في حماة و حلب عدة مرات. توفي و هو قاض بدمشق سنة (805هـ/1403م)[1].

و لعل أعظم من ولي القضاء على المذهب المالكي من المغاربة في مصر كلها من حيث المؤهلات العلمية والقضائية والسيرة الحميدة والسلوك المستقيم القاضي **عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي** المعروف **بابن خلدون (ت808هـ/1406م)**.

إن الدور الأكبر الذي أعد لابن خلدون لم يكن في مجال التعليم، لكن في منصب قاضي القضاة، المنصب الذي شغله ما لا يقل عن ست مرات أثناء إقامته في القاهرة، فقد كان قاضي القضاة هم أصحاب الفصل في شؤون القضاء في مصر[2].

وقد كان هؤلاء أربعة، واحدا لكل مذهب منذ أن جعل السلطان بيبرس الأمر كذلك (776هـ/1260م)[3]، و قد كان لقاضي القضاة الشافعي وهو المذهب الرسمي في مصر، التقدم على الآخرين، فقد كان له سلطة تفوق سلطتهم وكان له الإشراف على الأيتام والوصايا والعهود وما إلى ذلك.

و قد كان تعيين قاضي القضاة، كما يراه الإسلام نظرا وعملا، أمرا ملكيا خاصا بولي الأمر.

و من ثم فقد كان من صلاحيات برقوق أن يعهد بهذا المنصب إلى ابن خلدون، و يتضح لنا عندما نتذكر الصداقة الوثيقة التي كانت بين الرجلين، لماذا كان برقوق يعين ابن خلدون في منصب القاضي المالكي كلما خلا المنصب من شاغله[4]. و قد حاول ابن خلدون رفض مثل هذا الشرف، لكنه حمل في آخر الأمر على النزول عند رغبة صديقه الغالي الشأن و إلحاحه، فتقبل خلعة من يد برقوق لمناسبة تنصيبه قاضيا للقضاة، و تولى العمل

---

[1] ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص53. ابن حجر، أنباء الغمر، ج2، ص252. ابن قاضي شهبة، التاريخ، صفحات59-182-268. السخاوي، المصدر السابق، ج10، ص13.

[2] محمد طه الحاجري، المرجع السابق، ص180-185.

[3] راجع بخصوص بيبرس المصادر و المراجع الوارد ذكرها في الهامش رقم16 أعلاه.

[4] كان ابن خلدون، بوصفه مغربيا، مالكي المذهب، و هو المذهب الرسمي.

في أوت 1384م الموافق لـــ 19 جمادى الآخرة 867هــ[1]. فوجد نفسه مــدفوعا للمــرة الثانية إلى الحياة العامة و هي الحياة التي كان يأمل في الإنصراف عنها و أخذ بتصريف شؤون القضاء في المدرسة الصلاحية في حي بين القصرين (قصـــري الفــاطميين) فـــي القاهرة.

أقبل ابن خلدون على عمله بخير ما عنده من النية الطيبة وبالكثير من المثالية، مدركا تمام الإدراك واجبه نحو الناس ونحو السلطان، و هو حاميه وجرب أن يحقق غاية ما يستطيع هذه الثقة التي وضعها السلطان فيه، فهو يقول "فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود، و وفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله لا تأخذني في الحق لومة لائم، ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة مسويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين... جانحا إلى التثبت من سماع البينات، وإجراء العدل مجراه"[2]. ويشرح لنا ابن خلدون الأسس التي استرشد بها في القضاء بين الناس و يبين الصعوبات التي لقيها فقد أشاح عن أمجاد كان يلقيها غيره من القضاة، و أصر على مقاومة أي ضغط كان يقوم به زملاؤه لحمله على المشاركة في أمور متعارف عليـــها، وقد كان الشهود العقبة الرئيسية في طريقه، إذ أن البعض منهم كان يخون الأمانة أو أنه كان واقعا تحت نفوذ رجال الدولة، و بذلك استعمل البعض منصبه لغايات نفعية شخصية أو تحزبية، وكان على ابن خلدون أن يعنى بالمفتين الذين كانوا يتخذون صفة القضاة ويصدرون أحكاما تخالف رأي المحكمة و وصفه للإصلاحات التي رأى من الضروري إدخالها-من مثل إلغاء ظلامات معينة وإصلاح بعض ما تواضع عليه الأعيان والأمراء من وسائل دنيئة- على غاية الخطورة لفهم النواحي القانونية لتلك الفترة من تاريخ المماليك[3].

---

[1] وردت أخبار توليته قضاء المالكية غير مرة في التعريف، ورقات، صــفحات98-108-111-115-121. تاويــت الطنجي، صفحات254-279-285-292-311. راجع أيضا كتابات معاصريه: النجوم، ج6، صــفحات2-16-122-270-276. المنهل الصـــافي، ص50-69. الخطــط لعلـــي مبـــارك باشـــا، ج2، ص76-190. ابـــن إيـــاس، ج1، صفحات262-305-315-337-342. الســيوطي، ج1، ص218، ج2، ص122-124. علـــى أن جـــداول القضـــاة المالكيين في ما رواه السيوطي ليست موضع ثقة و لذلك يجب ضبطها بمقابلتها بمصادر أخرى.

[2] ابن خلدون، التعريف، ص89-99. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص254-257. ابن خلدون، العبـــر، ج7، ص452.

[3] يخص ابن خلدون منصب القاضي و ما يمت إلى وظيفته بصلة بفصل في مقدمته، و لا شك في أنه أفاد مما ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية، و هو وصف كلاسيكي، بخصوص كل ما يتعلق بالقاضي في الإسلام من حيث أصل المنصب و الصفات المطلوبة في القاضي... إلخ ، راجع:=

و ما لبث ابن خلدون أن مر به اختبار مرير، فقد لقيت إصلاحاته مقاومة عنيفة، وأثارت البغضاء والاستياء في الدوائر القوية النفوذ، و لعل خصومه كانوا يحسدونه لما كان يتمتع به من طيب الأحدوثة عند السلطان، و لأنهم كانوا يخشون أن تنتزع من أيديهم صلاحيات منحهم إياها الزمن، و لو أنها غير مشروعة ويروي في التعريف "فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أصحاب الوظائف"[1].

يبدو أن تعيين ابن خلدون في منصب قضاء القضاة قد أثار من أول الأمر إزدراء الأعيان، فقد كانوا يرون في تعيينه للتدريس في الأزهر أو القمحية أو مدرسة صرغتمش أمرا حقا و مناسبا لرجل له صفات ابن خلدون[2].

أما أن يدعى غريب، وحديث عهد بالهبوط في أرض مصر ليشغل أحد المناصب القضائية الرئيسية ثم يجرؤ على إدخال إصلاح و إلغاء مصطلحات و رسوم ثابتة، فأمر لم يكن في مقدور الناس تقبله عن طيب خاطر وبدون اعتراض. وعلى كل فإن المعارضة التي لقيها أحدثت رجة في دوائر القاهرة الرسمية، ودعي القضاة والمفتون إلى اجتماع خاص لبحث قضيته[3].

و قد وصلت أنباء تعيينه قاضيا وأخبار الصعوبات التي لقيها المغرب أيضا، حيث قيل في التعبير عن الإشمئزاز "كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا ابن خلدون، عددناها لأضد من ذلك" و أضاف السخاوي ويقال أن أهل المغرب لما بلغهم ولايته (ابن خلدون) القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة[4]. و لكن هذا القول الذي نقله السخاوي في ترجمته لابن خلدون يفقد الكثير من قيمته متى عرف القارئ أن صاحبه هو محمد بن عرفة، مفتي تونس، وهو أكبر خصوم ابن خلدون وأشدهم عنفا،

Emile Tyan, Histoire de l'Organisation Judiciare en pays d'Islam(Lyon,Vol I 1938,Vol II 1943).Gaudefroy-Demombynes(in Revue des Etudes Islamiques,1937,pp 109-147)and J.Schacht (in Orientalia,Rome 1948, Vol XVII ,pp 515-519).Also Annemarie Schim mel, (Kalif under Kadi In Spaetmittelalterlichen Aegypten) .In Die Welt des islams(Berlin,1942) BD,24,pp1-128. راجع أيضا ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص255 و ما بعدها (المترجم).

[1] ابن خلدون، التعريف، ص100. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص259. و قد استعمل ابن خلدون التعبير نفسه من قبل في تونس لما شعر بعداوة معاصريه بسبب نعم سيقت إليه فيما يشبه هذا. راجع ابن خلدون، التعريف، ص29. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص91. ابن خلدون، العبر، ج7، ص432.

[2] محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص40-76.

[3] ابن خلدون، التعريف، ص98-99. تاويت، المرجع السابق، ص259.

[4] السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص136.

بحيث لا ينتظر منه إصدار حكم عادل في أية قضية تتعلق به، و لكن نفرا من معاصري ابن خلدون من المصريين أعربوا عن إستيائهم من الطريقة التي تصرف فيها ابن خلدون في شؤون القضاء. فالسخاوي يقول: "فتنكر للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع إعتذاره لمن عتبه عليه في الجملة، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود وصار يعزر بالصفع ويسميه الزج فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته"[1].

و مع ذلك فإن مؤرخا و مترجما موضوعيا مثل تغري بردي يؤكد من جهة أخرى إن ابن خلدون كان يقوم بواجبه في القضاء مع مراعاة الكمال، و يقرر أيضا أنه كان شديدا، عندما يقول "كان ابن خلدون مسرفا في دقته، فقد تجاهل شفاعة كبار القوم في البلاد وأبى أن يصغي إلى توسلات الأغنياء ولذلك فقد تكلموا عليه أمام السلطان حتى أعفاه من القضاء"[2]. أما بعض النقاد الآخرين، مثل الركراكي، فقد عارضوا ابن خلدون على أساس الجهل و الضعف في الأمور الشرعية و قلة إطلاعه على المصطلح و الرسوم المقبولة[3].

و يبدو أن ابن خلدون نفسه كان يرى أن مقاومة جماعة من كبار رجال الحكومة له إنما يرجع إلى رفضه قبول الرشوة (و قد كان قبول الرشوة أمرا متفقا عليه) وعلى تشدده في أن يكون قضاؤه في الأمر الذي بين يديه قائما على طبيعة القضية.

و بالرغم من المحاولات التي بذلت لحمل برقوق على عزل الرجل الذي وضعه تحت حمايته، فإن السلطان أيده طويلا و لا شك أن هذا التأييد الأدبي هو الذي حمل ابن خلدون على القول "فقمت في ذلك المقام المحمود، و وفيت عهد الله وعهده (السلطان) في إقامة رسوم الحق"[4].

و مع ذلك أبدى رغبة في إعتزال منصبه القضائي، و إزدادت رغبته في ذلك لما بلغه أن المركب الذي كان يحمل زوجته وإبنه قد غرق، ويقول ابن خلدون "عظم المصاب

---

[1] السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص146.

[2] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص49-50.

[3] السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص147.

[4] ابن خلدون، التعريف، ص111-121. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص375-310.

والجزع[1]، ورجح الزهد، وإعتزمت على الخروج من المنصب، فلم يوافقني عليه لكنني خشيت أن النصيح... خشية من نكير السلطان وسخطه"[2]. لكنه يقول "شملتني نعمة السلطان–أيده الله– في النظر بعين الرحمة و تخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها"[3].

و مما يجدر ملاحظته هو أن ابن خلدون رغم أنه نجي من القضاء فقد ظل السلطان يغدق عليه نعمه ويوليه تأييده، وقد عهد إليه بتدريس الفقه المالكي في المدرسة الظاهرية[4].

يقول ابن خلدون في التعريف أن أصدقاءه و مريديه أملوا أن يروه في منصب القاضي ثانية وقد تحقق هذا، و لكن بعد أربع عشرة سنة إذ لما فرغ المنصب بوفاة قاضي القضاة المالكي في عام (801هـ/1399م) أعاد برقوق ابن خلدون إلى هذا المنصب الهام.

و الظاهر أن ابن خلدون كان على أتم الإستعداد لقبول وظيفة القاضي، التي جهد في الحصول عليها منذ أن عزل لأول مرة، ففي ساعة من ساعات الثقة في النفس نراه يقول "و كان (السلطان برقوق) يراني الأولى بذلك، لولا وجود الذين شغبوا من قبل في شأني من أمراء دولته و كبار حاشيته حتى إنقرضوا و اتفقت وفاة قاضي المالكية... وكنت مقيما بالفيوم–لضم زرعي هنالك فبحث عني و قلدني وظيفة القضاء". ويقول عن تعيينه وعمله "فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعا وعادة وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك"[5].

و لم يكد يمر عام على تعيين ابن خلدون ثانية في القضاء حتى توفي صديقه وحاميه السلطان برقوق (801هـ/1399م). و بما أن قاضي القضاة يعينه السلطان شخصيا، فإنه

---

[1] مأساة أسرة ابن خلدون راجع بشأنها: التعريف، صفحات97–100–111–129. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، صفحات253–259–285. و كان ابن خلدون قد توفي (808هـ/1405م) أثناء الطاعون الأكبر في المغرب (1349)، ابن خلدون، التعريف، ص24، ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص55.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق، ص100. ابن تايت الطنجي، المرجع السابق، ص259–260.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص122.

[4] كان من المألوف أن يكون للقضاة مع مناصبهم القضائية، وظائف تدريسية في الحديث أو الفقه في المدارس الكبرى فلم يكن غريبا تجميع عدد من وظائف التدريس بيد القاضي، راجع: (Tyan,Vol II,pp 81-91).

[5] ابن خلدون، التعريف، ص133. تاويت، ص347. هذا التعيين الثاني كان في شهر (مايو) رمضان (801هـ/1399م). إبراهيم زعرور، المرجع السابق، ص70–79.

بحسب العادة الإسلامية يفقد وظيفته بحكم الطبيعة عند وفاة السلطان فرج بن السلطان برقوق، إذ ثبت ابن خلدون في وظيفته عملا بوصية أبيه[1] على أن ابن خلدون لم يلبث أن تعرض إلى حملة جديدة، أو على الأصح الحملة القديمة على شكل أشد، و كان مما أتهم به أنه زاد عدد نواب القاضي والشهود الأمر الذي لم يفعله في ولايته الأولى للقضاء[2].

و قد كان بمصر فقيه من المالكية "ينوب أكثر أوقاته عن قضاة المالكية فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب"[3]. و يتهمه ابن خلدون بأنه رشا كبار أهل الدولـــة و الأمراء ليعينوه ويقول أن هذا الساعي تمت سعايته وبذلك عزل ابن خلدون من وظيفته في محرم803هــ/سبتمبر1400م[4].

و عزله الثاني هذا من وظيفة القضاء لم يضع حدا لعمله كقاض و لا شك في أن دعوة ابن خلدون لا أقل من أربع مرات لتولي القضاء بعد عزله للمرة الثانية يلقي الكثير من الضوء الخاص على حال الدولة في ذلك الوقت، و قد مر بابن خلدون أكبر حادث في تاريخ حياته قبل أن أعيد للقضاء للمرة الثالثة. ذلك هو إلتقاؤه الثالث بتيمور في دمشق[5] في مطلع سنة (804هــ/1401م) وغياب ابن خلدون الطويل عن القاهرة حمل الناس على الظن بأنه توفي، فلما خلا منصب قاضي القضاة المالكي في القاهرة لم يكن ابن خلدون حاضرا ليملأه.

و لما عاد ابن خلدون من دمشق إلى القاهرة كان كثير الإهتمام بالعودة إلى القضاء،و تتواتر المصادر على أنه كان حريصا على أن يعين ثانية و أنه نجح فعلا[6]. فقد فقد أراد السلطان فرج على ما يبدو أن يكافئ ابن خلدون على ما قام به في سبيل المماليك وهو بدمشق وسفارته على تيمور لنك، فعزل القاضي المالكي وهو **جمال الدين عبد الله**

---

[1] نفس المصدر و نفس المكان، يقول ابن خلدون "و ترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم". بخصوص حكم فرج.

[2] السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص146.

[3] ابن خلدون، التعريف، ص134-135. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص348-350.

[4] هذه الإشارة عن التعيين الثاني الذي ورد ذكره في الحديث بين ابن خلدون و تيمور لنك، فقد جاء في التعريف، ص141-142. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص369، أن تيمور لنك سأل ابن خلدون: "و كيف كانت توليته القضاء؟" فقلت: "مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، و كان يظن بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة، وتحري المعدلة والحق والإعراض عن الجاه فولاني مكانه ومات لشهر بعدها فلم يرضى أهل الدولة بمكاني فادالوني منها بغيري جزاهم الله".

[5] on this event see the present writer's study «inb khaldun and tamerlane» in the I.Goldziher Memorial Volume (Budapest 1951, pt II).

[6] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص50. محمد طه الحاجري، المرجع السابق، ص200.

الأقفهمي[1] بعد شهر واحد فقط من تعيينه في وظيفته" وأعاد ابن خلدون إلى وظيفته قاضي القضاة". كان هذا في شعبان 803هـ/أبريل1401م.

و قد لقي ابن خلدون حتى ولايته الثالثة للقضاء سعايات و حملات فعزل مرة أخرى في رجب804هـ/فبراير1402م، ولكنه أعيد في ذي الحجة804هـ/يوليو1402م و ولي القضاء للمرة الرابعة ربيع الأول806هـ/سبتمبر1403م. وفي فبراير1405م/ذي القعدة807هـ[2]. و في شعبان808هـ/يناير1406م ولي القضاء مرة أخرى، و لكن لم يمر عليه إلا وقت قصير[3] حتى داهمه الموت[4] فوضع حدا لحياته[5] في رمضان808هـ/ مارس1406م[6].

هذه مسيرة ابن خلدون مع القضاء في مصر على الرغم من أهميته التي لا شك فيها عزل عن عمله وأعيد مرات عديدة، كان آخرها السنة التي فارق فيها الحياة والسبب في ذلك يعود إلى أنه وجد في عصر كان فيه سلاطين المماليك ورجال الحكم من معاونيهم لا يقيمون وزنا للنزاهة وخاصة في منصب حساس مثل منصب القضاء لأنها تطال بالضرورة مصالحهم، وهي في نظرهم تتقدم على كل شيء لذلك كان ابن خلدون الذي اتصفت أحكامه بالصرامة والاستقلال يعزل لأتفه الأسباب وأقلها شأنا وموضوعية، كرفض وساطة للسلطان أو غيره من الأفراد الذين جعلوا من منصب القضاء وسيلة لجمع المال و الثروة على إعتبار أنه كان يباع لمن يدفع أكثر من المال دون النظر إلى أهلية المشتري العلمية و الأخلاقية شأنه في ذلك شأن المناصب الإدارية الأخرى.

---

[1] ابن خلدون يمتدح مقدرة هذا القاضي و تعقله و تقواه، التعريف، ص149. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص382. راجع أيضا السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص148. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص122-124.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق، ص149. ابن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص384.

[3] يروي ابن حجر في أنباء الغمر، ص223 أن ابن خلدون بقي في القضاء هذه المرة ثمانية أيام فقط، راجع أيضا ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص77.

[4] ثمة إجماع على أن ابن خلدون مات و هو في منصب القضاء للمرة السادسة و قد دفن في مقبرة للصوفية خارج باب النصر، راجع ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص276. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص49. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص77.

[5] توفي يوم الأربعاء 25رمضان سنة(808هـ/1405م) وقد عاش76سنة و25 يوما بحسب التقويم القمري، راجع المنهل الصافي، ص49، النجوم الزاهرة، ج6، ص276، شذرات الذهب،ج7، ص77.

[6] إن الفترات التي شغلها ابن خلدون في منصب قاضي القضاة هي كما يلي: 1 من يوليو1384 إلى يونيو1385. 2 من مايو1369 إلى سبتمبر1400. 3من أبريل1401 إلى فبراير1402. 4 من يوليو1402 إلى سبتمبر1403. 5 من فبراير 1405 إلى مايو1405. 6 من يناير1406 إلى مارس من نفس السنة.

وقد صور المقريزي هذا الجو الفاسد بقوله: "فإن أراد أحد ولاية شيء من الأمور تحدث مع حاشية الأمير بركة حتى يتقرر له ما يريد، ثم يستقر فيما يقرر فيه من الوظائف، غير أن الولايات كلها من القضاء والحسبة و ولاية الحرب في الأعمال والكشف وسائر الوظائف لا سبيل أن ينالها أحد إلا بما يقوم به أو يلتزم بأدائه ويكتب به خطة، فتطاول كل نذل رذل وسافل إلى ما سنح بخاطره من الأعمال الجليلة والرتب العلية، عدها الناس من ذلك بداهة دهياء، أوجبت خراب مصر و الشام"[1].

وذكر ابن خلدون عن نفسه، وذكره غير واحد أنه سلك عكس ما أراده بعض من ضعفت نفسه من أهل السلطة والحكم في عصره، فقد سلك طريق الحق في كل أحكامه والأمر الذي لم يعجب الكثيرين من ذوي الشأن الذين اعتادوا على أن تكون جميع طلباتهم مقبولة وشفاعتهم مستجابة، وهذا ما رفضه ابن خلدون فكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ويذكر أن ذلك توافق مع مصابه بفقد أهله وماله في السفينة التي غرقت وهي في طريقها إلى مصر[2].

وقد طال أمد عدم وجود المغاربة في منصب القضاء المالكي بعد ابن خلدون أكثر من ربع قرن من الزمان في مدينة القاهرة، حتى جاء واحد منهم وبصفة نائب للقاضي المالكي هو علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن محمد الأندلسي وهو من الذين ولدوا بمصر وترعرعوا فوق أديمها وكان مثالا يحتذى به في عمله، ترفع عن سقطات القضاة ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الميتة الذين اتخذوا من القضاء وسيلة لجمع الثروة[3].

وأحدهم شغل منصب قاضي قضاة الإسكندرية وكان من الذين عرفوا بجهلهم المطبق بالمعارف الضرورية لمن يريد العمل في هذا الميدان كعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير وهو أحمد بن سعيد التلمساني ومع ذلك فقد سار في وظيفته مسيرة حق وإستقامة[4]، وعلى النقيض منه من جهة المؤهلات، اشتهر بالقاهرة نائبا للقاضي المالكي

---

[1] المقريزي، المصدر السابق، ج3، قسم1، ص324.

[2] ابن خلدون، العبر، ج7، ص452 وما بعدها. ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، ج2، ص339-340. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص145 وما بعدها. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص76-77.

[3] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج15، ص468.

[4] السخاوي، التبر المسلول في ذيل السلوك، طبعة بولاق، مصر 1896م، ص27-40.

نور الدين الرهوني المغربي، وعرف بشدة تهوره في أحكامه وإقدامه على ظلم الناس وأتى على تنفيذ أحكام لا يقدم عليها أحد من القضاة الواعين[1].

وتسلم خارج مدينتي القاهرة والإسكندرية منصب قاضي قضاة المالكية المغربي محمد بن محمد المعروف بابن حريز بمدينة منفلوط، وجمع هذا القاضي ما يحتاجه أمثاله من معرفة ومؤهلات وأمانة وحرص على الحق ونصرته في أحكامه، وهذا ما أجمع عليه كل الذين عاصروه وفرحوا به لما خلف القاضي ولي الدين السنباطي بمدينة القاهرة[2]، ولي محمد بن محمد الريفي نائبا للقاضي المالكي بالإسكندرية فترة تقرب من عشرين عاما لم يعرف عنه خلالها ما يسيء إليه[3]، و إشتهر من آل حريز الذين كانوا يسكنون مدينة منفلوط عمر بن محمد سراج الدين المغربي المنفلوطي الذي حصل على ثقافة واسعة من شيوخ مكة ومنفلوط، وتميز بأخلاقه وأحكامه الحيادية المنصفة لم تحرفه عنها حالته المادية البائسة وديون أخيه الذي تكفل بتأديتها عنه، فكان مثال القاضي الذي لا يرى بدلا من إمتثال الحق في ميدان عمله[4]، وخلفه في القضاء المالكي بالقاهرة القاضي إبراهيم بن محمد المغربي الذي كان كسابقه متنوع المعارف فباشر عمله القضائي لكنه لم يدم طويلا وعزل منه، فأدى عزله إلى الأسف والحيرة لما إتصف به من دقة وصلابة في أحكامه التي لم يراع فيها غير مصلحة القضاء[5].

والشيء اللافت للإنتباه هنا أن جميع القضاة الذين إلتزموا في مهماتهم القضائية جانب الحق والصدق والامانة تعرضوا للمضايقات وانتهوا نهاية محزنة مثل العزل، ووجدوا أن من مصلحتهم تنفيذ ما يريده السلطان ومعاونوه الذين لم يروا إلا مصالحهم الشخصية، فتهافتوا على جمع المال غير آبهين بمصالح الناس ولا بقذارة الوسائل التي توصل إلى ذلك وعكس ابن تغري بردي هذه الحال في كتابه النجوم الزاهرة كما فعل

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص226-227.

[2] السخاوي، الذيل على رفع الإصر، جودت هلال و محمد محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف و النشر، ص258 وما بعدها.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص269.

[4] السخاوي، الذيل على رفع الإصر، ص198 وما بعدها. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص76 وما بعدها..

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص161 وما بعدها.

المقريزي من قبله، عندما تفاقمت الأمور وأصبحت أسوء مما كانت عليه زمن المقريزي علما أن ابن تغري بردي ينتمي بالأصل إلى المماليك الذين حكموا مصر و الشام[1].

وهكذا فقد كان للقضاة المالكيين دور في الحياة الإجتماعية بمصر من خلال منصب القضاء، وتأتي أهمية هذا الدور من شهرتهم بالأحكام الصعبة والقاسية من حيث نتيجتها، فجميع المسائل الكبرى كانت تواجه القضاة من المذاهب الأخرى تحال إلى القضاء المالكي، مثل قضايا الكفر والإلحاد والزندقة والخروج على الدين، وقضايا الخيانة، فيشبه بذلك ما يسمى فيه هذه الأيام بقاضي (محكمة الأمن القومي أو محكمة أمن الدولة العليا) والأمثلة في هذا الميدان كثيرة جدا منها أنه إدعى عند القاضي المالكي علي الطنبغا الحلبي والطنبغا دوادار إتهما بتهمة تقضي الكفر، فحكم بإراقة دمهما وإعدامهما[2].

وحدث في سنة (785هـ/1384م) أن جماعة بالقاهرة إتهموا بالزندقة فأحيلوا إلى القضاء المالكي الذي أمر بضرب رقاب ستة منهم[3]، و كذلك كانت عاقبة من يرتد عن الإسلام[4]، أو من كان يتآمر على الدولة بتعامله مع الأعداء فإنه كان ينتظر قرار القاضي المالكي الذي لم يكن بأقل من الموت، مثال ذلك أن السلطان قام بتكليف القاضي المالكي شمس الدين محمد البساطي سنة (832هـ/1429م) بالنظر بقضية الجاسوس العجمي علي التبريزي، الذي إتصل بملك الحبشة وهون عليه أمر المسلمين، فحاكمه القاضي المذكور وحكم عليه بالإعدام[5]، أما النواب القضاة فإن عددهم لم يكن ثابتا كان ذلك عرفا أو عادة ففي بعض الأحيان كان عددهم يصل إلى نحو خمسة عشر نائبا عند القاضي الشافعي، وعشرة عند القاضي الحنفي وإلى سبعة نواب عند القاضي المالكي ومثل هذا العدد عند القاضي الحنبلي وأحيانا أقل.

ولعل خير إشارة إلى ذلك وجدت عند ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة حيث ذكر أنه في سنة (819هـ/1416م) أمر السلطان بعزل جميع نواب القضاة الأربعة، وكان عددهم يومئذ مائة وستة وثمانين قاضيا بمدينة القاهرة وحدها، فقرر السلطان أن يكون لكل قاض ثلاثة نواب فقط، و يعلق ابن تغري بردي على ذلك بالقول: "و ما كان

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص39-40.

[2] ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص418.

[3] نفس المصدر، ج1، ص274.

[4] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، قسم1، ص372-373.

[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص324 وما بعدها.

أحسن هذا لو دام أو إستمر، و قد تضاعف هذا البلاء في زماننا، حتى خرج عن الحد وصار لكل قاض عدة كبيرة من النواب"، و على الرغم من الضغوط المستمرة التي مارسها رجال الحكم من الأمراء على السلطان ، فقد قرر أن يكون للقاضي الشافعي عشرة نواب، و للقاضي الحنفي خمسة و للقاضي المالكي أربعة[1].

وفي سنة (833هـ/1430م) قرر السلطان أن يكون للقاضي الشافعي أربعة نواب وللحنفي ثلاثة، وإثنان لكل من القاضي المالكي والحنبلي، ليرتفع عددهم بعد مضي ثلاث سنوات فيصبح للقاضي الشافعي خمسة عشر نائبا بمصر كلها، و للحنفي عشرة و للقاضي المالكي سبعة و للحنبلي خمسة و بعدة فترة قصيرة عادوا إلى ما كانوا عليه في البداية دون معرفة السلطان[2]، وهذا يدل بصورة واضحة على الواقع المر، الذي كان يعاني منه الحكم المملوكي من فوضى وعدم إستقرار وتفشي كل من هو سيء ورديء وكان القضاة يمارسون أعمالهم في معظم الأوقات في مكان يعرف بدار العدل أو ما شابه ذلك في قلعة الجبل بمدينة القاهرة، و بأمكنة متنوعة في بقية المدن والحواضر و إن كان معظمها في مقر الحاكم أو النائب[3] و هو يشبه ما يسمى في أيامنا هذه (قصر العدالة).

و من الأسماء المغربية التي لمعت في مناصب القضاء في المدن المصرية:

- عماد الدين الكندي قاضي الإسكندرية وعنه يقول ابن بطوطة: "إمام من أئمة علم اللسان وكان يتعمم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم و لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يوما قاعدا في صدر محراب، و قد كادت عمامته أن تملأ المحراب"[4].
- شمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام الريفي التونسي المالكي (639هـ-715هـ/1241م-1315م) الذي درس بمداس القاهرة وناب في الحكم بالحسينية، ثم ولي قضاء الإسكندرية، و لو أن ولايته هذه لم تحمد[5].

---

[1] المصدر السابق، ج14، ص40 وما بعدها.

[2] المصدر السابق، ج14، ص345-362.

[3] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، قسم3، ص888.

[4] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص15.

[5] لم تدم هذه الولاية لإتهامه بأخذ الرشوة في قضاء الحوائج (أنظر: ابن حجر، الدرر، ج4، ص149-150. سعد زغلول (عبد الحميد)، (الأثر المغربي و الأندلسي في المجتمع السكندري) مجلة كلية الآداب، العدد ، جامعة الاسكندرية، سنة1975م، ص261.

- ولدا التنسي: كمال الدين التنسي (ت777هـ/1375م) وابنه محمد اللذان توليا قضاء الإسكندرية وناصر الدين أحمد بن محمد جمال الدين بن عطاء الله (740هـ/1339م) الذي ولي قضاء المالكية.
- أبو عبد الله القارىء المالكي المغربي الذي ناب في حكم الإسكندرية.
- عبد الله بن محمد بن سهل المرسي المغربي نزيل الإسكندرية الشهير بالشيخ نهار الذي تولى قضاءها إلى أن توفي سنة (780هـ/1378م)[1].
- أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد الله المرجاني التونسي الأصل الإسكندراني الموطن (724هـ-1324م/781هـ-1380م)[2].
- أبو عبد الله الدكالي المتوفى بالإسكندرية سنة (799هـ/1396م) وكان من أعجوبة الدهر في عظمة الزهد والدين وخشونة العيش والسير على طريقة السلف[3].
- سالم بن عبد الله بن سعادة بن طاجين القسنطيني (ت820هـ/1417م)[4] نزيل مصر الإسكندري الذي تولى قضاءها.
- أبو الطيب محمد بن أحمد بن محمد بن علوان المالكي التونسي السكندري كان من أكابر شيوخ المالكية في الإسكندرية، سمع عليه عدد مشاهير علماء المدينة[5].
- أبو بكر عبد الرزاق الدكالي المالكي الذي تفقه على يدي محمد بن يوسف السكندري، توفي بمكة سنة (827هـ/1424م)[6].
- الشيخ شهاب الدين أحمد بن سعيد التلمساني المغربي متولى قضاء الإسكندرية بعد وفاة قاضيها جمال الدين عبد الله بن الدمامين[7].

---

[1] ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص184.

[2] نفس المصدر، ج1، ص207.

[3] نفسه، ج1، ص543..

[4] ابن حجر، أبناء الغمر، ج3، ص184.

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص77.

[6] المصدر السابق، ج11، ص47.

[7] السخاوي، التبر المسبول، ص35.

- الشيخ خلف بن علي بن محمد المغربي الأصـل، الشـافعي السـكندري (760هـ-1359م/844هـ-1440م) الذي سكن الإسكندرية و إرتفعت مكانته العلمية بها حتى صار شيخ الشافعية و المالكية بها[1].
- أحمد بن محمد بن عمر الصنهاجي السكندري المولد والمنشأ والوفاة، القاهري الحسيني الدار (780هـ-1378م/855هـ-1451م)، حيث تولى مشيخة المدرسة البسامية بالإسكندرية[2].
- محمد بن عثمان بن ظافر المغربي البجائي المالكي، إستقر به المطاف بالإسكندرية حيث طاب له المقام[3].
- أبو محفوظ محرز بن علي بن مسعود الحسني المغربي التونسي المالكي نزيل الإسكندرية المعروف بإبن الرفاء، ولد بتونس سنة (795هـ/1393م)[4].
- شهاب أحمد بن الزيني عبد الله العسلوني بن منصور المقري الفكير، المالقي السكندري، الذي نشأ بالإسكندرية وصارت له إمامة الجامع الغربي بها لمدة 35عاما[5].
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله يوسف التونسي الأصل المالكي تلقى العلم بالقاهرة، وحج و زار قبل أن يستوطن الإسكندرية[6].
- أبو الفضل العز عبد العزيز بن مسلم بن دال المستناتي المالكي المغربي السكندري[7].
- إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الخضرمي المغربي عرف بابن الصباغ والحربي وكان أبوه من أثرياء تجار الثغر، و اضطر إلى ترك دراسته بالقاهرة وبعد وفاة والده رحل إلى الإسكندرية و لكنه سرعان ما توفي بها[8].

و لكثرة إسناد منصب القضاء إلى العلماء المغاربة بدت وظيفة القضاء في مصر وكأنها قد صارت حكرا على المغاربة بحيث أنه عندما يموت أحد القضاة المغاربة يخلفه

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص184.
[2] نفس المصدر، ج2، ص160-161.
[3] نفسه، ج8، ص146.
[4] نفسه، ج6، ص240.
[5] المصدر السابق، ج1، ص335.
[6] نفسه، ج8، ص117.
[7] نفسه، ج4، ص235.
[8] نفسه، ج1، ص51.

قاض مغربي، و يعبر ابن إياس عن ذلك بقوله عند تعرضه لذكر وفاة القاضي ابن جريز كما سبق[1]: "... و لما مات ولي بعده أخوه سراج الدين عمر فقرر في قضاء المالكية عوضا عن أخيه"[2].

ولقد بلغت شهرة بعض القضاة المغاربة من الإنتشار حدا دعا بعض السلاطين إلى تقريبهم إليهم و من هؤلاء القضاة القاضي أصيل الحضري الذي بلغ من الشهرة مبلغا كبيرا، وأصيل الحضري هذا هو محمد بن إبراهيم بن علي بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق بن عبد الله المغربي (788هـ-1386م/873هـ-1468م) و فيه يقول ابن إياس: "كان مالكي المذهب، وكان عشير الناس كثير المداعبات والنوادر، لطيف الذات محببا لأرباب الدولة، عاش من العمر مدة طويلة"[3].

و نظرا لما كان يتمتع به هؤلاء المغاربة الوافدون على مصر من تقدير لدى الخاصة والعامة فقد إتخذ بعض سلاطين المماليك منهم مشايخ خاصة لهم، كما حدث في عهد السلطان قايتباي: "قرر الشيخ أبو عبد الله القلجاني -أبو عبد الله محمد القلداني التونسي المالكي- قاضي الجماعة في مشيخة تربة السلطان... و قرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون في الخمسة أوقات، و بنى للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما، ثم رتب لهم الجوامك و الخبز و الزيت".

ب) القضاة على المذهب الشافعي

لم يعمل الأندلسيون والمغاربة في القضاء على المذهب المالكي فحسب، إنما تحـــول بعضهم من مذهب المالكية إلى مذهب الشافعية، وعملوا قضاة على هذا المذهب، كما كان حال الكثيرين من الأندلسيين الذين عملوا في مجالات متعددة في الشام. لكن الشيء الملفت للنظر، أن القضاة الشافعية من الأندلسيين المغاربة، كانوا قليلي العـــدد إذا مـــا قورنـــوا بالقضاة من المالكية. و ربما يعود سبب ذلك بكل بساطة، إلى أن العلمـــاء الشـــافعية، أو

---

[1] هو القاضي المالكي حسام الدين بن جرير، و هو محمد بن أبي بكر بن محمد بن جرير بن أبي القاسم الهاشمي القرشي العلوي الحسني، مغربي الأصل و عنه يقول ابن إياس: "... ثم نشأ بمنفلوط و لي القضاء بها مدة، كان عالما فاضلا جوادا سمحا، في سعة من المال، و سمع على ولي الدين العراقي و ابن عياش و غيرهما من العلماء و آل أمره إلى أن ولي القضاء الأكبر بمصر و صفا له الوقت... و عظم أمره في القضاء". أنظر: ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج2، ص106.

[2] نفس المصدر، ج3، ص28.

[3] المصدر السابق، ج2، ص100، ج3، ص19.

بالأحرى أصحاب المذهب الشافعي، شكلوا الأكثرية الساحقة لسكان بلاد الشام، الأمر الذي جعل فرصة الوصول بالنسبة للأندلسيين المغاربة إلى منصب القضاة من الفرص الصعبة المنال في كثير من الأحيان. و إن كان قد وصل بعضهم إلى تسلم هذا المنصب الهام، فإن ذلك لم يحدث إلا في مدن صغيرة مع بعض استثناءات لا قيمة لها. و الذين اشتهروا بالقضاء على هذا المذهب، كانوا من الذين ولدوا بالشام و نشأوا فيها، بحيث تتلمذوا ودرسوا الفقه الشافعي منذ سن مبكرة. مثال ذلك، القاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سالم، الذي ولد بأزرع من أعمال مدينة درعا سنة (645هـ/1248م)، و قدم إلى مدينة دمشق في سن الشباب، و فيها انكب على الدراسة والتحصيل. فكان أهم العلوم التي ركز عليها بشكل خاص، علم الحديث، الذي سمعه من جلة علماء دمشق، أمثال أحمد بن عبد الدائم، و الكمال أحمد ابن نعمة، ويحيى بن الصيرفيي و البرزالي و غيرهم.

و يظهر أن هذا القاضي، حاز على ثقافة عالية المستوى، الأمر الذي ساعده على أن يتوصل إلى منصب القضاء في عدة مدن شامية، كأزرع وشيزر ودمشق. فكان أول تعيين له في هذا المنصب بمدينة دمشق سنة (710 هـ/1311م) و هو في سن عالية نسبيا، وذلك على أثر عزل القاضي الشافعي ابن جماعة. و تنقل بعد ذلك إلى تسلم قضاء شيزر وأزرع. و أمضى في كل مدينة فترة تختلف عن الأخرى، فالشيء الثابت عنه، أنه أمضى فترة طويلة في القضاء، فقد بلغ عدد سنوات هذه الفترة عشرين سنة و نيفا، سبع سنوات منها في دمشق، و ثلاث عشرة سنة في أزرع، و الباقي، و هي فترة وجيزة في شيزر. وكانت هذه السنون الطويلة كافية لتقويمه من الناحية السلوكية، التي اتبعها خلال ممارسة عمله كقاضي قضاة الشافعية. فقد وصف بالعفة و الترفع عن قبول الرشاوى و بالحزم و الصرامة في تطبيق الأحكام بحسب تعاليم مذهبه، التي كان يعرفها جيدا (ت758هـ/1357م)، بعد عمر دام أكثر من قرن من الزمان[1].

أما النموذج الآخر، الذي احتوته كتب التراجم، فلم يكن في مستواه الثقافي على المذهب الشافعي، الذي تفقه عليه بعد وصوله إلى الشام، كما أنه لم يتوصل إلى قضاء عدة مدن كسابقه. هذا القاضي هو محمد بن أحمد الفرياني نسبة إلى فريانة التي تقع، بين قفصة وبيشة بتونس، عرف في بلاد الشام **بالمغربي**. وصل الشام و هو على المذهب المالكي، الذي تحول عنه إلى المذهب الشافعي أملا بالوصول إلى مرتبة مناسبة تكون

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص159 وما بعدها.

مصدر رزقه و عيشه على ما يبدو، فكان له ذلك، بأن توصل إلى قضاء نابلس لفترة من الزمن، لا تعرف على وجه التحديد. و النقطة التي التقى بها مع القاضي السابق، تمثلت بمسلكه الشخصي على صعيد القضاء، فكان عفيفا، توخى في أحكامه العدل والمساواة بحسب ما يقتضيه الشرع. ولد سنة (780هـ/1379م)، أما وفاته فمختلف فيها، بعضهم يجعلها سنة (859هـ/1455م). و بعضهم يجعلها في سنة (862هـ/1458م)، و آخرون في سنة (869هـ/1465م) وغيرهم[1]، و فيما عدا هذين القاضيين، فلم يعثر على ترجمة لأندلسي مغربي، عمل في هذا المجال. و بهذا لا يمكن الاعتماد عليهما، من أجل المقارنة بين قضاة المالكية، و قضاة الشافعية من الأندلسيين المغاربة في بلاد الشام. سواء أكان ذلك من حيث السلوكية العامة، أو من حيث الصلاحيات الأخرى، بالإضافة إلى هذا إن المغاربة الذين مارسوا القضاء على المذهب الشافعي لم يكن أصلا إنما تحولا من المذهب المالكي سوى الناشئين في مصر والشام وكذا في تقلد وظيفة إدارية للاسترزاق.

6- إسهامات المغاربة و الأندلسيين في مجال التدريس

إن الذي يجب أن يصرح به في البداية أن من اشتغل من المغاربة والأندلسيين في مصر وبلاد الشام خلال فترة هذا البحث في مهمة التدريس لا يمكن دراسته إلا بشكل منفرد ومستقل عن الذين عملوا في حقل الحديث أو النحو أو غير ذلك، و مرد هذا إلى أن معظم رجال هذه الفئة لم يكونوا يقتصرون على مادة واحدة بل كثيرا ما درس أحدهم أكثر من مادة مثل النحو و الحديث و التفسير إلى غير ذلك.

و يبدو أن عدد المغاربة و الأندلسيين في مصر والشام لم يكن قليلا[2] و لم يكونوا في القاهرة و دمشق فقط، بل كانوا ينتشرون في العديد من مدن مصر والشام التي تضم مدارس العلم كمدينة رشيد و المحلة[3] والقدس والإسكندرية[4]...إلخ.

لقد عرف الوافدون المغاربة والأندلسيين في بلاد مصر والشام بالأمانة (... وطال لهم فيها ذكر)[5] فاستلموا كثيرا من الأعمال، لاسيما التعليم، حيث توصلوا إلى مراكز

---

[1] ابن حجر، أبناء الغمر، ج3، ص517.

[2] ابن الزيات، الكواكب السائرة، ج1، ص30.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، ص250.

[4] ابن الزيات، المصدر السابق، ج1، ص344.

[5] نفس المصدر، ج1، ص48.

قيادية للمدارس ودور العلم التي عملوا بها فتسلم قسم منهم مشيخة المدرسة ككل، وتسلم قسم آخر قسم تدريس علم من العلوم كتدريس النحو ومشيخة الحديث، فتوافد عليهم طلبة العلم و العلماء، فهم يرونهم يقطعون الفيافي وينتقلون بين القاهرة ودمشق ومكة والمدينة والقدس... لينالوا علما أو يلتقوا بعالم غير عابئين بأمور الدنيا ومشاقها، فأكبروا فيهم تلك الهمة، وفتحوا لهم صدورهم[1] و استمع المصريون والشاميون بشغف إلى دروس علمائهم وتقربوا بحب من أدبائهم و شعرائهم[2].

و لم تقتصر نشاطاتهم على التدريس فحسب بل تعدتها إلى التأليف والإنتاج العلمي الأمر الذي جعل منهم فئة إيجابية ذات نفع ملموس وكان دورهم بارزا وخيرا في مجال الحركة التعليمية التي لا بد منها لكل مجتمع ينشد التقدم والإزدهار والنجاح وكانت إسهاماتهم على أشكال مختلفة وبأساليب متفرقة الأمر الذي سيظهر من إستعراض ما قاموا به من أدوار تعليمية أو كتابية.

و الذي كان سائدا أنهم يتساوون إلى حد كبير معهم من حيث الأهلية والجدارة وطبقوا المناهج نفسها التي كانت معروفة في مدارس مصر والشام دون تطوير وإبتكار، يمكن أن ينسب إليهم وينحصر مهم ويمكن إعطاء أمثلة عن تلك المناهج التي كانت متبعة في حقل التعليم مثال ذلك علم الحديث الذي كان أحد المواد التدريسية الرئيسية في المدارس كما يفهم من قول النعيمي الدمشقي: "و في سنة إثنين وستين وستمائة وفي جمادى الآخرة منها درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي بدار الحديث الأشرفية* بعد وفاة القاضي عماد الدين بن الحرستاني الخزرجي... وذكر خطبة المبعث* و أورد الحديث بسنده و متنه و ذكر فوائد كثيرة مستحسنة"[3]. و مثال آخر عن مادة التفسير التي كانت من المواد التدريسية المهمة أيضا.

---

[1] نفسه، ج1، ص49، ج2، ص185.

[2] المقري، المصدر السابق، ج2، ص410.

* التربة الأشرفية جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية كانت دارا لصارخ الدين قايماز بن عبد الله النجمي (ت596هـ/1199م)، فاشتراها الملك الأشرف الأيوبي و بنا بها دار حديث. بدأ بعمارتها (618هـ/1221م) و انتهى منها (620هـ/1223م)، أنظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص19.

* يقصد بالمبعث شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى. ذكره أبو شامة في كتابه **الذيل على الروضتين**، ص36.

[3] النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص23.

فكان الدرس الواحد يقتصر على آية أو أكثر من آيات القرآن الكريم، فمن رواية ينقلها النعيمي عن ابن قاضي شهبة في كتاب الدارس في تاريخ المدارس يتبين واقع ذلك يقول: "و في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وفي يوم الأربعاء خامسة حضر قاضي القضاة سراج الدين الحمصي الدرس بالغزالية و درس قوله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو..."[1].

و الأمر نفسه كان بالنسبة لبقية العلوم بكافة فروعها. فقد أسهم بقسط وافر في تدريس مادة النحو وعلم القراءات في دمشق **يحي بن سعدون القرطبي** (ت567هـ/1172م) وتتلمذ عليه وانتفع بعلمه خلق كثير.

و من علماء زواوة الذين رحلوا إلى المشرق و كان لهم دور مشرف العلامة:

عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس الزواوي: ولد بالقرب من مدينة بجاية سنة (589هـ/1196م) درس بها العلوم الأولية كحفظ القرآن وتعليم اللغة العربية، وبعدها إنتقل إلى بجاية فزاول دراسته على علمائها، ثم رأى أنه لا بد من الرحلة العلمية، فانتقل إلى مصر وشارك في حلقات الدرس التي كانت تقام بمساجدها ومدارسها، وتأثر بعلمائها و في مقدمتهم العالم الجليل **أبو القاسم بن عيسى** الذي كان مدرس بمدينة الإسكندرية أقرب مدن مصر لبلدان المغرب الإسلامي، فتعتبر محطة للقادمين من بلدان المغرب والأندلس مما جعلها تستقبل جالية مغربية، أثرت على أحوالها الإقتصادية والثقافية، فكانت مجموعة كبيرة من تجارها من أصل مغربي وعلى الخصوص كبار تجارها، كما درس بها مجموعة من علماء المغرب الإسلامي وتولى البعض منهم وظيفة القضاء[2].

أما عبد السلام فيظهر أنه إنتصب للتدريس بها قبل أن ينتقل إلى دمشق، حيث درس بها على الإمام البخاري و انتصب للتدريس بها فتتلمذ على يديه مجموعة من علمائها.

و من بين العلماء الزواويين الذين كان لهم فضل في الحركة الفكرية بالمشرق **عيسى بن مسعود الزواوي**، وصفه صاحب كتاب الديباج بقوله: "المفتي أحد صدور الأعلام، وحفاظ علماء الإسلام **شرف الدين أبو مهدي**".

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص367.

[2] أحمد مختار العبادي، (التأثير المتبادل بين الإسكندرية والمغرب)، مجلة الفيصل، المملكة العربية السعودية، العدد 288، السنة (1421هـ/2000م)، ص83-85.

لا نعرف شيئا عن حياته الأولى قبل إنتقاله إلى مصر، و كل ما قيل عنه أنه كان إمام المالكية و زعيمهم بالديار المصرية[1].

و لم يعرف المشرق العربي خلال القرن (6هـ/12م) أن مغربيا أو أندلسيا إشتغل بالتدريس غير ابن سعدون القرطبي الآنف الذكر.

و لم يعرف سببا دقيقا لهذه الظاهرة و إن كان من المحتمل أنها تتعلق في أن المدارس كانت خلال هذه الفترة قليلة جدا وبالتالي فإن الهجرة المغربية والأندلسية لم تكن كثيفة بالشكل الذي حدث بعد نهاية القرن (6هـ/12م).

أما فيما بعد هذه الفترة فإن الأمر يختلف بشكل جذري فقد تكاثر رجال هذه الفئة وتشعبت مهامهم وخاصة خلال القرنين (8هـ/14م و 9هـ/15م).

ففي مدينة حلب حمل لواء التدريس فيها و تسلم مشيخة التدريس بالجامع الكبير فيها **محمد بن حسن الفاسي** (ت650هـ/1252م) و تخرج عليه تلامذة كان لبعضهم شأن فيه فيما بعد[2].

و **أسهم محمد بن أحمد المرسي الأندلسي** (ت661هـ/1263م) في التدريس بمدينة دمشق من خلال المنصب العلمي الذي تسلمه و هو مشيخة المدرسة العادلية، فقد وصفه أبو شامة بأنه إمام في العلم و بادر بالإضافة إلى منصبه العلمي هذا إلى تأليف وشرح عدة كتب منها **شرح المفصل** وشرح **الجزولية** وشرح القصيدة المعروفة **بالشاطبية**[3].

و عرفت مدينة القاهرة واحدا من هؤلاء المدرسين كان نفعه مزدوجا فدرس في مدارسها و ألف عدة كتب مفيدة منها **شرح التنبيه** و **شرح الجمل** في النحو هذا المدرس هو **عبد الله بن محمد** المعروف **بابن التلمساني** (ت664هـ/1266م) و لم يتوصل جميعهم إلى مرتبة مدرس، كما ورد قبل قليل حيث بقي بعضهم بمرتبة معيد و على الرغم من ذلك فقد بادروا للنفع في ميدان الفكر والثقافة ولم يقصروا في مهمة أسندت لهم مثال هؤلاء مثل **عبد الله بن إبراهيم الريفي** (ت645هـ/1284م) بالأسكندرية[4] وبمدينة الإسكندرية أيضا لمع نجم مدرس أندلسي أفاد تدريسا وتأليفا هو **أحمد بن عمر القرطبي**

---

[1] جمال الدين الشيال، (الصلات الثقافية بين المغرب والإسكندرية في العصر الإسلامي)، مجلة دعوة الحق، العدد 33، سنة 1960م، المغرب، ص148-150.

[2] ابن الجزري، المصدر السابق، ج2، ص122-123. الذهبي، المصدر السابق، ج5، ص235.

[3] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص102. اليونيني، المصدر السابق، مجلد2، ص221.

[4] المقريزي، المقفى، مخطوطة بمكتبة الدكتور سهيل زكار، ورقة180. جمال الدين الشيال، الصلات، ص150.

(ت656هـ/1258م) فعلى الرغم من تضلعه بعدة علوم فإنه إختص بتدريس الحديث والتصنيف فيه فدرس بالإسكندرية ونجح في تدريسه وقيل أن أناسا كثرا أخذوا عنه، أما في حقل التأليف فقد قام بشرح **صحيح مسلم** و سماه **المفهم** فأجاد فيه و أحسن شرحه وإختصر **صحيح البخاري و مسلم**[1].

و لم يقتصر نشاط هذه الفئة على المدن الكبرى مثل دمشق و القاهرة و حلب والإسكندرية كما يتبادر للذهن العام إنما الذي حدث أنهم توزعوا في معظم مناطق المشرق و مدنه و حواضره.

و شارك بعملية التدريس بمدينة أسيوط و لفترة غير قصيرة فتح بن موسى المغربي المعروف بالقصري (ت667هـ/1269م) و قد تولى نظم كتاب **المفصل للزمخشري** وكتاب **الإشارة** لإبن سينا و سيرة محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم في إثني عشر بيتا كلها على قافية واحدة هي الراء[2] و هذا أمر لم يفعله أحد من المغاربة والأندلسيين قبله و لا بعده و يعتبر من أفضل المجددين البارعين أمثال إبن مالك النحوي و إبن معطي والشاطبي و غيرهم.

و بمدينة القاهرة درس بالمدرسة الصالحية* **أحمد بن إدريس الصنهاجي** (ت682هـ/1284م) وبقي بهذه المدرسة وبجامع عمرو بن العاص حتى آخر أيامه لم يتوقف عند حد التدريس بل إشتغل بالتأليف فوضع عدة كتب في أصول الفقه مثل **التنقيح** وشرحه **كتاب أنواء البروق وأنواء الفروق** يقول عنه الصفدي: "و هو كتاب جيد فيه غرائب و فوائد من علوم غير واحدة" وله كتاب **الذخيرة في مذهب مالك** وكتاب **الإستبصار فيما يدرك بالإبصار** وهو خمسون مسألة[3] وكان **لمحمد بن أحمد الشريشي** (ت685هـ/1287م) دوره الإيجابي في مجال التدريس لعلمه ومعرفته بكثير من العلوم،

---

[1] ابن فرحون، المصدر السابق، ج1، ص240 وما بعدها.

[2] اليونيني، المصدر السابق، مجلد2، ص327.

* تقع المدرسة الصالحية بجوار المدرسة الأشرفية قرب المشهد النفيسي أنشأها الملك المنصور قلاوون برسم الملك الصالح، تخربت و لم يبق منها شيء و تعرف اليوم بتكية السيدة نفيسة، أنظر: المقريزي، الخطط التوفيقية.

[3] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص233 وما بعدها. ابن تغري بردي، المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي، ج1، ص215-216.

الأمر الذي حدا بالملك الناصر يوسف بن أيوب أن يعتمده شيخا **للرباط الناصري*** إضافة إلى عدة مناصب تدريسية وصلت إلى ثلاثة أو أربعة، ويعتبر من القلائل الذين حازوا هذه المكانة و قد إنتفع به عدد من الطلبة ورجال العلم خلال الفترة التـي أمضـاها بدمشـق[1] وشغل دورا بارزا في الحياة العلميـة المـدرس **عبـد الكـريم بـن علـي الأندلسـي** (ت704هـ/1305م) خلال الفترة الطويلة التي أمضاها و هو يدرس حتى لبعض تلامذته صار من أئمة العلم في حياته و كان له وجود في عدة أمكنة تعليمية هي جامع عمرو بن العاص والقبة المنصورية ومشهد الحسين وغيرها ويكاد ينحصر دوره المتميز في ميدان التفسير الذي ألف فيه كتاب **الإنصاف في مسائل الخلاف بين الزمخشري و إبن منير** وهو شيخ التفسير في القبة المنصورية وعنه أخذ **السبكي** علم التفسير[2].

و يذكر **المرادي** عن العالم **محمد بن محمد الحسني المغربي** الشهير **بالبليدي** أنـه كان يحضر درسه عن تفسير البيضاوي في الجامع الأزهر أكثـر مـن مـائتي مـدرس ومعيد[3]، ويبدو أن عديدا من الوافدين المؤقتين، والنزلاء كـانوا مـن كبـار المحققـين والمتضلعين في مختلف علوم عصرهم[4] وممن درس و تفقه على كبار مشايخ عصره في المغرب و المشرق[5].

وقد ذاع صيت العديد منهم بتبحرهم في اللغة العربيـة وعلومهـا، وفـي المنطـق والإنتاج الأدبي والشعري، و أبرز من تحدثت عنه التراجم المشرقية والمغربية بإعجـاب على سبيل المثال لا الحصر:

- **أحمد بن شقير** النحوي البارع[6].

* الرابط الناصري و هو رباط داخل المدرسة المعروفة بالناصرية البرانية التي تعتبر إحدى مدارس الشافعية بدمشـق بسفح قاسيون في محلة الفواخير أنشأها صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر عزيز الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص115.

[1] اليونيني، المصدر السابق، مجلد4، ص296-299. الصفدي، الوافي بالوفيـات، ج2، ص132. المقـري، المصـدر السابق، ج2، ص332. السيوطي، بغية الوعاة، ص18.

[2] الداودي، طبقات المسرفين، ج1، ص334-335. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص421. ابن قاضـي شـهبة، طبقات الشافعية، ج2، ص283-284.

[3] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص111.

[4] أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة و مصباح السيادة، ص65.

[5] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص102.

[6] الغزي، المصدر السابق، ج1، ص135.

- **محمد بن محمد مغوش التونسي،** الذي شهد له بالعلم والتحقيق خصوصا في التفسير، واللغة العربية، والمنطق، والكلام، والعروض، والقراءات، والمعاني، والبيان، وعند وفاته بالقاهرة رثاه شعراء مصر[1].
- **عبد العزيز المغربي المكناسي،** صاحب عدة منظومات في علوم شتى دينية ولغوية[2].
- **محمد أبو الفتح المالكي التونسي،** كان فقيها أصوليا وعلامة في النحو والتصوف، والمعاني والبيان، والبديع، والعروض، وأكثر العلوم العقلية والنقلية[3].
- **محمد بن إبراهيم الفاسي،** والذي إنتهى به المطاف إلى مصر، قال عنه **الخفاجي** الأديب المشرقي: "**ما كنت أظن أن المغرب تنجب له بمثيل**"[4].
- **إبن فتح الغماري الحسن عبد الكريم بن عبد السلام المغربي،** نزيل القاهرة في سنة (712هـ/1312م)، نوه به ابن حجر وأخذ عنه السبكي والذهبي، وأبو حيان وهو آخر المسندين من رجال الحديث الذين بلغوا درجة الرسوخ والتمكين[5].

ويشبه **علي بن محمد علاء الدين الباجي** (ت714هـ/1315م) الذي مارس التدريس بالمدرسة السيفية* بالقاهرة وأعاد بالقبة المنصورية.

أما في ميدان التأليف فله كتاب **المحرر في الفقه** و **كشف الحقائق في المنطق** و**الرد على اليهود،** وصنف الفرائض والحساب. ويبدو أنه كان من علماء عصره المعروفين والمشهورين حين قال عنه ابن دقيق العيد: **علاء الدين الباجي يطلق عليه عالم** و كان في مقدمة من تتلمذ عليه تقي الدين السبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية الذي قال: "**كان إبن دقيق العيد لا يخاطب أحدا إلا بقوله يا إنسان غير إثنين الباجي وابن رفعة يقول للباجي يا إمام و لابن رفعة يا فقيه**" و من تلامذته أيضا أبو حيان النحوي و غيره كثيرون[6].

---

[1] نفس المصدر، ج2، ص15-19.

[2] نفسه، ج2، ص169-170.

[3] المصدر السابق، ج3، ص21 وما بعدها.

[4] ريحانة الألباب،ج1، ص333. المحبي، المصدر السابق، ج3، ص311.

[5] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص102.

* السيفية بالقاهرة فيما بين خط قانيين و خط الملحيين بنيت خلال وزارة صفي الدين عبد الله بن علي سيف الإسلام بن طعتكين بن أيوب، المقريزي، الخطط التوفيقية، ج8، ص8.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص176-177. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص34. ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص73-74.

و**محمد بن سليمان المراكشي الصنهاجي** من شيوخ الإسكندرية و من المحدثين والمسندين بمصر سنة (717هـ/1316م)[1].

و**أحمد المعاطري** المعروف **بالوقاد** (ت741هـ/1341م)، إنتقل إلى الإسكندرية ودرس بها العلم[2].

و **ابن زكري الفاسي** دخل مصر وناقش فقهاءها في مسألة شرب الدخان وعقد علماؤها مجلسا لمناظرته في جامع الأزهر الشريف[3].

وأسهم **عيسى بن مسعود الزواوي** (ت743هـ/1343م) في حركة التأليف خلال وجوده كمدرس للمالكية بالأزهر الشريف فشرح صحيح مسلم في إثني عشر مجلدا وسماه **إكمال الكمال** جمع فيه أقوال المازري والقاضي عياض والنووي وأتى بفوائد جليلة من كلام ابن عبد البر وشرح مختصر أبو عمرو الحاجب في الفقه فوصل فيه إلى كتاب الصيد في سبع مجلدات وصنف كتابا جديدا في موضوعه هو **الوثائق والمناسك في علم المساحة** و رد على ابن تيمية في مسألة الطلاق وألف كتاب مناقب مالك[4]. كما تولى تدريس الفقه المالكي بزاوية المالكية بالقاهرة[5]، وانتهت إليه رياسة الفتوى في مذهب مالك مالك حتى وفاته بالقاهرة[6].

و **عبد الله بن محمد المسيلي (جمال الدين أبو احمد)** فقيه مالكي، ذكره ابن فرحون فقال: "... الإمام العلامة الأوحد، البارع المتفنن، صاحب المصنفات البديعة والعلوم الرفيعة، كان حاله عجيبا، ومنزعه غريبا، وتصانيفه في غاية الجودة والإفادة والتنقيح" إنتفع به القاضي فخر الدين بن شكر المالكي توفي بالقاهرة سنة (744هـ/1343م)[7].

---

[1] الزركلي، المرجع السابق، ج2، ص248.

[2] الكتاني (محمد بن جعفر بن إدريس)، سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس، ج3، طبعة حجرية بفاس (716هـ/1316هـ)، ص86.

[3] الكتاني، السلوة، ج1، ص83. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص75.

[4] السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج3، ص706 وما بعدها.

[5] ابن فرحون، الديباج المذهب، ص182-184. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص210. البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص809. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2، 1841.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص210. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص129. الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص295.

[7] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص262. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص241، ابن فرحون، الديباج، ص143.

وكان **لابن النقاش محمد بن علي المغربي** (ت763هـ/1362م) مشاركته الفعالة في الحركة العلمية بالقاهرة ودمشق فقد تخرج عليه كثير من طلبة العلم في المدينتين المذكورتين على الرغم ن أنه قضي شابا وكان دوره في التأليف لافتا للنظر إلى حد ما.

ففي علم الحديث أخرج أحاديث الرافعي في كتاب سماه **كاشف الغمة عن شافعية الأمة** وسماه أيضا **الألمعي في أحاديث الرافعي** وشرح العمدة في نحو ثمانية مجلدات، وفي ميدان النحو قام بشرح مؤلفين لابن مالك النحوي هما الألفية والتسهيل وآخر ما كتبه كتاب النظائر والفروق[1].

و شارك **يحي بن عبد الله الفاسي** (ت773هـ/1380م) بتدريس مادة الحديث بمدينة القاهرة بمدرستين هما الصرغتمشية* والشيخونية فاشتهر بذلك وتخرج عليه عدد كبير من أبناء مصر و غيرها[2].

ويحي بن موسى الوهراني، فقيه، حافظ، أديب، كان إماما في أصول الفقه، إستوطن القاهرة وتولى التدريس بمدرسة المنصورة والخانقاة الشيخونية، قال صاحب الديباج: "كان عالما حاز الرياسة والحظوة عند الخاصة والعامة وكان إماما في المنطق وعلم الكلام..." توفي بالقاهرة سنة (755هـ/1373م)[3].

و**أحمد بن محمد بن محمد العنابي أبو العباس**، سكن القاهرة وتولى مشيخة النحو بالمدرسة القاهرية، وانتفع به الناس في العربية والقراءات إلى أن توفي سنة (776هـ/1374م)[4].

وكان **لمحمد بن أحمد التلمساني** (ت781هـ/1380م) دوره الإيجابي في حقل التدريس الذي مارسه في عدة مدارس بالقاهرة مثل الصرغتمشية والشيخونية والقمحية*

---

1 ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص190-191. ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص198.

* تقع الصرغتمشية بشارع الصليبية تجاه جامع الخضيري أنشأها الأمير صرغتمش (759هـ/1351م) و هي عامرة إلى الآن و تعرف بجامع صرغتمش، علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج6، ص9.

2 ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5، ص196. ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، ج1، ص32. ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص230. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص460-461.

3 ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص230. ابن حجر، المصدر السابق، ج2، ص489. ابن فرحون، الديباج، ص355.

4 عادل نويهض، المرجع السابق، ص37. ابن الجزري، غاية النهاية، ج1، ص125-228.

* القمحية كانت تعرف بدار الغزل جعلها صلاح الدين الأيوبي مدرسة للمالكية (566هـ/1170م)، ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، قسم1، ص95.

ومعظم تدريسه كان لمادة الفقه الإسلامي، لكنه إعتنى بالتأليف الذي لم يكن فيه مجددا أو مبتكرا فكل ما أنتجه أن قام بشرح كتاب **الشفا** يقول عنه ابن حجر: "رأيته بخطه ولم يكمله"، وله شرح العدة في خمسة مجلدات جمع فيه بين كلام **ابن دقيق العيد وابن العطار وابن الفاكهاني** وغيرهم[1].

ويذكر **السيوطي** من علماء المغرب الذين قدموا إلى مصر **زين الدين الزواوي** الذي تصدر بجامع عمرو بن العاص لتدريس النحو والأدب، وله مصنفات كثيرة في النحو واللغة[2]، و**أبو الخطاب بن دحية** الذي إستدعاه الكامل الأيوبي ليكون شيخا لدار الحديث الكاملية[3]، و**أبو الحسن الشاذلي** الذي درس ووعظ بالإسكندرية وتخرج على يديه طائفة من العلماء والفقهاء والزهاد، الذين أصبحوا فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية[4]. والشيخ الإمام العالم **محمد بن شهاب الدين بن شمس الدين بن داود العمري** (ت782هـ/1380م)[5].

واشتغل **زين الدين قاسم بن محمد المغربي** (ت799هـ/1397م) معيدا في زاوية المغاربة والجامع الأزهر وكانت له حلقة يدرسها في كل من الموقعين المذكورين[6].

ويمكن إعتبار **عمر بن علي الوادي آشي** (ت800هـ/1398م) من أعظم الذين شاركوا فيها لتدريس والتأليف من بين أفراد هذه الفئة فقد قام بتدريس مواد علمية في العديد من مدارس القاهرة وتخرج عليه طلبة كثيرون لعل في مقدمتهم حافظ دمشق ابن ناصر الدين، أما مؤلفاته فهي كثيرة أيضا قيل أنها وصلت إلى نحو ثلاثمائة مؤلف ضاع معظمها بسبب حريق إشتغل بها.

---

[1] ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص271. ابن حجر، أنباء الغمر، ج1، ص206-207. ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج11، ص196. المقريزي، السلوك، ج3، قسم1، ص376. السخاوي، التحفة اللطيفة، ج3، ص503 وما بعدها.

[2] المقريزي، الخطط، القاهرة، مطبعة النيل، مصر1324هـ/1906م، ج1، ص92.

[3] ابن جبير، المصدر السابق، ص81.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص273-275. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص70. نقولا زيادة، دراسات إسلامية، دار الأندلس للطباعة و النشر بيروت، لبنان 1960م، ص182-184.

[5] السخاوي، تحفة الأحباب، ص400. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص25.

[6] ابن قاضي، تاريخ ، مجلد1، ج3، ص638.

منها كما قال وصرح في ميدان الحديث **تخريج أحاديث الرافعي** في سبع مجلــدات ومختصره **الخلاصة** في مجلد ومختصره **المنتقى** وله **تخريج أحاديث الوســيط** للغزالــي المسمى **تذكرة الأخبار في الوسيط من الأخبار** في مجلد.

و**تخريج أحاديث ابن الحاجب** وشرح العمدة المسمى **الأعلام** في ثلاثة مجلدات عــن نظيره وأسماء رجالها في مجلد غريب في بابه وقطعة من شرح **البخاري** وقطعــة مــن شرح **المنتقى في الأحكام** لابن تيمية و**طبقات الشافعية** من زمــن الشــافعي إلــى ســنة (770هــ/1369م) وهو كتاب جديد لم يعرف أن مغربيا ألفه أو ما يشــبه منهجــه، أمــا بالنسبة للمشرق فلا يعتبر جديدا فقد سبقه إليه عدد من المؤلفين أما الكتاب الجديــد الــذي تفوق فيه الجميع هو كتاب **طبقات المحدثين** من الصحابة إلى زمنه، أما في ميدان الفقــه فقد شرح **المنهاج** في ستة مجلدات و**التنبيه** في أربعة مجلدات وآخر لطيف سماه **هــادي النبيه إلى تدريس التنبيه** وشرح **التبريزي** جمع فيه بين كلام الرافعي في شرحه ومحرره والنووي في شرحه، ومنهاجه، وابن الرفعة في كفياته وسماه جمع الجوامع والتذكرة فــي كراسة فقال عنها السخاوي: **رأيتها** وله **شرح المنهاج** في عدة شروح أكبرها في ثمانيــة مجلدات وأصغرها مجلد واحد وله **شرح البخاري** في عشرين مجلدا إعتمد فيه على شرح شيخه القطب ومغلطاي وزاد قليلا فيه وأوائله أعقد من أواخره بل هو من نصفه الثــاني قليل الجدوى لخصه من شرح شيخه مغلطاي و**الملخص** من شرح القطب الحلبي وأنه زاد عليهما وله أيضا **شرح زوائد مسلم على البخاري** في أربعة أجزاء و**زوائد أبي داود على الصحيحين** في مجلدين و**زوائد الترمذي** على الثلاثة كتب منه قطعــة صــالحة و**زوائــد النسائي** عليها كتب منه جزءا و**زوائد ابن ماجه على الخمسة** في ثلاثة مجلدات سماه **ما تمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجة** يقول السخاوي عنه: "وقفت عليه وعلــى شــرح زوائد أبي داود وليس فيهما كبير أمر مع أنه سبقه لكتابه علي بن ماجه شــيخه مغلطــاي وقفت منه بخطه على أربعة مجلدات" ومن تصانيفه أيضا كتاب **تذهيب الكمال** ذكر فيــه تراجم رجال عدة قال السخاوي عنه: "وقد رأيت منه مجلــدا وأمــره فيــه ســهل" ولــه **الخصائص النبوية** والذيل على كتاب شيخه الأسنوي و**طبقات القراء** و**طبقات الصــوفية**

قال السخاوي عن هذه الكتب: "وقفت على جميعها"[1]. وله **شرح ألفية ابن مالك النحوي** و**شرح المنهاج الأصلي** قال السخاوي: "وقفت عليهما" وغير ذلك[2].

و**ابن خلدون** الذي ولاه السلطان برقوق عندما قدم إلى مصر، وظيفة أستاذ في المدرسة القمحية في القاهرة سنة (786هـ/1384م)[3]، كانت هذه المدرسة من منشآت صلاح الدين الأيوبي وقد خصها بتدريس الفقه المالكي، وقد عين ابن خلدون مديرا للتعليم بها وظل في عمله بضع سنوات، حضر أول دروسه الكثير من أعيان البلاط[4]، كما عهد إلى ابن خلدون كذلك بتدريس الفقه المالكي في المدرسة الظاهرية الكامنة في حي بين القصرين، ثم عين أستاذا للحديث في مدرسة **صرغتمش** التي بناها **سيف الدين صرغتمش** وجعلها وقفا[5].

ثم عهد إليه بإدارة الخانقاه البيبرسية وهي مؤسسة صوفية هامة[6]، و قد اعتبر ابن خلدون أنه على درجة كبيرة من المقدرة كمعلم وكأستاذ، فقد ترك في نفوس أولئك الذين حضروا دروسه أثرا حميدا، وقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وإنتفعوا بعلمه، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصري المعاصر، وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ الكبير، فهو يقول أنه إجتمع بابن خلدون مرارا وسمع من فوائده وتصانيفه خصوصا في التاريخ[7]،

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله، (ريادة فكرية بين مصر والمغرب)، مجلة التاريخ العربي، العدد 15، السنة (1421هـ/2000م)، الرباط، ص10-15.

[2] أنظر هذه المؤلفات: السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص100 وما بعدها. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص44 وما بعدها.

[3] ابن خلدون، التعريف، ص96–97. المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص364. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص146.

[4] ابن خلدون، المصدر السابق، ص108–113. محمد تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص280–285.

[5] ابن خلدون، المصدر السابق، ص115–121. محمد بن تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص294–310. ابن الفرات، ج9، قسم1، ص50. المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص403.

[6] ابن خلدون، المصدر السابق، ص109–122. تاويت الطنجي، المرجع السابق، ص275 وما بعدها، السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص146. السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص218. ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج7، ص77.

[7] السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص147–148. المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، و جمال الدين الشيال، ط2، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة 1940م، ص27.

وطلب من ابن خلدون أن يمنحه الإجازة العلمية التقليدية التي كان الظفر بها من أكابر العلماء والأساتذة شرفا يحرص عليه[1].

كما درس على ابن خلدون المؤرخ العلامة تقي الدين المقريزي الذي أعجب بغزير علمه، وروائع محاضراته، وطريف آرائه ونظرياته[2]، وقد تأثر المقريزي فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثرا كبيرا، وظهر هذا الأثر واضحا في كتابه **إغاثة الأمة بكشف الغمة**[3].

وهناك مؤرخ مصري آخر هو **أبو المحاسن بن تغري بردي** يشاطر شيخه المقريزي تقديره لابن خلدون، ويشيد بقدراته ونزاهته في ولاية القضاء[4].

كما يظهر أثر ابن خلدون أيضا في إعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه، والإقتباس من مقدمته وتاريخه، ومن هؤلاء **أبو العباس القلقشندي** صاحب كتاب **صبح الأعشى** فإنه يقتبس من ابن خلدون في مواضع شتى من موسوعته[5]، وبالرغم من أن ابن خلدون لم يستطع لظروف الخصومة التي نشبت بينه وبين المجتمع المصري يومئذ، أن ينشئ له بمصر مدرسة علمية حقيقية تقتفي مناهجه وأساليبه، فإنه مع ذلك قد ترك طابعه القوي في بعض نواحي التفكير المصري في تلك الفترة، ونستطيع أن نذكر على الأقل تقي الدين المقريزي وشمس الدين السخاوي، قد تأثرا كلاهما في بعض ما كتب، بنظريات ابن خلدون وأسلوبه في مقدمته[6].

فقد كان تأثر المقريزي بمنهج المقدمة شديدا وواضحا، و قد ظهر هذا الأثر واضحا في كتابه **إغاثة الأمة بكشف الغمة** في هذا الكتاب ينحو المقريزي في الشرح والتعليل منحى شيخه ابن خلدون في مقدمته فيقدم لرسالته بمقدمة موجزة من الماضي والحاضر، وملخص لما إجتازته مصر من محن الغلاء، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التي نشأت عنها هذه المحن، وفي هذا الفصل بالذات نرى منهج ابن خلدون في البحث

---

[1] محمد بن عبد الله عنان، ابن خلدون حياته و تراثه الفكري، ط2، طبعة مصر، ص27-101.

[2] نفس المرجع، ص104.

[3] المقريزي، إغاثة الأمة، ص17-29.

[4] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، ص53.

[5] القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص75.

[6] مجلة العربي، المرجع السابق، نفس العدد و التاريخ و الصفحة.

والتعليل واضحا، بل نرى المقريزي يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل: أحوال الوجــود وطبيعة العمران[1].

وفي رأي المقريزي أن أسباب الخراب والمحن ترجع أولا، إلــى توليــة الخطــط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، وإستيلاء الظلمة والجهلة عليها وثانيا إلــى غــلاء إيجار الأطيان، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد أي نفقات الإنتاج على الغلة وثالثــا إلى ذيوع النقد المنحط.

ويتناول المقريزي هذه الأسباب بالشرح، يقدم لنا تقسيما لطوائف المجتمع المصري، وهم في نظره سبع طوائف، أهل الدولة، أهل اليسار، الباعة أو متوسطو الحال، أهل الفلح أو الزراع، الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، أرباب المصالح والأجــر، وأصــحاب المهن، وذو الخصاصة والمسكنة، ويذكر لنا المقريزي أحوال كــل فريــق مــن هــؤلاء بالتفصيل[2]، ثم يتحدث عن أسعار عصره، ويختتم بشرح رأيه في معالجة هذه المحن وفي رأيه أنه يجب أن يغير نظام العملة، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضــة، وهي فكرة تثبيت النقد بعينها[3].

وهكذا ينحو المقريزي في الشرح والتعليل نحو أستاذه ونلمس أثر المؤرخ في منهج تلميذه، ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزي في رسالته هــذه وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعــن أثر المكوس في الدولة، وأثر الظلم وخراب العمران، وكيف يسري هذا الخلل إلى الدولة، وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدولة وسقوطها[4].

أما السخاوي فإنه بالرغم من خصومته لابن خلدون وبالرغم من حملته المضطرمة عليه، في ترجمته له في كتاب **الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع** قد تأثر كذلك فــي بعض مناحي تفكيره، بنظريات ابن خلدون، فنراه في كتابه **الإعــلان بــالتوبيخ لمــن ذم التاريخ** ويبدو واضحا فيما كتبه السخاوي في هذا الكتاب عن قيمة التاريخ، وأثــره فــي

---

[1] نفس المرجع، ص188.

[2] المرجع السابق وفي نفس المكان.

[3] المرجع السابق، ص188-189.

[4] نفس المرجع، ص189. عبد العزيز الضعيفي، (علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الإســتفادة والإفــادة نماذج من العصر المريني)، مجلة التاريخ العربي، العدد 29، سنة 2004م، الرباط، ص400-402.

دراسة أحوال الأمم فهو هنا يبدو متأثرا أشد التأثر بفكرة ابن خلدون الفلسفية فـــي شـــرح التاريخ وفهمه[1].

ولم تقتصر معارف العلماء المغاربة الوافدين إلى مصر والنازلين فيها، على العلوم الدينية واللغوية والتاريخية والإجتماعية، بل شملت علوما أخـــرى كالفلـــك، والكيميـــاء، والطب، والرياضيات، ومثل هؤلاء:

محمد بن ليل الزعفراني العارف بالخواص العجيبة وبالصنعة[2]، و**محمد بن مســـلم التونسي** المتعاطي لصناعة الكيمياء[3].

و**إسماعيل السوسي** الطبيب ذكره **العبدري** في رحلته أنه لما وصل إلى قاعدة الديار المصرية ونزل بمدرسة الظاهرية بعث إليه شيخه **شرف الدين الدمياطي** بـــالحكيم **أبـــي الظاهر إسماعيل** لعلاجه وهو فتى حدث السن رصيف العقل نافذ الفهم ما رأيت أحفظ منه للطب ولا أحسن منه تصرفا ولا أذكر لنصوص كتب **أبقراط** ولكن لا أدري هل هو من سوس أم من سوسة[4].

و**محمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني** وصفه في خلاصة الأثر بأنه فـــرد الدنيا في العلوم كلها ولد **بتاروادنـــت** حصلت له بعد التطواف على مصر والحجاز والشام الرياسة الكبرى التي لم يعهد مثلها لأحد وكان في الحكمة والمنطق والطبيعيات الأســـتاذ الذي تنال مرتبته بالإكتساب، وكان يتقن فنون الرياضة عند إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات ويعرف أنواع الحساب والمقابلة معرفة لا يشاركه فيها أحد، وكان في العلوم الغريبة كالرمل والحروف حاذقا أتم الحذق، وقد تنافس الناس فـــي إقتنـــاء الآلـــة التـــي إخترعها فكان يبيعها بثمن غال وقد ألف في وصفها، والآلة عبارة عن كـــرة مســـتديرة مسطرة ذات دوائر ورسوم وقد ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخـــاريم وتجاويف[5].

---

[1] نفسه، ص189.

[2] الفزي، الكواكب، ج1، ص70.

[3] المصدر السابق، ج3، ص74.

[4] الزركلي، المرجع السابق، ج3، ص264.

[5] نفس المرجع، ج4، ص334-350. القادري، نشر المثاني، ص87.

وساهم في تدريس مادة الحديث بالمدرسة الجمالية* بالقاهرة **محمد بن محمد المغربي** (ت821هـ/1417م) وسمع عليه كثيرون كان في مقدمتهم السخاوي الذي قال عنه: "وقد سمعت من فوائده كثيرا وشرح نخبة الفكر وكتب عنه شيخنا العراقي في وفياته..."[1]

وإشتغل معيدا، معاصره **عبد اللطيف أحمد الفاسي** (ت822هـ/1418م) في المدرسة الصلاحية ووصف أنه كان من المعيدين المتوفقين[2] واستطاع **أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي** (ت832هـ/1429م) أن يوفق في التدريس بين مدرستين بالقاهرة هما البيبرسية*.

حيث إشتغل فيها معيدا لمادة الحديث النبوي والمنكوتمرية* الذي إشتغل فيها مدرسا مستقلا[3]، كما كان من بين الذين زاولوا مهنة التدريس في المشرق من البجائيين **أحمد بن منصور الحميري** الذي ترجم له السخاوي، لكن ما يعاب على هذه الترجمة أنها كانت مختصرة، فهو لم يذكر تاريخ مولده ولا الشيوخ الذين درس عليهم، بل إكتفى بقوله أنه شارح الأجرمية وهو من بين شيوخه الذين أخذ عنهم بالقاهرة (ت837هـ/1433م)[4].

وقد اشتهر علي بن عمر المغربي المتوفى بالقاهرة سنة (ت844هـ/1440م) على صعيد التدريس الذي مارسه بالجامع الأزهر فدرس عليه الكبار والفضلاء حتى أن بعضهم كان يسميه وزير الطلبة وقد أهلته معارفه العلمية الغزيرة إلى تسلم مشيخة البيبرسية وتدريس مادة الفقه بالمدرسة الصلاحية وغيرها[5] ودرس **محمد بن محمد**

---

* الجمالية تقع بين حارة الفراخة و قصر الشوك أنشأها الوزير مغلطاي الجمالي (730هـ/1329م) و تعرف اليوم بزاوية الجمالي، المقريزي، الخطط التوفيقية، ج6، ص6.

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص74-75.

[2] الفاسي (تقي الدين)، المصدر السابق، ج5، ص482-483. السخاوي، المصدر السابق، ج4، ص322.

* البيبرسية هي خانقاه بناها ركن الدين بيبرس الجاشنكيري (707هـ/1306م) كانت من أجل خانقاهات القاهرة، السيوطي، حسن الحاضرة، ج2، ص265.

* المنكوتمرية بحارة السيارج وهي متخربة لم يبق منها شيء بناها الأمير سيف الدين منكومتر الحسامي (698هـ/1298م) و عمل بها درسا للحنفية، علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج6، ص15-16.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص332.

[4] علي أحمد، (التبادل الفكري بين المغرب والمشرق)، مجلة التراث العربي، العدد 41، السنة 11، سنة (1411هـ/1990م)، ص45 وما بعدها.

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص223 وما بعدها.

الزنوري (ت840هـ/1438م) مادتي الفقه والعربية على نطاق ضيق بالمدينة المنورة وأخذ عنه جماعة كان منهم أحمد بن عقيبة المغربي القفصي[1].

وبمدينة القاهرة درس عددا من المواد **أحمد بن محمد المغربي** (ت860هـ/1456م) وقيل عنه أنه لم يكن بالقاهرة من يدانيه في أسلوبه في إرشاد وحسن تعليم الطلبة المبتدئين هذا بالإضافة إلى تعليم الكبار بالجامع الأزهر وبعض المدارس الأخرى وكان يدرس الفقه والعربية والمنطق وقال السخاوي عنه: "و كنت ممن أخذ عنه العربية وغيرها بل أخذ عنه أخي أيضا وكان كثير الميل إلينا..."[2].

وشغل معاصره بالقاهرة أيضا **يحي بن عبد الرحمن العجيسي** (ت862هـ/1458م) شغل دورا متميزا في الحركة الفكرية والثقافية من خلال التدريس والتأليف فقد درس في عدد من مدارس القاهرة وجوامعها مثل الشيخونية وجامع ابن طولون والأشرفية والخروبية* وأخذ عنه كثيرون مثل ابن الهمام والسخاوي الذي ذكر بقوله: "و قد إجتمعت به وسمعت من فوائده ورأيت من تمقته الناس شيئا عجبا..."، أما في حقل التأليف فلم يكن مبدعا وكل ما عمله أن قام بشرح ألفية ابن مالك مرتين جاء أحد هذين الشرحين في أربعة مجلدات[3].

وظهر في عصرهما **محمد بن الزواوي** (ت864هـ/1460م) الذي قيل أنه لم يكن مثله بين المغاربة والأندلسيين في المشرق العربي خلال القرن (9هـ/15م) من حيث ثقافته الموسوعية التي كان يجيد إيصالها للطلبة.

واشتهر أمره في كل مصر والشام على حد سواء على أنه مدرس قدير كان يصعب على الطلبة الضعاف فهم ما يقول وكان يرفض أن ينزل إلى مستواهم على الرغم من طلبهم ذلك وقد كان يجيبهم أنكم ستفهمون بالتدريج لتصبحوا مثلي وقد قابله ووقف على علمه ومعرفته السخاوي فرأى منه في هذا الميدان ما لم يره من أحد فقال: "ثم حضرت درسه في فقه المالكية بجامع الأزهر سنة (852هـ/1448م) فظهر لي أني ما رأيت مثله ولا رأى مثل نفسه وأن من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا

---

[1] نفس المصدر، ج10، ص41-42.

[2] نفسه، ج2، ص180-181.

* الخروبية ظاهر مدينة القاهرة أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد الخروبي خلال الربع الأخير من القرن الثامن و لم يبق منها سوى ضريح شاهين المغربي، علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج6، ص7.

[3] السخاوي، المصدر السابق، ج10، ص231 وما بعدها.

رأى الناس ولا خرج إلى الوجود مثله" إلى أن يقول: "... سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعا من سماع مائة من غيره... وهو آية أبرزه الله في هذا العصر للعباد... لا يشبه كلامه في جزالته وجلالته إلا كلام العرب العرباء..." وأخذ عنه كثير من عرب ومسلمي المشرق، أشتهر معظمهم فيما بعد مثل عالم الحجاز البرهان **بن ظهيرة** و**ابن قاضي عجلون** بدمشق و**الكمال بن أبي شريف** ببيت المقدس و**الشريف البيجوري** بالقاهرة وكان مقر دروسه الرئيسي بالقبة المنصورية[1] وكان مثله في العطاء تقريبا **عبد الرحمن بن علي الأندلسي** المعروف **بابن الملقن** (ت870هـ/1466م) الذي دعم الحركة العلمية والثقافية بالقاهرة من خلال مناصبه الإدارية لمراكز العلم ومن خلال التدريس الذي مارسه أثناء وجوده كمدير ومشرف في أمكنة العلم القاهرية التي كان منها المدرسة السابقية* حيث تسلم مشيخة الفقه بها إضافة إلى مدرسة أم صالح ومشيخة الحديث بالمدرسة الكاملية وكان تلامذته كثيرون جدا من كبارهم السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع[2].

ويشبهه في مسألة تسلم مناصب إدارية لدور علمية بالقاهرة معاصره **أحمد بن كمال الدين القسنطيني** (ت873هـ/1469م) الذي تسلم مشيخة ورتبة قايتباي الجركسي وكان صغيرا عندما تولى التدريس فانتفع المتعلمون به أكثر من غيره وأسهم في التأليف من خلال شرح كتاب **الشفا** في كتاب لم يسبقه أحد إليه على ما يبدو وسماه **مزيل الخفا من ألفاظ الشفا** وشرح كتاب **الوقاية في مختصر الوقاية في فقه الحنفية** في عدة مجلدات سماه **كمال الدراية**[3] وصنف حاشية على المغني لخصها من حاشية الدماميني وزاد عليها أشياء نفيسة سماها **المنصف من الكلام على مغني ابن هشام** و شرح كتاب **الواقف والمقاصد في أصول الدين** وشرح **الكافية** في العربية وهي في غاية الجودة واعتبر أفضل

---

[1] نفس المصدر، ج3، ص180 وما بعدها. عبد الحميد حاجيات، (الحياة الفكرية بتلمسان في عصر بني زيان)، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 1975م، الجزائر.

* المدرسة السابقية تقع داخل درب قرمز من خط بين القصرين أنشأها الأمير سابق الدين مثقال الأندكدي (763هـ/1361م) و تعرف الآن بجامع قرمز، علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج6، ص7.

[2] السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص124. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص101-102.

[3] حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور، ج3، ص668. محمد محمود زيتون، (أعلام قسنطينة وعلاقاتهم الثقافية بالقاهرة والإسكندرية)، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والأعلام، الجزائر، العدد 18، السنة 3، عام (1393هـ/1973م)، ص55-60.

شرح لها وله **المختصر في المعاني والبيان** وأخذ عنهم عدد كبير من طلبة القاهرة كـان في مقدمتهم سيف الدين الخزندار[1] وجلال الدين السيوطي الذي قال عنه: "وهـو شـيخنا العلامة المحدث الأصولي المتكلم النحوي البياني إمام النحاة في زمانه وشيخ العلماء فـي أوانه شهد بنشر علومه العاكف والبادي، يرتوي من بحار علومه الظمآن والصادي وأمـا التفسير فبحره المحيط وكشاف دقائقه وأما الحديث فالرحلة في الروايـة والدرايـة إليـه والمعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته عليه وأما الفقه فلو رآه النعمان لأنعم بع عينـا أو رام مناظرته ولأنشد وأم الكلام فلو رآه الأشعري لقربه وقر به وعلم أنه نصـير الـدين ببراهينه وحججه المهذبة المرتبة وأم الأصول لا يقوم عنده بحجة وصـاحب المنهـاج لا يهتدي معه إلى حجه وأم المعاني فالصباح لا يظهر له نور عند هذا الصباح..."[2].

ودرس بالقاهرة **عبد العزيز يوسـف التونسـي** (ت879هـ/1475م) بالمدرسـة الباسطية وألف الكثير من الكتب أهمها فتح الباري وله كتاب يمكن إعتباره مـن الكتـب الجديدة في موضوعاتها والتي لم يسبقه إليها أحد من رفاقه المغاربة في هذه الفترة ويدور هذا الكتاب حول الشراب والخمرة وسماه **الحبور والسرور في وصف الخمور** ويستفاد من تعليق بعض العلماء عليه أنه صور الخمرة بشكل يكاد يكون قد حللها فـيه وأباحها ولـم يثن عليه أحد سوى السخاوي[3] واستفاد منه الطلبة في ميدان الفقـه والمعـاني والمنطـق والبيان التي درسها بالقاهرة بالمدرسة المنصورية وبالجامع الأزهر يحي بن أحمـد أبـو العباس (ت888هـ/1484م)[4].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك العدد من العلماء المغاربة، ومعظمهم أقام مدة طويلة في مصر، وقد يكون توفي فيها، عدد منهم أثنى بزيارة سريعة، ثم عادت منها إلى بلادهـا، وقد إغتنى فكرها بما رأت وسمعت وتناقشت بها مع علماء مصر[5]، وكان معظم أفراد تلك

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص174.

[2] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص313 وما بعدها.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص316 وما بعدها.

[4] نفس المصدر، ج8، ص257-258.

[5] الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص515-522.

الفئة الوافدة من العلماء المغاربة على المذهب المالكي، إلا أن قلة منهم إعتنقت المذهب الشافعي[1] أو الحنفي[2].

وقد يكون ذلك التبديل نتيجة الإحتكاك الفكري بالعلماء المصريين من أتباع تلك المذاهب، وتحت تأثير الوسط الإجتماعي، وفي الواقع إحتك العلماء المغاربة بالمصريين إحتكاكا لصيقا، وناقشوا معا كثيرا من القضايا الفقهية والفكرية والإجتماعية التي كانت تشغل الأذهان آنذاك، كإيمان المقلد مثلا[3]، والمعقول والمنقول في العلم[4]، وقضية شرب القهوة[5]، وشرب الدخان[6]، وقد حاول بعضهم النزول إلى مستوى العامة وبث أفكارهم في في التوحيد في قاعات المقاهي[7].

من خلال ما سبق يتبين بوضوح أن حب العلم بقي عاملا أساسيا يشد المغاربة إلى مصر، وبذلك تمثل الوجود المغربي فيها بجالية علم حقيقية، لا هدف لأغلبية أعضائها سوى المعرفة الخالصة، والدين الصحيح، ومع أنه من الصعب تحديد كتلتها، إلا أنه يمكن القول أنه كان لهذا الوجود العلمي أثره الظاهر والدفين في المجتمعين المصري والمغربي على السواء.

فقد بقي التواصل الفكري، واللغوي منه بالذات، و هو دعامة الوحدة الإجتماعية، بين المغرب الإسلامي ومصر، والفكر في كل من الطرفين خاضعا لرقابة الآخر ونقده، ومما لا يمكن إهماله البتة من نتائج الوجود المغربي المثقف في مصر، ذلك التواصل الخبري الذي حمله معه ذلك الوجود، فقد نقل أولئك المغاربة، أخبار المغرب الإسلامي إلى مصر، ومظاهر نشاطه وأحواله، إما عن طريقهم مباشرة حين وفودهم، أو عن طريق مراسلات ذويهم و أصدقائهم، وقد يكون النقل قد تم شفاها، وبذلك ضاع على الباحثين أو كتابة كما

---

[1] المحيي، المصدر السابق، ج3، ص66.

[2] الفزي، لطف السمر، ج3، ص74.

[3] نفس المصدر، ص82.

[4] المحيي، المصدر السابق، ج4، ص121.

[5] الفزي، الكواكب، ج3، ص22.

[6] نويهض، المرجع السابق، ص97-98.

[7] المجلة التاريخية، العدد7،8، جانفي 1977م، ص90.

فعل المقري في **نفح الطيب**، الذي وضعه تحت إلحاح أصدقائه المصريين بأخبار المغرب الإسلامي الأندلسي[1].

وقد كان تيار التواصل الخبري هذا آخذا ومعطيا، وله أثره الواضح في تأليف المؤرخين والأدباء المصريين، الذين ساقوا كثيرا من أخبار المغرب الإسلامي، وترجموا لبعض شخصياته، و تتبعوا أنباءه[2]، إن التأمل في تيار العلاقات بين المغرب الإسلامي ومصر يراه تيارا زاخرا حمل إلى مصر وجودا إقتصاديا ووجودا عسكريا[3].

إن الوجود المغربي حافظ على إستمرارية التغذية البشرية والفكرية المغربية المصرية الضرورية لحياة الوحدة الإجتماعية بين الطرفين، كما كان إمتدادا حافلا للتاريخ المغربي خارج حدوده التقليدية، وفي الوقت ذاته، جزء من تاريخ الوطن العربي، وهذا كله يجعل دراسة مصر والمشرق العربي منفصلة عن تاريخ المغرب الإسلامي مبتورة، وغير وافية بالغرض مهما حاول أصحابها إعطاءها الصبغة العلمية[4].

ومن العرض الموجز السابق لدور المغاربة في الحياة الثقافية المصرية، سواء الجانب التجديدي، ندرك أهمية هذا الدور وقد إستمرت مصر تستقبل المغاربة وتحتضنهم، وتبارك جهودهم، أما المغاربة فهم من جانبهم لم يبخلوا على مصر بما أفاءه الله عليهم من مواهب، ومن هنا إتسم دورهم بأنه دور ذو تأثر وتأثير، حيث كان دورهم الثقافي في تاريخ مصر أخذ وعطاء، والإعتزاز بالإرتباط التعليمي والثقافي مع المجتمع المصري الذي أعجب بهم ورضي عنهم، وقبلهم ضمن أسرته الثقافية والتعليمية[5].

وفي الحقيقة لم يبخل المصريون بشيء من علم أو معرفة على الرواد المغاربة فبرهنوا بذلك على أن العداء السياسي يبقى منفصلا دون أن يؤثر على أية ناحية من نواحي الفكر والثقافة خاصة وأن روابط مشتركة، هي روابط اللغة والإنتماء، والتاريخ

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج1، ص71.

[2] الخفاجي، المصدر السابق، ج1، ص362. خفاجي محمد عبد المنعم، الأزهر في ألف عام.

[3] محمد المنوني، ربط الصلات الثقافية بين المغرب وجهات من العالم الإسلامي، مجلة دعوة الحق، العدد 251، السنة 1985م، المغرب، ص25-30.

[4] المصدر السابق، ج1، ص363.

[5] الشيال (الدكتور جمال الدين)، تاريخ الترجمة و الحركة الثقافية في عصر محمد علي، ص179-180.

والدين، هذه الروابط جمعت بين المغاربة والمشارقة، وإستطاعت أن تعلو على الخلافات السياسية من حين لآخر[1].

إسم المدرس	مكان عمله و زمن إنتهائه	مرتبته	إسم المدينة التي عمل بها
زين الدين بن عبد السلام الزواوي	تربة أم صالح	مشيخة القراء فيها	دمشق
علي بن قاسم الإشبيلي	الجامع الكبير بحلب (605هـ/1208م)	مشيخة النحو والقرآن فيها	حلب
إسحاق بن أحمد المغربي	المدرسة الرواحية (650هـ/1252م)	معيد لإبن صالح	دمشق
محمد بن حسن الفاسي	مدارس حلب (650هـ/1252م)	رئاسة تدريس الإقراء	حلب
محمد بن أحمد المرسي	المدرسة العادلية (661هـ/1262م)	مشيخة المدرسة ككل	دمشق
محمد بن أحمد الشريشي	الرباط الناصري بالصالحية (685هـ/1286م)	مشيخة الرباط نفسه	دمشق
عبد الكريم بن علي الأندلسي	القبة المنصورية (704هـ/1304م)	مشيخة التفسير فيها	القاهرة
علي بن محمد الباجي	القبة المنصورية (714هـ/1314م)	معيد فيها	القاهرة
سعيد بن محمد الملياطي	الخانقاه السامرية (771هـ/1369م)	مشيخة الخانقاه	دمشق
محمد بن حسن المالقي	المدرسة النجيبية (771هـ/1369م)	مشيخة التدريس فيها	دمشق
قاسم بن محمد المغربي	الجامع الآزهر (799هـ/1396م)	معيد في زاوية المالكية	القاهرة

7- إسهامات المغاربة و الأندلسيين العسكرية في مصر و الشام

يكتسي الجهاد أهمية خاصة عند المغاربة والأندلسيين خاصة في الفترة التي شهدت حملات وحروب شنها الغرب المسيحي على البلاد الإسلامية، وقد استمرت هذه الحملات على مدى قرنين من الزمان، استطاعت أن تتمكن أوروبا من توطيد سيطرتها في العديد من المناطق الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وخاصة سواحل بلاد الشام والمناطق المجاورة لها، حيث تمكن الفرنجة من تأسيس ثلاث إمارات ومملكة بيت

[1] عبد العزيز الضعيفي، المرجع السابق، ص385. علي أحمد، التبادل الفكري بين المغرب والمشرق، المرجع السابق، ص150.

المقدس، وكان لهذه الأحداث أصداء في كل أنحاء العالم الإسلامي، وقد سجلت المصـــادر وجود مشاركة مغربية مكثفة في الجهاد ضد الصلبيين بصفة عامة، والجهاد البحري فـــي الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبالبحر الأحمر بصفة خاصة، فخلدت المصـــادر أسماء العديد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحروب وكانت لهم فيها أدوار بارزة فـــي صفوف القوات الإسلامية لرد الهجومات الصليبية على الأراضي العربية الإسلامية[1].

وقبل التعرض لإسهامات المغاربة والأندلسيين العســكرية إلـــى جانـــب إخـــوانهم المشارقة في مصر وبلاد الشام يجب علينا معرفة أسباب وجود المغاربة والأندلسيين فـــي بلاد المشرق العربي خاصة مصر والشام، إنطلاقا من المعلومات المتوفرة لدينا في كتب التراجم، حيث نستنتج أنه من الصعب تحديد تاريخ مدقق لتوافد المغاربة والأندلسيين على المشرق العربي بشكل عام على الرغم من ذكر بعض الرحالة والعلماء والتجار لتـــواريخ وأسباب رحلاتهم[2].

إن الوضع السياسي في المشرق والمغرب لم يلبث أن تغيـــر فـــي أواخـــر القـــرن (5هـ/11م)[3].

ففي المشرق قامت الحركة الصليبية التي تمثل هجوما أوروبيـــا إســـتعماريا علـــى المشرق العربي، وتكوين إمارات صليبية في شمال الشام والجزيرة ثم إنتزاع بيت المقدس وفلسطين من أيدي الفاطميين[4].

ومع ذلك ليس من العسير استنتاج أسباب وجودهم بالبلدان المشرقية وخاصـــة فـــي مصر والشام، وذلك باعتبار الظروف والتطورات التي طرأت علـــى الســـاحة السياســـية بالغرب الإسلامي، ففضلا على الرحلات العلمية والدينية، يمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يلي:

---

[1] عبد المجيد بهيني، (المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين)، مجلة التاريخ العربي، العدد 15.

[2] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص7–186.

Recueil des historiens des croisades (Historiens orientaux), tome 1, paris 1869, p38.

[3] رشيد عبد الله الجميلي، (العلاقات السياسية بين الأيوبيين والموحدين في المغرب الأقصى)، مجلة المـــؤرخ العربـــي، العدد 35، السنة 14، سنة 1988م، بغداد، ص35.

[4] سعد زغلول عبد الحميد، (العلاقات بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن)، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 26، السنة 1952م، مصر، ص75.

في المغرب و الأندلس

- فقد سقطت الخلافة الأموية بالأندلس وظهور ما يسمى في تاريخ هذه المنطقة بـــــ **دويلات ملوك الطوائف**، ونتائج ذلك على أوضاع الأندلسيين الاقتصـــادية والاجتماعيــة والنفسية[1].
- تعاقب أسر ذات مبادئ إيديولوجية وعقائدية مختلفة على حكم هذه المنطقـــة بعــد سقوط ملوك الطوائف تتمثل في: دولة المرابطين (485هــ-1092م/541هـــــ-1146م) ودولة الموحدين (541هــ-1146م/668هــ-1270م). هذا التبدل في الدول رافقه تبدل عقائدي، الأمر الذي أضر بمصالح فئة مهمة من الأندلسيين أصبحت معارضة للحكــــم، وتمخض عنه حروب شبه مستمرة بين الدول الحاكمة والمعارضين تسببت في اضطراب الأوضاع بالأندلس، مما دفع بالكثير إلى الهجرة إلى أقطار أخرى[2].
- ما تمخض عن حروب الإستردادات التـــي انتهـــت بشـــكل نهـــائي فـــي حـــدود (659هــ/1261م) بإستثناء غرناطة (1492م) من إجراءات قاسية فرضت على كل من آثر البقاء من العرب المسلمين في مدنهم شروطا بلغت حدا من الإهانة، مما أجبر أعدادا كبيرة من الأندلسيين على النزوح عن أرضهم إلى أقطار عربية إسلامية[3].
- نقل مركز حكم الدولة الفاطمية إلى مصر، وآثار ذلك علـــى النـــواحي السياســـية والاقتصادية والاجتماعية لمنطقة بلاد المغرب (فقدان إفريقية لمكانتها الاقتصادية نتيجـــة اهتمام الفاطميين بالمشرق –التنافس في أمور التبذير بين الولاة الذين تركهم الفـــاطميون في المهدية و بين أسيادهم في القاهرة، ...إلخ)[4].
- دخول قبائل بني هلال وبني سليم إلى إفريقية، وما نتج عن ذلك من خراب وتدمير أوقع البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب الدائمين.

---

[1] أحمد بن عبود، (التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا)، مجلة البحث العلمي، العدد 34، السنة 1984م، ص45. ابن عبد الله، عبد العزيز، (البحرية المغربية والقرصنة)، مجلة تطوان، العددان 3-4 لسنتي (1958-1959م)، الرباط، المغرب، ص27 وما بعدها.

[2] أحمد بدر، (المجتمع الأندلسي والمجتمع الإسباني)، مجلة دراسات تاريخية، العدد 15-16، الســـنة 1984م، جامعـــة دمشق، سوريا، ص37.

[3] علي أحمد، المرجع السابق، ص90.

[4] محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلســـي فـــي العصـــر المرينـــي، ط1، دار القلـــم، الكويـــت (1408هــ/1985م)، ص205-209.

- الهجوم النورماندي على إفريقية، واستيلاء ملوك صقلية المسيحيين على المهدية وكل المناطق الساحلية.
- بداية تفوق أوروبا في الملاحة وانعكاس ذلك على الأحوال الاقتصادية.
- قيام الدولة الموحدية وما ترتب عليه من مضايقة أنصار النظام السابق.

صحيح أن هذه المعطيات التاريخية تلقي الضوء على أسباب وجود المغاربة بمناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وتساعد على فهم الإطار العام لهجرتهم ونزوحهم، لكن هنالك أيضا نصوصا مباشرة ومعاصرة لفترة موضوعنا تمكننا من فهم أسباب هذا الوجود. فهذا أسامة بن منقذ يذكر أن الفرنجة إستولوا، في حدود منتصف (6هـ/12م)، على مركب كان يقل على متنه حوالي أربعمائة شخص بين رجال ونساء من الحجاج المغاربة وأن المشارقة أولياء الأمور، ومن بينهم أسامة نفسه، عملوا كل ما في وسعهم من أجل إفتدائهم من أيدي الفرنجة[1].

ويخبرنا أبو شامة عن مغاربة أندلسيين قدموا إلى دمشق في سنة (627هـ/1229م) بعدما تم إفتكاكهم على ساحل الشام من أيدي الفرنجة[2].

ويفترض **كلود كاهن (Claude Cahen)** ثلاثة أصول محتملة لوجود المغاربة بالبلاد المشرقية حجاج ألقى عليهم الفرنجة القبض في طريقهم إلى الحج، أو كان قد طال مقامهم من أجل المشاركة في الجهاد فأسروا، وتجار كان لهم المصير نفسه أو تجار وحجاج أسرهم في البحر القراصنة الصليبيون وباعوهم على سواحل بلاد الشام، هذه الإحتمالات تنسجم مع ما جاء في الإشارات الآنفة الذكر بالرغم من أن كاهن (Cahen) يقر بعدم وجود أمثلة ملموسة تسمح بإعتماد فرضية محددة لتفسير هذا الوجود[3].

---

[1] أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، تحقيق: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، ص81.

[2] أنظر: أدناه، يتحدث أبو شامة أيضا في حالة هجرة الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله الضرير الأندلسي الإشبيلي الذي "ورد من الأندلس في سنة إحدى و عشرين و ستمائة في البحر، فأسرته الفرنجة ثم نجاه الله منهم... سكن دمشق..." حيث توفي (648هـ/1250م) (تراجم رجال القرنين، ص186).

[3] Claude Cahen, Ibn Jobayr et les Maghrébins de Syrie, r,o,o,m, n° 13-14, 1973, pp208.
كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995، ص176.

على أن من بواعث توافد المغاربة على المشرق، يمكن أن نذكر الرغبة الملحة في المشاركة في الجهاد وتحرير المدن الإسلامية التي سيطر عليها الصليبيون عموما، وبيت المقدس على الخصوص[1].

بعد هذا الجرد للظروف والتطورات التي أسهمت في هجرة المغاربة ونزوحهم من المغرب الإسلامي، فقد كان للموقع الجغرافي و لطبيعة المغرب الإسلامي دور بارز في تمرس المغاربة بأمور البحر. وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عندما قال: "والساكنون بسيف هذا البحر (البحر الأبيض المتوسط) وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه من أمم البحار. فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله. ولما أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية، والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة... وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة وبيعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقا فيه معروفة في القديم والحديث[2]".

هذا التمرس، وما ترتب عليه من شهرة بحرية للمغاربة، أشادت به المصادر التاريخية وكتب الرحلة ليس في المغرب الإسلامي فقط، ولكن في المشرق كذلك فيذكر المقريزي مثلا أن فقراء المغاربة الذين وجدوا في القاهرة قد أكرههم الفاطميون على الخدمة، دون تمييز، في الأسطول المصري[3] لكونهم يتمتعون بسمعة حميدة، وأيضا لشهرتهم في ميدان البحر، ويتعلق الأمر هنا بأهل إفريقية على الخصوص[4]. أما ابن سعيد المغربي، فقد ذكر أن الأساطيل كانت وقفا على المغاربة لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر[5].

---

[1] ابن جبير، المصدر السابق، ص247. فاطمة بلهواري، (الشام في رحلة ابن جبير الكناني)، مجلة التراث العربي، العدد 109، السنة 28، سنة (1429هـ/2008م)، ص27.

[2] ابن خلدون، المقدمة، ص199.

[3] المقريزي، المواعظ و الإعتبار، ج1، ص368.

[4] جواتياين، دراسات في التاريخ و النظم الإسلامية تعريب وتحقيق: عطية القوصي، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت 1980م، ص245.

[5] المقري، المصدر السابق، ج3، ص111.

كما أن الأشد من البحريين في العصر الفاطمي كانوا مغاربة عرفوا بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ وقت مبكر[1].

واستخدم صلاح الدين الأيوبي من جهته الملاحين المغاربة في أساطيله في إطار قيامه بالإصلاحات التي استهدفت تقوية الأسطول المصري[2] الذي لم يكن قادرا في نهاية حكم الدولة الفاطمية على التصدي للأسطول الإيطالي أو إلحاق الهزيمة به[3].

أما بخصوص إهتمام صلاح الدين بالملاحين المغاربة، أورد العماد الكاتب الأصفهاني (ت597هـ/1200م) إشارة على قدر كبير من الأهمية تفيدنا في فهم الدور الذي أتاه هؤلاء على الصعيد العسكري بصفتهم مقاتلين أشداء مفاد هذه الإشارة أنه أثناء حصار الجيوش الإسلامية لمدينة عكا سنة (587هـ/1191م)، جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي، فقدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهداية فاستقبل الأسير بحفاوة وتقدير[4].

فمن غير المستبعد أن يتعلق الأمر هنا بالرايس عبد السلام المغربي الذي أسره أثناء حصار قوات صلاح الدين لصور في (583هـ/1187م)، و الذي ذاع صيته في مجال الجهاد البحري كما سنرى كل ذلك يدل على مدى إعجاب صلاح الدين بالمغاربة وتقدير جهودهم في الحرب ضد أعدائه، فهذا الاستقبال له دلالة عميقة ليس عند صلاح الدين فقط، ولكن أيضا عند الفرنجة الذين لم يكونوا على ما يبدو غافلين عن هذه المكانة التي يحتلها المغاربة في نفوس حكام الشام ومصر خلال هذه الفترة[5].

ومما يؤكد هذا الطرح عند أبي شامة خلال تعرضه لأحداث (627هـ/1229م)، حيث يقول: "وجاء الخبر بأن الفرنج –خذلهم الله – استولوا على جزيرة ميورقة وقتلوا خلقا كثيرا، وأسروا كذلك وقدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم"[6]. وهذا يدل على أن هذه المكانة استمرت

---

[1] أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص130.

[2] المقريزي، السلوك، ج1، ص45.

[3] كلود كاهين، المرجع السابق، ص117.

[4] إشارة للعماد الأصفهاني أوردها علي أحمد، المرجع السابق، ص304.

[5] علي أحمد، (مساهمات الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية في مصر والشام)، مجلة التراث العربي، العدد 67، السنة 17، عام 1997م، سوريا، دمشق، ص75 وما بعدها.

[6] أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص159.

إلى ما بعد فترة حكم صلاح الدين، كما لا يستبعد أن تكون الوظائف العالية التي نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها مكافأة لهم على خدماتهم ورغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه[1].

ويمكن أن نلمس أثر هذا الاهتمام في إجراءات ومواقف صلاح الدين من الغرباء المغاربة، حيث يذكر ابن جبير أنه جعل المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس بن طولون "مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر"[2] بل أكثر من ذلك جعل أحكامهم إليهم، و لم يجعل يدا لأحد عليهم، حيث قدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده[3].

وكما كان الحال عليه زمن الفاطميين الأواخر والزنكيين والأيوبيين، فإن الأمر لم يتبدل في عهد المماليك حيث يذكر النويري السكندري أنهم (المغاربة) أصبحت لهم مكانة خاصة في عصر المماليك البحرية و أن **يلبغا الخاصكي** (ت768هـ/1366م) كان يقدرهم قدرهم، ويعتبرهم فرسان البحر[4]، كما كان يكثر من قياد المغاربة على المراكب ويلخص النويري سبب إعتماد المماليك على البحارة المغاربة[5] بقوله إن الفرنج: "ليس يقهرهم سوى المغاربة، ذلك لمخالطتهم بجزيرة الأندلس، ويعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر. فلو كان منهم بالإسكندرية من المغاربة جمعا كبيرا وغربان[6] مجهزة بعددها وأزوادها، كانوا يخربوا جزرا كثيرة، وسارت الفرنج معهم في جزيرة[7]".

وخلدت المصادر التاريخية أسماء العديد من المغاربة الذين شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين ليس خلال الحروب البرية التي جمعتهم بالمسلمين على الأراضي المصرية أو

[1] أحمد بدر، (الأندلسيون والمغاربة في القدس)، مجلة أوراق، العدد 4، السنة 1981م، المعهد الإسباني العربي للثقافة، ص125 وما بعدها.

[2] إبن جبير، المصدر السابق، ص25.

[3] نفس المصدر السابق، ص25.

[4] أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص130.

[5] معلقا بذلك على الدور البارز للرايس إبراهيم التازي، رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، في التصدي وغزو القبارصة عقر ديارهم، أنظر أدناه.

[6] مفردها غراب و هو نوع من المراكب.

[7] نص للنويري أورده أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص130.

الشامية فقط[1] بل كذلك في الجهاد البحري بسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية وبالبحر الأحمر.

لم يكن المغاربة نزلاء البلاد المشرقية التي عانت من ويلات الحملات الصليبية ليبقوا مكتوفي الأيدي أمام تطور الأحداث، بل شاركوا بشكل مكثف في المعارك التي خاضها المسلمون ضد الغزاة ولم تكن هذه المشاركة على صورة واحدة إذ فضلا عن الإشتراك المباشر في القتال هناك من قدم المال لتجهيز المقاتلين[2].

أول إشارة أوردتها المصادر بخصوص جهاد المغاربة البحري على عهد الحروب الصليبية –حسب علمنا– جاءت في رسالة للقاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد يبشره فيها بفتح حصن الأحزان[3] وتخريبه عام (574هـ/1178م)، حيث يذكره فيها بالإنتصار الذي حققه الأسطول المصري على الصليبيين بعكا، وبالبلاء الحسن الذي أبلاه المغاربة المعروفون، عندما ضيق الفرنجة الخناق على عكا[4]. هذه العبارة التي جاءت في نص الرسالة تصريح واضح وشهادة بالدور الذي لعبه المغاربة في هذه المواجهة واعتراف باشتهارهم بحرب النصارى سواء بالغرب الإسلامي حيث كانوا مجاورين لهم، أو بالمشرق حيث لم يكن الأسطول المصري يستغني عنهم.

---

[1] تزخر المصادر المغربية و المشرقية على السواء بالعديد من الإشارات التي تخص إشتراك المتطوعين المغاربة في جيش نور الدين محمود بن زنكي و في جيش صلاح الدين الأيوبي في حروبهما البرية ضد الصليبيين. راجع في هذا الصدد إبن جبير، المصدر السابق، ص247–253. و إبن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة و تصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1407هـ/1987م)، المجلد9، ص353. و إبن الزبير، صلة الصلة، نشر بروفنسال، الرباط 1938م، ص218.

[2] يمكن استنتاج ذلك من نص المسألة التي أنشاها، بامر من صلاح الدين الأيوبي، القاضي الفاضل البيساني، و أرسلها إلى يعقوب المنصور الموحدي يستنجده فيها على الفرنج إبان حصارهم لعكا (586هـ/1190م)، حيث يقول: "... كان دون الأسطول موانع إما من قلة عدة أو من شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ولا سبيلها مسدودة ولا أنواعها محصورة، تكون تارة للرجال وتارة بالمال" أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص171.

[3] كان على المسلمين من هذا الحصن ضرر عظيم، و كان هذا الحصن لفرقة الداوية (و هي منظمة دينية عسكرية أخذت على عاتقها حماية الحجاج المسيحيين و الدفاع عنهم و عن الأرض المقدسة)، و كان من فيه يقطعون الطرقات على قوافل المسلمين. (أبو شامة، كتاب الوضتين، ج2، ص8) يتعلق الأمر بالوزير ظهير الدين أبو بكر منصور بن أبي القاسم نصر بن العطار وزير الخليفة العباسي المستضئ (ت575هـ/1179م).

[4] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص14.

ويظهر أن البحريين المغاربة شاركوا إلى جانب حسام الدين لؤلؤ، قائد الأسطول المصري سنة (583هـ/1187م)، في تضييق الخناق على الصلبيين في بيت المقدس. وكانت مهمة الأسطول تتمثل في قطع الطريق على الغمدادت الفرنجية حيث كانوا "كلما رأوا لهم مركبا، غنموه، وشانيا، أخذوه"[1]، وقد إنتهى هذا الحصار باسترجاع القوات الإسلامية لبيت المقدس[2].

وقد تولى أعلى المراتب في التنظيمات البحرية بمصر، حيث يتحدث كل من ابن الأثير وأبي شامة عن المدعو **عبد السلام المغربي** الذي كان رئيسا للأسطول، وهي مهمة ومسؤولية خطيرة تتمثل في تدبير أمر جرية الأسطول بالريح أو بالمجاديف وأمر بإرسائه في مرفئه[3]. وكان عبد السلام المغربي هذا موصوفا –في نظر ابن الأثير– بالحذق في صناعته وشجاعته[4]. فقد اشتهر بمواجهة الصليبيين على سواحل مصر وبلاد الشام وظهر دوره جليا في الجهاد البحري أثناء حصار صلاح الدين لمدينة صور في سنة (583هـ/1187م).

على أن من الأحداث التي لها علاقة بالتاريخ البحري للبحر الأبيض المتوسط عموما، وبالجهاد البحري على الخصوص، الرسالة التي وجهها صلاح الدين الأيوبي إلى يعقوب المنصور الوحدي سنة (586هـ/1190م)، طالبا مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الكفرة –كما يقول ابن خلدون– و بين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام (الصليبيين)[5].

وسواء حصلت الإستجابة أم لم تحصل، فإن تلك الرسالة تكشف عن ضعف الأسطول المصري عن مجابهة الأساطيل الإفرنجية، وعن سمعة الأساطيل التي كان المغرب يتوفر عليها على عهد الدولة الموحدية. وقد لاحظ ابن خلدون ذلك حين ذلك حين

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، مجلد10، ص154.

[2] أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ أحمد فكري، سنة 1976م، مصر، ص83 وما بعدها.

[3] نفس المصدر، ص160. أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص119. بخصوص التنظيمات البحرية، راجع: ابن خلدون، المقدمة، مبحث قيادة الأساطيل، ص199–200.

[4] ابن الأثير، المصدر السابق، مجلد10، ص160.

[5] ابن خلدون، المصدر السابق، ص202. أنظر: نص الرسالة في الروضتين، ج2، ص170–171. و يتعلق الأمر هنا بالحملة الصليبية الثالثة..

قال في معرض حديثه عن هذه الرسالة: "وفي دليل علـــى إختصـــاص ملـــك المغــرب بالأساطيل"[1].

وتشير المصادر كذلك إلى أن المغاربة شاركوا إخوانهم بمصر في التصـــدي لمـــا عرف في التاريخ بـــ "حملة البحر الأحمر" في سنة (578هـــ/1182م)[2]، ذلك بأن أحـــد القادة الصليبيين يدعى **رينو الشاتيوني (Renaud de Chatillon)**، صاحب حصن الكرك (جنوبي فلسطين)، والمعروف في المصادر الإسلامية باسم "أرناط" حيث جهـــز مراكـــب وشحنها بالرجال وآلات القتال، ومضى بها "نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار وشـــرعوا في القتل والنهب والأسر، ثم توجهوا على أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الخلاص فعظم البلاء... وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على الخطر"[3]، ويرى ابن جبيـــر" أنهـــم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول وإخراجه من الضريح المقدس"[4]، فلمـــا وصـــل الخبر إلى مصر، أمر الملك العادل (أخو صالح الدين و نائبه بمصر) الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فعمر المراكب "بالرجال البحرية ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية"، مـــع أنجاد من المغاربة البحريين[5].

وسار إلى أيلة، فظفر بالمركب الفرنجي عندها، فخرق السفينة وأخذ جندها، ثم إنتقل إلى عيذاب و شاهد بأهلها العذاب و دل على مراكب العدو فتبها فوقع بها بعد أيام فـــأوقع بها و واقعها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم... وعاد على القـــاهرة ومعه الأسارى. فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقـــى مـــنهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف[6].

إن أهمية مشاركة المغاربة في هذه الحملة تكمن في الحملة نفسها، لأنها تعتبـــر أول تدخل إفرنجي في هذا البحر، وتزداد هذه الأهمية إذا ما اعتبرنا البعد الديني للحملة ومـــن خلال شرف التصدي لحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وهو شـــرف سينضـــاف إلـــى

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ص202.

[2] سالم، السيد عبد العزيز، (سياسة صلاح الدين الدفاعية عن مصر في البر والبحر ضد قوى الصليبيين)، مجلة التراث العربي، العدد 25-26، السنة 7، عام (1986-1987م)، دمشق، ص115 وما بعدها.

[3] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص35.

[4] ابن جبير، المصدر السابق، ص32.

[5] نفس المصدر، ص32.

[6] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص35-36.

مشاركتهم في حصار الصليبيين ببيت المقدس في سنة (583هـ/1187م) كما رأينا[1].

هكذا كانت الأمة العربية الإسلامية تمثل وحدة تاريخية، و لأن حتمية الإتصال بين الشعوب الإسلامية، وما يجرى بينها من تبادل وتداخل وترابط، كانت تحول دون الانفصال السياسي، بل كانت لا تعترف به في الواقع. والشواهد على ذلك كثيرة في مختلف المجالات، ولكننا نقتصر منها على ما يتعلق بالجانب العسكري فقط، ولدينا من النصوص ما يفيد بوجود مثل هذا التعاون المشترك على الصعيد الشعبي بين هاتين الدولتين ضد الخطر الصليبي في الشام ومصر[2].

مثال ذلك ما يرويه ابن الأثير من أنه في سنة (499هـ/1105م)، ورد إلى بغداد أمير من الملثمين أي المرابطين ملوك المغرب قاصدا دار الخلافة، فأكرم وكان معه إنسان يقال له الفقيه من الملثمين أيضا، فوعظ الفقيه في جامع القصر، و اجتمع له العالم القدير. وكان يعظ وهو ملتثم، لا يظهر منه غير عينيه. وكان هذا الملثم قد حضر مع أفضل أمير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاء حسنا. وكان سبب مجيئه إلى بغداد أن المغاربة كانوا يعتقدون في العساويين أصحاب مصر الفاطميين الإعتقاد القبيح فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر. وكان أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه... فلما ولي ابنه الأفضل، أحسن إليهم واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج. وكان هذا الملثم، من جملة من قاتل معه، فلما خالط

---

[1] حيث يتحدث النويري عن مجاهد مغربي عرض على الأمير سيف الدين الإكز (أحد نواب السلطنة) سلاحا جديدا سهل على المسلمين مهمة مقاتلة الإفرنج في البحر. عن هذا السلاح و طريقة صنعه و إستعماله، راجع: احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص324، و أيضا: عبد الحميد بهيني، المرجع السابق، ص147. ويتحدث المصدر نفسه عن مغربي جمع بين الإسهام بصفة شخصية و فعالة في الجهاد البحري ضد القبارصة (رجب769هـ/1367م) المغيرين على الإسكندرية بزعامة ملكهم بطرس لوسينيان (Lusignan) و في ردع محاولة الأسطول القبرصي الثانية لغزو مدينة الإسكندرية (770هـ/1368م)، و بين شغل منصب رياسة دار الصناعة بالإسكندرية. و يتعلق الامر بالقائد البحري الرايس إبراهيم التازي الذي أشادت المصادر ببطولاته في غزو القبارصة. النويري، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام، ص130-327-328. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، المجلد7، ص220. عبد المجيد بهيني، المرجع السابق، ص148.

[2] سيدة إسماعيل كاشف، صلاح الدين الأيوبي بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله، عالم الكتب، بيروت 1986م، ص25.

المصريين، خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد ثم عاد إلى دمشق. ولم يكــن للمصــريين حرب الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدا، وكان شجاعا فتاكا مقداما"[1].

هذا النص يدل على أن العداء بين الدولتين الفاطمية والمرابطية لم يحل دون وجــود بعض المتطوعين من كبار رجال المغاربة الذين شاركوا إخوانهم المشــارقة فــي جهــاد الصليبيين في الشام ومصر على أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا للأســف إذ عجــزت عن مجابهة الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها، فسقطت في النصــف الأول مــن القرن (6هــ/12م)، وقامت على أنقاضها دولة مجاهدة أخرى وهي دولة الموحدين علــى يد مؤسسها المهدي بن تومرت[2].

وتختلف هذه الدولة الجديدة عن سابقتها في أن لها أهدافا توسعية إصــلاحية، كمــا أقامت لنفسها خلافة دينية خاصة، حاولت باسمها توحيد العالم الإسلامي تحت سلطانهــا، وتخليص بيت المقدس والشام والأندلس من المستعمر الصليبي[3].

وقام بتنفيذ هذه السياسة التوسعية خلفاء، الموحدين الأوائل أمثال عبد المــؤمن بــن علي وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. ولقيت سياسة الموحدين إستجابة وتأييدا شعبيا كبيرا في المغرب والمشرق خصوصا بعد أن فتحــت البــاب علــى مصــراعيه أمــام المتطوعين من المغاربة للسفر إلى مصر والشام ومشاركة إخوانهم المشارقة فــي جهــاد الصليبيين برا وبحرا[4].

ولقد واكبت هذه الصحوة المغربية، صحوة أخرى مماثلة في المشرق، قادها رجــال أقوياء أمثال عماد الدين زنكى، وابنه نور الدين محمود، وقواده نجم الدين أيــوب وأســد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي الذي تم على يديه سقوط الدولة الفاطمية في مصر، وقد رحب هؤلاء القادة المشارقة بجميع المجاهدين الوافدين من المغرب واستعانوا بهم في جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية[5].

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص414.

[2] إبراهيم محمد حسين الجمل، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قاهر الصليبيين في الغرب وموحد المغرب والأندلس، مطبوعات الشعب، القاهرة 1976م، ص120.

[3] عز الدين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، دار الشروق، ســنة (1403هــــ/1983م)، ص75 وما بعدها.

[4] رشيد عبد الله الجميلي، المرجع السابق، ص25.

[5] سعد زغلول عبد الحميد، العلاقات بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب، المرجع السابق، ص35.

وهنا يظهر دور المغاربة بوضوح في جهاد الصليبيين سواء في مصر أو الشام، ونجد في هذا الصدد مادة خصبة في كتب التراجم والرحلات التي تصف أعمالهم وبطولاتهم، ونذكر أسماء من استشهد منهم ودفن هناك في فلسطين. وحسبنا أن نشير بصفة خاصة إلى الرحالة الأندلسي ابن جبير[1] الذي زار الشام ومصر ومات بالإسكندرية في أوائل القرن (7هـ/13م) مما جعل بعض المستشرقين يعتقد أن مقامه هو مقام سيدي جابر، وأن اسمه حرف من جبير إلى جابر[2].

وكيفما كان الأمر، فإن هذا الرحالة المغربي أعطانا معلومات قيمة عن نشاط المجاهدين المغاربة في الحروب الصليبية، فيشير مثلا إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الصليبيون في الشام على التجار المغاربة فقط دون سائر تجار المسلمين، والسبب في ذلك يرجع إلى أن طائفة من أنجاد المغاربة حاربوا مع السلطان نور الدين محمود زنكي، واستولوا على أحد الحصون الصليبية بعد أن أبدوا شجاعة نادرة كانت مضربا للأمثال فجازاهم الإفرنج على ذلك بأن فرضوا على كل تاجر مغربي يمر بمستعمراتهم في الشام دينارا إضافيا دونا عن سائر تجار المسلمين كعقاب لهم على شجاعتهم. كذلك يشير ابن جبير إلى اهتمام ملوك المسلمين وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة لبعدهم عن بلادهم، هذا إلى جانب الأوقاف الكثيرة التي خصصت للمقيمين من المغاربة في الشام[3].

أما العماد الأصفهاني، كاتب صلاح الدين، فإنه يشير إلى شخصية مغربية جليلة صاحبت صلاح الدين في جهاده للصليبين. وهي شخصية الأمير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس الذي كان جده تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي أحد ملوك الدولة الزيرية في إفريقية. ويضيف العماد أن هذا الأمير المغربي أخبره بأن صلاح الدين لما مرض مرضه الشديد سنة (582هـ/1186م) نذر إذا أبل من مرضه بألا يقاتل من المسلمين أحدا، وأن يكرس جهاده ضد الصليبيين، و أنه إذا انتصر وظفر بالبرنس أرناط

---

[1] هو أبو الحسن بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي وصف رحلته في كتابه المسمى **تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار** و قد نشر عدة مرات تحت اسم رحلة ابن جبير، و قد تحول في آخر رحلة قام بها إلى الإسكندرية حيث أقام يحدث بها إلى أن توفى و دفن بها (614هـ/1217م).

[2] عبد المجيد بهيني، المرجع السابق، ص42 وما بعدها.

[3] عمر عبد السلام تدمري، (المغاربة في ساحل الشام تاريخهم السياسي والحضاري في العصر الفاطمي)، مجلة التاريخ العربي، العدد 2، سنة 1997م، المغرب، ص75 وما بعدها.

صاحب الكرك Renaud de Chatillon تقرب إلى الله بإراقة دمه. فلما شفى صلاح الدين وتحقق له النصر على أرناط وأسره في حطين، بر بنذره فكان هذا هو السبب في إراقة دم البرنس أرناط[1].

هذه الرواية مهمة لأنها تختلف عن الرواية الأخرى الشائعة التي تقول بأن سبب مقتل أرناط هو استيلاؤه على قافلة مصرية كبيرة كانت في طريقها إلى دمشق، فأقسم صلاح الدين بأن ينتقم منه و أن يقتله بيده.

وهكذا نرى مما تقدم أن هناك عددا كبيرا من المغاربة قد جاهدوا الصليبيين في الشام بغية تخليص الأراضي المقدسة من أيديهم[2].

ولعله من المفيد في هذا الصدد أن نشير إلى تلك الروايات الشعبية التي جعلت من خلفاء الموحدين من المغرب رمزا للجهاد والتضحية وأن خلاص بيت المقدس سيتم على أيديهم.

الرواية الأولى وردت على لسان أحد دعاة المهدي بن تومرت في الشرق ويرويها المؤرخ الفاسي أبو الحسن علي بن القطان (ت628هـ/1230م) في كتابه نظم الجمان في أخبار الزمان، يقول: "دخلت في أرض القدس رباطا يعمره رهبان الروم، فرأيت فيه رخامة بيضاء، قد نقش في سطحها الظاهر منها أحد عشر سطرا، على كل سطر منها إسمان، إلا السطر الأوسط، فعليه إسم واحد وهو إسم الإمام المهدي وحده، وعلى السطر السابع، إسم الخليفة الآخذ عنه حياته، المسمى عبد المؤمن ابن علي القيسي"[3].

هذه الرواية السالفة تصور إسم إمام الموحدين، و إسم خليفته من بعده. منقوشا في القدس المحتلة، في وقت كانت فيه دولة الموحدين في بداية نشأتها في أقصى المغرب وبعيدة كل البعد عن القدس. فلا شك أنها تعبر عن الأمل المعقود على وصول الموحدين إلى فلسطين لتخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين[4].

---

1 راجع: أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص80.

2 علي أحمد، (رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن 6 حتى نهاية القرن 9 هـ "12-15م")، مجلة دراسات تاريخية، العددان 27-28، السنة 2، عام 1987م، ص195-205.

3 ابن القطان، نظم الجمان في أخبار الزمان، نشر: محمود على مكي، ص69.

4 عبد الهادي التازي، (رسالة المنصور الذهبي لأحد أقطاب الشرق)، مجلة دعوة الحق، العددان 98-99، سنة 1967م، المملكة المغربية، الرباط، ص34 وما بعدها.

أما الرواية الثانية، فيرويها المؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة (665هـ/1268م) في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، فيقول: "قال ابن طى، حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وستين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا، فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم وكأني بأرض غريبة لا أعرفها وكأنها مملؤة بالخنازير، وكان رجلا في يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى ابن مريم ؟ هذا المهدي؟ قال لا، فقلت: من هذا ؟ قال: هذا يوسف، وما زادني على ذلك، قال فتعجب الجماعة من هذه الرؤية، وقالوا أنه سيقاتل النصارى رجل يقال له يوسف وحدثت الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب. قال: ونسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف هو الملك الناصر يوسف صلاح الدين[1].

هذه القصة تبين بجلاء أن تفكير الناس في المشرق حول المخلص المنتظر لبيت المقدس، كان متجها إلى خليفة المغرب والأندلس في ذلك الوقت يوسف بن عبد المؤمن، ولم يفكروا في الملك الناصر يوسف صلاح الدين لأنه كان في بداية ولايته على مصر ولم يكن اسمه قد اشتهر بعد في ذلك الوقت[2].

أما القصة الثالثة، فيرويها المؤرخ الأربلي أبو العباس أحمد بن خلكان (681هـ/1282م) في كتابه **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان** حيث أشار إلى أن خليفة الموحدين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، لم يمت بأرض المغرب، و إنما مات في فلسطين بعد أن ترك ملكه وبلاده ورحل إلى الأراضي المقدسة لجهاد الصليبيين. بل ويذهب ابن خلكان إلى أنه رأى في البقاع قبرا بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين، وأن الناس هناك يؤكدون على أنه قبر يعقوب ملك المغرب[3].

ولا شك أن هذه القصة لا تدخل إلا في نطاق الأساطير الشعبية، إذ أن جمهرة المؤرخين قد كذبوها وعلى رأسهم الشريف الغرناطي (ت8هـ/14م) الذي وصفها بأنها تخرص وأباطيل[4] بأن ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفة عاد وقال أن المنصور قد مات

---

[1] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص58.

[2] علي القاسمي، (بين يوسف بن تاشفين وصلاح الدين الأيوبي)، مجلة التاريخ العربي، العدد 17، سنة 2001، ص62 وما بعدها.

[3] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص431-433.

[4] الشريف الغرناطي، رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة، ج2، ص155.

ودفن في المغرب، وهذا هو الثابت المعروف. ولا يسعنا في تفسير هذه القصة إلا أنها تعبر عن انطباعات شعبية لما كان يدور في خلد المسلمين من أماني وآمال نحو إخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا على يد هذا المجاهد المغربي الكبير يعقوب المنصور الذي حطم القوى الإسبانية في موقعه الأرك المشهورة بالأندلس Alarcos سنة (591هـ/1195م)[1].

ولعل هذه المقبرة التي أشار إليها ابن خلكان، كانت مقبرة للمجاهدين المغاربة الذين استشهدوا في فلسطين ثم أطلق عليها إسم يعقوب كرمز تذكاري باعتباره إمام هؤلاء المجاهدين المغاربة.

على أن شهرة المغاربة في المشرق قد ذاعت بصفة خاصة في الجهاد البحري لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة، وفي فنون القتال البحري. ولهذا عرفوا بفرسان البحر منذ وقت مبكر واستعان بهم الفاطميون والأيوبيون والمماليك في إدارة أساطيلهم البحرية.

فالرحالة ابن جبير السالف الذكر، ينص على أن الحملات البحرية التي قادها حسام الدين لؤلؤ ضد الصليبيين في البحر الأحمر على عهد صلاح الدين، كانت تضم عددا كبيرا من أنجاد المغاربة البحريين[2].

كذلك يشير العماد الأصفهاني إلى أن وحدات الأسطول المصري التي هاجمت أساطيل الصليبيين في مدينة صور أيام صلاح الدين، كانت بقيادة قائد مغربي يدعى عبد السلام المغربي[3].

ولعل أكبر دليل على اختصاص المغاربة بالأساطيل البحرية في ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين أرسل سفيره عبد الرحمن بن منقذ إلى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب منه مساعدة بحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام، وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه في رسالته بأمير المؤمنين أي لم يعترف بخلافة الموحدين، فقد ذهب المؤرخ المغربي السلاوي

---

[1] عبد العزيز الأهواني، (سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة)، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد 16، ج1، سنة 1954م، القاهرة، ص45.

[2] ابن جبير، المصدر السابق، ص34.

[3] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2، ص119.

الناصري إلى أن المنصور أرسل إلى صلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع سفن الصليبيين من سواحل الشام[1].

وبعد وفاة صلاح الدين استمرت الدولة الأيوبية في سياسة استخدام المغاربة في أساطيلهم وقد لاحظ ذلك الرحالة الأندلسي ابن سعيد المغربي حينما زار مصر في ذلك الوقت، أي في النصف الأول من القرن (7هـ/13م)، فذكر أن الحكومة المصرية لجأت إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول استنادا إلى الفكرة الشائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب و البحر[2].

ولما ورث المماليك دولة الأيوبيين في مصر والشام، واصلوا بسياستهم الجهادية نحو إخراج الصليبيين من الشام و من جزر البحر المتوسط ولاسيما جزيرة قبرص التي تزعم ملوكها آل لوزجنان Lusignan مشروعات الصليبيين في الشرق العربي.

وكان السلطان الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكي اهتم بغزو هذه الجزيرة إذ أرسل أسطولا بقيادة جمال الدين مكي بن حسون لغزو قبرص.

ويروي المؤرخون أن هذا القائد ابن حسون حينما قام بغزوته على قبرص سنة (669هـ/1270م) لجأ إلى سلاح الحيلة والخدعة لمباغته العدو وذلك بأن طلى ظاهر السفن ورسم على أعلامها الصلبان كما يفعل الصليبيون في سفنهم. و قد أنكر بعض المجاهدين على قائدهم هذا العمل، ولكنهم اضطروا إلى تنفيذ أوامره بعد اقتناعهم أن الحرب خدعة وأن من مصلحة المسلمين إيهام العدو بأن سفنهم مسيحية.[3] وعلى الرغم من فشل هذه الحملة بسبب العواصف، وتحطم معظم سفنها على صخور ميناء ليماسول في جنوب الجزيرة، إلا أن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة السلطان بيبرس اتجاه الصليبيين خصوصا بعد أن استرد منهم قيسارية و أرسوف و صفد و يافا و انطاكية في الشام.[4]

---

[1] السلاوي الناصري، الاستقصا، ج2، ص163. عبد الكريم كريم، (رضيت أن أفتح القدس وأعمى)، مجلة التاريخ العربي، العدد1، سنة 1996م، ص31 وما بعدها.

Brunschving Robert, la berberie orientale sous les hafsides, paris 1940-1947, T1, p57-58.

[2] المقري، المصدر السابق، ج3، ص111-112.

[3] المقريزي، السلوك، ج1، ص594.

Marçais Georges, les arabes en berbéris du Xie au XIVe siècles, paris 1913, p198-199.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص39-51. مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص224.

وجاءت بعد ذلك أسرة قلاوون التي قضت على الإمارات الصليبية الباقية في الشام، فاستولى السلطان قلاوون على طرابلس[1] سنة (677هـ/1289م)، ثم استولى ولداه الإشراف خليل على عكا سنة (690هـ/1291م)، والناصر محمد على جزيرة لرواد شمال طرابلس سنة (702هـ/1302م)، وبذلك خلت السواحل الشامية من الصليبيين.

ولاشك أن المغاربة لعبوا دورا كبيرا في هذه العمليات العسكرية بدليل ما ذكرته المصادر من أن أمير البحر الرئيس البطراني المغربي، كان من بين قادة الحملة البحرية التي أطبقت على جزيرة لرواد و استولت عليها[2].

على أن طرد الصليبيين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية... ولقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام، وبحكم منفعتها الخاصة من الحروب الصليبية كمركز تجاري هام وسوق عالمية للمالك الصليبية الغربية في حوض البحر المتوسط. وكل هذا دفع بملوكها من آل لوز جبان إلى تبني الفكرة الصليبية، ومحاولة استعادة بيت المقدس من جديد.

ولعل الذي يهمنا من هؤلاء الملوك القبارصة الملك بطرس الأول لوز جنان (751هـ-1350م/781هـ-1369م) الذي امتاز بحماسه الشديد للأعمال الصليبية، وتمسكه بلقب مملكة بيت المقدس التي لم يعد لها وجود في ذلك الوقت.

ويقترن اسم هذا الملك بطرس لوز جنان بالغارة الوحشية التي شنها على مدينة الإسكندرية وعاث فيها فسادا وتخريبا في المحرم سنة (767هـ/1365م)، ومرجعنا في وصف أحداث هذه الغارة مؤرخان معاصران لها، أحدهما عربي والآخر أوروبي. الأول هو محمد بن قاسم النويري السكندري في كتابه الإلمام بما قضت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية[3] و النويري السكندري شخص آخر فهو شهاب الدين أحمد النويري

---

[1] كانت مدينة طرابلس قاعدة لجالية مغربية من المجاهدين و التجار و العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال: أبا عبد الله الطليطلي الأندلسي النحوي، متولي دار العلم بطرابلس قبل سقوطها في أيدي الصليبيين، و مثل الشيخ عبد الواحد المكناسي المغربي أحد الأولياء الذين نزلوا طرابلس بعد أن استردها قلاوون من الصليبيين و بنى فيها مسجد (705هـ) عرف باسمه، راجع: عبد العزيز سالم، طرابلس، الشام، ص387-407.

[2] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص47. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص156.

[3] توجد لهذا الكتاب عدة أصول خطية في الهند و برلين و دار الكتب المصرية. و لعل أحسنها مخطوطة الهند. و توجد بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية صور شمسية لهذه المخطوطات.

صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب الذي عاش قبله بنحو قرن تقريبا (732هـ/1332م)[1] وكلاهما على كل حال ينسب إلى بلدة نوير بنواحي الفيوم بمصر الوسطى، وإن كان مؤرخنا النويري السكندري ينحدر من أصل أندلسي ما لقي حسبما جاء في كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني[2] ولعل هذا هو السبب الذي جعل كتابه الإلمام يتضمن معلومات هامة عن دور المغاربة المقيمين بالإسكندرية في مقاومة هذه الحملة القبرصية، بل نلاحظ أيضا أن هذه المعلومات كلها إطراء ومديح في المغاربة بصفة عامة وبشكل يثير الانتباه.

أما المؤرخ المعاصر الثاني الذي كتب عن هذه الحملة فهو الكاتب الفارس جيوم دي ماشو Guillaume de Machaut الذي اشترك في حملة بطرس لوزجنان وألف كتابا بعنوان **La Prise D'alexandrie** أي الاستيلاء على الإسكندرية، وهو يمثل وجهة النظر الصليبية، بينما كان معاصره النويري يمثل وجهة النظر الإسلامية، ويرى دي ماشو أن المغاربة كانت لهم جالية كبيرة في الإسكندرية تقدر بنحو عشرين ألف مغربي، وهذا الرقم قد يبدو مبالغا فيه، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن الإسكندرية كانت على صلة وثيقة بالمغرب حتى عرفت بباب المغرب وقد أشار الرحالة ابن جبير أن عدد الفقراء فقط من المغاربة في المدينة بلغ أكثر من ألف شخص يتقاضون جوامك من الحكومة المصرية، وهذا يدل على كثرة عدد المغاربة بالإسكندرية[3].

وأخيرا نجح الصليبيون بقيادة بطرس لوزجنان من اقتحام مدينة الإسكندرية وقتلوا عددا كبيرا من رجالها ونسائها وعاثوا في المدينة فسادا وتخريبا ونهبا أسبوعا كاملا، ثم انسحبوا منها بعد أن امتلأت سفنهم بالأسلاب والغنائم[4].

---

[1] شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري عاش قبل صنوه النويري السكندري بنحو نصف قرن، و طبع كتابه نهاية الأرب بدار الكتب المصرية كما نشر منه المستشرق الاسباني جاسبار ريمير الجزأين 22،23 الخاصين بالمغرب و الأندلس (مدريد 1917).

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص142. سعد زغلول، الأثر المغربي و الأندلسي في المجتمع السكندري، ص262.

[3] بول كاله، صورة عن وقعة الإسكندرية من مخطوطة الإلمام للنويري، ترجمة: درويش النخيلي و أحمد قدري، مجلة جمعية الآثار، الإسكندرية، العدد3، 1969، راجع ذلك:

[4] Atiya Surial : Crusades in the later middle ages p. 345 – 370.

أثارت هذه الغارة الوحشية على السكان الآمنين في الإسكندرية، موجة من السخط والغضب في أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما في بلاد المغرب والأندلس التي كانت صلتها بالإسكندرية وثيقة قوية كما سبق أن ذكرنا.

ففي الأندلس لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى الإغارة على جيرانهم الإسبان في مدينة جيان Jaen التابعة لملك قشتالة، رغم المعاهدات المبرمة بينهما. ففي الرسالة التي كتبها ملك غرناطة محمد الخامس الغنى بالله إلى سلطان بني مرين بفاس، حول أحداث هذه الحملة، نجد وصفا صريحا لدوافعها بقوله: "فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد، وقصدنا أطراف البلاد، ممن أولى الجلاد، في المحرم سنة (768هـ/1366م)، بعد سنة من حادث الإسكندرية، ونادى منادي الحمية، يالثارات أهل الإسكندرية! يالثارات أهل الإسكندرية!"[1].

لاشك أن هذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الأندلسيين في هجومهم على جيان، تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها بالأندلس غارة القبارصة على الإسكندرية، كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية مهما بعدت بينهما المسافات.

ويسوق لنا النويري في هذا الصدد قصة طريفة، وهي أن رجلا من أهل بلدة مليج[2]، كان قد دخل الإسكندرية يتسوق منها لدكانه التي ببلده على جاري عادته، فصادف بها وقعة القبرصي حين ظفر بها، فأسر بجملة من أسر من أهلها، و وقع في سهم رجل من نصارى إسبانيا، وانتقل معه إلى مدينة جيان. فلما ظفر السلطان ابن الأحمر **محمد الخامس الغنى بالله** بها، كان في جملة من أسره منها، قال الأسير المليجي: لما وقفت بين يدي سلطان غرناطة ابن عبد الله محمد بن الأحمر، قلت له مستغيثا: "أيها الملك المنصور، إنني رجل مسلم من ذرية المسلمين، ولم أكن نصرانيا ولا آبائي ولا أجدادي نصارى". قال: "ومن أين أنت ؟" قلت: "أنا من بلدة يقال لها مليج من أرض مصر بين القاهرة والإسكندرية، دخلت الإسكندرية أبتضع منها على جاري عادتي بدكاني التي هي

[1] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب، القسم الذي نشره المستشرق الاسباني جاسبار ريميرو بعنوان:
(Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Grande y Fez en el. Siglo XIV p. 318)
[2] مليج بلدة في محافظة المنوفية بمصر، و بها مسجد سيدي علي المليجي.

بلدتي، فصادفت وقعة القبرصي بها، فنهبت وأسرت، فأتت النصارى بي إلى هذه الأرض، واستوفيت ما كتب علي، وقد خلصني الله تعالى من الأسر على يديك بما فتح الله عليك، وقد حصلت بين يديك، وأنا الآن في جملة أسراك، وأنا مسلم مثلك، أقرأ ما تيسر من القرآن، وأصلي على سيد الأنبياء محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، سيد ولد عدنان. ثم تشاهدت وقرأت سورة من القرآن، فعلم أني من المسلمين لا من النصارى الكافرين. ثم قال لي: "و وقعة الإسكندرية صحيحة كما قيل ؟ قلت له: ظفر بها صاحب قبرص، نهبها وأسر منها، وأنا من جملة تلك الأسارى. ثم أخبرته بخبر الظفر بها، وفرار أهلها منها حتى تسلمها الملعون منهم في يوم واحد، وهو يوم الجمعة في أواخر المحرم سنة (767هـ/1365م). فقال السلطان عند ذلك: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد هتكتنا أهل الإسكندرية بين النصارى، أتاهم كلب من كلاب الجزر فل عددهم، ونهب بلدهم، ولا أخذ لهم بثأر فآه آه ! لو كنا بالقرب من قبرص، لكانت قبرص أكلة رجل من أهل الأندلس"، قال الأسير المليجي: "ثم إن السلطان أحسن إلي وأطلق سبيلي، و لي الآن نحو سنة أقطع السهل والوعر، إلى أن وصلت إلى الإسكندرية صحبة الركب المغربي، و ها أنا سائر إلى بلدي مليج[1].

ويضيف النويري أن بعض الأندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب الحج، أخبروه بأن ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد أن داخله الرعب بسبب تخريبه لمدائنه. فقال السلطان لرسوله: "هو يريد أن يصالحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض مصر يقاتلونهم !؟ لا كان ذلك أبدا حتى ترد أموال الإسكندرية إليها مع أراها. و يأتيني كتاب صاحب مصر بأنكم اصطلحتم معه لأنه خادم الحرمين الشريفين. و أنا خادمه بسبب ذلك. وحينئذ أصالح صاحبك القند (القوط أو الكونت) وإلا فالسيف بيني وبينه حتى أملك اشبيلية و قرطبة و طليطلة و أعيدها للمسلمين كما كانت لهم". فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوابه[2].

أما على الصعيد الشعبي، فقد عبر المغاربة عن استيائهم وحزنهم بإنشاد المراثي والقصائد التي يرثون بها الإسكندرية بمناسبة هذه الغارة الوحشية. ومثال ذلك قول الشاعر

---

[1] النويري، كتاب الإلمام، لوحات110–114 (مخطوطة دار الكتب الكتاب المصرية رقم 1449).

[2] نفس المصدر وفي نفس المكان.

الصوفي المغربي أحمد بن أحمد بن أبي حجلة[1] التلمساني الأصل، هذه الأبيات التي يشيد فيها بالمجاهدين المغاربة في خلال قصيدته التي يرثي بها الإسكندرية:

و حقق عندي للفرنج مكـــــائد فليت ولي الأمر يدري مـــا أدري
فمن لي بفرسان الجزيرة عندما تعامل أهل الكفر في البحر بالنحر
و من لي بأسطول أهل سبتـــة[2] بغربانهم مثل النسور أذا تـــسرى

وقد شرح النويري هذه الأبيات بقوله: "والشاعر هنا يعني بولي الأمر إذاك الاتابـــك يلبغا الخاصكي حاكم مصر، وقصد بقوله مكائد الحرب، إن تلك المكائد يعرفها أهل سبتة ومن جاورهم من المسلمين بجزيرة الأندلس، إذ أن الفرنج التي بجزيرة الأندلس يخشونهم لحذقهم ومعرفتهم بقتالهم وغربانهم المرصدة لذلك. وقصده أيضا تحريض الأميـــر يلبغـــا على تكثيره بالإسكندرية قواد المغاربة لأنهم فرسان البحر لاعتيادهم لذلك. وقيل أن عـــدة أبواب سبتة واحد وثلاثون بابا منها باب واحد للبر والباقي مـــن دار الصـــناعة للبحـــر. وداخل كل باب منها غراب راكب على حماره من الخشب المعتدلة، فإذا جرت حركة مع الفرنج، أو أتتهم أفروطة (أسطول Flotte) أخرجت القياد (القواد) تلك الغربـــان تجرهـــا حمرها فترمي تلك الغربان في البحر دفعة واحدة، وقد شحنت برماتها وقيادها وأســـلحتها وأزوادها، وقد صاروا على الكفار كاشتعال النار. فلو كان بصناعة الإسكندرية أمثـــالهم، لحفظت بحفظ الله دارها، وانتقى عنها عارها، لكن كان ذلك في الكتاب مســـتورا، وكـــان أمر الله قدرا مقدورا"[3].

أما في مصر والشام فقد تجلى الغضب على شكل إجراءات ســـريعة أهمهـــا جمـــع الأموال وإعداد الأساطيل والأسلحة. وهنا يشير النويري إلى أن أعدادا كبيرة من رجـــال البحر المغاربة قيدوا أسماءهم بأجر معلوم للعمل في هذه الأساطيل. ثـــم يضـــيف خبـــرا طريفا آخر وهو أن مجاهدا مغربيا عرض على أمير الإسكندرية سيف الدين الأكز سلاحا

---

[1] أحمد بن أبي حجلة الحنبلي (1325–1375م)، ولد في تلمسان و صار شيخا لتكية منجك، حج ثم استقر في القـــاهرة وتوفي بالطاعون. له ديوان الصبابة الذي عارضه الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب فـــي كتابـــه محبـــة الله أو روضة التعريف بالحب الشريف، نحا ابن أبي حجلة في شعره نحو ابن العربي في التغزل الصوفي.

[2] سبتة: مدينة في شمال المغرب تطل على مضيق جبل طارق و لا تزال في يـــد الاســـبان لأهميتهـــا الإســـتراتيجية ويطلقون عليها اسم Ceuta.

[3] النويري، كتاب الإلمام، مخطوطة دار الكتب المصرية، لوحة114.

جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار، ضيقة الأفمام، مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول. وكانت الواحدة منها مليء الكف في حجم الرمانة Grenade مصدودة الفم الضيق بمشاقة (فتيلة)، (مثل القنبلة اليدوية الآن) ثم حكى له قصة إستعمال هذا السلاح ومدى تأثيره على العدو فقال: "بينما كنا مسافرين في البحر المالح (البحر المتوسط) بين سفاقس وطرابلس، صادفنا مركب للإفرنج فيه مقاتلة وتجار، فلما رأونا قصدونا فلما قربوا منا، ألقوا الكلاليب بمركبنا، و كانوا بأجمعهم عليهم سرابيل من الحديد. وكنا قبل تكليبهم لمركبنا نرمي عليهم بالسهام فلا تؤثر فيهم فلما تكلبت المركبان، وصار الجنب ملتصقا بالجنب قفز من مركبنا رجال حصلوا بمركبهم فصاروا يضربونهم فلا يؤثر فيهم، وكنت قد أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات، فأمرت من بمركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنج بها، وكانت الواحدة منها ملء الكف، فصار كل واحد يتناول واحدة ويرمي عليهم فتصكهم فيصعد الجير بعد انكسارها في وجوههم ويدخل في أعينهم ويصعد في خياشيمهم، ويفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم، وصار المسلمون يلقونهم في البحر فيغوص إلى قعر البحر أثقل ما عليه من الحديد... فرمينا منهم نحو ستين علجا، وهربت بقيتهم ونزلوا في بطن المركب، فعمدنا إلى باب بطنها سددناه عليهم وسمرناه بالمسامير، وطلعنا من مركبهم إلى مركبنا ثلاثين تاجرا مسلمين، وعشرين مملوكا، وخمس عشرة جارية، كانت الفرنج أسرتهم. ثم أخذنا ما كانوا أخذوه لهم من حرير وبسط وقوت، وأخذنا ما كان للفرنج من الأثاث وقلاع مركبهم، وعمدنا إلى بئر مركبهم خسفناها ومضينا إلى مركبنا سالمين، فغمر مركب الفرنج بالماء من ذلك الخسف الذي خسفناه بها، فامتلأت بالماء وغرقت.

وكان انتصارنا عليهم بعون الله تعالى وبتلك القدور الكفيات المملوءة جيرا وبولا. قال: "فلما رآها الأمير الأكز أعجبه مرآها واستحسنها وأمر القرموسي[1] أن يصنع مثلها عدة كثيرة، فعملوا عشرة آلاف واحدة، ملئت جيرا مطفيا بالبول، ورفعت بقصر السلاح[2]

[1] القرموسي أو القرموصي كلمة دخيلة من أصل يوناني معناها الخزاف أو الفخاري Potier راجع: (Dozy : Supplement aux dic.Arabes,II,p.337)

[2] هذا القصر كان بمثابة مخزن فد شحنت قاعاته بالأسلحة المختلفة التي تمون المقاتلة في الحرب. و يفهم من كلام النويري أن هذه القاعات كانت تسمى بأسماء السلاطين بدليل أن السلطان الأشرف شعبان حينما زار الإسكندرية (770هـ/1368م)، رسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح سميت به كما سميت قاعات الملوك بهم فبنيت له فيها من السلاح الجديد شيء كثير. وكان هذا القصر يقع بالقرب من جامع عمرو الذي يحتل دير الفرنسسكان الآن جزءا منه، راجع: النويري، كتاب الإلمام، نسخة دار الكتب المصرية، ص144.

في المدينة حاصلا لوقتها المحتاج إليها، وعملوا أيضا من القدور الكبار كثيــرا صــارت حاصلا لرمي المجانيق بما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة[1] .

ويفرد النويري بعد ذلك الصفحات الطوال في وصف الأعمال البطولية التي قام بها ضد الصليبيين في البحر المتوسط، قائد الأسـطول المصـري ورئـيس دار الصـناعة بالإسكندرية الرايس إبراهيم التازي المغربي. وعلل النويري هذه الانتصارات إلـى تلـك القيادة المغربية بقوله: "والفرنج لا يقهرهم سوى المغاربة، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيـرة الأندلس، فيعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر[2].

على أنه بالرغم من هذه الأعمال البطولية التي قامت بها الأساطيل العربيـة. فـإن اعتداءات قراصنة قبرص ظلت مستمرة على البلدان والسفن المصرية والسـورية حتـى أوائل القرن الخامس عشر ميلادي. ولم تكن تلك الاعتداءات في الواقـع قاصـرة علـى القبارصة وحدهم، بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات، اتخـذوا مـن سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد و أوكارا يخرجون منها للإغارة علـى البلـدان والسفن الإسلامية، كما وجدوا من ملوك قبرص ورجالاتها خير مشجع ومعـاون علـى إعتداءاتهم، وخير مشتر لبضائعهم التي نهبوها من المسلمين. لهذا كانت السياسة المصرية تعتبر جزيرة قبرص مسؤولة عن أعمال هؤلاء القراصنة الذين يعيثون في البحر فسادا.

وكان من المستحيل على دولة المماليك في مصر والشـام أن تصـبر علـى تلـك الاعتداءات المتكررة على أراضيها ومراكبها. وإذا كانت ظروفها في الماضي لم تمكنهـا من القيام بعمل انتقامي سريع ضد جزيرة قبرص، إلا أنها لم تهمل هذا المشـروع فـي الواقع، بل ظلت تنتظر الوقت المناسب للإنتقام لشهداء الإسكندرية. ثم جاءت تلك الفرصة المناسبة على يد السلطان الأشرف سيف الدين برسباي أحد سلاطين دولة المماليك الثانية، الذي تمكنت جيوشه وأساطيله من الإستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكهـا جـانوس لوزجنان سنة (829هـ/1426م)، أي بعد حوالي ستين سنة من تـاريخ عـدوانها علـى

[1] نفس المصدر، لوحات206-207 (نسخة الهند).

[2] النويري، نفس المرجع، لوحات97 وما بعدها، ص274-277 (الهند).

الإسكندرية. وهكذا انتقمت مصر لنفسها من هذه الجزيرة، وكان انتقاما رائعا ولــو بعــد حين[1].

على أن دولة المماليك وإن كانت قد نجحت في القضاء على نشاط القبارصة إلا أنها لم تلبث أن اصطدمت بقوى أخرى جديدة مثل قوة الأتراك العثمانيين في البحر الأبــيض المتوسط من جهة، وقوة البرتغاليين –بعد اكتشافهم الجغرافى– في المحيط الهندي والبحر الأحمر من جهة أخرى. وهكذا أصبحت دولة المماليك محاصرة بين هــذين الخطــرين، وعجز سلاطينها عن إبعاد خطرها التجاري و الحربي.

واضطر سلاطين المماليك لإنقاذ دولتهم آخر الأمر، إلى تكوين فرق غير مملوكيــة من المغاربة والعبيد السود لحمل هذا السلاح الجديد، عرفوا باسم النفطية أو البارودية[2].

واستخدام المماليك للمغاربة أمر له مغزاه، إذ يفهم من المصادر المغربية المعاصرة سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أن المغاربة والأندلسيين توصلوا إلى اختراع المدفع قبل الأوروبيين. فالمعروف أن أول استعمال للمدفع في أوروبا كــان فــي موقعــة كريســي Creasy بفرنسا سنة (743هــ/1342م) حينما التقت جيوش ملك فرنسا فيليب دي فــالوا مع جيوش ملك انجلترا إدوارد الثالث الذي كتب له النصر باستعماله للأسلحة النارية.

أما استعمال هذا السلاح الجديد في المغرب والأندلس، فكــان قبــل ذلــك التــاريخ المذكور آنفا بعشرات السنين، فابن خلدون عند حصار السلطان أبي يوسف المريني لمدينة سجلماسة (حاليا الريساني بتافيلالت) في جنوب المغرب سنة (672هــ/1273م) يقــول: "ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها"[3].

---

[1] أطلق سراح الملك جانوس بعد أن تعهد بدفع فدية قدرها مائتي ألف دينار، دفع نصفها قبل رحيله، و النصف الآخــر بعد عودته إلى جزيرته. و ظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة و تؤدي لها جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين (923هــ/1517م)، فصارت الجزية ترسل إلى السلطان العثماني حتى (979هـــ/1571م) حينمــا احتلها الأتراك العثمانيون و حكموها حكما مباشرا عن طريق و لا تهم الأتراك. على أن المهم هنا هو أن المغاربة قــد شاركوا في غزو قبرص سواء على عهد المماليك أم على عهد العثمانيين بعد ذلك. و قد نص ابن اياس (بدائع الزهــور ج3، ص303) على أن الوالي التركي في مصر كان يركب إلى سواحل بولاق و مصر العتيقة و يقبض على النواتيــة والمغاربة والفلاحين لأجل المراكب.

[2] ابن اياس، بدائع الزهور، ج4، ص84–308 و كذلك:

(David Ayalon : G)

Gunpower and firearms in the mamluk King dom p.74,79,85)

[3] ابن خلدون، العبر، ج7، ص188.

وهذا النص يعتبر من أقدم النصوص التاريخية حول استعمال المدفع ويبدو أن هـذا الاختراع الجديد لم يلبث أن انتقل إلى مملكة غرناطة الإسلامية في إسبانيا. ففـي كتـاب اللمحة البدرية لابن الخطيب، نجد وصفا هاما للمدفع الذي اسـتعمله الغرنـاطيون عنـد احتلال قلعة أشكر Huescar في جنوب الأندلس سنة (725هـ/1324م)، وما أحدثه هذا السلاح من هدم وتخريب في الحصون، وذعر في صـفوف المقـاتلين الإسـبان. وهـذا الوصف يعتبر من أقدم النصوص التاريخية أيضا في هذا الموضوع. وفي ذلك يقول ابن الخطيب: "ونازل السلطان إسماعيل بن الأحمر قلعة أشكر، ونشر الحرب عليها، ورمـى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط، كرة محماة، طاقة البرج المذيع، فعاثت عيـاث الصـواعق السماوية، ونزل أهلها قسرا على حكمه، وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هذيل:

فظنوا بأن الرعد و الصعق من السما   فحاق بهم من دونها الرعد و الصعق
غرائب أشكال سما هرمس بهـا   مهندمة تأتي الجبـال فتنـهد
ألا أنها الدنيا تريك عجـائبا   و ما في القوى منها فلا بد أن يبـدو[1]

ومن الغريب أن المصادر الإسبانية المعاصرة عند وصفها لأحداث هـذه الحـرب، أيدت هذا الاختراع وأشارت إليه كسلاح جديد مبيد، ففي حوليات ثوريتـا نجـد العبـارة الآتية:

Se extendía el rumos en Alicante que el rey de Granada estaba en posesión de una nueva arma mortífera.

وترجمتها: "وانتشرت الإشاعات في مدينة لقنت **شرقي اسـبانيا** بأن ملك غرناطة يمتلـك سلاحا جديدا مميتا"[2].

وتجدر الملاحظة هنا أن كلمة نفط في العصور الوسطى، أطلقت في بـادئ الأمـر على قذائف النار الإغريقية الحارقة التي كانت تقذف نحو الهدف لإضرام النار فيـه، ثـم تطور معناها في أواخر القرن (7هـ/13م)، بحيث صارت تعنـي المـدفع أو الأسـلحة النارية التي تحدث عند انطلاقها فرقعة وهديرا مثل الصواعق، وكانـت قـذائفها كـورا معدنية تهدم وتحطم كما هو واضح في الأبيات الشعرية السالفة. ولعل السبب في إطـلاق كلمة نفط على هذين السلاحين المختلفين –الحارق الهادم– أن العنصـر الأصـلي فـي

[1] ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص72.

[2] راجع: (J.Zurita : Los Anales de la corona de Aragon,Vol.II p. 31)

تركيبات النفط في الحالتين هو ملح البارود، استعمل في بادئ الأمر للإحراق شأنه شأن المواد الأخرى الملتهبة كالفحم والكبريت. ثم اكتشف فيما بعد أن له خاصية الانفجار فاستخدم كسلاح مدمر[1].

وهكذا نرى مما تقدم أن المغاربة كانوا من أوائل الدول التي عرفت الأسلحة النارية واستخدمتها في حروبها. ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض سلاطين المماليك في أواخر عهدهم بمصر والشام، يعتمدون في استعمال هذا السلاح الجديد على العناصر الغير مملوكية كالمغاربة والأندلسيين كمحاولة أخيرة لإنقاذ دولتهم.

ففي هذا الصدد يروي **ابن زنبل** أن مغربيا عرض بندقية على سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغوري، وأخبره بأن هذه البندقية جلبها من بلاد البندق (البندقية أو فينيسيا) وأن جيوش العثمانيين والمغرب قد استخدمتها. عندئذ طلب السلطان الغوري من المغربي أن يدرب بعض مماليكه على استخدامها، ففعل ذلك. وبعد مدة جاء بهؤلاء المماليك إلى حضرة السلطان حيث أقاموا بإطلاق النار من بنادقهم أمامه. ولكن السلطان لم يعجبه هذا العمل وقال للمغربي: "نحن لنا سنة نبينا ونتبع سنة المسيحيين، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز إن ينصركم الله فلا غالب لكم. عندئذ عاد المغربي آسفا إلى بلاده وهو يقول: من عاش ينظر هذا الملك كيف يؤخذ بهذه البندقية **!**"[2].

نستخلص مما سبق عرضه، أن الوطن العربي عاش دوما في وحدة شبه كاملة، لم تعرف بلدانه الحدود الفاصلة ولم يعرف سكانه إلا جنسية واحدة، ولم يحتج العربي قط إلى إشارة مرور وإذن بالعمل والإقامة. ولم يمكن وصف التمزق الذي عرفه الوطن العربي في الماضي بالتمزق السياسي لما لهذه الحكمة في هذه الأيام من معان، بل أن الأمر يتعدى وجود حكام مختلفين هنا وهناك.

وتضامن من أبناء الوطن العربي في أيام المحن والنكبات يظهر من خلال ما سبق ذكره، حيث نجد الأسطول المصري لم يستغن في أي وقت من الأوقات إبان العهدين الفاطمي والأيوبي عن المغاربة البحريين، وأن هؤلاء شاركو مشاركة فعالة في الجهاد البحري وقد استمر هذا الوضع طوال فترة حكم المماليك بمصر والشام.

---

[1] راجع: مقال حول كتاب البارود و الأسلحة النارية في الدولة المملوكية لدافيد أيالون في مجلة هسبريس، Hespiris 1959, 3-4 trimestre

[2] ابن زنبل، فتح مصر، ص31 (القاهرة 1278هـ/1861م) ;(David Ayalon : Op. cit.p.95)

الفصل الرابع

إسهامات المغاربة و الأندلسيين
في الميدان الإجتماعي و الإقتصادي

1- في الميدان الاجتماعي

إن دور المغاربة والأندلسيين في الحياة الاجتماعية المصرية والشامية، خاصة المغاربة الذين يقطنون المدن وهؤلاء كان لهم تأثير كبير على الحياة الاجتماعية المدنية، حيث يقوم هؤلاء بدورهم في مختلف النشاطات الحرفية في مختلف الأحياء التي أصبح الكثير منها يحمل اسم **المغاربة**[1]، فقد أكد ابن دقماق أن بعض حاراتها ودروبها وأزقتها قد حملت أسماء من سكن بها من المغاربة مثل: دار وحارة ابن عشرات الكتامي[2] وزقاق زويله[3] وزقاق ابن حباسة[4] ودرب يازوف[5] ومسجد كان يحمل اسم القائد الكتامي جبر بن القاسم الذي تدرج في العديد من الوظائف الهامة في الدولة بمصر أيام الخليفتين المعز والعزيز[6] وآخر عرف بمسجد توبة[7]، بالإضافة إلى الدار المنسوبة لابن دواس الكتامي[8]، وكذلك دور بني ينوط الكتاميين[9]، و ممن لمع من هذه أفراد أسرة أبو الحسن بن ينوط

---

[1] الشيال (جمال الدين)، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة 1965م، ص181. عبد الهادي التازي، (حي المغاربة بالقدس)، مجلة المنهل، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 1، السنة 38، عام (1392هـ/1972)، ص47-54.

[2] ابن دقماق، الإنتصار بواسطة عقد الأمصار، ج4، ص9-13. سميت بهذا الاسم ربما تصحيفا لاسم سليمان بن عزة المحتسب.

[3] نفس المصدر، ج4، ص17. نسبة لقبيلة زوملة البربرية.

[4] نفسه، ج4، ص20-21. نسبة لأحد أبناء القائد الكتامي الشهير حباسة بن يوسف، على ما يبدو.

[5] نفسه، ج4، ص29. نسبة إلى يازوف بن يحي المغربي من وجوه أصحاب جوهر الصقلي، و كان قد شهد فتح الشام مع جعفر بن فلاح.

[6] نفسه، ج4، ص40.

[7] المقريزي، الخطط، ج3، ص459. نسبة إلى توبة بن ميسرة الكتامي مغني الخليفة المستنصر، وكان يقع في القرافة الكبرى من ضواحي الفسطاط.

[8] ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص23. و هو سيف الدولة الحسين بن دواس الذي أشارت أصابع الاتهام إلى اشتراكه في مؤامرة اغتيال الخليفة الحاكم بأمر الله.

[9] نفس المصدر، ج4، ص28. و هي أسرة لمع بعض أفرادها أثناء خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي منهم: أبو عيسى بلابان بن عساس بن ينوط، عميد الأسرة و شيخ طائفة الكتاميين، الذي تولى شرح سوء أوضاع الكتاميين وأكد ضرورة أن تبادر الدولة بصرف أعطيات عاجلة لهم، و ذلك في حضرة الخليفة الظاهر شخصيا. و قد حدد ابن دقماق موضع هذه المنازل بأنها كانت درب رصاصة بالفسطاط، و قد أشار إلى أن إحداها كانت مملوكة لمنعة الدولة ابن ينوط (نفسه، ج4، ص53). أما عن دار أبي عيسى بلابان ابن ينوط كانت تقع في الموضع المعروف بسويقة جواد، نسبة إلى جواد بن عمرو الصفدي الذي شهد فتح مصر، أنظر: المسبحي، أخبار مصر في سنتين، ص225-226 و هامش تحقيق رقم 01.

حاكم مدينة صور بالشام[1]، كما احتفظت بعض نواحي الدلتا بأسماء من نزل بها من المغاربة والأندلسيين مثل منية الكتاميين التي كانت من أعمال كورة السمنودية و لا تزال موجودة إلى اليوم بمركز طلخاء، و إن صارت تعرف بكتامة الشرقية[2]، وهناك منية الكتاميين في نواحي الغربية (بمركز بسيون)، و كانت تابعة لمركز طنطا، وتعرف باسم كتامة الغابة[3]، و لا يستبعد موسى لقبال أن تكون منية لوزة التي كانت بمركز طلخا قد عرفت بذلك نسبة إلى فرع لوزة من الفروع المشهورة لقبيلة كتامة[4]، ابن دقماق وأشار كذلك إلى أن شبكة الترع التي تخللت أرض ناحية الغربية قد أطلق على إحداها بحر المغاربة[5].

- ✓ زقاق المغاربة: هذا الزقاق يدخل من أوله إلى زقاقين، على يساره الحوش ذو بابين وعلى يمينه زقاق الترمس[6].
- ✓ سويقة المغاربة: هي سويقة مشهورة لها أربعة مسالك الأولى من الصوافين والثاني من سويقة الوزير، والثالث من خوخة القطانين، والرابع من سويقة السماكين والمساحط[7].
- ✓ حارة كتامة: هذه الحارة مجاورة لحارة البطالية، التي كانت في السابق هي أصل دولة الفاطميين[8] و هي قرب الجامع الأزهر اختطها المعز لدين الله الفاطمي.
- ✓ حارة بني سوس: هي طائفة من المصامدة يقال لهم بنو سوس[9].

---

[1] نفس المصدر، ص52 وما بعدها. أحمد حطيط، (مكانة المغاربة الاجتماعية بدمشق في زمن الحروب الصليبية)، مجلة التاريخ العربي، العدد 25، سنة (1424هـ/2003م)، المغرب، الرباط، ص27 وما بعدها.

[2] ابن مماتي، قوانين الدواوين، مطبعة مصر، القاهرة 1943م، ص187. ابن دقماق، المصدر السابق، ج5، ص95.

[3] ابن مماتي، المصدر السابق، ص185. و هامش التحقيق رقم5، ص187.

[4] لقبال موسى، دور قبيلة كتامة، ص535، هامش رقم06.

[5] ابن مماتي، المصدر السابق، ص212. أنظر: من نفس المصدر، ص211، حيث الإشارة إلى أن إحدى ترع الغربية كان يطلق عليها جسر ترعة أبي ركوة نسبة للثائر الشهير أبي ركوة على ما يبدو.

Kammerer A.albert, le régime et la situation des étrangers en Égypte, tome 15, p115.

[6] ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص15.

[7] نفس المصدر، ج4، ص32.

[8] المقريزي، الموعظة و الاعتبار، ج2، ص10، القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص354.

[9] المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص16.

- ✓ حارة المصامدة: هي الحارة التي عرفت بطائفة المصامدة أحد طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين[1].
- ✓ وكالة المغاربة: توجد بحارة الصائغ على يسار شارع بن طولون[2].
- ✓ عطفة المغاربة: توجد بشارع التبليطة على رأسها خان يباع فيه الثياب ثم وكالة صغيرة تعرف بوكالة سليمان باشا[3].
- ✓ درب المغاربة: يوجد على يمين شارع باب الفتوح[4].

لقد انتشر عدد من المغاربة في أقاليم مصر المختلفة، وحازوا الأراضي، وتوثقت المعاملات بينهم و بين رجال الإدارة المحلية في القرى، كما اكتسبوا تدريجيا عادات وتقاليد المصريين مع احتفاظهم بعادات أخرى خاصة بهم، و يرأس هذه الأقلية بمصر شيخ المغاربة و هو عادة من علماء الأزهر المغاربة، و أحيانا من كبار التجار، أي الذي تكون له مكانة مرموقة، و حظي باحترام كبير لدى رجال الطبقة الحاكمة، و يضطلع بمسؤوليات إدارية للدفاع عن مصالح المغاربة في مصر[5]، و نتيجة لاتساع دائرة نشاطهم ازدادت علاقاتهم الاجتماعية و أصبحوا يؤثرون و يتأثرون بمختلف فئات المجتمع التي اختلطوا بها، و قد حاز الكثير منهم على مكانة مرموقة في المجتمع المدني بمصر، وزاد تقدير المجتمع لهم نظرا لجديتهم في المعاملة[6]. و لمعرفة هذا يكفي الرجوع إلى سجلات محاكم القاهرة و محاكم المدن الأخرى ليدرك الباحث بسهولة الاندماج الاجتماعي الواسع،

---

[1] نفس المصدر، ج2، ص20.

[2] علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص311.

[3] المرجع السابق، ج1، ص251. هيام أحمد حسن، (سور القدس وأبوابه)، مجلة المنهل، العدد 508، السنة (1414هـ/1993م)، السعودية، الرياض، ص19-22.

[4] نفس المرجع، ج1، ص82. سعد زغلول عبد الحميد، (الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري)، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، السنة 1975م، الإسكندرية، ص83 وما بعدها.

[5] سجلات محكمة طولون، سجل224، ق466، سجلات القسمة العسكرية، سجل208، ق480، محكمة باب الشعرية، سجل642، ق183، محكمة المنصورة، سجل18، ق442.

[6] أرشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة، سجل333، ص81، علي مبارك، المرجع السابق، ص95.

و مدى تأثير و تأثر المغاربة بالمجتمع الذي عاشوا فيه، و الأمثلة على مثل هذا الاندماج كثيرة في كتب تراجم هؤلاء المغاربة في سجلات المحاكم الشرعية[1].

أما في مصر فنتيجة لعوامل الطرد و الجذب، جاءت بعض القبائل المغربية سواء أكانت من أصول بربرية[2]، أو من أصول عربية[3] إلى مصر و أتيحت لهذه القبائل فرصة الاستقرار في مناطق الريف المصري، لمن أرادها من هذه القبائل، بينما أثر بعض هذه القبائل حياة تجوال و التجوال، بين أرجاء مصر كلها، و قدر للقبائل التي استقرت في بعض المناطق الريفية، أن يصبح لها وضعها على خريطة الريف المصري[4]، و للوقوف على مدى تأثير هذه القبائل في الريف المصري، إيجابا أو سلبا يجب مايلي:

1 تتبع مناطق انتشار هذه القبائل المستقرة منها و المتجولة على خريطة مصر عامة.

2 دور هذه القبائل في حياة المناطق التي شملها انتشارهم.

إن دراسة الخريطة السكانية لمصر، و تتبع مراكز استقرار القبائل المغربية على الخريطة يتضح ما يلي:

إن منطقة الشمال من الدلتا، و خاصة منطقة البحيرة فقد كانت هذه المنطقة المستقر الأول للقبائل المغربية التي قدمت إلى مصر، لأنها أقرب المناطق للمغرب الإسلامي، و المعبر الرئيسي بين مصر و المغرب الإسلامي، ثم انتقل البعض منها إلى مناطق الدلتا العليا، أو إلى الصعيد مثل: قبيلة هوارة[5].

---

[1] سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص209-210.

Jamard, (observation sur les arabes de l'Égypte) in des cription de l'Égypte, 1ere édition, état moderne, tome 1, paris 1809, p64.

إعتمدنا على ترجمة العربية لهذه الدراسة التي ترجمها و أعدها الأستاذ زهير الشايب.

[2] من هذه القبائل، زناتة، مزاتة.

[3] من هذه القبائل، أولاد علي، محارب، كرايم، بنو هلال، النجمة، الهوارة، و غيرهم، و للمزيد من التفاصيل حول هذه القبائل أنظر: جومان، ج1، العرب و العربان في مصر الوسطى ضمن الترجمة الكاملة وصف مصر، المجلد 2= العرب في ريف مصر و صحراواتها، ترجمة: الشايب (زهير)، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1980م، ص195-243.

[4] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة التاريخية المغربية، عدد15-16، يناير1978، ص55-56.

[5] ابن اياس، بدائع الزهور، ج3، ص12. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج12، ص156. عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص151-154. زيتون، إقليم البحيرة، ص37. عابدين (عبد المجيد)، دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل، القاهرة، عالم الكتب 1961م، ص132-140. عبد الله (خو رشيد)، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حيث يناقش مناطق استقرار القبائل العربية في مصر العليا و دور القبائل في المجتمع المصري، ص227-240.

والدارس لقرى محافظة البحيرة لا يكاد يجد قرية من قرى هذه المحافظة إلا و بها عائلات تنتمي إلى أحد فروع القبائل المغربية التي استقرت في تلك المناطق، حتى أن بعض قرى المنطقة أصبحت تحمل أسماء فروع هذه القبائل المغربية، مثل قرية بني هلال[1]، إن استقرار هذه القبائل المغربية في المناطق الزراعية إلى جانب الفلاحين المصريين، و تعايشهم في معظم قرى البحيرة، لم يقف حائلا دون انتشار بعض هذه القبائل في مناطق الدلتا الأخرى، فإننا نجد أن قبائل سليم قد انتشرت في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى برقة غربا، بينما انتشرت قبائل بني وهيب في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى العقبة شرقا، هذا إلى جانب وجود فروع لهذه القبائل في قرى الغربية، والدقهلية، والشرقية والقليوبية، والمنوفية، أي أن انتشار هذه القبائل المغربية شمل كل مناطق الدلتا، و إن برز بصورة واضحة في منطقة البحيرة، و أطراف الإسكندرية[2] وبدافع الاستقرار في مناطق، توفرت لهم ظروف معيشية أفضل من الظروف التي كانوا يعيشون فيها، و من هنا كان انتشار فروع هذه القبائل المغربية في جميع مناطق الصعيد من أسوان حتى مشارف القاهرة، و إن أغلب استقرارهم في المنطقة الممتدة من قنا حتى بني سويف، و بصورة واضحة على الجانب الغربي للنيل[3] أما في الصعيد الأوسط، وخاصة في منطقة المنيا، فقد استقرت فروع قبائل بني وافي، و هوارة... و انتشرت فروع كثيرة لهذه القبائل في منطقتي بني سويف و الفيوم كما امتد انتشارها إلى منطقة الجيزة و ضواحي القاهرة[4] هكذا شمل انتشار القبائل المغربية المستقرة معظم أجزاء الخريطة السكانية للريف المصري.

---

[1] زيتون، المرجع السابق، ص293. لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: شابرول (ج، دي)، دراسة في عادات و تقاليد سكان مصر المحدثين، وصف مصر، الترجمة الكاملة (1)، ترجمة: الشايب (زهير)، صفحات33-122-132.

Wiet Gaston, Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (l'Egypte Arabe), paris 1926, p215.

[2] المرجع السابق، ص293-323. الحناوي (محمد عبد الحميد)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص39-40. الحناوي، دور عرب المغاربة في الإسكندرية والبحيرة، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص81.

[3] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص152-153. جومار (1)، المصدر السابق، ص217-218. شابرول، المصدر السابق، (1)، ص21-23.

[4] عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص88-91. جومار، المصدر السابق، ص209-223.

أ- إسهامات المغاربة والأندلسيين في المجتمع المصري والشامي

إن القبائل المغربية كان لها دور في حياة الريف المصري، لقد أثبتت النصوص أن العربان المغاربة الذين استقروا في بعض قرى الريف المصري، قد فرضوا حمايتهم على المناطق التي استقروا فيها[1] فعربان الهوارة فقد استقروا في الصعيد سنة (782هـ/1380م)، و امتد نفوذهم من قوص جنوبا إلى البهنسا شمالا، و صارت القبائل العربية المغربية و غير المغربية المستقرة في تلك المنطقة تدين لهم بالولاء، كذلك نجد أن الهوارة في الوقت الذي احتفظوا فيه لأنفسهم بمركز اجتماعي متميز على أهالي البلاد، فإنهم أقاموا علاقات طيبة و وطيدة بينهم و بين أهالي المنطقة الواقعة في دائرة نفوذهم واعترفت لهم السلطات المملوكية بالإمارة في المنطقة[2].

لكن يجب أن يوضع في الحسبان، عند دراسة تواجد القبائل المغربية في الريف المصري أن هذا التواجد لم يكن كله خيرا بل كانت آثاره السلبية في بعض المناطق أضرت بحياة أهل الريف المصري[3] فمن الأعمال السلبية التي ارتكبوها ضد الفلاحين المصريين من تخريب و سلب و نهب، مما أضرت بمصالحهم و اضطرتهم في بعض الأحيان إلى هجر قراهم إلى قرى أخرى أكثر أمنا، و تصور هذا الوضع بعض المصادر المعاصرة بقولها: "... فعلوا مالا تفعله الخوارج و لا الكفرة..."[4]، هذه الأعمال أضرت باقتصاديات الريف المصري، و أدت إلى تعطيل الزراعة في كثير من المناطق، و كان لها تأثيرها على الأسواق المحلية، مما أدى إلى كساد عمليات التبادل التجاري بين القرى فساد هذه المناطق[5] الفقر و عمها البوار بسبب أعمال السلب و الاغتصاب التي كان يقوم بها بعض المغاربة في هذه المناطق.

---

[1] مبارك (علي)، الخطط الجديدة لمصر القاهرة و مدنها و بلادها القديمة و الشهيرة، القاهرة مطبعة بولاق، مصر (1305هـ/1887م)، ج10، ص53-55. عبد الغني (أحمد شلبي)، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء و الباشات، تحقيق و تقديم: عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة مكتبة الخانجي 1978م، ص119. الجبرتي (عبد الرحمن)، عجائب الآثار في التراجم و الأخبار، القاهرة، (1322هـ/1904م)، ج1، ص323-344.

[2] جومار، المصدر السابق، ص223-224، جيرار (ب.س)، وصف مصر، ترجمة الشايب (زهير)، ط1، القاهرة 1978م، ص37-39.

Paiak (A.N), les révoltes populaires en Égypte a l'époque de mamelouke et leurs causes économique, R.E.I, tome 3, paris 1934, p61.

[3] ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور، كاليفورنيا، 1930-1932م، ج3، ص654.

[4] نفس المصدر و في نفس المكان.

[5] جومار، المصدر السابق، ص222-223. جيرار، المصدر السابق، ص41-42.

إن استقرار المغاربة في المدن المصرية المختلفة أصبح له ثقله و وزنه خاصة في القاهرة و الإسكندرية[1] و نتيجة للنشاطات المتعددة التي كان يمارسها المغاربة في هذه المدن، و انتشارهم في أحيائها، و شوارعها، و حاراتها، فأصبح أكثر هذه الأماكن تحمل أسماء مغربية، أو تسمى باسم شخصية مغربية ذات تأثير في الشارع، أو الحارة التي تحمل إسمه، كما أن كثيرا من أسواق القاهرة أو الإسكندرية حملت أسماء مغربية نتيجة للتفوق المغربي فيها، أو لأنها مملوكة لأفراد من أبناء الجالية المغربية حتى أن خليجا على أطراف القاهرة أصبح يسمى باسم (الخليج المغربي)[2].

أما عن الهيكل التنظيمي للجاليات المغربية داخل القاهرة، فإنه كان قائما على أساس طائفي طبقا للنظام الذي كان سائدا في المجتمع، أي أن كل طائفة تشتغل بعمل واحد، سواء أكان هذا العمل تجاريا أم مهنيا فإنهم يكونون طائفة واحدة لهم تنظيمهم الخاص بهم، و يختارون شيخا لهم متحدثا باسمهم، و أحيانا كان الهيكل التنظيمي لأبناء الجالية المغربية يرتبط ارتباطا عضويا بالأحياء و الأسواق المقيمين بها مثل: سوق طولون، و سوق الحمزاوي...الخ[3]، و قد كان لطلبة العلم كذلك بالأزهر تنظيمهم الخاص داخل رواق المغاربة، فقد كان لهذا الرواق شيخ و وكيل، و قد كان شيخ الرواق، هو المتحدث الأول باسم المغاربة لمكانته العلمية، و الإحترام الذي يلقاه من المغاربة على مختلف مشاربهم[4].

إن تنظيمات الجالية المغربية أصبحت قوة لا يستهان بها، و أصبح لها دورها في توجيه سياسة النظام الإداري في المدينة، و اكتسب هذه المكانة نتيجة لعاملين أساسيين:

1. الثراء الذي أصبح عليه كثير من أفراد الجالية، خاصة من فئة التجار الذين أصبحوا يلعبون دورا اقتصاديا لا يستهان به في عهد أمراء المماليك الذين كانوا يقترضون الأموال من هذه الفئة[5].

2. إنتماء كثير من أفراد الجالية المغربية إلى شخصيات تتمتع بامتيازات مادية و أدبية، وصل هذا الانتماء إلى حد الارتباط الاجتماعي، عن طريق التزاوج والمصاهرة،

---

[1] ابن إياس، المصدر السابق، ج5، ص134. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، (دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث)، المجلة التاريخية المغربية، العدد10-11، يناير 1978م، القسم1، ص53.

[2] نفس المرجع، ص62-63.

[3] أرشيف المحكمة الشرعية، محكمة طولون، سجل224، مادة 868، ص401-402،.

[4] أرشيف المحكمة الشرعية، محكمة الصالحية النجمية، سجل509، مادة100، ص50.

[5] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص92-93.

و نتيجة لهذه المكانة فإن الجالية المغربية كانت تتعرض لسلطات القاهرة إذا مست مصالحها، و تفرض على هذه السلطات الاستجابة لمطالبها[1]، هكذا كان دور الشريحة المغربية التي عاشت في المدن المصرية خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين (14/13م)[2]، و عموما فإن الجالية المغربية كان لها دورها الايجابي الغالب و تأثيرها الفعال في حياة المدن المصرية في مختلف مناحي الحياة، الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والإدارية، حيث كان انتشار الجالية المغربية في المدن المصرية الداخلية يكاد يشمل شبكة المدن جميعها الصغيرة منها و الكبيرة، و التي وجدت في بقاع مختلفة من مصر شمالها و جنوبها مثل: المنصورة، وقليوب، ومنوف، والزقازيق، وطنطا، ودمنهور، في الوجه البحري، أو الدلتا، والجيزة، والمنيا، وبني سويف، والفيوم، ومنفلوط، والبهنساوية، وأسيوط، وجرجا، وفرشوط، وأسنا، في الوجه القبلي أو الصعيد[3].

إن الباحث في تاريخ مصر والشام الاجتماعي، في عصر الأيوبيين والمماليك، وفي إطار النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع آنذاك، لا يستطيع أن يغفل الدور الكبير الذي لعبه أبناء الجالية المغربية في الحياة الاجتماعية المصرية والشامية، وتأثيرهم فيها و تأثرهم بها في المدينة و الريف على السواء[4]. أبناء الجالية المغربية، لم يكونوا منغلقين إجتماعيا، فبجانب علاقة أبناء الجالية القوية فيما بينهم، والترابط الإجتماعي القوي الذي كان دائما فيما بينهم، فإنهم اندمجوا إجتماعيا مع فئات المجتمع المصري و الشامي، و أصبحت ظاهرة التزاوج بين المغاربة، من المصريات والشاميات منتشرة و بصورة واسعة، و كذلك تزويج بناتهم للمصريين والشاميين أصبحت شيئا عاديا[5]، و هكذا أصبحت عملية التزاوج أحد مظاهر الاندماج الاجتماعي لأبناء الجالية المغربية في المجتمع المصري و الشامي، هذا فضلا عما تتركه هذه العملية بين الأسر من التأثر و التأثير في العادات و التقاليد و الأعراف بين هذه الأسر المتصاهرة، مما يؤكد

---

[1] الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص29. ريمون (أندريه)، المرجع السابق، ص42.

[2] عبد الحميد (سعد زغلول)، المرجع السابق، ص209-210.

[3] دار المحفوظات العمومية، مخزن46، محكمة المنصورة، سجل6، ص14-30، و سجل46، ص194.

[4] ابن إياس، المصدر السابق، نفس الصفحة، الجبرتي، المصدر السابق، نفس الصفحة، البكري (محمد بن أبي السرور)، كشف الكربة في رفع الطلبة.

[5] أرشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل175، مادة383، ص270، دار المحفوظات العمومية، محكمة الإسكندرية، مخزن46، سجل4، مادة997، ص284.

تأثير الجالية المغربية في مجتمع المدن المصرية و الشامية عن طريق هذا المظهر[1] كما سبق ذكره في دمشق و غيرها.

كما كان العلماء و طلبة العلم المغاربة الذين أتوا للدراسة بالأزهر، و بالمدارس المصرية و الشامية أحد القنوات المؤثرة في المجتمع المصري و الشامي خلال فترة البحث و المتأثرة به فقد حاز العلماء منهم على مكانة علمية عالية جعلتهم قبلة فئات المجتمع يؤمونهم ليفتوهم في مسائل دينهم و أحوالهم الشخصية، و لينتفعوا بعلمهم ويأخذوا عنهم، و أصبح لهؤلاء روادهم و طلابهم من المصريين و الشاميين الذين لا شك أنهم تأثروا بهم و نقلوا هذا التأثير إلى محيط أسرهم و قد تولى العلماء المغاربة كثيرا من المناصب المؤثرة مما جعل أثرهم يبرز في محيط المجتمع المصري و الشامي.[2]

هكذا كان دور المغاربة في الحياة الإجتماعية المصرية و الشامية، دورا نافعا في معظمه يقوم على التأثير و التأثر المتبادل، فلم يشعر هؤلاء المغاربة بغربة داخل المجتمع المصري و الشامي، مما ساعد على الاندماج في داخليته و التغلل في بنيته و التأثر به، والتأثير فيه على مختلف مستوياته، و خاصة في مجتمع المدينة، أما دور المغاربة في الريف فقد ساعد في بعض جوانبه على ظهور بعض السلبيات في مصر و الشام، و هذا شيء حتمي فلا توجد إيجابيات بدون سلبيات في مسيرة أي مرحلة من مراحل تاريخ شعب من الشعوب.[3]

لقد شكل المغاربة أقلية إسلامية قوية بالمجتمع المصري و الشامي، خلال فترة حكم دولتي الأيوبيين و المماليك (البحرية و الجراكسة)، حيث بلغت مدينة القاهرة ودمشق شأنا عظيما من الناحيتين المادية و الأدبية، جعلها محط أنظار العالم كله، خاصة بعد أن أفل نجم مدينة بغداد باستيلاء المغول عليها سنة (656هـ/1258م)، وسقوط مدينة قرطبة على يد الفرنجة سنة (897هـ/1492م).[4]

---

[1] دار المحفوظات العمومية، محكمة الإسكندرية، مخزن 46، سجلات1-2-3-4-5-6، الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص176، ج2، ص217، توفيق عمر كمال، الجاليات الأوروبية في الإسكندرية في العصور الوسطى، ص254.

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص167.

[3] جومار، المصدر السابق، ص223، عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص153–157.

[4] سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة و آثارها الباقية في العصر الإسلامي، يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة، الكتاب4، (1386هـ/1966م)، ص13.

و قد نتج عن ذلك أن أصبحت مدينة القاهرة و دمشق المأوى الواسع للبلاد الإسلامية و العربية من المشرق و المغرب، فكان عليها أن تهيئ نفسها لاستضافة الوافدين عليها من التجار و الرحالة، و من أجل هذا كثر في هذا العهد إنشاء الخانات والوكالات والفنادق، التي لا يزال الكثير منها باقيا حتى اليوم.

و مما لا شك فيه أن هذا العصر يعد بحق العصر الذهبي لمدينة القاهرة ودمشق على الرغم مما يحدث من بعض المشاكل من منازعات و شغب عندما يتولى الحكم كل سلطان جديد.[1]

فهاجر إليهما المغاربة فمنهم من استقر بهما و جعلهما وطنا له، و منهم من عاد إلى وطنه عندما سمحت الظروف بذلك، ولم يستقر المغاربة بمدينة القاهرة و دمشق فقط بل في عدة مناطق من مدن مصر والشام وأطلق إسمهم كما ذكرنا في السابق على عدة أحياء، وأسواق، ومساجد وأضرحة الأولياء في المساجد والزوايا التي تعتبر مزارا مثل: مسجد السيد أحمد البدوي بمدينة طنطا بالمحافظة الغربية[2]، ومسجد أبي العباس المرسي بمدينة الإسكندرية...[3].

و في قرية المعادي التابعة لمحافظة القاهرة يوجد دير العدوية و لا يزال هذا الدير موجودا بين المعادي وطرة، و قد سمي بهذا الإسم نسبة إلى سيدة مغربية أنشأته تسمى العدوية، و الآن أطلق عليه النصارى اسم كنيسة العذراء[4]، و على الشاطئ الشرقي تقع قنا التي ينتسب إليها السيد عبد الرحيم القنائي من مواليد نزعا من أعمال سبتة بالمغرب الأقصى و هو من أهم مشايخ المسلمين بهذه المدينة التي أقام فيها وتزوج منها وأنجب

---

[1] نفس المرجع، ص13-14.

[2] محمد رمزي، القاموس الجغرافي، القاهرة، 1958م، ج2، ص102. ابن حوقل، المسالك و الممالك، ليدن 1833م، 221، الإدريسي، المصدر السابق، ص197(مدينة طنطا هي قاعدة محافظة الغربية و قد ازدادت شهرتها و ارتفع شأنها عندما دفن بها و لي الله السيد أحمد البدوي).

ابن مماتي، المصدر السابق، ص127. السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص173. الجبرتي، المصدر السابق، ج2 ، ص77. (أحمد البدوي من الجالية المغربية المقيمة بهذه المدينة).

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص235. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص232.

[4] المعادي، قرية قديمة عرفت باسم منية السودان، حيث كان بها مرسى المراكب المخصصة لتغذية الناس، و كانت المعادي تابعة لناحية البساتين، انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص196. محمد رمزي، المرجع السابق، ج3، ص17. لبيب حبشي، الأديرة في صحراء العرب، ص137، ابن مماتي، المصدر السابق، ص172. ابن دقماق، المصدر السابق، ص184.

أولادا إلى أن توفي[1]، و في مدينة جرجا بمحافظة سوهاج، يقول المقريزي: "إن الظاهر برقوق سنة (785هـ/1383م)، أنزل عرب هوارة الذين نزحوا من طرابلس الغرب بالمغرب الإسلامي، وأقطعهم جرجا فأقاموا بها وعمروها[2]، و في مدينة قوص بمحافظة قنا، يقول ابن جبير بأنها كانت ملتقى الحجاج المغاربة، و منها يمرون بصحراء عيذاب* متوجهين نحو جدة[3].

و في مدينة البهنسا التابعة لمحافظة المنيا ظهر بها كثير من جهابذة العلماء منهم الإمام القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي البهنسي الذي انتهت إليه رياسة المالكية في عصره (ت684هـ/1285م)[4]، و في مرسى مطروح توجد الزوايا التابعة للطريقة السنوسية، التي أسسها محمد بن علي السنوسي المعروف بالسنوسي الكبير، من ضواحي مستغانم بالجزائر، حيث انتشرت هذه الزوايا في الصحراء

---

[1] قنا، مدينة مصرية قديمة شهيرة بالصعيد الأعلى، تقع على الشاطئ الشرقي للنيل، و كانت منذ عهد الفاطميين حتى نهاية الحكم المملوكي من أعمال القوصية، ثم أصبحت محافظة، أنظر: الأدفوي، المصدر السابق، ص19. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج7، ص163. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص292.

[2] جرجا، مدينة مصرية قديمة على الضفة الغربية للنيل، كانت تتبع كورة القوصية في العصر الفاطمي، ثم ألغيت أعمال القوصية أنشئ بدلها ولاية جديدة باسم جرجا قاعدتها سوهاج، أنظر: علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج10، ص53. الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص112. المقريزي، البيان و الاعراب، ص37. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص313.

* عيذاب، كانت نقطة اتصال بين التجارة البحرية و التجارة النهرية و كان ميناؤها يتميز بعمقه الكبير والشعاب النائية، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة و اليمن و زنجبار بطريق البحر، ثم تحمل على الإبل في الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص، و من هناك تنتقل إلى القاهرة في النيل، أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص468. ابن جبير، المصدر السابق، ص64.

[3] قوص، مدينة هامة في محافظة قنا، كان لها شأن عظيم في الصعيد، فقد كانت قاعدة الإقليم منذ العهد الفاطمي، أنظر: ابن جبير، المصدر السابق، ص35. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص381. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص292. ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، القاهرة 1924، ج3، ص81.

[4] البهنسا، كانت قاعدة لكوره البهنسا ثم قاعدة للأعمال البهنساوية في العصر المملوكي، و مقاطعة تابعة لمحافظة المنيا، أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ص49. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص382-383.

المصرية حتى بلغت حوالي 20 زاوية[1]، و يسكن مرسى مطروح قبائل عربية من أولاد علي وجماعة من المهاجرين من طرابلس الغرب من المغرب الإسلامي[2].

و في محافظة الدقهلية التي أطلق عليها إسم المرتاحية نسبة إلى طائفة من جنود المغاربة الذين دخلوا مع جيش جوهر الصقلي، و رغبوا في الاشتغال بالزراعة، فأنزلهم بهذه المنطقة فعرفت بهم منذ ذلك الوقت[3]، و في واحة سيوة التابعة لمحافظة مرسى مطروح كانت في أواخر القرن (8هـ/14م) بلدة صغيرة يسكنها نحو 600 نسمة من البربر يتكلمون لغة زناتة، يقول البكري: "أهلها كلهم بربر لا عرب فيهم..."، كما يقول الدكتور فخري: "إن سكان سيوة يختلفون عن باقي سكان الواحات المصرية"، ويقول: "إنهم من سلالة قبيلة المصامدة البربرية".

هذه بعض الأمثلة عن انتشار الجالية المغربية في المدن والقرى المصرية ومدى تأثيرها في المجتمع المصري، كما لا ننسى أثر الرحلات المغربية إلى المشرق عامة ومصر والشام خاصة، حيث تعددت رحلات المغاربة إلى مصر والشام و لم تنقطع على مدى مراحل التاريخ الإسلامي، كذلك تكاثرت أعداد من استطاب منهم المقام في مصر وتشكلت منهم أكثر من طبقة إجتماعية بين سكان هذه البلاد كما ذكرنا سابقا، ونقرأ عن المظاهر الإجتماعية لهذا الجانب في أوصاف مختلفة جاءت على ألسنة الرحالة المغاربة.

و يشير ابن بشكوال إلى أن أبا القاسم أصبغ بن الفرج بن فارس الطائي القرطبي (ت400هـ/1009م) لما حج إعترض القافلة لصوص العرب في أرض الحجاز، فناضل عن الرفقة ودافع و احتمت به و لم يرزأهم بسببه شيء[4]، والفقيه ابن جارة المغربي (ت573هـ/1177م) قد نجح في تحويل جهود رفاقه الحجاج والدارسين أثناء وجودهم بمدينة الإسكندرية خلال سنة (562-566هـ/1166-1170م) للمشاركة في حركة

---

[1] الجبرتي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

[2] مرسى مطروح، بلدة قديمة، كان لها شأن كبير منذ القديم، و اشتهرت بتصدير الشعير و الإسفنج و البلح والأغنام، كما كانت مصيفا للملوك و الأمراء، و هي ميناء صغير حوله عدد من البحيرات، أنظر: سعاد ماهر، المرجع السابق، ص146. حسن محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957، ص138.

[3] إقليم الدقهلية، تكون هذا الإقليم باسمه الحالي في عهد الدولة الفاطمية، و قبل ذلك كان مقسما إلى كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ثم ضم بعضها إلى بعض و سميت الدقهلية نسبة إلى قاعدتها دقهلة، أنظر: محمد رمزي، المرجع السابق، ج1، ص26.

[4] ابن شكوال، المصدر السابق،ج1، ص180-109، ترجمة رقم252، و قد تتلمذ أبو القاسم القرطبي بمصر على المحدث عبد الغني ابن سعيد و معاصريه من علماء الحديث و الفقه خلال العصر الفاطمي الأول كما سنتبين فيما بعد.

المقاومة الشعبية التي كانت على أشدها -آنذاك- ضد الوزير الفاطمي شاور وحلفائه وعملوا على حصار المدينة، وعقب دخول شاور وحلفائه مدينة الإسكندرية، وأثناء المحاكمة التي عقدت لمحاسبة زعماء المقاومة، انفرد ابن جارة بالحديث نيابة عن الجميع، مؤكدا إستعداد الفريق لخوض المزيد من المعارك ضد كل من جاء تحت الصليب كائنا من كان[1].

إن هناك بقاعا من أرض مصر صارت شبه مخصصة لإقامة هؤلاء الوافدين، من ذلك: مدينة الإسكندرية التي إختصت بإقامة العدد الأكبر من هؤلاء الحجاج والدارسين، ولعل وجود سوق المغاربة بقلب المدينة واستمراره إلى عهد قريب كأشهر أسواق الإسكندرية بما يدل على ذلك[2]. و في الفسطاط نجد أكثر من موضع إحتفظ لمدة طويلة بما يدل على إقامة هؤلاء الوافدين به: مثل زقاق المغاربة[3]، و دار رحبة السوسي نسبة إلى أحد الحجاج أو الدارسين القادمين من أرض السوس بالمغرب الأقصى[4]. و لا ننسى رحبة الأندلس التي يؤكد المقريزي أنها كانت أشبه بحي متكامل المنشآت، إذ كان يضم رحبة ومسجدا ورباطا للعجائز المنقطعات الصالحات، و آخر للأرامل العابدات، وبستان مثمر[5]، ثم مسجد ابن طولون الذي كان ينزل فيه المغاربة بأباعرها ومتاعها، عندما تمر بمصر أيام الحج[6]. و هناك جامع المغاربة الذي كان يوجد بجزيرة الفيل -المواجهة لساحل بولاق- و كان يسمى بذلك لإقامة بعض المغاربة إلى جواره[7].

---

[1] المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج3، ص258-256. أنظر كذلك: ص343-347.

[2] سعد زغلول عبد الحميد، الأثر المغربي و الأندلسي، ص209.

[3] ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص15.

[4] ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة ليدن، ص120. ابن دقماق، المصدر السابق، ج4، ص29.

[5] المقريزي، الخطط، ج3، ص455-456. أما المسجد فهو مسجد الأندلس أو السيدة رقية، و الرباطان كان يطلق عليهما معا رباط الأندلس، و هذه المنشآت مما أمرت السيدة جهة مكنون الأمرية بإنشائها في سنتي (526هـ-527هـ/1132-1133م)، و سيلي الحديث عن دور بعض الفنيين و البنائين الأندلسيين في زخرفة هذه المنشآت، و كذا في إضافة لمسة معمارية واضحة المعالم على العمائر الإسلامية بمصر، خلال هذه الفترة و ذلك في الفصل الثقافي، وراجع كذلك: الطاهر أحمد المكي، دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، القاهرة 1983م، ص25.

[6] المقريزي، الخطط، ج3، ص147. و يلاحظ لفظة المغاربة، و ما تدل عليه من أنهم كانوا يتجهون مباشرة للإقامة بمسجد ابن طولون.

[7] ابن دقماق، المصدر السابق، ج5، ص46. أما عن أسباب تسمية جزيرة الفيل، فأكثرها ترجيحا أنه كان لأحد الخلفاء الفاطميين مركبا يعرف بالفيل، و أن هذا المركب تحطم على ساحل هذه الجزيرة فسميت به.

و إنهم كعادة كل البشر ظهرت بينهم متناقضات كثيرة فمثلا ظهر منهم الغنى الجواد الذي سمحت نفسه بالإنفاق في العديد من أوجه البر، مثل الأحدب القزاز الذي أنفق من جيبه الخاص ما زاد على الألف دينار في بناء وتعمير دار الخلوة والتعبد بجبل المقطم، المعروف بكهف السودان[1]. و على النقيض تماما كان بينهم البخيل المقتر الذي دفع حياته ثمنا لإمتناعه عن دفع أجرة المعدية التي كانت ستقله إلى الضفة الأخرى من شاطئ النيل، وأصر على عبوره سباحة، رغم إشتداد الفيضان، فأخذ ثيابه وجعلها على رأسه، وسبح قاطعا النيل وهو في معظم تياره، فكان آخر العهد به. و كان ذلك الشخص هو سعيد بن جهير البلكوني، نسبة إلى كورة بلكونة من أعمال قرطبة كان حيا خلال القرن (5هـ/11م)، الذي جمع إلى جانب بخله خبث نفس و ولوع بالهجاء حتى أن أعيان بلده أجمعوا على نفيه من الأندلس[2].

و كان منهم الفقير الزاهد، المترفع عن زخرف الدنيا تفرغا للعبادة، مثل أبي عبد الله محمد بن مسروق الزاهد، الذي وصف بأنه ترك الدنيا عن مقدرة، رغبة فيما عند الله، وقد حكى عن أحد السكندريين أنه دخل عليه ذات يوم فوجده راقدا على لبد، و بين يديه شقفة فيها رماد يبصق فيها، وجارية جالسة في بيته تغزل[3]، و ممن على شاكلته إسماعيل بن رباح الجزري، الذي حج آخر عمره، فدخل حلقة علم عبد الله وهب المحدث المصري، وعليه ثياب خشنة رثة، فلم يعتد أحد به، و عندما أبدى إستياءه من هذه المعاملة، ناداه ابن وهب ونصحه بلبس المعتدل من الثياب، فأجاب ابن رباح بما يدل على صدق عقيدته وإقتناعه بمسلكه، و قد أمن ابن وهب على قوله[4].

أما عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القرطبي (ت413هـ/1022م) المعروف بالقنازعي نسبة إلى عمل القنازع التي تشبه القلانس، فعلى الرغم من شدة فقره أثناء إقامته بمصر، نجده لم ينحط إلى مسألة أحد. وعن ذكرياته بمصر يقول القنازعي: "كنت بمصر"، وشهدت العيد مع الناس، فانصرفوا إلى ما أعدوه، وانصرفت إلى النيل وليس معي ما أفطر عليه إلا شيء من بقية ترمس بقي عندي في خرقة، فنزلت على الشط

---

[1] المقريزي، الخطط، ج3، ص470.

[2] ابن سعيد الأندلسي، المصدر السابق، ص219.

[3] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص162-127.

[4] أبو العرب، المصدر السابق، ج2، ص67. المالكي، المصدر السابق، ج1، ص245.

وجعلت آكله وأرمي بقشره إلى مكان منخفض تحتي، و أقول في نفسي: "تــرى إن كــان اليوم بمصر في هذا العيد (من هو) أسوأ حالا مني؟ فلــم يكــن إلا مــا رفعــت رأســي وأبصرت أمامي، فإذا برجل يلقط قشر الترمس الذي أطرحه و يأكله"[1].

وعلى العكس من ذلك نجد الكثيرين منهم وقد وقفوا بباب الأمــراء وكبــار رجــال الدولة يلتمسون عندهم الرزق، منهم: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبــي الصــلت الداني الذي قيل عنه: "دخل مصر في أيام أفضلها فلم ينل منه أفضالا، وقصده للنيل فلــم يجد لديه نوالا"[2]. وأبو عامر عيشون الأندلسي الذي لجأ هو الآخر إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، فكان نصيبه جائزة مالية بسيطة لم تغنه عن تكرار السؤال[3]. أمــا أطــرف محاولة قام بها بعض هؤلاء الوافدين للإرتزاق فقد تمثلت في الاهتمام بالتنقيب عن كنوز الفراعنة. وقد أكد ناصر خسرو ذلك قائلا: "ويأتي لهذا الأمر رجال من المغرب وديــار مصر والشام"[4].

ولعل أهم ما تميزوا به أثناء إقامتهم بمصر وعد إمتدادا لتأثرهم بالعادات والتقاليــد الشائعة في بلادهم، تحدث المفرد منهم عن نفسه بصيغة الجمــع، كــان يقــول: "نأكــل ونشرب،...إلخ"، بدلا من: "آكل وأشرب،..." وهي الملاحظة التي أكد سعد زغلول علــى إنتشارها بنواحي المغرب العربي إلى اليوم و لا تزال كذلك مستخدمة فــي لهجــة أهــل الإسكندرية[5]. و يبدو أن هذا الأسلوب في الحديث كان شائعا بين أهل المغرب منذ زمــن بعيد، يدلنا على ذلك، الحوار الذي دار بين أبي المقارع حسن بن أحمد بن ناقــد، آخــر الولاة الأغالبة على إقليم طبنة –من أعمال إفريقية– و بين أبي عبــد الله الشــيعي قائــد

---

[1] ابن سعيد، المصدر السابق، ص166-167.

[2] القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة (1326هـ/1908م)، ص57.

[3] المقري، المصدر السابق، ج3، ص251-252.

[4] ناصر خسرو، سفرنامة، ص69. و كان الباحث عن هذه الدفائن و الكنوز يسمى مطالبا، و قد جعل الخليفة المستنصر لهذه الحرفة موظفا خاصا عظيم الجاه يطلق عليه أمير المطالبين أو مقدمهم. و كان يؤخذ من المطالب خمس ما يكتشفه من كنوز، و الباقي له، أنظر: المقريزي، إتعاظ، ج3، ص191. عن إستدعاء الخليفة الحافظ الفاطمي لمقدم المطــالبين بصفة دورية ليعرف من خلاله تفاصيل لم يتم الكشف عنها، راجع كذلك: عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والإعتبار فــي الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة بأرض مصر، مجهول التحقيق و النشر، ص37. حيث يؤكد شيوع فكرة البحــث عن الكنوز الفرعونية في نواحي صعيد مصر طوال العصر الأيوبي.

[5] سعد زغلول عبد الحميد، الأثر المغربي و الأندلسي، ص209.

جيوش الفاطميين المقيم على حصار أبي المقارع. إذ عندما سأله الشيعي عما سيفعله إذا لم يستجب لشروطه في الإستسلام، أجاب أبو المقارع بما نصه: نكونوا كما قال الشاعر:

وأثبت في مستنقع الموت رجله   وقال لها: من تحت أخمصك الحشر[1]

ويحوي معجم شمال المغرب بين دفتيه بعض الألفاظ التي لا تزال شائعة هناك، ونجدها كذلك معروفة في العامية المصرية، مثل كلمة **أش، بالكسر، والفتح** الإستفهامية المأخوذة من **أي شيء** كقولهم **أشكون** بمعنى أي شيء يكون؟ أو **إش عندك** ماذا بك؟[2] وكلمة **أع** التي يلفظ بها المتقيء[3].

و **أغ** لمناغاة الأطفال[4] و **آهي**[5]، وكلمة **يلة** التي ما تزال تستخدم لحث الشخص على على السرعة في إتمام العمل[6] وغيرها.

كما أنهم عرفوا بتفضيلهم للبس القلانس الطوال، و في معظم الأوقات حتى صار ذلك علامة على مظهرهم[7]، و مما يذكر في هذا الشأن أن الفقيه الأندلسي عبد الملك بن حبيب أثناء وجوده بمصر خلال سنة (207هـ/823م) قد دافع عن إرتدائه القلنسوة وقت الظهيرة في يوم شديد الحرارة، قائلا لسائله: "هي تيجاننا"[8]. ويلاحظ أن هذه الفكرة قد إنتقلت –من خلال هؤلاء الوافدين– إلى مجتمع الفسطاط بحيث إعتادها بعض المصريين،

---

[1] أنظر في ذلك: إبن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص386. و قد أكد حسن مؤنس هامش تحقيق رقم2 بالصفحة ذاتها أن وردت كما هي بالنص.

[2] عبد المنعم سيد عبد العال، معجم شمال المغرب، ص18.

[3] المرجع السابق، ص19.

[4] نفس المرجع، ص19.

[5] نفسه وفي نفس المكان.

[6] نفسه، ص209. و هذا اللفظ فارسي الأصل بمعنى: أرخي ـ خلص ـ سرح.

[7] يشير إبن تغري بردي في النجوم الزاهرة، ج2، ص20، إلى أن عادة لبس القلانس الطوال كانت معروفة أولا في مجتمع المدينة المنورة، ثم إنتقلت بعد ذلك إلى العراق حيث أمر الخليفة المنصور العباسي في سنة (153هـ/770م) بإلزام الناس في بغداد بعادة لبس القلانس المعمول بها في المدينة و لا شك أن هذه العادة قد إنتقلت إلى المغرب والأندلس من خلال وافديهم للحج والدارسة، ثم أنها بقيت بينهم و إشتهروا بها.

[8] راجع في ذلك: ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص313-314، ترجمة رقم 816. و كان صاحب السؤال المحدث و الفقيه المالكي أبو محمد سعيد إبن أبي مريم، الجمحي المصري، الذي و صف إجتماعه بإبن حبيب قائلا: "فدخلت عليه في القائلة في شدة الحر، و هو جالس على شدة و عليه قلنسوة طويلة، فقلت: ما هذا ؟ قلنسوة في مثل هذا؟ فقال: هي تيجاننا".

وبخاصة العلماء، و قد قيــل فـــي قاضـــي مصـــر ومحـــدثها المفضـــل بـــن فضـــالة (ت181هــ/796م) أنه بدا و كأنه من رجال المغرب من أجل أنه كان يعتم بعمامة سوداء على قلنسية طويلة[1]. لسبب لا نعلمه عارض القاضي محمد بن أبي الليث الذي إستقضـــاه الخليفة المعتصم العباسي على مصر من سنة (226هــ/841م-237هــ/851م) ظـــاهرة إرتداء القلانس التي تفشت -آنذاك- بين أهل الفسطاط بطريقة غريبة، حتى قيل عنهم في ذلك: "كان زي أهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالـــة مـــنهم لبـــاس القلانـــس الطوال، كانوا يبالغون فيها"[2]. فأمرهم أن يتركوها، فلم ينتهوا، فشدد القاضي في قرار هو عهد إلى أعوانه بانتزاع ما على رؤوس الحاضرين في أحد مجالسه. ويشير الكندي إلـــى أن جميع علماء الفسطاط قد أذعنوا لهذا القرار عدا محمد بن رمح والمزني أما البـــاقون فكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى ابن أبي الليث، و لا يحضرون مجلسه، في قلنســـوة[3] وقـــد داوموا على ذلك حتى بعدما صرف ابن أبي الليث عن القضاء وقد قيـــل عـــن الشـــاعر المصري المعروف بالجمل، أنه قال في ذلك مخاطبا ابن أبي الليث:

أخفت أيام الطوال و أهلهـــــا   فرموا بكل طويلة لم تقصـــــــــر
مازلت تأخذهم بطرح طوالهم   و المشي نحوك بالرؤس الحســـر
حتى تركتهم يرون لباسهـــــا   بعد الجمال: خطيئة لم تغفـــــــر[4]

ومن الطريف ما ذكر عن تصدي بعض العامة لأبي الليـــث -إثـــر صـــرفه عـــن القضاء- في إحدى الطرقات وأنهم إنتزعوا عمامته، فلعبوا بها بعد ما فعل بقلانس أهـــل مصر بثمانية أيام[5].

ولعل إشتهار أهل الأندلس بتفضيل الزي الأبيض في حالات الحزن قد إنعكس على بعض الوافدين منهم إلى مصر، و قد قيل في ذلك:

---

[1] الكندي، كتاب القضاة، تحقيق: رفن جست، ص378.

[2] نفس المصدر، ص460.

[3] المصدر السابق، ص460-461.

[4] نفس المصدر، ص461. وهذا الشاعر هو الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبـــر (170-257هـــــ/787-872م)، من أشهر الشعراء في مصر، أنظر عنه: محمد مصطفى الماحي و محمد عبد المنعم خفاجي، شعراء مصر من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الفاطمية، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م، ص73-75.

[5] الكندي، المصدر السابق، ص462.

ألا يا أهل أندلس فطنتـــــــم   بلطفكم إلى أمر عجـــــــيب
لبستم في مأتمكم بياضـــــــا   فجئتم منه في زي غريــــب
صدقتم فالبياض لباس و حزن   و لا حزن أشد من المشيـــب[1]

وقد إشتهر عن الكثيرين من هؤلاء الوافدين ميلهم للتعمق فـــي الغيبيـــات والتنبـــؤ بالمستقبل وعمل الرقى. من ذلك ما عرف عن أبي القاسم مسلمة بن القاسم القرطبي: الذي كان بمصر قبل سنة (320هــ/932م) من أنه كان صاحب رقى و نيرنجات أي المعوذات الواقيات من السحر الأسود و أثره[2] و قيل أن ابن تومرت كان أوحد عصره في علم خط الرمل، وقد إعتنى بتنمية مداركه في هذا العلم أثناء رحلته إلى المشرق، التي كان خلالها بالإسكندرية في سنة (510هــ/1117م)[3]. أما علي بن إبراهيم الصقلي المعـــروف بـــابن المعلم النحوي المتوفى بمصر سنة (532هــ/1138م) فقد مهر في تفسير الأحلام، حتـــى أن الحافظ السلفي إستعان به في تفسير رؤية عرضت له[4]، و يؤكد المقريزي أنـــا أســـرة الأنصاري ذات الأصل الأندلسي قد بلغت النهاية في إتقان علم السيمياء أو علـــم أســـرار الحروف الذي هو ضرب من ضروب السحر، و ذلك في أيام الخليفة الفـــاطمي الحـــافظ لدين الله، وبرز منهم الشيخ أبو عبد الله الأنصاري، عميد الأسرة: الذي وصف بأنه أوحد زمانه في علم السيمياء[5].

و كان أن طلب الخليفة الحافظ منه أن يريه شيئا من علمه، فتمتم بكلمـــات مبهمـــة توهم الحافظ في أثرها أن ساحة القصر صارت عبارة عن ساحة قتال في عرض البحـــر بين سفينة كبيرة من جهة وعدة موانئ حربية من جهة أخرى. وذهل الحافظ لما رآه مـــن لمعان السيوف ومرور السهام و كل ما يدل على أنها معركة حقيقية سرعان مـــا إنتهـــت

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج4، ص404. و لا شك أن الأندلسيين بتفضيلهم اللون الأبيض كانوا مقلدين للإمام مالك بن انس، الذي قلدوه في كثير من سلوكياتهم و أمور حياتهم، عن ذلك أنظر: إبن فرحون، الديباج المذهب، ص15.

[2] راجع ترجمته عند إبن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص128-130، ترجمة رقم 1423. أنظر: الزاوي، ترتيـــب القاموس المحيط، ج4، ص468.

[3] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص100.

[4] القفطي، أنباء الرواة، ج2، ص220-221.

[5] أنظر: المقريزي، إتعاظ، ج3، ص192. و قد أورد ابن خلدون في المقدمة، ج3، ص1159-1196، فصلا خاصا في التعريف بعلم السيمياء و شرح الكثير من خصائصه.

بهزيمة أصحاب السفينة الكبيرة و إستسلامهم، ثم مسير الجميع وسط نفير الأبواق ودقات الطبول إلى أن غابوا عن الأنظار.

و لما أفاق الحافظ وجد كل شيء عاد كما كان بالقصر، وقد تطلب الأمر أن يستعرض ابن الأنصاري مواهبه مرة أخرى في حضور الخليفة الحافظ ولكن مع الحاضرين الذين أقروا بقدراته في هذا الفن[1]، و إستمر ابن الأنصاري على شهرته حتى وفاته بالفسطاط تاركا لإبنيه رصيدا كبيرا من التقدير والإحترام –وربما الرهبة– في نفس الخليفة، و إلا فبماذا نفسر تلك المكانة الكبيرة والرفيعة التي تمتع بها إبنا الأنصاري والوظائف الهامة التي استمرا في شغلها طوال فترة حكم الحافظ[2]. ولكن للأسف إتسمت تصرفات هذين الأخوين بكثير من الغرابة، إذ لم تبد من أيهما كفاءة تذكر في إدارة الأعمال التي أسندت إليهما، رغم أهميتهما.

والأهم من ذلك أنهما إستمرا –في شبه إصرار– على الإستهتار برجال الدولة، أو كما يقول المقريزي: "فوثبا على رؤساء الدولة وأعيان كتابها وخواص الخليفة... وغيرهم"[3]، ومن المثير حقا أن الحافظ لم يلتفت لكثرة الشكايات التي حاول بعض موظفي الدولة تقديمها إليه مشفوعة بالأدلة القوية على صدق مزاعمهم. بل نجده يرد على أحد الشاكين قائلا: "أنا أعلم منك بهذا، وأعلم من المذكورين ما ذكرت، وقد كنت سألتك فيهما مرة (أي نسيان أحد أخطائهما)، فإن لهما علينا خدمة"[4].

[1] المقريزي، إتعاظ، ج2، ص220–221. حيث الإشارة إلى أن الحاضرين قد أنكروا على ابن الأنصاري شيئا مما تطلب منه أن يتم على الخيل المعدة لركوبهم، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا من فرسه كأنه ثور و قرناه كأعظم ما يكون من القرون.

[2] أنظر في ذلك: المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص17–18. حيث الإشارة إلى أن الابن الأصغر قد صعد في التدرج الوظيفي في ديوان الجيش بطريقة تدعو للدهشة و ص18 حيث تنقل الابن الأكبر –المعروف أيضا بأبي عبد الله– في الإشراف على دواوين البريد، الإنشاءات، والمكتبات.

[3] المقريزي، اتعاظ، ج3، ص194.

[4] نفس المصدر، ج3، ص195. حقيقة الأمر لا نعرف المقصد الحقيقي بكلمة الخدمة التي وردت في النص. و إن كنا نرجح أنها علاقة بما قيل عما أبداه الخليفة الحافظ بصدد نقل جثمان رسول لله صلى الله عليه و سلم من المدينة المنورة إلى القاهرة، و أنه أرسل حوالي أربعين رجلا من أهل النجدة و القدرة إلى المدينة لتنفيذ هذه المهمة الخطرة، غير أنهم فشلوا تماما، عن ذلك راجع: نفس المصدر، ج3، ص192.

ب إسهامات المغاربة والأندلسيين في ميدان الزهد والتصوف في مصر وبلاد الشام

احتضنت حواضر مصر وبلاد الشام خلال فترة هذا البحث من المغاربة والأندلسيين الذين تنطبق عليهم تسمية زهاد ومتصوفة، احتضنت أعدادا كبيرة جدا إذا ما قيست بالفئات الأخرى.

ويمكن تقسيم هؤلاء إلى قسمين هما:

القسم الأول:

الزهاد: في بداية القرن الأول الهجري ظهرت مجموعة من المسلمين الأوائل حبذت الإقامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم، وهم "أهل الصفة" وقد أطلق عليهم لفظ "الزهاد" و من تلك اللحظة شاع إستخدام هذا اللفظ في العالم الإسلامي.

ومعنى كلمة **الزهد** في اللغة هو الإعراض عن الشيء أو عدم الإقبال عليه أو النظر إلى الحياة الدنيا بشيء من الإستخفاف، وعدم التكالب عليهما، و إنحصر نشاطهم في العبادة والورع والدعوة إلى الإقتداء بالسلف الصالح في الحياة الدنيا كالبساطة في العيش وقهر النفس، وهناك من إنفرد منهم بمزية خاصة وهي الدفاع عن ثغورهم التي رابطوا فيها ضد الزحف الصليبي[1].

ليس الزهد في الإسلام بمعنى العزلة عن الحياة وعدم المشاركة فيها فالإنسان خلق بطبيعته ليكون خليفة الله على هذا الكوكب، والهدف من وجوده على الأرض ليطور ذاته ويرقى بها و يسعى بالمنهج العلمي إلى معرفة أسرار وخصائص هذا الكون الذي وجد فيه، ومن خلال هذه المعرفة يصل إلى معرفة خالقه، وكلما زادت معرفته به زاد إيمانه وزهد في زخرف الحياة وملذاتها. ولقد إستوعب كل هذا علماء وفقهاء وأئمة الصوفية منذ القرن (4هـ/10م)[2].

---

[1] ابن تاويت الطنجي، (من زوايا التاريخ المغربي)، مجلة تطوان، العدد 10، السنة 1965م، المغرب، الرباط، ص43 وما بعدها.

[2] لم يرد في كتاب الله لفظ الزهد إلا في آية واحدة من سورة يوسف عليه السلام حيث قال تعالى: "و شروهم بثمن بخس، دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين". سورة يوسف. وقد نقل أئمة و علماء و فقهاء التصوف تعريفاتهم عن الزهد من مفهوم ما جاء به الكتاب و السنة في هذا الصدد.

- حيث: "سلب الله الدنيا من أوليائه و حماها من أصفيائه و أخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم"=

ولقد تطور الزهد مع تطور الحياة الإجتماعية والظروف التي طرأت على الحياة الثقافية الإسلامية، فتطور الزهد إلى ما يعرف باسم **التصوف.**

لقد ترتب على الفتح الإسلامي في بلاد المغرب تدفق كثير من المشارقة إلى تلك النواحي، فتنوعت مهامهم وتعددت أهدافهم فإنهم قد تضافروا جميعا في إنجاز أهم شيء وهو أسلمة بلاد المغرب وتعريبها مما جعل بلاد المغرب جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي الإسلامي.

وكان ممن قدم من زهاد المشرق الإسلامي إلى بلاد المغرب، فلما قدموا أثاروا في نفوس المغاربة الإعجاب بالزهد والميل إليه، وكان من هؤلاء نفر من التابعين العشرة الذين أرسلهم الخليفة الأموي **عمر بن عبد العزيز** ليفقهوا أهل المغرب في الدين ومنهم :

إسماعيل ابن عبيد الأنصاري المعروف **بتاجر الله** الذي كان من أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة.قال عنه **سعيد بن المسيب** أنه " **نسك نسك العجم** "، سكن القيروان وهو الذي بنى جامع الزيتونة وكان فقيها وزاهدا[1].

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي: كان فقيها صالحا زاهدا في الدنيا، ضرب به المثل في الزهد حتى قيل عنه: "ما رأينا زاهدا في هذه الأمة غير إثنين هما: عمر بن عبد العزيز، و إسماعيل ابن عبيد الله المخزومي" ولقد تعلم أهل إفريقية من فقهه وزهده حتى توفي بالقيروان[2].

رحلات الزهاد المغاربة والأندلسيين إلى المشرق الإسلامي

كانت رحلات المغاربة إلى بلاد المشرق لا تنقطع إذ كانوا يتدفقون على المشرق تدفقا مستمرا لأسباب شتى كالحج إلى البقاع المقدسة و لطلب العلم في مدارسه المشرقية خاصة في الحجاز، والشام ومصر ولغير ذلك من الأسباب ويمكن القول أن الرحلة إلى المشرق كانت حلما يراود كل مغربي.

- و يقول ابن جلال الصوفي: "الزهد هو النظر في الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينيك فيسهل الإعراض عنها ".
- و يقول ابن خفض: "الزهد في الحلال و ترك الحرام فريضة ".

و للمزيد راجع كتاب بحار الصوفية، أحمد بهجت، دار المعارف، ص111-113.

[1] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص105-106. الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص190-192.

[2] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص106-107. الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص191-195.

وكان كثير من هؤلاء الذين إرتحلوا إلى المشرق من الزهاد والعباد الذين كانوا يسعون إلى لقاء الزهاد المشارقة للتعرف عليهم والأخذ عنهم، فمن هؤلاء الذين إرتحلوا إلى المشرق على سبيل المثال:

- **أبو عبد الله محمد بن مسرور** الزاهد، كان زاهدا صالحا راغبا في الآخرة، لقي في رحلته حين نزل بالإسكندرية **أبا شريح المتعبد الإسكندراني**[1].
- ومنهم كذلك **أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي** أصله من السوس الأقصى، وهو القائل عن الزهد حينما سئل عنه: "الزهد تجريد القلوب ونزوع اليقين بالانصراف سرا وجهرا" رحل إلى مصر وبقي حتى توفي بالطور بمصر[2].
- ومنهم **البهلول بن راشد**، وصفه المالكي في رياض النفوس بأنه وتد من أوتاد المغرب[3]، إلتقى **البهلول** في المشرق بالإمام مالك فلقبه هذا الأخير بعابد المغرب، وكان يضرب به المثل في الورع ببلاد المغرب[4].
- ومنهم **عبد الملك بن أبي كريمة**، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وغيرهما، قيل أنه كان مستجاب الدعوة ونسبت إليه كرامات كثيرة وكان له كتاب في الزهد، روى عنه بعض المشارقة[5].
- ومنهم **أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي**، كان فقيها صالحا زاهدا، رحل إلى المدينة فأدرك فيها أربعين رجلا من معلمي **ابن وهب**[6].
- ومنهم كذلك **أبو العباس بن موسى بن مخلد الغافقي**، كان شيخا صالحا فقيها، متعبدا و ورعا وزاهدا متواضعا، رحل إلى المشرق وسمع به جلة من العلماء[7].
- ومنهم **أبو عمر بشير بن عمروس**، كان من المتعبدين الزهاد، رحل إلى المشرق فدخل الشام، و طرطوس فلقي جماعة من الزهاد فانتفع بهم[8].

---

[1] المالكي، الرياض، ج1، ص193-194. الدباغ، معالم الإيمان، ج1، ص328.

[2] المالكي، نفس المصدر، ج1، ص916-917.

[3] المالكي، نفسه، ج1، ص200. الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص265.

[4] الدباغ، نفس المصدر، ج2، ص52.

[5] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص323. الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص191.

[6] الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص72-74.

[7] نفس المصدر، ج2، ص257-258. ابن فرحون، المصدر السابق، ج1، ص148. القاضي عياض، المصدر السابق، ج4، ص393.

[8] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص418-419.

• ومنهم **حمدون بن مجاهد الكلبي**، سمع من سحنون بن سعيد، فكان من أهل الفضل والدين والعفة والزهد والنسك والورع والعبادة، روى عنه جماعة من أهل مصر[1].

على هذا النحو رحل هؤلاء الزهاد وأمثالهم من المغاربة والأندلسيين إلى المشرق خاصة مصر والشام فالتقوا بزهادهم وأخذوا وتعلموا منهم، فكان هذا له أثر فعال في نشر الزهد في بلاد المغرب والأندلس، ثم كان تأثير هؤلاء على المجتمع المصري والشامي كبيرا.

أما القسم الثاني:

فإن التصوف عندهم، كان على وجه آخر، يختلف إختلافا جوهريا بحيث يمكن تسميته تصوفا فلسفيا، خرج عن الحدود المعروفة لدى الفريق الأول إلى درجة توصل بعضهم إلى حد القول، بأن التصوف والزهد ضرب من الذوق يستطيع صاحبه من خلاله، أن يتعرف على كنه وحقيقة وجود الله عز و جل، و بالتالي فليس بمقدور كل إنسان عمله أو التوصل إليه بطريق الممارسة والتدريب.

ولم يلاق هذا الفريق من المتصوفة، وخاصة بعض أفراده ذلك القبول الشامل في مصر والشام على الرغم من العبقرية، التي اتصف بها بعض أفراده، وكانت علامة فارقة بالنسبة لهم وذلك بالعكس من الفريق الأول، الذي لاقى أفراده قبولا شعبيا ورسميا، على الرغم من جهل أفراده على جميع المستويات تقريبا، بحيث غدوا عبئا ثقيلا على المجتمع، وشكلوا بالتالي تيارا مغايرا لتعاليم الدين الإسلامي، ومصدر عيب بالنسبة له، كون الإسلام كمبدأ أو عقيدة يرفض التواكل والدعة وعدم العمل، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم يلاق أفراد الفريق الثاني ذلك القبول، الذي لاقاه أفراد الفريق الأول ؟ للجواب على هذا السؤال لابد من القول، أن ظاهرة عدم القبول، كان مصدرها الفقهاء، الذين عملوا بكل الوسائل والسبل لإثارة الحقد والكراهية لهذا النوع من المتصوفة الذين بلغ نفوذ بعضهم حدا طغى على نفوذ أهل البلاط وأخطر من هذا، أنه زاد على نفوذ الفقهاء وتعرض لأساليبهم التي اتسمت بالتزلف والمراوغة من خلال التمسك بشكليات الدين الجامدة والمتحجرة وتفسيره بأسلوب شديد التزمت، الأمر الذي يرفضه ويحاربه المتصوفة، الذين حملوا روح التمرد والثورة المستترة ضد كل سلطة دينية رسمية[2].

---

[1] القاضي عياض، المصدر السابق، ج5، ص147.

[2] آسين بالاثيوس، ابن العربي ترجمة عن الاسبانية: عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1965م، ص70–79.

وفي هذه الفترة بالذات قدر للمشرق أن يتعرف على طرق جديدة من التصوف العام والفلسفي، بواسطة علماء مغاربة وأندلسيين هاجروا إلى المشرق العربي، ونشروا فيه مذاهبهم الصوفية على الرغم من وقوف الكثيرين من الفقهاء ضدهم. من هؤلاء الشيخ **محي الدين بن عربي** القائل بفكرة وحدة الوجود هذه الفكرة التي كانت في هذه الفترة من المفاهيم الغريبة والجديدة على المجتمع بشكل عام. ويعد ابن عربي هذا أهم شخصية أندلسية سكنت بلاد الشام ومصر وفي العصور الوسطى، من حيث تأثير إنتاجه وأفكاره التي جاء بها، والتي كانت مثار جدل ونقاش دام عدة قرون بعد وفاته ومازال حتى أيامنا هذه.

وأهم كتبه التي جسدت مذهبه في وحدة الوجود هي كتاب **نصوص الحكم** وكتاب **الفتوحات المكية**، ومهما يكن من أمر فإن ابن عربي يعد بحق من عظام المغاربة والأندلسيين سكان المشرق العربي كله، الذين إستطاعوا أن يتركوا بصمات خالدة على جبين الحضارة الإنسانية وذلك بغض النظر عن أقوال الحاقدين والشناع الذين لم ينصفوه بشيء.

لذلك فليس غريبا أن يلقى **ابن عربي** معارضة شديدة من قبل الفقهاء، على اعتباره هو المسؤول الأول عن إشاعة وإذكاء مثل هذه الآراء تجاه السلطة الدينية الرسمية المتمثلة في بعض الفقهاء، الأمر الذي سيوضح فيما يلي من صفات وأقوال.

ولم يكن الفريق الأول من الزهاد والمتصوفة على الرغم من عدد أفراده الكبير وسعة رقعة انتشارهم في كل أقطار المشرق وحواضره عموما ذلك الفريق الذي ترك آثارا ايجابية يمكن الوقوف عندها في أي شأن من شؤون الحياة المختلفة، وكل ما تركه هذا الفريق، لم يكن أكثر من تعاليم بسيطة في الأخلاق والزهد، من أجل الفوز والنجاة في الدار الآخرة، كما كان يتوهم أصحاب هذا الفريق، مع وجود استثناء بسيط، تجسد في أن بعضهم قام بتأليف عدة مؤلفات وشروح بسيطة، والأمثلة على ذلك كثيرة، لعل في ذكر بعضها دليل على حقيقة و واقع هذا الفريق، وبالتالي الدور الباهت الذي لم يكن بذي أثر خالد يمكن الارتكاز عليه.

وقد ساعد على إنتشار هذا الفريق عدة عوامل تجسدت في جسم الدولة في مصر وبلاد الشام. كان في مقدمة هذه العوامل:

1. تشجيع الدولة لتيار التصوف بأن شيدت دورا للتصوف عرفت بالزوايا أحيانا وبالخوانق أحيانا أخرى، وخصصت لهذه الدور المصاريف اللازمة لتلبية حاجة الساكنين فيها من المتصوفة، مثال ذلك أنه في عهد **الناصر محمد بن قلاوون**، رتب بخانقاه سريا قوس* لوحدها مئة صوفي، لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج[1].

2. مثال آخر أنه في سنة (792هـ/1380م) وعند إحتفال السلطان بعيد المولد النبوي حضر القضاة والأمراء ومشايخ العلم والفقراء، وجلس على يسار السلطان الشيخ المعتقد **أبو عبد الله المغربي**، ثم جلس القضاة يمينا وشمالا على مراتبهم، بمعنى أن السلطان فضل هذا المتصوف على كل رجال دولته[2]، مثل هؤلاء المتصوفة من الفريق الأول، **أبي عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي** (ت672هـ/1274م) الذي تجلى دوره الايجابي الكبير في حركة التأليف التي تميز بها عدد كبير من هذه الفئة إضافة إلى زهده وتصوفه، فإنه ألف عدة كتب وبمواضيع مختلفة منها كتاب **المسالك القريب في ترتيب الغريب** وكتاب **شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل** وكتاب **المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد** وكتاب **النبذة الجلية في ألفاظ ما اصطلح عليها الصوفية** وكتاب **زهر العريش في تحريم الحشيش** وكتاب **الزهر المضي في مناقب الشاطبي** وكتاب **الأربعين المضية في الأحاديث النبوية.**[3]

وقد كان لهؤلاء الصوفية وجود ملحوظ في أربعة مراكز شهيرة هي **بيت المقدس** و**الحجاز** و**القاهرة** و**دمشق**، فقد عرف عن واحد منهم سكن بيت المقدس عدة أقوال، هي عبارة عن نصائح تصدر عن أبسط الناس، مثال ذلك قوله:"من لم يدخل في الأمور بالأدبّ، لم يدرك مطلبه منها"، هذا المتصوف هو **محمد بن أحمد الأندلسي** (ت599هـ/1203م).

كما اشتهر أحد صوفية المغاربة بدعواته المستجابة، بحيث دعا لأحدهم بتخفيف الحرارة الجوية، فكان له ذلك بواسطة سحابة ظللته هو وأصحابه وأمطرت عليهم

* خانقاه سريا قوس أنشأها الناصر محمد بن قلاوون خارج القاهرة، إلى الشمال سنة (735هـ/1334م)، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج10، ص88-89.

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص172.

[2] نفس المصدر، ج12، ص73.

[3] اليونيني، المصدر السابق، ج3، ص72. الداودي، طبقات المفسرين، ج2، ص145. المقري، نفح الطيب، ج2، ص140-141.

فاغتسلوا وشربوا[1] ومثله يمكن ذكر متصوف كان أثره أكبر وأكثر عمقا في حياة المشرق كله، هو **سعادة المغربي** (ت730هـ/1330م) الذي حكي عنه أشياء خارقة، حتى قيل عنه أن الأرض تطوى له إلى غير ذلك من هذا القبيل[2].

وخرج عن هذا التيار مع بقائه ضمن صفوف أصحابه، **أبو عبد الله محمد الفاسي** المعروف **بابن الحاج** (ت737هـ/1339م).

وتجلى خروجه بمؤلفه المسمى **المدخل** وهو في أربعة أجزاء. وتأتي أهميته من أنه يلقي ضوءا على كثير من البدع المنتشرة في مصر في عصر سلاطين المماليك[3].

ويمكن أن يقال أن **إسماعيل بن محمد الفاسي** سنة (ت899هـ/1494م) يشبهه إلى حد ما ؟، حيث قام بشرح عدة كتب مثل كتاب **القرطبية في شرح المالكية** وشرحه لكتاب **حزب البحر** للشاذلي وشرح **الأسماء الحسنى** الذي جمع فيه بين طريقة علماء الظاهر والباطن وكتاب **قواعد الصوفية** الذي أجاد فيه كثيرا إلى غير ذلك. بالإضافة إلى بعض النصائح البسيطة، التي لا تحتوي على جديد يمكن أن يعول عليه[4].

و وجد من بين أصحاب هذا التيار جماعة معينة، لم تكن تهدف إلى الفوز والنجاة من خلال امتهانها الزهد والتصوف، بقدر ما كانت تهدف إلى جمع المال والثروة، مما يتنافى مع مبدأ التصوف، الذي نادى به أصحاب هذا الفريق وعملوا من أجله فقد قام الزاهد **محمد المغربي** (ت709هـ/1455م) بالقاهرة، بالتظاهر بمظاهر الزهد والتصوف، واتخذ لنفسه مكانا، لا يغادره صيفا ولا شتاء، ليلا ولا نهارا بالقرب من جامع الحاكم، حتى أن **الأشرف إينال** أمر بدفنه بتربته لما كان يشتهر عنه من الزهد والكرامات. وعلى الرغم من ذلك، فقد فوجئ الناس بأن وجدوا في مكان جلوسه ما يقارب من خمسة وعشرين ألف درهم[5].

ويتساءل ابن تغري بردى عن الذي حدث مع هذا الزاهد بشيء من الاستغراب بقوله: "والغريب أنه له بعد موته في المكان الذي كان يجلس عليه جملة كبيرة من الذهب

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص224. الذهبي، المصدر السابق، ج4، ص308. اليافعي المكي، المصدر السابق، ج4، ص242-243.

[2] الفاسي، المصدر السابق، ج4، ص242-243. السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ص121-122.

[3] المصدر السابق، المقريزي، ج3، قسم2، ص426.

[4] ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص362-364.

[5] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص125.

والفضة وهذا من الغريب العجيب، فإنه لم يكن في جذبته شك، فكيف يهتدي لجمع المال، وأنا أقول شيئا، وهو أن المغاربة في الغالب يميلون لجمع المال، فلعله كان هو أيضا يميل لجمع المال بالطبع على قاعدة المغاربة و الله أعلم"[1].

أما الفريق الثاني من المتصوفة، فإنه يختلف عن الفريق الأول بأن أصحابه كانوا أصحاب نظريات وطرق صوفية عرفت خلال العصور الوسطى، ومازالت معروفة حتى يومنا هذا، وأثارت هذه النظرية في الشرق جدلا كبيرا، لم يتوقف حتى هذه اللحظة، الأمر الذي يمكن تسمية تصوف هؤلاء بأنه تصوف فلسفي، و قد عومل معظم رجال هذا الفريق بالرضا والتقديس، مما أضفى عليهم صفة الخلود والديمومة.

يأتي في مقدمة الطرق والنظريات الصوفية، نظرية وحدة الوجود، التي قال فيها المتصوف الكبير **محيي الدين بن عربي** (ت638هـ/1241م)[2]، والذي كان له التأثير الأكبر، الذي جاء من خلال مذهبه **وحدة الوجود**[3] بحيث طغى على جميع الطرق

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص678.

[2] يلقب محي الدين بن عربي بالشيخ الأكبر للدلالة على رفعة شأنه بين المتصوفة المسلمين، ولد الشيخ في 28 تموز (564هـ/1168م) في مرسية على الشاطئ الشرقي للأندلس، ثم انتقل إلى اشبيلية عاصمة الفكر والفن آنذاك، ثم إلى قرطبة أثينا الفلسفة، و تعرف فيها و هو صغير السن على قاضيها الفيلسوف ابن رشد، ثم طاف في مراكش، و تونس، ومصر، و الحجاز، و بغداد و الموصل، و اختار أخيرا دمشق ليتوفي فيها في 16تشرين الثاني (638هـ/1240م).
لقد مارس ابن عربي التأمل في الوجود و هو فتى، و اطلع و هو شاب على مذاهبهم و طرائقهم في المشرق و المغرب، ثم تصوف و بنى تفكيره الصوفي على مذهب وحدة الوجود الذي يمثل حجر الأساس في تفكيره. وللمزيد راجع: مقدمة كتاب شجرة الكون لابن عربي، تحقيق: رياض العبد الله، دمشق 1985م.

[3] يرى بعض المستشرقين أن مذهب وحدة الوجود هو في الأصل "فكرة هندية انتقلت إلى الفرس وعن الفرس أخذها المتصوفة المسلمون" أمثال الحلاج و الجنيد و أبو يزيد البسطامي و غيرهم، فإنه في رأي بعض المستشرقين و الباحثين العرب الآخرين، لا يصح أن نضفي على تصوف هؤلاء صبغة وحدة الوجود لأن هذا المذهب لم يظهر إلا بعد الحلاج بزمن طويل، وتحديدا على يد ابن عربي، فالحلاج و أبو يزيد، قالا بمذهب الحلول، وقال ابن الفارض بالإتحاد التام= مع الله، وأخذ الجميع بمذهب وحدة الشهود، بمعنى أنهم شاهدوا في ذواتهم ذات الله الأحدية، أو أن الله قد حل فيهم أو أنهم قد أفنوا ذواتهم حبا في ذات الله، فغابوا عن أنفسهم و عن كل شيء فلم يشاهدوا في هذا الوجود سوى الله، و على هذا يمكن القول في رأي هذا الفريق: إن هناك فرقا بين شطحات الجذب على الحلاج عندما قال: أنا الحق. أو عن أبي اليزيد عندما قال: سبحاني ما أعظم شأني. و بين مذهب فلسفي في الإلهيات يقول بن عبد ربه: لا يعبر فيه عن وحدته مع الذات و الخلق. وسواء كانت نظرية وحدة الوجود هندية أم لم تكن، و سواء أكان المتصوفة السابقون على ابن عربي قد قالوا بوحدة شهود أم بوحدة وجود فإن الثابت والواضح هو أن ابن عربي أكبر المتصوفة المسلمين الذين تبنوا هذه النظرية، فقد وضع أسسها و أفاض في شرحها في كتابه الضخم الفتوحات المكية و عمقها في نصوص الحكم. وللمزيد، أنظر: في مقدمة كتاب التصوف الإسلامي، أرنولد نيكلسون، ترجمة: أبو العلاء عفيفي، القاهرة، بلاتا.

الصوفية، ويتلخص مذهبه بأنه نوع من التصوف المبني على أساس أنه لا وجود إلا وجود الله، وما ذلك التعداد المرئي في المخلوقات في العالم، إلا ضرب من الوهم في حقيقته، تقر فيه العقول البشرية، التي عجزت عن امتلاك القدرة على تمثل هذه الحقيقة التي هي وحدة الوجود.

ويشرح ابن عربي مذهبه بشيء من التفصيل في كتابيه **الفتوحات المكية** و **نصوص الحكم** ففي الجزء الثاني من الكتاب الأول **الفتوحات المكية** يلجأ إلى الإشارة إلى مذهبه بشكل مختصر عندما يقول: "سبحان من خلق الأشياء وهو عينها" ويؤمن ابن عربي في الوجود بالفيض الذي يقصد أن الله سبحانه وتعالى أبرز الأشياء من وجود علمي إلى وجود عيني، ويفسر وجود المخلوقات **بالتجلي الإلهي الدائم، الذي لم يزل ولا يزال، وظهور الحق في كل آن فيما لا يحصي عدده من الصور**[1] وهذا التعدد في الصور والأشياء، لا يعدو كونه وهميا لا حقيقة له يقول: "ثم السر الذي فوق هذا في هذه المسألة أن الممكنات على أصلها من العدم، وليس وجود الحق بصور ما هي من الممكنات في أنفسها وأعيانها"[2]، إذن وجود الممكنات في رأي ابن عربي هو عين وجود الله، وما ذلك التعدد إلا وليد الحواس والعقل الإنساني القاصر، الذي يقف عاجزا عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء التي إذا نظر إليها من حيث ذاتها، قيل هي الحق، وإذا نظر إليها من حيث صفاتها، قيل هي الخلق[3].

و لابن عربي رأيه الخاص في الإنسان الكامل، الذي هو عنده الكون الجامع، ويفسر ذلك بأنه عندما أراد الله، أن يرى عينه في كون جماع يحصر الأمر كله، لكونه متصفا بالوجود، ويظهر به سره إليه[4] ويفرق ابن عربي في الإنسان الكامل بين ناحيتين أولهما خاصة به، باعتباره إنسانا حادثا، وثانيهما خاصة به باعتباره أزليا أبديا بقوله في ذلك: "هو الإنسان الحادث الأزلي والناشئ الدائم الأبدي[5] وقد أدى به القول بوحدة الوجود، إلى القول بوحدة الأديان، فهو لا يفرق بين سماويها وغير سماويها، إذ أن الجميع يعبدون الإله

---

[1] ابن عربي، نصوص الحكم، ج1، بيروت، بلاتا، ص28. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق، ط1، القاهرة 1928م، ج1، ص188 وما بعدها.

[2] ابن عربي، نصوص الحكم، ج1، ص96.

[3] نفس المصدر، ص24.

[4] نفسه، ص48.

[5] نفسه، ص50.

الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، فالغاية من عبادة العبد لربه في رأيه، هي التحقق من وحدته الذاتية معه، والباطل من العبادة أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره و يسميه إلها[1].

وقد أثارت مؤلفاته، التي يتحدث فيها عن مذهبه هذا جدلا كبيرا، فأيده قسم وعارضه قسم آخر. ومهما يكن من أمر، فإن ابن عربي يمكن اعتباره أهم شخصية أندلسية نزلت أرض المشرق العربي ككل خلال العصور الوسطى موضوع هذا البحث، من حيث تأثير إنتاجه في الميدان الفكري والثقافي، الذي يعتبر فيه مجددا ومبدعا.

وأن الجديد في مؤلفاته كما جاء قبل قليل، هو مذهبه وحدة الوجود، الذي لم يكن له وجود في الإسلام بصورته الكاملة قبل ابن عربي. فهو الواضع الحقيقي لدعائمه والمؤسس لمدرسته والمفصل لمعانيه ومراميه، والمصدر بتلك الصورة النهائية التي أخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب من المسلمين بعده[2] فهو بذلك صاحب أول مذهب فكري جديد ومبتكر، انفرد وتميز به عن كل الأندلسيين الذين إحتوتهم أقطار ومدن المشرق العربي. وتأتي قيمة مؤلفاته وخاصة تلك التي جسد فيها مذهبه من أنها لم تعتمد على مصادر كانت مكتوبة من قبل، الأمر الذي جعل من ابن عربي شخصية مجتهدة صاحب فكر مستقل وذاتي. وعبر عن هذه الناحية في عدة مواضع ففي رسالة كان قد أرسلها إلى **فخر الدين الرازي،** الذي عرف بسعة إطلاعه وعلمه الغزير ونقلها الشعراني في طبقاته، جاء فيها قوله التالي: "إعلم يا أخي وفقنا الله و إياك أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم، حتى يكون علمه عن الله عز و جل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفادا من نقل أو شيخ، فما برح عن الأخذ عن المحدثات، و ذلك معلول عند الله عز وجل..."[3]، وصرح في موضع آخر معبرا عن الفكرة نفسها بقوله شعرا:

لقد حرم الرحمن تقليد مالك   وأحمد والنعمان والكل ما عذروا

وقال أيضا:

لست ممن يقول قال ابن جزم   وأحمد ولا النعمان[4]

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية/الترجمة العربية، مجلد1، ص233.

[2] ابن عربي، نصوص الحكم، ج1، ص285.

[3] طبقات الشعراني، ج1، ص5.

[4] ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص200.

ويعلق على أقواله هذه المفكر الاسباني **آنخل جنثالث بالنثيا**، أن ابن عربـي يريـد بذلك أن يقنع قارئه بهذه الحقيقة دونما شك، وذلك على الرغم من وجـود أفكـاره هـذه بحرفيتها تقريبا في كتب سابقة عليه مثل أرسطو وغيره[1].

وإن أهم مؤلفاته من الناحية الفكرية والجديدة كتابيه **نصوص الحكـم** و **الفتوحـات المكية** مع أنه ألف أكثر من عشرين كتابا، تعتبر كلها جديدة على مصر والشام في تلـك الفترة من الزمن. منها **مشاهد الأسرار** و **رسالة الأنوار** صنفهما خلال فترة إقامته بقونية من أرض الروم[2] ومنها كتاب **الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل و الجـذوة المقتبسـة والخطرة المختلسة** وكتاب **الأسرار إلى المقام الأسري** وكتاب **مواقع النجـوم ومطـالع أسرار العلوم** وكتاب عنقاء مغرب في صنعة ختم الأولياء وشمس المغرب[3]، ومنها أيضا كتاب **ذخائر الأعلاق** وهو شرح على ديوانه **ترجمان الأشواق**[4] وكتاب **الأعلام بإشـارات أهل الإلهام** وكتاب **أسرار الخلوة** وكتاب **عقيدة أهل السنة** وكتـاب **التجليـات ومفـاتيح الغيب**[5].

وقد طبع قسم كبير من هذه المؤلفات، وبعضها قيد التحقيق والإنجاز، وهي كما تدل عليها عناوينها، تختلف من حيث المواضيع والمضامين. فقد جمعت بين التصـوف وعلم الفلك والعلوم الدينية. و في واحد من أمهات كتبه هو **الفتوحات المكية** يقـول الصـفدي: "كتاب في عشرين مجلدا بخطه، فرأيت أثناءه دقائق وغرائب وعجائب، ليست توجد فـي كلام غيره، و كأن المنقول والمعقول ممثلان بين عينيه في صورة محصورة، يشـاهدها متى أراد بالحديث أو الأمر، ونزوله على ما يريده. وهذه قدرة ونهاية إطلاع وتوقد ذهن وغاية حفظ وذكر. ومن وقف على هذا الكتاب، علم قدره، وهو من أجل مصـنفاته..."[6]
ومهما يكن من أمر، فإن ابن عربي، يعتبر بحق من أوائل الأندلسيين والمغاربـة الـذين

---

[1] بلانثيا (أنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ص383.

[2] نفس المرجع، ص376.

[3] المقري، المصدر السابق، ج2، ص374.

[4] بلانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص376.

[5] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص374.

[6] نفس المصدر، ج4، ص173-174.

نزلوا أرض المشرق العربي خلال فترة العصور الوسطى حيث استطاع أن يترك آثارا خالدة في مسيرة الحضارة العربية والإنسانية على حد سواء.

وكان تأثيره الباقي قد تجلى في أنه لم تمض فترة زمنية إلا وكانت له فيها سيرة وذكرا وحديثا على أفكاره ومذهبه الآنف الذكر.

وكان ذلك من خلال تلاميذه ومعتنقي مذهبه ومؤيديه، و هم كثيرون جدا. كان في مقدمتهم بعض الحكام وأصحاب النفوذ مثل **العادل الأيوبي** في القاهرة الذي قدم له جميع التسهيلات والتأييد والتسامح فكانت له حلقة من المريدين **بحارة القناديل** بالقاهرة[1] و في **قونية** قوبل بالترحاب الكبير من قبل حاكمها، الذي قال عنه: "هذا تذل له الأسود". و في **حلب** قدمه **الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي** على جميع حاشيته من الفقهاء ورجال الدين الذين كان ابن عربي يحقد عليهم غاية الحقد وأشده. ولقي ترحيبا كبيرا بمدينة **دمشق** من قبل **الأشرف الأيوبي** وبعض وزرائها من **آل الزنكي**، الذي أنزله عنده حتى وفاته، وكان القاضي الشافعي **شمس الدين أحمد الخولي**، يخدمه خدمة العبد تقديرا له، كما أن قاضي قضاة المالكية آنذاك، التمس الشرف بتزويجه ابنته له، وبلغ الأمر أنه ترك منصب القضاة على أثر ملاحظة وقعت عليه من ابن عربي[2].

أما الفئة الثانية التي أيدته فتنحصر في تلامذته الذين عاصروه، والذين لم يعاصروه، فمن الذين عاصروه يمكن ذكر **الملك الأشرف الأيوبي** الذي كان يحضر دروسه، والذي تلقى الإجازة عن يده لرواية جميع كتبه قبل وفاته بثلاث سنوات[3]، و **إسماعيل بن سودكين** كان معه في الأيام الأخيرة قبل وفاته.

وأمضى جزءا كبيرا من حياته أيضا في شرح مؤلفات أستاذه مثل **نصوص الحكم** الذي شرحه في حياة ابن عربي[4].

وقد وجد بمدينة دمشق من الأندلسيين والمغاربة عدد لا بأس به، اعتنقوا مذهب ابن عربي في وحدة الوجود، عاصره قسم منهم وألفوا شبه عصبة في هذه المدينة خلال القرن (7هـ/13م). كان منهم تلميذه المغربي **عفيف الدين التلمساني** (ت690هـ/1291م)،

---

[1] بلانثيا، المرجع السابق، ص376. و انظر أيضا: زكي مبارك، المرجع السابق، ص203 وما بعدها.

[2] المرجع السابق، ص376.

[3] آسين بالاثيوس، المرجع السابق، ص93.

[4] Encyclopedia Of Islam, Vol 13 Ed London 1971, p708.

الذي التقى بالقاهرة بأبر تلامذة ابن عربي علي بن إسماعيل القونوي، وقد تتلمذ التلمساني على يد ابن عربي بعد أن وصل إلى دمشق.

ويبدو أنه كان من المتعمقين بمذهب أستاذه بدليل أنه شرح عدة مؤلفات له إضافة إلى ذلك فقد كان من الشخصيات المعروفة بدمشق على هذا الصعيد، إلى درجة أن المؤرخ الذهبي وصفه أنه أحد زنادقة الصوفية[1].

أما المغربي الآخر، الذي لا يعرف إن كان قد تتلمذ على ابن عربي و تبحر في علومه على ما يبدو، هو **الأمير بدر الدين حسن بن علي بن يوسف بن هود،** الذي قال عنه الذهبي بأنه اتحادي ضال[2].

وقد وجد في مدينة القاهرة كثيرون أخذوا بمبدأ ابن عربي، وعرفوا من أتباعه المشاهير مثل **ابن الفارض** الشاعر المشهور، الذي يمكن تسميته أكبر الدعاة الأوفياء لمذهب أستاذه ابن عربي وأهمهم. وتأتي أهميته الخاصة من كونه جسد أفكار هذا المذهب بقالب شعري بديع، كان يروق للجميع أن يسمعه ويفهم معانيه، خاصة وأن الشعر، كانت له قيمته ومكانته الكبيرة في ذلك الوقت من الزمن، الأمر الذي يمكن أن يكون قد انتشر بواسطته أكثر من أنه لو كتب بقالب نثري.

ولا يستبعد أن يكون **ابن الفارض** الشاعر الصوفي، قد وعى هذه الحقيقة، فسخر شعره الجميل لأجلها فكان بحق شاعر مذهب وحدة الوجود بلا منازع، حيث مازالت قصائده حية خالدة حتى يومنا هذا[3]، ومثلهم **محمد بن سلامة أبو عبد الله التوزري المغربي** (ت806هـ/1404م) الذي كان مقربا من السلطان الظاهر برقوق وقد ذكر السخاوي أنه كان داعية إلى مقالة ابن عربي، و وقعت له منازعات مع سراج الدين البلقيني. يقول عنه ابن حجر: "اجتمعت به وسمعت كلامه، وكنت أبغضه في الله تعالى، ووقع بينه وبين ابن النقاش وغيره من أهل الدين وقائع وكتبوا عليه محضرا بأمور صدرت منه فيها، ما يقتضي الكفر، لم يتمكنوا من القيام عليه لميل السلطان إليه[4]، ومثله

---

[1] الذهبي، المصدر السابق، ج5، ص367. السخاوي، الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، ج1، ورقة 475 وما بعدها.

[2] الذهبي، المصدر السابق، ج5، ص379.

[3] انظر: زكي مبارك، المرجع السابق، ص301 وما بعدها.

[4] ابن حجر، أنباء الغمر، ج2، ص29-30. السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص255.

كان **محمد التونسي** المتوفى بالقاهرة سنة (882هـ/1478م)، الذي اعتنق مذهب ابن عربي، وناضل عنه طيلة حياته، حتى اشتهر بذلك[1].

و**علي ابن محمد الغرناطي** (ت686هـ/1288م) الذي قال الشعر على طريقة ابن عربي[2].

وقد وجد فريق من العلماء انقسم إلى قسمين، قسم أيده بصراحة ودون تحفظ وقسم وقف على الحياد، يعني التأييد، ومعظم هؤلاء من العلماء الكبار في المشرق العربي، الأمر الذي يدل على أهمية الدور، الذي شغله ابن عربي في الحركة الفكرية بالمشرق العربي. من هؤلاء **علي بن إسماعيل القونوي**، الذي دافع عن ابن عربي، على الرغم من أن دفاعه كان ضد أصحاب مذهب وحدة الوجود[3].

ودافع نزيل دمشق **نصر المنبجي**، في القرن (8هـ/14م) عن ابن عربي وعقيدته، وبلغ به الأمر إلى مناصبة العداء الشديد لابن تيمية المعروف بعدائه لابن عربي وللصوفية بصورة عامة[4] أما عبد الله بن علي المعروف باليافعي المكي المتوفى سنة (768هـ/1367م) فقد نفى عنه الكفر، الذي ألصقه به كثيرون من العامة على حد سواء بقوله: "إن كل من إختلف في تكفيره، فمذهبي فيه التوقف، وكل أمره إلى الله تعالى"، وكان يعظمه كثيرا[5] ومن أتباعه من إشتغل في مؤلفاته، وتعليمها لتلامذتهم، كما فعل **محمد بن عبد الله الكازروني** (773هـ/1372م) الذي عرف بتبحره في علوم الصوفية وكثرة تلامذته ومريديه الذين أخذوا منه وسمعوا عليه[6]، أما الصوفي **محمد بن أحمد ولي الدين الديباج المعروف بالمنفلوطي**، فكان يحفظ الكثير من أقوال ابن عربي، الذي لم يستطع أن يظهر شيئا منها، فاقتصر على التلميح بها يقول ابن حجر العسقلاني في صدد ذلك: "وكان يميل إلى مقالة ابن العربي ويدندن حولها في تواليفه ويحمحم ولا يكاد يفصح..."[7].

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص66.

[2] الصفدي، الوافي بالوافيات، ج2، ص157.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص وما بعدها.

[4] ابن حجر، المصدر السابق، ج1، ص147.

[5] اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص100-101.

[6] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص488.

[7] نفس المصدر، ج3، ص307.

ومن مشاهير العلماء الذين دافعوا عن ابن عربي، وأعجبوا به **الفيوز آباد** والـذي قال عنه وهو في صدد الرد على سؤال مفاده: "ما هو رأي العلماء بابن عربي ؟ وهل تحل قراءة كتبه كالفتوحات والنصوص، وهل يحل تدريسها للطلبة ؟" فقال: "إنه شيخ الطريقة حالا وعلما و إمام الحقيقة حقيقة ورسما، ومحبي رسوم المعارف فعلا وإسما... عباب لا تكدره الدلاء وسحاب تتقاصر عنه الأنواء، فتملأ الآفاق وإني أضعه، وهو يقينا فوق ما وضعته، وغالب ظني أني ما أنصفته"[1]، وقام كمال الدين الزملكاني بشرح كتاب النصوص فنفى من خلال شرحه، وصفة الكفر التي ألصقها بعضهم بصاحبه ابن عربي[2] ويقول عنه أيضا بأنه: "...البحر الزاخر في المعارف الإلهية"، ويذكر من كلامه جملا كثيرة، ثم يستدرك قائلا: "إنما نقلت كلامه وكلام من جرى مجراه من أهل الطريق، لأنهم أعرف بحقائق هذه المقامات، و أيصر بها لدخولهم فيها، وتحققهم بها ذوقا، والمميز عن الشيء ذوقا مميز عن عين اليقين"[3].

وقام الصفدي صاحب كتاب الوافي بالوفيات بالاطلاع على كتاب **نصوص الحكم** لابن عربي فلم ير فيه ما يدعو إلى اتهام صاحبه ونعته بالكفر والكذب والبهتان أو غير ذلك من عبارات التجني، التي غدت من الأسلحة، التي تشتهر في وجه من يؤيده أو يسلك مسلكه، وأوجز الصفدي رأيه في الكتاب المذكور بقوله شعرا:

ليس في هذه القصيدة شيء يقتضيه التكذيب والبهتان
لا ولا ما قد خالف العقل والنقل الذي قد أتى به القرآن
وعلى ما ادعاه يتجه البحث ويتأتى الدليل والبرهان
بخلاف الشناع عنه ولكن ليس يخلو من حاسد إنسان[4]

ودافع عنه ابن شاكر الكتبي صاحب كتاب **فوات الوفيات** الذي قال عنه: "وعلى الجملة فكان رجلا صالحا عظيما، والذي نفهمه من كلامه حسن، والمشكل علينا نكل أمره إلى الله، وما كلفنا أتباعه والعمل بما قاله"[5].

---

[1] العدوي، المصدر السابق، ص31-32.
[2] اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص101.
[3] الصفدي، الوافي بالوافيات، ج4، ص177.
[4] نفس المصدر، ج4، ص175.
[5] نفسه، ج3، ص480.

وبلغ الأمر ببعض من دافع عنه حدا أوسع وأكبر من كل ما تقدم حتى الآن، فـــابن كمال باشا، الذي نقل قول ابن العماد الحنبلي في كتابه **شذرات الذهب** يقرن دفاعـــه عنـــه بمخاطبة الحكام ودعوة كل المتنكرين لابن عربي، بكل الجد والإخلاص انطلاقا من أنهم «الحكام» لم يوجدوا إلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول: "... فمن أنكـــره فقـــد أخطأ، وإن أصر في إنكاره فقد ضل، يجب على السلطان تأديبـــه وعـــن هـــذا الإعتقـــاد تحويله، إذ السلطان مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر..."[1]، و روج لعقيدتـــه الصوفية الرسمية، وذلك اعتبارا من القرن (8هـ/14م)[2].

وقام **عبد الكريم الجيلي** (ت832هـ/1492م) بتفسير كتاب **الفتوحات المكية**، كمـــا قام آخرون بتصنيف عدة مؤلفات، دافعوا فيها عن عقيدة ابن عربي في التصوف مثل **عبد الله بن ميمون الإدريسي** (ت917هـ/1512م)، الذي كتب عدة دفاعات منها **الـــرد فـــي منكر الشيخ الأكبر**، وكتب الشعراني فيما بعد كتاب **القول المبين في الرد علـــى محيـــي الدين** هذا بالإضافة إلى أنه كان قد قام باختصار تفسير كتاب **الفتوحات المكية** الذي أنجزه عبد الكريم الجيلي الآنف الذكر. وسمى الشعراني هذا المختصر **واقع الأنـــوار القدســـية** وعاد فاختصره في حجم أصغر سماه **الكبريت الأحمـــر**[3]. وكـــذلك فعـــل جـــلال الـــدين السيوطي، عندما ألف كتابا ضمنه الرد على كل من اتهم ابن عربي وسماه **تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي**[4].

وهناك آخرون كثيرون إضافة إلى الذين ذكروا حتى الآن، عرفوا بتأييـــدهم لابـــن عربي فغلب عليهم الاعتراف له بالفضل والمقدرة الفائقة، مثل سراج الدين المخزومـــي، الذي ألف كتابا سماه **كشف الغطاء عن أسرار محي الدين** وقطب الدين الحموي وشـــهاب الدين السهروردي ومؤيد الدين الخجندي، وكمال الدين الكاش، وفخر الدين الرازي ومحمد المغربي أستاذ جلال الدين السيوطي وعبد الرزاق القاشاني وغيرهم[5].

---

[1] ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص195.

[2] Encyclopedia Of Islam, Vol 13, p711.

[3] آسين بالاثيوس، المرجع السابق، ص591.

Encyclopedia Of Islam Vol 13 p3

[4] ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص191.

[5] دائرة المعارف الإسلامية، مجلد، الترجمة العربية، ص231-232.

وقد امتد هذا التأييد إلى العصور الحديثة والمعاصرة. فخلال الفترة الأولى من الحكم العثماني في القرن السادس عشر الميلادي، اعتقد السلطان سليم العثماني أن شفاعة وبركة ابن عربي نفسه، كان قد تنبأ بهذا الفتح. وهذا ما حدا بالسلطان سليم، أن يأمر ببناء مسجد ومدرسة حول تربة ابن عربي، ورتب الأوقاف عليهما. في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت ذكراه لا تزال حية بين المسلمين الأتقياء بدمشق، فكانوا يزورون ضريحه كل يوم جمعة للتبرك[1] ومازالت مشاعر الاحترام والتقدير لهذا الصوفي ماثلة في نفوس الدمشقيين حتى يومنا هذا.

وبمقابل هذا العدد الكبير من المؤيدين والمتأثرين بمذهبه في وحدة الوجود المطلق فإن ما يساوي هذا العدد ويزيد، ناصبوه العداء، وشنوا عليه أبشع حملة فكرية، وجهت لإنسان خلال العصور الوسطى[2].

المدارس الصوفية في مصر و دورها الاجتماعي و الروحي و الثقافي

تعد مصر من أكثر الأقطار الإسلامية في إثراء الحياة الروحية، سواء كان في العصور السابقة قبل الفتح الإسلامي، فقد فتحت ذراعيها لتحضن كل المهاجرين إليها من العالم ليجدوا من اعتدال جوها وخيراتها الكثيرة، كل هذا أدى إلى نشر دعوتهم كما أن استقرار أهلها وعدم وجود اضطرابات سياسية بها جذب إليها المهاجرين وخاصة من المغرب الإسلامي والأندلس. وقد كونوا مدارسهم الصوفية في أقاليم مصر[3]، فلا نجد مدينة إلا وكانت مهبطا لشيخ مهاجر إليها يقيم مدرسته الروحية، لذا إنتشرت مدارس كثيرة في كافة المدن المصرية وأشهر هذه المدارس هي:

[1] آسين بالاثيوس، المرجع السابق، ص95-96.

[2] Encyclopedia Of Islam, Vol 13, p711.

[3] عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ط2، مكتبة مديولي، القاهرة 1999م، ص70 وما بعدها.

• **المدرسة البدوية:** مؤسسها السيد **أحمد البدوي**[1] في مدينة طنطا فكانت حلقات الدرس تتم على السطح حتى أطلق عليها بعض أتباع البدوي إسم السطوحية. وكانت المدرسة تقوم بتدريب تلاميذها تدريبا عسكريا وترسلهم إلى ساحات القتال حيث إنتصرت مصر لأول مرة في حروبها مع الصليبيين إذ كان من المعروف أن الجيوش المقاتلة من المماليك، وقد أظهر تلاميذ المدرسة بطولات ويشهد لها بذلك الوقت حيث كانوا يأسرون الصليبيين في حروبهم مع مصر[2].

والكتب التي تركها لنا صاحب المدرسة البدوية هي مجموعة من الأدعية والصلوات، وخضعت للتلاميذ، وقد تم نشرها تحت عنوان **فتح الرحمان** وكذلك مجموعة من الوصايا والعظات موجهة إلى أحد تلاميذه، أما الكتاب فهو **الأخبار في حل الألفاظ في غاية الإختصار** وهو كتاب يحتوي على شروح طويلة في الفقه والمعاملات والأحوال الشخصية على مذهب الإمام الشافعي[3].

• **المدرسة القنائية:** أنشأها **عبد الرحيم القنائي**[4] بمحافظة **قنا**. لقد قامت المدرسة القنائية بدورها الكبير في المدن المجاورة، فعملت على نشر الأخلاق بين المسلمين وأقامت حياة

---

[1] ولد أحمد البدوي في مدينة فاس المغربية عام (596هـ/1199م) من أسرة عربية يرجع نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب، وقد هاجرت أسرته على إثر الإضطهاد العلوي في الشرق، حفظ القرآن في سن السابعة، و بدأ في دراسة الفقه و التفسير حينما كان يتردد على مجالس العلم فحفظ كل ما يقال، و قد رحلت الأسرة من المغرب إلى مكة ومرورا بمصر تعلم البدوي الفقه على يد الشافعية بينما كان تعلمه في المغرب على المالكية، و تردد ما بين مدارس مكة والمدينة، و إختلف عن بقية الصوفية فقد تعلم الفروسية و فنونها، و عكف على العبادة و عزف عن الزواج و بدأ باعتزال الناس، و خلال رحلته العلمية فقد والده في سنة (627هـ/1132م) وأخاه سنة (631هـ/1136م)، وكان لهذا أثر كبير في حياته العلمية فإزداد تعبدا و إعتكافا و إعتزالا للناس. نظم مدرسته و وضع لها منهجا دراسيا بعد أن إستقر في طنطا. منير نصيف، (طنطا مدينة العلم والصناعة والسيد البدوي)، مجلة العربي، العدد 150، سنة 1971م، الكويت، ص27.

[2] عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية و مدارسها، ص170.

[3] المرجع السابق، ص171.

[4] ولد عبد الرحيم القنائي في قرية ترغاوي من مقاطعة سبتة في المغرب الأقصى سنة(521هـ/1127م)، تعلم القرآن، وحفظ الأحاديث النبوية، و تلقى العلم في المسجد الكبير وحضر حلقات الدرس على كبار العلماء، وكان معلما= وواعظا، و قد جمع بين ثقافة المغرب والمشرق ثم غادر موطنه الأصلي إلى الحجاز فأدى فريضة الحج و ظل ينتقل من مكة والمدينة متاجرا ليكتسب رزقه و قوته، و عكف على الدراسة والعلم على أيدي علماء مكة والمدينة و وصل إلى قوص إحدى مدن قنا بمصر حيث التقى ببعض الطلاب و ظل يلقي بعض محاضراته عليهم، ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة إسنا فاستقر بها يعمل تاجرا بها، و يقوم بالتدريس في مساجدها حتى صدر قرار من والي مصر بتعيينه شيخا لقنا.

روحية تختلف إختلافا واضحا عن بقية المدارس الأخرى[1].

• **المدرسة الشاذلية:** لقد أقام صرحها **أبو الحسن علي الحسين الشاذلي الحسيني ابـــن عبد ربه**[2] بمدينة **الإسكندرية**، قال فيه البوصيري بأنه **بحر العلم**، وقال فيه الشاعر:

لقد كان بحرا في الشرائع راسخا و لاسيما على الفرائض و الســنن
و من نهل التوحيد عب و ارتوى فلله كم روى قلوبها محـــــــسن
و حاز علو ما ليس تخص لكاتب وهل تخص الكتاب ما حاز من فنى[3]

وقد ترك لنا الشاذلي العديد من الكتب، وتعد مدرسته من أكبر المدارس الصوفية في مصر، بل هي المدرسة الأم في العالم الإسلامي، وقد لعبت دورا هاما في حياة المصريين الروحية والإجتماعية ومازال نورها يصل إلى آفاق العـــالم الإســـلامي، وعنهـــا نقلـــت المدارس الصوفية الأخرى كل المبادئ والقيم والمناهج الصوفية[4].

ويقول **شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاؤغلي** الشهير **بسبط إبـــن الجـــوزي (ت654هـ/1256م)** صاحب كتاب **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** فـــي أحـــداث ســـنة **(641هـ/1243م)**: "وفيها قدمت القاهرة وسافرت إلى الإسكندرية في هذه السنة، فوجدتها كما قال الله تعالى: "ذات قرار ومعين"، معمورة بالعلماء ومغمورة بالأولياء الذين هم فـــي الدنيا شامة كالشيخ **محمد القباري** و **الشاطبي** و **إبن أبي شامـــة**[5] ويردف أبـــو المظفـــر ذلك قائلا: "وهي أولى بقول **القيسراني** في وصف دمشق:

---

[1] عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المرجع السابق، ص173-174.

[2] ولد أبو الحسن علي الحسين الشاذلي الحسيني ابن عبد ربه بقرية عمارة في بلاد المغرب، و لما شـــب أخـــذ يـــدرس العلوم الدينية، و قد تتلمذ على كبار الفقهاء و أئمة الصوفية و قام بجولة علمية إلى العراق، فأخذ يتردد على أســـاتذته= ودرس الفقه ثم عاد بعد جولته العلمية من العراق إلى بلاده مرة أخرى، و كان أستاذه ابن بشبش في المغرب، و كـــان متمسكا بالكتاب و السنة، و قد رسم ابن بشبش حياة أبو الحسين الشاذلي العلمية ثم رحل إلى تونس، و بعدها إلى مصر فوصل الإسكندرية حيث أقام بها و تزوج و أنجب أولادا، و بعد ذلك أقام مدرسته.

[3] عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المرجع السابق، ص175-176.

[4] عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المرجع السابق، ص174-176.

[5] أنظر: سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج8، قسم2، ص741-742. (حيث القراءة لمحمد السلوي بدل القبـــاري)، و قارن ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص347. (حيث القراءة لإبن أبي أسامة بدل إبن أبي شامة).

أرض تحل لأماني من أماكنـــــها   حيث تجمع الدنيا و تفتـــــرق
إذا شدا الطير في أغصانها وقفت   على حدائقها الأسماع و الحدق

ولكن ابن تغري بردي يعلق على ذلك بقوله: وأين قول أبي المظفر من قول مجيــر الدين محمد بن يعقوب بن علي بن تميم في وصف الإسكندرية:

لما قصدت سكندرية زائـــرا   ملأت فؤادي بهجة و سرورا
ما زرت فيها جانبا إلا رأت   عيناي فيها جنة و خـــــريرا[1]

وحقيقة أن معظم مشايخ الإسكندرية الحاليين هم من أهل المغرب والأندلس وفــدوا في القرن (7هــ/13م) على الخصوص، ولو أن رائدهم الطرطوشي إستقر بالإســكندرية منذ أواخر القرن (5هــ/11م)، و وفاة ابن جبير بالإسكندرية ســنة (614هـــــ/1217م) الذي كان قبره يزار، كما كان الدعاء عنده مستجابا[2]. أما سيدي الشاطبي فهو أندلسي من مدينة شاطبة إنقطع للعبادة والتعليم حيث كان ذائع الصيت في ســنة (641هـــــ/1243م) حينما زار سبط إبن الجوزي بالإسكندرية، وكان موضع ضريح الشاطبي –الموجود الآن في عمارة الأوقاف– رباطا على شاطئ البحر سكنه الشيخ ومريدوه عرف برباط سوار[3].

أما السيد **القباري** فهو **أبو القاسم محمد بن منصور بــن يحــي اللكــي** المشــهور **بالقباري الإسكندراني**، وهو مغربي والمعروف أنه (ت 06 شعبان سنة –662هـــــ/05 يونيه 1264م–)[4]. أما سيدي المرسي أبو العباس (أحمد بن عمر بن محمد الأنصــاري) –تلميذ أبي الحسن الشاذلي المغربي– فهو أندلسي من مدينة مرســية قــدم منهــا وأقــام

---

[1] نفس المصدر، ج6، ص347.

[2] المقري، المصدر السابق، ج1، ص515.

[3] أبو عبد الله محمد بن سليمان المعفري الشاطبي ولد سنة(585هــ/1189م)، عرف بالزهد و الإنقطاع إلى الله تعالى، وتتلمذ على شاطبي آخر أقدم منه وهذا الأخير كــان تلميــذا لأبــي العبــاس الراســي، تــوفي فــي رمضــان مــن عام(672هــ/1274م)، أنظر: المقري، المصدر السابق، ج1، ص394. السيوطي، حسن المحاضــرة، ص239–240. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص243–245.

[4] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص315–316. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص231. ياقوت، معجم البلــدان، ج4، ص315–316. إبن الشباط، وصف الأندلس، تحقيق: مختار العبادي، طبعة مدريد 1971، ص151–177.

بالإسكندرية (ت686هـ/1287م)[1]، بعد وفاة السيد البدوي (المغربي الفاسي) شيخ طنطا الشهير (ت675هـ/1276م)[2].

هؤلاء المشايخ من الزهاد والعباد جعلوا من إسكندرية القرن (7هـ/13م) مدرسة للتصوف.

والحقيقة أن بلاد الأندلس والمغرب كانت موطن التصوف دون منازع، بسبب الصراع المستمر مع الإسبان في الأندلس، الذي إتخذ شكل حرب صليبية مبكرة. ولقد ترتب على ذلك أن التصوف المغربي الأول كان من النوع الإيجابي الذي يتمثل في مجاهدة الأعداء في الثغر أو الرباط، والعزوف عن الدنيا بطلب الإستشهاد.

ولقد كان التصوف فرديا في أول الأمر ثم إنه أصبح جماعيا منظما في القرنين (5-6هـ/11-12م) فاجتذب الزهد والتصوف كثيرا من الناس، وهؤلاء عملوا على الرفع من شأن مشايخهم والاعتقاد في بركتهم وفي كرامتهم ومعجزاتهم[3].

فرغم إهتمام هؤلاء المتصوفة بعلم السماء إلا أنهم لم يهملوا علوم الدين -مثل غيرهم من صوفية المشرق الذين رفعوا عن أنفسهم التكاليف. فالمعروف أن أبا العباس المرسي كان متمسكا بمذهبه المالكي، وأنه كانت له قدم راسخة في العلوم الإسلامية حتى كان يقول: "شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه"[4]. وعن هذا الطريق إستمرت الإسكندرية مركزا لعلم الحديث والعلوم النقلية.

وربما كان إهتمام علماء القاهرة بالعلوم العقلية راجعا إلى الأثر المشرقي بعد هجرة علماء خرسان والعراق -بدورهم مثل علماء الأندلس- نحو مصر والقاهرة إثر إنهيار المشرق أيام الغزو المغولي، منذ أوائل القرن (7هـ/13م) ثم سقوط بغداد في سنة (656هـ/1258م).

وبناء على ذلك نرى القاهرة وقد وجهت أنظارها نحو المشرق وتأثرت به كما قلنا إبتداء -بينما الإسكندرية قد إتجهت بأنظارها نحو المغرب و وقعت تحت تأثيره. وما

---

[1] السيوطي، حسن المحاضرة، ص240. المقري، المصدر السابق، ج1، ص419 وما بعدها.

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ص240.

[3] عن متصوفة المغرب في القرن (7هـ/13م)، أنظر: عبد الحق الباديسي، ج2، ص6. وعن متصوفة سجلماسة (تافلالتا)، أنظر: عبد الله بن عمر بن عبد الكريم العياشي، الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش، عباس بن ابراهيم، الأعلام، ج1، ص122.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص371.

سجله **العبدري** في رحلته سنة (688هـ/1289م) يؤيد رأينا هذا. فالعبدري يذم علماء القاهرة، بسبب إنكبابهم على المعقول عن المنقول. وإعتقادهم أن من لا يحسن المنطق لا يحسن أن ينطق، ثم هو يعلق قائلا: "تالله لقد أغرق القوم فيما لا يعنيهم، وأظهروا الإفتقار إلى ما لا يغنيهم... لأن أقل آفاته أن يكون شغلا بما لا يعنى الإنسان وإظهار حوج إلى ما أغنى عنه الرب المنان والذي دعا بعض الفضلاء إلى مطالعته هو إتقاء شره والحذر من غوائله وفكره..."[1].

أما في بلاد الشام فقد أنشئت مدرسة الدمشقية، و اتخذ من المساجد ركنا لها حيث كانت تقام حلقات الدراسة، ولقد وضعت هذه المدارس منهاجا دراسيا جديدا يتلاءم مع طبيعة ونوعية التصوف في بلاد الشام، ولقد درست هذه المدرسة مواد التفسير والأحاديث والقراءة الصحيحة[2].

و في عصر سلاطين المماليك شهدت مصر نشاطا دينيا يستدعي الإنتباه وخاصة بعد أن أصبحت قاعدة و ملاذا للخلافة العباسية ومقصد العلماء المسلمين، وكانت مصر لا تزال بها آثار واضحة من مذهب التشيع الفاطمي على الرغم من الجهود التي بذلتها الدولة الأيوبية للقضاء عليه ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة شديدة للقضاء عليه حتى خفت آثاره[3]، على أن هذه الجهود كلها لم تقض على جذور التشيع قضاء مبرما، فبقيت هناك جماعات شيعية ولكنها ضئيلة، والدليل على ذلك أن الناس كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لأحد في ذلك العصر رسوا عليه من رموه بالتشيع فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة من الرفض[4].

وهكذا كانت نزاعات وخصومات بين أهل السنة والشيعة طوال عصر المماليك، وتمثل ذلك بوضوح فيما نظمه بعض شعراء ذلك العصر[5]، وخير ما يدل على ذلك إتساع دائرة النشاط الديني في ذلك العصر هو كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت من مساجد ومدارس وزوايا وأربطة وخنقاوات...إلخ.

[1] العبدري، المصدر السابق، ص130.

[2] عبد الحكيم عبد الغني، المرجع السابق، ص159.

[3] محمد كامل حسين، التشيع في الشعر المصري، ص83 وما بعدها. سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ج1، ص103 وما بعدها.

[4] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج1، ص46.

[5] محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص73-74.

ومازالت القاهرة وكثير من مدن مصر تمتلئ بالمساجد الرائعة التـي تنسـب لهـذا العصر، فقلما تجد سلطانا من سلاطين ذلك العصر أو أميرا من أمرائه لم يؤسس مسـجدا أو أكثر حتى لقد قدرها خليل بن شاهين بأكثر من ألف مسجد[1].

وقد كان التصوف أهم ظاهرة إتسمت بها الحياة الدينية في العصر المملوكي و نمـا التصوف و إزدهر إزدهارا كبيرا، فقد وفد على مصر في القرنين (7-8هـ/13-14م) كثير من مشايخ الصوفية معظمهم من المغرب والأندلس، حيث وجدوا في مصـر تربـة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم، ولم يلبث الصوفية أن إنقسموا إلى فرق كثيرة، لكل منها مذهبها وشعارها وشيخها[2].

ولقد كان للأزمات الإقتصادية التي حدثت في ذلك العصر في مصر وسببها نقـص مياه النيل وما يعق ذلك من شح الأرض وإنتشار المجاعات وظهور الأوبئة وغير ذلك من الأزمات التي ذكرت في كتب بعض مؤرخي مصر كالمقريزي، وابـن تغـري بـردي، والسخاوي، وابن إياس وغيرهم، كان لذلك أثره الكبير في إشتداد رغبة أهل مصـر فـي التصوف والإنقطاع للعبادة، هذا فضلا عن ظلم بعض حكام المماليك، فالتمس الناس العدل في التوجه إلى الله، ولم يكن التصوف في هذا العصر هروبا من الظلم أو الواقع، بل كان دائما إعتصاما بوجه من أوجه القوة بعين المتصوف على الوقوف في وجه الظلم.

يضاف إلى هذا كله أن الشعب المصري بطبيعته شعب متدين ينقاد للدين ويجعل له سلطانا عليه، من أجل هذا كانت مصر تربة صالحة لنمو وإزدهار تيار التصوف في ذلك العصر، والذي شجع عليه أيضا الحالة الإجتماعية والإقتصادية التي كان مـن طبيعتهـا الإتجاه بمشاعر الشعب المصري إلى إلتماس العدالة والتفكير في نعيم الآخرة الباقي[3].

هذا وقد تحول التصوف في مصر في ذلك العصر من ظاهرة فردية إلـى ظـاهرة إجتماعية حتى أن معظم الوظائف فـي المؤسسـات التعليميـة كانـت مقتصـرة علـى المتصوفة[4]، فالصوفي الذي كان يعتكف بعيدا منعزلا عن الناس للعبـادة أصـبح رجـلا إجتماعيا شديد الحرص على التفاعل مع البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه فيتأثر به ويـؤثر

[1] ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف المماليك و بيان الطرق و المسالك، ص31.

[2] سعد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ج1، ص162.

[3] عبد الوهاب حمودة، صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، ص18.

[4] نفس المرجع، ص19.

فيه[1]، وقد قامت حياة الصوفية على أساس الزهد والتقشف وبالغ بعضهم في ذلك ولما كان الفقر شعارهم أطلقوا على أنفسهم الفقراء[2] وقد آمن عامة الناس في مصر بالصوفية إيمانا عميقا، وإعتقد الكثيرون فيهم إعتقادا جازما حتى وصفوهم بأنهم ملـــوك الآخـــرة الـــذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء[3].

إزداد تيار التصوف في مصر في ذلك العصر إزديادا كبيرا، وكان لهذا أثره الخطير في الحياتيين الإجتماعية والفكرية، فقد صبغ الصوفية الأفكار والقيم والمثل بصبغة الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وقد ترتب على هذا نشر روح الإستكانة والذل والقناعة بين عامة الناس مما ظلت بقاياه في نفوس الكثيرين منهم أمدا طويلا[4].

و في هذا العصر إنحرف البعض بالتصوف عن مساره الحقيقـــي، حيـــث تطـــرف البعض من الصوفية في ميولهم و آرائهم وظهرت طائفة **الـــدراويش والمجاذيـــب** التـــي إشتهرت بأفعال عجيبة مثل حلق بعض الرأس أو اللحية أو الحاجب و زعموا أن ذلك من الدين[5]، وذلك وصفهم ابن خلدون بقوله: "ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليـــل مهتوعون أشبه بالمجانين من العقلاء"[6].

وكان من الطبيعي أن يكون الزهاد والمتصوفون من أكثر الطوائف المغربيـــة فـــي مصر لصورة مصر في أذهانهم و إختلفت أشكال إقامتهم بين مجاور خلال أيام الشيخوخة أو معتكف بعد تجوال في مناطق متعددة، وبين مقيم مستقر، ومن أمثلة هؤلاء:

- **محمد بين عبد الله المغربي** (ت790هـــ/1389م) الذي إنقطع للزهد والعبـــادة، وكان من الزهاد الذين يبالغون في تعذيب الجسد و إنهاكه بالقيام بالمجهودات الشاقة فقد أثر عنه أنه حج أكثر من ستين مرة أغلبها ماشيا على الأقدام لذلك أعتبر مـــثلا في الورع والتقوى و أن له مكاشفات وكرامات[7].

---

1 نفسه، ص20.

2 نفسه، ص21.

3 النويري السكندري، الإلمام بالأعلام، ج2، ص517. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص41.

4 سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام، ص65.

5 عبد الوهاب حمودة، المرجع السابق، ص23.

6 ابن خلدون، المقدمة، ص467 وما بعدها.

7 أحمد بدر، الأندلسيون و المغاربة في القدس، مجلة أوراق، العدد4، المعهـــد الإســـباني العربـــي الثقـــافي، 1981م، ص15.

- **أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرسي الطرطوشـــي،** نزل الإسكندرية التي إتخذها منزلا له و بدا نشاطه الفكري فيها، فألف أهـم كتبـه **سراج الملوك،** وتتلمذ على يديه عدد كبير من الفقهاء من أهل الإسكندرية والوافدين إليها لاسيما من المغاربة[1].

ولم تلبث مدرسة الإسكندرية أن تحولت إلى مدرسة للتصوف بعـد أن ذاعـت شهرتها في الحديث والفقه قبل هذه الفترة، و يهمنا أن نذكر من علماء الفكـر الصـوفي المغربي في مصر قطب الإسكندرية **أبو الحسن الشاذلي،** الذي وصل إلـى الإسـكندرية سنة (642هـ/1245م) بصحبة خادمه **أبي العزائم ماضي بن سلطان،** و **الحاج محمد بن القرطي،** و **أبي عبد الله البجائي،** و **أبي الحسن البجائي** وسيكون لهؤلاء وعلى رأسـهم **أبو العباس المرسي،** و **أبو القاسم محمد بن منصور القبـاري** قيـادة الحيـاة الفكريـة والروحية في مصر[2].

وكان أبو الحسن دائم الحج عن طريق مصر، وقـد تـوفي (ت656هـ/1258م) بالقرب من **عيذاب** على البحر الأحمر وكان قد أوصى بأبي العباس المرسي قبـل وفاتـه بأنه "باب من أبواب الله"، ولم تصدر عنه أي مصنفات بل كان يردد أن كتبه هي تلاميذه، حيث قال: "كتبي أصحابي"[3].

إستخلف أبو العباس المرسي أستاذه أبا الحسن الشاذلي على شؤون الدعوة، وأعلـن هذا الإستخلاف في حفل جمع فيه أتباعه بمسجد العطارين بالإسكندرية إنفرد بعـده أبـو

---

[1] العماد الأصفهاني، فريدة القصر، ج3، ص472. المقري، المصدر السابق، ج1، ص509. عبد العزيز سالم، تـاريخ الإسكندرية، ص222-224. جمال الدين الشبال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسـلامي، ص50-100. أبـو بكـر الطرطوشي، العالم الزاهد الثائر، في سلسلة أعلام العرب، عدد74، سنة1968، ص75.

[2] عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص218. ابن رشيد السبتي، الرحلة، تحقيق: نجاح صلاح الدين، ص84. جمال الدين الشيال، (أبو الحسن الشاذلي و خليفته أبو العباس المرسي) مجلة العربي، العدد68، صـفر1384، يوليـو1964، الكويت، ص96-104.

[3] رغم كثرة ترحال أبي الحسن الشاذلي إلا أنه لم يطب له المقام إلا في الإسكندرية حيث: "... إن آراءه الصـوفية لـم تجد لها أمانا إلا في الديار المصرية فاتخذها مقرا له و هناك زادت طريقته وشهرته"، أنظر: إبـن رشـيد، المصـدر السابق، ص85. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص240.

العباس بدروس المدرسة في الإسكندرية والقاهرة وجلس رسميا مكان أستاذه سنة (656هـ/1258م)[1].

وحظي أبو العباس بمكانة علمية كبرى إجتذبت إليه الطلاب والفقهاء من مصر والمغرب على السواء، وكان كأستاذه عالما لا مصنفات له بل خلف عددا من التلاميذ كان كل منهم قطبا من بعده في الصوفية وعلما من أعلام الفكر السكندري منهم:

- **تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم** المعروف **بابن عطاء الله السكندري** ولد سنة (658هـ/1260م) و توفى (ت709هـ/1310م)[2].
- **أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي[3].**
- و **أبو القاسم محمد بن منصور بن يحي** المشهور **بالقباري الإسكندراني**[4].

عاصر أبو العباس المرسي شيخ طنطا المغربي السيد أحمد البدوي[5].

هؤلاء المشايخ من الزهاد والعباد جعلوا من مصر، وخاصة مدينة الإسكندرية مدرسة للتصوف بعد أن كانت من قبل مدرسة للفقه والحديث، و بينما أخذت الإسكندرية الحديث من المشرق نجد أنها أخذت تستقبل التصوف من المغرب الإسلامي، وكان وجود هؤلاء لازما للمجتمع السكندري إذ أنهم حاولوا تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كانوا يتعرضون للأمراء وكبار رجال الدولة ينصحونهم ويحذرونهم ويرهبونهم، فكانوا أشبه ما يكونون بجهاز شعبي للرقابة على الأخلاق العامة وكذلك على

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص390-393. جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص199-201. جمال الدين الشيال، (أبو العباس المرسي الفقيه الصوفي خليفة الصوفي أبو الحسن الشاذلي) مجلة العربي، العدد75، طبعة1965م، ص60-67. جمال الدين الشيال، (أبو العباس المرسي الفقيه الصوفي خليفة الصوفي أبو الحسن الشاذلي)، مجلة التاريخ العربي، العدد 75، السنة 1965م، المغرب، ص19-25.

[2] المقري، المصدر السابق، ج3، ص314. عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية، ص536.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص315.

[4] نفس المصدر، ج1، ص248.

[5] دفن عند مقربة باب البحر، و أصبح قبره مزارا، و أوقفت عليه أوقافا عدة و في سنة(706هـ/1307م)، زاره كبير تجار الإسكندرية زين الدين بن القطان الذي بنى القبر الضريح ذا القبة و المسجد و المئذنة المربعة الشكل و هي تماثل مآذن مساجد المغرب عموما مما يؤكد مغربية هذا التاجر. انظر: عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص472-476. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص240. العماد الأصفهاني، فريدة القصر، ج2، ص340. منير نصيف، (طنطا مدينة العلم و الصناعة و السيد البدوي)، مجلة العربي، العدد150، ربيع الأول1391هـ/ماي1971م، ص110.

الإدارة الحكومية، والمثل لذلك ما فعله الطرطوشي مع الوزير الكبير الأفضل بـــن أميـــر الجيوش بدر الجمال حينما وعظه بلغة بغليظ الكلام ورهبه[1].

أما **إبن جبير سيدي جابر** فله في الترفع عن الإستذلال لأصحاب الســلطان أشــعار منها:

من الله فاسأل كل أمر تريـــــده		فما يملك الإنسان نفعا و لا ضـــرا

و لا تتواضع للولاة فإنـــــــهم		من الكبر في حال تموج بهم سكرا

وإياك أن ترضى بتقبيل راحة		فقد قيل عنها أنها السجدة الكـــبرى[2]

هذه أمثلة قليلة لعلماء مغاربة كثيرين نزحوا إلى مصر وتنقلوا بين مراكزها العلمية المختلفة وإستقر بعضهم في هذه المراكز مثل مركز الإسكندرية الذي إستقر به أبو العباس المرسي، تلميذ الشاذلي وأستاذ إبن عطاء الله السكندري، فإنه يدعو إلى الكســب الحــلال ونبذ المال الحرام، وكان له معرفة في الحلال والحرام كرامات إشتهرت بين الناس[3].

أما القباري فكان على عكس الكثير من العباد نشطا يبجل العمل فلا يأكل إلا من كده وكسب يده، فكان يفلح بستانه في ظاهر الإسكندرية، منقطعا عن الناس ويأكل من رزقـــه القليل، وذلك مبالغة في الحرص على ضمان طيب طعامه[4].

وهكذا كان إزدهار الإسكندرية بفضل سلوكهم وطريقتهم يفرضون نوعا من الرقابة على الحكومة، كما كانوا يضربون المثل للعامة من الناس في حسن الســلوك والمعاملـــة، والحقيقة إنه إذا كان الفقهاء والعلماء معلمين للخاصة من الناس، فقد كان مشايخ الصوفية هؤلاء معلمين للجمهور من أبناء الشعب، وإزدهار المدرسة الصوفية السكندرية، لايعنـــي إندثار المدرسة السنية مدرسة الحديث، فقد سارت تعاليم كل من المدرستين جنبا إلى جنب في توازن وإنسجام[5].

لقد نال هؤلاء الزاهدون والأتقياء ذوو الكرامات لدى العامة شــيئا مــن التقــديس وخاصة بعد موتهم إذ أصبحت قبورهم مزارات، كما هو حال السيد بدوي بطنطا، وأبـــي العباس المرسي بالإسكندرية، والشاذلي قرب عيذاب...إلخ.

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج1، ص369.

[2] نفس المصدر، ج1، ص577.

[3] نفسه، ج1، ص421.

[4] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص231. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص315-316.

[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج7، ص371.

هؤلاء وغيرهم في مدن كثيرة من بلاد مصر وبلاد الشام ظلت قبورهم تقصد للزيارة والتبرك إلى يومنا هذا[1].

و من أصحاب الطرق الصوفية الذين شغلوا دورا كبيرا في الحياة الدينية بمصر والشام، كان المتصوف **علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي** نزيل الإسكندرية (ت656هـ/1258م).

وقد اشتهر بالإسكندرية، بعد أن طردته السلطات بالمغرب بحجة أنه زنديق. وهو صاحب الطريقة التي عرفت به وهي **الشاذلية** وتختلف هذه الطريقة عن طريقة ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، الذي يبحث في ماهية وجود الله وتحديد هذا الوجود بصورة ثابتة ونهائية، تختلف عنها بأنها تجسد خمسة ثوابت رئيسية، هي ممارسة المحبة بين الناس، والسعي وراء المعرفة والعلم، والعمل لتوحيد الله دون غيره من الشركاء، والإيمان الصادق بالله، وترسيخ تعاليم الإسلام وتطبيقها التي تهون على المحب كل شيء، وتؤدي إلى معرفته، وهي بدورها تؤدي إلى إظهار كل شيء على أنه صغير لا قيمة له إلى غير ذلك[2].

ويرى الشاذلي أن التصوف ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية الإلهية[3] وله أقوال كثيرة لا تخرج في مضمونها عن هذا الإطار، وكلها تدور حول الإيمان بالله والتقرب منه بممارسة هذا الإيمان باستمرار وبصدق. والفرق بين هذه الطريقة وطريقة ابن عربي أن هذه كانت من الطرق التي لم تلق أدنى معارضة على أنها ضد ما جاء به الإسلام كما حدث لطريقة ابن عربي. وهذا ما أدى بهذه الطريقة وتعاليمها إلى الانتشار الواسع في المشرق العربي كله، وبسرعة كبيرة، حتى أصبحت من حيث أنصارها من أكبر الطرق الصوفية التي عرفها تاريخ المشرق العربي[4].

وقد كثر هؤلاء الأنصار دونما معارضة، كما سبق ذكره، وخاصة بعد أن ظهرت له كرامات متعددة في الإسكندرية وغيرها. وهو الذي كان يقول بين الحين والآخر: "ولا

---

[1] أحمد بدر، المرجع السابق، ص20.

[2] اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص141 وما بعدها.

[3] طبقات الشعراني، ج3، ص4-5.

[4] Spencer trimingham the sufi orders in Islam oxford university, Ed 1973, p44.

لجام الشريعة على لساني لأخبرتكم بما يحدث في غد وما بعده إلى يوم القيامة"[1] فكلام كهذا لا بد وأن يأخذ بعقول الناس وخاصة أنه قيل خلال العصور الوسطى حيث لا مقام يعلو إلا من خلال الدين والتدين.

وكثرت الأقوال حوله، وهي بمعظمها تؤيده وتمدحه دون خوف ولا تردد. ولعل في مقدمة من قال فيه ومدحه وأظهر قيمته، تلميذه الكبير الذي اعتبر من أخلص وأوفى من اتبع الشاذلية وعمل على نشرها، واستقطب الناس باتجاهها، وهو **أبو العباس المرسي** (ت686هـ/1288م)، والذي اشتهر كشهرة الشاذلي وخاصة في فترة ما بعد وفاة أستاذه، يقول المرسي عن أستاذه هذا: "هو البحر الذي لا يحاط به وقال: "إنه لقي الخضر في صحراء عيذاب... وروى أنه: "رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وسأله، إن كان يرضى عن أبي الحسن الشاذلي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أبو الحسن ولدى حسا ومعنى، والولد جزء من الوالد، فمن تمسك بالجزء فقد تمسك بالكل، فإذا سألت الله بأبي الحسن فقد سألته بي"[2].

ويبدو أن الفضل الكبير في انتشار طريقة الشاذلية كمبدأ صوفي في المشرق العربي يعود إلى تلميذ الشاذلي أبي العباس المرسي هذا الذي استطاع أن يجتذب الأنصار إليه، ويقنعهم بما هو في صدده، مثال ذلك **تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد الإسكندراني** (709هـ/1310م) الذي كان في بدايته، لا يقيم وزنا للصوفية، بل كان ينكر عليهم جميع تعاليمهم وممارساتهم، لكنه انخرط في الشاذلية بعد مقابلة مع المرسي فقام بتأليف كتاب سماه **لطائف المنن** في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن الشاذلي. وله تصانيف أخرى متعددة تشتمل على أسرار ومعارف وحكم ولطائف منثورة ومنظومة، وكلها في غاية الجودة على حد قول اليافعي المكي في مرآة الجنان[3].

ومن هذه التصانيف أيضا كتاب **التنوير في إسقاط التدبير**[4]، ومن أقوال المرسي التي لا تحيد عن مبدأ أستاذه العام. أن **الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا** وقال: "العارف لا دنيا له، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه وقال:

---

[1] ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص378.

[2] النبهاني، جامع كرامات الأولياء، بيروت (1329هـ/1911م)، ج3، ص175 وما بعدها.

[3] اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص246.

[4] ابن فرحون، ج1، ص242-243.

"الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه والعارف غريب في الآخرة"[1] وقال أيضا: "شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه"، وقال عن أستاذه الشاذلي: "أبو العباس بطرق السماء أعلم فيه بطرق الأرض"، وقال ابن تغري بردي: "كان لديه فضيلة ومشاركة، وللناس فيه اعتقاد كبير ولاسيما أهل الإسكندرية"[2]، وقد قال مرة عن نفسه: "والله لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين، ما عددت نفسي من المسلمين وقد اتسم المرسي وشيخه الشاذلي بسمة بارزة هي أنهما لم يؤلفا أية كتب في المذهب وكانا يقولان دائما تسويغا لهذا الواقع العبارة التالية، بلسان واحد منهما، كأن يقول المرسي على سبيل المثال **كتبي أصحابي** أي أن جميع التعاليم والأفكار وما يتعلق بشؤون العقيدة، محفوظ في ذاكرة أتباع الطريقة ومريديها"[3].

وأسهم المرسي في التدريس إضافة إلى التصوف، فقام بتدريس عدة كتب منها **المصابيح في الحديث** و **تفسير ابن عطية** و **الأحياء** و **قوت القلوب** و **نوادر الترمذي** وكان من تلامذته **تاج الدين بن عطا الله**، و **ياقوت العرش**، و **الإمام البوصيري ناظم البردة**، الذي يعتبر من أجلّ تلامذته على الإطلاق، و اسمه الكامل **أبو عبد الله محمد بن سعيد** (ت781هـ/1381م) وقد سماه المرسي **لسان الشعر**[4].

والحق يقال، إن انتساب المرسي إلى الطريقة الشاذلية، كان من أكبر الانتصارات لها، فقد شكل رفدا جديدا وسندأ أمينا لها، وخولته ثقافته الدينية العالية أن يقوم بمهمة التعريف بهذه الطريقة وتصويرها على أنها المنجية من النار والمؤدية إلى أسمى المراتب في الدار الآخرة. وقد مارس هذه الدعاية من خلال عمله كمتكلم وخطيب بالجامع الأزهر بالقاهرة، حيث خلب العقول بكلامه، فكثر أتباعه ومريدوه[5].

ومن الذين اعتنقوا وأيدوا الشاذلية **عماد الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطي** (ت711هـ/1312م) الذي كان والده من أصحاب الرفاعية أو الأحمدية، لكنه فضل الشاذلية عليها، و اعتنقها كمبدأ يؤدي إلى الخلود، وأدى به ذلك الاعتناق لمذهب الشاذلية الصوفي للرد على أتباع مذهب الاتحادية، الذين وصفهم بأنهم مبتدعة. وقد ألف

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج2، ص190 وما بعدها.

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص371.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص523.

[4] طبقات الشعراني، ج2، ص12-13.

[5] ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص188. المقريزي، الخطط، ج10، ص8.

في الصوفية كتابا سماه **الطريقة النبوية والسلوك الأثري المحمدي**. وهو من أنفع كتب الصوفية للمريدين، و انتفع به خلق كثير من متصوفة أهل الحديث وغيرهم[1].

ومن تلاميذ أبي العباس المرسي، يمكن أن نذكر **عبد الحميد بن علي الموقاني**[2] **(ت720هـ/1321م)** وصاحبيه **نجم الدين الأصفهاني** و **يحيى التونسي**[3] ومنهم **أبو عبد الله محمد بن محمد المغربي**، الذي اشتهر بعمل موشحات صوفية توحيدية قيل فيها أنه له تلامذة كثر أخذوا عنه علم التصوف على الطريقة الشاذلية[4].

و في ميدان التأليف يمكن ذكر **تاج الدين بن عطاء الله**، الذي أفرد مؤلفا حافلا لأبي الحسن الشاذلي، ضمنه ترجمته وأقواله فقط[5] ومثله **شرف الدين أبو المواهب محمد بن أحمد التونسي** (ت882هـ/1478م)، الذي ألف كتاب **القانون في علم الطائفة** وهو كتاب بديع، لم يؤلف مثله، ويشهد لصاحبه بالذوق الكامل، وكتاب **الأذكياء في أخبار الأولياء** وهو كتاب جليل أيضا، وله شرح الحكم.

وكان ينشد في المناسبات والاجتماعات على رؤوس الصالحين العلماء، وأخذ عنه جماعة لا بأس بهم بمدينة القاهرة[6] والشيء اللافت للانتباه أن هذه الطريقة، هي من الطرق الصوفية التي اشتهرت باسم مؤسسها في البداية و إلى عهد قريب بعد وفاته، فقد اشتهر تلميذه الرئيسي أبو العباس المرسي، الذي طار ذكره على صعيد العلم والتلاميذ والتقديس أيضا، بحيث صار في مصر محجا يحجه الناس كل سنة، ومازال ذلك معروفا في مصر حتى أيامنا هذه، و الشيء الأكثر من ذلك إثارة للانتباه، أن من يعاشر أهل مصر في أية مدينة كانت أو قرية من قرى مصر، فإنه يلاحظ أن عادة تقديس أبي العباس المرسي، مازالت قائمة. ويسمع المرء بين الحين والآخر عبارات التوسل والدعاء إليه في كل محفل ومناسبة. ومن ينتبه إلى المسلسلات المصرية في التلفزيون، يسمع هذه التوسلات، التي يسبقها دائما كلمة (سيدي) فيقال سيدي أبو العباس المرسي، إلى غير ذلك ومثل أبي الحسن الشاذلي وتلميذه المرسي، كان المتصوف **أحمد بن علي الفاسي البدوي**

---

[1] ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص24.

[2] الفاسي، المصدر السابق، ج5، ص237.

[3] ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص103.

[4] ابن مخلوف، المصدر السابق، ص223.

[5] ابن العماد، المصدر السابق، ج4، ص103.

[6] ابن مخلوف، المصدر السابق، ص257.

المعروف بذي اللثامين (ت675هـ/1277م) بطنط، وكان نزوله طنطا بأمر جاءه كما إدعى في بعض أحلام نومه أن يذهب إليها، ويقيم بها ليربي فيها رجالا وأبطالا. وكان ذلك سنة (634هـ/1237م)[1].

وحقيقة الأمر، فقد أقام بطنطا، يدعو الناس لاعتناق تعاليمه، التي لا تخرج عن إطار الدعوة للتمسك بتعاليم الإسلام من عبادة وزهد، وتمثل بالسلف الصالح إلى غير ذلك من تعاليم عرفت بها الطرق الصوفية.

والطريقة البدوية تشبه الطريقة الشاذلية، من حيث سعة انتشارها وتأثيرها وعدم معارضتها من الناس، حيث كتب لها أن تعيش وتستمر إلى وقتنا الحاضر. فالإيمان بأحمد البدوي مازال قائما، وخاصة في مصر. فتكاد تسمع سيرته وشهرته وتقف على مكانته الكبيرة في كل مكان من أرض مصر. وتوجد أناشيد وموشحات نلمس في مضمونها الطلب إلى أحمد البدوي، بأن يحل المشاكل عن طريق العناية الإلهية.

وتأتي أهمية وتقدير أحمد البدوي، من أنه منذ حل بأرض مصر قابله الناس والحكام هناك بالترحاب والانضمام إليه والأخذ بتعاليمه، مثل **الظاهر بيبرس** الذي استقبله باحتفال كبير عند وصوله إلى مصر، وكانت تقام في كل عام سوق كبيرة، يأتي الناس إليها من كل أنحاء مصر، ليحتفلوا بمولده[2] وهذا ما حدا بالحكام المصريين في العصر المملوكي، أن يستحدثوا وظيفة جديدة، سميت **مشيخة مقام أحمد البدوي**[3].

ويمكن ذكر صاحب طريقة صوفية كذلك، كان له تأثيره الفعال والكبير في المشرق العربي يمكن ذكره بصورة مستقلة عن ابن عربي، إنما يمكن اعتباره امتدادا صادقا له. وصاحب هذه الطريقة هو **ابن سبعين عبد الحق بن إبراهيم المرسي الرقوطي** (ت669هـ/1271م). وتأتي استقلالية هذه الطريقة، من أن أتباع ابن سبعين عرفوا (بالسبعينية). وقد ناضل ابن سبعين نضالا قاسيا من أجل نشر عقيدته الاتحادية، في منطقة كانت بعيدة إلى حد ما، عما يجري في الحواضر الأخرى، مثل **القاهرة و دمشق و الإسكندرية و بيت المقدس** وغيرها. و إن الذي يجب الإشارة إليه هو، أنه لم يوجد ما يدل على أن ابن سبعين كان قد تتلمذ على ابن عربي، ولا على أحد من تلامذته الكبار،

---

[1] المصدر السابق، ص257.

[2] الزركلي، الإعلام، ج1، ص170.

[3] ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور، ج1، ص339.

الذين خلفوه. لذلك لا يعرف على وجه الدقة من أين استقى علم وتفاصيل هـذا المـذهب. لكن الشيء الذي يمكن التصريح به، أنه أي ابن سبعين نشأ في البيئة التي نشأ بهـا ابـن عربي، ويتشابهان من ناحية العلوم، التي درساها في مرحلة الصبا، مثل علوم الأوائل من منطق وإلهيات وطبيعيات ورياضيات إلى غير ذلك.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لا يستبعد، أن يكون ابن سبعين، قد إطلع على مؤلفات ابن عربي، وخاصة ما يجسد عقيدته **وحدة الوجود** مثل **الفتوحـات المكيـة** و **نصـوص الحكيم.**

ويقال عن ابن سبعين، أن الفلسفة هي التي كانت تغلب عليه، على الرغم مـن أنـه ظهر بثوب متصوف، وربما حتى لا ينفر الناس منه وقد سار على نهـج وطريقـة ابـن عربي، فلم يبدل شيئا في مفهوم مذهب **وحدة الوجود** أو يضيف عليه شيئا فيقول:

من كان يبصر شأن الله في الصور فإنه شاخص في أنقص الصور

بل شـأنه كونـه بل كونه كنهـه فإنه جملة من بعضها وطـر

والشيء الذي زاد فيه على ابن عربي، هو إدعاؤه النبوة، حيث روى عنه أنه كـان دائما بانتظار الوحي. وعلى أغلب الظن، أن ذلك غير صحيح، لأن مثل هذا الإدعاء لـم يصدر عنه صراحة، في أية من مخلفاته المكتوبة.

وليس ذلك إلا دعاية رخيصة، اختلقها الأعداء الذين اصطدم بهم في كل مكان على غرار ما جرى مع كل الذين نادوا بمذهب وحدة الوجود. يقول أبو حيان النحـوي عنـه: "... وأصحابه مذمومون مبغوضون، كلهم جهال أتباع جاهل"، وقد ذكر هؤلاء الأتبـاع، الأمر الذي يدل على مدى تأثيره في المجتمع المشرقي.

وقد جاءت أهمية ابن سبعين وتأثيره، من خلال قناة أخرى، هي التأليف، مثل ابـن عربي و إن لم يكن قد وصل إلى درجته العلمية.

وأن مجموع هذه الكتب، لا يخرج عن إطار مذهب وحدة الوجـود. وأكبـر هـذه المؤلفات **فكر المعارف** وسماه فيما بعد **النور اللامع في الكتـاب السـابع** ولـه بعـض المختصرات مثل مختصر **الرضوانية و الفقيرية** و **الإحاطة** وهي عنده الغاية القصـوى فيما قرر من هذا المذهب.

وقسم الطوائف في كتابه **فكر العارف** أو كما يسميه بعضهم **بد العارف** إلى فقهاء وأشعرية، ويعني بالذكر المتكلمين والفلاسفة والصوفية والمحققين.

ثم جعل غير المحققين أصما لم يسمع نداء الهداية. وقسم الأصم إلى أصم سعداء وهم الصوفية وباقي الأنام، و أصم أشقياء، وهم الجهال الكافرون الجاهلون بالله أو بنعمه.

والشيء الذي أثار عليه نقمة الكثيرين، أنه ذكر في هذا الكتاب، ما يسيء إلى الغزالي بقوله: "أن إدراجه في العلوم أضعف من خيط العنكبوت". وعبارة كهذه لا يجوز أن تكون مصدر سخط عليه، إذا كان يقصد ذلك الضرر الذي سببه الغزالي من خلال بعض كتبه التي يكرس فيها محاربة العقل البشري ولجم الأفواه العلمية عن التحدث، بما ينفع من خلال إطلاق سراح العقل لخلق المبتكرات. فالغزالي كما ألمح ابن سبعين، لم يكن له المعرفة الإسلامية الصحيحة وخاصة تمثل روح الإسلام العلمية، و إلا لما كان قال بذلك الأمر الذي يجب تجاوزه كونه أداة مثبطة وله كتاب **الصور الوصفية في الصور الفلكية** وشرح كتاب **إدريس** الذي وضعه في علم الحرف وهو نفيس جدا، وكتاب **حزب الفتح و النور** و **التجلي الرحمانية بالرحمة في عالم الظهور** وكتاب **حزب الفرج والاستخلاص بسر حقيقة كلمة الإخلاص**[1].

وغدا قبره فيما بعد مماته، محطة للزيارة والتبرك، حتى قام جد **تقي الدين الفاسي** صاحب كتاب **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** بقلع الحجر، الذي يحمل إسمه، والمنصوب على شاهدة القبر، حتى لا يعرفه أحد بعد ذلك فيزوره[2] وقد لاقى من السخط والنقد والتجريح ما لاقاه ابن عربي، فهاجمه الذهبي و ابن خلدون و ابن تغري بردى وابن كثير وغيرهم[3].

ولم يكن الدور الذي شغله الأندلسيون والمغاربة، يقتصر على الذين درسوا العلوم في شتى أنواعها، وألفوا في ميادين المعرفة الكثيرة، على الصورة التي ذكرت حتى الآن. إنما وجدت فئة أخرى عملت في مجالات ثقافية مختلفة، لا تقل بأي حال من الأحوال من

---

[1] الفاسي، المصدر السابق، ج5، ص326 و ما بعدها. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص329 وما بعدها. هدية العارفين في أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، ج1، ص503. المقري، المصدر السابق، ج2، ص196 وما بعدها.

[2] الفاسي، المصدر السابق، ج5، ص235. الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق: رابح بونار، الجزائر 1970م، ص209. ابن كثير، المصدر السابق، ج13، ص261. اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص171.

[3] الذهبي، العبر في خبر من عنبر، ج5، ص291. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص234. الفاسي، المصدر السابق، ج2، ص179.

حيث مردودها الإيجابي عن الفئات العلمية الأخرى، إن لم تكن تتفوق عليها في بعض الأحيان.

فقد اشتغل جزء من هذه الفئة في ميدان بيع الكتب والاتجار بها على هيئة ما هو حاصل هذه الأيام، في المكتبات الكبرى المنتشرة في المدن والتجمعات السكانية الكبيرة.

مثال ذلك، مثل **الحسن بن علي أبو علي الفاسي نزيل الإسكندرية**، الذي ظل يتجر بالكتب في هذه المدينة، حتى كانت وفاته سنة (661هـ/1263م)[1] كما وجد جزء قليل جدا من هذه الفئة، اشتغل أصحابه في فن أدبي لم يكن على ما يبدو من الفنون المسموح بها، كأن يكون مثله مثل أي فن من فنون الأدب على سبيل المثال، هذا الفن هو ما يسمى بفن القصة، وهي ليست مثل القصة التي نعرفها اليوم، والتي لها شروطها الفنية الكاملة، التي لا تكتمل بدونها ويمكن تسميته بفن **الحكواتية** الذين ربما كانوا يروون حكايات خيالية عن أبطال أو ظواهر طبيعية، أو عن حياة حيوانات، كانت نادرا ما تحدث في الواقع، وكان ذلك يحدث بقصد الترفيه والتسلية لا أكثر، وهذا ما يجعل أمر انتشاره نادر الحدوث، فظل على نطاق محدود، كثيرا ما تعثرت مسيرته على الرغم من رغبة شعبية هائلة، كانت تلوح في أفق الحياة الاجتماعية في كثير من المدن المصرية وغير المصرية آنذاك.

والسبب في عدم انتشار هذا الفن القصصي، يعود إلى عدم ارتباطه في الدين، كونه لا يأخذ أسسه وشرعيته من تعاليمه، و مع ذلك فقد وجد السلاطين من تساهل إلى حد ساعد على ظهور بعض أصحاب هذا الفن من المغاربة والأندلسيين بمدينة القاهرة، مثل **محمد بن تازمرت شمس الدين المغربي**، الذي أقام بالقاهرة بعد تأدية فريضة الحج.

ومارس هوايته الفنية هذه بالجامع الأزهر، فاشتهر بين الناس فأحبوه وأكرموه، وعندما منع **الناصر محمد ابن قلاوون** القصاص من العمل في هذا المجال، فإن هذا المغربي استطاع أن يأخذ أذنا بالاستمرار بعمله لوحده، بعد أن تدخل لصالحه الأمير **ألجاي الدوادار الكبير**، فطارت شهرته وصار صاحب ثروة ومال، ولم يتوقف عن فنه حتى وافته المنية سنة (738هـ/1338م)[2] ويمكن القول أن هذا الفن القصصي، الذي يرتكز على الخيال والحكايات غير الواقعية، كان على ما يبدو من البضائع الفنية الأدبية المرغوبة في الأوساط الشعبية، خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى، فعلى

---

[1] الذهبي، العبر في خبر من عنبر، ج5، ص264. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص305.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص31-32.

الرغم من أن الناصر محمد بن قلاوون منع هذا الفن، لما عرف عنه من جدية في كل المجالات العامة، فإنه سمح لبعضهم بممارسته، الأمر الذي يساعد على القول، أن هذا الفن انتشر خلال الفترة التي تلت وفاة الناصر محمد بن قلاوون والتي تبدأ من العقد الأخير من النصف الأول من القرن (8هـ/14م)، وهي فترة امتاز سلاطينها ومعاونوهم بحب اللهو وعدم التركيز على الأشياء الجدية بحيث أصبح الجد والهزل عندهم سيان.

ومهما يكن، فإنه يشكر للمغاربة سعيهم في هذا الاتجاه، الذي لم يكن في يوم من الأيام يفضي إلى تهديم صرح حضارة، كان قد أقيم من ذي قبل، بل على العكس تماما، فإن الشعوب الحضارية العريقة، تمتاز بأنها تمتلك إرثا حضاريا فيه كثير من الملاحم القصصية الخالدة، التي مازالت ذكراها تترد حتى يومنا هذا.

و وجد جزء آخر من هذه الفئة عمل أفراده في ميدان الترجمة من لغة إلى لغة أخرى، و كثيرا ما اشتهر الأندلسيون والمغاربة بهذا الشأن، وخاصة بمدينة الإسكندرية، التي كانت ملتقى التجار من جميع الأمم، وخاصة القادمون من المغرب عن طريق البحر، مثال هؤلاء المترجمين، **شهاب الدين المالقي**، الذي اشتهر على أنه أفضل مترجم في النصف الأخير من القرن (8هـ/14م)، حتى لقب بترجمان الإسكندرية.

ويعتبر عمل هؤلاء من الأعمال الكبيرة والمهمة كونه الأداة التي يتم من خلالها التفاهم ونقل الفكر والثقافة ونشرها بين الأمم.

وقد بلغ إهتمام المغاربة والأندلسيين بالثقافة حدا وصل إلى أقصى درجات الحرص فيذكر صاحب الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة عدة قبور في مدينة القاهرة لمغاربة وأندلسيين في محلة المقرافة، كانت تسمى **قبور المغاربة اللواحين** الذين أخذوا هذه التسمية من جراء تقديمهم الألواح، التي كانوا يصنعوها بأيديهم إلى الطلاب في أماكن تعليمهم ودراستهم دون مقابل، تشجيعا منهم لحركة العلم و إنتشار التعارف[1].

---

[1] ابن الزيات، المصدر السابق، ج1، ص43.

2- إسهاماتهم في الميدان الاقتصادي

إن الموقع الجغرافي لعب دورا مهما في النشاط الاقتصادي للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي خاصة مصر والشام[1].

فشهدت الموانئ المصرية والشامية العديد من التجار المغاربة والأندلسيين الذين نقلوا الكثير من البضائع المختلفة بين المنطقتين مصر والشام والمغرب والأندلس.

ويضاف إلى هذا طريق الحجاج المغاربة والأندلسيين عبر الأراضي المصرية مما خلق حركة تجارية على إمتداد هذا الطريق[2]، حيث لقى هؤلاء العناية والترحيب من حكام المشرق منذ فترة حكم نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي حتى نهاية القرن (9هـ/15م).

كما شهدت مدارس باسم المغاربة، حارات، وزوايا وخانقاهات صوفية ومساجد في كل أنحاء مصر والشام، وخاصة القاهرة ودمشق والإسكندرية وبيت المقدس وحلب، حيث كان الوجود الأندلسي والمغربي كثيفا ومميزا[3]، على الرغم من ذكر المصادر لأفرادها بصورة مستقلة، فلم تذكر المصادر من رجال هذه الفئة إلا الذين كانت لهم عناية خاصة بأمور علمية معينة، وقد توزع هؤلاء على عدة أقسام، فمنهم من عمل بالصناعة ومنهم من عمل بالتجارة ومنهم من عمل بالزراعة وهناك من عملوا في ميادين مختلفة ومتنوعة من الخدمات.

أ) في الميدان الزراعي

إن الظروف البيئية في مصر سمحت بقيام الزراعة على مياه الآبار في الواحات ومنطقة البحيرة[4]، وعلى مياه الأمطار في الشريط الساحلي مما يلي الإسكندرية و برقة[5]

---

[1] أنظر: أوجه التشابه بين المناطق المشرقية والمغربية والأندلسية، ابن خلدون، كتاب العبر، ج4، ص119. المقري، المصدر السابق، ج1، ص209-237. إبن جبير، المصدر السابق، ص228-233.

[2] أنظر تفاصيل وافية حول تأثير هذه المقدسات في المغاربة، السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص334. السلمي، ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام، صححه و نشره أحمد سامح الخالدي، القدس 1940، ص11 وما بعدها. الربعي، فضائل الشام و دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق 1950، ص14 وما بعدها.

[3] أنظر نماذج من هذه المعاملة: أبو شامة، الذيل على الروضتين، ج1، ق1، ص24. إبن القلانسي، المصدر السابق، ص301.

[4] إبن حوقل،المصدر السابق، ص154. البكري، المغرب، ص14.

[5] إبن حوقل، المصدر السابق، ص67. المقدسي، المصدر السابق، ص224.

فانتشرت زراعة القمح والشعير والأرز وبعض البقول[1]، ومن الثمار التمر والكروم والجوز والأترج (الليمون) والسفرجل وأصناف أخرى من الفواكه[2].

كما مارس البدو كذلك حرفة الرعي التي جعلت الطابع العام لحياتهم يغلب عليه الترحال والتنقل سعيا وراء الكلأ.

أو كما قال ابن خلدون: "... وفيما بين الإسكندرية ومصر قبائل رحالة يتنقلون في نواحي البحيرة ويعمرون أرضها بالسكنى والفلح، ويخرجون في نواحي العقبة (عقبة السلوم) وبرقة من مزانة (بالأصل: مزانت) وهوارة، وزنارة إحدى بطون لواته، وعليهم مغارم الفلح، ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر"[3].

وتبعا لهذا فقد وجدت ثروة حيوانية كبيرة تشمل الأغنام والماعز والإبل، وخاصة الأبقار[4].

ونستطيع أن نقسم فئة المغاربة والأندلسيين العاملين في الميدان الزراعي بمصر والشام إلى قسمين:

الأول: الذين عملوا في حراسة الحقول والكروم والحدائق، وهو أمر اشتهر به المغاربة خلال وجودهم في مصر والشام قبل المتصوف المغربي **أبي موسى الدكالي** الذي عمل في حراسة الكروم وحفظها بمدينة الإسكندرية خلال القرن (6هـ/12م)[5].

ثانيا: فهم الذين إمتلكوا الأراضي وإستزرعوها، أو الذين عملوا عند مالكين مصريين وغيرهم، فقد ذكر المقريزي في كتابه الخطط طبيبا باسم **ابن المغربي**، كان

---

[1] إبن حوقل، المصدر السابق، ص56.

[2] نفس المصدر، ص154. المقدسي، المصدر السابق، ص224. البكري، المغرب، ص5. وراجع: اليعقوبي، المصدر السابق، ص332. مجهول، الإستبصار، ص147. الإدريسي، صفة المغرب، تحقيق: دي غويه، ص43، حيث التأكيد= على أن الواحة الداخلة كانت حتى القرن (7هـ/13م)، راجع: إبن دقماق، الإنتصار، ج5، ص12، حيث يتحدث بإسهاب عن الحاصلات الزراعية التي إشتهرت بها الأقسام العمرانية في الواحات.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص10.

[4] ابن حوقل، المصدر السابق، ص153. الإصطخري، مسالك الممالك، ص52. المقدسي، المصدر السابق، ص201. راجع البكري، المصدر السابق، ص14-15، حيث الإشارة إلى أن سكان ناحية بهنسة الواحات كانوا يستخدمون الأبقار في جر عربات النقل، إبن حوقل، المصدر السابق، ص153. الإدريسي، المصدر السابق، ص22.

[5] التادلي (يوسف)، التشوف إلى رجال التصوف، إعتنى بنشره، أدولف فور، الرباط، 1958، ص186-187.

يمتلك بستانا بمدينة القاهرة "إشتراه منه القاضي **كريم الدين** الناظر الخاص للأمير **سيف الدين طشتمر الساقي** بنحو مائة ألف درهم فضة، عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا"[1].

وتدل هذه الإشارة التي جاء بها المقريزي على أن المغاربة، كانت لهم رغبة فائقة بالعمل الزراعي، و إلا لماذا لم يقف هذا الطبيب عند حدود علمه و إختصاصه ودخله منه؟، وكانت الزراعة على ما يبدو الملجأ الأمين، أو بمعنى آخر الإحتياطي الذي يغني من يعمل به ويساعده على العيش محفوظ الكرامة إذا ما أحدقت به الصعاب، فعلى الرغم من علم ابن خلدون ومكانته الرفيعة كقاضي للمالكية بالقاهرة، كان يلجأ إلى العمل بالزراعة عندما كانت الأمور تسير في غير صالحه في الميدان العلمي والإداري.

يذكر بنفسه أنه في سنة (801هـ/1399م) توفي القاضي المالكي **أحمد بن محمد التنسي**، فبعث إليه من يخلفه في القضاء يقول: "... وكنت مقيما بالفيوم لضم زرعي هنالك"[2]، ومثل ابن خلدون كان القاضي المالكي **حسام الدين محمد** المعروف **بابن حريز المغربي** (ت873هـ/1469م) الذي توسع في أمور الزراعة والري بمصر، فشملت نشاطاته عدة وجوه وكانت له إهتمامات مختلفة، الأمر الذي جعله يصنف من المنتجين الزراعيين المرموقين في عصره، فقد اعتنى بفن السقاية والري، فاستجر المياه إلى حيث الأراضي المراد إرواؤها.

ومن ناحية أخرى اعتنى بتربية النحل وصناعة السكر والقنود إلى غير ذلك. يقول ابن تغري بردي: "... وحببت إليه الزراعات ودولبة السواقي وعمل القنود والسكر والأعسال، وإتسع أمره في ذلك حتى صار في أمر كبير من المتحصل في السنة، يكون ذلك آلافا مؤلفة..."[3]، وقد كان **محمد بن محمد المالقي أبو عبيد الله** (ت878هـ/1474م) يمتلك في مدينة الإسكندرية **غيطين** من الأراضي يشرف بنفسه على زراعتها، و يبدو أن إنتاجهما كان كبيرا حيث أنه ترك كمية هائلة إنتفع بها وارثوه[4].

أما بلاد الشام فإن الأمر لا يختلف عن الذي كان في مصر فالعمل بالفلاحة والزراعة كان متوفرا فيها بسهولة أكثر من غيره على إعتبار أن هذه الحرفة كانت تشكل

---

[1] المقريزي، الخطط، ج3، ص97.

[2] ابن خلدون، التعريف، ص347.

[3] ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي)، حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور، كاليفورنيا 1932م، ج3، ص723. السيوطي، نظم العقيان، ص143-258 و ما بعدها.

[4] السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص199-200.

عماد الإقتصاد في هذه البلاد لذلك ليس من الغريب في شيء أن يكون قسم من المغاربة والأندلسيين عمل بالزراعة ولاسيما الذين لا يمتلكون المؤهلات العلمية والإدارية أو غيرها.

وقد اشتهر عن الأندلسيين والمغاربة عملهم في حراثة البساتين والعمل فيها مثل **أبي الوليد الطرطوشي** صاحب كتاب **سراج الملوك**[1].

وقد يكون الأندلسيون والمغاربة هم الذين عملوا في الزراعة وإستثمار البساتين والأراضي، التي خصصها لهم نور الدين زنكي في مدينة دمشق، وخاصة أن المسؤول الأول عن إدارتها كان منهم، وهو **أبو الحسين علي بن سردال** المعروف **بالمرادي**[2].

أما القسم الذي عمل أفراده في الحقول الزراعية الأخرى و في حراثة البساتين، فإن المصادر لا تحفل بالكثير من الأمثلة، التي يمكن الإستشهاد بها، لكن وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك بعض الإشارات التي تمكن من البرهان على أنهم إشتغلوا بالزراعة، فقد وجد كثير منهم إستطاعوا بطريقة ما أن يمتلكوا الأراضي الزراعية الواسعة، مثل **الشيخ رجب الدين الرجيحي التونسي** المتوفى بدمشق سنة (706هـ/1306م)، الذي كان يمتلك قرية كاملة من قرى غوطة دمشق، لم يسمها صاحب الدرر الكامنة[3].

الأمر الذي ظهر جليا و واضحا من خلال بحث العاملين في هذا المضمار. وقد حدث أن نقلوا أشياء جديدة كانت غير معروفة بالشام ومصر، وذلك انطلاقا من أنهم لم يكونوا غرباء عليه، فقد عرفت الأندلس بزراعاتها الراقية والمتنوعة، وما يؤكد أنهم عملوا في هذا المجال، أن كثيرين منهم اشتغلوا في حراسة البساتين و آخرين امتلكوا الضياع والقرى الزراعية، إضافة إلى أن نور الدين زنكي، خصص لهم منذ الفترة الأولى من القرن السادس، عدة بساتين وأراض غير مشجرة[4]، لكنهم بالرغم من ذلك، فإنهم لم يشتهروا بشيء جديد يمكن أن يتوقف المرء عنده، على صعيد الزراعة، كأن يقال مثلا أنهم نقلوا طريقة زراعة معينة لصنف من الأصناف النباتية، أو أي شيء من هذا القبيل.

---

[1] الطرطوشي، المصدر السابق، ص293.

[2] ابن جبير، المصدر السابق، ص257.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص108.

[4] أنظر: ص105 من هذا البحث.

ب)في الميدان الصناعي

كان نشاطهم واضحا في هذا الميدان، فقد إشتغلوا بصناعة الحرير ونشروها في كل أنحاء مصر والشام، فاشتغل بها في مدينة القاهرة **أبو العباس أحمد الحرار التجيبي** مــن رجال القرن (7هــ/13م)، و كانت هذه الصناعة مصدر رزقه الرئيسي.

ويبدو أن هذه الصناعة إنتشرت بسرعة في مصر و لاسيما في مدينة القاهرة، يظهر هذا من خلال قول نقل عن هذا الأندلسي هو: "و كنت أكب زنارا حريرا بدرهم و أجعله عند الزيات، فآخذ منه في عشية كل يوم رغيفا أقتات به، فإذا فرغ الدرهم، أكب زنــارا غيره وهكذا... فلم أزل على حالتي أكب الحرير حتى قيل لي إن لم تتركــه أعمينــاك"[1]، وهذا التهديد الذي تلقاه هذا الأندلسي يدل على أن المنافسة في هذه الصناعة كانت كبيــرة جدا ويمكن أن تكون بين المغاربة أنفسهم.

وفي صناعة النسيج العادية، إشتغلت إحدى المغربيات، التي لم يذكر إسمها، لكن ابن حجر العسقلاني ذكر أخاها عبد الله (ت749هــ/1349م) الذي قيل عنه بأنه كان لا يلبس ثيابا إلا من إنتاجها[2].

وتوصل بعض المغاربة بمدينة القاهرة إلى إنشاء معمل، فقد ذكر المقريزي في صدد حديثه عن منطقة الميدان الصالحي: "... إن الميدان الصــالحي ظــل باقيــا إلــى ســنة (740هــ/1339م)، فأدخله **صلاح الدين المغربي** في قيسارية الغزل والتي أنشاها هناك"[3].

من هذا القول نستنتج أن هذه المنشأة كانت كبيرة و واسعة و لابد أنها كانت غزيرة الإنتاج.

كما ظهرت براعة المغاربة والأندلسيين في مجال آخر من الصناعات التي تعتبــر جديدة على المجتمع القاهري، فقد قام **عبد الله بن محمد السوسي** (ت803هــــ/1401م) بصناعة نوع من الورق كان يستخدم لكتابة القرآن وما إلى ذلك، ذكره السخاوي بقولــه:

---

[1] ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص151 وما بعدها.

Pirenne (H), les villes au moyen age essai d'histoire économique et sociale, Bruxelles 1937, p113.

[2] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص419.

[3] المقريزي، الخطط، مجلد3، ص117.

"... كان أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة، حتى كان يصنع بيده ورقا يكتب فيه بخطه الدقيق سورة الإخلاص و آية الكرسي... "[1].

و إشتهر أمر بعض المغاربة والأندلسيين في بلاد الشام على صعيد الصناعة أيضا، فقد إشتغل فيها **محمد السبتي** المتوفى بدمشق سنة (626هـ/1229م)، وقد كان هذا المغربي يفضل التجارة عن بقية الأعمال الأخرى التي إكتسب منها ثروة كبيرة كما ورد في رواية أبي شامة[2].

والكثير من الأعمال التي قام بها المغاربة والأندلسيون في مصر والشام في هذه الفترة إعتبرت جديدة ومبتكرة، مما دعم بعض الصناعات وأضفى عليها صفة الإشتهار أكثر وقد مثل ذلك عمل **عيسى بن علي بن عيسى الأندلسي** الذي حل بمدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن (8هـ/14م) والذي عرف بتضلعه ومهارته في صناعة الحرير وتلوينه، مما جعله مصدرا لتعليم هذه الحرفة الصناعية وإنتشارها[3].

و يبدو أمر نقل هذه الحرفة إلى الشام من الأمور العادية جدا على إعتبار أن الأندلس عرفت بها و لا سيما في مدن إشبيلية و سرقسطة و ألمرية[4].

ويحتمل أن تكون بعض الصناعات كذلك وصلت إلى بلاد الشام عن طريق الأندلسيين والمغاربة الذين جعلوها دار المقام، ومازالت إلى يومنا هذا مثل بعض المصنوعات الخزفية التي تستخدم أواني للطعام تعرف بإسمها الأندلسي في شتى مدن الشام.

وأثناء وجودهم في مصر إشتغلوا في صناعات مختلفة حسب المنطقة المتواجدين فيها، فسكان الواحات في الجنوب إهتموا بالصناعات التقليدية مثل: غزل الصوف، ودبغ الجلود وتجفيف الأعناب للحصول على الزبيب وطحن الغلال حيث كانت الإبل والأبقار

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، ج5، ص57.

[2] الذيل على الروضتين، ط1، 1947م، ص157.

[3] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص206.

[4] الإدريسي (محمد بن محمد)، المغرب و أرض السودان و مصر و الأندلس، ص197. إبن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، ص114. الحميري، المصدر السابق، ص538.

تستخدم في إدارة الطواحين[1]، وهناك من اشتغل في صناعة ملح الشب في واحة الفرفرون(الفرافرة)[2] وصناعة الزاج[3]، والقطران[4]، وحجر الأزورد[5].

كما نستدل من تراجم بعض هؤلاء الوافدين من المغاربة والأندلسيين على أنه كان منهم: **الطحان** مثل **محمد بن عبد الله بن أحمد الثقفي الأندلسي** الذي سكن مصر وحدث بها[6]. و**الدقاق** مثل **أبي القاسم خلف بن مروان التميمي القرطبي** الذي صاحب **ابن الفرضي** المؤرخ في رحلته إلى المشرق ومنها مصر[7].

ويبدو أن **مروان القرطبي** كان على معرفة بصناعة الورق، إذ كان يعرف **بالوراق**[8]، و **البزاز** مثل **أبي عبد الله محمد بن نظيف القيرواني**[9]، و **الصواف** مثل الفقيه الفقيه **الطليطلي أبي عبد الله محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري**[10] الذي أقام بالفسطاط. و **الخراز** مثل **أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني** ثم **البجائي**[11] بمدينة الإسكندرية و كذلك **الحذاء** مثل **أبي بكر الحذاء القيرواني**[12] الذي أقام بمدينة دمياط. و **السراج** أي صانع سروج الخيل مثل **أبي عبد الله محمد بن رشيق القرطبي**[13] و **الحداد** مثل **أبي عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون القرطبي**[14].

---

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ص115.

[2] المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص26-27. البكري، المغرب، ص15. راجع المقريزي، الخطط، ج1، ص440-441. حيث نص هام عن الشب الأبيض المشهور بالواحات، حرصت الحكومة الأيوبية على الحصول عليه.

[3] المسعودي، المصدر السابق، ص26. البكري، المغرب، ص15.

[4] نفس المصدر، ص5.

[5] الإدريسي، صفة المغرب، ص43.

[6] ترجم له: ابن بشكوال، كتاب الصلة، ج2، ص454.

[7] نفس المصدر، ج1، ص167.

[8] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص167.

[9] ابن فرحون، الديباج المذهب، ص318. ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، ج1، ص167-168.

[10] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص510.

[11] نفس المصدر، ج1، ص305.

[12] الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص166-167.

[13] إبن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص472.

[14] إبن الفرضي، المصدر السابق، ج2، ص110-111.

والنقاط أي فن كتابة المصحف الشريف وإخراجه وقد أتقنها **نصر الطليطلي** حتى عرف بالمصحفي النقاط[1]، وهي صنعة تذكرنا بجهود بعض الفنيين المغاربة والأندلسيين الذين كانوا وراء تلك المسحة المعمارية و الزخرفية ذات الطابع المغربي الأندلسي التي إكتسحت بها العمائر الإسلامية في مصر وبلاد الشام.

أما بالنسبة للصناعة فقد كان دورهم أكبر، وأكثر لكونهم أيضا ورثة مجتمع صناعي متقدم، إضافة لذلك، فإنهم نقلوا عدة صناعات لم تكن معروفة على صعيد بلاد الشام، وأضحت جديدة بالنسبة للشاميين والمصريين. وتتجسد فائدة نقل مثل هذه الصناعات الجديدة في وجهين اثنين:

أولهما يخلص المستهلكين من دفع سعر إضافي، لأن مثل هذه الصناعات، ستستورد من خارج البلاد، لكونها غير رائجة على الصعيد المحلي. لأن القائم على عملية الإستيراد، سواء كان من التجار المستقلين، أو المعتمدين لدى الدولة، سيأخذ بعين الاعتبار ثمن الكلفة من بلد المنشأ، و أجور النقل منه إلى حيث السوق الاستهلاكية، يضاف إلى ذلك حساب الأرباح.

وثانيهما يتلخص بأن مثل هذه الصناعات، تساعد على تشغيل عدد من العمال، سواء منهم الذين يشتغلون فيها بصورة رئيسية، أو الذين يقومون بتسويقها والإتجار بها، وبالتالي تصبح البلاد من المناطق المصدرة، بعد أن كانت مستوردة، و هذا الأمر يقوي ويدعم الإقتصاد الوطني بحسب ما يقوله علماء الاقتصاد.

ج) في الميدان التجاري

إن الأمر يختلف عما كان بالنسبة للزراعة والصناعة من حيث توفر الأمثلة الواضحة، فلم يجد التجار المغاربة والأندلسيون أي مانع من الإنتقال وشحن البضائع إلى حيث يريدون من بلدان المشرق العربي.

إن التجارة كانت هي الصفة الغالبة على نشاط معظم الوافدين إلى مصر وبلاد الشام من المغاربة والأندلسيين و من هؤلاء:

---

[1] إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص744.

أبو مروان عبيد الله بن يحي الليثي القرطبي الذي أصبح من أهل المال والجاه بعد رحلة إلى المشرق خرج خلالها حاجا وتاجرا وكانت مصر من البلدان التي مر بها ومارس فيها نشاطه التجاري[1].

أبو القاسم مسعود بن علي بن مروان الأندلسي من أهل بجانة الذي رحل حاجا وتاجرا[2].

وممن نلاحظ عليه حرفة التجارة كذلك، أبو القاسم مسعود بن خير الدين البجاني ثم القرطبي الذي زار مصر في رحلة علمية و وصف خلالها بأنه "لم يكن من أهل العلم، إنما كان تاجرا"[3]، ويبدو أن أبا عبد الملك مروان بن عبد الملك القرطبي قد إختفى بتجارة الفراء إذ كان يعرف بالفراء، وهو ممن زار مصر وتتلمذ على مشاهير فقه مالك آنذاك[4]، بينما إشتهر مواطنه ورفيقه في الرحلة أبو القاسم أصبغ بن عبد الله بن مسرة بتجارته في الحنطة حتى عرف بالحناط[5]، وقد إستلزم الأمر بأبي يحي ابن الأشج التاهرتي أن ينتقل بين الفسطاط ومدينة تينس لمتابعة نشاطه التجاري، وذلك أثناء وجوده بمصر[6] وعلى غير المعتاد لم يوفق أبو القاسم أحمد بن فتح بن عبد الله المعروف بابن الرسان، التاجر القرطبي في خروجه للتجارة حتى أنه لم يقدر على الوفاء بديونه، فاستتر إلى حين وفاته[7]، في حين سافر أبو القاسم سلمة بن سعيد الأنصاري من بلده إلى المشرق وأقام هناك ثلاثة وعشرين سنة حقق خلالها ثروة لا بأس بها، أنفق معظمها في شراء الكتب[8]، وإثر خروج أبي عبد الله محمد بن سعدون القيرواني من مصر، التي زارها في منتصف القرن

---

[1] ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص292-293. روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م (7-9هـ)، ترجمة: حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بلاتا، ص71-77.
Strauss (E), Prix Et Salaires à l'époque Mamelouke, étude sur l'état économique de l'Egypte et de la Syrie à la fin du moyen age, paris 1949, p125.

[2] نفس المصدر، ج2، ص131.

[3] نفسه، ج2، ص131.

[4] نفسه، ج2، ص125.

[5] نفسه، ج1، ص97.

[6] نفسه، ج1، ص179-180.

[7] إبن الشكوال، المصدر السابق، ج1، ص31.

[8] المصدر السابق، ج1، ص219-220.

(5هـ/11م)، تابع نشاطه التجاري فيما بين المغرب الأندلس، حتى توفي بمدينة أغمات بالمغرب الأقصى[1].

ويلاحظ أن نفرا من ذوي اليسار من أهل المغرب قد حرصوا على تمويل بعض الرحلات التجارية إلى مصر. من ذلك ما فعله إسماعيل بن عبيد مولى الأنصار المعروف بتاجر الله[2]، و أبو بكر هبة الله بن محمد بن أبي عقبة التميمي القيرواني الذي جهز أحد أتباعه بمائة دينار وبضائع ليتجر بها في مصر[3].

ولا شك أن الإمتداد الطبيعي لطرق التجارة بأنواعها فيما بين مصر والمغرب والأندلس، دونما فواصل أو عقبات، قد ساعد كثيرا على تنشيط حركة التجارة، فكان هناك الطريق البحري الذي يربط بين موانئ الأندلس والشمال الإفريقي ومصر، عبر البحر المتوسط والطريق الساحلي الموازي لهذا البحر، ثم الطريق الصحراوي عبر الواحات المنتشرة في أنحاء الصحراء الإفريقية الكبرى[4].

وقد كانت هذه الطرق آمنة معظم الوقت، بإستثناء بعض الفترات التي تعرض فيها الطريق البحري لتهديدات أساطيل البيزنطيين والنورمان وكذلك أثناء الوجود الصليبي في بلاد الشام الذي عرقل طريق الحج والتجارة عبر سواحل بلاد الشام ومنطقة سيناء بمصر[5] وكان أبو القاسم سلمة بن أمية الأندلسي ممن تعرض لأخطار هذا الطريق عندما أسرته الروم[6].

---

[1] الدباغ، المصدر السابق، ج3، ص245–246.

[2] أبو العرب التميمي: المصدر السابق، ج1، ص25. و كان إسماعيل بن عبيد الأنصاري (ت107هـ/725م) أحد التابعين من العشرة الذين أرسلهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية لتعليم أهلها قواعد الإسلام. أنظر: عنه: المالكي، الرياض، ج1، ص100 وما بعدها. الدباغ، المعالم، ج1، ص191 وما بعدها.

[3] الدباغ، المصدر السابق، ج3، ص106–109. سيدة كاشف، (دراسات في النقود الإسلامية)، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 12، السنة (1964–1965م)، مصر، ص37.

[4] تجدر الإشارة إلى أن هذه الطرق قد استخدمها الحجاج كذلك، راجع مثلا: ابن جبير، المصدر السابق، ص41–44. وعن المراحل الرئيسية لهذه الطرق و المسافات بين وحداتها، أنظر: الأصطخري، المصدر السابق، ص46 وما بعدها. ابن حوقل، المصدر السابق، ص62–65. و راجع: آدم متز، المرجع السابق، ج2، ص354–355.
Lopez Robert S, Medieval Trade In The Mediterranean World, Columbia 1961, p91.

[5] آدم متز، المرجع السابق، ج2، ص366–367. أرشيالد، المرجع السابق، ص176–177. وراجع: سالم، البحرية الإسلامية، ج1، صفحات43–44–99–102، و ج2، ص205–209.

[6] ابن شكوال، المصدر السابق، ج1، ص220.

وكذلك الحال مع أبي عبد الله محمد بن محمد بن يبقى بن يوسف الطليطلي ثم البجاني الذي تعرض هو الآخر لأسر الروم قبل أن يرجع إلى بلده[1].

ولهذا صار إعتماد التجار المغاربة بشكل رئيسي على الطرق البرية التي غطت شبكتها جميع مدن مصر وقراها، من الإسكندرية حتى أسوان فكانت قوافل التجارة القادمة إلى مصر سواء بطريق البحر أو الساحل تحط أولا في مدينة الإسكندرية[2].

ومنها تتابع سيرها إلى الفسطاط، إما بطريق البر حيث كانت تخترق مدن الدلتا[3] ومن الفسطاط إما أن تتجه شرقا بمحاذاة خليج أمير المؤمنين (الذي طمره العباسيون أثناء محاولات الفاطميين السيطرة على مصر) حتى بحر القلزم (السويس) فبرا على طول الطريق الصحراوي الموازي للبحر الأحمر، أو بحرا عن طريق البحر الأحمر إلى موانئ الحجاز[4]، و إما جنوبا عبر مدن الصعيد حتى مدينة قوص، أو أسوان، اللتين كانتا ملتقى قوافل التجارة المغربية القادمة إلى مصر عن طريق الواحات و من هاتين المدينتين كان التجار يتابعون رحلتهم عبر صحراء عيذاب إلى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر المواجه لأرض الحجاز[5].

وجدير بالذكر أن حركة التجارة تلك لم تكن بمعزل عن تشجيع الحكام سواء هنا أو هناك، وتمثل ذلك في الإهتمام بتأمين طرق التجارة التي أنشئ بها العديد من المحارس والحصون، لاسيما على طول الطريق الساحلي، حتى قيل أن النار كانت توقد من مدينة

---

[1] المصدر السابق، ج2، ص446.

[2] بشير البكري، المغرب، ص86، إلى وجود ميناء يسمى بميناء الأندلسيين، كان يقع على الطريق الساحلي مما يلي الإسكندرية غربا، و أكد على أنه كان أقرب للإسكندرية، فلعله كان هو المنفذ الذي كان يرد منه خشب الصنوبر إلى مصر من الأندلس، و عن مجمع الخشب هذا القريب من الإسكندرية، أنظر: الأصطخري، المصدر السابق، ص63. راجع: حورية عبده سلام، علاقات مصر ببلاد المغرب، ص160.

[3] و قد سار إبن جبير في هذا الطريق البري مخترقا مدن و قرى الدلتا. راجع: الرحلة، ص47، و أنظر: سالم، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص203–204، حيث الإشارة إلى الجهود المبذولة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي لتطهير خليج الإسكندرية من رواسب الطمي.

[4] ناصر خسرو، سفر نامة، ص45–46.

[5] نفس المصدر، ص70–73. إبن جبير، المصدر السابق، صفحات56–58–60–67. و قد أشار المقريزي، الخطط، ج1، ص379–381، إلى أن طريق الفسطاط –عيذاب ظل هو المعبر الرئيسي لقوافل الحج و التجارة بمصر ما يزيد على مئتي سنة، وذلك لإنقطاع السابلة بطريق الفسطاط– القلزم، بسبب أحداث الفوضى التي ترتبت على الشدة العظمى بمصر زمن المستنصر بالله الفاطمي ثم الوجود الصليبي في منطقة الشام و بيت المقدس و تهديدهم لحدود مصر الشرقية. راجع: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص597–598.

سبتة فتصل إلى الإسكندرية في ليلة واحدة و صارت (القوافل والتجار تسير في الطريق وهي آمنة)[1]، وعمد المرابطون إلى الإهتمام بالطريق الصحراوي الذي كان يصل مدينة سجلماسة بمدينة البهنسا في صعيد مصر، وذلك في سنة (530هـ/1136م)[2]، كما كان لبعض الحكام مشاركات خاصة في حركة التجارة تلك، من ذلك ما رواه ابن سعيد الأندلسي عن إهتمام محمد بن طغج الإخشيدي بإرسال وكلاء عنه إلى الأندلس لإبتياع نوع معين من السجاد الأحمر كان قد رآه بالفسطاط، ثم علم أن أحد التجار الأندلسيين قد إستحوذ عليه[3] و أرسل أحد الأمويين من الأندلس مركبا كبيرا، وصف بأنه لم يعمل مثله إلى المشرق لإبتياع بضائع خاصة به و كانت الإسكندرية آخر ميناء غادره المركب قبل أن يستقر في مرساه بمدينة ألمرية بالأندلس[4].

ولم يختلف الحال أيام الفاطميين الذين بذلوا جهودا لا بأس بها من أجل تشجيع التجارة مع المغرب من ذلك ما أشار إليه المسبحي عن خروج قافلة تجارية عبارة عن سبع سفن محملة ببضائع تخص الحضرة الفاطمية للإتجار بها في المغرب غير أنه ولسوء الحظ تعرضت القافلة بأكملها للغرق عند خروجها من ميناء الإسكندرية و لم ينج منها شيء[5] و قد أشار ابن عذاري إلى حادثة المركب الكبير التي سيرها الأمير الحسين بن علي بن يحي بن تميم بن المعز الصنهاجي الزيري حاكم مدينة المهدية (515-543هـ/1121-1148م) إلى مصر بعد حملها بالهدايا للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وذلك في سنة (536هـ/1142م). ثم عاد المركب من ميناء الإسكندرية إلى ميناء المهدية محملا بهدية ماثلة من الخليفة الحافظ لأمير بجاية[6].

كذلك تجلى إهتمام الفاطميين بحركة التجارة مع المغرب في حرصهم على توفير الأمن والحماية للتجار المغاربة أثناء وجودهم بمصر ويذكر في هذا الشأن أن الخليفة

---

[1] إبن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص101. المقريزي، الخطط، ج1، ص324.

[2] الإدريسي، صفة المغرب، ص162-163. راجع: عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن (6هـ/12م)، ط1، دار الشروق، بيروت 1983م، ص314.

[3] إبن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص154.

[4] إبن الأثير، المصدر السابق، ج8، المجلد1، ج2، ص100-101. و قد وردت بشأن هذا المركب قصة تتعلق بصراع الفاطميين -بالمغرب- مع أموي الأندلس، عن ذلك راجع: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص79. و عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ج1، ص64-65، ج2، ص117.

[5] المسبحي، المصدر السابق، ص61.

[6] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص312-313.

الحاكم بأمر الله تدخل شخصيا لحصول أحد التجار كان قد قدم إلى مصر من مدينة سجلماسة في موسم الحج على أمواله التي أودعها عند أحد المصريين، وذلك بعد أن أنكرها هذا الأخير وأمر الحاكم بقتل المصري ليكون عبرة لغيره[1]، و قد تطلب الأمر أن تخرج فرقة حراسة مشددة قوامها 300 فارس و 400 من المشاة تحت إمرة أحد قادة الدولة، و كان أخ للقائد معضاد أحد الأربعة الكبار الذين سيطروا على حكومة الخليفة الظاهر الفاطمي، و ذلك لتأمين قافلة المغرب التي قدمت مصر و كانت تضم بعض التجار المغاربة الذين حملوا بضائع قارب ثمنها 200 ألف دينار[2]، و يشير المسبحي إلى أن رجال هذه القافلة كانوا قد إضطروا للإقامة بالجيزة و إمتنعوا عن متابعة مسيرهم عبر النيل بعد أن وصلتهم أنباء عن تربص جماعة من نهابة العبيد وغيرهم للقافلة وأرسلوا مستغيثين بحكومة الظاهر التي أمرت بخروج هذه التجريدة العسكرية[3].

و لعل في إحتفاظ أماكن معينة بمدينة الفسطاط، مثل سوق البربر[4] وسوق المغاربة[5] المغاربة[5] بهذه الأسماء ما يدل على مدى إحتفاء الحكومات المتعاقبة بمصر لهؤلاء التجار التجار المغاربة[6].

وقد إنعكس هذا الإهتمام على تمتع هؤلاء التجار بحرية كبيرة في ممارسة نشاطهم التجاري كاملا، و دون تدخل من الحكومة بمصر، حتى في الحالات التي أساء البعض منهم في إستخدامهم هذه الحرية، و حتى أمر محاسبتهم كان يؤول إلى أحد المقدمين عليهم الذي كان في الغالب أكثرهم علما و فقها.

---

[1] المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج2، ص122.

[2] المسبحي، المصدر السابق، ص57-58.

[3] نفس المصدر وفي نفس المكان.

[4] عن موضع سوق بربر و شارعه، أنظر: الكندي، كتاب القضاء، ص407. المقريزي، الخطط، ج1، ص557. إبن دقماق، الإنتصار، ج4، ص32.

[5] أنظر: موضع سويقة المغاربة عند المسبحي، صفحات38-168-216. إبن دقماق، الإنتصار، ج4، صفحات26-32-105.

[6] كذلك هناك إشارات أوردها المؤرخون و الجغرافيون تمكين الحال التي كانت عليها التجارة بين مصر والمغرب، وأنها كانت تحصل على القسط الكافي من رعاية الحكام و تشجيعهم، و كان منها ما قيل عن الفسطاط من أنها كانت (خزانة المغرب)، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص197. أن المهدية كانت "مرفأ لسفن الإسكندرية "، البكري، المغرب، ص30. أن المرية و بجانة و هما من مراسي الأندلس كان يطلق عليهما بابي المشرق، سالم، البحرية الإسلامية، ج2، ص178-179.

و من الملاحظ أن نشاط المشتغلين بالتجارة من هؤلاء الوافدين لم يقتصر على التنقل فيما بين مصر و المغرب و الأندلس فقط، بل إتسع ليشمل بلاد الشام و وصل بعضهم الحجاز و اليمن و العراق و الهند و إيران، إلخ... مما يعني أنهم كانوا على صلة بحركة التجارة العالمية فيما بين الشرق و الغرب.

وتشير وثائق الجنيزة GENIZA[1] التي قام بدارستها جوايتيين إلى أن أعداد كبيرة من يهود المغرب والأندلس قد شاركوا إلى جانب مواطنيهم المسلمين من الحجاج والدارسين الوافدين إلى مصر والشام بنصيب كبير في تجارة الكارم[2]، و مما وصلتنا معلومات عنهم:

1. **التاجر يوسف اللبدي** نسبة إلى لبده من أعمال برقة الذي يمكن تتبع نشاطه وأفراد أسرته في تجارة الكارم طيلة قرنين و نصف من الزمان و ذلك إبتداء من سنة (491هـ/1098م)[3] و تخلل ذلك الإشارة إلى حضوره و أمراء أسرته إلى مدينة القاهرة

---

[1] أنظر: التعريف بها، عطية القوصي، تجارة مصر، ص14-15، و أضواء جديدة على تجارة الكارم، ص17-18. حسنين ربيع، وثائق الجنيزة و أهميتهلا لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانئ الحجاز و اليمن في العصور الوسطى، مقال في موسوعة دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج2، الرياض 1979، ص131-144.

[2] تنسب تجارة الكارم إلى الكامية، وهم طائفة من كبار التجار إشتغلوا باحتكار تجارة الهند و الشرق الأقصى في التوابل و ما إليها من السلع الأخرى، و كان مركز نشاطهم الأول في الخليج العربي و عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر و لا يعرف على وجه التحديد متى بدأ نشاط هؤلاء الكارمية، غير أن جهودهم في هذا المجال بدت بصورة أكثر وضوحا خلال العصر الفاطمي ثم في أيام الأيوبيين و المماليك.=

Cointein(S.D):"the cairo geniza as a source for the history of muslim civilization",in studia islamica ,V.III(1955) ,pp,77,80-81 and :"letters and documents on the india trade in medieval times", in Islamic cultural, V37(1963),pp,199-200 and "a Mediterranean society of the high-middle ages",V1 economic foundations (Berkeley and los-angeles,1967),p20.

أنظر كذلك: جواتيابن، المرجع السابق، ص189 و ص192-193، حيث ترتيب هام للأماكن الأصلية التي وردت منها وثائق جنيزة القاهرة. و قد جاء على رأسها: شمال إفريقية و كذا صقلية و الأندلس ثم فلسطين و سوريا، فالعراق واليمن و الهند و بيزنطة و أخيرا بعض نواحي أوربا الغربية المسيحية. و يؤكد جواتيابن في نفس المرجع، ص229 كذلك أن القيروان و المهدية كانتا مركز تجمع للعديد من تجار الأندلس و نواحي المغرب الذين إنتقلوا بعد ذلك إلى مصر، خلال القرن (5هـ/11م) و مطلع القرن (6هـ/12م)، و يلاحظ أن هؤلاء التجار لم يستقروا فقط بالفسطاط أو الإسكندرية أو مراكز الكتان الشهيرة في مدينتي بوصير و تنيس، و لكن أيضا في نواحي أخرى متفرقة من ريف مصر. و قد كانت للعديد من هؤلاء التجار اليهود جهود واضحة في إعادة تعمير معبد اليهود بالفسطاط الذي تعرض للخراب في عصر الحاكم بأمر الله، و هو أمر كانت له آثاره في شيوع ذكرهم في أوراق الجنيزة، نفس المرجع، ص230.

[3] Goltein :"from the Mediterranean to India documents on the trade to India ,south Arabia, and east Africa .from the eleventh and twelfth centuries ":V.29,April 1954 ,N°2 part 1,pp,199-195 and "letters and documents",pp189-193.

في سنة (495هـ/1102م) للإستقرار بها حيث قام بشراء جزء من منزل بالمدينة[1] و فيها تسلم كمية كبيرة من البضائع من كبير تجار اليهود بها المدعو **بكتويل بن الطبيب** وكانت هذه البضائع تحتوي على ملبوسات متنوعة وأواني فضية ونحاسية، وأدوية وعقاقير مختلفة وكمية من المرجان وكذلك حقيبة صغيرة بها عشرون دينارا ذهبية حديثة الإصدار. و من القاهرة إتجه اللبدي عبر النيل إلى مدينة قوص بصعيد مصر، و بعد ذلك حمل بضائعه على إبل إخترقت به صحراء عيذاب و منها ركب البحر الأحمر إلى الهند[2].

أما عن أفراد أسرة اللبدي و إشتراكهم في تجارة الكارم، فقد أشارت إحدى وثائق الجنيزة إلى ان أحد أبناء يوسف اللبدي قد عاد إلى مصر في سنة (529هـ/1135م) بعد رحلة ناجحة قام بها إلى الهند[3].

و قد أوصل مقدار الثراء الذي تحقق لأفراد هذه الأسرة من متاجراتهم تلك من خلال الإشارة إلى إمتلاك أحد أحفاد اللبدي مصنعا للسكر بالقاهرة و قد ورثه عنه أبناؤه إثر وفاته في سنة (638هـ/1240م)[4] .

2. محروس بن يعقوب اللبدي و صهره أبو ذكرى كوهين السجلماسي شيخ تجار اليهود بالقاهرة، أما محروس اللبدي فيشير جوايتيين[5] إلى أنه كان صاحب سفينة بميناء عدن التي إتخذ منها مركزا لنشاطه، وقد عاش في الربع الأول من القرن (6هـ/12م) وكانت أخته متزوجة من أبي زكري كوهين بالقاهرة و كان يتردد عليها بالقاهرة لتصريف أمورها و باقي أفراد عائلته المقيمين معها في الوقت الذي يكون صهره مسافرا

[1]Goitein : from the Mediterranean,p191.

[2] راجع: صالح مصطفى مفتاح، برقة و طرابلس منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجيستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1976م، ص206. و أنظر كذلك:

Goitein :lettres and documents ,p194.
Goitein :from the medit ,pp192-193.

[3] Ibid, pp91-194.

[4] Ibid, pp192.

[5] Goltein "new lights on the begining of the karim merchants", in JRASC journal of the royal asiatic society,1,II,1958, p176 and :studies in islamic history and institutions, paris, 1964, p656.

الترجمة العربية لهذا المؤلف، ص281-282.

إلى الهند[1]. حيث كان دائم الترحال لمتابعة تجارته بين تلك الأنحاء و قد شهدت الفترة من سنة (537هـ/1132م) إلى سنة (553هـ/1148م) ذروة نشاطه التجاري[2].

3. التاجر عروس بن يوسف: و هو من المهدية بتونس و كان يتاجر في البحر الأحمر المتوسط في الربع الأول من القرن (6هـ/12م) و كان صاحب ورشة بالفسطاط لصبغ الأردية[3].

4. إبراهيم بنيشو (أو إبن ياحو)[4]: كان يمتلك مصنع فخار كان بالهند وظل الإتصال التجاري مع الفسطاط أين تقيم عائلته متدا باستمرار[5].

5. حلفون بن نيثانيال الدمياطي: صاحب المركز الإجتماعي الكبير في الفسطاط والنشاطه التجاري الواسع ما بين مصر والهند والمغرب فالأندلس وذلك من سنة (539هـ/1125م) حتى سنة (541هـ/1146م). وصف بأنه الرجل الذي كان محورا لكل الشخصيات القيادية في عصره[6].

و في مصر كان التاجر الأندلسي عبد الله بن عبد الجبار الشاطبي (ت614هـ/1218م) يتنقل بين الإسكندرية والصعيد واليمن، ينقل الكارم والنسيج وغير ذلك من البضائع، وكان أحد أهم تجار الإسكندرية من المغاربة والأندلسيين[7].

لكن الأهم منه على صعيد حجم الثروة والمال، كان شعيب بن يحي القيرواني (ت645هـ/1248م) نزيل الإسكندرية، الذي تصدق بالكثير من ماله على الفقراء من

---

[1] Goitein: New lights, p176, and: A medit, soc…p48.

[2] Goitein: New lights, pp176-177, And: A medit, soc, p48.

[3] Goitein: Letiers and documents, p194.

[4] Ibid, p194.

و يشير جوايتاين إلى اسم بنيشو (Benchiou) قد ورد في وثيقة الجنيزة هكذا (Bnyshow)، ويرجح أن يكون تحريفا لاسم ياحو (yajou) أو (yago) المشتقة من اسم يعقوب (jacob) و يرى إذا ما صح هذا الترجيح أن يكون ابن ياحو قد انحدر من أصل أندلسي. حيث شاع هذا الاسم و اختصاراته (Ju) أو (Jau) خلال القرن (4هـ/10م) في نواحي الأندلس، وصار لقبا لعائلات يهودية كثيرة هناك عن ذلك أنظر: Goitein : From the medit ,p191 notice17.

[5] Goitein: letters and documents ,p194.

عطية القوصي، المرجع السابق، ص260.

[6] Ibid, p194. in letter from spain he (ابن خلدون) was called :"the man who is the center of all the leading personalifies of his time"=

و لمزيد من التوضيح عن هذه الشخصيات ممن كان لها دورها الهام في تجارة الشرق، أنظر: عطية القوصي، تجارة مصر، ص87-88 و ص93-94. و دراسات في التاريخ الإسلامي، ص259-262.

[7] الفاسي (تقي الدين)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة 1966م، ج5، ص195-196.

خلال الأوقاف التي جعلها للصرف عليهم[1] و في القاهرة عمل إبراهيم بـــن عبـــد الملـــك المغربي (880هـ/1476م)، تاجرا عند السلطان فجمع مالا كثيرا، حاول إرســـاله إلـــى المغرب، حتى لا تصادره الدولة، لكنه لم يفلح و صودرت أمواله[2].

وبالقاهرة أيضا إشتهر عمر بن غازي المغربي خلال القرن (9هـ/15م) على أنـــه أحد أبرز تجارها، و كثرت أمواله، و إنتهى إلى المصير نفسه الذي لاقاه ســـابقه، حيـــث تمت مصادرة أمواله و إهانته[3] و ذكر السخاوي أن محمد بن عبد الرحمان التونسي، كان يتكسب بالتجارة بمدينة دمياط، لكنه على ما يبدو لم يفلح في هذا الميدان، بدليل أنه تحول إلى عمل آخر كان أقل شأنا، و ظل هكذا حتى وفاته سنة (870هـ/1466م)[4].

وعاصره التاجر المغربي مساعد بن حامد المصراتي، الذي أمضى الجزء الأكبر من حياته تاجرا متجولا بين الحجاز ومصر والهند، مع أن معظم إقامته كانت بمصر حيـــث رآه السخاوي فيها، مات بالهند بعد سنة (870هـ/1466م)[5].

وتنقل محمد بن محمد المالقي سنة (878هـ/1474م) بين مدينة الإسكندرية واليمن فترة قصيرة، ينقل البضائع بينهما و يبدو أنه جمع ثروة مكنته من شراء بعض الأراضي الزراعية فترك التجارة و عمل فيها[6].

وكان آخر التجار المغاربة، الذين ذكرتهم مصادر هذه الفترة ســـعيد بـــن إبـــراهيم الأندلسي، الذي قام بالتجارة بين الإسكندرية والقاهرة، وظل هكـــذا حتـــى وفاتـــه ســـنة (839هـ/1488م) و استطاع أن يورث ابنه إبراهيم سعيد المغربي مالا كثيرا[7].

أما في بلاد الشام، فقد وجد أندلسيون ومغاربة إمتهنوا حرفة التجارة منـــذ الوهلـــة الأولى من وصولهم إليها، فمنهم من تجاوز بتجارته هذه البلاد، فوصل إلى بلاد فـــارس وغيرها من البلدان الأجنبية، و منهم من إقتصر في تجارته على مدينة شامية واحدة، فقد كان أهمهم يوسف بن يحي بن إسحق السبتي المغربي الطبيب الذي إشتغل بالتجارة فـــي

---

[1] نفس المصدر، ج5، ص12-13.

[2] السخاوي، المصدر السابق، ج1، ص72-73.

[3] نفس المصدر، ج6، ص63-64.

[4] نفسه، ج8، ص44-45.

[5] نفسه، ج10، ص154-155.

[6] نفسه، ج9، ص199-200.

[7] نفسه، ج1، ص51.

الفترة الأولى من وصوله إلى الشام أوائل القرن (7هـ/13م)، فوصل بتجارته إلى العراق وفارس والهند وحصل ثروة كبيرة، صرف قسما منها على شراء أرض بمدينة حلب إبتنى عليها دارا لتدريس الطب و مداواة الناس[1].

وأما النوع الثاني من هؤلاء، فقد تركز عمل أفراده داخل المدن الشامية، بعد أن إمتلكوا الحوانيت والمحلات التجارية، مثل علي الفحام المغربي المتوفى بدمشق سنة (686هـ/1481م)، الذي إمتلك دكانا في محلة باب الفراديس تجاه جامع الرأس بمدينة دمشق أعده لبيع الحطب والفحم، اللذين كانا أدوات التدفئة الرئيسية وأعمال الطبخ والإغتسال و ما شاكل ذلك في تلك الفترة من الزمن[2].

وهناك فئة أخرى من الأندلسيين والمغاربة أكثر عددا و أوسع إنتشارا، عمل رجالها في مجالات إقتصادية هامة ومتنوعة منها ما هو صناعي ومنها ما هو زراعي وآخر تجاري وأفراد هذه الفئة ساهمت مساهمة كبيرة في مجالات مختلفة لها أهميتها الإقتصادية والإجتماعية.

و هم مجموعة من الأندلسيين والمغاربة الفقراء، الذين يختلفون عن المجموعات الأخرى من حيث طبيعة الأعمال التي مارسوها، و إشتغلوا فيها والتي أعتبرت من أدنى الأعمال، بالقياس إلى مردودها وقيمتها بالنسبة للعاملين فقط وقد تمثلت هذه الأعمال في ميادين ومجالات متنوعة، مثل العمل في حراسة طاحونة ما، أو بستان أو حمام إلى غير ذلك من هذا القبيل، و ربما الذي دفع هؤلاء للعمل في هذه المجالات أن ظروفهم العامة لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع وأفضل مردودا، مثل العمل في حقل التدريس أو بالتجارة أو غير ذلك، و أن خير من فند الأعمال التي إمتهنوها في بلاد الشام الرحالة ابن جبير عندما تحدث عن الجالية الأندلسية بالشام فقال: "فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة خير و صون، محفوظ غير مريق ماء الوجه، و سائر الغرباء ممن ليس على هذه الحالة ممن عهد الخدمة أو المهنة، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة إما بستان يكون ناطورا فيه أو حمام يكون عينا على خدمته، وحافظا لأبواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم، ويصرفهم

[1] القفطي (علي بن يوسف)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص257.

[2] ابن طولون (محمد)، مفاكهة الخلان من حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة 1962م، قسم1، ص35.

إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة، وليس يؤتمن فيها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة و طار لهم فيها ذكر[1]".

و في هذا الميدان ينقل الوهراني الذي رحل إلى المشرق، قول أحد المشارقة فيه، وهو ابن العميد: "ضيعتم الوقت في حديث الوهراني. والله إن ملك المغرب نحس ما جاءنا منهم إلا حارس كرم أو ناطور بستان"[2]، هذا القول من جانب واحد، فلا يصح، بأن أهل الأندلس والمغرب، الذين وفدوا إلى الشام، كانوا كلهم حراسا و نواطير بساتين. و توجد بعض الأمثلة التي تبرهن على إقبالهم على مثل هذه الأعمال و إشتهارهم في مجالها هذا بالإضافة إلى أنها تشير إلى أنهم كانوا كثيرين جدا، فقد جاء على لسان المقريزي في كتاب **السلوك لمعرفة دول الملوك**، أن أكثر من ألف حمام كانت مع جيش صلاح الدين ،ترافقه أينما ذهب و كان أكثر الذين قاموا بمهمة تجهيز و تحضير الحمامات، كانوا من الأندلسيين والمغاربة الفقراء يقول: "... و كان في المعسكر أكثر من ألف حمام، و كان أكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم إثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا يسترونه بحطب وحصير ويقطعون حطبا من البساتين التي حولهم، ويحمون الماء في قدر، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم أو أكثر[3]".

ولا يستبعد أن تكون أعداد كبيرة منهم قد شاركت إلى جانب هذا العمل في أعمال أخرى، مثل الطبخ وتجهيز الطعام للجيش وهناك دليل آخر يتجسد بشخص عمر بن سعيد التلمساني أبي حفص من أهل القرن (8هـ/14م)، الذي عمل أمينا لطاحونة أشنان بدمشق لفترة طويلة من الزمن، كان آخرها سنة (752هـ/1352م)[4]، وعمل يحي المغربي نزيل دمشق (ت661هـ/1263م) في مجال آخر غير الذي ذكر حتى الآن، هو قشر القمح ودقه وتجهيزه بالشكل الذي يصبح فيه صالحا للإستخدام في أنواع مختلفة من أعمال الطبخ والطعام، وقد درت عليه هذه الحرفة مالا كثيرا[5].

---

[1] ابن جبير، المصدر السابق، ص250-251.

Terrasse (H), histoire du Maroc, Casablanca 1949, p190.

[2] الوهراني، المصدر السابق، ص168.

[3] المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص94.

[4] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص285.

[5] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص227.

ومثله في ميدان آخر عمل المغربي عثمان بن يحي الصنهاجي، عمل شواء للحمة بمدينة دمشق خلال القرن(7هـ/13م)[1]، والشيء الجديد الذي اتسم به هؤلاء، أن أجورهم كانت ضئيلة جدا، يرضون بالقليل النادر، وعلت شهرتهم كعمال يرضون بأرخص الأجور وأقلها، مثلما علت شهرتهم وطارت على صعيد الأمانة والجد والإخلاص في العمل، ويمكن وضعهم بالاعتماد على هذا الوضع في أدنى السلم الاجتماعي من ناحية دخلهم وإنتاجهم العائد عليهم، وهذا ما جعل الطلب عليهم شديدا في أغلب الأحيان، وخاصة من قبل المسؤولين عن الحكم والإدارة في الدولة، وظاهرة كهذه، إن دلت على شيء، فإنما تدل على إنجاز الأعمال مهما كانت بأقل مقدار من المال، ولعل أوضح الأمثلة التي تجسد هذه الحقيقة، ما جرى بدمشق سنة (823هـ/1420م) عندما جاء حاكم دمشق إلى الجامع الأموي، وأخذ يفنذ مرتبات العاملين في جميع النواحي، والشؤون العامة بدمشق، وحينما وصل إلى تنفيذ واستعراض مرتبات العاملين بالعمارة، وجد أن المبلغ المخصص لهؤلاء كبير جدا، فقال للناظر والمباشرين: "باشروا ذلك بأنفسكم، وإن احتجتم إلى أمين على آلات العمارة، هاتوا مغربيا كل يوم بدرهمين، فإذا فرغت حاجتكم فيه يروح..."[2]، و هذا ما يوحي بأن أجور العمال من غير الأندلسيين، كانت كبيرة إلى حد ما، إذا ما قورنت بأجورهم، ويظهر من كل الذي تقدم ذكره حتى الآن، أن العمال من الأندلسيين والمغاربة، شكلوا قاعدة واسعة، كان لها دور الرائد في دعم الاقتصاد العربي في بلاد الشام، في الفترة المخصصة لهذا البحث.

و إن كانت قد تعددت و جوه و نشاطات هذه الفئة من الأندلسيين، فإنهم التقوا في مصب واحد و في نتيجة واحدة، تجلب بدعم أو رفد المنشآت الاقتصادية وغيرها بالعمال ذوي الأجور القليلة، مقابل الهمم العالية، بحيث يمكن أن يقفوا على قدم المساواة مع أفراد أية فئة أندلسية أخرى.

و من جهة أخرى فقد وجد الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام أرضا خصبة وبيئة صالحة، تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن وطنهم، الأمر الذي ساعدهم على الإستقرار، يحدوهم الشعور بالهدوء والإطمئنان، فلقد أحبهم أهل الشام وحكامها، وأكرموا مثواهم وأحسنوا منزلتهم وأعلوا قدرهم، وأخصوهم بكل عناية ورعاية

[1] الذهبي (محمد بن احمد)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت 1966م، ج5، ص383.
[2] النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص404.

على مختلف فئاتهم، فمن أجلهم ابتنوا عددا من المدارس والخوانق والزوايا، وخاصة في مدينة دمشق وبيت المقدس، الأمر الذي يوحي بوضوح أن هاتين المدينتين، استقطبتا الغالبية العظمى من الجالية الأندلسية، وفي مدينة دمشق، فإن أول الزوايا التي خصصت للمالكية، كانت في الجامع الأموي الكبير، والتي بقيت وقفا عليهم حتى آخر لحظة من فترة هذا البحث، وكان غالبا يتولاها فقيه أندلسي مغربي، يكون مسؤولا عن إمامة المالكية بدمشق ورعاية شؤونها الفقهية والتعليمية في بعض الأحيان، إنما تعداها إلى الصعيد الشعبي، فقد أسهم بعض الأغنياء من أهل دمشق، ببناء زاوية للمغاربة في أوائل القرن (9هـ/15م) هو الرئيس علاء الدين المشهور بإبن وطية الموقت بالجامع الأموي سنة (802هـ/1400م)، وهذه الزاوية عرفت بزاوية ابن وطية، تقع إلى الشمال من جامع جراح، وشرطها الرئيسي، أن تكون برسم المغاربة على اختلاف أجناسهم، وأن لا يكون النازل بها شريرا أو مبتدعا أو شيخها من القضاة أو الحكام، يقول عنها النعيمي الدمشقي صاحب كتاب **الدارس في تاريخ المدارس:** "وقفت على كتاب وقفها في أواخر جمادى الآخرة سنة واحد وتسعمائة وتعرف الآن بزاوية المغاربة"، وخصص **ابن وطية** عدة حوانيت تقع بالقرب منها وذلك للصرف على المغاربة فيها[1].

ومن الخوانق التي خصت للمغاربة في دمشق، الخناقا الأندلسية والخناقا السميساطية. وقد ذهب الإهتمام من قبل الشاميين بالجالية الأندلسية المغاربية إلى حد أبعد تجلى بأن العديد من أهل دمشق، وقفت على موتاهم مقابر خاصة بهم كمقبرة **خليل بن زويزان،** التي تقع إلى الجنوب من المقابر الصوفية، والتي وقفها على ما يبدو على الصالحين من الصوفية وغيرهم من العلماء المغاربة المشاهير، وكان أول الذين دفنوا بها الفقيه **أبو الحسن علي المراكشي**[2] والمقبرة التي تعرف بـ **مقبرة فقراء المغاربة** وتقع في سفح **قاسيوم** في **مغارة الدم**[3] ولا يستبعد أن تكون قد إحتوت كثيرا من نزلاء دمشق من المغاربة، كونهم شكلوا النسبة الكبيرة من التواجد الأندلسي المغربي في هذه المدينة، وإن كانت المصادر تضن بكل شيء يتعلق بهم تقريبا.

---

[1] النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص204.

[2] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص153.

[3] نفس المصدر، ص173.

ومن ناحية أخرى، فقد وجد من أهل دمشق، من وقف جزءا كبيرا من ثروته على فقهاء المغاربة حتى وفاته، مثال ذلك **أحمد بن عبد الله الذهبي الكتبي** (ت663هـ/1265م) الذي يقول عنه رفيقه أبو شامة في الذيل على الروضتين: "... ثم بقي عندها مدة عمره وخلف كتبا كثيرة و ثروة، ووقف داره وأوصى لهم بثلث ماله، وحرضته أن يقف شيئا من أصول كتبه فلم يفعل"[1] هذا بالإضافة إلى أراضي البساتين التي خصصت للصرف عليهم منذ الفترة الأولى لحكم نور الدين زنكي، و كذلك الأمر كان في **بيت المقدس**، إذ خصصت لهم فيها زاوية واحدة في المسجد الأقصى تشبه تلك التي خصصت لهم في الجامع الأموي بدمشق، و خانقاه واحدة دعيت **الخانقاه الفخرية**[2].

وبالمقابل فإن الأندلسيين المغاربة شكلوا جالية كبيرة العدد إلى حد ما، لكن غياب الإحصائيات والأرقام الخاصة بهذه الجالية، تجعل المرء يلجأ إلى التقدير التقريبي. بحيث يمكن القول و بشيء من المجازفة، أن عدد المغاربة في الشام بلغ عشرات الآلاف من مختلف الفئات، التي كانت فئة العمال والفقراء تشكل الغالبية العظمى منهم وذلك بالإعتماد على بعض الإشارات التي وردت في بعض المصادر وخاصة عن رجال الخدمة، كالمقريزي، والقطاعات الإقتصادية الأخرى، كما عند غيره، وما يدلل أيضا على ضخامة عدد الجالية المغربية في الشام، ظهور مناصب إدارية كبيرة خاصة بالمالكية، كمنصب **القضاء**، الذي يشير بوضوح إلى العدد الهائل الذي شكله المغاربة في الشام، وخاصة في فترة حكم المماليك التي شهدت هجرة أندلسية كبيرة، بعدما سقطت أكثر معاقل العروبة والإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، فكان الإهتمام الرسمي والشعبي بهم، كبناء المدارس والزوايا والخوانق والمقابر وتخصيص الثروات للصرف عليهم، وأكثر من ذلك تسمية قطاعات من بعض المدن الشامية باسمهم، كما حدث في مدينة بيت المقدس حيث عرفت إحدى حاراتها (**حارة المغاربة**)، مما يوحي بأن عددهم كان كبيرا فيها، والجدير بالذكر أن عددهم تباين، وإختلف من مدينة إلى أخرى، بحيث يمكن القول، إن العدد الكبير منهم، تواجد في مدينة دمشق، التي امتازت عن غيرها من المدن الشامية في شتى المجالات،

---

[1] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص235.

[2] أنظر عن هذه الأمكنة: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص580 وما بعدها.

و**الصعد** و تليها مدينة بيت المقدس **فحلب**[1] **فحماة فطرابلس الشام** و من ثم **صفد** و**الخليل** و**غزة** و**درعا** والحواضر الأخرى، التي لا يعول عليها من ناحية التواجد الأندلسي فيهـــا، والذي اقتصر على بعض الأفراد.

وما يجعل ترتيب دمشق بالدرجة الأولى على صعيد التواجد الأندلسي صحيحا، من خلال المقابر التي دفنوا بها، فبالإضافة إلى المقبـــرتين الآنفتـــي الـــذكر (**مغـــارة الـــدم والصوفية**)، توجد عدة مقابر أخرى دفن فيها كثير منهم كمقبرة **الباب الصغير** و**باب توما** بالقرب من الشيخ **رسلان** و **باب الفراديس** و **المزة**.

و قد اتسم رجال هذه الجالية بالحيوية والنشاط، يحفزهم في تنفيذ أعمالهم الإخلاص والوفاء لأرض أعطتهم بسخاء وكرم. فلم يعرف أنهم تخاذلوا فـــي عمـــل، أو بـــالأحرى تأخروا عن أداء مهمة أوكلت إليهم، في أي ميدان وجدوا فيـــه و أنهـــم جميعـــا عرفـــوا بالإستقامة و تحلوا بالأخلاق النبيلة الفاضلة، فقد غدت عبارات الصدق والأمانة عنـــاوين بارزة ميزتهم عن غيرهم، وجعلتهم في المقدمة على صعيد هذا الجانب الإنساني البحت.

وقد إشتغل الأندلسيون والمغاربة في أماكن حساسة وهامة من أماكن الخدمة العامـــة مثل النقل البحري، الذي عمل فيه عبد الله التونسي، و يذكر ابن بطوطة أنه شاهده بمدينة جدة سنة (732هـــ/1332م) وقال أنه كان يمتلك مركبا يعمل فيه لحاسبه الخاص، وينقـــل الركاب والمسافرين من مدينة جدة إلى ناحية القصير التابعة لمدينـــة قـــوص المصـــرية وهكذا[2]، وخدم بالأماكن المقدسة محمد بن محمد المغربي (ت868هـــ/1464م) وإستطاع أن يجمع من وراء عمله هذا بعض المال، على الرغم من أنه كان يتظاهر دائما بالحاجـــة والفقر[3] وإشتغل بحرفة الدهان بالمدينة عبد الله بن إبراهيم المغربي المعروف **بـــالزعبلي**، وكانت هذه الحرفة مصدر عيشه، مع بعض الأعمال الأخرى التي كان يقوم بها، وهـــي خدمة الحجاج في أيام موسم الحج، وظل هكذا حتى مات سنة (885هـــ/1481م)[4].

---

[1] يذكر ابن خطيب الناصرية اسم حارة للمغاربة بمدينة حلب في كتابه الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب الجزء الثاني من المخطوط عندما كان بصدد الحديث عن أحد العلماء، الذي توفي سنة تسعين و سبعمائة بحارة المغاربـــة، و التـــي يذكر أنها كانت تجاه مسجد غوث (أنظر: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، ج2، ورقة87–98 وما بعدها).

[2] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص281.

[3] السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص203.

[4] المصدر السابق، ج5، ص2.

و في مصر كثر هؤلاء و لاسيما في المدن الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية وبعض الحواضر التي كانت محطة للمسافرين من مصر والقادمين إليها، مثل مدينة قوص، التي عرفت كثيرا من هؤلاء، مثل محمد بن أحمد الجزيري (ت639هـ/1242م) الذي سكن هذه الناحية وعمل فيها بحرفة تجليد الكتب وترتيبها وتصفيفها، وهو من شخصيات مدينة بلنسية الأندلسية المعروفة[1]، وإشتغل أحدهم بحرفة الخياطة بمدينة القاهرة هو محمد بن يوسف الزواوي (ت807هـ/1405م)، الذي وصفه السخاوي أنه كان خبيرا ومتسامحا[2] وبالحرفة نفسها إشتغل محمد بن عبد الله التونسي أبو عبد الله (888هـ/1483م) بمدينة الإسكندرية على الرغم من تضلعه في العلوم الدينية واللغوية والحساب، وهذا يدل على أن هذه الحرفة كانت من الحرف التي تدر على صاحبها المال والثروة وكان يمارسها في بيته الذي يسكنه[3].

وقد إشتهرت عائلة الزواوي المغربية بمدينة القاهرة خلال القرن (9هـ/15م) بعمل جديد من أعمال الخدمة العامة لم تمارسه جماعة أخرى من المغاربة والأندلسيين بالإعتماد على معطيات المصادر، وهو العمل في مجال القبان، الذي يستخدم عادة لمعرفة الأوزان المختلفة والذي يكون مكانه بصورة عامة في سوق كبيرة للمحاصيل، وأفراد هذه الجماعة المغربية هم: شعبان بن علي بن أحمد المغربي الزواوي القباني (ت895هـ/1490م) ووالده وأخوه وهما اللذان أورثاه هذه الحرفة ولكنه تميز عنهما، بحيث لم يكتف بوضع قبان واحد، إنما قام بوضع عشرة قبانا ألفيا الذي تطورت به الأمور، حتى أصبح شيخ المشتغلين في هذه الحرفة فكثيرا ما كان يلجأ إليه الذين تحدث بينهم خلافات من أصحاب القبانيين وفوق كل ذلك فإنه كان من الماهرين بتصليح القبانيين وصيانتها، فقد سافر كثيرا لإصلاح القبانيين كانت معطلة في مناطق مصرية بعيدة عن مدينة القاهرة، مثل منطقة الوجه البحري وغيرها، وقد أثارت شهرته حقد كثير من الناس عليه كان منهم قسم من أقربائه المقربين، مثل أخيه محمد بن علي الزواوي الذي كان قبله معلما كما سبق آنفا، فادعى عليه بأشياء لم تكن فيه فأوقف لفترة وجيزة وأطلق واستطاع صرف أخيه من زعامة المشتغلين بالقبابين، وأصبح زعيمهم من سنة (850هـ/1447م) وحتى وفاته، أي

---

[1] المقري، المصدر السابق، ج4، ص285.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص88.

[3] السخاوي، المصدر السابق، ج8، ص117.

قرابة خمسين عاما، وهو يشبه ما يسمى في أيامنا هذه رئيس حرفة من الحرف المتنوعة[1] ويبدو أن حرفة التجليد وتوريق الكتب كانت من الحرف المحببة لدى الأندلسيين والمغاربة و أنهم كانوا لا يرون في ذلك أي إحراجات أو متاعب معنوية، وخاصة منهم الذين كانوا من عائلة علمية معروفة أو غنية إلى غير ذلك، مثل عبد العزيز بن علي بن محمد بن فرحون، الذي إشتهر عن أبيه أنه كان علامة عصره و على الرغم من ذلك فقد كان يمارس حرفة التجليد و بالأجرة[2].

وهكذا فقد تبين من خلال الأمثلة التي توفرت في مصادر فترة هذا البحث أن المغاربة والأندلسيين قدموا إسهامات جليلة للمجتمع الذي عاشوا فيه بمصر وبلاد الشام وكانوا يعملون بحرية تامة لا يقف في سبيلهم أي عائق و إن كان بعضهم قد واجه بعض المصاعب فإنها كانت فردية من حيث مصدرها و آنية كانت تزول بسرعة و سهولة.

ومن الأمور التي ساعدت على إزدياد نشاط هؤلاء التجار والحجاج والدارسين المغاربة والأندلسيين أن نظام العملة المستخدم كان خاليا من التعقيدات. وليس أدل على ذلك عثورنا على عملة مصرية عبارة عن دنانير ذهبية و دراهم فضية حملت على أحد وجهيها عبارة **ضرب الفسطاط** وعلى الوجه الآخر كلمة **المغرب**[3]، وهذا يعني أن هذه العملات قد ضربت ليتم تداولها في الإقليمين معا (بما يسمى توحيد العملة بين مصر والمغرب) وهو أمر تتطلبه العلاقات التجارية[4].

وعقب الفتح الفاطمي لمصر ضرب جوهر الصقلي دنانير ذهبية جديدة أطلق عليها إسم **المعزية** ظلت أساس التعامل الثابت في مصر في العهد الفاطمي[5] مما ساعد على توحيد نظام الصرف في الأسواق المصرية والمغربية و من ناحية أخرى أشارت وثائق

---

[1] المصدر السابق، ج3، ص300.

[2] السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج3، ص33.

[3] Lane Poole :catalogue of the collection of the arabic coine preserved in the khedivial library at Cairo "London1897",pp 69-70.

راجع: حورية عبد السلام، المرجع السابق، ص246–247، و صالح مفتاح، المرجع السابق، ص213.

[4] حورية، المرجع السابق، ص247.

[5] المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج1، ص115–116، و راجع: سرور، المرجع السابق، ص162. أنظر: جواتياين، المرجع السابق، ص243. حيث أشار إلى أن الدنانير الفاطمية التي ضربت بمصر كانت بمثابة جواز سفر لتجارة تونس.

الجنيزة إلى أن بعض أنواع العملات المغربية قد شاع تداولها في الأسواق المصرية خلال العصر الفاطمي، و كثر عليها لأنها كانت تحوي على نسبة عالية من الفضة[1].

وقد حاول أحد تجار القيروان أن يستفيد من فارق السعر فأرسل لأحد معارفه بمدينة الفسطاط يطلب منه أن يشتري له كمية كبيرة من هذه الدراهم من سوق الفسطاط[2] ومن ناحية أخرى أرسل أحد التجار بمدينة المهدية إلى عميله بالفسطاط يستفسر منه عما إذا كان صحيحا ما سمعه عن إرتفاع سعر عملة مدينة المهدية بأسواق الفسطاط حتى يرسل إليه كمية منها لبيعها هناك[3].

وهناك إشارة إلى أن بعض العملات الذهبية من تونس حملت إلى مصر وكذلك عرف الدينار السجلماسي طريقه إلى الأسواق المصرية[4] و أيضا الدينار المرابطي الذي كثر عليه الطلب بمصر، وصار عزيز المنال بها وكذلك تعامل هؤلاء التجار بنظام الأوراق المالية، من سفاتج أو صكوك[5] حتى يتجنبوا أنفسهم حمل كميا ت كبيرة من المال المال والنقود تكون عرضة للسرقة خلال الطريق.

وقد نتج من هذا النشاط التجاري لجماعات المغاربة والأندلسيين بمصر أن العديد من منتجات بلادهم قد عرفت طريقها إلى الأسواق المصرية وكان أهمها: الزيتون وزيت زويلة المهدية[6] وكذلك زيت صفاقص وزيت برقة[7] وزيت قابس[8] وقد أشار ناصر خسرو خسرو إلى رخص أسعار زيت الزيتون في أسواق مصر، فلعل ذلك كان تعبيرا عن كثرة

---

[1] Goitein ,A medit ,soc,V1,p 391.

[2] القوصي، تجارة مصر، ص248.

[3] Goitein ,op, cit,p 237.

[4] القوصي، المرجع السابق، ص248. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص206. عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص503.

[5] السفاتج: مفردها سفتجة، و هي كلمة فارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان، أنظر: آدم متز، المرجع السابق، ج2، ص319-320. سرور، المرجع السابق، ص163. راجع: سيدة كاشف، (دراسات في النقود الإسلامية)، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد12، سنة1964-1965، ص105-107.

[6] الإدريسي، صفة المغرب، ص109.

[7] ابن حوقل، ص70. البكري، المصدر السابق، ص20.

[8] الإدريسي، صفة المغرب، ص106.

الوارد منه من بلاد المغرب[1] و الفستق من ققصة و شط الجريد[2]، أما القمح والغلال فكان فكان يتجهز بها من موانئ المغرب إلى مصر خاصة في أوقات الأزمات[3].

كما عرفت أسواق مصر الثياب و العمائم السوسية[4] والثياب الصوفية والعمائم أو المآزر المصنوعة في أغما و ريكة[5] والثياب الصوفية من قابس[6] و صفاقص[7]. ويلاحظ ويلاحظ أن الحرير المغربي كان يباع في أسواق مصر بسعر مرتفع عن نظيره المصري خلال الفترة من منتصف القرن (5-6هـ/11-12م)[8].

ومن هذه الواردات أيضا جلود النمور والبقر التي كانت تصل برقة وتتجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية[9] وجلود اللمط وقرونه التي كانت تأتي من مدينة لمطة بالسويس الأقصى، وكانت هذه المدينة تشتهر بالدرق المتخذ من جلود البقر المسمى باللمط[10]. ونوع من الأواني الفخارية ذات الألوان الزاهية تعرض بالخضار مما كانت تنتجه مدينة تونس[11] وكانت السفن تحمل من برقة القطران والجلود للدباغ بمصر وليبيا وكان يصدر الكتان والعسل و السمن إلى الإسكندرية[12]، وأيضا معدن الكبريت[13] وقد أشار ناصر خسرو إلى أنه كان يرد إلى الفسطاط من بلاد المغرب نوع من البلور وصف

---

[1] ناصر خسرو، المصدر السابق، ص61.

[2] البكري، المصدر السابق، ص47.

[3] الإدريسي، صفة المغرب، ص187. راجع: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج2، ص498.

[4] الإدريسي، صفة المغرب، ص125.

[5] نفس المصدر، ص66.

[6] ابن حوقل، المصدر السابق، ص70. البكري، المصدر السابق، ص17. الإدريسي، صفة المغرب، ص106.

[7] أنظر: أرشيبالد، المرجع السابق،ص329. حيث أشار إلى أن أقمشة صفاقس الحريرية قد فاقت من حيث الجودة، نظيرتها المصنوعة في الإسكندرية رغم أن الأخيرة كانت الأصل الذي إقتبس منه من أهل صفاقس فكرتهم.

[8] Goitein : A medit ,Soc , p224.

راجع: القوصي، تجارة مصر، ص220.

[9] الإدريسي، صفة المغرب، ص131.

[10] البكري، المصدر السابق، ص171. راجع :مجهول، الإستبصار، ص12-14. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص425-447.

[11] ابن حوقل، المصدر السابق، ص73.

[12] الإدريسي، صفة المغرب، ص131-136.

[13] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص196.

بأنه غاية في الجمال[1] ومن الأندلس كان الزيت يصدر من إشبيلية إلى الإسكندرية[2] والزئبق من قرطبة[3] والوش من مالقة و ألمرية[4] والتين من مالقة حيث كان يحمل إلى مصر والشام[5].

وكانت بضائع الشرق خاصة التوابل والعطور والبخور من أهم السلع التي حرص تجار المغرب والأندلس على نقلها إلى بلادهم عبر مصر وقد أشار إبن جبير إلى كثرة المجلوب من الفلفل وكذا القرفة وغيرها من سلع الشرق[6].

لقد تنوعت البضائع والسلع التي حملها هؤلاء التجار من أسواق مصر إلى بلادهم والتي كان من الطبيعي أن تكون المنسوجات على رأسها لاسيما الكتانية التي إشتهرت بإنتاجها مدينتي تنيس و دمياط[7] وأيضا المنتجات الزراعية التي إشتهرت بها التربة المصرية من بقول وبصل وعلف وغيرها[8].

ومن ناحية أخرى، فإنهم لم يشكلوا جالية منفصلة أو متميزة عن الفئات الإجتماعية ببلاد الشام، لا تقبل التخلي عن أعرافها وعاداتها. إنما انصهروا إلى حد كبير في بوتقة المجتمع الشامي على كل صعيد وجانب. فمن الناحية الدينية فمنهم من تخلى عن تمسكه المطلق بالمذهب المالكي، الذي كان يعتبر المذهب الوحيد في الجناح الغربي من أرض

---

[1] ناصر خسرو، المصدر السابق، ص59-60. أنظر: محمد مصطفى نجيب (ناصر خسرو)، مقال في موسوعة القاهرة للدكتور حسن الباشا و آخرين، القاهرة 1970م، ص79.

[2] المقري، نفح الطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج4، ط1، القاهرة 1949م، ص199.

[3] الإدريسي، صفة المغرب، ص213. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص205، حيث أشار إلى كثرة الزئبق المنتج بقرطبة، وأنه كان يفرق على جميع جهات المغرب.

[4] المقري، المصدر السابق، ج4، ص206-207.

[5] الإدريسي، المصدر السابق، ص200. و قد أشار كل من ابن خرداذبة، المسالك و الممالك، ص92، و الأصطخري، المصدر السابق، ص45، على سبيل الإجمال إلى بعض السلع و الحاصلات التي كانت ترد إلى مصر من نواحي المغرب و الأندلس، مثل العبيد السودان، الذين كانوا يجلبون من أعماق الصحراء الإفريقية و البيض من الصقالبة والروم، و اللبود المغربية، و البغال و الذهب و العنبر، و المصطكي، المستكة، و عن هذه الحاصلات و أهمية ميناء الإسكندرية في إستقبال السفن الحاملة لها، أنظر: عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص204-209.

[6] ابن جبير، المصدر السابق، ص63.

[7] حورية عبد السلام، المرجع السابق، ص217.

[8] أنظر: القائمة التي أوردها المقدسي، أحسن التقاسيم، ص203-204، عن أهم المنتجات التي كانت شائعة آنذاك بمصر، و من الطريف ما أشار إليه المصدر نفسه، ص226، عن كثرة الدواب المصرية المستخدمة للنقل في مدينة صبرة من أعمال إفريقية.

العرب والإسلام (الأندلس)، و إن لم يكن هذا التخلي بشكل جماعي، حيث بقي منهم العدد الأكبر على مذهب المالكية، وخاصة الذين نزلوا الأماكن التقليدية للوجود المغربي والأندلسي في دمشق وغيرها[1]، فأولئك الذين عملوا بالقضاء المالكي إضافة إلى العاملين خارج مدارس الشام المخصصة للشافعية والحنفية، فإن قضية تحول جماعة كبيرة من المالكية إلى الشافعية والحنفية، تعتبر تطورا هاما على طريق الاندماج بالمجتمع الجديد، بالرغم من أن سببها اقتصادي محض، يتجلى بالحصول على عمل وراتب مناسب في أية من المدارس غير المالكية. وهذا يظهر من خلال تتبع سير العلماء في مختلف المجالات التي عملوا بها في الشام.

و إن كان من الصعب، أن آتي على ذكرهم جميعا، فإن من الخير إعطاء نسبة تبين هذا الأمر. فلو جمع المحدثون والنحويون والمدرسون وبعض القضاة على المذهب الشافعي وبعض الإداريين والخطباء وغيرهم في بعض المجالات الأخرى، لتبين أن نسبة 90% من هؤلاء و ربما أكثر، كانوا قد تحولوا إلى الشافعية والحنفية وغير ذلك.

ولكي تصبح الصورة أقرب، فإني سأذكر تجمعين علميين اشتهرا على صعيد المغاربة هما: المدرسة العادلية الكبرى والرباط الناصري، فقد وجد في المدرسة العادلية من المغاربة أكثر من ثلاثة من العلماء المشاهير وعدد من غير المشاهير خلال القرن (7هـ/13م)، كلهم تحولوا إلى المذهب الشافعي، أذكر منهم الثلاثة المعروفين بشكل جيدا القاسم بن أحمد النحوي بن الموفق، و ابن مالك النحوي، و ابنه بدر الدين[2] وكذلك الحال في الرباط الناصري بقاسيون، الذي شهد منذ افتتاحه في أواخر النصف الأول من القرن (7هـ،13م) أربعة من الأندلسيين، الذين تحولوا إلى الشافعية أيضا وهم جمال الدين الشريشي، و ابنه كمال الدين وحفيده جمال الدين محمد، ومحمد بن القاسم مجد الدين أبي بكر.

وما ينطبق على هاتين المدرستين، فإنه ينطبق على مدارس شامية أخرى كالظاهرية في دمشق، التي اقتصرت على تعليم الشافعية والحنفية، و لعل أروع صور الاندماج

---

[1] الوجود التقليدي في دمشق للأندلسيين، انحصر في عدة أماكن معروفة بشكل جيد منها زوايا في مدارس كما مر في عدة أمكنة، مثل الخانقاه الأندلسية، و المدرسة النورية، و زوايا أخرى كالتي في الجامع الأموي، و زاوية ابن وطية وفي القدس. زاويتهم في الأقصى، إضافة إلى زاوية أخرى شادها أحدهم.

[2] أنظر: ص192 وما بعدها من هذا البحث.

بالمجتمع الجديد بين المغاربة وأهل الشام، تجسدت بإقبال من جانبهم على الزواج من النساء الشاميات، و بإقبال أهل الشام على الزواج من أندلسيات، والأمثلة كثيرة في هذا المضمار، أذكر منها على سبيل المثال علم الدين البرزالي المحدث المغربي المشهور، الذي تزوج من امرأة دمشقية إسمها دني بنت حسن بن بلبان (ت759هـ/1358م)[1] وأيضا شعيب بن محمد بن جعفر رضي الدين التونسي أبو مدين الذي حل بدمشق سنة (757هـ/1256م) وسافر إلى حماة بعد فترة و جيزة، حيث نزل بشكل دائم وتزوج بامرأة منها، و ظل فيها حتى وافته المنية سنة (770هـ/1369م)[2] و أذكر من الشاميين بالمقابل ممن تزوجوا من أندلسيات أبا شامة المقدسي ووالده إسماعيل .فقد ذكر في كتابه الذيل على الروضتين أن والده تزوج بامرأة أندلسية لا يذكر اسمها، و اكتفى بالقول، أنها أم أخيه محمد[3] و حذا هو حذو والده، و تزوج بواحدة من الأندلسيات نزيلات دمشق اسمها (ست العرب والدة ابنه محمد)، وقد ذكر أنها بنت شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري المرسي، الذي وصفه، أنه كان من أهل الفضل والرئاسة ومن وجوه بلده.

و يبدو أن أبا شامة، كان يحبها كثيرا إلى درجة جعلته ينظم فيها قصيدة طويلة، جسد فيها فضائل هذه الزوجة و مناقبها و أخلاقها يقول:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة　　　بها من خصال الخير ما حير العقلا[4]

يضاف إلى هذا الأمر، أن بعض العائلات المغربية التي استقرت بالشام ظلت طيلة فترة هذا البحث، لذلك والحال هذا فلا بد أن يكون أفرادها قد تزاوجوا مع الشاميين، والعكس صحيح، حيث أن بعض العائلات مازالت معروفة باسمها منذ ذلك الوقت و حتى هذه الأيام. و لتكون الصورة أوضح فإني سأذكر بعض هذه العائلات. منها آل الزواوي والبكري والتونسي والمالقي والمغربي. وتتوزع هذه العائلات في مدن شامية متفرقة في وقتنا الحاضر. فعائلة البكري تكاد تنحصر في مدينة دمشق وهي من العائلات المعروفة جدا، و إن كان الأمر لا يخلو من وجود أقرباء لهم في مدينة حلب على ما أظن. وعائلة

---

[1] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص102.

[2] نفس المصدر، ج2، ص192.

[3] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص227.

[4] أبو شامة، المصدر السابق، ص196.

الزواوي ينحصر وجودها في أغلب الأحيان بدمشق وفلسطين. أما عائلة المـالقي فلهـا وجود قليل من مدينة دمشق، أما عائلة المغربي، فأغلب الظن أنها لا تعود إلـى أرومـة واحدة، على اعتبار أن كل من جاء من الأندلس أو المغرب على حد سواء عرف في كثير من الأحيان بتسمية (المغربي).

وتوجد عائلات تحمل هذه الكنية في معظم مدن الشام، أما العائلة الأخـرى، فهـي عائلة (التونسي) عائلة كبيرة موجودة في حي الميدان بدمشق حتى يومنا هذا منها ضـباط كبار وأساتذة ومحامون وعلماء دين. ويتجلى الاندماج المغربي على نطاق أضيق، في أن بعض العائلات الشامية في مدينة دمشق، أحاطت بعض العـائلات الأندلسـية بالرعايـة والحماية، كما حدث لابن عربي المتصوف الأندلسي، الذي نزل عند عائلة بني الذي حتى وفاته سنة 638هـ معززا مكرما، وشملت هذه الرعاية، أن دفنوه في أحد الأماكن التـي تعود ملكيتها لهم في سفح قاسيون، حيث مازال ضريحه حتى يومنا هذا[1].

ومن هذا النوع نجد أبا شامة المقدسي، الذي عرف عنه تضلعه بمعرفة المغاربـة، خاصة منهم الذين نزلوا دمشق في القرن (7هـ/13م)، حيث أتى على ذكر الكثيرين منهم في كتابه المعروف، بالذيل على الروضتين، حتى أنه صلى على كثيـرين مـنهم أثنـاء وفاتهم، وأكثر من هذا، أنه كان يعرف تفاصيل مهمة من سير حياتهم وأوضاعهم العامة.

والواقع أنهم لم يتميزوا عن غيرهم من سكان الشام، لكـنهم برهنـوا مـن خـلال إشتراكهم بالحرب مع إخوتهم عرب الشام ضد الصليبيين والتتار،على أعظم كرم و أنبلـه على الإطلاق، فضحوا بالدماء والأرواح والأموال[2].

أما بخصوص سكن الجالية الأندلسية، فقد كان فـي أمـاكن متفرقـة مـن المـدن والحواضر التي نزلوها. ويصعب تحديد هذه الأماكن في بعض المدن، ويسهل في مـدن أخرى. ففي مدينة بيت المقدس خصصت لهم حارة بكاملها عرفت باسمهم، كما مر فـي موضع سابق من هذا البحث، إضافة إلى بعض الزوايا.

وكذلك الأمر في مدينة دمشق، حيث يسهل تحديد أماكنهم بضرورة تقترب من الواقع .فمن المحتمل أن نسبة كبيرة منهم، سكنت في الحارة التي سميت بـ (حـارة المغاربـة،

---

[1] المصدر السابق، ص195-197.

[2] أبو شامة، المصدر السابق، ص197.

التي تقع داخل باب النصر، الذي كان يسمى بباب دار السعادة[1]، وبعضهم سكن في المدارس والخوانق والزوايا التي عملوا بها، مثال ذلك، سعيد المغربي التلمساني الذي كان مقيما بمسجد في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما، والذي توفي بالجامع المذكور سنة (663هـ/1265م)[2]، وبعضهم الآخر سكن في أماكن متفرقة قريبة من أماكن عملهم. وما ينطبق على مدينتي بيت المقدس ودمشق، فإنه ينطبق تماما على المدن الشامية الأخرى، التي نزل بها الأندلسيون والمغاربة، ماعدا أنه في القدس ودمشق وحلب خصصت لهم زوايا وحارات مقتصرة عليهم، الأمر الذي لم يعهد في أي مدينة شامية.

وخلاصة الأمر فإن سكان بلاد الشام وحكامها، عبروا عن وعي ناضج وتفكير سليم بتصرفهم اللائق مع عرب الأندلس، الذين أجبروا على النزوح عن أرضهم إلى غير رجعة. فلبوا بذلك نداء الأخوة و واجب العروبة والإسلام عليهم.

فقد برهنوا في كل الأوقات على حبهم و وفائهم للأرض التي سكنوا، بكل الوسائل وشتى السبل، و ترجموا بمواقفهم الخالدة، صدق انتمائهم للعروبة والإسلام وحقيقة المصير المشترك الذي يلتقي على صعيد العرب، عندما تشتد المحن وتثقل وطأة المصائب والكوارث. فلم تستطع المسافات و لا طول الزمن و امتداده، أن تنسيهم حقيقة كبيرة تتجسد بأنهم أبناء وطن واحد، وأرض واحدة، التي اختصتها العناية الإلهية لأن تكون ميدانا لنمو وترعرع نواة الإسلام الأولى، لتكبر وتنتشر بسرعة إلى المناطق الأخرى.

إن القواسم المشتركة بين عرب المغرب والأندلس وعرب مصر والشام، ربما تكون مثار تساؤل البعض وحيرتهم، على اعتبار أنهم ينطلقون، من أن الأساس والقاسم المشترك اللذين جمعا بين عرب المشرق والمغرب، هما الإسلام والانتماء إلى أرض العرب. واقع الحال أن قولا كهذا لا يخلو من الصحة، على اعتبار أن الإسلام في تلك الفترة من الزمن، كان من الأمور، التي يأخذها المسلمون بعين الاعتبار بالدرجة الأولى، لكن بالمقابل يلاحظ أن الشعور بالانتماء إلى الأرض العربية، كان قبل ظهور الإسلام وتعزز هذا الانتماء أكثر بظهور رسالة الإسلام التي تحمل شعار لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، وأصبح الإسلام يشكل أكثر من مظهر حضاري في حيات المجتمعات المختلفة، حيث بلغ أعلى مستويات الرقي والنضوج، وشمل جميع نواحي

---

[1] النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص373.

[2] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص233.

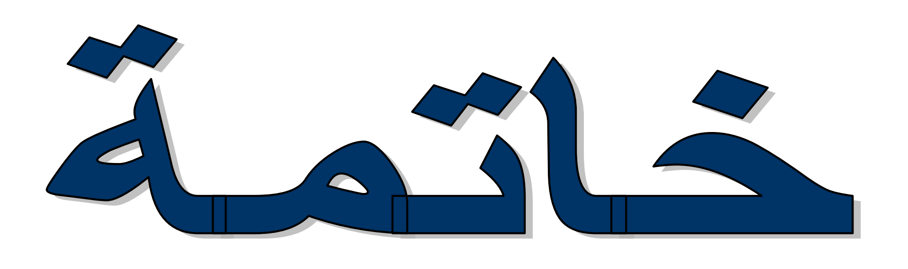
ووجوه الحياة العامة، بحيث غدا منظما لشؤونهم ومرشدا لهم عن طريق التقدم والازدهار ونيل المجد.

والسؤال الذي يخطر بالبال هو: لماذا لجأ الأندلسيون والمغاربة بأعداد كبيـــرة إلـــى أقطار المشرق العربي، و لم يلجأوا إلى أقطار أخرى غير عربية ؟ في مستهل الإجابـــة، على هذا السؤال، لابد من الإعتراف أن الأمر لا يخلو مـــن هجـــرة بعـــض الأندلســـيين والمغاربة إلى أقطار إسلامية غير عربية، لكن ليست بالكثافة، التي حدثت باتجاه الشـــــام ومصر أو غيرهما من الأقطار العربية الأخرى، فالذين قصدوا أقطار غير عربيـــة، لـــم يشكلوا سوى قلة قليلة لا يعول عليها في مشكلة كهذه.

إذن لم تكن الدوافع إسلامية، بقدر ما كانت استجابة لشعور قوى بالانتماء إلى أرض واحدة ومصير مشترك ولغة واحدة. ظهرت نتائجه من خلال حياة الأندلسيين والمغاربـــة على أرض بلاد الشام ومصر بحيث لم يشعروا بأنهم غرباء على أهل البلاد في أي وقت من الأوقات. و برهنوا بأنه لا ناصر لهؤلاء إلا بالإنتماء والدين، مهمـــا تعـــددت الـــدول وأنظمة الحكم، ومهما باعدت المسافات، والإيديولوجيات السياسية. ولعل في هذه المواقف الرائعة الخالدة، أكبر مثال وأصدق دليل علـــى ضـــرورة التقـــارب والوحـــدة العربيـــة الإسلامية، في وقت كثرت فيه الفتن والخلافات بين الحكام العـــرب، وتجســـدت عوامـــل الجفاء والفرقة بين الشعوب العربية والإسلامية، إلى درجة وصل الأمر عند بعضها إلـــى تسمية أفراد الشعب الآخر بالغرباء والأجانب، وبرهنوا من جهة أخرى و من خلال هـــذه المواقف أيضا أنه لا فرق بين عربي مشرقي أو عربي مغربي، فكلاهمـــا مســـؤول فـــي النهاية عن الآخر، شاء ذلك أم أبى، فهل يستفيد حكام العرب من مثل هذه المواقف، التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن أرضهم وشعوبهم، تعاني من الأسباب نفسها التـــي أدت إلى إنهيار دولة العرب والإسلام في بغداد والأندلس، خلال فترة العصور الوسطى، عندما فصل مشرق الوطن العربي الإسلامي عن مغربه، وقسمت الخلافـــة إلـــى ثـــلاث خلافات العباسية، والفاطمية في المغرب والأموية في الأندلس بفعـــل الأنانيـــة الســـوداء وشهوة الحكم وحب السيطرة، التي تجسدت كأمراض مزمنة في نفـــوس حكـــام العـــرب والمسلمين في تلك الفترة من الزمن، فكانت النتيجة أقسى من الفراق والفصل أعمق أثرا، بحيث أدت إلى ضياع البلاد، و انهيار حضارة وموت شعب بكامله، في وقت بدأت فيـــه عوامل الوحدة وتجميع الصفوف تظهر على الساحة الأوروبية، الأمـــر الـــذي أدى إلـــى

ظهور دول سيطرت على مقدرات ومستقبل الشعوب، التي نشكل نحن العرب المســلمين غالبيتها العظمى، وما تزال حتى يومنا هذا، بحيث تطور الأمر إلى شكل جديد، أصــبحنا فيه دعاة للقطرية المتزمتة، بدلا من الدعوة والتحريض بصدق وجدية، إلى جمع الصفوف ولم الشمل، في وقت لا تستطيع أي دولة عربية، أن تسير مع الركب الحضاري العــالمي بمفردها.

لذلك فإن استمرار وضع كهذا سيؤدي بالنهاية إلى كارثة حضارية خطيــرة، مــن المستحيل الخروج من تحتها أو التخلص من آثارها، لكوننا نحن العرب المسلمين نعــيش اليوم على هامش الدول المتقدمة والحضارية.


خاتمة

خاتمة

نستنتج مما سبق أن المغرب والأندلس ومصر وبلاد الشام عاشوا دوما في وحـــدة شبه كاملة،لم تعرف الحدود الفاصلة ولم يعرف سكان هذه المناطق جواز سفر للمرور،و لا الأذن بالعمل و الاقامة.

فقد عكست تفاصيل هذا البحث، ذلك التعاون الأندلسي المغربي المصري الشامي في في اطار العروبة والإسلام الذي أثمر في ميدان الثقافة والفكر بالدرجـــة الأولـــى وفـــي المجالات الأخرى المختلفة، فقد شغل المغاربة والأندلسيون المقيمون في مصـــر وبـــلاد الشام، وعلى مختلف فئاتهم العلمية، شغلوا دورا كبيرا من خلال ممارستهم وأعمالهم، كل بحسب موقعه ومهمته.

فإذا كان المشرق العربي قد شكل المصدر الرئيسي، الذي منـــه إســـتقى المغـــرب والأندلس الثقافة وأمور الفكر في فترة ما قبل نهاية القرن (5هــــ/11م) فـــإن المغاربـــة والأندلسيين خلال فترة ما بعد نهاية القرن (5هــ/11م)، التي تمتد علـــى مـــدى أربعـــة قرون، قد ردوا الجميل للمشارقة خاصة مصر وبلاد الشام بصورة وافية وغزيرة.

فقد بلغت مؤلفات المغاربة والأندلسيين من نزلاء مصر والشام في كل الميادين العلميـــة بلغت أكثر من ثلاث آلاف مؤلف في علوم اللغـــة العربيـــة، والحـــديث والتفســـير والقراءات والطب والصيدلة والفلسفة والمنطق وعلم الإجتماع والتصوف في جميع الميادين التجارية،والادارية،والسياسية،والثقافية،ووالاجتماعية،زوالدينية،والعسكرية،والصوفية

و إن عددا لا يستهان به من هذه المؤلفات، قد طبع وهو قيد التداول في هذه الأيـــام، مثل مؤلفات **ابن خلدون** و **الفاسي** و **البرزالي** و **أبو حيان النحوي** و **ابن مالـــك** و **ابـــن معطي** و **ابن البيطار** و **الطرطوشي** و **ابن جبير** و **ابن بطوطة** و **ابن رشـــيد** وغيـــرهم كثيرون.

و إن عددا لا بأس به على هيئة مخطوط في المكتبات الكبرى، العالميـــة والعربيـــة بانتظار اليد، التي تأخذه إلى عالم النور والحياة.

و أما القسم الكبير من هذا الترك أو تلك التركة المغربية الأندلسية، فإنه فـــي عـــالم مجهول لا يعرف عنه شيئا إلا أنه ضاع أو فقد.

وقد برهن المغاربة والأندلسيون من خلال مساهماتهم بالإضافة الى الجانب الثقافي، برهنوا على وجودهم في المجالات الأخرى، المذكورة آنفا، في كل منحي الحياة.

وأصبح المغاربة والأندلسيين والمصريين والشاميين كتلة اجتماعية واسعة لا تتجزأ مهما حاول المغرضون والحاقدون على العرب أن يشككوا في ذلك من خلال إظهـــار أن المشرق العربي غير المغرب العربي، ولكل واحد ثقافته المتميزة عن الآخر والدليل على ذلك أن بادرة لم تظهر ولو كانت صغيرة، توحي على أن الثقافة المغربية هي غير الثقافة المشرقية.

و إن ما كان يجري من بوار الثقافة العربية في المشرق، كان يجري في المغـــرب والأندلس والعكس صحيح وما يدلل بصورة أكبر على وحدة الثقافة العربية آنـــذاك هـــو إندفاع المغاربة والأندلسيين، وصدقهم وحماسهم المنقطع النظيـــر لخدمـــة الثقافـــة فـــي المشرق، التي لم تعتبر في نظرهم غير ثقافتهم أو مغايرة لها، فكانت جزءا لا يتجزأ مـــن حياتهم العامة وظهر ذلك من خلال المناصب والأعمال التي تسلموها، وكان قسم منها من المناصب العالية جدا أعلى مناصب علمية في كل من مصر والشـــام خـــلال العصـــور الوسطى وتراوحت هذه المناصب بين شيخ عام لمدرسة من المدارس أو شيخ علـــم مـــن العلوم التي تدرس فيها إلى غير ذلك من هذا القبيل.

و لم يحصل أن تأخر منهم أو تقاعس عن خدمة الثقافة العربية في مصر والشام عن قصد مبيت هدفه التقصير للتقصير، كما يتـــوهم رواد الشـــك والفتنـــة ودعـــاة التفرقـــة والتخريب، بل يمكن وصفهم أو بالأحرى القول فيهم أنهم تفوقوا على المشارقة في كثيـــر من الأحيان في غزارة إندفاعهم وحرارة صدقهم ومحفزاتهم ومرد ذلك، أنهم لم يشـــعروا على أنهم غرباء على الديار المصرية والشامية أو أنهم عناصر ليس بإمكانهم الإنخـــراط في بوتقة المجتمع هناك.

ولعلنا لا نكون مغالين في القول بأن استمرار انفتاح المغاربة والأندلسيين على مصر والشام قد جعل الدور الذي لعبوه في مختلف شؤون الحياة بها جزءا هاما مـــن مكونـــات الشخصية المصرية والشامية خلال عصورهما الاسلامية،وهو ما يتأكـــد بصـــورة أكثـــر وضوحا عند دراستنا لفصول البحث.

و إن الشيء الأهم، الذي ظهر من خلال حركة المغاربة والأندلسيين باتجاه المشرق العربي حيث إستقروا في مصر والشام وأصبحوا من سكانه الفعليين، إن هذا الشيء يتجلى

بالروح والمشاعر العربية الواحدة، التي لم تتجزأ هي الأخرى، مهما تباعدت الأقاليم ففي الوقت الذي أحدقت به الأخطار على الأندلس والمغرب، لم يكــن أمـــام مـــن تضـــررت مصالحه وتهددت حياته، إلا الإتجاه إلى المشرق العربي، حيث السكان الذين تربطهم بهم رابطة اللغة والمصير المشترك، فبرهنوا على روخ الأخوة الحقيقية.

وفي المقابل عندما اشتد الحصار على بيت المقدس من طرف الصـــليبيين اســـتنجد صلاح الدين باخوانه المغاربة لفك هذا الحصار، هذا الشعور الذي كان سائدا والذي يجب أن يسود اليوم.

و إن الذي حدث للأندلسيين والمغاربة نزلاء مصر والشام، يعطي أعظم الـــدروس والمواعظ، لمن ينتمي إلى هذه الأمة الواحدة، التي طال زمن فرقة مواطنيهـــا وشـــعوبها وهي مهددة بالفناء و الإندحار على المستوى الحضاري على الأقل، إذا ما ظلت شـــعوبها على حالة التمزق و الإنهيار.

و ما ينطبق على ما جرى بالأمس البعيد ينطبق على أمثلة ما يجري اليـــوم، فهـــل سيرى العرب من المحيط إلى الخليج النور إذا ما ظلت أحوالهم الراهنة علـــى مـــا هـــي عليه؟، إن الجواب على هذا التساؤل إذا لم ينتبه هؤلاء بأن حالتهم الراهنة هي أشبه بمـــا كان قد جرى خلال العصور الوسطى من تفكك وتناحر وإقتتال مما أدى إلى هزائم قاتلـــة في ميدان الحضارة فأدى إلى خسارة أرض وضياع علم وحضارة.

هذه بعض الصفحات المشرقة المضيئة بما ساهم به المغاربة والأندلسيين من جليـــل الأعمال في كل من مصر وبلاد الشام.

أسأل الله تعالى أن يكون من وراء القصد وأن يغفر لي ما عسى أن أكون قد وقعت فيه من خطأ أو تقصير في تناول هذا الموضوع المتعدد الجوانب البعيد الأثر وما توفيقي إلا بالله وهو نعم المولى ونعم النصير.

كما نسأله أن يهيىء لهذه الأمة أمر رشد تجتمع عليه كلمتها وتخرج به من تمزقها.

فهرس الأعلام و المصطلحات

-أ-

ب –

-ت-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ذ-

-ر-

-ز-

-س-

– ش–

-ص-

-ض-

-ط-

-ظ-

-ع-

-غ-

-ف-

-ق-

–ك–

–ل–

-م-

-ن-

-هـ-

-و-

-ي-

البيبليوغرافية

1- المصادر:

1- **ابن الأبار**، القضاعي البلنسي (ت658هـ/1259م).

-التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة سخانجي، مصر 1956م.

-المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1989م.

-الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ج2، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1963م.

2- **ابن الأثير**، عز الدين علي بن محمد الجزري (ت630هـ/1232م).

-اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، بلاانتا.

-الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان 1965م.

3 -**ابن أبي دينار**، محمد الرعيني القيرواني (ت1698م).

-المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، دار الميسرة، ط3، لبنان 1993م.

4- **ابن أبي أصبيعة**، السعدي الخزرجي (ت668هـ/1269م).

-عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، ج3، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1965م.

5- **البدري**، أبو البقاء عبد الله بن محمد (ت894هـ/1482م).

-نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر 1922م.

6- **ابن بسام الشنتريني** (ت542هـ/1147م).

-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1979م.

7- **ابن بشكوال**، خلف بن عبد الله (ت578هـ/1182م).

-الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1989م

8- **ابن بطوطة**، أبو عبد الله محمد الطنجي (ت779هـ/1377م).

-رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان 1960م.

9- **أبو بكر بن العربي** (543هـ/1148م).
-العواصم من القوصم، تحقيق: عمار طالبي، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر 1981م.
10- **البكري**، أبو عبد الله (ت487هـ/1094م).
-جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمان الحجي، ط1، دار الارشاد، بيروت، لبنان 1968م.
11- **البيدق**، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت خلال القرن 6هـ/1182م).
-أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق: ليفي بروفنسال، باريس 1928م.
12- **ابن تغري بردي**، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت874هـ/1469م).
-النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط1،قدم له وعلق عليه،محمد حسين شمس الدين أبو المحاسن ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر،1413هـ/1992م.
-المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: أحمد نجاتي، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1956م.
13- **ابن جبير**، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، الشاذبي، البلنسي (ت614هـ/1217م).
-تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، طبعة دار الشعب، تقديم: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، ودار الكتاب المصري، بلاتنا.
14- **ابن الجزري**، شمس الدين (ت833هـ/1429م).
-غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: برجستراير، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1982م.
15- **ابن جلجل**، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت384هـ/994م).
-طبقات الأطباء والحكام، تحقيق: فواد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1955م.
16- **ابن الجوزي**، عبد الرحمان بن علي (ت597هـ/1210م).
-فضائل القدس، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان 1979م.

-صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، ط1، دار الوعي، حلب، القاهرة 1979م.
17- ابن حجر، العسقلاني (ت852هـ/1448م).
-تهذيب التهذيب، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان 1968م.
-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان 1993م.
-أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسين حبشي، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة 1969م.
18- الحسيني، أبو المحاسن الدمشقي (ت765هـ/1363م).
-ذيل تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلاتا.
19- ابن حزم، علي بن أحمد (ت456هـ/1063م).
-رسائل بن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 1987م.
20- الحميدي، محمد بن فتوح الأزدي (ت488هـ/1095م).
-جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1989م.
21- الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت866هـ/1461م).
-روض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت 1984م.
22- الحنبلي مجير الدين ، القاضي أبو اليمن عبد الرحمان بن محمد العليمي (ت927هـ/1521م).
-الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباته، دار النشر مكتبة دنديس، عمان، (1420هـ/1999م).
23- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (ت368هـ/978م).
-صورة الأرض، ط2، ليدن، 1938م.
24- ابن خردابة، أبو القاسم عبيد الله (ت300هـ/912م).
-المسالك والممالك، تحقيق: محمد محزوم، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م.

25- **الخشني**، أبو عبد الله محمد بن حارث ابن أسد الأندلسي (ت361هـ/971م).
-كتاب طبقات علماء افريقية، ج4، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، بلاتا.
26- **ابن الخطيب**، لسان الدين (ت776هـ/1374م).
-أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، المطبعة الجديدة، الرباط 1934م.
-الإحاطة في أخبار غرناطة، ج5، تحقيق: عبد الله عنان، دار المعارف، مصر 1955م.
-مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق: مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر 1983م.
-أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، المطبعة الجديدة، الرباط 1934م.
-ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، القسم الذي نشر المستشرق الاسباني جاسبار ريميرو.
-Gaspar Remiro, carrespendencia diplomattica entre grande Y F E Z en el Siglo XIV.
27- **ابن خلدون**، عبد الرحمان بن محمد المغربي (808هـ/1406م).
-التعريف بان خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1979م.
-المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط3، دار النهضة، مصر 1981م.
-كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968م.
-العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، لبنان، بيروت 1968م.
28- **ابن خلكان**، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي (ت681هـ/1282).
-وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1970م.
-ذيل على كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1951م.
29- **الداودي**، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت945هـ/1538م).

-طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر 1972م.

30- **الدباغ،** أبو زيد عبد الرحمان بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسدي (ت699هـ/1299م).

-معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية التونسية، 1325م.

31 -**الإدريسي،** الشريف أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت564هـ/1169م).

-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، لبنان 1989م.

-المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة ليدن 1862م.

32- **الأدفوي الشافعي،** كمال الدين أبو الفضل جعفر ابن ثعلب بن جعفر (ت748هـ/1347م).

-الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، جمع وتصحيح، أمين عبد العزيز، المطبعة الجمالية بمصر 1914م.

33- **ابن دقماق،** إبراهيم بن محمد أيدمر العلاني (ت809هـ/1406م).

-الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ج4، طبعة القاهرة 1893م.

34 -**الذهبي،** محمد بن أحمد شمس الدين (ت748هـ/1347م).

-العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بلانتا.

-سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان 1374هـ./1954م.

-تذكرة الحفاظ، تحقيق: عبد الرحمان بن يحيى المعلمي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1314هـ/1856م.

-معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1967م.

35 -**الربعي المالكي،** أبو الحسن علي بن محمد (ت444هـ/1052م).

-فضائل الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، دمشق 1950م.

36- **ابن رشيد السبتي** (ت721هـ/1321م).
-ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، نشر دار الغرب الإسلامي.
37- **الرعيني الاشبيلي**، أبو الحسن علي بن محمد (ت666هـ/1267م).
-برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق: إبراهيم شبوخ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق 1962م.
38- **ابن الزبير**، أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت708هـ/1308م).
-صلة الصلة، تحقيق: ليفي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1938م.
39- **ابن أبي زرع**، علي بن عبد الله (ت741هـ/1340م).
-الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: كارل يوحن تورنبورغ، سالا 1943م.
40- **الزركشي**، محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ (من القرن 9هـ/15م).
-تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس 1966م.
41- **ابن الزيات**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصاري (ت814هـ/1411م).
-الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، طبعة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، بلاتا.
42- **سبط ابن الجوزي**، شمس الدين يوسف (ت656هـ/1257م).
-مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، حيدرأباد الدكن، 1952م.
43- **السبكي**، عبد الوهاب تاج الدين (ت771هـ/1369م).
-طبقات الشافعية، ط1، المطبعة الحسينية، مصر، 1383هـ/1964م.
44- **السخاوي**، محمد شمس الدين بن عبد الرحمان (ت902هـ/1497م).
-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بلاتا.
-التحفة اللطيفة بتاريخ المدينة الشريفة، نشر أسعد طرابلسي الحسني، القاهرة 1979م.
-الذيل على رفع الأصر، تحقيق: جودة هلال، ومحمد محمود صبحي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلاتا.

-التبر المسبوك في ذيل السلوك، طبعة بولاق، مصر 1896م.
45- ابن سعد، محمد الزهري (ت230هـ/845م).
-الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1990م.
46- ابن سعيد المغربي، أبو الحسين علي بن موسى (ت685هـ/1286م).
-المغرب في حلى المغرب، ج1، تحقيق: وشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر 1964م.
-النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب، 1970م.
47- إسماعيل باشا البغدادي.
-هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلاتا.
48- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م).
-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، مصر 1965م.
-تاريخ الخلفاء، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1994م.
-حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1967م.
-طبقات الحفاظ، تحقيق: لجنة من العلماء، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1994م.
-نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك 1927م.
49- ابن شاكر الكتبي، محمد بن أحمد (ت764هـ/1362م).
-فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان 1973م.
50- أبو شامة، عبد الرحمن شهاب الدين بن إسماعيل إبراهيم (ت665هـ/1266م).
-الذيل على الروضتين، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1974م.

-الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، لبنان، بلاتا.
51- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت683هـ/1284م).
-الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان 1956م.
-الذيل على الروضتين، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1974م.
52- ابن شداد، يوسف بن رافع(ت 589هـ/1193م).
-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1964م.
53- الشريف الغرناطي(760هـ/1359م).
-رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة، ج2، مطبعة السعادة، مصر، 1344هـ./1925م.
54- الشوكاني، محمد بن علي(1250هـ/1834م).
-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط1، مطبعة السعادة، القاهرة، (1348هـ/ 1929 م).
55- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي (ت578هـ/1182م).
-تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور المهدي بالموحدين، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، دار الأندلس، بيروت، لبنان 1964م.
56- ابن صاعد الأندلسي، ابن أحمد الطليطلي (ت462هـ/1069م).
-طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان 1912م.
57- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362م).
-الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد يوسف نجم وآخرون، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان 1982م.
-نكت الهيمان في نكت العميان، نشره: أحمد زكي بك، ط1، المطبعة الجمالية، القاهرة 1911م.

58- **ابن أبي الصلت،** أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي (ت538هـ/1134م).

-الرسالة المصرية، سلسلة نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، جمع وتحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1951م.

59- **الضبي،** أحمد بن عميرة المرسي (ت599هـ/1202م).

-بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1982م.

60- **الطبري،** أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م).

-تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1991م.

61- **الطرطوشي،** أبو بكر محمد بن الوليد خلف (ت520هـ/1126م).

-سراج الملوك، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، (1289هـ/1872م).

62- **ابن طولون،** شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي (ت880هـ/953م).

-مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (1418هـ/1998م).

63- **العبدري،** محمد أبو عبد الله الحاجي (من أعيان القرن 7هـ/13م).

-الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب 1968م.

64- **ابن عبد الله عبد الحكم،** أبو القاسم عبد الرحمان (257هـ/870م).

-فتوح مصر وأخبارها، ج1، تحقيق: محمد الحجيري، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان 1996م.

65- **عبد الواحد المراكشي** (ت620هـ/1223م).

-المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الثقافة، سلا، المغرب 1938م.

66- **عبد الملك المراكشي** (ت703هـ/1303م).

-الذيل والتكملة لكتاب الوصل والصلة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1973م.

67- **العدوي،** القاضي محمود (ت1032هـ/1622م).

-الزيات بدمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق 1956م.

68- **ابن عذاري المراكشي**، أبو العباس أحمد (من أعيان القرن 8هـ/14م).
-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1980م.
69- **ابن عربي**، محي الدين (ت638هـ/1240م).
-نصوص الحكم، تحقيق: عاصم كيالي، دار الكتب العلمية، 2003م.
70- **ابن عساكر**، أبو القاسم غلي بن الحسن بن هبة الله (ت571هـ/1175م).
-تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1951م.
71- **العز بن عبد السلام السلمي** (ت660هـ/1261م).
-ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق: خالد الطباع، دار الفكر، الجزائر، بلاتا.
72- **العماد الأصفهاني**، الكاتب أبو عبد الله محمد بن صفي الدين (ت597هـ/1200م).
-تاريخ دولة سلجوق، مطبعة الموسوعات، مصر 1955م.
-خريدة القصر وجريدة العصر، ج2، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية.
73- **ابن العماد الحنبلي**، أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ/1678م).
-شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بلاتا.
74- **ابن غالب الأندلسي**، محمد بن أيوب (من أعيان القرن 6هـ/12م).
-فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، معهد المخطوطات العربية، مصر 1955م.
75- **الغبريني**، أبو العباس أحمد بن أحمد (ت704هـ/1304م).
-عنوان الدراسة فيمن عرف من العلماء في المائة السابقة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1970م.
76- **الفاسي**، تقي الدين(832هـ/1429م).
-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج5، تحقيق: محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1959م.
77- **الفتح بن خاقان**، الغرناطي (ت535هـ/1140م).
-مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، مكتبة المكاوي، القاهرة 1908م.

-القلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق: محمد العنابي، دار المكتبة العتيقة، تونس 1966م.

78- **أبو الفدا،** الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت732هـ/1332م).

-المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، بلاتا.

79- **ابن فرحون المالكي،** القاضي إبراهيم بن نور الدين (ت799هـ/1396م).

-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون الجنـاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1996م.

80- **ابن الفرضي،** أبو الوليد بن محمد الأزدي (ت403هـ/1012م).

-تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيـروت، لبنان 1989م.

81- **ابن فقيه الهمذاني،** أبو بكر أحمد (من أعيان القرن 3هـ/9م).

-مختصر كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م

82- **ابن فضل الله العمري،** شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ/ 1348م).

-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج3، ترجمة وتحقيـق: دورو تياكرافولسـكي، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1985م.

83- **الفيروز أبادي،** مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ/1414م).

-البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تحقيق: محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972م.

84- **ابن القاضي،** أحمد بن محمد المكناسي (ت910هـ/1025م).

-درة الحجال في أسماء الرجال، ج1، تحقيق: محمد الأحمدي أبـو النـور، ط1، دار التراث، القاهرة 1970م.

85- **القاضي عياض،** أبو الفضل بن موسى اليحصبي (ت544هـ/1149م).

-ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيـق: أحمـد بكيـر محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بلاتا.

86- **القاضي النعمان،** أبو حنيفة بن حيون التميمي (ت363هـ/973م).

-المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقهي وآخرون، المطبعة الرسـتمية، تـونس 1978م.

87- **ابن قاضي شهبة**، تقي الدين بن أبو بكر أحمد (ت851هـ/1447م).
-طبقات الشافعية، ج2، تحقيق: عدنان درويش، ط1، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1977م.
-طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد عناص، طبع بالنجف الأشرف، 1974م.
-تاريخ ابن قاضي شهبة، ج3، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1977م.
88- **القزويني**، أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ/1283م).
-آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، لبنان 1984م.
89- **ابن قطان**، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحي الكتامي (ت628هـ/1230م).
-نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، جامعة محمد الخامس، المغرب، بلاتا.
90- **القفطي**، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت646هـ/1248م).
-أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الكتب المصرية، مصر 1955م.
-تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، مؤسسة الخانجي، مصر 1903م.
-أخبار العلماء بأخبار الحكماء، نشره: محمد الخانجي أمين، ط1، مطبعة السعادة، مصر، (1326هـ/1908م).
91- **القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/1418م).
-صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1963م.
92- **ابن القلانسي**، حمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلي التميمي (ت555هـ/1160م).
-ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان 108م.
93- **الكتبي**، محمد بن شاكر(ت764هـ/1363م).
-فوات الوفيات، ج1، ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951م.

94- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت774هـ/1372م).
-البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان 1990م.
95- ابن كردبوس (عاش في أواخر القرن 6هـ/12م).
-الإكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: مختار العبادي، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، إسبانيا 1971م.
96- الكندي المصري، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت350هـ/961م).
-ولاة مصر، تحقيق: حسين مؤنس، دار صادر، بيروت، لبنان 1959م.
-كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان 1908م.
97- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت433هـ/1061م).
-رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ووصافهم، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة 1951م.
98- مجهول (في العهد الموحدي).
-الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية، جامعة الإسكندرية.
99- ابن مخلوف التونسي المالكي، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم(1360هـ/1941م
-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1349هـ/1930م.
100- المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت380هـ/990م).
-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1987م.
101- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (845هـ/1441م).
-السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة 1934م.

-الخطط أو المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، 1967-1968م.
-إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957م.
102- **المقري التلمساني**، أحمد بن محمد (ت1041هـ/1631م).
-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان 1968م.
103- **المسبحي**، محمد بن عبيد الله بن أحمد (ت420هـ/1029م).
-أخبار مصر في سنتين (414-415هـ)، ترجمة وتحقيق: وليم ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1980م.
104- **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ/957م).
-التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، القاهرة 1938م.
105- **ابن مماتي**، أسعد بن المهذب بن أبي مليح (ت606هـ/1209م).
-قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، القاهرة 1943م.
106- **ابن منظور**(711هـ/1311م).
-لسان العرب، ج8، تحقيق: علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م.
107- **ابن ميسر**، محمد بن علي بن يوسف ابن جلب (ت677هـ/1278م).
-أخبار مصر، ج2، تحقيق: هنري ماسيه، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، 1919م.
108- **ناصر خسرو** (ت481هـ/1088م).
-سفر نامة، ترجمة: أحمد خالد البدلي، مطابع الملك سعود، الرياض، السعودية 1983م.
109- **النويري الإسكندري**، محمد بن قاسم(775هـ/1373م).
-الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، ج2، نسخة مصورة مخطوط الهند، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، رقم 377.

110- **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1333م).
-نهاية الرب في فنون الأدب، ج11-23، تحقيق: أحمد كمال زكي، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م.
111-**النعيمي**، عبد القادر محمد الدمشقي (ت927هـ/1521م).
-الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1990م.
112-**الهروي**، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت611هـ/1214م).
-الإشارات في معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق 1953م.
113- **ابن الوردي**، زين الدين عمر (ت745هـ/1344م).
-تتمة المختصر في أخبار البشر، ج2، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1970م.
114- **الوهراني**، محمد بن محمد(983هـ/1575م).
-منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نفشي، دار الكتاب العربي، القاهرة 1968م.
115- **اليافعي**، أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت768هـ/1386م).
-مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج4، ط2، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان 1970م.
116- **ياقوت الحموي**، شهاب الدين بن عبد الله (ت626هـ/1228م).
-معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان 1979م.
-معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1993م
117- **اليعقوبي**، أحمد بن واضح (ت284هـ/897م).
-البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988م.
118- **اليونيني**، قطب الدين موسى بن محمد (ت721هـ/1321م).
-ذيل مرآة الزمان، ج3، ط1، مطبعة حيدر أباد، الهند 1960م.

119- **اليوسفي**، موسى بن محمد بن يحي(ت 759هـ/1358م).
-نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، طبعة عالم الكتب، ط1، 1986م

2-المراجع:

1- **إبتسام مرعي خلف الله.**
-العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي (524-936هـ/1130-1529م)، دار المعارف، مصر، 1985/1405م.
2- **إبراهيم أيوب.**
-التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان 1989م.
3- **إبراهيم بيضون.**
-الدولة العربية في الأندلس، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1980م.
4- **إبراهيم محمد حسن الجمل.**
-أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قاهر الصليبيين في الغرب وموحد المغرب والأندلس، مطبوعات الشعب، القاهرة 1976م.
5- **أبو زهرة.**
-تاريخ المذاهب الإسلامية،ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1399هـ/1979م.
6- **إحسان عباس.**
-تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ط7، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1985م.
-أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، ط1، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان 1963م.
7- **أحمد إبراهيم الشريف.**
-العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة 1977م.
8- **أحمد إسماعيل علي.**
-تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ط3، دار دمشق، سوريا 1994م.

9- أحمد أمين.

-فجر الإسلام، ط11، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1975م.

-ظهر الإسلام، ج3، ط6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1982م.

-ضحى الإسلام، ج2، ط9، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة 1979م.

10- أحمد بدر.

-تاريخ المغرب والأندلس، دمشق، طبعة جديدة، 1981م.

-دراسات في تاريخ الأندلس، ج1، مطابع ألف باء الأديب، دمشق 1969م.

11- أحمد بدوي.

-الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة النهضة، مصر، بلاتا.

12- أحمد بهجت.

-بحار الصوفية، دار المعارف، القاهرة، بلاتا.

13- أحمد السعيد سليمان.

-تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ج1، منشورات دار المعارف، مصر 1972م.

14- أحمد شلبي.

-تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف، بيروت، لبنان 1954م.

15- أحمد صادق الجمال.

-الأدب العامي في مصر في عصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966م.

16- أحمد هيكل.

-الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، مصر 1982م.

17- أحمد مختار العبادي.

-بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ أحمد فكري سنة 1976م، تحت عنوان: دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي.

18- أسعد محمد طلس.

-مصر والشام في الغابر والحضار، دار المعارف، مصر 1945م.

19- أمينة بيطار.

-تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق 1982م.

-تاريخ العصر العباسي، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق 1981م.

20- التادلي، يوسف.

-التشوف إلى رجال التصوف، نشره: أدولف فور، الرباط 1958م.

21- توفيق عمر كمال.

-الجاليات الأوروبية في الإسكندرية في العصور الوسطى ضمن أبحاث(مجتمع الاسكندرية عبر العصور)،جامعة الاسكندرية 1975م.

22- جمال الدين سرور.

-تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ط3، دار الفكر العربي، 1973م.

23- جلال مظهر.

-أثر العرب في الحضارة الأوروبية، منشورات دار الرائد، بيروت 1967م.

24- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله.

-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، طبعة نيويورك، 1964م.

25- حسن إبراهيم حسن.

-التاريخ الإسلامي السياسي والديني والثقـافي والاجتمـاعي، ج4، ط3، دار الجيـل، بيروت، لبنان 1991م.

-تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958م.

26- حسن أحمد محمود.

-تاريخ المغرب والأندلس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1999م.

27- حسان حلاق.

-العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسـطى، الـدار الجامعيـة، بيروت، لبنان 1986م.

28- حسن الباشا.

-الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصـرية، القـاهرة 1957م.

29- **حسن الشمساني.**

-مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، بلاتا.

30- **الحسيني،** أبو المحاسن.

-ذيل تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلاتا.

31- **حسن محمود.**

-قيام دولة المرابطين، طبعة القاهرة 1957م.

32- **حسين ربيع.**

-وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، الكتاب الأول، مقال في موسوعة دراسات تاريخ الجزيرة العربية.

-مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج2، الرياض 1979م.

33- **حسين مؤنس.**

-تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر 1993م.

34- **الحفناوي،** محمد عبد الحميد.

-تعريف الخلف برجال السلف، ج2،مؤسسة الرسالة1985م.

35- **خليل داود الزرو.**

-الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان 1971م.

36- **أبو الخليل شوقي.**

-الحضارة الإسلامية، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1987م.

37- **الراشد،** عبد الجليل عبد الرضا.

-العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرن الثاني والثالث الهجري، مكتبة النهضة، الرياض 1969م.

38- **الربعي.**

-فضائل الشام ودمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، طبع بدمشق، 1950م.

39- **رجب محمد عبد الحليم.**
-العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية في عصر أمية وملوك الطوائف، دار الكتب الإسلامية، بيروت، لبنان، بلاتا.
40- **رشيد الجميلي.**
-دولة الأتابكة في الموصل، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1970م.
41- **الزاوي**، الشيخ الطاهر أحمد (ت1986م).
-ترتيب قاموس المحيط، ج4، مطبعة الإستقامة، القاهرة 1959م.
42- **الزركلي**، خير الدين.
-الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ج7، ط2، دمشق، 1974م.
43- **زكي مبارك.**
-التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج1، ط1، طبعة القاهرة، 1928م.
44- **زكي محمد حسن.**
-فنون الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1984م.
45- **زيتون**، محمد محمود.
-إقليم البحيرة صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح...، دار المعارف، القاهرة 1962م.
46- **زكي النقاش.**
-العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات الكتاب اللبناني، بيروت 1958م.
47- **سالم**، السيد عبد العزيز.
-تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1969م.
-تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1988م.
-دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1992م.
-بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1991م.

-التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1986م.
-تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1969م.
-طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي،الأسكندرية1967م.
-تاريخ مدينة الإسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي،الأسكندرية،1961م.
-تاريخ المغرب الأسلامي،كتاب الشعب ،عدد138-139،القاهرة1961م.
48- سعاد ماهر.
-محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي، 4، يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1966م.
49- سعد زغلول عبد الحميد.
-الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الوسطى الإسلامية، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1975م.
50- سعد عبد الفتاح عاشور.
-مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية،بيروت، بلاتا.
51- السلاوي، أبو العباس أحمد خالد الناصري.
-الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، المطبعة البهية، مصر 1995م.
52- السلمي.
-ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام، صححه ونشره: أحمد سامح الخالدي، القدس 1940م.
53- سيدة إسماعيل كاشف.
-صلاح الدين الأيوبي بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله، عالم الكتب، بيروت 1986م.
54- ابن شاهين، الظاهري.
-زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك،اعتنى بتصحيحه،بولس راويس،مطبعة الجمهورية،باريس1893م.
55- الشبيبي، محمد رضا.
-أدب المغاربة والأندلسيين، ط2، دار اقرأ، بيروت 1984م.

56- **الشيال**، جمال الدين.
-تراث الإنسانية، ج2، طبعة وزارة الثقافة، مصر، بلاتا.
-أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة 1965م.
57- **شكيب أرسلان.**
-الحلل السندوسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1988م.
58- **صلاح الدين المنجد.**
-المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في العصور الوسطى، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت 1963م.
59- **الطاهر أحمد المكي.**
-دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط2، دار المعارف، مصر، القاهرة 1983م.
60- **طه الوالي.**
-المسجد في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1988م.
61- **عباس العزاوي.**
-التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، بغداد 1957م.
62- **عبد الحكيم عبد الغني قاسم.**
-المذاهب الصوفية ومدارسها، ط2، مكتبة مدبولي 1999م، القاهرة.
63- **عبد الغني**، أحمد شلبي.
-أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزارة والباشات، تقديم: عبد الرحيم عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، 1978م.
64- **عبد الرحيم عبد الرحيم.**
-دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث، قسم الأول(العصر العثماني)،القسم الثاني(القرن التاسع عشر)،في المجلة التاريخية المغربية،الأعداد،10-12تونس 1978م.
65- **عبد الله خورشيد البري.**
-القرآن وعلومه في مصر، دار المعارف، مصر 1969م.

-القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة،دار الكتاب العربي ،القاهرة 1967م.

66- **عبد الله عبد الدائم.**

-التربية عبر التاريخ، ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1984م.

67- **عبد الله علي علام.**

-الدعوة الموحدية، ط1، دار المعرفة، القاهرة 1964م.

68- **العبادي**، مختار أحمد.

-تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، بلاتا.

-في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971م.

-التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، بلاتا.

-في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1992م.

-قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام،دار النهضة العربية،بيروت1969م.

69- **عبد الجليل حسن عبد المهدي.**

-الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن 1980م.

70- **عبد الحكيم عبد الغني قاسم.**

-المذاهب الصوفية ومدارسها.

71- **عبد العزيز فيلالي.**

-العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م.

72- **عبد الفتاح**، سعد عاشور.

-الحركة الصليبية، ج2، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1963م.

-عصر المماليك في مصر والشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1965م.

-الأيوبيون والمماليك في مصر والشام.

73- **عبد القادر الريحاني.**

-مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، سوريا 1969م، بدون دار النشر.

74- عبد القادر ماهر.

-التراث والحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

75- عبد اللطيف حمزة.

-الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، مصر 1947م.

76- عبد المنعم ماجد.

-تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1972م.

77- عبد الهادي التازي.

-أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة نضالة المحمدية، (1401هـ/1981م).

78- عدنان فائق عنيتاوي.

-حكايتنا في الأندلس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 1989م.

79- علي أحمد.

-الدور الفكري للأندلسيين في المشرق العربي، دار شمأل، دمشق 1995م.

-الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، طلاس، دمشق 1995م.

-تاريخ المغرب القديم والإسلامي، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (1427-1428هـ/2006-2007).

80- علي الوردي.

-منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، الشركة الوطنية التونسية للتوزيع، 1977م.

81- علي مبارك باشا.

-الخطط التوفيقية، ج(1،10)، ط2، مطبعة دار الكتب، وزارة الثقافة، مصر 1969م.

82- عز الدين أحمد موسى.

-النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط1، دار الشروق، بيروت 1983م.

-دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، دار الشروق، (1403هـ/1983م).

83- عمر فروخ.
-تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1986م.
84- عنان، محمد عبد الله.
-دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960م.
-عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ج(2،1)، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، بلاتا.
-نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1966م.
-دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، طبعة مصر، 1960م.
-دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر 1943م.
-الخلافة الأموية والدولة العامرية، ط3، مؤسسة سخانجي، القاهرة، مصر 1960م.
85- عنبتاوي، عدنان فائق.
-حكايتنا في الأندلس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 1989م.
86- الفاسي، تقي الدين.
-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج5، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة 1966م.
87- ابن فهد.
-لحظ الإلحاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
88- قاسم عبده قاسم.
-ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت 1990م.
89- كمال السيد أبو مصطفى.
-تاريخ الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية، مصر، بلاتا.

90- الكحلاوي، محمد الكحلاوي.

-آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، ط1، الدار المصـــرية اللبنانية، 1994م.

91- الكتاني، محمد جعفر بن إدريس (1345هـ/1927م).

-سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفـــاس، ج3، طبعـــة حجرية بفاس، 1316هـ./1898م.

92- لطفي عبد البديع.

-الإسلام في إسبانيا، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر 1958م.

93- محمد أسعد طلسي.

-التربية والتعليم في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

94- محمد حمودة.

-تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط1، دار الكتاب العربـــي، مصـــر 1958م.

95- محمد جابر الأنصاري.

-التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيـــروت، لبنـــان 1992م.

96- محمد الخضري بك.

-الدولة العباسية، تحقيق: أحمد حطيط، ط1، دار الفكـــر اللبنـــاني، بيـــروت، لبنـــان 1994م.

-تاريخ الأمم الإسلامية والدولة الأموية، تحقيق: أحمد حطـــيط، ج2، ط1، دار الفكـــر اللبناني، بيروت 1994م.

97- محمد رمزي.

-القاموس الجغرافي، ج2، طبعة القاهرة، 1958م.

98- محمد عابد الجابري.

-التراث والحداثة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 1991م.

99- محمد عيسى الحريري.
-تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني، ط1، دار القلم، الكويت (1408هـ/1985م).
100- محمد صالح الجون.
-أثر الأندلسيين في الأدب المغربي، أطروحة دكتوراه دولة تحت إشراف: د/محمود البدوي، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، 1987م.
102- محمد طه الحاجري.
-ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة، دار النهضة العربية، بيروت 1980م.
103- محمد بن عبد الله عنان.
-ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ط2، طبعة مصر، بلاتا.
104- محمد كامل حسين.
-في أدب مصر الفاطمية، ط2، سلسلة ألف كتاب، عدد 455، دار الفكر العربي، القاهرة 1963م.
105- محمد كرد علي.
-خطط الشام، ج4، مطبعة الرقي، دمشق 1926م.
106- محمد لبيب البتوني.
-رحلة الأندلس، ط1، مطبعة الكشكول، 1927م.
107- محمد مصطفى الماحي، ومحمد عبد المنعم خفاجي.
-شعراء مصر من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الفاطمية، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م.
108- محمد منير مرسي.
-التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، القاهرة 1983م.
109- محمود رزق سليم.
-عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج1، مكتبة الآداب، مصر 1947م.
110- محمود السيد.
-تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1997م.

111- مصطفى الرافعي.

-حضارة العرب، ط4، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان 1988م.

112- مفتاح محمد دياب.

-مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا 1993م.

113- موسى لقبال.

-كتابة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979م.

114- نبيل خالد الأغا.

-مدائن فلسطين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن 1993م.

115- نعيم زكي فهمي.

-طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، المكتبة العربية، القاهرة 1976م.

116- نقولا زيادة.

-دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان 1966م.

-الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1987م.

-دراسات إسلامية، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1960م.

117- نويهض عادل.

-معجم أعلام الجزائر، ط1، طبعة بيروت، لبنان 1971م.

118- وليم الخازن.

-الحضارة العباسية، ط2، دار المشرق، بيروت، لبنان 1992م.

3- المراجع المترجمة

1- إدوارد بروي.

-تاريخ الحضارات العام، ج3، ترجمة: يوسف أسعد داغر، ط13، منشورات عويدات، بيروت، لبنان 1994م.

2- أرشيبالد لويس.

-القوة البحرية والتجارية في حوض المتوسط، تحقيق: أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر 1960م.

3- أرنولد نيكلسون.

-التصوف الإسلامي، ترجمة: أبو العلاء عفيفي، طبعة القاهرة، بلاتا.

4- آسين بالأثيوس.

-ابن عربي، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، طبعة القاهرة، 1965م.

5- بار تولد فلاديمرويج.

-الحضارة الإسلامية، حمزة الطاهر، دار المعارف، مصر 1966م.

6- أندري ميكل.

-الإسلام وحضارته، ترجمة: زينب عبد العزيز، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، بلاتا.

7- بلانثيا، أنخل جنثالث.

-تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، ط1، مكتبة النهضة، القاهرة 1955م.

8- بول كاله.

-صورة عن وقعة الإسكندرية من مخطوطة الإلمام للنويري، ترجمة: درويش النخيلي، وأحمد قدري، مجلة جمعية الآثار الإسكندرية، العدد3، السنة 1969م.

Atiya Surial, crusades in the later, middle ages.

9- جواتياين.

-دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، ترجمة: عطية القوصي، ط1، وكالة المطبوعات، الكويت 1980م.

10- جومان.

-العرب والعربان في مصر الوسطى، المجلد 2، الترجمة، وصف مصر.

-العرب في ريف مصر وصحراواتها، ترجمة: الشايب زهير، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1980م.

11- روجي لي تورنو.

-حركة الموحدين في المغرب في القرنين (6-7هـ/12-13م)، ترجمة: أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1982م.

12- روبار برنشفيك.

-تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 7 إلى نهاية القرن 9الهجري (13-15م)، ترجمة: حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بلاتا.

13- سيد أمير علي.

-مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1990م.

14- غوستاف لبون.

-حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط3، القاهرة، مصر 1956م.

15- كلود كاهن.

-الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، ط1، سنيا للنشر، القاهرة 1995م.

16- ليفي بروفنسال.

-الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1990م.

-الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، دار الطباعة المغربية، تطوان-المغرب، 1951م.

17- فليب حتي.

-تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: اليازجي، ج2، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1983م.

-تاريخ العرب، ترجمة: جبرائيل جبور، ج1، ط3، دار الكشاف، بيروت، لبنان.

4-الرسائل الجامعية:

1 إسماعيل سامعي.

-دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي،رسالة ماجستير، المشرف: د/موسى لقبال، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية 1995/1994م.

2- حسن علي حسن.

-الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين (5-6هـ)، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم ،مصر، 1973م.

3- صالح مصطفى مفتاح.

-برقة وطرابلس منذ الفتح العربي حتى إنتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر،رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر 1976م .

4- عبده إسماعيل.

-اللغة العربية في مصر من الفتح العربي حتى أواخر القرن السادس الهجري،رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، بلاتا.

5- علي محمد عمر.

-دولة الظاهر برقوق وأسرته في مصر، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، 1977م.

6- منى إبراهيم عبد الرحمان.

-السفارات الأجنبية في مصر على عهد سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة (1395هـ/1975م).

7- مجاهد توفيق الجندي.

-نظام الدراسة قديما وحديثا بالجامع الأزهر، دراسة بالوثائق، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر.بلاتا.

8- نجاح صلاح الدين القاسمي.

-رحلة ابن رشد السبتي الفهري، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة 1978م.

9- حورية عبده عبد الحميد سلام.

-علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح العربي حتى قيام الدولـــة الفاطميـــة، رســـالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة 1974م.

10- الحناوي، محمد عبد الحميد.

-دور عرب المغاربة في الإسكندرية والبحيرة، رسالة ماجستير، قسم التـــاريخ، كليـــة الآداب، جامعة الإسكندرية.

11- مبارك لمين.

-الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق خلال القـــرن الخـــامس الهجـــري، أطروحـــة الدكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملـــك الســـعدي، تطوان، سنة (1421-1422هـ/2000-2001م).

12- إنجاز مجموعة من الطلبة.

-المجاورون الأندلسيون للحرم، إشراف: مبارك لمين، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر أكادير، الموسم الجامعي (2004-2005م).

13- أحمد عبد اللطيف حنفي محمد.

-الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي (21-567هـ/ 642-1171م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة طنطا، تحت إشراف: د/محمد أحمد عبد المولى.

5- الرحلات

1 -**ابن بطوطة**، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي.

-تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت 1964م.

2- **ابن جبير**، أبو الحسن بن أحمد الكناني الأندلسي.

-رحلة ابن جبير، طبعة بيروت 1968م.

3- **السبتي**، القاسم بن يوسف التجيي.

-مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس 1975م.

4- ابن رشيد السبتي، محمد بن عمر.

- ملء الغيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة، تحقيق: نجاح صلاح الدين القابسي، كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة 1978م.

5- العبدري، محمد البلنسي.

-الرحلة المغربية، تحقيق: أحمد بن حدو، نشر كلية الآداب، جامعة الجزائر، مطبعة قسنطينة، بلاتا.

6- الدوريات

1- إبراهيم حركات.

-سياسة المغرب الخارجية في عهد بني مرين، مجلة دعوة الحق، العدد 7، السنة 7،المغرب، عام (1383هـ/1964م).

2- إبراهيم زعرور.

-القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 53-54، السنة 16، سنة 1995م.

3- إبراهيم بن مراد.

-من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، مجلة التراث العربي، العدد 19، السنة الخامسة، سنة (1405هـ/1985م).

4- إبراهيم العدوي.

-تبادل الأساتذة بين الجزائر ومصر في القرن 15م، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد 2، السنة 1970م.

5- أحمد بدر.

-المجتمع الأندلسي والمجتمع الإسباني، مجلة دراسات تاريخية، العدد 15-16،جامعة دمشق، السنة 1984م.

-هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد 8، السنة 1982م، دمشق.

-الأندلسيون والمغاربة في القدس، مجلة أوراق، العــدد 4، الســنة 1981م، المعهــد الإسباني العربي للثقافة.
6- أحمد حطيط.
-مكانة المغاربة الاجتماعية بدمشق في زمن الحروب الصليبية، مجلة التاريخ العربي، العدد 25، المغرب، سنة (1424هـ/2003م).
7- أحمد سليم سعيدان.
-في تاريخ العلوم في العصر الأموي، مجلة الدراسات التاريخية، العــدد 3، جامعــة دمشق،السنة 1980م.
8- أحمد بن عبود.
-معركة الزلاقة والواقع الأندلسي، مجلة البحث العلمي، العــدد 33، جامعــة محمــد الخامس، الرباط، السنة 1982م.
-التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا، مجلة البحث العلمي، العدد 34،المغرب، السنة 1984م.
9- أحمد مختار العبادي.
-التأثير المتبادل بين الإسكندرية والمغرب، مجلة الفيصل، المملكة العربية الســعودية، العدد 288، السنة (1421هـ/2000م).
10- إكتمال رجب.
-مكانة ابن السويدي بين أساتذة الطب الدمشقيين، مجلة التراث العربي، العــدد 110، السنة الثامنة والعشرون، دمشق، سنة (1429هـ/2008م).
11- البابا، محمد زهير.
-المدرسة الطبية الدمشقية في ظل البيمارستان النوري، مجلة المناضل، العــدد 126، دمشق، عام 1971م.
12- ابن تاويت الطنجي.
-من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوان، العدد 10، الرباط ، السنة 1965م.
13- جمال الدين الشيال.
-أبو العباس المرسي الفقيه الصوفي خليفة الصوفي أبو الحسن الشاذلي، مجلة التاريخ العربي، العدد 75، المغرب ،السنة 1965م.

-الصلات الثقافية بين المغرب والإسكندرية في العصر الإسلامي، مجلة دعوة الحـــق، العدد 33، المغرب، سنة 1960م.
-وورد كذلك في مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 15، سنة 1961م.

14- خالد إسماعيل نايف الحمداني.

-العلاقة بين أموي الأندلس والخلافة العباسية، مجلة التـــاريخ العربـــي، العـــدد 18، المغرب، السنة .2001

15- رشيد عبد الله الجميلي.

-العلاقات السياسية بين الأيوبيين والموحدين في المغرب الأقصـــى، مجلـــة المـــؤرخ العربي، العدد 35، السنة 14، اتحاد المؤرخين العرب ،بغداد، سنة 1988م.

16- سالم، السيد عبد العزيز.

-سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس، مجلـــة المـــؤرخ العربي، العدد2، بغداد، السنة 1975م.
-سياسة صلاح الدين الدفاعية عن مصر في البر والبحر ضد قوى الصليبيين، مجلـــة التراث العربي، العدد 25-26، السنة 7، دمشق، عام (1986-1987م).

17- سعد زغلول عبد الحميد.

-العلاقات بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 26، السنة 1952م.
-الأثر المغربي والأندلسي في المجتمـــع الســـكندري، مجلـــة كليـــة الآداب، جامعـــة الإسكندرية، السنة 1975م.

18- سليم زيدان.

-تطور الحساسية الأندلسية وأثرها في العلاقات الأدبية بين الأندلس والمشرق في عهد المرابطين من خلال كتاب **أحكام صنعة الكلام** للكلاعـــي، مجلـــة حوليـــات الجامعـــة التونسية، العدد 20، كلية الآداب والعلوم الانسانية،تونس، السنة 1981م.

19- سيدة كاشف.

-دراسات في النقود الإسلامية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 12، مصر، السنة (1964-1965م).

20- صالح محمد فياض أبو دياك.

-العلاقات الثقافية بين المغرب والأندلس، مجلة المؤرخ العربي، العدد 33، بغداد، السنة 1987م.

21- عائشة عبد الرحمان.

-التواصل بين المغرب ومصر، مجلة دعوة الحق، العدد 25، المغرب، السنة 1986م.

22- ابن عبد الله، عبد العزيز.

-البحرية المغربية والقرصنة، مجلة تطوان، العددان 3-4 المغرب، لسنتي (1958-1959م).

23- عبد الحميد حاجيات.

-الحياة الفكرية بتلمسان في عصر بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26، الجزائر، السنة 1975م.

24- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم.

-المجلة التاريخية المغربية، العددان 15-16، تونس ،السنة 178م.

25- عبد العزيز الأهواني.

-سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد 16، ج1، القاهرة، سنة 1954م.

26- عبد المجيد بهيني.

-المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين، مجلة التاريخ العربي، العدد 15،المغرب، سنة .2000

27- عبد العزيز الضعيفي.

-علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الإستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني، مجلة التاريخ العربي، العدد 29، المغرب، سنة 2004م.

28- عبد العزيز فيلالي.

-العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب الإسلامي، مجلة الثقافة، العدد 56، السنة 1980م، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر.

-جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سرتا، العدد 10، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، معهد التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، السنة1408-هـ/1988م.

29- عبد العزيز بن عبد الله.

-ريادة فكرية بين مصر والمغرب، مجلة التاريخ العربي، العدد 15، المغرب، السنة (1421هـ/2000م).

30- عبد الكريم كريم.

-رضيت أن أفتح القدس وأعمى، مجلة التاريخ العربي، العدد1، المغرب، سنة 1996م.

30- عبد الهادي التازي.

-رسالة المنصور الذهبي لأحد أقطاب الشرق، مجلة دعوة الحق، العددان 98-99، المغرب، السنة 1967م.

-عرض كتاب التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 39، السنة 14،المغرب، عام 1990م.

-حي المغاربة بالقدس، مجلة المنهل، جدة، المملكة العربية السعودية، العدد 1، السنة 38، المغرب، عام (1392هـ/1972).

31- علي أحمد.

-التبادل الفكري بين المغرب والمشرق (العاملون في ميدان الإقتصاد والخدمة في المشرق العربي من الأندلسيين والمغاربة منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، مجلة التراث العربي، العدد 41، السنة 11،دمشق ، سنة (1411هـ/1990م).

-رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مجلة دراسات تاريخية، العددان 27-28، السنة الثانية، دمشق، عام 1987م.

-مساهمات الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية في مصر والشام، مجلة التراث العربي، العدد 67، السنة 17،دمشق، عام 1997م.

-بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن 6هـ حتى نهاية القرن 9هـ، مجلة التاريخ العربي، العدد 15،المغرب، السنة (1421هـ/2000م).

32- علي القاسمي.

-بين يوسف بن تاشفين وصلاح الدين الأيوبي، مجلة التاريخ العربي، العدد 17،المغرب، سنة .2001

33- عمر عبد السلام تدمري.

-المغاربة في ساحل الشام تاريخهم السياسي والحضاري في العصر الفاطمي، مجلة التاريخ العربي، العدد 2،المغرب، سنة 1997م.

34- ابن غالب الأندلسي.

-فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 1، ج2،مصر، سنة 1955م.

35- فاضل السباعي.

-الصيدلاني الأندلسي أبو العباس النباتي (ابن الرومية)، مجلة التراث العربي، العدد 30، السنة الثامنة، دمشق، سنة (1408هـ/1988م).

36- فاطمة بلهواري.

-الشام في رحلة ابن جبير الكناني، مجلة التراث العربي، العدد 109، السنة الثامنة والعشرون، دمشق، سنة (1429هـ/2008م).

37- لوسيا لوكير.

- Etude historique et philololgique sur Ibn Bettar

المجلة الأسيوية الصادرة بالفرنسية، سنة 1826م، مصر.

- Bulletin de l'institut, les plantes égyptiennes.

مجلة المعهد المصري الصادرة بالفرنسية، ج2، العدد 10، مصر، سنة 1889م.

38- ليلى الصباغ.

-الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد7-8، تونس، سنة 1977م.

39- محمد أمين الميداني.

-ابن البيطار، مجلة التراث العربي، العددان 25-26، السنة 7، دمشق، عام (1986-1987م).

40- محمد بوعياد.

-رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع الهجري (15م)، مجلة الأصالة، العدد 24، السنة 4، الجزائر، عام (1395هـ/1975م).

41- محمد جابر الأنصاري.

-ابن خلدون وسيطا بين العروبيين والإسلاميين، مجلة العربي، العدد 292،الكويت، سنة (1403هـ/1983م).

42- محمد عبد الله عنان.

-كتب تأثرت بمقدمة ابن خلدون، مجلة العربي، العدد 182، الكويت، سنة 1974م.

43- محمد الفاسي.

-نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الأدبية، مجلة البينة، العدد 8، السنة الأولى، المغرب، عام (1382هـ/1962م.

44- محمود علي مكي.

-وثائق تاريخية عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، العدد 7-8، السنة (1959-1960م)، مدريد، إسبانيا.

-التأثيرات المشرقية في الأندلس ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 9-10، اسباني، مدريد، السنة (1961-1962م).

45- محمد العناني زكريا.

-الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 31، الكويت، سنة 1980م.

46- محمد علي مكي.

-الرحلات بين المشرق والأندلس، مجلة البينة، العدد 2، السنة الأولى،المغرب، عام 1962م.

47- محمد محمود زيتون.

-أعلام قسنطينة وعلاقاتهم الثقافية بالقاهرة والإسكندرية، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والأعلام، الجزائر، العدد 18، السنة 3، عام (1393هـ/1973م).

48- محمد المنوني.

-علاقات المغرب بالمشرق أيام السلطان أبي الحسن المريني، مجلة تطوان، العــدد 1، المغرب، السنة 1956م.

-ربط الصلات الثقافية بين المغرب وجهات من العالم الإسلامي، مجلة دعوة الحق، العدد 251،المغرب، السنة 1985م.

49- محمد مصطفى نجيب.

-ناصر خسرو، موسوعة القاهرة للدكتور حسن الباشا وآخرون، مصر، سنة 1970م.

50- محمد زنيبر.

-ظاهرة التواكب بين تاريخ المشرق والمغرب العربيين، مجلة المؤرخ العربي، العدد 6، بغداد، السنة .1953

51- ابن مراد إبراهيم.

-من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، مجلة التراث العربي، العدد 19، دمشق، سنة 1985م.

52- منير نصيف.

-طنطا مدينة العلم والصناعة والسيد البدوي، مجلة العربي، العدد 150، الكويت، سنة 1971م.

53- هيام أحمد حسن.

-سور القدس وأبوابه، مجلة المنهل، العدد 508، المملكة العربية السعودية، السنة (1414هـ/1993م).

7- المراجع الأجنبية

1- **Abaoui Abdallah**.
- l'histoire du magreb un essai de synthèse, 1970.

2- **Alfred Bel**.
- les banou chanya, paris 1909.

3- **Basset René**.
- les nom berbères des plantes dans le traité des simples d'lbn el Bettar, Giornal della societa asiatica italiana, volume doclicesiom 1899.

4- **Brunschving Robert**.
- la berberie orientale sous les hafsides, paris 1940-1947.

5- **Bulletin** de l'institut égyptienne, les plantes égyptiennes d'ibn beither, Sickenberger Ernest, deuxième série n°10, année 1889, deuxième partie.

6- **Cahen** (cl).
- le commerce dans le monde musulman a sompagee, un. EF, FG, EL, année 1966-1974.

- Ibn Jobayr et les Maghrébins de Syrie, R,O,M,M ,N°13-14, 1973.
7- **Cherbonneau** (A).
- les écrivains de l'Algérie au moyen age, in R.A 14, 1870.
8- Cambridge Medieval History, tome II, Medieval Trade In The Mediterranean World, Columbia 1961.
9- **Canard** (M).
- Les relations entre les mernides et les mameloukes au XIVe siècle, Annales de l'institut d'études orientales d'Alger, 1938-1941, vol V.
10- **E.J.Brill Leyde** G P.
- Maisonneuve et larose S.A, paris 1971.
11- Encyclopedia of Islam, vol 3, edition: London 1986, vol 13, edition London 1971.
12- **Gantier** (E,F).
- le passé de l'Afrique du nord, 1964.
13- **Goitein** (S.D).
- From the mediterranean to India, documents on tge trade to India, south arabia and east Africa from the eleventh and twelfith centuries, in speculum (a journal of medieval studies), v 29, april 1954, n°2, part 1.
- The cairo Geneza as a source ior the history of musulim civilization, in studia islamica, v III, 1955.
- New lights on the beginning of the Karim Merchants, in jras (journal of the royal asisatic society), I, II, 1958.
- Letters and documents on the India trade in medieval times, in Islamic cultural, V XXXVII, n°3, july 1963.
- Studies in islamic history and institutions, paris 1964.
- Bankers account from the eleventh century A.D, in jesho, v IX, part I,II, November 1966.
- A mediterranean society of the high middle ages, v 1, economic foundations, Berkeley and Los-Angeles, 1967.
14- **Heyed** (W).
- histoire du commerce des levant au moyen age, paris 1885.
15- **Julien** (C.A).
- histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe a 1930, paris 1952.
16- **Kammerer A.albert**
- le régime et la situation des étrangers en Égypte, tome 15.
17- **Lane-pool Stanley**.
- Catalogue of the collections of Arabic coins preserved in the khedivial library at Cairo, London 1897.
18- **Léon L'Africain**.
- Description de l'Afrique Adrien Maisonneuve, paris 1956.
19- **Leclerc Lucien.**
- Etude historique et philologiques sur Ibn Bettar", journal Asiatique, juin 1826.
- Histoire de la médecine arabe, éditions Brut Franklin, N.Y, 1876, tome 2.

20-Lopez Robert S.
- Medieval Trade In The Mediterranean World, Columbia 1961.
21-Makki (M.A).
- Ensayo sobre las aportaciones orientales en la espanâ musulmana, ysu influencia en la formacion de la cultura hispana-Ârabe, Revista del instituo islamicos en Madrid, tom IX-X, 1961-1962.
22-Marçais Georges.
- la berberie musulmane et l'orienten moyen age, paris 1946.
- les arabes en berbéris du Xie au XIVe siècles, paris 1913.
23-Massignon (L).
- le Maroc dans les premières années du XVI siècles, Alger 1906.
24-Mayny's Raymond.
- Tableau Géographique De L'Ouest Africain Au Moyen Age, paris 1961.
25- Oliver Roland & Fage (J.D).
- A Short History Of Africa, London 1970.
26-Provençal Lévi.
- Histoire de l'éspagne musulmane, tome 1, paris 1944.
- in journal Asiatique, 1923.
27-Paiak (A.N).
- les révoltes populaires en Égypte a l'époque de mamelouke et leurs causes économique, R.E.I, tome 3, paris 1934.
28-Peyrouton Marcel.
- histoire générale au Maghreb, paris 1966.
29-Piloti (E).
- l'Égypte au commencement Xve siècle, cairo univ fiud 1950.
30-Pirenne (H).
- les villes au moyen age essai d'histoire économique et sociale, Bruxelles 1937.
31-Rabinowitz (L.I).
- Jewish Marchant Adventures, London 1948.
32-Recueil des historiens des croisades (Historiens orientaux), tome 1, paris 1869.
33-Salem Abdel Aziz.
- De nuevo sobre la influencia de al Andalus en el arte musulman de égypto, cuadernos de la al hambra, 15-17, 1979-81.
34-Seligman (C.G).
- Races Of Africa, London 1966.
35-Strauss (E).
- Prix Et Salaires à l'époque Mamlouke, étude sur l'état économique de l'Egypte et de la Syria à la fin du moyen age, paris 1949.
36-Terrasse (H).
- histoire du Maroc, Casablanca 1949.
37-Tourneau (R.Le).
- L'Occident Musulman du VII à la fin du XVes, Algérie 1958.

38-Wiet Gaston.
- Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (l'Egypte Arabe), paris 1926.

39- Louis Pauzet.
- maghrébines damas aux XIII siècle, discutes orientales, tome XXVIII fime, 1975.

40- R.Blachere.
- vizir poète ibn ezamruk et son œuvre, annales de l'institut d'étude orientales d'Alger, vol 2, 1936, and E.Garcia Gomez, ibn zamrak, el pozta de la Alhambra (Madrid 1943), see also A.R NYKL hispano-arabic poetry (Baltimore, 1943).

41- J.H Sanders.
- Tamer lane or timur the great amir (London, 1936).

42- Tyan Emile.
- Quatremére, Maqrizi-Suluk, vol I, vol II, Pt 2, ff, R.Dozy, Dictionnaire des noms des vetements chez les arabes (Amsterdam, 1845).
- Histoire de l’Organisation Judiciare en pays d’Islam (Lyon,vol I, 1938, vol II, 1943).
- Gaudefroy-Demombynes (in Revue des Etudes Islamiques,1937,and J.Schacht (in Orientalia,Rome 1948, vol XVII, Also Annemarie Schim mel, (Kalif under Kadi In Spaetmittelalterlichen a Egyptian) .In Die Welt des islams, BD, 24, (Berlin,1942).

44- on this event see the present writer’s study «inb khaldun and tamerlane» in the I.Goldziher Memorial Volume (Budapest 1951, ptII).

45-Gaspar Remiro.
- Correspendencia diplomatica entre Grande y Fez enel. Siglo XIV

46- J.Zurita.
- Los anales de la corona de Aragon, vol II.

47- Jamard.
- Observation sur les arabes de l'égyptienne in des cryptions de l'Égypte, 1ere édition, état moderne, tome 1 paris 1809

48- Spencer trimingham the sufi orders in Islam oxford university, Ed 1973.

Shafii Farid.
- An early Fatimid mihrab in the mosque of Ibn Tulun, Bulletin of the faculty of arts, (cairo univ), may 1953, vol XV, part I.

Brendel (F), la méditerrané et le monde méditerrané à l'époque de Philippe II, paris 1949, p102.